إنه سبحانه حكم فيما يملك ولا أحد يستطيع أن يخرج من ملكه ، ومادام لله ملك السماوات والأرض ، فحين يقول : « فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم » فهذا الوعيد سيتحقق ؛ لأن أحداً لا يفلت منه ، ولذلك يقول أهل الكشف وأهل اللماحية وأهل الفيض : اجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه ، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه .

إذن فـ « ولله ملك السماوات والأرض » تدل على أن الله حين يوعد فهو ـ سبحانه ـ قادر على إنفاذ ما أوعد به ، ولن يفلت أحد منه أبدا . وهذه تؤكد المعنى . فإذا ما سُرَّ أعداء الدين في فورة توهم الفوز ، فالمؤمن يغطن إلى النهاية وماذا ستكون ؟ ولذلك تجد أن الحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾

(سورة المسد)

وهذه السورة قد نزلت في عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانت هذه السورة دليلاً من أدلة الإيمان بصدق الرسول في البلاغ عن الله ، لأن أبا لهب كان كافراً ، وكان هناك كفرة كثيرون سواه ، ألم يكن عمر بن الخطاب منهم ؟ ألم يكن خالد بن الوليد منهم ؟ ألم يكن عكرمة بن أبي جهل منهم ؟ ألم يكن صفوان منهم ؟ كل هؤلاء كانوا كفاراً وآمنوا ، فمن الذي كان يدري محمداً صلى الله عليه وسلم أنه بعد أن يقول : « تبت يدا أبي لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، في جيدها حبل من مسد » من كان يدري محمداً بعد أن يقول هذا ويكون قرآناً يُتلى ويحفظه الكثير من المؤمنين ، وبعد ذلك كله من كان يدريه أن أبا لهب لن يأتي ويقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقد يضيف : إن كان محمد يقول: إني سأصلى ناراً ذات لهب فهأنذا قد آمنت ، من كان يدريه أنه لن يفعل ، مثلما فعل ابن الخطاب ، وكما فعل عمرو بن العاص . إن الذي أخبر محمداً يعلم أن أبا لهب لن يختار الإيمان أبداً ، فيسجلها القرآن على

نفسه ، وبعد ذلك يموت أبو لهب كافرا .

وكأن الله يريد أن يؤكد هذا فيوضح لك : إياك أن تظن أن ذلك الوعيد يتخلف ؛ لأني أنا « أحد صمد » ، ولا أحد يعارضني في هذا الحكم ؛ لذلك يقول في سورة الإخلاص : « قل هو الله أحد الله الصمد » .

فمادام « هو الله أحد » فيكون ما قاله أولاً لن ينقضه إله آخر ، وستظل قولته دائمة أبداً . إذن فقول الحق سبحانه وتعالى بعد قوله : « فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم » ، « ولله ملك السماوات والأرض » يوضح لنا أنه قد ضم هذا الوعيد إلى تلك الحقيقة الإيمانية الجديدة : « ولله ملك السماوات والأرض » وجاء بالقوسين ؛ لأن السماء تُظِل ، والأرض تُقِل ، فكل منا محصور بين مملوكين لله ، ومادام كل منا محصوراً بين مملوكين لله ، فأين تذهبون ؟ « ولله ملك السماوات والأرض » وقد يكون هناك الملِك الذي لا قدرة له أن يحكم ، فيوضح سبحانه : لا ، إن لله المُلْك وله القدرة .

« والله على كل شيء قدير » ثم يأتي بعد ذلك إلى تصور إيماني آخر ليحققه في النفوس بعد المقدمات التي أثبتت صدق الله فيما قال بواقع الحياة :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ
اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ ﴾

سبحانه يريد أن يبني التصور الإيماني على جذور ثابتة في النفس البشرية ؛ لأن الإنسان الذي يفاجأ بهذا الكون ، وفيه سماء بهذا الشكل : بلا عمد ، وتحتها الكواكب ، وأرض مستقرة ، بالله ألا يفكر فيمن صنع هذا ؟ والله لو أن واحدا

استيقظ من نومه ووجد سرادقا قد نصب فى الميدان ليلا لوقف ليسأل : ما الحكاية ؟ فيا بالنا بواحد فتح عينيه فوجد هذا الكون المنتظم الذى يعطيه أسباب الحياة ؟

ولذلك يجىء فى سورة أخرى ليشرح هذه القضية شرحا يجلى لنا قضية الإيمان بالفكر الإنسانى ، فلا ننتظر الواعظ فقط الذى يأتينا بالرسالة والنبوة ليدل على المنهج المراد لمن خلق ، بل يحتم علينا أن ننتبه بالفطرة إلى من خلق ، لأننا قلنا من قبل : لو أن إنساناً وقعت به طائرة فى صحراء ، ولم يجد فيها ماء ولا شجراً ولا أناسا ولأنه مجهد غلبه النوم ، فاستيقظ فوجد مائدة عليها أطايب الطعام ، يالله قبل أن يمد يده لينتفع بها ، ألا يجول فكره ليعلم صنع هذه ؟ إن دهشته من الحدث تجعله يفكر فيمن جاء بها قبلها يذوق الطعام ، رغم أنه جوعان ، فكذلك الناس الذين فتحوا عيونهم فوجدوا هذا الكون العجيب ، وبعد ذلك لم يدّع أحد منهم أنه خلقه ، ولو كان أحد قد ادعى أنه خلقه . . لكانت المسألة تسهل ، لكن أحدا لم يدع صنعه . هذا الكون الذى نراه جميعا بانتظامه الرائع ، وقوانينه الثابتة . هل قال أحد : إننى صنعته ؟ لا ، إذن فالذى قال : إننى صنعته تُسلم له الدعوة ، حتى يأتى واحد آخر يقول : أنا الذى صنعته . لم يحدث هذا قط برغم وجود الملاحدة والمفترين على الله ، ولذلك جاء قوله تعالى :

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة النمل)

كان الحق يقول : إن لم أكن أنا الذى خلقت فمن الذى خلق إذن ؟ ولم يجرؤ أحد على أن ينسب الكون لنفسه ؛ لأن الكفار والملاحدة لا يستطيعون خلق شيء تافه من عدم . ومثال ذلك كوب الماء الذى تركه الله ولم يخلقه على الصورة التى هو عليها ، كى يصنعوه ليفهموا أن كل شيء تم بخلقه ـ سبحانه ـ كوب الماء هذا شيء تافه أترف الحياة ، وقبل أن تتم صناعة الكوب كنا نشرب ولم نكن هناك شجر يطرح وينمو الكوباً بل صنعه إنسان أراد أن يترف الحياة . فإذا كان هذا الشيء الصغير له صانع جاء فى نواحى علوم شتى وفى المادة ، ثم نظر إلى الأرض حتى وجد المادة التى عندما تصهر تعطى هذه الشفافية واللمعان ، فجرب فى عناصر الأرض فلم يجد إلا الرمل[1] .

(١) قيل إن رمل سيناء من أفضل المواد لهذه الصناعة .

واكتشف هذه المادة ومزجها بمواد أخرى لصهرها وإذابتها واحتاجت صناعة الكوب إلى معامل وعلماء ، كل هذا من أجل الكوب الصغير الذى قد تستغنى عنه ، انظر ما يحتاجه لصنعه ؟ احتاج طاقات جالت فى جميع مواد الأرض ، وإمكانات صناعية وأناساً يضعون معادلات كيماوية ، فما بالنا بالأشياء الأصلية وكم نحتاج ؟

إن كل صنعة تحتاج على قدرها ، ولم يقل أحد : إننى صنعتها ، فيقول الحق : من الذى صنع كل هذا ؟ وساعة يطرح سؤالاً فهو لا يريد أن يجعل القضية إخبارية منه ، وهو القادر أن يقول : أنا الذى خلق السماء والأرض ؟ فماذا يفعل المسئول ؟ إنه يتخبط فى إجابته ثم فى النهاية لا يجد إلا الله .

وكأن السائل لا يطرح هذا السؤل إلا إذا وثق أن الإجابة لا تكون إلا على وفق ما يريد « أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به » وجاء هنا بالحاجة المباشرة . . « فأنبتنا به حدائق ذات بهجة » أى أنها تسرّ النظر بما فيها من خضرة ، ونضارة ، وطراوة ، وظل ، وأزهار ، وثمار ، ولم يختصر الأمر فيقول : « لتأكلوا منها » لأن الذى يأكل هو الذى يملك فقط ، لكن جمال المنظر لا يحجزه أحد عن كل من يرى ، ويستمتع بما يراه . وكل منا عندما يرى بستاناً جميلاً يسره منظره ، صحيح أنك لا تمد يدك لتأكل منه لأنه ليس ملكك ، لكن هل يمنعك أحد أن تمتع به نظرك . وأن تمتع أنفك برائحته الجميلة ؟ لا .

وهكذا جاء الحق بالنعمة الشائعة لمن يملك ولمن لا يملك فقال : « ذات بهجة » ونعرف أن الحق سبحانه وتعالى حين يمتن بالأشياء يوضح لك : إياك أن تفهم أن الغرض من هذه المسألة أن تأكلها لتملأ بها بطنك فقط ؛ لأن هناك أشياء جميلة لا ننتفع بها أكلاً ، فهناك ألوان من الشجر ليس له ثمرة لكن لابد أن له عملاً ؛ فورقه الجميل قد يفيد فى الظل وما يشيعه من رائحة تعطر الجو ، وبه خشب نحتاج إليه ، وبجانب هذا نجد أشجاراً لها ثمار جميلة ننتفع بها .

ولذلك يقول الحق :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا

﴿ نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وسبحانه يستفهم من الإنسان « ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون » .

بسطحية راح أحد المستشرقين يردد : أينتقى الله على الخلق ويعيب عليهم أن يعدلوا ؟ ذلك أنه لم يفهم المعنى الصحيح ، فالعدل هنا بمعنى العدول عن الحق أو الميل عنه . ويقول :

﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة النمل)

إنه سبحانه الذى خلق الأرض ومن خلالها الأنهار وجعل فيها الجبال الرواسى ، ويوضح الحق سبب وجود الجبال الرواسى فى موقع آخر من القرآن الكريم :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة فصلت)

فلماذا باركت يا الله ؟ بارك الله فى الجبال وقدر فيها أقواتها ، فالقوت هو ما يُنتفع به فى استبقاء الحياة . ونعرف أن القوت يؤخذ من الزرع ، والزرع ينمو دائماً فى

الأرض الخصبة ، وخصوبة الأرض تكون في الوديان ، والوادي هو المكان الذي يكون بين جبلين . ولماذا يكون الوادي خصباً بين جبلين ؟ لأن المطر حين ينزل من السماء ، إنما ينزل على الجبال ، والجبال كما نعرف معرضة لعوامل التعرية ، فالحرارة تأتي بعد البرودة ، والحرارة تجعل الأرض تمتد والبرودة تقبض المادة ، وما بين القبض والبسط يحدث للجبال التشقق السطحي . وعندما ينزل المطر فهو يجرف هذه التشققات ، فتنزل من قمة الجبل بقوة الدفع لتصير جسيمات ناعمة ، ونسميها نحن الغرين أو الطمي ، كالذي كان يأتي لنا من الحبشة ، والذي أحدث خصوبة وادي النيل .

إذن فالجبال هي مخازن الأقوات . ومن فضل الله أن جعل الجبال صلبة ، فلو أنها كانت هشة من أول الأمر ، لكان سيل واحد من المطر كفيلاً بإزالتها كلها ، ولجعل الأرض سطحاً واحداً ، ولا انتفع البشر بنصف متر من الخصوبة . وبعد ذلك يأتي الجدب . ونعلم أن الحق جعل مع التكاثر الإنساني تكاثراً لأسباب القوت ، فكيف يكثر الحق سبحانه من القوت ؟

نحن نرى أن للجبال قمة ولها قاعدة ، وبين كل جبل وجبل يوجد الوادي ، ونعرف أن ضيق الوادي يكون في أدناه ، واتساع الوادي في أعلاه ، والجبل عكس الوادي . فضيق الجبل يكون في القمة واتساعه في القاعدة أي أن قمة الجبل أقل اتساعا من قاعدته . وعندما ينزل الغرين بوساطة المطر من الجبل فهو ينزل إلى الوادي ، فيرفع من مستوى سطح الوادي ، وتتسع مساحة الوادي . وكلما نزل المطر على الجبال اتسعت مساحة الوديان التي بين الجبال ، لأن المطر يحمل معه أجزاء من الجبال وهو ما يسمى بالغرين . وعندما يشاء الحق سبحانه إيذان النهاية ، تتفتت كل الجبال ويقول للساعة : « قومي الآن » .

وهو يقول : « وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون » .

وفي موقع آخر يقول الحق :

﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

الماء له استطراق فسلكه الله ينابيع فى الأرض ، فالإنسان يحفر فى مكان من الأرض فيجد الماء عذباً ، وفى موقع آخر يدق الإنسان الأرض ويحفرها ليجد الماء ولكنه مالح . لماذا إذن لم يتسرب الماء المالح إلى الماء العذب وكلاهما تحت الأرض ؟ إذن لا بد أن للماء المالح مسارب تختلف عن مسارب الماء العذب ولا يطغى أحد على الآخر .

لماذا ؟ لأننا نجد أن الماء العذب يأتى من أعلى . ونجد دائماً منابع الأنهار عالية وتصب فى البحر . والحق لم يجعل منسوب الماء المالح أعلى من منسوب الماء العذب حتى لا يطغى الماء المالح على الماء العذب ، لأنه سبحانه يريد أن يرتوى الناس من الظمأ بالماء ، ويريد للزرع أن ينمو ، وأن يتجه الفائض من الماء العذب إلى مخزن الماء سواء فى بطن الأرض أو فى البحار ، وتأتى من بعد ذلك عملية التبخير فيتصاعد الماء بخاراً ليصير سحاباً ، ثم يمطر من بعد ذلك ماء عذبا . والقدر الذى خلقه الله من الماء أزلاً ، هو . هو ، لا يزيد ولا ينقص .

فالإنسان إذا كان قد شرب أطناناً من الماء طوال حياته ، فهل ظلت تلك الأطنان فى جسد الإنسان أو أن تلك الأطنان قد خرجت فى فضلات الإنسان ؟ إن الإنسان لا يختزن إلا الموجود فيه الآن من الماء . والجسم الإنسانى به حوالى تسعين بالمائة من مكوناته من الماء ، وبعد ذلك يموت الإنسان فينبخر منه الماء وتنزل بقية العناصر للأرض . إذن فكمية المياه واحدة ، ولكنها تخضع لدورة أرادها الله .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

(من سورة النمل)

ومعنى المضطر هو الإنسان الذى استنفد أسباب بشريته ولم يدرك ما يحفظ به حياته ولذلك يقول الحق :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة يونس)

وكذلك يقول الحق فى موضع آخر بالقرآن الكريم :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ذلك أنه عندما يصاب الإنسان بحادث جسيم ، فهو لا يكذب على نفسه ، حتى الكافر بالله عندما يجد أن كل الأسباب المادية التى أمامه لا تنفعه فهو يلجأ ويعترف بأنّ هناك إلهاً واحداً خالقاً . فيقول : يارب .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة النمل)

كل هذه الآيات تؤكد قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

(سورة آل عمران)

إنها ظواهر كونية . واختلاف الليل والنهار يعني أن هناك شيئاً ينافض شيئاً آخر أو يأتي بعد شيء آخر . إذن فاختلاف الليل والنهار له معنيان : فمجيء الليل بعد النهار يعني اختلافهما أي كل منهما خليفة للآخر . والزمن يمثل ذلك .

واختلاف آخر يتمثل في أن النهار منير ، والليل مظلم ، والنهار محل حركة ، والليل محل سكون . فاختلاف الليل والنهار ليس آية فقط ولكنه آيات لكثيرين .

وكأن الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : أنّ الفرد أعجز من أن يستنبط كل ما في الآيات ، ولكن على كل واحد منكم أنتم البشر أن يستنبط آية ، وكل إنسان يستنبط آية ينتفع بها هو وغيره من الناس وهكذا .

إنها آيات يتوزع استنباطها على الخلق الذين يملكون البصيرة والأخذ بأسباب الله ليشيع الحق الاستنباط من أسرار الله لكل خلق الله المؤمنين إلى أن تقوم الساعة ، وليبين لنا أصحاب العقول الحقيقية التي لا تنشغل بالنعمة عن المنعم بالنعمة ؛ لأن لله إمداداً حين خلق من عَدَم ، وإمداداً حين أمدّ من عُدم ، وإمداداً آخر حينما يلقى على نعمته شيئاً من البركة ، فالذي أخذ نعمة الله التي سبقت وجوده ، وبعد ذلك غفل عن الحق سبحانه وتعالى فإن النعمة تعطيه ، لكنها لا تكون مصحوبة بالبركة .

ومعنى البركة أن يكون الشيء الحاصل والمستنبط من حركتك لا يأتي منه لك ولا للناس إلا الخير . فقد يعطيك الله بالأسباب والمسببات . لكن الله لا يعطيك البركة إذا أخذت النعمة وتركت المنعم . فلو أنك عند كل شيء ذكرت الله لأخذت النعمة والبركة . فحين ترى لك شيئاً تحبه عليك أن تقول : « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » .

إنه ليس من شغلك ولا من عملك . ولكنها مشيئة الله وقوته سبحانه .

ولذلك يقولون : إنك إذا رأيت أى نعمة لك فى مال أو ولد أو خُلق أو هندام تقول حين تراها : « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » فأنت لا ترى فيها سوءاً أبداً ؛ لأنك رددتها إلى مَن خلقها ، فضمنت صيانة الله لها بذلك الرد ، والذى يحرسها هو الكلمة الواضحة « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » .

ولذلك نرى فى قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾

سورة الكهف)

فماذا قال له صاحبه ؟

﴿ قَالَ لَهُۥ صَٰحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ ﴾

سورة الكهف)

فكان يجب ألا يمر الإنسان بوجود النعمة وأن يعروها ويسبها ويردها إلى المنعم وهذا يوضح لك معنى قول الحق :

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة إبراهيم)

فقد تعطيكم الأسباب مسبباتها ، ولكن لا زيادة عن المسببات بالتفضل منه سبحانه بالبركة ، بل ربما كانت فجيعة لصاحبها ، فتعطيه الأسباب ثم ينزع العطاء فتكون حسرة عليك

إذن فمَنْ هم أولو الألباب ؟

تكون إجابة الحق .

﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾

إنهم يقولون

« ربنا ما خلقت هذا باطلاً » لأنك حق ، وخلقت السموات والأرض بالحق ، ووضعت لها نواميسها وقوانينها بالحق ، فيجب أن نستقبل النعمة التي خلقتها لنا بالحق فإن استقبلها بعض الناس بغير الحق ، فإنها تكون وبالاً عليهم . ويقال . إن المؤمن الصادق في بني إسرائيل قبل رسالة عيسى عليه السلام كان إذا عبد الله بإخلاص ثلاثين سنة فإن غمامة تظله حيث سار فكانوا عندما يرون واحداً من هؤلاء يسير تظله غمامة ، فهم يعرفون أنه عبد الله بإخلاص ثلاثين عاماً .

وعبدٌ واحد منهم الله ثلاثين سنة ولم ير السحابة تظلله ، فشكا ذلك لأمه فقالت له : لعل شيئا فَرطَ منك . فقال لها : يا أماه لا أذكر . فقالت له : لعلك نظرت مرة إلى السماء ولم تفكر . فقال لها : لعل ذلك حدث . فقالت : الذى يأتيك من ذاك وهذه القصة تذكرنا بضرورة التفكير فى الله دائماً

ويروى عن سيدنا الإمام علىّ ـ رضى الله عنه وكرم الله وجهه ـ أنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا استيقظ فى الليل ، استاك ، ثم نظر إلى السماء .

إذن فالنظر إلى السماء هو النظر إلى العلو . والنظر إلى الأرض أيضا هو تأمل فى حكمة الخالق . لكن النظرة إلى السماء تجعل الإنسان يفطن إلى علو الخالق . ولذلك فالعربى الذى استلقى على ظهره نائما ، واستيقظ ففطن إلى لون السماء الأزرق البديع ، والنجوم تتلألأ فيها فقال : أشهد أن لَكِ رباً وخالقاً ، اللهم اغفر لى . لقد عرف الرجل متى يدعو الله وكيف يدعو ، لذلك غفر الله له .

وفيما روت كتب السيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه جاء ليلة ونام ، وكانت ليلة عائشة رضوان الله عليها . قالت عائشة لعبدالله بن عمر رضوان الله عليه : فنام بجوارى حتى مس جلدى جلده ، ثم قال : « يا عائشة هل تأذنين لى الليلة فى عبادة ربى » ؟[1]

لقد استأذن منها رسول الله فى حقها لأن الليلة ليلتها . وأضافت عائشة : يا رسول الله أنا أحب قربك وأحب هواك ، وقد أذنتُ لَكَ .

لقد احتاطت الاحتياط الجميل ، فهى تحب الرسول ، وتقول : «وأنا أحب قربك » وهذا القول له معنى جميل ، وحدث أن قال بعض المتنطعين على دين الله : إن رسول الله كان كبير السن بفارق كبير بينه وبين عائشة ، وقولها ذلك إنما عن زهد فيه

(١) رواه الترمذى عن عائشة ، ورواه ابن ماجه عن ابن عباس ورواه الطبرانى عن معاوية

لكنها عائشة ـ رضي الله عنها ـ ردت على ذلك من قبل أن يقال فقالت : يا رسول الله أنا أحب قربك وأحب هواك وقد أذنت لك . وهذا درس يعطيه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نتعلم كيف نعامل أهلنا ، حتى ولو كان الأمر الذي يشغلنا عنهم هو العبادة ، وهو لا يريد أن يشغل المؤمن عن رعاية أهله بعد أداء ما عليه من فروض ، حتى ولو كان عبادة إلا بعد استئذان الأهل .

لماذا ؟ لأن الله طلب من الزوجة في العبادة غير المفروضة ألا تتطوع حتى تستأذن زوجها . فالزوجة إن صلت تطوعا ، أو صامت تطوعا لابد أن تستأذن زوجها ، فإن أذن لها ، فبها ، وإن لم يأذن فليس لها أن تقوم بهذه العبادة غير المفروضة .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « خيركم . خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي »[1]

لأن الزوج حين يقرب زوجته فهو يريد أن يعفها عن التطلعات البشرية ؛ لذلك فعندما تريد الزوجة أن تأخذ وقتها وخصوصا إن كان لها ضرائر ، فهذا الوقت حق لها . فإن أراده الزوج للعبادة غير المفروضة فعليه أن يستأذنها . وقد تكون الحالة النفسية للمرأة في عدم وجود ضرائر أكثر قدرة على قبول استئذان الزوج لها ليتفرغ للعبادة . ولذلك فأنت ترى من أهل الفتوى الإيضاح الناجح لمثل هذا الأمر

لقد ذهبت امرأة تشكو زوجها لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وكان مضمون الشكوى أن زوجها لا يقربها ، وكان مع عمر صحابي جليل . فقال له عمر ابن الخطاب « افتها . فقال الصحابي للزوج : يا هذا سنفرض أنك تزوجت أربعاً ، فلزوجتك إذن ليلة بعد كل ثلاث ليال وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد استأذن عائشة في عبادة ربه ، فهذا معناه درس للأزواج أن يحسنوا معاملة الأهل إحساناً لا يجعل للمرأة تطلعا .

لكننا نجد أناسا لا يستأذنون أهلهم لا في العبادة ، ولا حتى في سهرات المعصية وهذا ما يفسد البيوت والأسر إن ما يفسد البيوت أن يكون الزوج مشغولا عن الزوجة ، ويذهب إلى أصحابه في المقهى أو في مكان آخر ولا يهتم بأفراد أسرته .

---

١ ـ رواه ابن ماجه والدرمي في كتاب النكاح

لماذا لا يذهب إلى منزله ليؤانس أهله ؟ ويشيع رغبتهم ويجلس مع زوجته وأهله وأولاده وبذلك تطمئن الزوجة أن رجلها معها وليس في مكان آخر ، وذلك حتى تستقر الأمور . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذن عائشة رضي الله عنها فتأذن له . قالت عائشة رضوان الله عليها :

« فقام إلى قربة فتوضأ ثم قام فبكى ثم قرأ فبكى ، ثم أتى على الله وحمده فبكى ، حتى ابتلت الأرض ، ثم جاء بلال ، فقال : يا رسول الله صلاة الغداة . فرآه يبكي . فقال : يا رسول الله أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال رسول الله : أفلا أكون عبدا شكورا . . يا بلال لقد نزل علي الليلة :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَٰدِ

﴿١٩٧﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٨﴾ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ
لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ
اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٩﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ
إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

(سورة آل عمران)

وأضاف رسول الله صلى الله عليه وسلم (فويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ، وويل لمن لاكها بين فكيه ولم يتأملها)[1] .

هذا ما جاء عن سيدنا رسول الله في أواخر سورة آل عمران ، تلك الأواخر التي نبدأ بقوله تعالى (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار)

إن في تلك الآيات المنهج والاستدلال ، واصطحاب الحق سبحانه وتعالى وذكره على كل حال من القيام والقعود وعلى الجنب . إن الحق يقول : (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض . ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) .

ها نحن أولاء نرى أن مطلوب أولي الألباب هو أن يذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم . وقال بعض العلماء في تفسير قول الحق : « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم » إن المقصود بذلك هو الصلاة ، فمن لا يستطيع الصلاة قائما يصلي قاعدا . . ومن لا يستطيع الصلاة قاعدا فليصل مضطجعا .

---

(١) رواه البخاري في التهجد ورواه مسلم والترمذي في الصلاة والنسائي في قيام الليل وابن ماجه في الاقامة والإمام أحمد في مسنده .

ونقول لهؤلاء العلماء : لقد خصصتم هذا المعنى حيث المقام للتعميم ، لماذا ؟ لأن القرآن لا يتعارض مع بعضه ، بل يفسر بعضه بعضا ، والحق يقول عن صلاة الخوف :

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ ﴾

(سورة النساء)

وحتى لا يظن المؤمن أن الفروض الخمسة هي التي يذكر فيها الله فقط قال سبحانه :

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾

(سورة النساء)

أي إنه حصلت الصلاة أولا ، وحصلت الصلاة ثانيا ، كان ذكر الله أمر متصل واجب في الصلاة ، وفي غيرها ، وبعدها يتفكر المؤمنون في خلق السموات والأرض ويعترفون أنه سبحانه لم يخلق هذا باطلا . ويكون المطلوب أن يقولوا :

﴿ سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾

(من الآية ١٩١ سورة آل عمران)

لماذا ؟ لأن كل هذا الذكر لا يوفى حق ربنا علينا لذلك قالوا :

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ ﴾

إنها العظمة ، فهم لا يذكرون عذاب من يدخل النار ، ولكنهم يذكرون خزي الله لمن دخل النار . وكأن الخزي مرتبة أشر من عذاب النار ، فمن الذي أعطانا كل هذا الفضل ، إنه ـ سبحانه ـ أعطانا توفيقا لذكره ، وتوفيقا لنتفكر في خلق السموات والأرض ، فهل يصح أن نقابله بكفران النعمة ؟ وما الذي يحدث هؤلاء الذين يدخلون النار ؟

إنه الخزي والعياذ بالله . « وما للظالمين من أنصار » أي وليس لهم أنصار يمنعون عنهم عذاب النار

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾

فكان الإنسان بقلبه وفكره قبل أن يجيء له الرسول يجب أن ينتبه إلى ما في الكون

من آيات ، وعليه أن يستشرف أن وراء الكون قوة ، ولكن هذه القوة مبهمة في ذهنه . ما هي ؟ إنه يرى لكون العجيب فيقول لنفسه : من المستحيل أن يكون هذا الكون بلا خالق . إن وراءه قوة لها حكمة ولها قدرة هذا قصارى ما يصل إليه العقل ولكن أيستطيع العقل أن يدرك أن القوة اسمها الله ؟ أيستطيع العقل أن يدرك ماذا تطلب القوة منه ؟

لا . إذن لابد من رسول يبلغ عن تلك القوة . ولذلك قلنا إن تلك هي الزلة التي وقع فيها الفلاسفة ؛ لأن الفلاسفة هم الذين يبحثون وراء المادة . ونحن نعلم أن العلم ينقسم إلى قسمين ، قسم مدى قائم على التجربة ، وقسم ميتافيزيقي يبحث فيما وراء المادة . وهذا العلم متاهة الفلاسفة . وهو المضلة التي لم تلتق فيها مدرسة بمدرسة ، ولا تلميذ في مدرسة مع تلميذ آخر في مدرسة .

لماذا لم يلتقوا ؟ لأنهم يبحثون وراء المادة . وما وراء المادة غيب . والغيب لا يدخل المعمل . لكن المادة تدخل المعمل . والمعمل عندما يعطي نتائج تحليلات لا يجامل في هذه النتائج فالذي يدخل التجربة العلمية في المعمل بنزاهة فالمعمل يعطيه . والذي يدخل بغير نزاهة لا تعطيه المعامل شيئا

ولذلك نقول دائما : إننا لا نجد في العلوم المادية فارقا بين علم شيوعي روسي ، وعلم أمريكي رأسمالي ، فلا توجد كيمياء رأسمالية أو كيمياء شيوعية ولا توجد كهرباء روسية وأخرى أمريكية . إنها كيمياء واحدة ، وكهرباء واحدة لأنها ابنة المعمل وبنت التجربة المادية .

ومن العجيب الذي لا يفطن له الخلق المغرورون من هؤلاء أننا نجد العلم المادي ابن التجربة والمعمل والمادة الصماء التي لا تجامل يحاول كل معسكر أن يسرقه من غيره . ونجد الجواسيس يسافرون من معسكر إلى معسكر ليسرقوا تصميمات الطائرات والصواريخ . وأن بعضهم يتلصص على بعض حتى يعرفوا العلم المادي

لكن ماذا عن علم الأهواء والنظريات ؟ إننا نجد أن كل عرف يقيم حدارا حتى لا يخترق علم الأهواء المجتمع

هم يقيمون الحواجز فى الأهواء ولكن فى العلم المادى يتحولون إلى لصوص . فلماذا لا يلحقون الأهواء مع العلم المادى ؟ إن كل معسكر حريص على العداء مع مذاهب الغير فى الحكم والاجتماع والاقتصاد . لكنهم فى العلم المادى يسرق بعضهم بعضا ؛ لأن المذاهب النظرية تتبع الأهواء ، لكن العلم المادى - كما قلنا - يتبع الحقيقة المعملية التى لا تجامل .

إذن فساعة يفكر الإنسان بعقله لابد أن يقول : إن وراء خلق لكون قوة خارقة وقد عرفها العربى بفطرته فقال : البعرة تدل على البعير والقدم تدل على المسير . أفلا يدل كل ذلك على اللطيف الخبير ؟!!

إنه دليل فطرى ، يدلك على وجود القوة ، لكن ما اسم هذه القوة ؟ لا تعرف . إذن فالأدق تستشرف إلى من يدلك على اسم هذه القوة . فإذا جاء واحد وقال : أنا مُرْسَل من ناحية هذه القوة ، وأن اسمها الله ، كان من المفروض أن تتهافت الناس عليه ؛ لأنه سيحل لها اللغز الذى يشغلهم ، لذلك فالمؤمنون يقولون :

﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾

(سورة آل عمران)

كأن دهن كل واحد فيهم كان مشغولا بضرورة التعرف على الخالق . وبعد ذلك يقولون .

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ ﴾

(من سورة آل عمران)

فأول حاجة فكروا فيها هى درء المفسدة ؛ لأن أفاضل الناس يتهمون أنفسهم بالتقصير دائما ؛ لذلك قالوا : « ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا » .

وعندما ننظر إلى معطيات القرآن نجد أن « الذنب » شىء ، و« السيئة » شىء آخر . فالذنب يحتاج إلى غفران ، والسيئة تحتاج إلى تكفير ، على سبيل المثال « كفارة اليمين » تكون واجبة إذا ما أقسم المؤمن يمينا وحنث فيه ، وهذا التكفير هو المقابل

نلحنث فى اليمين ، أما الأشياء التى تتعلق بالمعصية بين العبد وربه فهى الذنب ، والسيئة هى الأمر الذى يخالف منهج الله مع عباد الله . فحين تفعل المعصية فى أمر بينك وبين الله فأنت لم تسئ إلى الله ، فهل أنت أيها الإنسان من صرلة الله ؟ لكنك بالمعصية تذنب ، والذنب تأتى بعده العقوبة أما مخالفة منهج الله مع عباد الله فهى سيئة ؛ لأنك بها تكون قد أسأت

لذلك فالمؤمنون قالوا « ربنا اغفر لنا ذنوبنا وكفّر عنا سيئاتنا » .

ومن الذى هدانا إلى معرفة أن هناك فرقا بين الذنب والسيئة ، وأن الذنب يحتاج إلى غفران ، وأن السيئة تحتاج إلى تكفير ؟ إنه الرسول صلى الله عليه وسلم حامل الرسالة من الله . وهو الذى علمنا الفرق بين الذنب والسيئة . فقد كان جالساً بين أصحابه فأخذته سِنَةٌ من النوم ، ثم استيقظ فضحك

فعن أنس رضى الله عنه قال : « بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر رضى الله عنه . ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : رجلان جثيا من أمتى بين يدى رب العزة فقال أحدهما . يارب خذ لى مظلمتى من أخى . قال الله : أعط أخاك مظلمته قال يارب . لم يبق من حسناتى شىء ، قال : يارب يحمل عنى من أوزارى . وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ثم قال . إن ذلك ليوم عظيم ، يوم يحتاج الناس إلى أن يُتحمَّل عنهم من أوزارهم . فقال الله للطالب : ارفع بصرك فانظر فى الجنان فرفع رأسه فقال يارب أرى مدائن من فضة وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ لأى نبى هذا ؟ لأى صِدّيق هذا ؟ لأى شهيد هذا ؟ قال : هذا لمن أعطى الثمن قال يارب ومن يملك ثمنه ؟ قال : أنت . قال : بماذ ؟ قال : بعفوك عن أخيك . قال : يارب قد عفوت عنه ، قال : خذ بيد أخيك فأدخله الجنة ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله يُصلح بين المؤمنين يوم القيامة »[1] .

---

(١) رواه ابو يعلى والحاكم وصححه ورواه السيوطى فى الدر المنثور وابن كثير فى التفسير

هذا هو معنى الكفير أى أن نتحمل ، لذلك نقول فى الدعاء كما علمنا . « اللهم ما كان لك منها فاغفره لى ، وما كان لعبدك فتحمله عنى » . أى أن العبد يطلب أن يراضى الحق عباده من عنده ، وما عنده لا ينفد أبدا .

والعبد المؤمن يقولون « ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار » أى اختم لنا سبحانك هذا الختام مع الأبرار ومن بعد ذلك يأتى قوله تعالى حكاية عنهم :

﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ ﴾

أى ربنا أعطنا ما وعدتنا على لسان رسلك ، ولتسمع قول الحق استجابة لهم :

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾

ولُبر اللفتة الجميلة في الاستجابة : « فاستجاب لهم ربهم أنّى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض » لقد كانوا يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السموات والأرض . ويخشون خزى الدخول إلى النار ودعوا الله بغفران الذنوب وتكفير السيئات ودعوا الله أن يأتيهم ويعطيهم ما وعدهم به على ألسنة الرسل .

لم يقل الحق سبحانه استجبت لكم ، لكنه جعل الاستجابة هي قبول العمل فقال: « أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى » فليست الحكاية كلاما يقال ، إنما يريد الله أن تدخل هذه المسائل في حيز التطبيق والنزوع العملي ؛ فالمسألة ليست بالتمني فقط ، فقد وضع سبحانه الشرط الواضح وهو العمل ، فمن يريد استجابة الحق فلابد له من العمل . إن التفكر في بديع صنع الله لا يغني عن العمل ؛ لأن الحق سبحانه يريد التفكر فيه وأنت تعمل في أسبابه فأسباب الحق لا تشغلك عنه .

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فالذين هاجروا من بلادهم ومن أهلهم ومن أوطانهم ومن أحبابهم ، دون إكراه فهجرتهم هذه هي نزع وجودي ، وانتقال من مكان إلى مكان جديد وكان ذلك في سبيل الله أي ، فالذين هاجروا وخرجوا بجزء من إرادتهم ، وكذلك الذين أخرجوا من ديارهم ، وقاتلوا في سبيل الله وتحملوا الايذاء وقتلوا - هؤلاء - ينالون التكفير عن السيئات ويدخلون الجنة .

لقد جاء الحق هنا بالعملية التي تتضح فيها الأسوة الإيمانية ؛ لأن الإنسان ينشغل بماله وأهله ووطنه وباستبقاء الحياة ، فإذا ما ضحى الإنسان بهذا كله في سبيل الثبات

على كلمة الله أولا ، وإعلاء كلمة الله ونشرها ثانيا . فالمؤمن من هؤلاء لم يكتف بنفسه بل جاهد فى سبيل الله لتنقل الحياة بحلاوتها إلى غيره ، وبذلك يكون قد أحب لغيره ما أحبه لنفسه .

نخرج من كل هذا برؤية واضحة هى أن المكر وحده لا يكفى وإذا قال واحد إن إيمانى حسن فلا تأخذنى بالمسائل الشكلية ، نرد عليه قائلين : إن الله ليس فى حاجة إلى ذلك ، ولكنه يطلب منك أن تعمر الكون بحركتك ، وأبرك الحركات وأفضلها أن ترسخ منهج الله فى الأرض ؛ لأنك إن رسخت منهج الله فى الأرض ، أمنت للوجود جماله .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ ﴾

وإذا ما سمعت كلمة « تقلب الذين كفروا فى البلاد » فاعلم أن التقلب يحتاج إلى قدرة على الحركة . والقدرة على الحركة تكون فى مكان الإنسان وبلاده ، فإذا انتفت قدرتك على الحركة و انتقلت إلى بلد آخر ، فعندئذ يقال عن هذا الإنسان . « فلان نشاطه واسع » أى أن البيئة التى يحيا فيها ليست على قدر قدرته ، بل إن قدرته أكبر من بيئته ، لذلك فإنه يخرج من بلده . وكان ذلك يحدث ، فكفار قريش كانوا يرحلون من بلدهم فى رحلات خارجها . لذلك قال الحق

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

والتقلب كما عرفنا بشأن : قدره وحركة واتساع طموح . وسبحانه يريد أن يبين لنا أن زخارف الحياة قد تأتى لغير المؤمنين . إن كل زخرف هو متاع لحياة الدنيا وهو مرتبط بعمر الانسان فى الوجود ومهما أخذوا فقد أخذوا زينة الحياة وغرورها ؛

سبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

إنها حياة لها نهاية أما الذى يريد أن يُصعِّد النعمة ويصعد انفع فهو يعمل العمل من أجل حياة لا تنتهى والكافرون قد يأخذون العاجلة المنتهية ، ولكن المؤمنين يأخذون الآجلة التى لا تنتهى

وحين نقارن بين طالب الدنيا وطالب الآخرة ، نرى أن الصفقة تستحق أن نناقشها من نواحيها وهى كما يلى لا نقس عمر الدنيا بالنسبة لذاتها ، ولكن قس عمرها بالنسبة لعمر الفرد فى الحياة ؛ لأن عمر الدنيا عند كل فرد هو مدة بقائه فيها ، فهب أن الدنيا دامت لغيرى ، فبالى ولها ، إن عمر الدنيا قصير بالنسبة ببقاء الإنسان فيها ، وإياك أن تقدرها بقولك . إن الدنيا سوف تبقى لملايين السنين ؛ لأنها ستظل ملايين السنين لملايين الخلق غيرك ، وعمر الدنيا بالنسبة لك هو عمرك فيها ، وعمرك فيها محدود ، وهذا على فرض أن الإنسان سيعيش متوسط الأعمار . فى مالك وعمرك فيها مظنون ؛ لأن الموت يأتى بلا حس ولا يرتبط بسبب أو برمان . ولذلك فالإنسان لا يضمن متوسط الأعمار . وعمر الآخرة متيقن وهو إلى خلود .

إذن عمر الإنسان فى الدنيا مظنون وعمره فى الآخرة متيقن ، والدنيا محدودة ، وفى الآخرة خلود ، ونعيمك فى الدنيا موط بقدرتك على تصور النعمة وإمكاناتها ولكن نعيمك فى الآخرة على قدر عظمة ربك وعطائه العميم ؛ لذلك قال الحق عنها : إنها متاع الغرور ولم يأت الله لها باسم أقل من اسم الدنيا ، فهل هناك اسم أقل وأحقر من هذا ؟ إن الذين يغترون بما ينالهم الخارجون عن منهج الله من تقلبهم فى البلاد عليهم أن يتذكروا أن كل ذلك إلى زوال وضياع . وعليهم أن نقارن التقلب فى البلاد بما أعده الله لنا فى الآخرة . وساعة تقارن هذه المقارنة تكون المقارنة سليمة

ولذلك يتابع الحق قوله عن تقلب الذين كفروا فى البلاد :

﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾

والمهد هو المكان الذى ينام فيه الطفل ومعنى ذلك أن الحق يقلب فيهم فى جهنم كما يريد ؛ لأنه لا قدرة لهم على أى شىء ، شأنهم فى ذلك شأن الطفل ، يزال ملازما لفراشه ومهده حتى يقلبه ويحركه غيره ويأتى المقابل لهؤلاء وهم المؤمنون فيقول :

﴿ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾

والنزل هو المكان الذى يعد لنزول الضيف ، والنزل حينما تقيمه قدرات بشرية تتفاوت حسب إمكانات البشر وفى احدى السفريات نزلنا فى فندق فاخر فقال لى زملائى وإخوانى :

هذا لون من العظمة البشرية
قلت لهم : هذا ما أعده البشر للبشر ، فكيف بما أعده الله للمؤمنين ؟

وعندما نرى تقلب الكفار فى البلاد فاعلم أنهم لن يأمنوا أن يأخذهم الله فى تقلبهم ، وفى ذلك يقول

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ويقول ـ سبحانه ـ

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة النحل)

والكافر من هؤلاء يتملكه الغرور ، وهو يتقلب فيأتيه عذاب الله بغتة والعذاب يأتى مرة بغتة ، ومرة أخرى جهرة إنه يأتى بغتة حتى يكون الإنسان متوقعا له فى أى لحظة ويأتى جهرة حتى يرعب الإنسان ويجمعه قبل أن يقع . وبذلك يقول الحق

﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾

(من الآية ٥٥ من سورة البقرة)

فاليوت إن جاءهم بغتة فقد لا يشعرون بهوله إلا لحظة وقوعه ، ولكن حينما يأتيهم الموت وهم ينظرون ، فهم يرونه وهم فى فزع ورعب

والحق يقول من بعد ذلك .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾

فلاح الدنيا بأن تنتصروا على خصومكم ، وأن تعيشوا معيشة آمنة مستقرة رغدة ، وفلاح الآخرة أن تأخذوا حظكم من الخلود فى النعيم المقيم ، ومادام سبحانه يقول اصبروا فلابد أن يكون هذا إيذانا بأن فيه مشقة ، فالإيمان يؤدى إلى الجنة ، والجنة محفوفة بالمكاره ؛ لذلك لابد أن تكون فيه مشقات .

*

وإذا نظرت إلى تلك المشقات تجدها فى ذات النفس منفصلة عن المجتمع تارة ، وتجدها فى ذات النفس مع المجتمع تارة أخرى ، أما فى ذات النفس منفصلة عن المجتمع ، فإن الصبر يقتضى أن نصبر على تنفيذ أمر الله فى فعل الطاعات وعلى تحمل الألم منه فى ترك المعاصى وإن كان ذلك يمنعك عن لذة شهوة تحبها فإنك تصبر عن تلك الشهوة التى تلح عليك ، فمجاهدة المؤمن أن يصبر عن الشهوات التى نهى الله عنها ، والأشياء التى تصيب الإنسان يصبر عليها ، فالمصيبة فى النفس يصبر عليها ، والأشياء التى يصبر عنها من النواهى هى الشهوات والمتع التى حرمها الله

وكأن الحق سبحانه وتعالى يقول : إنى خلقتك وأعلم منازعة نفسك إلى الشهوة ، لأنك تحبها فاصبر عنها ، والأمور التى فى الطاعة إن فعلتها ستورثك مشقة فى ذاتك ، اصبر عليها ، إذن ففى الأوامر صبر على تنفيذها ، وفى المناهى صبر عن إيقاعها ، هذه كلها فى الذات ، وبعد ذلك إذا نقلت المسألة من الذاتية إلى المحيط الخارجى فالحق يقول :

﴿ وَالصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

(من الآية ١٧٧ سورة البقرة)

يقول : « صابرين فى » ، فعدى « صابر على » ، وقد تعدى « صابر عن » ، وقد صابر فى » ، « والصابرين فى البأساء » التى تقع عليهم من المجتمع الخارج عنهم ، وكيف تصيبهم البأساء من المجتمع الخارج عنهم ؟ نعم ، لأن منهج الحق الذى يجيء ليصوب الخطأ فى حركة المجتمع والخطأ فى حركة المجتمع مما ينشأ عنه بأس وهم يحرصون جاهدين أن يصدروا من يريدون تثبيت منهج الله ، إذن فهم لا يقصدون فى إيذائهم ، وفى السخرية منهم ، وفى إتعابهم وفى حربهم ، وهذا صبر فى البأساء

والضراء وحين البأس ، وإذا كان عدوك الذى جئت لتدحض منهجه الباطل بمنهجك الحق صابرك وصابر أيضا على إيذائك ، فعليك أن تصابره .

ماذا يعنى ذلك ؟ يعنى أن « اصبر » غير « صابر » ، فاصبر هو أمر فى نفسك ستصبر عليه ، ولكن هب أن خصمك صبر أيضا على إيذائك ، وصار عنده جلد ليقف أمامك هنا ،

الحق يأمرك هنا بأن تصابره ، أى إذا كان عدوك يصبر قليلا فعليك أنت أن تقوى على الصبر عليه ، أى أن تجىء بصبر فوق الصبر الذى يعارضك ، وكل مادة « فاعَل » هكذا .

مثال ذلك . عندما تقول : فلان نافس فلانا . والمنافسة تكون بين اثنين يحتاجان ويقصدان غاية ، وكل واحد يريد أن يصل إليها ، والذى يريد أن يصل إليها يريد أن يصل بحرص ، فإن كان منافسك يحرص عليها بحطوة فاحرص عليها أنت بحطوتين ، هذه هى المنافسة ؛ فالمنافسة معالجة على الفوز ، والحق يقول :

﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة المطففين)

والأصل فيها هو إطالة النفس حين يغطس الإنسان فى الماء ، وسيدنا عمر - رضى الله عنه - قال للعباس - رضى الله عنه - : أنافسنى ؟ أى عرض عليه أن ينزلا معا تحت الماء ، ويرى مَن منهما أطول نفسا . إذن فالقطن الكيّس هو من يتمرس على هذا العمل ولا ينزل إلى الماء فى نفس متردد ، بل يأخذ كمية من الهواء بشهيق يتسع له تجويف صدره كله ليكون عنده حصيلة يستطيع بها أن يمكث فى الماء أطول مدة من الثانى ، أما الذى يغطس وليس عنده هذه الحصيلة ، فسيأخذ مقدار شهيق وزفير فقط ، « فنافسنى » تعنى أن نغطس فى الماء معا لنرى من منا أطول نفسا . أى أنه قادر على أن يحتفظ بكمية من الهواء تستطيع أن تؤدى وظيفة حياته مدة طويلة ، ولا يمكن أن يتأتى هذا إلا إذا أخذت شهيقا يملأ الصدر حتى إنك لا تقدر أن تزيد ، ولذلك فالطبيب عندما يريد أن يفحص حالة الرئة يقول للمريض خذ نفسا طويلا ، لأنه يريد أن يرى المريض وقدرته

إذن فالمصابرة تعنى إن كان خصمك يصابرك فأنت تصبر وهو يصبر ، فتصبر أنت

أكثر ، وهذا تحتاج المسألة إلى أن يتكاتف المجتمع كله على المصابرة ، ولذلك جاء قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾

(سورة العصر)

أى أنك إذا رأيت أحدا من إخوانك المؤمنين يحور ويضعف فى مصابرته فتحثه على المصابرة وقل له : إياك أن تحور ، لماذا ؟ لأن لنفس البشرية من الأغيار ، وقد يأتى لها حدث يقوى عليها ، فالمؤمن الذى ليس عنده هذه الأغيار ينفخ بالعزيمة فيمن حور فقال الحق : « تواصوا » ، ولم يقل : جماعة يوصون جماعة ، لا « فالتواصى » أن تكون أنت مرة موصيا ، ومرة مُوصًى ، فساعة لا يكون عندك ضعف الأغيار تُوصِى ، وساعة يكون عندك ضعف الأغيار تُوصَى ، فكل واحد موصٍ فى وقت ، ومُوصًى فى وقت آخر ، ولا نواصى هذه التوصية على الصبر إلا إذا كنا توصيه أولا على الحق الذى من أجله نشأت المعركة بين صابر ومصابر .

« يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » وعرفنا الصبر ، وعرفنا المصابرة ، فما هو الرباط ؟ هو أن تشعر عدوك بأنك مستعد دائما للقائه ، هذا هو معنى الرباط . والحق يقول .

﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

أى خيل مربوطة للجهاد فى سبيل الله ومستعدة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول - « خيركم ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة طار إليها »[1] .

أى أن نكون مستعدين قبل وقوع الهجوم ، وساعة تأتى الأمور الداهمة ننطلق لمواجهتها ولكن يكون استعدادنا من قبل الأمر الداهم ، ولذلك حين يكون عدوك

(١) رواه مسلم فى الإمارة وابن ماجه فى الفتن ورواه أحمد

عالما بأنك مرابط له ومستعد للحركة في أي وقت يرهبك ويخافك ، أما إذا كنت في استرخاء وغفلة ، فإنه يدهمك ، فإلى أن تستعد يكون قد أخذ منك الجولة الأولى ، إذن فما فائدة الرباط ؟

فائدة الرباط أن يُعلم أنك لم تغفل عن عدوك وأنك لن تترك العدة والاستعداد له إلى أن يأتي بالمداهمة ، ولكن تكون أنت مستعدًا لها في كل وقت ، والرباط لا يكون فقط أن ترابط بالخيل للعدو المهاجم هجوم ماديا ، بل المرابطة تعني : الإعداد لكل ما يمكن أن يَرُدَّ عن الحق صيحة الباطل ، فمن المرابطة أن تعد الناشئة الإسلامية لواقعات الإلحاد قبل أن تعد ، لماذا ؟

لأن الرسالة ليست كلها غزوًا بخيل وسلاح وعُدد ، فقد يكون الغزو بالفكر الذي يتسرب إلى النفوس من حيث لا تشعر ، فإذن لابد أن تكون أيضا في الرباط الذي يعد المؤمن بقدرة وطاقة المواجهة بحيث إذا جاءت قضية من قضايا الإلحاد التي قد تعد على المؤمنين ، يكون عند كل واحد منهم الحصانة ضدها والقدرة على مواجهتها .

لقد قلنا إن آفة المناهج العلمية أنهم أخذوا مناهجهم عن الغرب ، فدرسوا التاريخ كما يدرسه الغرب ، ودرسوا الطبيعة كما يدرسها الغرب ونسوا أن لنا دينا يحميا من كل هذه الأشياء ، فعندما يأتيني رجل التاريخ بمنهجه من الغرب ، ويقول إن الثورة الفرنسية هي التي أعلنت حقوق الإنسان ، هنا يجب أن تكون عندنا مناعة وترابط ، ونقول له : في أي سنة نشأت الثورة الفرنسية ؟

لقد نشأت منذ سنوات قليلة ، قد تزيد أو تنقص على المائتي سنة ، وأنتم تجهلون أن الدين الإسلامي جاء منذ أربعة عشر قرنا بحقوق الإنسان ، واقرأوا القرآن ، فلو أن كل تلميذ حين يسمع أن الثورة الفرنسية هي التي أعلنت حقوق الإنسان ، يقول لهم : لا ، أنت تعلم أن ذلك حدث في القرن السابع عشر لكن لماذا لا تلتفت إلى أنه منذ أربعة عشر قرنا جاء الإسلام بهذا المبدأ والتفت إلى الإساءة في استعمال الحق ، فإذا كنت تجهل تشريع الله فلا يصح أن يؤدي بك هذا الجهل إلى طمس معالم الحق في منهج الله

وإذا قال دارس للطبيعة : إن الطبيعة أمدت الحيوان الفلاني باللون الذي يناسب البيئة التي يعيش فيها حتى لا يفتك به عدوه وهو بذلك يضلله ، نقول له : إن الطبيعة لا تمد ، الطبيعة ممدة من الله ، لا تقل إن الطبيعة أمدت إذن فالرباط لا يكون بقوة عسكرية فحسب بل بالقوة العلمية أيضا . فخصوم الإسلام قد يئسوا من أن ينتصروا على الإسلام بقوة عسكرية بعد أن كتلوا كل قواهم في الحروب الصليبية ، ولم يبق لهم إلا أن يدخلوا علينا من خلال مناهجهم ومن خلال المستشرقين هناك ، والمستغربين ما فيقلوا لنا ثقافات أجنبية بعيدة عن منهجنا ، وهم معذورون لأنهم لا يعلمون منهج الله في دين الله إذن فالرباط لا بد أن يكون أيضا في رباط الأفكار ، ورباط العلم المادي

إن خصوم الإسلام يدخلون على الناس من مداخل متعددة فيجب أن نسد النشء إليهم ، يقولون : أوروبا ارتقت حضاريا وأنتم يا مسلمون تخلفتم . نقول لهم هل كان التخلف مقارنا للإسلام ؟ لقد كانت الدولة الإسلامية هي الدولة الحضارية الأولى في العالم لمدة ألف سنة ، وأوروبا التي تتشدقون بحضارتها كانت تعيش في العصور المظلمة إن هؤلاء لم يعرفوا تاريخنا أو هم يتكلمون لأناس لا يعرفون تاريخهم .

إذن فالمرابطة أن توضح أمور دينك توضيحا يقف أمام أي وافدة قبل أن تعد بالعدوان المسلح ، ويجب أن تقف لغزو الأفكار ولهدم المبادىء ، ولذلك قال الحق « اصبروا » « وصابروا » . « ورابطوا » ، وجماع كل ذلك « الصبر على » « الصبر عن » « الصبر في » ، والمصابرة لعدو والتواصي بالصبر ، والرباط بمعنيه المادي والمعنوي ، أي بالأمور المادية والأمور المعنوية القيمية ، ويختم الحق الآية بقوله : « واتقوا الله لعلكم تفلحون »

ونعرف أنه حين قال لك « اتق الله » تساوى أن يقول لك : « اتق النار » فمعنى « اتقوا الله » : أي اجعلوا بينكم وبين غضب ربكم وقاية ما هي الوقاية ؟ أن تطيع ، وما هي الطاعة ؟ أن تمتثل كل أمر ، وأن تنتهي عما نهى فالذي يفسر التقوى بأنها الطاعة نقول له : نعم لأنها الوسيلة إلى وقايتك من غضب الله وعذابه ، فالذي

يفسرها بهذا يفسرها بالوسيلة ، والذى يفسرها بالأخرى يفسرها بالغاية ، فعندما يقال لك : اتق الله ، أى اجعل بينك وبين النار التى هى من حدود الله وقاية ، أى اجعل بينك وبين غضب الله وقاية ، وإذا قال لك : اتق الله يعنى أطعه فى أمره وفى نهيه ، فما هى الوسيلة لاتقاء النار واتقاء غضب الله ؟ إنها الطاعة ، فمرة تفسر التقوى بالوسيلة ومرة تفسر بالغاية .

وقلنا فى قوله : « لعلكم تفلحون » إن الفلاح إما أن يكون فى الدنيا وإما أن يكون فى الآخرة.فى الدنيا.بأن ترتفع كلمة الحق وكلمة الإيمان وتنتصروا ولا أحد يذلكم ولا يجعلكم أحد تابعين له هذا لون من الفلاح ، ولكن على فرض أنهم فلحوا وضعفتم أنتم ، فى فترة من الزمن تثقوا أنكم تعملون لفلاح آخر هو فلاح الآخرة ، وإلا فالذين يخاطبون بهذه الآية قبل أن يدركوا نصرا للإسلام على أعدائه ، يفسرون الفلاح بماذا ؟ الذين جاهدوا وتعبوا وعاشوا مضطهدين لا استقرار فى حياتهم ، وبعد ذلك ماتوا قبل أن يمكن للإسلام ، كيف يكون فلاحهم ؟ إن فلاحهم فى الآخرة ، ولذلك تجد الاحتياط فى قصة أهل الكهف :

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ ۝
بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ۖ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ
فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا
۝ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا
أَبَدًا ۝ ﴾

(سورة الكهف)

ونلحظ فى هذه القصة قوله الحق : « يرجموكم » هذه واحدة ، « أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذن أبدا » .

إن كانوا يرجمونكم فسينتصرون عليكم فى الدنيا ، إنما ستأخذون الآخرة ، وإن

ردوكم إلى دينهم ، فلن تفلحوا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، إذن فعناصر الفلاح المرادة للإنسان ، إما فى الدنيا وإما فى الآخرة وإما فيهما معا.إن عناصر الفلاح أن نمتثل أوامر الله فى قوله : « اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

سورة النساء
مدنية

عرضنا - فيما سبق - خواطر حول تسمية السور ، وهنا تأتى سورة النساء والاسم المختار لها اسم مكرم للجنس الآخر من النوع الإنسانى ، ونلحظ أن الحق لم يترك سورة باسم سورة الرجال ، وجاء بسورة وسماها « سورة النساء » وتتعلق بها أحكام كثيرة ، وأيضا سيتكلم فى سورة المائدة عن حقوق النساء ، وأيضا سيتكلم فى سورة الأحزاب عن النساء ، وأيضا سيتكلم فى سورة الممتحنة عن النساء ، وفى سورة المجادلة عن النساء وفى سورة الطلاق ، وفى سورة التحريم عن النساء ، إنها أحكام منصوص عليها فى القرآن عن حقوق المرأة ، وهذه الأحكام جاءت لتتكلم عن الوعاء الخاص للنفس البشرية

ونحن نعرف أن مهمة الرجل مع الأجناس الدنيا فى الحياة مع الجماد فى المعمل ، ومع الحيوانات يربى ، ومع الزرع يزرع إن الرجل يعمل مع تلك الأجناس ، والأجناس كما نعلم هى جماد ، ونبات ، وحيوان ، وإنسان ، ومجال الإنسان الرجل هو العمل مع الجماد ومع النبات ومع الحيوان ، أما مجال المرأة فمع الإنسان ، أيوجد تكريم للمرأة أكثر من أن الله جعلها الحاضنة لأكرم مخلوقاته وهو الإنسان ؟

انظر إلى طفولة كل الأشياء ، النبات والحيوان تجدها طفولات قصيرة . هناك حيوانات لا تطول طفولتها لأكثر من شهر ، وهناك حيوانات تستمر طفولتها أيام ، وهناك نبات تكون طفولته سبع سنين - وهذه طفولة الشجر المعمر - لكن طفولة الإنسان تستمر من الميلاد حتى أربع عشرة سنة ، وهى فترة حضانة طويلة ، ولماذا يجعل الله لهذا الإنسان المكرم حضانة طويلة ؟

إن مهمة الإنسان فى الحياة جليلة إذن طفولته تحتاج إلى عناية وفى مرحلة الطفولة يتشرب الإنسان نصح ما حوله ليكون سلوكياته ، وعندما يكون فى حضن أمه فهو فى حضن المرأة ، بينما يكدح والده فى الحياة ، ويأتى لها بالرزق ، ويسكن عند الزوجة

المرأة عندما قامت الرجل وخاصمته أمام القاضي وهو يريد أن يأخذ ابنه منها ، قالت للقاضي : لقد حمله خفا ، يعني حمله في ظهره خفيفا لا يدري به ووضعه شهوة ، ولكني حملته كرها على كره ؛ لذلك بعد أن أنزل الحق في آل عمران سورة رهم قدوة الاصطفاء في الرسالات وفي التكليفات ، ومنهم جاء لنا ببعض الرسل ، وجاء منهم بمتعذبين لمنهج الله مثل مرأة عمران ، فلم تكن هي ولا مريم عليها السلام نبية ولا رسولة ولكن تقدمت كل واحدة منهما ما أمرت به .

وبعد تخصيص سورة لآل عمران يأتي بنا الحق بسورة النساء .

والحق سبحانه وتعالى ساعة يخاطب الذين امنوا فانتظروا منه تكليفا ساعة يقول « يا أيها الذين آمنوا » فافهم أنه يريد أن يكلفك وسبحانه يوضح لك أنا لا اقتحم عليك اختيارك ، ولا أكلفك إلا بما كلفت أنت به نفسك لأنك آمنت بي ، ومادمت آمنت بي ربا إلها قادرا حكيما فاسمع مني .

إنّ الله لم يدخلك في الإيمان فأنت الذي دخلت باختيارك في الإيمان فيجب أن تستمع إلى من آمنت به ، وقلنا ؛ ـ ولله المثل الأعلى ـ الإنسان منا عندما يذهب إلى الطبيب فهو يختار هذا الطبيب ؛ لأنه أنسب الأطباء لعلاجه ، وساعة يذهب إلى مثل هذا الطبيب فهو يلتزم بأوامره ، ويأخذ تذكرة العلاج ويصرفها من الصيدلية ، وإن لم يجدها يحتال على أي واحد يسافر للخارج ليأتي بها ، وينفذ المريض ما بها من أوامر .

وسبحانه يقول هنا . « يا أيها الناس » إنه لا يطلب من الانسان اي تكليفات ، لكنه يطلب منك أيها الانسان أن تؤمن فيوضح « يا أيها الناس » إنه ينادي الناس تعالوا إلى جانبي كي تروا أيؤمن بي أم لا يؤمن بي ؟ والمقصود بـ « يا أيها الناس » هم آدم وذريته .

والحق يبدأ سورة النساء بقوله

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾

وساعة يدعو الله سبحانه الناس إلى تقواه يقول : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » ومعنى « اتقوا ربكم » أى اجعلوا بينكم وبينه وقاية ، وماذا أعمل لأتقى ربنا ؟

أول التقوى أن تؤمن به إلها ، وتؤمن أنه إله بعقلك ، إنه ـ سبحانه ـ يعرض لك القضية العقلية لتأمل فيقول « يا أيها الناس اتقوا ربكم » ولم يقل « اتقوا الله » ، لأن الله مفهومه العبادة ، فالإله معبود له أوامر وله نواه ، لم يصل الحق بالناس هذه بعد ، إنما هم لا يزالون فى مرتبة الربوبية ، والرب هو المتولى تربية الشىء ، خلقا من عدم وإمدادا من عدم ، لكن أليس من حق المتولى خلق الشىء ، وتربيته أن يجعل له قانون صيانة ؟

إن من حقه ومسئوليته أن يضع للمخلوق قانون صيانة . ونحن نرى الآن أن كل مخترع أو صانع يضع لاختراعه أو للشىء الذى صنعه قانون صيانة ، بالله أيخلق سبحانه البشر من عدم وبعد ذلك يتركهم ليتصرفوا كما يشاءون ؟ أم يقول لهم عملوا كذا وكذا ولا تعملوا كذا وكذا ، لكى تؤدوا مهمتكم فى الحياة ؟ إنه يضع دستور الدعوة للإيمان فقال « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم » .

إذن فالمطلوب منهم أن يتقوا ، ومعنى يتقوا أن يقيموا أوقاتهم لأنفسهم بأن يتعبدوا أو مر هذا الرب الإله الذى خلقهم ، وبالله أيجعل خلقهم عبثا إلا إذا كان مشهودا بها له ؟ هو سبحانه يقول : « اتقوا ربكم الذى خلقكم » كأن خلقة رب لنا مشهود بها ، وإلا لو كان مشكوكا فيها لقلنا له بك لم نخلقنا ـ ولله المثل الأعلى

أنت تسمع من يقول لك أحسن مع فلان الذى صنع لك كذا وكذا ، فأنت مقر بأنه صنع أم لا ؟ إذا أقررت بأنه صنع ما صنع فأنت تستجيب لمن يقول لك مثل ذلك الكلام إذن فقول الله : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم » فكأن حق الله للناس ليس محل جدال ولا شك من أحد ، فأراد ـ سبحانه ـ أن يجذبنا إليه ويأخذنا إلى جنابه بالشىء الذى نؤمن به جميعا وهو أنه ـ سبحانه ـ خلقنا إلى الشىء الذى يريده وهو أن نتقى من الله ما يقينا من صفات جلاله ، وجاء سبحانه بكلمة « رب » ولم يقل . « اتقوا الله » ، لأن مفهوم الرب هو الذى خلق من عدم وأمد من عُدْم ، وتعهد وهو الذى ويبلغ بالإنسان مرتبة الكمال الذى يراد منه وهو الذى خلق كل الكون فأحسن الخلق والصنع ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

إذن فقضية الخلق قضية مستقرة . ومادامت قضية مستقرة فمعناها . مادمتم آمنتم بأنى خالقكم على قدرة إذن ، هذه واحدة ، وربيتكم إذن على حكمة ، وإله له قدرة وله حكمة . إما أن نخاف من قدرته فنرهبه وإما أن نشكر حكمته فنقر به ، « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » . لو لم يقل الحق . « وجعل منها زوجها » لما كملت ، لماذا ؟ لأنه سيقول فى آيات أخرى عن الإيجاد

﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

إذن فخلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها هنا ، والناس تريد أن تدخل فى متاهة . من خلق منها المقصود به خلق حواء من ضلع آدم أى من نفس آدم ؟ أناس

قالوا ذلك ، وناس قالوا . لا ، « منها » تعنى من جنسها ، ودللوا على ذلك قائلين . حين يقول الله :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾

(من الآية ١٢٨ سورة التوبة)

أأخذ الله محمدا صلى الله عليه وسلم من نفوس وكونه ؟ لا ، إنما هو رسول من جنسنا البشرى ، وكأنه سبحانه قد أشار إلى دليل ؛ لأن خلق حواء قد انطمست المعالم عنه ، ولأنه أعطانا بيان خلق آدم وتسويته من طين ومراحل خلقه إلى أن صار إنسانا ، ولذلك يجوز أن يكون قد جعل خلق آدم هو الصورة لخلق الجنس الأول ، وبعد ذلك تكون حواء مثله ، فيكون قوله سبحانه . « خلق منها » أى من جنسها ، خلقها من طين ثم صورها إلخ ؛ ولكن لم يعد عليها التجربة فى حواء كما قالها فى آدم ، أو المراد من قوله : « منها » أى من الضلع ، وهذا شىء لم نشهد أوله ، والشىء الذى لم يشهده الإنسان فالحجة فيه تكون بمن شهده ، وسبحانه أراد أن يريحنا من متاهات الظنون فى هذه المسألة ، مسألة كيف خلقنا ، وكيف جئنا ؟

إن كيفية خلقك ليس لك شأن بها ، فالذى خلقك هو الذى يقول لك فاسمع كلامه لأن هذه مسألة لا تتعلق بعلم تجريبى ؛ ولذلك عندما جاء « داروين » وأراد أن يتكبر ويتكلم ، جاءت النظرية الحديثة تهدم كلامه ، قالت النظرية الحديثة لداروين . إن الأمور التى أثرت فى الفرد الأول ليكون إنسانا ، لماذا لم تؤثر فى بقية الفرود ليكونوا أناسا ويعدم جنس القرود ؟! وهذا سؤال لا يجيب عليه داروين ؛ لذلك نقول هذا أمر لم نشهده فيجب أن نستمع لمن فعل ، والحق سبحانه يقول .

﴿ مَآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ومادام لم يشهدهم ، فهل يستطيع أحد منهم أن يأتى بعلم فيها ؟ إن أحدا لا يأتى بعلم فيها ، وبعد ذلك يرد على من يجىء بادعاء علم فيقول « وما كنت متخذ المضلين عضد » ، معنى مضلين أنهم سيضلونكم فى الخلق كأن الله أعطاك مناعة

فى الأقوال الزائفه التى يمكن أن تنشأ من هذا عندما قال : « وما كنت متخذ المضلين عضدا » ، فقد أوضح بأن طبيعة من يضللون فى أصل الخلق وفى كيفية الخلق ، فهم لم يكونوا مع الله ليعاونوه ساعة الخلق حتى يخبروا السر بكيفية الخلق . فإن أردتم أن تعرفوا فاعلموا أنه سبحانه الذى يقول كيف خلقتم وعلى أى صورة كنتم ، ولكن من يقول كذا وكذا ، هم المضللون ، و« المضلون » هم الذين يلفتونكم عن الحق إلى الباطل

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » ولماذا لم يقل خلقكم من زوجين واثنين ؟ لأنه عندما يُردّ الشىء إلى اثنين قد يكون لواحد من الاثنين هوى ، وإنما هذه ردت إلى واحدة فقط ، فيجب ألا تكون لكم أهواء متنازعة ، لأنكم مردودون إلى نفس واحدة . أما عن نظرية « داروين » وما قاله من كلام فقد قيض الله لقضية الدين وخاصة قضية الإسلام علماء من غير المسلمين اهتدوا إلى دليل يوافق القرآن ، فقام العالم الفرنسى « موريه » ، عندما أراد أن يرد على الخرافات التى يقولونها من أن أصل الإنسان كذا وكذا ، وقال أنا أعجب ممن يفكرون هذا التفكير ، هل توجد المصادفة ما نسميه « ذكراً » ثم توجد المصادفة شخصا نسميه « أنثى » ويكون من جنسه لكنه مختلف معه فى النوع بحيث إذا التقيا معا جاءا بذكر كالأول أو بأنثى كالثانى ؟

كيف تعمل المصادفة هذه العملية ؟

نسلم أن المصادفة خلقت آدم ، فهل المصادفة أيضا خلقت له واحدة من جنسه . ولكنها تختلف معه فى النوع بحيث إذا التقيا معا ينشأ بينهما سيال عاطفى حارف وهو أعنف العواطف ، ثم ينشأ منهما تلقيح يُشبه ذكرا كالأول أو يشبه أنثى كالثانى ؟ أى مصادفة هذه ؟ هذه المصادفة تكون عاقلة وحكيمة ، سموها مصادفة ونحن نسميها الله

لقد ظن « موريه » ـ هداه الله إلى الإسلام وغفر له ـ أنه جاء بالدليل الذى يرد به على داروين ، نقول له إن القرآن قد مس هذه المسألة حين قال : « اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس وحدة وخلق منها زوجها » ، وهذه هى

العظمة ، إنه خلق الرجل وخلق الأنثى ؛ وهى من جنسه ، ولكنها تختلف معه فى النوع بحيث إذا التقيا معا أنشأ الله منهما رجالا ونساءً إذن فهو عمليه مقصودة ، وعناية وهداية وحكمة ، إذن نقول الله سبحانه وتعالى : « الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » هذه جاءت بالدليل الذى هُدى إليه العالم الغربى « مونيه » الخبير

« وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » وانظروا عظمة الأسلوب فى قوله « وبث » أى « نشر » وسنقف عند كلمة « نشر » لأن الخلق يجب أن ينتشروا فى الأرض ، كى يأخذوا جميعا من خيرات الله فى الأرض جميعا

و« النشر » معناه تفريق المنشور فى الخير ، فهناك شىء مطوى وشىء آخر منشور ، والشىء المطوى فيه تجميع ، والشىء المنشور فيه تفريق وتوزيع ، إذن فحيز الشىء المتجمع ضيق ، وحيز الشىء المنشوث واسع ، معنى هذا أن الله سبحانه وتعالى حينما يقول : « وبث منهما » أى من آدم وحواء « رجالا كثيرا ونساء » واكتفى بأن يقول « نساء » ولم يقل : كثيرات لماذا ؟ لأن المفروض فى كل ذكورة أن تكون أقل فى العدد من الأنوثة . وأنت إذا نظرت مثلا فى حقل فيه نخل ، تجد كم ذكرا من النخل وكم أنثى ؟ ستجد ذكراً أو اثنين .

إذن القلة فى الذكورة مقصودة لأن الذكر مخصب ويستطيع الذكر أن يخصب آلافا ، فإذا قال الله : « وبث منهما رجالا كثيرا » فالذكورة هى العنصر الذى يفترض أن يكون أقل كثيرا ، فماذا عن العنصر الثانى وهو الأنوثة ؟ لابد أن يكون أكثر ، والقرآن يأتى لينبهك إلى المعطيات فى الألفاظ لأن المتكلم الله ، ولكن إذا نظرت لقوله . « وبث منهما » أى من آدم وحواء وهما اثنان « رجالا كثيرا ونساء » . فكون جمعاً وهذا ليدلك على أن المتكاثر يبدأ بقلة ثم ينتهى بكثرة .

ونريد أن نفهم هذه كى نأخذ منها الدليل الإحصائى على وجود الخالق ، فهو « بث منهما رجالا كثير ونساء » والجمع البشرى الذى ظهر من الاثنين سيبث منه أكثر . . وبعد ذلك بيث من المنشوث اثنان منشوثا ثالثاً ، وكلما امتددنا فى البث تنشأ

كثرة ، وعندما تنظر لأى بلد من البلاد تجد تعداده منذ قرن مضى أقل بكثير جدا من تعداده الآن ، مثال ذلك كان تعداد مصر منذ قرن لا يتعدى خمسة ملايين ، ومن قرنين كان أقل عدداً ، ومن عشرة قرون كان أقل ، ومن عشرين قرنا كان أقل ، إذن فكلما امتد بك المستقبل فالتعداد يزيد ، لأنه سبحانه بث من الذكورة والأنوثة رجالاً كثير ونساء وسيبث منهم أيضاً عددا أكبر

إذن فكلما تقدم الزمن تحدث زيادة فى السكان ، ونحن نرى ذلك فى الأسرة الواحدة ، إن الأسرة الواحدة مكونة عادة من أب وأم ، وبعد ذلك يمكن أن نرى منهما أبناء وأحفاداً وعندما يطيل الله فى عمر أحد الوالدين يرى الأحفاد وقد يرى أحفاد الأحفاد إذن كلما تقدم الزمن بالمتكاثر من اثنين يزداد وكلما رجعت إلى الماضى يقل ؛ فالذين كانوا مليوناً من قرن كانوا نصف مليون من قرنين ، وسلسلها حتى يكونوا عشرة فقط ، والعشرة كانوا أربعة ، والأربعة كانوا اثنين والاثنان هما آدم وحواء .

فعندما يقول الحق إنه خلق آدم وحواء ، وتحاول أنت أن تسلسل العالم كله سترجعه هنا ، ومادام المتكاثر بدأ من الاثنين ، فمن أين جاءا ؟ الحق سبحانه يوضح لنا ذلك بقوله . « إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » وهو بذلك يريحنا من علم الإحصاء . وكان من الضرورى أن يأتى هذه الآية كى تحل لنا اللغز فى الإحصاء ، وكلما أتى لرمن المستقبل كثر العالم وكلما ذهبنا إلى الماضى قل التعداد إلى أن يصير وينتهى إلى اثنين ، وإياك أن تقول إلى واحد ، لأن واحداً لا يأتى منه تكاثر ، فالتكاثر يأتى من اثنين ومن أين جاء الاثنان ؟ لابد أن أحدا خلقهما ، وهو قادر على هذا ، ويعلمنا الله ذلك فيقول . « خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » ونأخذ من « بث » « الانتشار » ، ولو لم يقل الله هذا لكانت العقول الحديثة تتوه وتتيه فى حيرة وتقول . تسلسل الخلق حتى يصيروا اثنين ، والاثنان هذان كيف جاءا ؟ - إذن لابد أن نؤمن بأن أحدا قد أوجدهما من غير شىء

« وبث منهما رجالا كثيرا » لأن الانتشار فى الأرض يجب أن يكون خاصا بالرجل ، فالحق يقول :

﴿ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الجمعة)

والحق يقول :

﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾

(من الآية ١٥ سورة الملك)

والأنثى تجلس في بيتها تديره لتكون سكناً يسكن إليها ، والرجل هو المتحرك في هذا الكون ، وهي بذلك تؤدي مهمتها

وبعدما قال : « اتقوا ربكم » يقول « اتقوا الله » لقد قدم الدليل أولا على أنه إله قادر ، وخلقكم من عدم وأمدكم وسخر العالم لخدمتكم ، وقدم دليل البث في الكون المنشور الذي يوضح أنه إله ، فلا بد أن تتلقوا تعليماته ، ويكون معبوداً منكم ، أي مطاعاً ، والطاعة تتطلب منهجاً : افعل ولا تفعل ، وأنزل الحق القرآن كمنهج حاتم ، ويقول : « واتقوا الله الذي تساءلون به »

انظر إلى « القفشة » ، للخلق الجاحد ، إنه - سبحانه - بعد أن أخذهم بما يتعاملون ويترحمون ويتعاطفون به أوضح لهم أنتم مع أنكم كنتم على فترة من الرسل إلا أن فطرتكم التي تتغافلون عنها تعترف بالله كخالق لكم .

وأنت إذا أردت إنفاذ أمر من الأمور ، وتريد أن تؤثر على من تطلب منه أمراً ، تقول : سألتك بالله أن تفعل ذلك ، لقد أخذ منهم الدليل ، فكونك تقول : سألتك بالله أن تفعل ذلك فلا بد أنك سألته بمعظم ، إذن فتعظيم الله أمر فطري في البشر ، والمطموس هو المنهج الذي يقول فعل ولا تفعل والإنسان من هؤلاء الجاحدين عندما يسهو ، ويطلب حاجة تهمه من آخر ، فهو يقول له سألتك بالله أن تفعل كذا . ومادام قد قال سألتك بالله فكأن هناك قضية فطرية مشتركة هي أن الله هو الحق ، وأنه هو الذي يُسأل به ، ومادام قد سئل بالله فلن يخيِّب رجاء من سأله

إنه في الأمور التي تريدون بها تحقيق مسائلكم تسألون بالله وتسألون أيضاً بالأرحام

وتقولون بحق الرحم الذى بينى وبينك ، أنا من أهلك ، وأنا قريبك وأمنا واحدة ، أرجوك أن تحقق لى هذا الأمر . ولماذا جاءت « الأرحام » هنا ؟ لأن الناس حين يتساءلون بالأرحام فهم يحملون المسئولية من الفرد على الفرد طالبه فى الحكم ، فيادعت أنا وأنت من رحم واحد ، فيجب أن تقضى لى هذا الشىء . إذن فمرة يسألون بالله الذى خلق ، ومرة يسألون بالأرحام لأن الرحم هو السبب المباشر فى الوجود المادى ، ومثال ذلك قول الحق :

﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النساء)

لقد جاء لنا بالوالدين اللذين هما السبب فى إيجادنا ، والله يريد من كل منا أن يبر والديه ، ولكن قبل ذلك لابد أن ينظر إلى الذى أوجدهما ، وأن يُصعد الأمر قليلا ليعرف أن الذى أوجدهما هو الله سبحانه

ويختم الحق الآية بقوله « إن الله كان عليكم رقيبا » ، لأن كلمة « اتقوا » تعنى اجعل بينك وبين غضب ربك وقاية بإنفاذ أوامر الطاعة ، واجتناب ما نهى الله عنه « إن الله كان عليكم رقيبا » ، والرقيب من « رقب » إذا نظر ويقال « مرقب » ، ويحدد مثل هذا المرقب فى المنطقة التى تحتاج إلى حراسه ، حيث يوجد « كشك » مبنى فوق السور ليجلس فيه الحارس كى يراقب ومكان الحراسة يكون أعلى دائما من المنطقة المحروسة ، وكلمة « رقيبا » تعنى ناظراً عن قصد أن ينظر ، ويقولون : فلان يراقب فلانا أى ينظره ، صحيح أن هناك من يراه ذاهباً وآتياً من غير قصد منهم أن يروه ، لكن إن كان مراقباً ، فمعنى ذلك أن هناك من يرصده ، وسبحانه يقول « إن الله كان عليكم رقيبا » فليس الله بصيراً فقط ولكنه رقيب أيضاً ـ ولله المثل الأعلى .

نحن نجد الإنسان قد يبصر مالا غاية له فى إبصاره ، فهو يمر على كثير من الأشياء ويبصرها ، لكنه لا يرقب إلا من كان فى باله والحق سبحانه رقيب علينا جميعا كما فى قوله :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة الفجر)

وبعد أن تكلم سبحانه عن خلق آدم وأمنا وأنه بث منهما رجالاً كثيراً ونساء ، أراد أن يحمي هذه المسألة وأن يحمي المبثوث والمبثوث قسمان قسم اكتملت له القوة وأصبحت له صلاحية في أن يحقق أموره النفعية بذاته ، وقسم ضعيف ليست له صلاحية في أن يقوم بأمر ذاته ، ولأنه سبحانه يريد تنظيم المجتمع ؛ لذلك لابد أن ينظر القادرون في المجتمع إلى القسم الضعيف في المجتمع ، ومن القسم الضعيف الذي يتكلم الله عنه هنا ؟ إنهم اليتامى ، لماذا ؟

لأن الحق سبحانه حينما خلقنا من ذكر وأنثى ، آدم وحواء ، جعل لنا أطواراً طفولية ، فالأب يكدح والأم تحمل ، ويربيان الإنسان التربية التي تنبع من الحنان الذاتي ونعرف أن الحنان الذاتي والعاطفة يوجدان في قلب الأبوين على مقدار حاجة الابن إليهما ، الصغير عادة يأخذ من حنان الأب والأم أكثر من الكبير ، وهذه عدالة في التوزيع ، لأنك إذا نظرت إلى الولد الصغير والولد الكبير والولد الأكبر ، تجد الأكبر أحظهم زمناً مع أبيه وأمه والصغير أقلهم زمناً ، فيريد الحق أن يعوض الصغير فيعطي الأب والأم شحنة زائدة من العاطفة تجاهه ، وأيضا فإن الكبير قد يستغني والصغير مازال في حاجة ، ولذلك قال سبحانه في أخوة يوسف :

﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾

(من الآية ٨ سورة يوسف)

أي أنهم أقوياء وظنوا أنه كان يجب على أبيهم أن يحب الأقوياء وهذا الظن دليل على أن الأب كان يعلم أنهم عصبة لذلك كان قلبه مع غير العصبة ، وهذا هو الأمر الطبيعي ، فهم جاءوا بالدليل الذي هو ضدهم .

إذن فنحن يوجد الناشيء الذي يحتاج إلى أن يُربَّى لتربية التي يعين عليها الحنان والعطف ، فلا بد أن نأتي لليتيم الذي فقد مصدر الحنان الأساسي ونقس له ، ويأتي الحق سبحانه وتعالى ليوزع المجتمع الإنساني قطاعات ، ويجعل كل واحد القطاع المباشر به ، فإذا هطل كل واحد منا القطاع المباشر له تتداخل العطايات في القطاعات ، هذا سيذهب لأبيه وأمه ولأولاد أخيه ، وهذا كذلك ، فتتجمع الدوائر . وبعد ذلك يعيش المجتمع كله في تكافل ، وهو سبحانه يريد أن يجعل وسائل الحنان ذاتية في كل نفس ، ومادام اليتيم يقيم معنا كفرد فلا بد من العناية به .

إن اليتيم فرد فقد العائل له ولذلك يقولون : « درة يتيمة » أى وحيدة فريدة ، وهكذا اليتيم وحيد فريد ، إلا أنهم جاءوا فى الإنسان وفى الأنعام وفى الطير وقالوا اليتيم فى الإنسان من فقد أباه ، واليتيم فى الأنعام من فقد أمه ، لماذا ؟ لأن الأنعام مطروقة تلقح الذكور فيها الإناث وتنتهى . ولأم هى التى تربى وترضع ؛ فإذا جاء أحد آخر يمسها تنفر منه

أما اليتيم فى الطير فمن فقدهما معاً ، فالطير عادة الزوج منها يألف الآخر ؛ ولذلك يتخذان عشا ويتناوبان العناية بالبيض ويعملان معا ففيه حياة أسرية ، والحق سبحانه وتعالى جاء فى اليتيم الذى هو مظهر لضعف فى الأسوة الإنسانية وأراد أن يقنن له فقال :

﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾

وكيف نؤتى اليتيم ماله وهو لم يبلغ سلم الرجال بعد ، ونخشى أن نعطيه المال فيضيعه ؟

انظر إلى دقة العبارة فى قوله من بعد ذلك :

﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

وقبل ذلك ماذا نفعل ؟ هل ندفع لهم الأموال ؟ الحق يوضح أمك ساعة تكون ولياً على مال لليتيم فاحرص جيدا أن تعطى هذا اليتيم ماله كاملا بعد أن يستكمل نضجه

كاملا ، فأنت حفيظ على هذا المال ، وإياك أن تحفظ مالك بماله أو تتبدل منه ، أي تأخذ الجميل والثمين من عنده وتعطيه من مالك الأقل جمالا أو فائدة .

إذن فقوله « وآتوا اليتامى أموالهم » أي أن الله جعل المال لليتيم ولم يجعل للقيِّم عليه أن يتصرف في هذا المال إلا تصرف صيانة ، وأيضا هنا ملحظ آخر هو ما شرحه لنا « وابتلوا اليتامى » فهناك أناس يريدون أن يعطوا أمد الوصاية على اليتيم ، لكي ينتفع الواحد منهم بهذا المال فيوضح سبحانه لا تنتظر إلى أن يبلغ الرشد ثم تقول نظره ، لا أنت تدربه بالتجربة في بعض التصرفات وتنظر أيحسن التصرف أم لا ؟

إن قول الحق . « وابتلوا اليتامى » أي اختبروهم ، هل يستطيعون أن يقوموا بمصالحهم وحدهم ؟ فإن استطاعوا فاطمئنوا إلى أنهم ساعة يصلون إلى حد الحلم سيحسنون التصرف ، أعطوهم أموالهم بعد التجربة ؛ لأن اليتيم يعيش في قصور عمري ، وهو سبحانه يفرق بين اليتيم والسفيه ، فالسفيه لا يعاني من قصور عمري بل من قصور عقلي ، وعندما تكلم سبحانه عن هذه المسألة قال :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

فهل هي أموالكم ؟ لا فحين يكون المرء سفيها فاعلم أنه لا إدارة له عن ملكه ، وتنتقل إدارة الملكية إلى من يتصرف في المال تصرفا حكيما ، فاحرص على أن تدير مال السفيه كأنه مالك ؛ لأنه ليس له قدرة على حسن التصرف لكن لما يبلغ اليتيم إلى مرحلة البأمة والنكاح والرشد يقول الحق .

﴿ فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

إنه سبحانه يقول مرة في الوصاية : « أموالكم » وفي العطاء يقول : « أموالهم » إذن فهو يريد ألا تبدد المال ، ثم يوضح احرص على ثروة اليتيم أو السفيه وكأنها مالك ؛ لأنه مادام سفيها فمسئوليه الولايه مطلوبة منك ، والمال ليس ممكنا لك حد منه ما يقابل إداره المال وقت السفه أو اليتم ، وبعد ذلك يأتي الحق سبحانه

وتعالى ليعلم القائمين على امر اليتامى او على أمر اسفهاء الذين لا يحسنون إداره أموالهم فيقول

﴿ وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

اجعلوا الرزق مما يخرج منها ، وإياكم أن تنفقوها عندكم ، وإلا فما قيمة ولايتك ووصايتك وقيامك على أمر السفيه أو اليتيم ؟ إنك تشمر له المال لا أن تأكله أو لا تحسن التصرف فيه بحيث ينقص كل يوم ، لا «وارزقوهم فيها» ، وفي « هنا للسببية ، أي ارزقوهم بسببها ، ارزقوهم رزقا خارجا منها

« وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب » والخبيث هو الحرام والطيب هو الحلال ، ولا تتبدلو الخبيث بالطيب ، فقد يكون ضمن مال اليتيم شيء جميل ، فيأخذه الوصي لنفسه ويستبدله بمثل له قبيح ، مثال ذلك ، أن يكون ضمن مال اليتيم فرس جميل ، وعند الوصي فرس قبيح فيأخذه ويقول فرس بفرس ، أو جاموسة مكان جاموسه ، أو نحله عنده نحلة لا تثمر ، هنا يقول الحق . « ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب »

وقوله سبحانه وتعالى.« ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم » يعني إياكم ألا تجعلوا فرق بين أموالهم وأموالكم فتأكلوا هذه مع تلك ، بل فرقوا بين أكل أموالكم والحفاظ على أموالهم لماذا ؟ تأتي الإجابة « إنه كان حوبا كبيرا » أي إثما عظيما

ثم ينتقل الحق إلى قضية أخرى يجتمع فيها ضعف اليتم ، وضعف النوع : ضعف اليتم سواء أكان ذكراً أم أنثى ، وإن كانت الأنثى فالبلوى أشد ! فهي قد يجتمع عليها ضعف اليتم وضعف النوع . طبعا فاليتيمة عندما تكون تحت وصاية وليها ، يجوز أن يقول إنها تملك مالا فلماذا لا أتزوجها لكي آخذ المال ؟ وهذا يحدث كثيرا

ولذلك يقول الحق سبحانه

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ ﴾

هنا يؤكد الحق الأمر بأن ابتعدوا عن اليتامى فاليتيم مظنة أن يُظلم بضعفه ، وبخاصة إذا كان أنثى إنّ الظلم بعامة محرم فى غير اليتامى ، ولكن الظلم مع الضعيفة كبير ، فهى لا تقدر أن تدفع عن نفسها ، فالبالغة الرشيدة من النساء قد تستطيع أن تدفع الظلم عن نفسها وقوله الحق . « وإن خفتم ألا تقسطوا » من « أقسط » ، أى عدل ، والقسط من الألفاظ التى تختلط الأذهان فيها ، و« القسط » مرة يطلق ويراد به « العدل » ، إذا كان مكسور القاف ، ولذلك يأتى الحق سبحانه فيقول :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا نعرف أن كلمة « قسط » تأتى مرة للعدل ومرة للجور .

فـ« قسط » و« يقسط » و« قسطا » و« قسوطا » أى ظلم بفتح القاف فى « قسط » وضمها فى « قسوط » .

والقِسط بكسر القاف هو العدل والقَسط بفتح القاف - كما قلنا - هو الظلم وهناك مصدر ثالث هو « قسوط » لكن الفعل واحد ، وعندما يقول الحق : « وإن خفتم ألا تقسطوا » من أقسط أى خفتم من عدم العدل وهو الظلم . وهناك فى اللغة ما نسميه همزة الإزالة ، وهى همزة تدخل على الفعل فتزيله ، مثال ذلك . فلان عتب على فلان ، أى لامه على تصرف ما ، ويقال لمن تلقى العتاب عندما يرد

على صاحب العتاب : اعتبه ، أى طمأن خاطره وأزال مصدر العتاب

ويقال : محمد عتب على عليّ فماذا كان موقف على ؟ يقال أعتب محمداً أى طيب خاطره وأزال العتاب . ويقال أعجم الكتاب فلا تفهم من ذلك أنه جعل الكتاب معجما ، لا ، فأعجمه أى أزال إبهامه وغموضه كذلك « أقسط » أى أزال القسط والظلم إذن « القسط » هو العدل من أول الأمر . لكن « أقسط إقساطاً » تعنى أنه كان هناك جور أو ظلم وتم رفعه والأمر ينتهى جميعه إلى العدل . فالعدل إن جاء ابتداء هو : قِسط بكسر القاف وإن جاء بعد جور تمت إزالته فهو إقساط . فحين يقال « أقسط » و« تقسطو » بالضم ، فمعناه أنه كان هناك جور وظلم تم رفعه ، ولذلك فعندما نقرأ القرآن نجده يقول :

﴿ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة الجن)

والقاسطون هنا من القسط ـ بالفتح ـ ومن القسوط بالضم ، أى من الجور والظلم ، ونجد القرآن الكريم يقول أيضا :

﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة المائدة)

اى أن الله يحب الذين إن رأوا ظلما أزالوه وأحلوا محله العدل

الجور هنا فى سورة النساء يقول : « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى » أى إن خفتم ألا ترفعوا الظلم عن اليتامى ، ومعنى أن تخاف من ألا تقسط لأنك بلا تعرف كيف تنقذ نفسك من مواطن الزلل أى فإن خفتم أيها المؤمنون ألا ترفعوا الجور عن اليتامى فابتعدوا عنهم وليسد كل مؤمن هذه الذريعة أمام نفسه حتى لا تحدثه نفسه بأن يجور على اليتيمة فيظلمها وإن أراد الرجل أن يتزوج فأمامه من غير اليتامى الكثير من النساء

ومادامت النساء كثيرات فالتعدد يصبح واردا ، فهو لم يقل : اتزوج واحدة واحد

واحدة ، لكنه أوضح . اترك اليتيمة وأمامك النساء كثيرات إذن فقد ناسب الحال أن تجيء مسألة العدد هنا ، لأنه سبحانه وتعالى يريد أن يرد لرجل الولى عن نكاح اليتيمات مخافة أن يظلمهن ، فأمره بأن يترك الزواج من اليتيمة الصغيرة ؛ لأن النساء غيرها كثيرات . « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع »

وقوله الحق : « ما طاب لكم من النساء » أى غير المحرمات فى قوله تعالى

﴿ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة النساء)

وفى قوله سبحانه

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ ﴾

(سورة النساء)

إذن فما طاب لكم من النساء غير المحرمات هن اللاتى يحسن للرجل « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت

أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا » وهنا يجب أن نفهم لماذا جاء هذا النص ؛ ولماذا جاء بالمثنى والثلاث والرباع هنا ؟

إنه سبحانه يريد أن يُرهِّد الناس في نكاح اليتيمات مخافة أن تأتي إلى الرجل خطبة ضعف فيتزوج اليتيمة طمعا في مالها ، فأوضح سبحانه اترك اليتيمة ، والنساء غيرها كثير ، فأمامك مثنى وثلاث ورباع ، وابعد عن اليتيمة حتى لا تكون طامعا في مالها أو ناظراً إلى صغرها أو لأنها لم يعد لها وليّ يقوم على شأنها غيرك .

ونريد أن نقف هنا وقفة أمام قوله تعالى « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » ما معنى مثنى ؟ يقال « مثنى » أي اثنين مكررة ، كأن يقال جاء القوم مثنى ، أي ساروا في طابور وصف مكون من اثنين اثنين . هذا يدل على الوحدة الثنائية .

ويقال . جاء القوم ثلاث ، أي ساروا في طابور مكون من ثلاثة ، ثلاثة ويقال جاء القوم رباع . أي جاء القوم في طابور يسير فيه كل أربعة خلف أربعة أخرى

ولو قال واحد : إن المقصود بالمثنى والثلاث والرباع أن يكون المسموح به تسعة من النساء نقول له : لو حسبنا بمثل ما تحسب ، لكان الأمر شاملا لغير ما قصد الله ، فالمثنى تعني أربعة ، والثلاث تعني ستة ، والرباع تعني ثمانية . وبذلك يكون العدد ثمانية عشر ، ولكنك لم تفهم ، لأن الله لا يخاطب واحداً ، لكن الله يخاطب جماعة ، فيقول « وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع »

فإذا قال مدرس لتلاميذه : افتحوا كتبكم ، أيعني هذا الأمر أن يأتي واحد ليفتح كل الكتب ؟ لا ، إنه أمر لكل تلميذ بأن يفتح كتابه ، لهذا فإن مقابلة الجمع بالجمع تقتضي القسمة آحاداً

وعندما يقول المدرس أخرجوا أقلامكم أي على كل تلميذ أن يخرج قلمه

وعندما يقال اركبوا سياراتكم ، أي أن يركب كل واحد سيارته إذن فصيغة الجمع بالجمع تقتضي القسمة آحاداً ، وقوله الحق : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا » هو قول بخاطب جماعة ، فواحد ينكح اثنتين وآخر ينكح ثلاث نساء ، وثالث ينكح أربع نساء

والحق سبحانه وتعالى حينما يشرع الحكم يشرعه مُرة إيجاباً ومرة يشرعه إباحةً ، فلم يوجب ذلك الأمر على الرجل ، ولكنه أباح للرجل ذلك ، وفيه فرق واضح بين الإيجاب وبين الإباحة . والزواج نفسه حق من واحدة مباح إذن ففيه فرق بين أن يلزمك الله أن تفعل وأن يبيح لك أن تفعل وحين يبيح الله لك أن تفعل ، ما المرجح في فعلك ؟ إنه مجرد رغبتك .

ولكن إذا أخذت الحكم ، فخذ الحكم من كل جوانبه ، فلا تأخذ الحكم ، بإباحة التعدد ثم تكف عن الحكم بالعدالة ، وإلا سينشأ الفساد في الأرض ، وأول هذا الفساد أن يشكك الناس في حكم الله . لماذا ؟ لأنك إن أخذت التعدد ، وابتعدت عن العدالة فأنت تكون قد أخذت شقا من الحكم ، ولم تأخذ الشق الآخر وهو العدل ، فالناس تجنح أمام التعدد وتبتعد وتميل عنه لماذا ؟ لأن الناس شقوا كثيراً بالتعدد أخذاً لحكم الله في التعدد وتركاً لحكم الله في العدالة .

والمنهج الإلهي يجب أن يؤخذ كله ، فلماذا تكره الزوجة التعدد ؟ لأنها وجدت أن الزوج إذا ما تزوج واحدة عليها التفت بكليته وبحبه وبابتسامته وحنانه إلى الزوجة الجديدة ، لذلك فلابد للمرأة أن تكره زواج الرجل عليها بامرأة أخرى

إن الذين يأخذون حكم الله في إباحة التعدد يجب أن يلزموا أنفسهم بحكم الله أيضا في العدالة ، فإن لم يفعلوا فهم يشيعون التمرد على حكم الله ، وسيجد الناس حيثيات لهذا التمرد ، وسيقال انظر ، إن فلاناً تزوج بأخرى وأهمل الأولى ، أو ترك أولاده دون رعاية واتجه إلى الزوجة الجديدة .

فكيف تأخذ إباحة الله في شيء ولا تأخذ إلزامه في شيء آخر ، إن من يفعل ذلك

يشكك الناس فى حكم الله ، ويجعل الناس تتمرد على حكم الله ـ والسطحيون فى الفهم يقولون : إنهم معذورون ، وهذا منطق لا يتأتى

إن آفة الأحكام أن يؤخذ حكم جزئى دون مراعاة الظروف كلها ، والذى يأخذ حكما عن الله لابد أن يأخذ كل منهج الله .

هاب إنساناً عدل فى العشرة وفى النفقة وفى البيتوتة وفى المكان وفى الزمان ولم يرجح واحدة على أخرى ، فالزوجة الأولى إن فعلت شيئاً فهى لن تجد حيثية لها أمام الناس . أما عندما يكون الأمر غير ذلك فإنها سوف تجد الحيثية للاعتراض ، والصراخ الذى نسمعه هذه الأيام إنما نشأ من أن بعضاً قد أخذ حكم الله فى إباحة التعدد ولم يأخذ حكم الله فى عدالة المعدد . والعدالة تكون فى الأمور التى للرجل فيها خيار . أما الأمور التى لا خيار للرجل فيها فلم يطالبه الله بها .

ومن السطحيين من يقول إن الله قال : اعدلوا ، ثم حكم أننا لا نستطيع أن نعدل. نقول لهم : الله أعدا تشريع ؟، أيعطى الله باليمين ويسحب بالشمال ؟ ألم يشرع الحق على عدم الاستطاعة فقال :

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

ومادام قد شرع على عدم الاستطاعة فى العدل المطلق فهو قد أبقى الحكم ولم يلغه ، وعلى المؤمن ألا يجعل منهج الله له فى حركة حياته عصيين بمعنى أنه يأخذ حكما فى صالحه ويترك حكما إن كان عليه . فالمنهج من الله يؤخذ جملة واحدة من كل الناس ؛ لأن أى انحراف فى فرد من أفراد الأمة الإسلامية يصيب المجموع بضرر . فكل حق لك هو واجب عند غيرك ، فإن أردت أن تأخذ حقك فأد واجبك . والذين يأخذون حكم الله فى إباحة التعدد يجب أن يأخذوا حكم الله أيضا فى العدل ، وإلا أعطوا خصوم دين الله حججا قوية فى إبطال ما شرع الله ، وتغيير ما شرع الله بحجة ما يرونه من آثار أخذ حكم وإهمال حكم آخر .

والعدل المراد فى التعدد هو القسمة بالسوية فى المكان ، أى أن لكل واحدة من المتعددات مكاناً يساوى مكان الأخرى ، وفى الزمان ، وفى متاع المكان ، وهى يخص الرجل من متاع نفسه ، فليس له أن يجعل شيئا له قيمة عند واحدة ، وشيئاً لا قيمة له عند واحدة أخرى ، يأتى مثلا ببحامة « سامة » صُوف ويضعها عند واحدة ، ويأتى بأخرى من قماش أقل جودة ويضعها عن واحدة ، لا لابد من المساواة ، لا فى متاعها فقط ، بل متاعك أنت الذى تتمتع به عندها ، حتى أن بعض المسلمين الأوائل كان يساوى بينهن فى النعال التى يلبسها فى بيته ، فيأتى بها من لون واحد وشكل واحد وصنف واحد ، وذلك حتى لا تَدِلّ واحدة منهن على الأخرى قائلة إن زوجى يكون عندى أحسن هنداماً منه عندك والعدالة المطلوبة ـ أيضاً ـ هى العدالة فيما يدخل فى اختيارك ؛ لأن العدالة التى لا تدخل فى اختيارك لا يكلف الله بها ، فأنت عدلت فى المكان ، وفى الزمان ، وفى المتاع لكل واحدة ، وفى المتاع لك عند كل واحدة ، ولكن لا يطلب الله منك أن تعدل بميل قلبك وحب نفسك ؛ لأن ذلك ليس فى مكنتك .

والرسول صلى الله عليه وسلم يعطينا هذا فيقول : عن عائشة رضى الله عنها قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم ويعدل ويقول : « اللهم هذ قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » يعنى القلب)[1] .

إذن فهذا معنى قول الحق :

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة النساء)

لأن هناك اشياء لا تدخل فى قدرتك ، ولا تدخل فى اختيارك ، كأن ترتاح نفسياً عند واحدة ولا ترتاح نفسياً عند أخرى ، أو ترتاح جنسياً عند واحدة ولا ترتاح عند أخرى ، لكن الأمر الظاهر للكل يجب أن تكون فيه القسمة بالسوية حتى لا تَدِلّ واحدة عن واحدة . وإذ كان هذا فى النساء المتعددات ـ وهن عوارض ـ حيث من الممكن أن يخرج الرجل عن أى امرأة ـ بطلاق أو فراق فما بالك بأولادها منه ؟ لابد أيضا من العدالة .

---

١ ـ رواه الإمام أحمد وأبو داود والدارمى

والذى يفسد جو الحكم المنهجى لله أن أناساً يجعلون رجلاً عنّد ، فأخذ إباحة الله فى التعدد ، ثم لم يعدل ، فوجدوا أبناءه من واحدة مهملين مشردين ، فيأخذون من ذلك حجة على الإسلام والذين حاولوا أن يعدلوا ما فعلوا فى قوانين الأحوال الشخصية إنما نظروا إلى ذلك ، التباين الشديد الذى يجدثه بعض الآباء الحمقى نتيجة تفضيل أباء واحدة على أخرى فى المأكل والملبس والتعليم !

إذن فالمسلم هو الذى يهجر دينه ويعرضه للنقد والنيل من أعدائه له فكل إنسان مسلم على ثغرة من ثغرات دين الله تعالى فعليه أن يصون أقواله وأفعاله وحركاته وسكناته من أى انحراف أو شطط ، لأن كل مسلم بحركته وبتصرفه يقف على ثغرة من منهج الله ، ولا تظنوا أن الثغرات فقط هى الشىء الذى يدخل منه أعداء الله على الأرض كالثغور ، لا ، الثغرة هى الفجوة حتى فى القيم يدخل منها خصم الإسلام ليقال من الإسلام

إنك إذا ما تصرفت تصرفاً لا يليق فأنت فتحت ثغرة لخصوم الله . فسُدَّ كل ثغرة من هذه الثغرات ، وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد توسع فى العدل بين الزوجات توسعاً لم يقف به عند قدرته ، وإن وقف به عند اختياره ، فالرسول صلى الله عليه وسلم حين مرض كان من الممكن أن يعذره المرض فيستقر فى بيت واحدة من نسائه ، ولكنه كان يأمر بأن يحمله بعض الصحابة ليطوف على بقية نسائه فى أيامهن فأخذ قدرة الغير . وكان إذا سافر يقرع بينهن ، هذه هى العدالة

وحين توجد مثل هذه العدالة يشيع فى الناس أن الله لا يشرع إلا حقاً ، ولا يشرع إلا صدقاً ، ولا يشرع إلا خيراً ، ويسد الباب على كل خصم من خصوم دين الله ، حتى لا يجد ثغرة ينفذ منها إلى ما حرم دين الله ، وإن لم يستطع المسلم هذه الاستطاعة فليلزم نفسه بواحدة . ومع ذلك حين يلزم المسلم نفسه بزوجة واحدة ، هل انتفت العدالة مع النفس الواحدة ؟ لا ، فلا يصح ولا يستقيم ولا يجمل أن يهمل الرجل زوجه . ولذلك حينما شكت امرأة إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن زوجها لا يأتى إليها وهى واحدة وليس لها ضرائر ، فكان عنده أحد الصحابة ، فقال له : أفتها « أى أعطها الفتوى » .

قال الصحابي لك عنده أن يبيت عندك الليلة الرابعة بعد كل ثلاث ليال .

ذلك أن الصحابي فرض أن لها شريكات ثلاثا ، فهي تستحق الليلة الرابعة . وسر عمر - رضي الله عنه - من الصحابي ، لأنه عرف كيف يفتي حتى في أمر المرأة الواحدة

إذن قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة النساء)

أي لا تظنوا أن المطلوب منكم تكليفيّ هو العدالة حتى في ميل القلب وحبه ، لا إنما العدالة في الأمر الاختياري ، وعادم الأمر قد خرج عن طاقة النفس وقدرتها فقد قال - سبحانه - « فلا تميلوا كل الميل » . ويأخذ السطحيون الذين يريدون أن يبرروا الخروج عن منهج الله فيقولوا : إذن المطلوب هو العدل وقد حكم الله أننا لا نستطيع العدل .

ولهؤلاء نقول : هل يعطي ربنا باليمين ويأخذ بالشمال ؟ فكأنه يقول . اعدلوا وأنا أعلم أنكم لن تعدلوا ؟ فكيف يتأتى لكم مثل هذا الفهم ؟ إن الحق حين قال : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » أي لا يتعدى العدل ما لا تملكون من الهوى والميل ، لأن ذلك ليس في إمكانكم ، ولذلك قال « فلا تميلوا كل الميل »

نقول ذلك للذين يريدون أن يطلقوا الحكم غير واعين ولا فاهمين عن الله ، ونقوله كذلك للفاهمين الذين يريدون أن يدلسوا على منهج الله ، وهذه المسألة من المسائل التي تتعرض للأسرة ، ويريها الرجل فهب أن رجلاً ليس له ميل إلى زوجته ، فماذا يكون الموقف ؟ أمن الأحسن أن يطلقها ويسرحها ، أم تظل عنده ويأتي بامرأة تستطيع نفسه أن ترتاح معها ؟ أو يظل عرائره في أعراض الناس ؟

إن الحق حينما شرّع ، إنما شرع ديناً متكاملاً ، لا تأخذ حكماً منه لتترك حكمي آخر .

والأحداث التي أرهقت المجتمعات غير المسلمة أجأتهم إلى كثير من قضايا الإسلام . وأنا لا أحب أن أطيل ، هناك بعض الدول تكلمت عن إباحة التعدد لا لأن الإسلام قال به ، ولكن لأن ظروفهم الاجتماعية حكمت عليهم أنه لا يحل مشاكلهم إلا هذا ، حتى يبهروا مسألة الخليلات والخليلات هنّ اللاتي يذهب إليهن الرجال ليهتكوا أعراضهن ويأتوا منهن بلقطاء ليس لهم أب .

إنّ من الخير أن تكون المرأة الثانية ، امرأة واضحة في المجتمع ومسألة زواج الرجل منها معروفة للجميع ، ويتحمل هو عبء الأسرة كلها . ويمكن لمن يريد أن يستوضح كثيراً من أمر هؤلاء الناس أن يرجع إلى كتاب تفسير في هذا الموضوع للدكتور محمد شحاتة حيث أورد قائمة بالدول وقراراتها في إباحة التعدد عند هذه الآية

وهنا يجب أن ننتبه إلى حقيقة وهي : أن التعدد لم يأمر به الله ، وإنما أباحه ، فالذي ترهقه هذه الحكاية لا يعدد ، فالله لم يأمر بالتعدد ولكنه أباح للمؤمن أن يعدد وإباحة أمر يكون المؤمن حراً فيه يستخدم رخصة الإباحة أو لا يستعملها ، ثم لنبحث بحثاً آخر إذا كان هناك تعدد في طرف من طرفين فإن كان الطرفان متساويين في العدد ، فإن التعدد في واحد لا يتأتى ، ولمثل هو كالآتي :

إذا دخل عشرة أشخاص حجرة وكان بالحجرة عشرة كراسي فكل واحد يجلس على كرسي ، ولا يمكن بطبيعة الحال أن يأخذ واحد كرسياً للجلوس وكرسياً آخر ليمد عليه ساقيه ، لكن إذا كان هناك أحد عشر كرسياً ، فواحد من الناس يأخذ كرسياً للجلوس وكرسياً آخر ليستند عليه ، إذن فتعدد طرف في طرف لا ينشأ إلا من فائض . فإذا لم يكن هناك فائض ، فالتعدد ـ واقعاً ـ يمتنع ، لأن كل رجل سيتزوج امرأة واحدة وتنتهي المسألة ، ولو أراد أن يعدد لزواج فلن يجد .

إذن فإباحة التعدد تعطينا أن الله قد أباحه وهو يعلم أنه ممكن لأن هناك فائضاً . والفائض كما قلت معلوم ، لأن عدد ذكور كل نوع من الأنواع أقل من عدد الإناث . وضربنا المثل من قبل في النحل وكذلك البيض عندما يتم تخريجه ؛ فإننا نجد عدداً

قليلاً من السيوك والنقية إناث إذن فالإناث فى النبات وفى الحيوان وفى كل شىء أكثر من الذكور .

وإذا كانت الإناث أكثر من الذكور ، ثم أخذ كل ذكر مقابله فما مصير الأعداد التى تفيض وتزيد من الإناث ؟ إما أن تعف الرائدة فتكبت غرائزها وتضطر ، وتفس فى كثير من تصرفاتها بالنسبة للرجل وللمحيط بالرجل ، وإما أن تنطلق ، تنطلق مع من ؟ إنها تنطلق مع متزوج وإن حدث ذلك فالعلاقات الاجتماعية تفسد .

ولكن الله حين أباح التعدد أراد أن يجعل منه مندوحة لامتصاص الفائض من النساء ، ولكن بشرط العدالة . وحين يقول الحق . « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » أى إن لم تستطع العدل الاختيارى فيلزم الإنسان بواحدة .

وبعد ذلك يقول الحق : « أو ما ملكت أيمانكم » .

وهناك من يقف عند « ما ملكت أيمانكم » ويتجادل ، ونطمئن هؤلاء الذين يقفون عند هذا القول ونقول : لم يعد هناك مصدر الآن لملك اليمين ، لأن المسلمين الآن فى خنوع ، وقد اجترأ عليهم الكفار ، وصاروا يقتطعون دولاً من دولهم . وما هبّ المسلمون ليقفوا حماية أرض إسلامية . ولم تعد هناك حرب بين مسلمين وكفار ، بحيث يكون فيه أسرى ، وما ملك اليمين » .

ولكنا ندافع عنه أيام كان هناك ملك يمين . ولنر المعنى الناضج حين يبيح الله متعة السيد بما ملكت يمينه ، انظر إلى المعنى ، فالإسلام قد جاء ومن بين أهدافه أن يصفى الرِّق ، ولم يأت ليجىء بالرق .

وبعد أن كان لتصفية الرق سبب واحد هو إرادة السيد . عدَّد الإسلام مصارف تصفية الرق ، فارتكاب ذنب ما يقال للمذنب : اعتق رقبة كفارة اليمين . وكفارة ظهار فيؤمر رجل ظاهر من زوجته بأن يعتق رقبة وكفارة فطر فى صيام ، وكفارة قتل . . إلخ . . إذن فالإسلام يوسع مصارف العتق .

ومن يوسع مصارف العتق أيريد أن يبقى عن الرق ، أم يريد أن يصفيه ويمحوه ؟

ولنفترض أن مؤمناً لم يذنب ، ولم يفعل ما يستحق أن يعتق من أجله رقبة ، وعنده جوار ، هنا يضع الإسلام القواعد لمعاملة الجوارى .

- إن لم يكن عندك ما يستحق التكفير ، فعليك أن تطعم الجارية مما تأكل وتلبسها مما يلبس أهل بيتك ، لا تكلفها ما لا تطيق ، فإن كلفتها فأعنها . أى فصل هذا ، بدها بيد سيدها وسيدتها ، فما الذى ينقصها ؟ إن الذى ينقصها إرواء إلحح الغريزة ، وخاصة أنها تكون فى بيت للرجل فيه امرأة ، وتراها حين تتزين لزوجها ، وتراها حين تخرج فى الصباح لتستحم ، والنساء عندهن حساسية لهذ الأمر ، فتصوروا أن واحدة مما ملكت يمين السيد بهذه المواقف ؟ ألا تهاج فيها الغرائز ؟

حين يبيح الله للسيد أن يستمتع بها وأن تستمتع به ، فإنه يرحمها من هذه الناحية ويعلمها أنها لا تقل عن سيدتها امرأة الرجل فتمنع مثلها ويريد الحق أيضا أن يعمق تصفية الرق ، لأنه إن زوجها من رجل رقيق فإنها تظل جارية أمة ، والذى تلده يكون رقيقا ، لكن عندما تتمتع مع سيدها وتأتى منه بولد ، فإنها تكون قد حررت نفسها وحررت ولدها ، وفى ذلك زيادة فى تصفية الرق ، وفى ذلك إكرام لغريزتها . لكن الحمقى يريدون أن يؤاخذوا الإسلام على هذا !!

يقول الحق « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا » فالعدل أو الاكتفاء بواحدة أو ما ملكت اليمين ، ذلك أقرب ألا تجوروا وبعض الناس يقول « أدنى ألا تعولو » أى ألا تكثر ذريتهم وعيالهم ونقول لهم : إن كان كذلك فالحق أباح ما ملكت اليمين ، وبذلك يكون السبب فى وجود العيال قد اتسع أكثر ، وقوله « ذلك أدنى ألا تعولوا » أى أقرب ألا تظلموا وتجوروا ، لأن العول فيه معنى الميل ، والعول فى الميراث أن تزيد أسهم الأبناء على الأصل ، وهذا معنى عالت المسألة ، وإذا ما زاد العدد فإن النصيب فى التوزيع ينقص

وبعد ذلك يقول الحق

﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ ﴾

والمقصود بـ « صدقاتهن » هو المهور ، و« النحلة » هى العطية ، وهل الصداق عطية ؟ لا إنه حق واجر بضع ولكن الله يريد أن يوضح لنا : أنّى عليكم إيتاء المهور للنساء نحلة ، أى وازع دين لا حكم قضاء ، والنحلة هى العطية

وانظر إلى النعمات الإلهية والأداء الإلهى للمعانى ، لأنك إن نظرت إلى الواقع فستجد الآتى .

الرجل يتزوج المرأة ، وللرجل فى المرأة متعة ، وللمرأة أيضا متعة أى أن كُلاًّ منهما له متعة وشركه فى ذلك ، وفى رغبة الإعجاب ، وكان من المفترض ألا تأخذ شيئاً ، لأنها ستستمتع وأيضا قد تجد ولداً لها ، وهى ستعمل فى المنزل والرجل سيكدح خارج البيت ، ولكن هذه عطية قررها الله كرامة للنساء « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة » والأمر فى « آتوا » لمن ؟ إما أن يكون للزوج فقوله . « وآتوا النساء صدقاتهن » يدل على أن المرأة صارت زوجة الرجل ، وصار الرجل ملزماً بالصداق ومن الممكن أن يكون ديناً إذا تزوجها بمهر فى ذمته يؤديه لها عند يساره . وإمّا أن يكون الأمر لولى أمرها فالذى كان يزوجه أخته مثلا ، كان يأخذ المهر له ويتركها دون أن يعطيها مهرها ، والأمر فى هذه الآية - إذن - إما أن يكون للأرواح وإما أن يكون للأولياء وحين يُشرِّع الحق لحماية الحقوق فإنه يفتح المجال لأريحيات الفضل .

لذلك يقول : « فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئاً مريئاً »

لقد عرَّف الحق الحقوق أولاً بمخاطبة الزوج لو ولى الأمر فى أن مهر لزوجة لها لأنه أجر البضع . ولكنه سبحانه فتح باب أريحية الفضل فإن تنازلت الزوجه فهذا أمر آخر ، وهذا ادعى أن يوصل العلاقة الزوجية وأن يؤدم بينهما . والمراد هنا هو طيب

النفس ، وإياك أن تأخذ شيئاً من مهر الزوجة التي تحت ولايتك بسبب الحياء ، فالمهم أن يكون الأمر عن طيب نفس . « فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً » . والهنيء هو الشيء المأكول وتستسيغه حين يدخل فمك لكنك قد تأكل شيئاً هنيئاً في اللذة وفي المضغ وفي الأكل ولكنه يورث متعبة صحية . إنه هنيء ، لكنه غير مريء والمقصود هو أن يكون طيب الطعم وليس له عواقب صحية رديئة وهو يختلف عن الطعام الهنيء غير المريء الذي يأكله الإنسان فيطلب من بعده العلاج

إذن فكل أكل يكون هنيئاً ليس من الضروري أن يكون مريئاً وعلينا أن نلاحظ في الأكل أن يكون هنيئاً مريئاً

والإمام عليّ - رضوان الله عليه وكرم وجهه - جاء له رجل يشتكي وجعاً ، والإمام عليّ - كما نعرف - مدينة العلم والفتيا ، وهبه الله مقدرة على إبداء الرأي والفتوى

لم يكن الإمام عليّ طبيباً .. لكن الرجل كان يطلب علاجاً من فهم الإمام عليّ وإشراقاته .

قال الإمام عليّ للرجل : خذ من صداق امرأتك درهمين واشتر بهما عسلاً ، وأذب العسل في ماء مطر نازل لساعته - أي قريب عهد بالله - واشربه فإني سمعت الله يقول في الماء ينزل من السماء

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا ﴾

(من الآية ٩ سورة ق)

وسمعته سبحانه وتعالى يقول في العسل

﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٦٩ سورة النحل)

وسمعته يقول في مهر الزوجة :

﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾

(من الآية ٤ سورة النساء)

فإذا اجتمع فى دواء البركة والشفاء الضوء والمرىء عافاك الله إن شاء الله . لقد اخذ الإمام علىّ ـ رضوان الله عليه وكرّم الله وجهه ـ عناصر أربعة ليمزجها ويصنع منها دواءً ناجعاً ، كما يصنع الطبيب العلاج من عناصر مختلفة وقد صنع الإمام علىّ علاجاً من آيات القرآن

وبعد ذلك ينتقل الحق إلى قضايا اليتامى والسفهاء والمال والوصاية والقوامة ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٥﴾ ﴾

ومن هو السفيه ؟ إنه الذى لا صلاح له فى عقل ولا يستطيع أن يصرّف ماله بالحكمة ومن الذى يعطى ماله إلى سفيه ؟ إن الحق يقول ذلك ليعلمنا كيفية التصرف فى المال ـ ومثل على ذلك يقول الحق .

﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ ﴾

(من الآية ١١ سورة الحجرات)

هل أحد من يلمز نفسه ؟ لا ، ولكن الإنسان يلمز خصمه ، ولمز الخصم يؤدى إلى لمز النفس لأن خصمه سيلمزه ويعيبه أو لأنكما سواء إذن فقول الحق . « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم » يعنى أن الله يريد أن يقول : إن السفيه يمتلك المال ، إلا أن سفهه يمنعه من أن يحسن التصرف وعدم التصرف الحكيم يذهب بالمال ويفسده ، وحين يكون سفيهاً فالمال ليس له ـ تصرفاً وإدارة ـ ولكن المال لمن يصلحه بالقوامة

أو أن الحق سبحانه وتعالى يعالج قضية كان لها وجود فى المجتمع وهى أن الرجل إذا مات كان له أبناء ، وكبروا قليلا ، فهو يحب أن يتملص من حركة الحياة ، ويعطى لهم حق التصرف فى المال وإن كان تصرفهم لا يتفق مع الحكمة ، فكأنه قال سبحانه « لا » إياك أن تعطى أموالك للسفهاء بدعوى أنهم أولادك . وإياك أن تملك أولادك ما وهبه الله لك من رزقك ، لأن الله جعل من مالك قياماً لك ، وإياك أن تجعل قيامك أنت فى يد غيرك .

« ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها » وهل السفيه لا يعيش ؟ وهل يأكل السفيه دون أكل الرشيد ؟ أيلبس السفيه دون لبس الرشيد ؟ أيسكن السفيه دون مسكن الرشيد ؟ أيبتسم الإنسان فى وجه الرشيد ولا يبتسم فى وجه السفيه ؟ لا ، لذلك يأمر الحق ويقول . « وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا » ذلك أمر بحسن معاملة السفيه ، وإياكم أن تعيروهم بسفههم ، ويكفيهم ما هم فيه من سفه .

ويرجع الحق من بعد ذلك إلى اليتامى :

﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ ﴾

إن الله سبحانه وتعالى يأمر فى التعامل مع اليتامى بأن يبدأ الولى فى اختبار اليتيم

وتدريبه على إدارة أمواله من قبل الرشد ، أى لا تنتظر وقت أن يصل اليتيم إلى حد البلوغ ثم تبتليه بعد ذلك ، فقبل أن يبلغ الرشد ، لا بد أن تجربه فى مسائل جزئية فإذا تبين واتضح لك اهتداؤه منه وحسن تصرف فى ماله ، لحظتها تجد الحكم جاهز ، فلا تضطر إلى تأخير إيتاء الأموال إلى أن تبتليه فى رشده . بل عليك أن تختبره وتدربه وتمتحنه وهو تحت ولايتك حتى يأتى دوانُ بلوغ الرشد فيستطيع أن يتسلم منك ماله ويديره بنفسه . وحتى لا تمر على المال لحظة من رشد صاحبه وهو عندك .

سبحانه يقول « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا » .

فعندما يبلغ اليتيم الرشد وقد تم تدريبه على حسن إدارة المال . وعرف الوصى أن اليتيم قد استطاع أن يدير ماله ، ومن فور بلوغه الرشد يجب على الوصى أن يدفع إليه ماله ، ولا يصح أن يأكل الوصى مال اليتيم إسرافا . والإسراف هو الزيادة فى الحد ؛ لأنه ليس ماله ، إنه مال اليتيم وعندما قيل لرجل شره . عدا تريد أيها الشره ؟ قال الشره : « أريد قصعة من ثريد أضرب فيها بيدى كما يضرب الولى السوء فى مال اليتيم » . أنجانا الله وإياكم من هذا الموقف ، ونجد الحق يقول : « ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا »

إن الحق سبحانه يحذرنا من الإسراف فى مال اليتيم فى أثناء مرحلة ما قبل الرشد ، وذلك من الخوف أن يكبر اليتيم وله عند الولى شىء من المال أى أن يسرف الولى وينفق كل مال اليتيم قبل أن يكبر اليتيم ويرشد ، والله سبحانه وتعالى حين يشرع فهو بجلال كماله يشرع تشريعا لا يسع قوامة الفقير العادل غير الواحد كان الحق قادرا أن يقول . لا تعطوا الوصية إلا لإنسان عنده مال لأنه فى غنى عن مال اليتيم

لكن الحق لا يمنع الفقير النزيه صاحب الخبرة والإيمان من الولاية .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن الولى : « ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا

فليأكل بالمعروف » فلا يقولن أحد عن أحد آخر : إنه فقير ، ولو وضعت يده على مال اليتيم فإنه يأكله . لا ، فهذا قول بمقاييس البشر ، لا يجوز أن يمنع أحد فقيرا مؤمنا أن يكون وليا لليتيم ؛ لأننا نريد من يملك رصيدا إيمانيا يعلو به فوق الطمع فى المال ؛ لذلك يقول الحق عن الوصى على مال اليتيم : إن عليه مسئولية واضحة .

فإن كان غنيا فليستعفف ، وإن كان فقيرا فليأكل بالمعروف . وحددوا المعروف بأن يأخذ أجر مثله فى العمل الذى يقوم به .

وكلمة المعروف تعنى الأمر المتداول عند الناس ، أو أن يأخذ على قدر حاجته ويقول الحق « فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا » وانظروا الحماية ، هو سبحانه يضع الحماية للولى أو الوصى ، فالحق يعلم خَلْقَه ، ـ وخَلْقُه من الأغيار ـ والولى عن اليتيم لابد أن يلى الأمر بحكمة وحرص ؛ حتى لا يكرهه اليتيم . وربما قد يراصيه فى كل شىء يقول له : لا ، أعطه بقدر حتى لا تفسده . فإذا ما أعطى الولى لليتيم بقدر ربما كرهه اليتيم ؛ لأن اليتيم قد يرغب فى أشياء كمالية لا تصلح له ولا تناسب إمكاناته ، وعندما يصل اليتيم إلى سن الرشد قد يدرك كرهه ضد الوصى ، فيقول له : لقد أكلت مالى ؛ لذلك يوضح الحق للولى أو الوصى ، كما حميت لليتيم بحسن ولايتك أحميك أنا من رشد اليتيم .

لذلك يجب عليك ـ أيها الولى ـ حين تدفع المال إليه أن تشهد عليه ، لأنك لا تملك الأغيار المعية ، فربما وَجَد عليك وكرهك ؛ لأنك كنت حارسا معه على ماله ، وكنت تضرب على يده إذا انحرف . وإذا ما كرهك ربما التمس فترة من الفترات وقام صدك واتهمك بما ليس فيك ؛ لذلك لابد من أن تحضر شهودا عدولا لحظة تسليمه المال وهذه الشهادة لتستبرىء بها من المال فحسب ، أما استبراء الدِّين فموكول إلى الله « وكفى بالله حسيبا »

هذا وإن سورة النساء تعالج الضعف فى المرأة والضعف فى اليتيم ، لأن الحال فى المجتمع الذى جاء عليه الإسلام أنهم كانوا لا يورثون النساء ولا يورثون الصغار الذين لم تشتد أجسامهم ، وكانت القاعدة العربية عندهم هى . من لم يطعن برمح

ولم يذد عن حريم أو عن مال ولم يشهد معارك فهو لا يأخذ من التركة وكانت هذه قمة استضعاف أقوياء لضعفاء . وجاء الإسلام ليمحى هذه القاعدة بل فرض وأوجب أن تأخذ النساء حقوقهن وكذلك الأطفال . ولهذا قال الحق سبحانه :

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ ﴾

ومَن الذى يفرض هذا النصيب ؟ إنه الله الذى ملك وهو الذى فرض .

هنا نلاحظ أن المرحوم الشهيد صاحب الظلال الوارفة الشيخ سيد قطب لحظ ملحظا جميلا هو : كيف يكون للمتوفى أولاد أو نساء محرومون عليه ولا يأخذون ؟ إن الصغار كانوا أولى أن يأخذوا لأن الكبار قد اشتدت أعوادهم ومواعدهم ، فالصغار أولى بالرعاية ، وأيضا إذا كانت قوانين « مندل » فى الوراثة توضح أن الأولاد يرثون من أمهاتهم وآبائهم وأجدادهم الخصال الحسنة أو السيئة ، أو المرض أو العلة أو الخلقة ، فلماذا لا نورثهم أيضا فى الأموال ؟

وحين نسمع قول الحق . « نصيبا مفروضا » فلا بد أن يوجد فارض ، ويوجد مفروض عليه ، والفارض هنا هو الله الذى ملك ، وفيه فرق دقيق بين « فرض » و« أوجب » فالفرض يكون قادما من أعلى ، لكن الواجب قد يكون من الإنسان نفسه ، فالإنسان قد يوجب على نفسه شيئا

وحين يتكلم الحق عن النصيب المفروض ، فقد بين أن له قدرا معلوما ، ومادام للنصيب قدر معلوم ، فلا بد أن يتم إيضاحه .. ولم يبين الحق ذلك إلا بعد أن يُدخل فى العملية أناسا قد لا يورثهم ، وهم ممن حول الميت ممن ليسوا بوارثين ،

ويوضح سبحانه الدعوة إلى إعطاء من لا نصيب له ، إياكم أن يلهيكم هذا النصيب المفروض عمن لا نصيب له فى التركة .

لذلك يقول سبحانه وتعالى .

﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ ﴾

وحين يحضر أولو القُربى واليتامى والمساكين مشهد توزيع المال ، وكل واحد من الورثة الذين يتم توزيع مال المورّث عليهم انتهت مسائله ، قد يقول هؤلاء غير الوارثين . إن الورثة إنما يأخذون غنيمة باردة هبطت عليهم مثل هذا الموقف يبرك شيئا فى نفوس أولى القُربى واليتامى والمساكين .

صحيح أن أولى القُربى واليتامى والمساكين ليسوا وارثين ، ولن يأخذوا شيئا من التركة فرضاً لهم ، ولكنهم حضروا القسمة ، لذلك يأتى الأمر الحق : « فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا » فلو أنهم لم يحضروا لقسمة لاختلف الموقف . فيأمر سبحانه بأن يرزق اليتامى وأولى القُربى والمساكين حتى تستل منهم الحقد أو الحسد للوارث ، أو الضغن على المورّث ، وبذلك يشيع فى الناس شىء من الألفة ومن المحبة ومن حب الخير لأنهم قد نالوا شيئا من الخير مع هؤلاء ، فلا يكونون حاقدين على الورثة ولا على المورّث ، ولا يكتفى الحق بالأمر برزق هؤلاء الأقارب واليتامى والمساكين ، ولكن يأمر أن نقول لهم : قولا معروفا ، مثل أن ندعو الله لهم أن يزيد من رزقهم ، وأن يكون لهم أموال وأن يتركوا أولادا ويورثوهم ، ومن الذى يجب عليه أن يقوم بمثل هذا العمل ؟ إنهم الورثون إن كانوا قد بلغوا الرشد ، ولكن ماذا

يكون الموقف لو كان الوارث يتيم ؟ فالحضور هم الذين يقولون لأولى القُربى واليامى والمساكين : إنه مال يتيم ، وليس لك ولاية عليه ، ولو كان لك ولاية لأعطيناكم أكثر ، وفي مثل هذا القول تطييب للخاطر

« وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا » يجب أن تكونوا في ذلك الموقف ذاكرين أنه إذا كنتم أمام الضعفاء واليتامى وغير الوارثين فمن المؤكد أن السرور كان سيدخل إلى قلوبكم لو شرعنا لكم نصيبا من الميراث إذن فليذكر كل منكم أنه حين يطلب الله منه ، أنك قد تكون مره في موقف من يطلب الله له ولأولاده إذن فالحكم التشريعي لا يوجد من جانب واحد ، وهو أنه يُلزم المؤمن بأشياء ، ولكن للأخذ بجانب ذلك أنه يلزم غيره من المؤمنين للمؤمن بأشياء

إن الحكم التشريعي يعطيك ، ولذلك يأخذ منك . وهذا قلنا في الزكاة - إياك أن تلحظ يا من تؤدي الزكاة أننا نأخذ منك حينما ثمرة كدحك وعرقك لنعطيها للناس ، نحن نأخذ منك وأنت قادر لتؤمّنك إن صرت عاجزا وسوف نأخذ لك من القادرين . إنه تأمين ربان حكيم .

ويقول الحق بعد ذلك -

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾

والإنسان حين يترك ذرية ضعيفة يتركها وهو خائف عليهم أن يضيعهم الزمان .

فإن كان عندك أيها المؤمن درية ضعيفة وتخاف عليها فساعة ترى درية ضعيفة تركها غيرك فتعطف عليها ، وذلك حتى يعطف الغير على دريتك الضعيفة إن تركتها . واعلم أن ربنا رقيب وقيوم ولا يترك الخير الذي فعلته دون أن يرده إلى دريتك . وقلنا ذات مرة : إن معاوية وعمرو بن العاص اجتمعا في أواخر حياتهما ، فقال عمرو بن العاص لمعاوية : يا أمير المؤمنين ماذا بقي لك من حظ الدنيا ؟ وكان معاوية قد صار أميراً للمؤمنين وليس دولة قوية عنية ، فقال معاوية : أما الطعام فقد مللت أطيبه ، وأما اللباس فقد سئمت ألينه ، وحظي الآن في شربة ماء بارد في ظل شجرة في يوم صائف .

وصمت معاوية قليلاً وسأل عَمْراً : وأنت يا عمرو ماذا بقي لك من متع الدنيا ؟ .

وكان سيدنا عمرو بن العاص صاحب عبقرية تجارية فقال : أنا حظي عين حرارة في أرض حرارة تدر عليّ حياتي ولولدي بعد مماتي .

إنه يطلب عين ماء مستمر في أرض فيها أنعام وزروع تعطي الخير

وكان هناك خادم يخدمهما ، يقدم لهما المشروبات ، فنظر معاوية إلى الخادم وأحب أن يدعه ليشركه معهما في الحديث

فقال للخادم : وأنت يا « وردان » ماذا بقي لك من متاع الدنيا ؟ أجاب الخادم : بقي لي من متع الدنيا يا أمير المؤمنين صنيعة معروف أصنعها في أعناق قوم كرام لا يؤدونها إليّ طول حياتي حتى تكون لعقبي في عقبهم . لقد فهم الخادم عن الله قوله .

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

فالذين يتقون الله فى ذريه الضعيفة يضمنون أن الله سيرزقهم بمن يتقى الله فى ذريتهم الضعيفة

وقد تكلمنا مرة عن العبد الصالح الذى ذهب إليه موسى عليه السلام :

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

لقد خرب العبد الصالح موسى فى خرق السفينة ـ كما توضح الآيات ـ فقال العبد الصالح :

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ثم ما كان من أمر الغلام الذى قتله العبد الصالح وقول موسى له « لقد جئت شيئا نكرا » .

ثم جاء إلى أهل قرية فطلب منهم الطعام ، وحين يطلب منك ابن سبيل طعاماً فاعلم أنها الحاجة الملحة ؛ لأنه لو طلب منك مالاً فقد تظن أنه يكنز المال ، ولكن إن طلب لقمة ياكلها فهذا أمر واجب عليك

فماذا فعل أهل القريه حين طلب العبد الصالح وموسى طعاماً لهما ؟ .

يقول الحق .

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إنها قرية لئيمة ، ووجد العبد الصالح في القرية جداراً يريد أن يسقط ويقصر فأقامه ، واعترض موسى ؛ لأن عنده حقيقة على أهل القرية فقد طلبا منهم طعاما فلم يطعموهما ، وقال سيدنا موسى : إنك لو شئت لاتخذت عليه أجراً ؛ لأن أهل القرية لئام ، وما كان يصح أن تقيم لهم الجدار إلا إذا أخذت منهم أجرا .

لقد عاب عن موسى ما لم يعيّب الله سبحانه عن العبد الصالح ، فالله لو أن الجدار وقع وهم لئام لا يطعمون من استطعمهم ، ثم رأوا الكنز المتروك لليتامى المساكين ، فلا بد أنهم سيغتصبون الكنز إذن فعندما رأيت الجدار سيقع أقمته حتى أوارى الكنز عن هؤلاء اللئام . ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فالعلة في هذه العملية هي الحماية لليتيمين ، ولنلق بالاً ولنهتم بملاحظ النص ، لا بد أن العبد الصالح قد أقام الجدار بأسلوب جعله عمراً افتراضياً للجدار بحيث إذا بلغ اليتيمان الرشد وقع الجدار أمامهما ؛ ليرى كلاهما الكنز ، لقد تم بناء الجدار على مثال الفسيلة الموقوتة بحيث إذا بلغا الرشد ينهار الجدار ليأخذا الكنز إنه توقيت إلهي أراده الله ؛ لأن والد اليتيمين كان صالحاً ، اتقى الله فيما تحت يده فأرسل الله له جنوداً لا يعلمهم ولم يرنهم ليحموا الكنز لولديه اليتيمين ، لذلك علمهم حيداً في معاملتنا ، قول الحق .

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

لماذا ؟ لأن الإنسان عندما يكون شيخاً فدائيته تكون هي الموجودة . لكن كلما تقدم الإنسان في السن تقدمت ذاتيه أولاده عنه ، ويحرم نفسه ليعطي أولاده ، وعندما يرى أنّ عياله مازالوا صغاراً ، وحانت له مقدمات الموت فهو يحزن على مفارقة هؤلاء الضعاف ، فيوضح الحق لكل عبد طريق الأمان . إنك تستطيع وأنت موجود أن تعطي لضعاف قوة ، قوة مستمدة من الالتحام بمنهج الله وحماية رعاية ما تحت يدك من يتامى ، بذلك تؤمن حياة أولادك من بعدك وتموت وأنت مطمئن عليهم

والقول السديد من الأوصياء : ألا يؤذوا اليتامى ، وأن يكلموهم كما يكلمون أولادهم بالأدب الحسن والترحيب ويدعوهم بقولهم يا بني ويا ولدي

وحين يتقي المؤمن الله فهي بين يديه يرزقه الله بمن يتقي الله في أولاده .

ومازال الحق يضع المنهج في أمر اليتامى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾

لماذا يركز القرآن على هذه الحرفية ؟ لأن الله يريد من خلقه أن يستعملوا قدر الله فيمن يحبون وفيمن يحتاجون إليهم برضى ، فإذا كان الطفل صغيراً ويرى أباه يسعى

فى شبابه ويقدم له كل جميل فى الحياة وبعد ذلك يموت ، فإن كان هذا الصغير قد رأى واحداً مات أبوه وكفله المجتمع الإيمانى الذى يعيش فى كفالة عوضته عن أب واحد بآباء إيمانيين متعددين ، فإذا مات والد هذا الطفل فإنه يستقبل قدر الله وحظه بدون فزع فالذى يجعل الناس تستقبل الخطوب بالفزع والجزع واهلع أنهم يرون أن الطفل إذا ما مات أبوه وصار يتيماً فإنه يضيع ، ويقول الطفل لنفسه بل أبى عندما يموت سأصير مضيعاً لكن لو أن المجتمع حمى حق اليتيم وصار كل مؤمن أباً لليتيم وكل مؤمنة أماً لليتيم لاختلف الأمر ، فإذا ما نزل قضاء الله فى أبيه فإنه يستقبل القضاء برضا وتسليم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

إن كل العملية السلبية والسيئة أهم ما فيها هو الأكل ؛ لأن الأكل هو المتكرر عند الناس ، وهو يختلف عن اللباس ، فكم فصل يحتاج الإنسان إلى ملابس تناسبه ، لكن الأكل عملية يومية ؛ لذلك فأى مذهب يكون من أجل الأكل ولذلك تقول فى أمثالنا العامية عن المنهاب « فلان بطنه واسعة » إنها مسألة الأكل .

وقد أوضح الحق هذا الأمر لآكل مال اليتيم : أنت تحشو فى بطنك ناراً . ويعنى ذلك أنه يأكل فى بطنه ما يؤدى إلى النار فى الآخرة وهذا قد يحدث عقاباً فى الدنيا فيصاب آكل مال اليتيم فى بطنه بأمراض تحرق أحشاءه ، ويوم القيامة يرى المؤمنون هؤلاء القوم الذين أكلوا مال اليتيم ، وعليهم سيئات أكل مال اليتيم : فالدخان يخرج من أفواههم وإياك أن تفهم أن البطون هى التى ستكون ممتلئة بالنار فقط ، وألا يكون هناك نار أمام العيون بل سيكون فى البطون نار وسيصلون سعيراً

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ
الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا
تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ
لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ
فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن
كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ
يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ
أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ﴾

ونعم الرب خلقنا ، إنه يوصينا فى أولادنا ، سبحانه رب العرش العظيم ، كأنما عند ربنا أحب مما عند آبائنا . وقوله الكريم : « يوصيكم الله فى أولادكم » توضح أنه رحيم بنا ويحب لنا . وعادة الوصيه إذا ما استقرأناها فى القرآن نجد ـ بالاستقراء ـ أن ماده الوصية مصحوبه بالباء ، فقال سبحانه :

﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(من الآية ١٥٣ سوره الأنعام)

وقال سبحانه

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا ﴾

(من الآية ١٣ سورة الشورى)

وقال الحق أيضاً

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾

(من الآية ١٤ سورة لقمان)

كل هذه الآيات جاءت الوصية فيها مصحوبة بالباء التي تأتي للإلصاق

لكن عندما وصّى الآباء على الأبناء قال : « يوصيكم الله في أولادكم » فكأن الوصية مغروسة ومثبتة في الأولاد ، فكلما رأيت الظرف وهو الولد ذكرت الوصية وما هي الوصية ؟ إنها « للذكر مثل حظ الأنثيين » وقلنا من قبل . إن الحق قال

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾

(من الآية ٧ سورة النساء)

ولم يحدد النصيب بعد هذه الآية مباشرة إلا بعد ما جاء بحكمية اليتامى وتحذير الناس من أكل مال اليتيم ، لماذا ؟ لأن ذلك يرين في النفس الاشتياق للحكم ، وحين تستشرف النفس إلى تفصيل الحكم ، ويأتي الحكم بعد طلب النفس له ، فإنه يتمكن منها . والشيء حين تطلبه النفس تكون مهيأة لاستقباله ، لكن حينما يعرض الأمر بدون طلب ، فالنفس تقبله مرة وتعرض عنه مرة أخرى . ونلحظ ذلك في مناسبة تحديد أنصبة الميراث .

فقد قال الحق سبحانه أولا :

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾

(من الآية ٧ سورة النساء)

وعرض بعد ذلك أمر القسمة ورعاية اليتامى والمساكين وأولى القُربى ، ثم يأتى الأمر والحكم برعاية مال اليتيم والتحذير من نهبه ، وبعد ذلك يقول « يوصيكم الله فى أولادكم » ويأتى السد الأول فى الوصية « للذكر مثل حظ الأنثيين » ولماذا لم يقل « للأنثيين مثل حظ الذكر » أو « للأنثى نصف حظ الذكر » ، هذه معان يمكن أن تعبر عن المطلوب .

لقد أراد الله أن يكون المقياس ، أو المكيال هو حظ الأنثى ، ويكون حظ الرجل هنا منسوبًا إلى الأنثى ، لأنه لو قال: « للأنثى نصف حظ الرجل » لكان المقياس هو الرجل ، لكنه سبحانه جعل المقياس للأنثى فقال : « للذكر مثل حظ الأنثيين »

والذين يقولون : هذا أول ظلم يصيب المرأة ، يريد المساواة نقول لهم : انظروا إلى العدالة هنا فالذكر مطلوب له زوجة ينفق عليها ، والأنثى مطلوب لها ذكر ينفق عليها ، إذن فنصف حظ الذكر يكفيها إن عاشت دون زواج ، وإن تزوجت فإن النصف الذى يخصها سينفق لها ، وسيكون لها زوج يعولها .

إذن فأيهما أكثر حظا فى القسمة ؟ إنها الأنثى . ولذلك جعلها الله الأصل والمقياس حينما قال : « للذكر مثل حظ الأنثيين » فهل فى هذا القول جور أو فيه محاباة للمرأة ؟ إن فى هذا القول محاباة للمرأة ؛ لأنه أولا جعل نصيبها المكيال الذى يُرد إليه الأمر ؛ لأن الرجل مطلوب منه أن ينفق على الأنثى ، وهى مطلوب لها زوج ينفق عليها . إذن فما تأخذه من نصف حظ الذكر يكون خالصا لها ، وكان يجب أن تقولوا : لماذا حابى الله المرأة ؟ لقد حابى الله المرأة لأنها عِرض ، فَصانَها ، فإن لم تتزوج تجد ما تنفقه ، وإن تزوجت فهذا فضل من الله ، ثم يقول الحق : « فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك » .

وأنا أريد أن نستجمع الذهن هنا جيدا لنتعرف تماما على مراد الحق ومسالك القرآن فى تنبيه الأذهان لاستقبال كلام الله فقد كرم الله الإنسان بالعقل ، والعقل لا بد له من رياضة ومعنى الرياضة هو التدريب على حل المسائل ، وإن طرأت مشكلات هيأ نفسه لها بالحل ، وأن يمتلك القدرة على الاستنباط والتقييم ، كل هذه من مهام العقل . فيأتى الحق فى أهم شىء يتعلق بالإنسان وهو الدين ، والدليل إلى

الدين وحافظ منهجه هو القرآن ، فيجعل للعقل مهمة إبداعية .

إنه ـ سبحانه ـ لا يأتي بالنصوص كمواد القانون في الجنايات أو الجنح ، ولكنه يعطي في مكان ما جُزْءًا من الحكم ، ويترك بقية القانون لتتضح معالمه في موقع آخر من القرآن بجزئية أخرى ، لأنه يريد أن يوضح لنا أن المنهج الإلهي كمنهج واحد متكامل ، وأنه ينتقل من شيء إلى شيء ، ويستكمل حكما في أكثر من موقع بالقرآن . وذلك حتى تتعرف على المنهج ككل . وأنت إذا كنت بصدد شيء فلا تظن أن هذا الشيء بمفرده هو المنهج ، ولكن هناك أشياء ستأتي استطرادا تتداخل مع الشيء الذي تبحث عن حكم الله فيه ، مثال ذلك : مسألة اليتيم التي تتداخل مع أحكام الميراث . وهذه الآية تعطينا مثل هذه المسألة لماذا ؟ لأن الله يريد لك يا صاحب العقل الذربة في الإطار الذي يضبط الحياة كلها . وما يهمك أولا هو ذيك ، فلتعمل عقلك فيه ، فإذا أعملت عقلك في الدين أعطيت عقلك النشاط ليعمل في المجال الآخر .

لكن إذا غرق ذهنك في أي أمر جزئي فهذا قد يبعد بك عن الإطار العام لتنشغل بالتفاصيل عن الهدف العام .

وأولادنا من الممكن أن يعلمونا من تجربة من ألعابهم ، فالطفل يلعب مع أقرانه « الاستغماية » ، ويختبيء كل قرين في مكان ، ويبحث الطفل عن أقرانه

ونحن نلعب أيضا مع أولادنا لعبة إخفاء شيء ما في يد ونطبق أيدينا ونترك الابن يخمن بالحدس في أي يد يكون الشيء ، إنها ذربة للعقل على الاستنباط ، فإن كان الولد سريع البديهة قوي الملاحظة ويمتلىء بالذكاء ، فهو يرى يَدَيْ والده ليقرن أي يد ترتعش قليلا ، لو أي يد ليست طبيعية في طريقة إطباق الأب لها فيختارها ، وينتصر بذلك ذكاء الولد ، وهذه عملية ترويض للطفل عن الاستنباط والفهم ، وبذلك نعلم الطفل ألا يأخذ المسائل ضربة لازب بدون فكر ولا دُربة .

والحق سبحانه أراد أن تكون أحكامه موزعة في المواقع المختلفة ، ولننظر إلى قوله : « يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ، فإن كن نساء فوق اثنتين

فلهن ثلثا ما ترك » أى أنه إن لم ينجب المورث ذكرا وكان له أكثر من اثنتين فلهن ثلثا ما ترك .

أما لو كان معهن ذكر ، فالواحدة منهن ستأخذ نصف نصيب الذكر ، وإن كانت الوارثة بنتا واحدة ، فالآية تعطيها النصف من الميراث ، وإن كانت واحدة منها النصف ، وبقى شىء لم يأت الله له بحكم ، وهو أن يكون المورث قد ترك ابنتين . وهنا نجد أن الحق قد ضمن للاثنين فى إطار الثلاث بنات أو أكثر أخذ الثلثين من التركة ، هكذا قال العلماء ، ولماذا لم ينص على ذلك بوضوح ؟ لقد ترك هذه المهمة للعقل ، فالبنت حينما ترث مع الذكر تأخذ ثلث التركة ، وعندما تكون مع أنثى أخرى دون ذكر ، تأخذ الثلث .

فإذا كانت مع الذكر وهو القائم بمسئولية الكدح تأخذ الثلث ، وبذلك فمن المنطقى أن تأخذ كل أنثى الثلث إن كان المورث قد ترك ابنتين . وهناك شىء آخر ، لتعرف أن القرآن بأكمله كمنهج متماسك . فهناك آية أخرى فى سورة النساء تناقش جزئية من هذا الأمر لتترك للعقل فرصة العمل والبحث ، يقول سبحانه :

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

لقد جاء الحق هنا بأختى المورث وأوضح أن لهما الثلثين من التركة إن لم يكن للمورث ولد ـ ابن أو بنت . فإذا كان للأختين الثلثان ، فأيهما الصق بالمورث ، البنتان أم الأختان ؟ إن ابنتى المورث الصق به من أخته ، ولذلك فللبنتين الثلثان ، فالابنة إن كانت مع أخيها فستأخذ الثلث ، وإن كانت قد ورثت بمفردها فستأخذ النصف . وإن كانت الوارثات من البنات أكثر من اثنتين فسيأخذن الثلثين ، وإن

كانتا اثنتين فستأخذ كل منهما الثلث ، لماذا ؟ لأن الله أعطى الأختين ثلثى ما ترك المورث إن لم يكن له أولاد .

ومن العجيب أنه جاء بالجمع فى الآية الأولى الخاصة بتوريث البنات ، وجاء بالمثنى فى الآية التى تورث الأخوات ، لتأخذ المثنى هناك - فى آية توريث الأخوات - فينسحب على الجمع هنا ، وتأخذ الجمع هنا - فى آية توريث البنات - لينسحب على المثنى هناك .

لقد أراد الحق أن يجعل للعقل مهمة البحث والاستقصاء والاستنباط وذلك حتى تأخذ الأحكام بعمق وحسن فهم ، وعندما يقول سبحانه : « يستفتونك » فمعنى يستفتونك أى يطلبون منك الفتوى ، وهذا دليل على أن المؤمن الذى سأل وطلب الفتيا قد عشق التكليف ، فهو يحب أن يعرف حكم الله ، حتى فيما لم يبدأ الله به الحكم وقد سأل المؤمنون الأوائل وطلبوا الفتيا عشقا فى التكليف « يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة » والكلالة مأخوذة من الإكليل وهو ما يحيط بالرأس ، والكلالة هى القرابة التى تحيط بالإنسان وليست من أصله ولا من فصله .

﴿ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة النساء)

وهذه الآية تكمل الآية الأولى . ونعود إلى تفصيل الآية الأولى التى نحن بصدد خواطرنا الإيمانية عنها : « ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ، فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث » .

ومعنى ذلك أن المورث إن م يكن له أولاد فللأم الثلث ، والأب له الثلثان ، فإن كان للمورث إخوة أشقاء أو لأب أو لأم فللأم السدس حسب النص القرآنى « فإن

كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين » ، وذلك بعد أن تنفذ وصية المورث ، ويؤدى الدَّيْن الذى عليه والوصية هنا مقدمة على الدين ؛ لأن الدين له مُطالب ، فهو يستطيع المطالبة بدينه ، أما الوصية فليس لها مطالب ، ولقد قدمها الحق للعنايه بها حتى لا نهملها . ويذيل الحق هذه الآية

﴿ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

(من الآية ١١ سورة النساء)

فإياك أن تحدد الأنصبه على قدر ما تظن من النفعية فى الآباء أو من النفعية فى الأبناء ، فالنفعية فى الآباء تتضح عندما يقول الإنسان . « لقد ربانى أبى وهو الذى صنع لى فرص المستقبل » . والنفعية فى الأبناء تتضح عندما يقول الإنسان . إن أبى راحل وأبنائى هم الذين سيحملون ذكرى واسمى والحياة مقبلة عليهم . فيوضح الحق : إياك أن تحكم بمثل هذا الحكم ؛ فليس لك شأن بهذا الأمر . « لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا »

ومادمت لا تدرى أيهم أقرب لك نفعا فالتزم حكم الله الذى يعلم المصلحة وتوجيهها فى الأنصبه كى يجب أن تكون

ونحن حين نسمع : « إن الله كان عليما حكيما » أو نسمع « إن الله كان غفورا رحيما » فنحن نسمعها فى إطار أن الله لا يتغير ، ومادام كان فى الأزل عليما حكيما وغفورا رحيما فهو لا يزال كذلك إلى الأبد .

فالأغيار لا تأتى إلى الله ، وثبت له العلم والحكمة والخبرة والمغفرة والرحمة أزلاً وهو غير متغير ، وهذه صفات ثابتة لا تتغير . لذلك عندما تقرأ : « إن الله كان عليماً حكيماً » أو « إن الله كان غفوراً رحيم » فالمسلم منا يقول بينه وبين نفسه : ولا يزال كذلك

والحق يقول من بعد ذلك :

وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن
لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ
الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ
بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن
لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ
فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ
تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ
كَلَٰلَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ
مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ
فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ
يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾

والآيات تسير فى إيضاح حق الذكر مثل حظ الأنثيين ؛ وهذه عدالة ؛ لأن الرجل حين تموت امرأته قد يتزوج حتى يبقى حياته ، والمرأة حين يموت زوجها فإنها تأخذ ميراثها ثم وهى عرضة أن تتزوج وتكون مسئولة من الزوج الجديد

إن المسألة كما أرادها الله تحقق العدالة الكاملة . والكلالة ـ كما قلنا ـ أنه ليس للمتوفى والد أو ولد ، أى لا أصل له ولا فصل متفرع منه .

فإذا كان لرجل لكلالة أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس ، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث ، وذلك أيضاً من بعد الوصية التى يوصى بها أو دين . ولماذا يتم تقرير هذا الأمر ؟ لنرجع مرة أخرى إلى آية الكلالة التى جاءت فى آخر سورة النساء .

إن الحق يقول فيها :

﴿ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة النساء)

فى الآية الأولى التى نحن بصددها يكون للواحد من الإخوة سدس ما ترك إذا انفرد ، فإذا كان معه غيره فهم شركاء فى الثلث . هذا إذا كانوا إخوة من الأم . أما الآية التى يختص بها الحق الأختين بالثلثين من التركة إذا لم يكن معهما ما يعصبهما من الذكور فهى فى الإخوة الأشقاء أو الأب » هكذا يفصل القرآن ويوضح بدقة مطلقة

وماذا يعنى قوله الحق . « غير مضار وصية من الله والله عليم حليم » ؟

إنه سبحانه يريد إقامة العدل ، فلا ضرر لأحد على الإطلاق فى تطبيق شرع الله ، لأن الضرر إنما يأتى من الأهواء التى تحسد قسمة الله فقد يكون هناك من يرغب ألا يرث العم من بنات أخيه الشقيق ، أو لأب ، أو يريد آخر ألا يُدْخل أولاد الإخوة الذكور أشقاء أو لأب فى ميراث العمة أو بنات العم الشقيق أو لأب ، لمثل هؤلاء من أصحاب الهوى نقول : إن الغرم عن قدر الغنم ، بالله لو أنك مت وتركت بنات ولهن عمّ ، أليس مطلوباً من العم أن يربى البنات ؟ فلماذا يجبر الحق العم على رعاية بنات أخيه إن توفى الأخ ولم يترك شيئاً ؟ لذلك يجب أن نلتفت إلى حقيقة الأمر عندما يأتى نصيب للعم فى الميراث . وعلينا أن نعرف أن الغرم أمامه الغنم .

وقلنا: إن القرآن الكريم يجب أن يؤخذ جميعه فيما يتعلق بالأحكام ، فإذا كان فى

سورة النساء هذه يقول الحق سبحانه وتعالى في آخر آية منها :

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

فما الفرق بين الكلالة حين يجعل الله للمنفردة النصف وللاثنتين الثلثين ، وبين الكلالة التي يجعل الله فيها للمنفرد السدس ، ويجعل للأكثر من فرد الاشتراك في الثلث دون تمييز للذكر على الأنثى ؟

لابد أن نفرق بين كلالة وكلالة . .

هما متحدتان في أنه لا أصل ولا فرع للمتوفى . والمسألة هنا تتعلق بالإخوة .

ونقول إن الإخوة لها مصادر متعددة . هذه المصادر إما إخوة من أب وأم ، وإما أخوة لأب وإما إخوة لأم . فإذا كان أخ شقيق أو لأب فهو من العصبة الأصيلة ، وهما المعنيان في الآية ١٧٦ من السورة نفسها .

وبذلك تكون آية السدس والثلث التي نحن بصددها الآن متعلقة بالإخوة لأم . إذن فالكلالة إما أن يكون الوارث أخا لأم فقط ، وإما أن يكون أختا لأب ، أو أختا لأب وأم فالحكمان لذلك مختلفان ، لأن موضع كل منهما مختلف عن الآخر وإلا لو أن مستشرقا قرأ هذه الآية وقرأ الآية الأخرى وكلتاهما متعلقتان بميراث الكلالة ، وأراد هذا المستشرق أن يبحث عن شيء يطعن به ديننا ويطعن به القرآن يقال - ولعياذ بالله - . القرآن متضارب ، فهو مرة يقول : للكلالة السدس ومرة يقول : الثلث ، ومرة أخرى النصف ومرة أخرى الثلثان ومرة لذكر مثل حظ الأنثيين ! وورد

على من يقول ذلك : أنت لم تلاحظ المقصود العملى والواقعى للكلالة ، لذلك فاتت تفهم شيئا وتعيب عنك أشياء .

والحق قال : « من بعد وصية يوصى بها أو دين » ولنا أن نلاحظ أن فى كل توريث هذه « البعدية » أى أن التوريث لا يتأتى إلا من بعد الوصية الواجبة النفاذ والدَّيْن .

ولنا أن نسأل . أيهما ينفذ أولاً ، الوصية أم الدين ؟

والإجابة : لاشك أنه الدين ، لأن الدين إلزام بحق فى الذمة ، والوصية تطوع ، فكيف تقدم الوصية - وهى التطوع - على الدين ، وهو للإلزم فى الذمة .

وعندما يقول . « غير مضار » لابد أن نعرف جيداً أن شرع الله لن يضر أحداً ، وما المقصود بذلك ؟ المقصود به الموصى ، ففى بعض الأحيان يكون المورِّث كارهاً لبعض المستحقين لحقهم فى ميراثه ، فيأتى ليوصى بمنع توريثهم أو تقليل الأنصباء ، أو يأتى لواحد بعيد يريد أن يعطيه شيئاً من الميراث ولا يعطى لمن يكرهه من أهله وأقاربه المستحقين فى ميراثه ، فيقر لذلك الإنسان بدين ، فإذا ما أقر له بدين حتى وإن كان مستغرقاً للتركة كلها ، فهو يأخذ الدين وبذلك يترك الورثة بلا ميراث .

وهذا يحدث فى الحياة ونراه ، فبعض من الناس أعطاهم الله البنات ولم يعطهم الله ولداً ذكراً يعصِّبهم ، فيقول الواحد من هؤلاء لنفسه : إن الأصهام ستدخل ، وأبناء الأعمام سيدخلون فى ميراثى ، فيريد أن يوزع التركة على بناته فقط ، فيكتب ديناً على نفسه للبنات ونقول هذا الإنسان . لا تجمح ، أنت نظرت إلى أن هؤلاء يرثون منك ، ولكن يجب أن تنظر إلى الطرف المقابل وهو أنك إذا مت ولم تترك لبناتك شيئاً وهن لا عصبة لهن ، فمن المسئول عنهن ؟ إنهم الأعمام ، فالغرم هنا مقابل الغنم .. ولماذا تطلب البنت الأعمام أمام القضاء لتأخذ النفقة منهم فى حالة وفاة الأب دون أن تكون له ثروة فكيف تمنع عن إخوتك ما قرره الله لهم ؟

وهناك بعض من الناس يرغب الواحد منهم ألا يعطى عمومته أو إخوته لأى سبب

من الأسباب ، فيادا يفعل ؟ إنه يضع الوصية ؛ لذلك حدد الإسلام الوصية بمقدار الثلث ، حتى لا تحدث مضارة للورثة .

وقد حاول البعض من هؤلاء الناس أن يدّعوا كذباً ، أن هناك ديناً عليهم ، والدين مستغرق للتركة حتى لا يأخذ الأقارب شيئاً .

والإنسان في هذا الموقف عليه أن يعرف أنه واقف في كل لحظة في الحياة أو الممات أمام الله ، وكل إنسان أمين على نفسه

لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

(من الآية ١١ سورة النساء)

والحق يلفتنا ألا نضر أحداً بأي تصرف ؛ لأنها توصية من الله لكل ما يتعلق بالحكم توريثاً ووصيةً وأداء دين ، كل ذلك توصية من الله ، والتوصية ليست من مخلوق لمخلوق،ولكنها من الله ؛ لذلك فيها إلزام وفرض ، لسبحانه القائل :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾

(من الآية ١٣ سورة الشورى)

والوصية هنا فتراض ، ومثل ذلك يقول الحق :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

ومادامت التوصية تأتي من المالك الأعلى ، فمعنى ذلك أنها افتراض ، ويذيل الحق سبحانه الآية التي نحن بصدد تناولها بالخواطر الإيمانية . « والله عليم حليم » أي إياكم أن تتصرفوا تصرفا قد يقره ويمضيه القضاء ، ولكنه لا يبرئكم أمام الله ؛ لأنه قد قام على باطل .

مثال ذلك : هناك إنسان يموت وعليه دين ، عندئذ يجب تسديد الدين ، لكن أن يكتب الرجل دينا على نفسه غير حقيقى ليحرم بعضا من أقاربه من الميراث فعليه أن يعرف أن الله عليم بالنوايا التى وراء التصرفات . فإن عمّيتم أيها البشر على قضاء الأرض ، فلن تعموا على قضاء السماء .

وهذه مسألة تحتاج إلى علم يتغلغل فى النوايا ، إذن فمسألة القضاء هذه هى خلاف بين البشر والبشر ، ولكن مسألة الديانة وما يفترضه الحق ، فهو موضوع بين الرب وبين عبده ، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث شريف : « إنما أنا بشر وأنكم تختصمون إلىّ ، فلعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضىَ له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق مسلم ، فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها »[1] .

إن الرسول يعلمنا أنه بشر ، أى أنه لا يملك علم الغيب ومداخل المسائل ، وعندما يرفع المسلمون إليه قضاياهم فقد يكون أحدهم أكثر قدرة على الفصاحة وذلاقة اللسان ، ويستطيع أن يقلب الباطل حقا ، والآخر قليل الحيلة ، فيحكم النبى بمقتضى البيّنة القضائية ، ولكن الأمر الواقع يتنافى مع تسلسل الحق ، لذلك يعلمنا أنه بشر ، وأننا حين نختصم إليه يجب ألا يستخدم واحد منا ذلاقة اللسان فى أخذ ما ليس له ، لأنه حتى لو أخذ شيئا ليس له بحكم من الرسول صلى الله عليه وسلم ، فليعلم أنه يأخذ قطعة من الجحيم

إذن فمعنى ذلك انه يجب علينا أن نحذر فى الأمور ، فلا نُعَمّى ولا نأخذ شيئا بسلطان القضاء ونهمل مسألة الديانة . فالأمور التى تتعلق بالدّين لا يجوز للمؤمن المساس بها ، إياكم أن تظنوا أن حكم أى حاكم يحلل حراما أو يحرم حلالا ، لا . فالحلال بيّن ، والحرام بيّن ، والقاضى عليه أن يحكم بالبينات الواضحة .

ومثال على ذلك . هب أنك اقترضت من واحد ألفا من الجنيهات ، وأخذ عليك صكا ، ثم جاء المقترض وسدد ما عليه من قرض وقال لمن اقترض منه « عندما

---

(١) رواه مالك ، وأحمد والبخارى ومسلم وأبوداود عن أم سلمة رضى الله عنها .

تذهب إلى منزلك أرجو أن ترسل لى الصك » ثم سبق قضاء الله ، وقال أهل الميتة « إن الصك عندنا » واحتكموا إلى القضاء ليأخذوا الدَّين.هنا يحكم القضاء بضرورة تسديد الدين مرة أخرى ، لكن حكم الدَّين فى ذلك يختلف ، فالرجل قد سدد الدين ولا يصح أبداً أن يأخذ الورثة الدَّين مرة أخرى إذا علموا أن مورِّثهم حصل على دينه

ولذلك يقول لنا الحق . « والله عليم حليم » حتى نفرق بين الديانة وبين القضاء . والحق يقول لنا:إنه « حليم » فإياك أن تغتر بأن واحدا حدث منه ذلك ، ولم ينتقم الله منه فى الدنيا ، عدم انتقام الله منه فى الدنيا لا يدلّ على أنه تَصَرَّفَ حلالا ، لكن هذا حلم من الله وإمهال وإرجاء ولكنّ هناك عقابا فى الآخرة .

وبعد بيان هذه الأمور يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾

الأحكام المتقدمة والأمور السابقة كلها حدود الله ، وحين يحدّ الله حدودا . أى يمنع أن يلتبس حق بحق ، أو أن يلتبس حق بباطل ؛ فهو الذى يضع الحدود وهو الذى فصل حقوقا عن حقوق .

ونحن عندما نقوم بفصل حقوق عن حقوق فى البيوت والأراضى فنحن نضع حدودا واضحة ، ومعنى « حد » أى فاصل بين حقين بحيث لا يأخذ أحد ما ليس له

من آخر والحدود التى نضعها نحن والتى قد لا ينتبه إليها كثير من الناس ، هى نوعان : نوع لا يتعدى بالبناء ، فعندما يريد واحد أن يبنى ، فالأول يبنى على الأرض التى هى حق له ، ويكون الجداران ملتصقين بعضهما ببعض . وعندما يزرع فلاح بجانب فلاح آخر فكل فلاح يزرع فى أرضه وبين القطعتين حد ، وهذا يحدث فى النمع .

لكن لنفترض أن فلاحا يريد أن يزرع أرزا ، وجاره لن يزرع أرزا ، فالذى لن يزرع الأرز قد تأخذ أرضه مياها زائدة ، فالمياه تصلح للأرز وقد تفسد غيره ، ولذلك يكون الحكم هنا أن يقيم زارع الأرز حدا اسمه « حد الحيرة » ليمنع الضرر ، وهو ليس « حد الملكية » فزارع الأرز هنا ينقص من زراعته مسافة مترين ، ويصنع بهما حد الحيرة ، حتى لا تتعدى المياه التى يُروى بها الأرز إلى أرض الجار . إنه حد يمنع الضرر ، وهو يختلف عن الحد الذى يمنع السلك .

إذن فمن ناحية حماية الإنسان لنفسه من أن يوقع الضرر بالآخرين عليه أن ينتبه إلى المقولة الواضحة : « لا تجعل حقك عند آخر حدك ، بل اجعل حقك فى الانتفاع بعيدا عن حدك » ، وهذا فى الملكية وذلك إذا كان انتفاعك بما تملكه كله سيضر بجارك . وكذلك يعاملنا الله ، ويقول فى الأوامر :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾

(من الآية ٢٢٩ سورة البقرة)

وفى النواهى يقول سبحانه :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

أى أنك إذا ما تلقيت أمرا ، فلا تتعد هذا الأمر ، وهذه هى الملكية ، وإذا ما تلقيت نهيا فلا تقرب الأمر المنهى عنه . مثال ذلك النهى عن الخمر ، فالحق لا يقول : « لا تشرب الخمر » ، وإنما يقول . « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه » . أى لا تذهب إلى المكان الذى توجد فيه من الأصل ، كن فى جانب وهذه الأشياء فى جانب آخر .

وبذلك قلنا فى قصة أكل آدم من الشجرة · أقال الحق : « لا تأكلا من الشجرة » ؟ أم قال ولا تقربا هذه الشجرة ؟ سبحانه قال ·

﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾

(من الآية ١٩ من سورة الأعراف)

وهذا حد اسمه « حد عدم المضارة » إنه أمر بعدم الاقتراب حتى لا يصاب الإنسان بشهوة أو رغبة الأكل من الشجرة . وكذلك مجالس الخمر لأنها قد تغريك ففى الأوامر يقول سبحانه · « تلك حدود الله فلا تعتدوها » وهذا ما يتعلق بالملكية .

وفى النواهى يقول سبحانه : « تلك حدود الله فلا تقربوها » ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا الحديث · « الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مُشْتبِهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المشبّهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ، ومن وقع فى المشبّهات وقع فى الحرام ، كراع يرعى حول الحمى يُوشك أن يُواقعه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله تعالى فى أرضه محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صَلَحتْ صَلَحَ الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب »[1]

لذلك نجد حدود الله . مثال ذلك قول الحق :

﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى الْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

إن الحق يأمر المعتكف بالمسجد أنه عندما تأتى له زوجه لتناقشه فى أمر ما فعلى المؤمن أن يمتثل لأمر الله بعدم مباشرة الزوجة فى المسجد . ولا يجعل المسائل قريبة من المباشرة ، لأن ذلك من حدود الله . وسبحانه يقول : « تلك حدود الله فلا تقربوها » .

وهنا فى مسائل الميراث يقول الحق :

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن النعمان بن بشير

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة النساء)

وكان يكفى أن يقول الحق ـ من بعد بيان الحدود ـ : «ومن يطع الله» ولكنه قال : «ومن يطع الله ورسوله» وذلك لبيان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضع حدودا من عنده لما حل ، وأن يضع حدودا لما حرم . وهذا تفويض من الله لرسوله فى أنه يُشَرِّع ؛ لذلك فلا نقل فى كل شىء «أريد الحكم من القرآن» .

ونرى من يقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال أحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه . هؤلاء لم يلتفتوا إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم مفوض فى التشريع وهو القائل :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

إنه صلى الله عليه وسلم مفوض من الله ، وهؤلاء الذين ينادون بالاحتكام إلى القرآن فحسب يريدون أن يشككوا فى سنة رسول الله ، إنهم يحتكمون إلى كتاب الله ، ويسوون أو يتجاهلون أن فى الكتاب الكريم تفويض من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يشرع .

هم يقولون بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال أحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه . وقولهم لمثل هذا الكلام دليل على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يقول ، لأنهم لو لم يقولوا لقلنا :

يا رسول الله لقد قلت : روى المقدام بن معدى كرب قال : حرم النبى صلى الله عليه وسلم «أشياء يوم خيبر منها الحمر الأهلى وغيره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوشك أن يقعد الرجل منكم على أريكته يحدث بحديثى فيقول بيننا وبينكم

كتاب الله فيما وجدنا فيه حلالا استحللناه وما وجدنا فيه حراما حرمناه وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله »[1] .

فكيف يا سيدى يا رسول الله ذلك ، ولم يقل أحد هذا الكلام ؟

إذن فعلمهم الأعلى دليل على صدق الرسول فيما أخبر . ويسحرهم الحق ، فينطقون بمثل هذا القول لنستدل من قول خصوم النبى على صدق كلام النبى .

والحق يقول : « ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات » والذى يطيع الله ورسوله فى الدنيا هو من أخذ التكليف وطبقه ويكون الجزاء هو دخول الجنة فى الآخرة . لكن إدخال الجنة هل هو منهج الدين ، أو هو الجزاء على الدين ؟

إنه الجزاء على الدين ، وموضوع الدين هو السلوك فى الدنيا ، ومن يسير على منهج الله فى الدنيا يدخل الجنة فى الآخرة . فالآخرة ليست موضوع الدين ، لكن موضوع الدين هو الدنيا ، فعندما تريد أن تعزل الدنيا عن الدين نقول لك : لم نجعل للدين موضوعا ، إياك أن تقول:موضوع الدين هو الآخرة لأن الآخرة هى دار الجزاء ، وفى حياتنا نأخذ هذا المثل : هل الامتحان موضوع المناهج ، أو أن المناهج يقرأها الطالب طوال السنة ، وفى موضوع الامتحان ؟

إن المنهج التى يدرسها الطالب هى موضوع الامتحان ، وكذلك فالدنيا هى موضوع الدين ، والآخرة هى جزاء لمن نجح وفاز فى الموضوع ؛ لذلك فإياكم أن تقولوا : دنيا ودين ، فلا يوجد فصل بين الدنيا والدين ؛ لأن الدين هى موضوع الدين . فالدنيا تقابلها الآخرة والدين لها . الدنيا مزرعة والآخرة محصدة . وقد نرد على من يقول : إن الدنيا منفصلة عن الدين .

ومَن يطع الله ورسوله يدخله جنة واحدة أو جنتين أو جنات ، وهل دلالة « مَن » للواحد ؟ لا ، إن « من » تدل على الواحد ، وتدل على المثنى وتدل على الجمع ،

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط عن جابر

مثال ذلك نقول : جاء من لغيته أمس ونقول أيضا جاء من لغيتها أمس ، ونقول ثالثا : جاء من لغتهم أمس . إذن فـ مَن » صالحة للمفرد والمثنى والجمع .

والحق هنا لا يتكلم عن مفرد هنا أو جمع . كما قلنا في أول الفاتحة .

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الفاتحة)

على الرغم من أن القياس أن نقول : « إياك أعبد وإياك أستعين » . لكن قال الحق سبحانه : « إياك نعبد وإياك نستعين » ليوضح لنا أن المؤمنين كلهم وحدة واحدة في العبادة .

وهناك من يقول إذا دلت : (مَن) على المفرد فقد لحظنا لفظها ، وإذا دلت على المثنى أو الجمع فقد لحظنا معناها .

ولمن يقول ذلك نقول . إن هذا الكلام غير محقق علميا ؛ لأن لفظ « من » لم يقل أحد إنه للمفرد . بل إنه موضوعة للمفرد والمثنى والجمع . فلا تقل : استعمل لفظ « من » مراعاة للفظ أو مراعاة للمعنى ، لأن لفظ « من » موضوع لمعان ثلاثة هي المفرد والمثنى والجمع .

وقد سألني أخ كريم في جلسة من الجلسات : لماذا يقول الحق سبحانه في سورة الرحمن :

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

فقلت له : إن سورة الرحمن استهلها الحق سبحانه وتعالى :

﴿ الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

وبعد ذلك قال الحق :

﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

وقال سبحانه :

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

وقال تعالى :

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

إذن فمن خاف مقام ربه ، هو من الجن أو من الإنس ، إن كان من الجن فله جنة ، وإن كان من الإنس فله جنة أخرى . إذن فمن خاف مقام ربه فله جنتان .

وهناك من يقول هناك جنتان لكل واحد من الإنس والجن ، لأن الله لا يعاني من أزمة أماكن ، فحين شاء أزلا أن يخلق خلقا لحصاهم هذا من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة ، وعمل الكل على أنه مؤمن مطيع ، وأنشأ لكل واحد مكانه في الجنة ، وعامل سبحانه الكل على أنه عاص ، وأنشأ له مقعدا في النار ، وذلك حتى لا يفهم أحد أن المسألة هي أزمة أماكن

فإذا دخل صاحب الجنة جنته ، بقيت جنة الكافر التي كانت معدة له على فرض أنه مؤمن ، لذلك يقول الحق :

﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

فيرث المؤمنون ما كان قد أعد لغيرهم لو آمنوا .

إذن فالمعاني نجدها صوابا عند أي أسلوب من أساليب القرآن .

وهنا يقول الحق . « يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار » ويجب أن نفهم أن النهر هو الشق الذي يسيل فيه الماء وليس هو الماء ، الحق يقول : « جنات تجري من تحتها الأنهار » فأين تجري الأنهار ؟

أتجري الأنهار تحت زروعها ، أم تحت بنيانها ؟ ونعرف أن الزروع هي التي تحتاج إلى مياه ، ونحن نريد أن نبعد المياه عن المباني كيف ؟ ولكن ليس هناك شيء مستحيل على الله ، لأنها تصميمات ربانية .

فالخالق قد تشق نهرا ، ونجد من بعد ذلك النشع يضرب في المباني ، لكن تصميمات الحق بطلاقة القدرة « تكون فيه الجنات تجري من تحتها مياه الأنهار » ولا يحدث منها نشع ، سواء من تحت أبنية الجنات أو من تحت زروعها والذي يقبل على أسلوب ربه ويسأله أن يفيض عليه ويلهمه ، فهو ـ سبحانه ـ يعطيه ويمنحه فالحق مرة يقول : « جنات تجري من تحتها الأنهار » ومرة أخرى يقول : « جنات تجري تحتها الأنهار » فهذا ممكن وذاك ممكن .

فقوله ـ سبحانه ـ « جنات تجري تحتها الأنهار » قد يشير إلى أن الأنهار تكون آتية من موقع آخر وتجري وتمر من تحت الجنات . لا . هي تجري منها أيضا يقول الله تعالى : « جنات تجري من تحتها الأنهار » حتى لا يظن أحد أن هناك من يستطيع أن يسد عنك المياه من أعلى إنها أنهار ذاتية وعندما نقرأ أن الأنهار تجري من تحت الجنات بما فيها ومن فيها من قصور فقد يقول قائل : ألا أستطيع أن آخذ من هذه وأنا مهندس أضع تصميمات مباني الدنيا وآخذ من قول الحق إنه من الممكن أن تقيم مباني تجري من تحتها الأنهار ؟ وبالفعل أخذ البشر هذا الأمر اللافت .

نحن نقيم القناطر وهي مبانٍ وتجري من تحتها الأنهار ، وعندما تكون المواصفات

صحيحة فى القلوب والأسماع إلى آخر المواصفات فلا شيء يحدث ولا خلخلة فى المبنى . فالخلل الذى يحدث فى المبانى عندنا ، إنما يأتى من أثر الخيانة فى التناول ومن الممكن أن تجرى الأنهار تحت قصور الجنة . لقى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ألا يوحى ذلك للمهندس المسلم أن يحيا فى هذه اللفتة الإلهية ويأخذ منها علما ويستطيع أن يقيم مبانى تجرى من تحتها الأنهار ؟ لو تسهب إلى ذلك إيمانية مهندس وأخذ يتعلم عن ربه كيفية أداء العمل لفعل ذلك بتوفيق الله .

ولنتكلم على مصر التى تعانى من أزمة إسكان ، ونجد أن المساحة المائية تأخذ قدرا كبيرا من الأرض ، سواء أكانت النيل ، أم الفروع التى تأخذ من النيل ، وكذلك الترع الصغيرة وكذلك الطرق فلو أن هناك هندسة إيمانية لاستغلت المساحات والمسطحات المعطلة ، نقيم عليها مبانى تسع مرافق الدولة كلها ، ويتم إنجاز المبانى فوق الطرق وفوق المياه وفوق المصارف . وليس معنى ذلك أن نبنى كل الأماكن حتى تصير مسدودة بالمبانى ، ولكن نبنى الثلث ، ونترك فراغا مقدار الثلثين حتى لا نفسد المنظر ، ولا نتعدى على أرض خضراء مزروعة ، بها إيحاءات إيمانية على المهندس المسلم أن يفكر فيها .

إن بلدا كالقاهرة تحتاج إلى مرافق بمختلف متنوعه ، ويستطيع أن نبنى على الفراغات سواء أكانت فراغات فى مساحات النيل شرط مراعاة الفراغات والزروع اللازمة لجمال البيئة وتنقيتها من التلوث . أم نبنى المرافق تحت الأرض ، ولن تكون هناك أزمات للإسكان أو المرافق ، هذا بالإضافة إلى الانتفاع بالصحراء فى هذا المجال .

والحق يقول : « جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها » صحيح أن الجنة ستكون نعيما ليس على قدر تصورك ولكن على قدر كمال وجمال قدرة الحق ، فالنعيم الذى يتنعم فيه الإنسان يكون على قدر التصور فى معطيات النعيم ، وقلنا قديما : إن عمدة إحدى القرى قال : أريد أن أبنى مضيفة وحجرة للتليفون ، ومصطبة نفرشها هذا هو النعيم فى تصور العمدة . ونحن فى الحياة نخاف أن نترك النعيم بالموت أو يتركنا النعيم لكن كيف يكون النعيم عند صانع كل التصورات وهو

الحق سبحانه وتعالى ؟ لذلك تكون جنات النعيم دائمة ، فلا أنت تموت ولا هى تذهب .

والخلود هنا له معنى واضح إنه بقاء لا فناء بعده « وذلك الفوز العظيم » وما هو « الفوز » ؟

إنه النصر ، إنه الغلبة ، إنه النجاح ، إنه الظفر بالمطلوب

فإذا كان فوزنا فى الدنيا بعطيا جائزة نفرح بها ، فالفرح قد يستمر مدة الدنيا التى يملكها الواحد منا ، فما بالنا بالفوز الذى يأتى فى الآخرة وهو فوز الخلود فى جنة من صنع ربنا ، أليس ذلك فوزا عظيما ؟

إننا إذا كنا نفرح فى الدنيا بالفوز فى أمور جزئية فما بالنا بالفوز الذى يمنحه الحق ربنا بعظمته سبحانه وتعالى ، ولو قسنا فوز الدنيا بفوز الآخرة لوجدنا فوز الآخرة له مطلق العظمة ، ومهما ضحى المؤمن فى سبيل الآخرة ، فهناك فوز يعوض كل التضحيات ، ويسمو عن كل هذا

وإذا قال قائل : ألم يكن من الأفضل أن يقول : ذلك الفوز الأعظم نقول له : إنك سطحى الفهم لأنه لو قال ذلك لكان نور الدنيا عظيما ، لأن الأعظم يقابله العظيم ، والعظيم يقابله الحقير فحين يقول الحق عن فوز الآخرة : إنه عظيم ، معنى ذلك أن فوز الدنيا حقير ، والتعبير عن فوز الآخرة هو تعبير من الحق سبحانه .

وبعد ذلك يأتى الحق بالمقابل . فيقول .

﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾

وسبحانه قال من قبل : « تلك حدود الله » . والحدود إما أن تبين الأوامر وحدها وإما أن تبين النواهي وحدها . فهي شاملة أن يطيعها الطائع أو يعصيها العاصي .

فإن كنت تطيع فلك جزاء الطاعة وتأخذ الجنات والخلود والفوز العظيم .

لكن ماذا عمن يعصى ؟ إن له المقابل ، وهذا هو موقفه وجزاؤه أنَّ له العذاب « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين » .

هنا نجد « نارا » واحدة ، وهناك نجد « جنات » . هذا ملحظ أول ، وإذا كنا منتهين ونقبل على كتاب الله ، ونعرف أن المتكلم هو الله ، فإننا نجد الملحظ الثاني وهو خلود للمؤمنين في جنات ، أما الكافر فسيدخل النار . ولم يقل الحق نيراناً ، ولم يقل الحق أيضا : « خالدين » لماذا ؟ لأن المؤمنين سيكونون في الجنة على سرر متقابلين ، ويتزاورون ، وكل واحد يستمتع بكل الجنان ، وأيضاً إن المرء إذا كان له من عمله الصالح الكثير وقصر أولاده الذين اشتركوا معه في الإيمان ، فإن الحق ـ سبحانه ـ يلحق به ذريته ويكون هو وذريته في النعيم والجنان كرامة له فتكون الجنات مع بعضها وهذا أدعى للإنس

ولكن الموقف يختلف مع الكافر ، فلن يلحق الله به أحداً وكل واحد سيأخذ داره ، وحتى لا يأنسوا مع بعضهم وهم في النار . فالأنس لن يعطوه أيضاً ، فكل واحد في داره تماماً مثل الحبس المفرد في زنزانة . ولن يأنس واحد منهم بمعذب آخر . إذن فهناك « جنات » وهنا « نار » و« خالدين » و« خالداً » ، وكل استخدام للكلمة له معنى . والطائع له جنات يأنس فيها بذريته وزوجته أهل الإيمان ويكونون خالدين جميعاً في الجنات ، أما العاصي فهو في النار وحده خالداً « وله عذاب مهين » .

إن العذاب يكون مره أليماً ، ومثال ذلك أن يؤلم واحد عدوه فينجلد عدوه حتى لا يرى شيئاً الذي يعذبه . ويقول الشاعر :

وتجلدي للشامتين أريهم
أني لريب الدهر لا أتضعضع

فيكتم الألم عن خصمه ، لكن هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فهناك إهانة فى النفس ، فعذاب الله يجمع الألم والإهانة . إياك أن تفهم أن هناك من يقدر على أن يتجلد كما يتجلد البشر عند وقوع العذاب فى الدنيا - إن عذاب الآخرة مهين ومذل للنفس فى آن واحد .

وهكذا نجد أن المرحلة الأولى من سورة النساء عالجت وحدة الإنسان أباً ، ووحدته أماً ، وعالجت كيف بث الله منهما رجالاً كثيراً ونساء . وعالجت السورة أيضاً ما يطرأ مما يجرى به قدر الله فى بعض خلقه بأن يتركوا أيتاماً صغاراً ، وأنه سبحانه أراد استبقاء الحياة الكريمة للنفس الإنسانية ؛ لذلك طلب أن نصنع الخير والمودة مع اليتامى ، ووضع أسلوب التعامل الإيمانى معهم . وأن نكون أوصياء قائمين بالعدالة والإرادة الحسنة العفيفة لأموالهم ، إلى أن يبلغوا سن الرشد فيتسلموها .

وأيضا عالجت السورة أمراً آخر وهو استبقاء الحياة الكريمة للنساء والأطفال ضمن النسيج الاجتماعى ذلك أن العرب كانوا يمنعون النساء من الميراث ، ويمنعون - كذلك - من الميراث من لم يطعن برمح ولم يضرب بحجر أو سيف ولم يشترك فى رد عدوان . فأراد الله سبحانه لهذه الفئة الذليلة المضطهدة أن تأخذ حقها ليعيش العنصران فى كرامة ويستبقيا الحياة فى عزة وقمة وفى قوة ، فشرع الحقّ نصيباً محدداً للنساء يختلف عن نصيب الرجال مما قل أو كثر ، وبعد ذلك استطرد ليتكلم عن الحقوق فى المواريث وأوضح سبحانه الحدود التى شرعها لهذا الأمر ، فمن كان يريد جنات الله فليطع الله ورسوله فيما حدّ من حدود ومن استغنى عن هذه الجنات فليعص الله ليكون خالدا فى النار .

إذن فالحياة الإنسانيه هبة من الله لعباده ، ومن كرمه سبحانه أن أوجد لها - قبل أن يوجدها - ما يقيم أود الحياة الكريمه لذلك الإنسان المكرم ، فوجد الإنسان على الخير ، ولم يعد الخير على الإنسان ، أى أنّ الحق سبحانه لم يخلق الإنسان أولاً ثم صنع له من بعد ذلك الشمس والقمر والأرض والعناصر . لا ، لقد خلق الله هذه العناصر التى تخدم الإنسان أولاً وأعدها لاستقبال الطارق الجديد - الإنسان - الذى اختاره سبحانه ليكون خليفة فى الأرض فالخير فى الأرض الذى نستبقى به الحياة سبق وجود

الإنسان ، وهذه عناية من الحق الرحمن بمخلوقه المكرم وهو الإنسان . وجعل الله للإنسان وسيلة للتكاثر وربطها بعملية الإمتاع ، وهذه الوسيلة فى التكاثر تختلف عن وسائل التكاثر فى الزروع والحيوانات ، فوسيلة التكاثر فى كل الكائنات هى لحفظ النوع فقط .

وأراد ـ سبحانه وتعالى ـ أن يكون الإمتاع مصاحباً لوسيلة التكاثر الإنسانى ، ذلك أن المشقّات التى يتطلبها النسل كثيرة ، فلابد أن يجعل الله فى عملية التكاثر متعة تغرى الإنسان .

وأراد الحق سبحانه بذلك أن يأتى بالضعاف ليجعل منهم حياة قوية .

ويوصينا الحق باليتيم من البشر ، وقد يقول قائل :

مادام الحق سبحانه وتعالى يوصينا حتى ننشىء من اليتيم إنساناً قوياً وأن نحسن إلى اليتيم ، فلماذا أراد الله أن يموت والد اليتيم؟ . نقول : جعل الحق هذا الأمر حتى لا تكون حياة الإنسان ضربة لازب على الله ، إنه يخلق الإنسان بعمر محدد معروف له سبحانه ومجهول للإنسان ، فالإنسان قد يموت جنيناً أو طفلاً أو صبياً أو رجلاً أو هرماً . بل نحن نجد فى الحياة إنساناً هرماً مازال يحيا بيننا ويموت حفيد حفيده ، لماذا ؟ .

لأن الله أراد أن يستر قضية الموت عن الناس ، فلا معرفة للإنسان بالعمر الذى سوف يحياه ولا بزمان الموت ، ولا مكان الموت ، حتى يكون الإنسان منا دائماً على استعداد أن يموت فى أى لحظة ومادام الإنسان يعيش مستعداً لأن يموت فى أى لحظة ، فعليه أن يستحى أن يلقى الله على معصية . وأيضا لنعلم أن المنهج الإيمانى ؛ منهج يجعل المؤمنين جميعا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، فإذا مات رجل وترك طفلاً يتيماً ، ووجد هذا اليتيم آباء من المجتمع الإيمانى ، فإن المنهج الإيمانى يستقر فى قلب اليتيم اطمئناناً ويقيناً . ومن حكمة الموت ألا يفتش أحد فى أبيه أو فى الأسباب الممنوحة من الله للآباء ، بل نكون جميعا موصولين بالله .

ومادام الحق سبحانه قد وضع لنا الأسباب لاستبقاء الحياة ، ووضع لنا أسلوب

السعى فى الأرض لتستبقى الحياة بالحركة فيها ، فقد وضع أيضا الوسيلة الكريمة لاستبقاء النوع وجعل من حركة الأصل ما يعود على الفرع ، فلم يُغر الله الإنسان وحده بالحركة لنفسه ، ولكن أغراه أن يتحرك فى الحياة حركة تسعه وتسع من يعول ، ويوضح الحق للإنسان : أن حركتك فى الأرض ستنفع أولادك أيضاً

ولذلك أوجد الله سبحانه فى نفس كل والد غريزة الحنان والحب ونحن نرى هذه الغريزة كآية من آيات الله متمكنة فى نفوس الآباء وهذا يسعى الأب فى الحياة ليستفيد هو وأولاده . والذى يتحرك حركة واسعة فى الحياة قد يأتى عليه زمان يكفيه عائد حركته بقيه عمره ؛ لأنه تحرك بهمة وإخلاص ؛ وأفاء الله عليه الرزق الوفير ، وقد يتحرك رجل لمدة عشرين عاماً أو يزيد ويضمن لنفسه ولأولاده من بعده الثروة الوفيرة ، وهناك من يكد ويتعب فى الحياة ويكسب رزقه بكفيه ويكفى الأبناء والأحفاد .

وهكذا نجد الذين يتحركون لا يستفيدون وحدهم ، فقط ولكن المجتمع يستفيد أيضاً وتشاء حكمة الله العالية بأن يفتت الثروة بقوانين الميراث لتنتشر الثروة وتتوزع بين الأبناء فتشيع فى المجتمع ، وهذا اسمه التفتيت الانسيابى . كأن نجد واحداً يملك مالة فدان وله عدد من الأبناء والبنات وبعد وفاة الرجل يرث الأبناء والبنات كل تركته ، وهكذا تفتت الثروة بين الأبناء تفتيتاً انسيابياً وليس بالتوريث القهرى الذى يُنشىء الحقد والعداوة ، ويريد الحق أن نحترم حركة المتحرك ، وأن تعود له حركة حياته ولن يعول فقال سبحانه :

﴿ إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة محمد)

هو سبحانه لا يقول لأى واحد . هات المال الذى وهبته لك وقلب سابقا . إنه سبحانه وتعالى يحض عبداً على عبد فيقول :

﴿ مَّن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الحديد)

إن الله سبحانه يحترم حركة العبد ، ويحترم ما ملك العبد بعرقه ، ويوصى الحق العبد الغنى : إن أخاك العبد الفقير فى حاجة ، فأقرضنى ـ أن الله ـ بإعطائك الصدقة أو الزكاة لأخيك الفقير ولم يقل للعبد الغنى : أقرض أخاك ، ولكنه قال أقرضنى لماذا ؟ لأنه سبحانه هو الذى استدعى الخلق إلى الوجود ، وهو المتكفل برزقهم جميعاً . المؤمن منهم والكافر . ولذلك ضمن الرزق للجميع وأمر الأسباب بأن تستجيب حتى للكافر ، لأنه سبحانه هو الذى استدعاه للوجود .

وسبحانه وضع هذا التوريث ، ليصنع التفتيت الإنسيابى للملكية حتى لا يأتى التفتيت القسرى الذى يجعل بعضاً من الأبناء وقد نشأوا فى نعمة وأخذوا من مسائل الحياة ما يريدون ، وعندما يأتى عليهم هذا التفتيت القسرى ، يصبحون من المساكين الذين فاجأتهم الأحداث القسرية بالحرمان ، فهم لم يستعدوا لهذا الفقر المفاجىء . لكن عندما يأتى التفتيت الانسيابى فكل واحد يعد نفسه لما يستقبله ، وبذاتية راضية وبقدرة على الحركة ، وبذلك قال الحق

﴿ إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة محمد)

إنه سبحانه لا يقول : أنا الذى ملكتك هذا المال ، ولا أنا الذى رزقتك هذا الرزق ، مع أنه ـ سبحانه ـ هو الذى ملكك ورزقك هذا المال حقا ولكنه يوضح لك حقك فى الحركة ، فيقول بعد ذلك :

﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة محمد)

ولو ألح عليك فأنت تبخل بها لأنك جبيتها بتعب وعرق ولكن ما الفرق بين إنسان لم يسرف على نفسه ، بل عاش معتدلا ، ثم أبقى شيئا لأولاده ؛ والذى جاء يدخله كله ويبدده فيما حرمه الله وأسرف على نفسه فى المخدرات وغيرها ، ما الفرق بين هذا وذاك ؟ .

الفرق هو احترام الحق سبحانه لأثر حركة الإنسان فى الحياة ، لذلك يوضح : أنا لا أسألكم أموالكم ، لأنى إن سألتكم أموالكم فقد تبخلون ، لأن مالكم عائد من أعمالكم .

ويقول الحق . « وتخرج أضغانكم » وإذا ظهر وخرج الضغن فى المجتمع فالويل للمجتمع كله ؛ ولذلك نجد أن كل حركة من هذه الحركات القسرية ينشأ منها بروز الضغن فى المجتمع كله ، وساعة يبرز الضغن فى المجتمع ، انتهى كل شىء جميل . ولذلك وضع الحق أسس ووسائل استبقاء الحياة الكريمة .

وضع أسسا للضعيف بما يحميه ، وكذلك لنساء اللاتى كن محرومات من الميراث قبل الإسلام ، وجعل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لتوريث الأطفال والأبناء والنساء حدوداً « تلك حدود الله » وإياكم أن تتعدوا هذه الحدود ؛ لأن الإنسان إذا ما تعدى هذه الحدود ، فلا بد أن يكون من أهل النار ـ والعياذ بالله ـ فقد وضع الله تلك القواعد لاستبقاء حياتك وحياة من تعول .

وهناك لون آخر من الاستبقاء ، هو استبقاء النوع ، لأن للإنسان عمرًا محدودًا فى الحياة وسينتهى ؛ لذلك يجب أن يستبقى الإنسان النوع فى غيره ، كيف ؟ نحن نتزوج كى يرزقنا الله بالذرية والبنين والحفدة وتستمر خلقات ، وهذا استبقاء للنوع الإنسانى

والحق يريد أن يكون الاستبقاء للنوع كريماً ؛ لذلك يأمرنا الحق ـ سبحانه ـ أن نستبقى النوع بأن نختار له الوعاء الطاهر ، فإياك أن تستبقى نوعك من وعاء خبيث نجس ، اختلطت فيه مياه أناس متعددين ، فلا يدرى أحد لمن ينسب الولد فيصير مضيعاً فى الكون ، مجهول النسب فأوضح الله للإنسان أن يختار لنفسه الوعاء النظيف ليستبقى النوع بكرامة .

والحصول على الأوعية النظيفة يكون بالزواج . فيختار الرجل أنثى عفيفة ذات دين وترضى به زوجاً أسلم أعين الناس جميعاً ، ويصير معروفا للجميع أن هذه امرأة هذا ، وهذا زوجها ، دخوله وخروجه غير ممقوت أو موقوت وما ينشأ من الذرية

بعد ذلك يكون قطعا منسوبا إليه . ويخجل الإنسان أن يكون ابنه مهينا أو عاريا أو جائعا أو غير معترف به ؛ لذلك يحاول الأب أن يجعل من ابنه إنسانا مستوفيا لكل حقوقه مرفوع الرأس غير مهين ، لا يقذحه واحد فيَسُبَّهُ وينال منه قائلا . جئت من أين ؟ أو من أبوك ؟ فلا يعيش الطفل كسير الجناح ذليلا طوال عمره . فأراد سبحانه استبقاء النوع برابطة تكون على عين الجميع ، وأن تكون هذه الرابطة على الطريق الشرعي .

ومن العجيب أننا نجد هذه المسألة ذات آثار واضحة في الكون ، فالقط يحاول أن تزيل أثر جريمتها بحبرها الحنان الطبيعي كأم ألا تلقى ابنها الوليد في البحر بل أمام مسجد ؛ فالطفل مربوط بحنان أمه ولكن الحنان غير شرعي ولذلك ترمي الأم الزانية بطفلها أمام المسجد حتى يلتقطه واحد من الناس الطيبين ، فالزانية نفسها تعرف أنه لا يدخل المسجد إلا إنسان طيب قد يحن على الوليد ويأخذ هذا الطفل ويصير مأمونا عليه .

وهي لا تلقي وليدها عند حمارة أو دار سبنها ، ولكن دائما تضعه عند أبواب المساجد ، فالحنان يدفعها إلى وضع الطفل غير الشرعي في مثل هذا المكان ؛ لأنها تخاف عليه ، لذلك تلفه وتضعه في أحلى الملابس ، وإن كانت غنية فإنها تضع معه بعض من المال ؛ لأن الحنان يدفعها إلى ذلك ، والحياء من الذنب هو الذي يجعلها تتخلص من هذا الطفل .

إنها ـ كي تلك ـ تحتاط بأن تضعه في مكان يدخله أناس طيبون فيعثر عليه رجل طيب ، يأخذه ويكون مأمونا عليه . إذن فحتى الفاسق المنحرف عن دين الله يحتمي في دين الله ؛ وهذا شيء عجيب .

والله يريد أن يبقى بقاء النوع على النظافة والطهر والعفاف ولا يريد لجراثيم المفاسد أن توجد في البيوت ؛ لذلك يشرع العلاقة بين الرجل والمرأة لتكون زواجا أمام أعين الناس . ويأخذ الرجل المرأة بكلمة الله .

ولنضرب هذا المثل : نحن نجد الرجل الذي يحيا في بيت مطل على الشارع وله

ابنة وسيمة والشباب يدورون حولها ، ولو عرف الرجل أن شابا يجيء ويتعمد ليظر إلى ابنته فماذا يكون موقف الرجل من الشاب ؟ إن الرجل قد يسلط عليه من يضربه أو يبلغ ضده الشرطة ويغل الرجل بالغيظ والغيرة .

وما موقف الرجل نفسه عندما تدق الباب أسرة شاب طيب يطلبون الزواج من ابنته ؟ يفرح الرجل ويسأل الابنة عن رأيها ، ويبارك للأم ويأتى بالمشروبات ويوجه الدعوات لحفل عقد القران ، هى الفرق بين الموقفين ؟

لماذا يغضب الأب من الشاب الذى يتلصص ؟ لأن هذا الشاب يريد أن يأخذ البنت بغير حق الله ، أما الشاب الذى جاء ليأخذ الابنة زوجة بحق الله وبكلمة الله فالأب يفرح به وينزل الأمر عليه بردا وسلاما . وبعد ذلك يتسابى الأمر ، ويتم الزفاف ويزور الأب ابنته صباح الزفاف ويرغب أن يرى السعادة على وجهها .

إن الفارق بين الموقفين هو ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم : « الصلاة الصلاة ، وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون ، الله الله فى النساء فإنهن عوانٍ فى أيديكم[1] أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله »[2]

ومادام الله هو الذى خلق الرجل والمرأة وشرع أن يجتمعا وتكون كلمة الشاب « أريد أن أتزوج ابنتك » بردا وسلاما على قلب الأب ، ويكون الفرح والاحتفال الكبير ؛ لأن هذه مسألة عفاف وطهر . والله يريد أن يجعل استبقاء النوع الإنسانى استبقاءً نظيفا لا يُخجل أن تجيء منه ولادة ، ولا يخجل منه المولود نفسه ، ولا يُذَم فى المجتمع أبدا ، إذا استبقينا النوع بهذا الشكل ؛ فهذا هو الاستبقاء الجميل للنوع . واستبقاء النوع هو الذى تأتى من أجله العملية الجنسية وأراد الله أن يشرعها حلالا حتى علم الناس ويعرفها الجميع .

وقد سألنى سائل وأنا فى الجزائر : لماذا تقوم العلاقة بين الرجل والمرأة على كلمات

---

(١) عوانٍ . أسيرات جمع عانية

(٢) رواه النسائى وابن ماجه

نحو : « زوجتك موكلتى » أو تقول هى : زوجتك نفسى » ويقبل الرجل ، وتنكسر العلاقة بكلمة « أنت طالق » ؟ وأجبته : لماذا يستبيح الرجل لنفسه أن يمتلك بضع الزوجة بكلمتين ؟ ويستكثر أن تخرج من عصمته بكلمتين ؟ فكما جاءت بكلمة تذهب بكلمة .

إن الحق سبحانه وتعالى كما استبقى الحياة بالعناصر التى تقدمت ، يريد أن يستبقى النوع بالعناصر التى تأتى ، ولوضح لنا أن كل كائن يتكاثر لابد له من إخصاب ، والإخصاب يعنى أن يأتى الحيوان المنوى من الذكر لبويضة الأنثى كى ينشأ التكاثر ، والتكاثر فى غير الإنسان يتم بعملية فسرية .

ففى الحيوانات ترى الأنثى وهى تجأر بالصوت العالى عندما تنزل البويضة فى رحمها كالبقرة مثلا ، حتى يقول الناس جميعا:إن البقرة تطلب الإخصاب ، وعندما يذهب بها صاحبها إلى الفحل ليخصبها تهدأ ، ولا تمكن فحلا آخر منها من بعد ذلك ، وهكذا يتم حفظ النوع فى الحيوانات

أما فى النباتات ؛ فالأنثى يتم تلقيحها ولو على بعد أميال . ونحن نعرف بعضا من ذكور النبات وإناثها مثل ذكر النخل والخميز ، لكننا لا نعرف التفريق بين ذكورة وأنوثة بعض النباتات ، وقد يعرفها المتخصصون فقط ، وبعض النباتات تكون الذكورة والأنوثة فى عود واحد كالذرة مثلا ؛ فالأنوثة توجد فى « الشراشيب » التى توجد فى « كوز » الذرة ، وعناصر الذكورة توجد فى السنبلة التى يحركها الهواء كى تنزل لتخصب الأنوثة . وكذلك القمح . وهناك أنواع من النباتات لا نعرف ذكورتها ! بالله أيوجد أحدٌ عنده ذكر مانجو أو ذكر برتقال ؟

إذن هناك أشياء كثيرة لا نعرفها ، لكن لا بد من أن تتلاقح إخصاب لينشأ التكاثر ، فيوضح ربنا . اطمئنوا أنا جعلت الرياح حاملة لوسائل اللقاح ، يأخذ الريح اللواقح إلى النباتات ، والنبات الذى يكون تحت مستوى الريح يسخر الله له أنواعا من الحشرات غذاؤها فى مكانٍ مخصوص من النبات وله لون يجذبها ، حشرة يجذبها اللون الأحمر ، وحشرة يجذبها اللون الأبيض ، لأن الحشرة تذهب للذكورة فيعلق بها حيوان الذكورة ، فتذهب إلى الأنثى المتبرجة بالزينة ، وهذه العملية تحدث

ولا ندرى عنها شيئا .

من الذى يلقح ؟ من الذى يعلمها ؟ إنه الله القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، فاستبقى لنا الأنواع غريزيا وقسريا ، بدون أن نعرف عن الكثير منها شيئا ، حتى المطر لا يمكن أن ينزل إلا إذا حدثت عملية تلقيح ولذلك يقول الحق :

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إذن الحق قد استبقى لك أيها الإنسان أنواع مقومات حياتك بما لا تدريه ، وجعل هذه المسائل قسرية بحيث يؤدى كل كائن وظيفته وتنتهى المسألة ، لكن حين كان لك اختيار ، وتوجد مشقات كثيرة فى الإنجاب وحفظ النوع ، فقد قرن ـ سبحانه ـ حفظ النوع بالمتعة ، وإياك أن تعزل حفظ النوع عن المتعة ، فإن أخذت المتعة وحدها فقد أخذت الفرع وتركت الأصل ، فلا بد أن تفعلها لحفظ النوع المحسوب عليك .

إذن فإياك أن تلقى حيواناتك المنوى إلا فى وعاء نظيف ، محسوب لك وحدك كى لا تنشأ أمراض خبيثة تفتك بك وبغيرك ، ولكيلا ينشأ جيل مطموس النسب ، ولكيلا يكون مهينا ولا مدنسا فى حياته ؛ فإياكم أن تأخذوا قضية حفظ النوع منفصلة عن المتعة فيها .

ولذلك ـ سبحانه ـ سيتكلم عن المرأة عندما تتصل بامرأة بالسحاق ، أو الرجل يكتفى بالرجل باللواط للمتعة ، أو رجل ينتفع بامرأة على غير ما شرع الله فعندما تنتفع امرأة مع امرأة ، وينتفع الرجل بالرجل للاستمتاع ، نقول لها . أنت أيتها المرأة أخذت المتعة وتركت حفظ النوع ، وأنت يا رجل أخذت المتعة وتركت حفظ النوع ، والحق يريد لك أن تأخذ المتعة وحفظ النوع معا . فيوضح سبحانه أنه لا بد أن تكون المتعة فى ضوء منهج الله .

واسمعوا قول الله :

﴿ وَالَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾

و« اللاتى » اسم موصول لجماعة الإناث ، وأنا أرى أن ذلك خاص باكتفاء المرأة بالمرأة . وماذا يقصد بقوله : « فاستشهدوا عليهن أربعة » ؟ إنه سبحانه يقصد به حماية الأعراض ، فلا يبلغ كل واحد فى عرض الآخر ، بل لا بد أن يضع لها الحق احتياطا قويا ، لأن الأعراض ستجرح ، ولماذا « أربعة » فى الشهادة ؟ لأنها اثنتان تستمتعان ببعضهما ، ومطلوب أن يشهد على كل واحدة اثنان فيكونوا أربعة ، وإذا حدث هذا ورأيا وعرفنا وتأكدنا ، ماذا نفعل ؟

قال سبحانه : « فامسكوهن فى البيوت » أى احجروهن واحبسوهن عن الحركة ، ولا تجعلوا لهن وسيلة التقاء إلى أن يتوفاهن الموت « أو يجعل الله لهن سبيلا » وقد جعل الله .

والذين يقولون : إن هذه المسألة خاصة بعملية بين رجل وامرأة ، نقول له . إن كلمة « واللاتى » هذه اسم موصول لجماعة الإناث ، أما إذا كان هذا بين ذكر وذكر . فهى هذه الحالة يقول الحق :

﴿ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾

الآية هنا تختص بلقاء رجل مع رجل ، ولذلك تكون المسألة الأولى تخص المرأة مع المرأة ، ولماذا يكون العقاب فى مسألة لقاء المرأة بالمرأة طلبا للمتعة هو الإمساك فى البيوت حتى يتوفاهن الموت ؟ لأن هذا شر ووباء يجب أن يحاصر ، فهذا الشر معناه الإفساد لتام ، لأن المرأة ليست محجوبة عن المرأة ، فلأن تحبس المرأة حتى تموت خير من أن تتعود على الفاحشة ونحن لا نعرف ما الذى سوف يحدث من أضرار ، والعلم مازال قاصرا ، فالذى خلق هو الذى شرع أن يلتقى الرجل بالمرأة فى إطار الزواج وما يجب فيه من المهر والشهود ، وسبحانه أعد المرأة للاستقبال ، وأعد الرجل للإرسال ، وهذا أمر طبيعى ، فإذا دخل إرسال على استقبال ليس له ، فالتشويش يحدث

وإن لم يكن اللقاء على الطريقة الشرعية التى قررها من خلقنا فلا بد أن يحدث أمر خاطىء ومضر ، ونحن عندما نصل سلكا كهربائيا بسلك آخر من النوع نفسه . . أى سالب مع سالب أو موجب مع موجب نشب الحرائق ، ونقول . « حدث ماس كهربائى » ، أى أن التوصيلة الكهربائية كانت خاطئة . فإذا كانت التوصيلة الكهربائية الخاطئة فى قليل من الأسلاك قد حدث ما حدث منها من الأضرار ، أفلا تكون التوصيلة الخاطئة فى العلاقات الجنسية مضرة فى الشر ؟

إننى أقول هذا الكلام ليُسَجَّل ، لأن العلم سيكشف - إن متأخرا أو متقدما - أن لله سرا ، وحين يتخصص رجل بامرأة بمنهج الله « زوجتى . وتقول له زوجتك » فإن الحق يجعل اللقاء طبيعيا . أما إن حدث اختلاف فى الإرسال والاستقبال فلسوف يحدث ماس صاعق ضار ، وهذه هى الحرائق فى المجتمع .

أكرر هذا الكلام ليسجل وليقال فى الأجيال القادمة : إن الدين من قبلنا قد اعتدوا إلى نصحة من نصحات الله ، ولم يركنوا إلى الكسل ، بل هداهم الإيمان إلى أن يكونوا موصولين بالله . فقطعوا إلى نفحات الله والحق هو القائل :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة فصلت)

فإذا كنا قد اهتدينا إلى معرفة أن اتصال سلك صحيح بسلك صحيح فالكهرباء تعطى نورا جميلا أما إذا حدث خطأ فى الاتصال ، فالماس يحدث وتنتج منه حرائق ، كذلك فى العلاقة البشرية ، لأن المسألة ذكورة وأنوثة

والحق سبحانه القائل :

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الذاريات)

فإذا كان النور الجميل يحدث من الاتصال الصحيح بين الموجب والسالب فى غير الإنسان ، والحدث الحرائق إن كان الاتصال خاطئا ، فما بالنا بالإنسان ؟

وفى بعض رحلاتنا فى الخارج ، سألنا بعض الناس .

ـ لماذا عَدَّدتم للرجل نساء ، ولم تعددوا رجالا للمرأة ؟

هم يريدون أن يثيروا حفيظة المرأة وسخطها على دين الله ؛ حتى تقول المرأة الساذجة ـ متمردة على دينها ـ . « ليس فى هذا الدين عدالة » ، لذلك سألت من سألونى أعندكم أماكن يستريح فيها الشاب المتحلل جنسيا ؟

فكان الجواب : نعم فى بعض الولايات هناك مثل هذه الأماكن .

قلت : بماذا احتطتم لصحة الناس ؟

قالوا : بالكشف الطبى الدورى المفاجىء

قلت : لماذا ؟

قالوا : حتى نعزل المصاب بأى مرض .

قلت : أيحدث ذلك مع كل رجل وامرأة متزوجين ؟

قالوا : لا

قلت . لماذا ؟؟ سكتوا ولم يجيبوا ، فقلت . لأن الواقع أن الحياة الزوجية للمرأة مع رجل واحد تكون المرأة وعاء للرجل وحده لا ينشأ منها أمراض ، ولكن المرض ينشأ حين يتعدد وعاء الرجال فى المكان الواحد .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يستبقى النوع بقاء نظيفا، لذلك قال :

﴿ وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

والمقصود بـ « نسائكم » هنا المسلمات ، لأننا لا نشرع لغيرنا ، لأنهم غير مؤمنين بالله . وطلب الشهادة يكون من أربعة من المسلمين ، لأن المسلم يعرف قيمة العرض والعدالة . وإن شهدوا فليحدث حكم الله بالحبس فى البيوت .

وقد عرفنا ذلك فيما يسمى فى العصر الحديث بالحجر الصحى الذى نضع فيه أصحاب المرض المعدى . وهناك فرق بين من أصيبن بـ « مرض معد » ومن أصبن بـ « العطب والمضيعة »

فإذا كنا نعزل أصحاب المرض المعدى فكيف لا نعزل اللاتى أصبن بالعطب والمضيعة ؟ لذلك يقول الحق : « فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا » أى أن تظل كل منهما فى المنزل إلى أن يأتى لكل منهن ملك الموت . وحدثتنا كتب التشريع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حمل الآية على أنها تختص بزنا يقع بين رجل وامرأة وليس بين امرأتين .

عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « خذوا عنى خذوا عنى : البكر بالبكر جلد مائة ونفى سنة ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم »[1]

ثم جاء التشريع بعد ذلك فصعد قضية الحدود إلى أن البكر بالبكر جلد . والثيب بالثيب رجم . وبعض من الناس يقول : إن الرجم لم يرد بالقرآن .

---

(١) رواه مسلم عن عبادة بن الصامت

رد فقول ومن قال.إن التشريع جاء فقط بالقرآن ؟ لقد جاء القرآن معجزة ومنهجا للأصول ، وكما قلنا من قبل . إن الحق قال :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

وبعد ذلك نتناول المسألة . حين يوجد نص ملزم بحكم ، قد نفهم الحكم من النص وقد لا نفهمه ، فإذا فهمنا فله تطبيق عملي في السيرة النبوية .

فإذ كان لرسول صلى الله عليه وسلم لم يأت بالنص فقط ولكن جاء بالعمل نفسه ، فالأسوة تكون بالفعل في إقامة الحد ، لأن الفعل أقوى من النص ، فالنص قد يوجد ولا يطبق لسبب كالنَّسْخ للحكم مثلا ، أما الفعل فإنه تطبيق ، وقد رجم الرسول ماعزا والغامدية ورجم اليهودي واليهودية عندما جاءوا يطلبون تعديل حكم الرجم الوارد بالتوراة . إذن فالفعل من الرسول أقوى من النص وخصوصا أن الرسول مشرع أيضا .

وقال واحد مرة إن الرجم لمن تزوج ، فماذا نفعل برجل متزوج قد زنا بفتاة بكر ؟

والحكم هو : يُرجم الرجل وتجلد الفتاة ، فإن اتفقا في الحالة ، فهما يأخذان حكما واحدا . وإن اختلفا فكل واحد منهما يأخذ الحكم الذي يناسبه

وحينما تكلم الحق عن الحد في الإماء ـ المملوكات ـ قال :

﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾

(سورة النساء)

ويفهم من ذلك الجلد فقط ، لأن الرجم لا يمكن أن نقوم بتقسيمه إلى نصفين ، فالأمة تأخذ في الحد نصف الحرة ، لأن الحرة البكر في الزنى تجلد مائة جلدة ، والأمة تجلد خمسين جلدة .

ومادام للأمَة نصف حد المحصنة ، فلا يأتى - إذن - حد إلا فيما ينصَّف ، والرجم لا ينصَّف ، والدليل أصبح نهائيا من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مشرع وليس مستنبطا ، وقد رجم رسول الله ولمادا تأخذ الأمَة نصف عقاب الحرة ؟ لأن الإماء مهدورات الكرامة ، أما الحرائر فلا . ولذلك قهد امرأة أبي سفيان قالت . أوَ تزنى الحرة ؟ قالت ذلك وهى فى عنف جاهليتها . أى أن الزنا ليس من شيمة الحرائر ، أما الأمَةُ فمهدورة الكرامة نظرا لأنه مجترأ عليه وليست عرض أحد .

لذلك فعليها نصف عقاب المحصنات ، وقد تساءل بعضهم عن وضع الأمة المتزوجة التى زنت ، والرجم ليس له نصف .

نقول الرجم فقد للحياة فلا نصف معه ، إذن فنصف ما على المحصنات من العذاب ، والعذاب هو الذى يؤلم ونستشهد على ذلك بآية لنبين الرأى القاطع بأن العذاب شيء ، والقتل وإزهاق الحياة شيء آخر ، ونجد هذه الآية هى قول الحق على لسان سليمان عليه السلام حينما تفقد الطير ولم يجد الهدهد :

﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ ﴾

(من الآية ٢١ من سورة النمل)

إذن ، فالعذاب غير الذبح ، وكذلك يكون العذاب غير الرجم . فالذى يحتج به البعض ممن يريدون إحداث ضجة بأنه لا يوجد رجم ، لأن الأمة عليها نصف ما على المحصنات . والرجم ليس فيه تنصيف نقول له : إن ما تستشهد به باطل ، لأن الله فرق بين العذاب وبين الذبح ، فقال على لسان سليمان « لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه » فإذا كان العذاب غير إزهاق الروح بالذبح ، والعذاب أيضا غير إزهاق الروح بالرجم . إذن فلا يصح أن يحاول أحد الإفلات من النص وفهمه على غير حقيقته ولنناقش الأمر بالعقل :

حين يعتدى إنسان على بكر ، فما دائرة الهجوم على العرض فى البكر ؟ إنها أضيق من دائرة الهجوم على الثيب ، لأن الثيب تكون متزوجة غالبا ، فقصارى ما فى البكر أن الاعتداء يكون على عرضها وعرض الأب والأخ . أما الثيب فالاعتداء يكون على

عرض الروح أيضا ، وهكذا تكون دائرة الاعتداء أكبر ، إنه اعتداء على عرض الأب والأم . والإخوة والأعمام مثل البكر ، وزاد على ذلك الزوج والأبناء المتسلسلون . فإذا كان الآباء والأمهات طبقة وتنتهي ، فالأبناء طبقة تستديم ، لذلك يستديم العار . واستدامة العار لا يصح أن تكون مساوية لرقعة ليس فيها هذا الاتساع ، فإن سويت بين الاثنين بالجلد فهذا يعني أن القائم بالحكم لم يلحظ اتساع جرح العرض .

إن جرح العرض في البكر محصور وقد ينتهي لأنه يكون في معاصرين كالأب والأم والإخوة ، لكن ما رأيك أيها القائم بالحكم في الثيب المتزوجة وهل أولاد يتناسلون ؟ إنها رقعة متسعة ، فهل يساوي الله - وهو العادل - بين ثيب وبكر بجلد فقط ؟ إن هذا لا يتأتى أبدا .

إذن فالمسألة يجب أن تؤخذ مما صنعه رسول الله وهو المشرّع الثاني الذي امتاز لا بالفهم في النص فقط ، ولكن لأن له حق التشريع فيما لم يرد فيه نص ! فسنأخذ بما عمله وقد رجم رسول الله فعلا ، وانتهى إلى أن هذا الحكم قد أصبح نهائيا ، الثيب بالثيب هو الرجم ، والبكر بالبكر هو الجلد ، وبكر وثيب كل منهما يأخذ حكمه ، ويكون الحكم منطبقا تماما ، وبذلك نضمن طهارة حفظ النوع ؛ لأن حفظ النوع هو أمر أساسي في الحياة باستبقاء حياة الفرد واستبقاء نوعه ، فاستبقاء حياة الفرد بأن نحافظ عليه ، ونحسن تربيته ونطعمه حلالا ، ونحفظ النوع بالمحافظة على طهارة المخالطة .

والحق سبحانه وتعالى بعد خلقه حين يغفلون عن منهج الله بما يلفتهم إلى المنهج من غير المؤمنين بمنهج الله ، ويأتينا بالدليل من غير المؤمنين بمنهج الله ، فيثبت لك بأن المنهج سليم . ولقد تعرضنا لذلك من قبل مرارا وتكرارها حتى تثبت في أذهان الناس قال الحق :

﴿ هُوَ الَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة التوبة)

فلا يقولن قائل إن القرآن أخبر بشيء لم يحدث لأن الإسلام لم يطبق ولم يظهر على الأديان كلها ونرد عليه لو فهمت أن الله قال « ليظهره على الدين كله » وأضاف سبحانه : « ولو كره المشركون » ، « ولو كره الكافرون » كما جاء في موقع آخر من القرآن الكريم ، لقد أوضح الحق أن الإسلام يظهر ويتجلى مع وجود كاره له وهو الكافر والمشرك ولم يقل سبحانه : إن الإسلام سيمنع وجود أي كافر أو مشرك .

وكيف يكره الكفار والمشركون إظهار الله للإسلام ؟ إنهم لا يدينون بدين الإسلام ، لذلك يجزمهم أن يظهر الإسلام على بقية الأديان . وهل يظهر الإسلام على الأديان بأن يسيطر عليها ويبطل تلك الأديان ؟ لا . إنه هو سبحانه يوضح بالقرآن والسنة كما يوضح لأهل الأديان الأخرى

بأنكم ستصطرون وتضغط عليكم أحداث الدنيا وتجارب الحياة فلا تجدون مخلصا لكم مما أنتم فيه إلا أن تطبقوا حكما من حكم الإسلام الذي تكرهونه .

وحين تضغط الحياة على الخصم أن ينفذ رأي خصمه فهذا دليل على قوة الحجة ، وهذا هو الإظهار على الدين كله ولو كره الكافرون والمشركون ، وهذا قد حدث في زماننا ، فقد روعت أمة الحضارة الأولى في العالم وهي الولايات المتحدة الأمريكية منذ عام ١٩٨١ بما يثبت صدق الإسلام في أنه حين ضمن ووضع للمخالطات التي تبغي النوع نظما ، وهو التعاقد العلني والزواج المشروع ، فالحق قد ضمن صحة الخلق لكن الحضارة الأمريكية لم تنتبه إلى عظمة قانون الحق سبحانه فوُرِّعت بظهور مرض جديد يسمى « الإيدز » و« إيدز » مأخوذة من بدايات حروف ثلاث كلمات حرف « A » ، وحرف « I » ، و« D »

ومعنى اسم المرض بالترجمة العربية الصحيحة « نقص مناعي مكتسب » والوسيلة الأولى للإصابة به هي المخالطة الشاذة ، ونشأت من هذه المخالطات الشاذة فيروسات ، هذه الفيروسات ملأ العلماء يدرسون تكوينها ، وهي تفرز سموما وتسبب آلاما لا حصر لها ، وإلى الآن يعيش أهل الحضارة الغربية هول الفزع والفلع من هذا المرض .

ومن العجيب أن هذه الفيروسات تأتى من كل المخالطات الشاذة سواء أكانت بين رجل ورجل ، أو بين رجل وامرأة على غير ما شرع الله .

لقد جعل الحق سبحانه وتعالى عناصر الزواج « إيجابا » و« قبولا » و« علانية » إنه جعل من الزواج علاقة واضحة محسوبة أمام الناس ، هذا هو النظام الربانى للزوج الذى جعل فى التركيب الكيميائى للنفس البشرية « استقبالا » و« إرسالا » .

والبشر حين يستخدمون الكهرباء . . فالسلك الموجب والسلك السالب ـ كما قلنا ـ يعطيان نورا فى حالة استخدامهما بأسلوب طبيعى ، لكن لو حدث خلل فى استخدام هذه الأسلاك فالذى يحدث هو ماس كهربائى تنتج منه حرائق . وكذلك الذكورة والأنوثة حين يجمعهما الله بمنطق الإيجاب والقبول العلنى على مبدأ الإسلام ، فإن التكوين الكيميائى الطبيعى للنفس البشرية التى ترسل ، والنفس البشرية التى تستقبل تعطى نورا وهو أمر طبيعى .

وأوضحنا من قبل أن الإنسان حين يجد شابا ينظر إلى إحدى محارمه ، فهو يتغير وينفعل ويتمنى الفتك به ، لكن إن جاء هذا الشاب بطريق الله المشروع وقال والد الشاب لوالد الفتاة : « أنا أريد خطبة ابنتك لابنى » فالموقف يتغير وتنفرج الأسارير ويقام الفرح .

إنها كلمة الله التى أثرت فى التكوين الكيميائى للنفس وتصنع كل هذا الإشراق والبشر ، وإعلان مثل هذه الأحداث بالقبول والأنوار والزينات هو دليل واضح على أن هناك حاجة قد عملت وأحدثت فى النفس البشرية مفعولها الذى أراده الله من الاتصال بالطريق النظيف الشريف العفيف .

فكل اتصال عن غير هذا الطريق الشريف والعفيف لابد أن ينشأ عنه خلل فى التكوين الإنسانى يؤدى إلى أزمة نفسية وصحية قد لا يستطيع الإنسان دفعها مثل ما هو كائن الآن .

وعلى هذا فيكون قول الحق سبحانه :

﴿وَالَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾

(سورة النساء)

وكانت هذه مرحلة أولية إلى أن طبق الرسول إقامة الحد . ويقول الحق :

﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾

والحق سبحانه وتعالى تواب ورحيم ، ونعرف أن صفة المبالغة بالنسبة لله لا تعني أن هناك صفة لله تكون مرة ضعيفة ومرة قوية ، وكل صفات الله واحدة في الكمال المطلق . وقلت من قبل : إنني عندما أقول : « فلان أكّال » قد يختلف المعنى عن قولي : « فلان آكل » ، فبمثل هذا القول أبالغ في وصف إنسان يأكل بكثرة ، فهل هو يأكل كثيرا في الوجبة الواحدة ، أو أن الوجبة ميزانها محدود لكن هذا الموصوف يعدد الوجبات ، فبدلا من أن يأكل ثلاث مرات فهو يأكل خمس مرات ، عندئذ يقال له : « أكّال » ، أي أنه أكثر عدد الوجبات ، وإن كانت كل وجبة في ذاتها لم يزد حجمها

أو هو يأتي في الوجبة الواحدة فيأكل أضعاف ما يأكله الإنسان العادي في الوجبة العادية ، فيأكل بدلا من الرغيف أربعة ، فنقول إنه « أكول » ، إذن فصيغة المبالغة في الخلق إما أن تنشأ في قوة الحدث الواحد ، وإما أن تنشأ من تكرار الحدث الواحد .

إن قولك « الله تواب » معناه أنه حينما يتوب على هذا وذاك وعلى ملايين الملايين من البشر ، فالتوبة تتكرر وإذا تاب الحق فى الكبائر أليست هذه توبة عظيمة ؟ هو تواب ورحيم لأنه سبحانه وتعالى يتصف بعظمة الحكمة والقدرة على الخلق والإبداع ، وهو الذى خلق النفس البشرية ثم قنن لها قوانين وبعد ذلك جرم من يخالف هذه القوانين ، وبعد أن جرم الخروج عن القوانين وضع عقوبة على الجريمة .

والتقنين فى ذاته يقطع العذر ، فساعة أن قنن الحق لا يستطيع واحد أن يقول « لم أكن أعلم » ، لأن ذلك هو الفانون ، وحين يجرم فهذا إيذان منه بأن النفس البشرية قد تضعف ، وتأتى بأشياء مخالفة للمنهج ، فنحن لسنا ملائكة ، وسبحانه حين يقنن يقطع العذر ، وحين يجرم فهو إيذان بأن ذلك من الممكن أن يحدث وبعد ذلك يعاقب ، وهناك أفعال مجرمة ، ولكن المشرِّع الأول لم يجرمها ولم يضع لها قانونا ، لا عن تقصير منه ، ولكن التجريم يأتى كفرع .

إن الله سبحانه قد قدر أن النفس البشرية قد تفعل ذلك ، كالسرقة ـ مثلا ـ إنه سبحانه وضع حدا للسرقة ، وقد تضعف النفس البشرية فتسرق ، أو ترنى ؛ لذلك فالحد موجود ، لكن هناك أشياء لا يأتى لها بالتجريم والعقوبة ، وكأنه سبحانه يريد أن يدلنا من طرف خفى على أنها مسائل ما كان يتصور العقل أن تكون . مثال ذلك اللواط ، لم يذكر له حداً ، لماذا ؟ لأن الفطرة السليمة لا تفعله ، بدليل أن اللواط موجود فى البشر وغير موجود فى الحيوان .

لكن ليس معنى ألا يجرم الحق عملا أنه لا يدخل فى الحساب ، لا ، إنه داخل فى الحساب بصورة أقوى ؛ لأن التجريم والعقوبة على التجريم تدل على أن الفعل من الممكن أن يحدث ، وحين يترك هذه المسألة بدون تجريم ، فمعنى ذلك أن الفطرة السليمة لا يصح أن تفعلها ، ولذلك لم يضع لها حدا أو تجريما ، وترك الأمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو المكلف بالتشريع أن يضع حدا لهذه المسألة

إذن فعدم وجود نص على جريمة أو عقوبة على جريمة ليس معناه ألا يوجد حساب عليها ، لا . هناك حساب ، فقد تكون العقوبة أفظع ، وقد أمر الرسول صلى الله

عليه وسلم بإلقاء الفاعل للوط والمفعول به من أعلى جبل . إن عقوبتهم أن يموتا بالإلقاء من شاهق جبل ، إذن فالعقوبة أكثر من الرجم . وهكذا نعرف أن عدم التجريم وعدم التفنين بالعقوبة لأى أمر غير مناسب للعقل وللفطرة السليمة دليل على أن هذا الأمر غير مباح ، والحق لم يترك تلك الأمور سكوتا عنها ، ولكن هو إيحاء من طرف خفى أن ذلك لا يصح أن يحدث ، بدليل أنها لا تحدث فى الحيوانات التى هى أدنى من الإنسان .

وبعد ذلك قد يتعلل الإنسان الفاعل لمثل هذا الفحش الفاحش بأنها شهوة بهيمية . نقول : يا ليت شهوتك المحطة فى التعبير عن نفسها ببهيمية ؛ لأن البهائم لا يحدث منها مثل ذلك الفعل أبدا ، فلا أنثى الحيوانات تقترب من أخرى ، وكذلك لا يوجد ذكر حيوان يقترب من ذكر آخر ، وإذا ما حملت أنثى الحيوان فإنها لا تسمح لأى ذكر من الحيوانات بالاقتراب منها ، إذن فالقبح الفاحش من المحالطة على غير ما شرع الله يمكن أن نسميها شهوة إنسانية ، فالبهائم لا ترتكب مثل تلك الأفعال الشاذة . ومن يقول عن الشهوة إنها بهيمية فهو يظلم الحيوانات . والحق سبحانه وتعالى على الرغم من هذه الخطايا يوضح لنا : أنه التواب الرحيم ، لماذا ؟

انظر الحكمة فى التوبة وفى قبولها ، فلو لم تحدث معصية من الإنسان الذى آمن ، لفقد التكليف ضرورته . معنى التكليف أنه عملية يزاحم الإنسان فيها نفسه ويجاهدها لمقاومة تنفيذ المعاصى أو لحملها على مشقة الطاعة .

فمقاومة الإنسان للمعاصى خضوعاً للتكليف الإيمانى دليل على أن التكليف أمر صحيح ، اسمه « تكليف » وإلا خلقنا الله كالملائكة وانتهت المسألة . وحين يشرع الله التوبة ، فذلك يدل على أن الإنسان ضعيف ، قد يضعف فى يوم من الأيام أمام معصية من المعاصى ، وليس معنى ذلك أن يطرده الله من عبوديته له سبحانه ، بل هو يفتن العقوبة ، وتفنين العقوبة للعاصى دليل على أنه سبحانه لم يُخرج الذى اختار الإسلام وعصى من حظيرة الإسلام أو التكليف ، ولو فرضنا أن الحق سبحانه لم يفتن التوبة لصارت اللعنة مصير كل من يضعف أمام شهوة ، ولصار العاصى متمردا لا يأبه ولا يلتفت من بعد ذلك إلى التكليف ، يَلغ فى أعراض الناس ويرتكب كل الشرور .

إذن فساعة شرع الله التوبة سدّ على الناس باب « الفاقدين » لذين يعملون ذنباً ثم يستمرون فيه ، ومع ذلك فسبحانه حين تاب على العاصي رحم من لم يعص إنه القائل : « إن الله كان تواباً رحيماً » . ولو قال الحق إنه تواب فقط لأذنب كل واحد منا لكي يكون الوصف معه وقائم به لا محالة ، ولكنه أيضا قال : « تواباً رحيماً » أي أنه يرحم بعضاً من خلقه فلا يرتكبون أي معصية من ابتداية فالرحمة ألا تقع في المعصية .

وبعد ذلك يشرع الحق سبحانه وتعالى للتوبة :

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾

ولنلتفت إلى دقة الأداء القرآني ، هو سبحانه يقول : « إنما التوبة على الله » وقد يقول واحد . مادام الحق شرع التوبة ، فلأفعل ما أريد من المعاصي وبعد ذلك أتوب نقول له : إنك لم تلتفت إلى الحكمة في إبهام ساعة الموت ، فما الذي أوحى لك أنك ستحيا إلى أن تتوب ؟ لقد يأخذك الموت فجأة وأنت على المعصية ، وعليك أن تلتفت إلى دقة النص القرآني :

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة النساء)

وفعل السوء بجهالة ، أي بعدم استحضار العقوبة المناسبة للذنب ، فلو استحضر الإنسان لعقوبة لما فعل المعصية بل هو يتجاهل العقوبة ، لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن)[1] .

فلو كان إيمانه صحيحاً ويتذكر تماما أن الإيمان يفرض عليه عدم الزنا ، وأن عقوبة الزنا هى الجلد أو الرجم ، لما قام بذلك الفعل .

والحق قد قال : « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب » فهناك من يفعل المعصية ويخطط لها ويفرح بها ويُزْهَى بما ارتكب ويفخر بزمن المعصية ، وهناك من تقع عليه المعصية ويجرد أن تنتهى يظل نادماً ويضرب نفسه ويعذبها ويتساءل لماذا فعلت ذلك ؟.

واضرب مثلاً للتمييز بين الاثنين ، نجد اثنين يستعد كل منهما للسفر إلى باريس ، واحد منهما يسأل قبل سفره عن حيرة من عاشوا فى عاصمة فرنسا ، ويحاول أن يحصل على عناوين أماكن اللهو والخلاعة ، وما إن يذهب إلى باريس حتى ينغمس فى اللهو ، وعندما يعود يظل يفاخر بما فعل من المعاصى .

وأما الآخر فقد سافر إلى باريس للدراسة ، وبينما هو هناك ارتكب معصية تحت إغراء وتزيين ، إذن هو إنسان وقعت عليه المعصية ودون تخطيط ، وبعد أن هدأت ثورة الشهوة غرق فى الندم ، وبعد أن عاد استتر من زمن المعصية . هكذا نرى الفارق بين المخطط للمعصية وبين من وقعت عليه المعصية

والله سبحانه حين قدّر أمر التوبة على خلقه رحم الخلق جميعاً بتقنين هذه التوبة ، وإلا لغرق العالم فى شرور لا نهاية لها ، بداية من أول واحد اقترف مرة واحدة فيأخذ الانحراف عملا له ، والمهم فى التائب أن يكون قد عمل السوء بجهالة ، ثم تاب من قريب . والرسول صلى الله عليه وسلم حين حدد معنى « من قريب » قال :

---

(١) رواه أحمد والبخارى عن أبى هريرة ، وفى رواية عن مسلم واحد (ولا يسرق أحدكم حين يسرق وهو مؤمن فإياكم فإياكم) وراه عبدالرزاق . (ولا ينتهب نهبة وهو مؤمن)

(إن الله تعالى يقبل توبة لعبد ما لم يغرغر)[١] .

والحوار الذى دار بين الحق وبين إبليس :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إن إبليس قال ذلك وظن أنه سيهلك البشر جميعا ويوقعهم فى المعصية إلا عباد الله الذين اصطفاهم وأخلصهم له ، لكن الله ـ سبحانه ـ خيَّب ظنه وشرع قبول توبة العبد ما لم يغرغر ، لم يصل إلى مرحلة خروج الروح من الجسد . فإذا ما قدم العبد التوبة لحظة الغرغرة فماذا يستفيد المجتمع ؟ لن يستفيد المجتمع شيئاً من مثل هذه التوبة ؛ لأنه تاب وقت ألا شر له ؛ لذلك فعلى العبد أن يتوب قبل ذلك حتى يرحم المجتمع من شرور المعاصى . « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة » هل يتوب أولا ، ثم يتوب الله عليه ؟

أنه سبحانه يقول :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

(من الآية ١١٨ سورة التوبة)

هنا وقف العلماء وحق هم أن يتساءلوا : هل يتوب العبد أولاً وبعد ذلك يقبل الله التوبة ؟ أم أن الله يتوب على العبد أولاً ثم يتوب العبد ؟ ، صريح الآية هو : « ثم تاب عليهم ليتوبوا » ونقول : وهل يتوب واحد ارتجالاً منه ، أو أن الله شرع التوبة لعباد ؟ . لقد شرع الله التوبة فتاب العبد ، فقبل الله التوبة .

نحن إذن أمام ثلاثة أمور هى أن الله شرع التوبة للعباد ولم يرتجل أحد توبته ويفرضها على الله ، أى أن أحداً لم يبتكر التوبة ، ولكن الذى خلقنا جميعاً قدَّر أن الواحد قد يضعف أمام بعض الشهوات فوضع تشريع التوبة . وهو المقصود بقوله « ثم تاب عليهم » أى شرع لهم التوبة وبعد ذلك يتوب العبد إلى الله « ليتوبوا »

---

(١) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه والبيهقى فى شعب الإيمان ، وابن حبان فى صحيحه ، والحاكم فى المستدرك .

وبعد ذلك يكون القبول من الله وهو القائل :

﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾

(من الآية ٣ سورة غافر)

تأمل كلمة « إنما التوبة على الله » نجدها في منتهى العطاء ، فإذا كان الواحد فقيراً ومديناً وأحال دائنه إلى غني من العبد فإن الدائن يفرح ؛ لأن الغنيّ سيقوم بسداد الدين وأدائه إلى الدائن ، فما بالنا بالتوبة التي أحالها الله على ذاته بكل كماله وجماله ، إنه قد أحال التوبة على نفسه لا على خلقه ، وهو سبحانه أوجب التوبة على نفسه ولا يملك واحد أن يرجع فيها ، ثم قال : « ثم يتوبون من قريب » أي أن العبد يرجو التوبة من الله ، وحين قال : « فأولئك يتوب الله عليهم » أي أن سبحانه قابل للتوب وغافر للذنب وحين يقول سبحانه : « وكان الله عليماً حكيماً » فنحن نعلم أن كل تقنين لأي شيء يتطلب علماً واسعاً بما يمكن أن يكون وينشأ والذين يتحفظون في تقنينات البشر ، لماذا يقفون اليوم ثم يعدلون عن التقنين غداً ؟ لأنهم ساعة قننوا غاب عنهم شيء من الممكن أن يحدث ، فلما حدث ما لم يكن في بالهم استدركوا على تقنينهم .

إذن فالاضطراب ينشأ من عدم علم المقنن بكل أحوال من يقنن لهم ماضياً وحاضراً ومستقبلاً ، والمقنن من البشر قد لا يستوعب الأحداث الماضية ، وذلك لأنه لا يستوعبها إلا في بيئته أو في البيئة التي وصله خبرها ، فحتى في الماضي لا يقدر ، ولا في المستقبل يقدر ، وكذلك في الحاضر أيضاً ، فالحاضر عند بيئة ما يختلف عن الحاضر في بيئة أخرى . ونحن نعرف أن حواجز الغيب ثلاثة أي أن ما يجعل الشيء غيباً عن الإنسان هو ثلاثة أمور :

الأمر الأول : هو الزمن الماضي وما حدث فيه من أشياء لم يرها المعاصرون ولم يعرفوها ، لذلك فالماضي قد حُجز عن البشر بحجاب وقوع الأحداث في ذلك الماضي ، ولذلك يلفتنا الله سبحانه وتعالى في تصديق رسوله صلى الله عليه وسلم فيقول سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة القصص)

ورسول الله لم يكن مع موسى ساعة أن قضى الله لموسى الأمر ، ومع ذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أميًّا لا يمكنه أن يقرأ التاريخ أو يتعلمه . ويقول أيضا سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ آل عمران)

أي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشهد تلك الأزمان التي يأتيه خبرها من الله ، والرسول أمي بشهادة الجميع ولم يجلس إلى معلم إذن فالذي اخترق حجاب الزمن وأخبر الرسول بتلك الأحداث هو الله .

والأمر الثاني هو حجاب الحاضر ، حيث يكون الحجاب غير قادم من الزمن لأن الزمن واحد ، ولكن الحجاب قادم من اختلاف المكان . فأنا أعرف ما يحدث في مكان ، ولكني لا أعرف ما الذي يحدث في غير المكان الذي أوجد به ، ولا يقتصر الحجاب في الحاضر على المكان فقط ولكن في الذات الإنسانية بأن يُضمر الشخصُ الشيء في نفسه فالحق يقول :

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾

(من الآية ٨ سورة المجادلة)

هنا يخبر الله سبحانه الرسول عن شيء حاضر ومكتوم في نفوس أعدائه . وبالله لو لم يكونوا قد قالوه في أنفسهم ، لما صدقوا قول الرسول الذي جاءه إخباراً عن الله وقد خرق الله أمام رسوله حجاب الذات وحجاب المكان

والأمر الثالث : هو حجاب المستقبل ، فيقول القرآن

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة القمر)

ونلحظ أن كلمة « سيهزم » فيها حرف « السين » التي تُنبيء عن المستقبل ، وقد نزلت هذه الآية في مكة وقت أن كان المسلمون قلة وهم مضطهدون ولا يستطيعون

الدفاع عن أنفسهم . وعندما يسمعها عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يفعل ويقول لرسول الله : أى جمع هذا ؟

وجاء الجمع فى بدر وولَّى الدبر . حدث ذلك الإخبار فى مكة ، ووقعت الأحداث بعد الهجرة . وكانت الهجرة فى الترتيب الزمنى مستقبلاً بالنسبة لوجود المسلمين فى مكة .

أكان من الممكن أن يقول سبحانه : « سيُهزم الجمع ويولون الدبر » لولا أن ذلك سيحدث بالفعل ؟

لو حدث غير ذلك لكذبه المؤمنون به .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم قال ذلك إبلاغاً عن الله وهو واثق ، ويطلقها الله على لسان رسوله حُجة فيمسكها الخصم ، ثم يثبت صدقها لأن الذى قالها هو من يخلق الأحداث ويعلمها .

ويأتى فى الوليد بن المغيرة وهو ضخم رفحل وله مهابة وصيت وسيد من سادة قريش ، فيقول الحق :

﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة القلم)

أى سنضربه بالسيف ضربة تجعل على أنفه علامة فى أعلى منطقة فيه . ويأتى يوم بدر ، فيجدون الضربة على أنف الوليد . لقد قالها الحق على لسان رسوله فى زمن ماض ويأتى بها الزمن المستقبل ، وعندما تحدث هذه المسألة فالذين آمنوا يحمد وبالقرآن الذى نزل على محمد يتأكدون من صدق رسول الله فى كل شىء . ويأخذون الجزئية البسيطة ويرقُّونها فيصدقون ما يخبرهم به من أمر الدنيا والآخرة . ويقولون :

ـ إذا أخبرنا رسول الله بغيب يحدث فى الآخرة فهو الصادق الأمين ، ويأخذون من أحداث الدنيا الواقعة ما يكون دليلاً على صدق الأحداث فى الآخرة .

ودليل الحق الآية : « وكان الله عليماً حكيماً » أي عليما بالتفنيات فشرّع التوبة لعلمه ـ جل شأنه ـ بأنه لو لم يشرّع التوبة ، لكان المذنب لمرة واحدة سببا في شقاء العالم ؛ لأنه ـ حينئذ ـ يكون يائساً من رحمة الله

إذن فرحمة منه ـ سبحانه ـ بالعالم شرّع الله التوبة . وهو حكيم فإياك أن يتبادر إلى ذهنك أن الحق قد حمى المجرم فحسب حين شرع له التوبة ، إنه سبحانه قد حمى غير المجرم أيضا . وساعة نسمع الزمن في حق الحق سبحانه وتعالى كقوله : « كان » فلا نقول ذلك قياساً على زماننا نحن ، أو على قدراتنا نحن ، فكل ما هو متعلق بالحق علينا أن نأخذه في نطاق « ليس كمثله شيء » .

فقد يقول كافر : « إن علم الله كان » ويحاول أن يفهمها على أنه علم قد حدث ولا يمكن تكراره الآن ، لا ، فعلم الله كان ولا يزال ؛ لأن الله لا يتغير ، ومادام الله لا يتغير ، فالثابت له من قبل أزلاً يثبت له أبداً . والحكمة هي وضع الشيء في موضعه . ومادام قد قدر سبحانه وضع الشيء ، فالشيء إنما جاء عن علم ، وحين يطابق الشيء موضعه فهذه هي مطلق الحكمة .

والحق يقول :

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة النساء)

لقد شرع الله سبحانه التوبة ليتوب عباده ، فإذا تابوا قَبِلَ توبتهم ، وهذا مبنى على العلم الشامل والحكمة الدقيقة الراسخة وانظر إلى دقة العبارة في قوله : « إنما التوبة على الله » ، فساعة يوجد فعل إيجابي يقال : على مَن ، لكن عندما لا يأتي بفعل إيجابي لا يقال : على مَن ، بل يقال ليس بالنفي . إن الحق عندما قرر التوبة عليه ـ سبحانه ـ وأوجبها على نفسه ، للذين يعملون السوء بجهالة ويتوبون فوراً ، إنه يدلنا أيضاً على مقابل هؤلاء ، فيقول :

﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ
السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ
قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ
كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا
أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾

هنا يوضح الحق أن توبة هؤلاء الذين يعملون السيئات لم توجد من قريب . وهم يختلفون عن الذين كتب الله قبول توبتهم ، هؤلاء الذين يعيشون وتستحضر نفوسهم قيم المنهج ، إلا أن النفوس تضعف مرة . أما الذين لا يقبل منهم التوبة فهم أصحاب النفوس التي شردت عن المنهج في جهات متعددة ، وهم لم يرتكبوا « سوءاً » واحداً بل ارتكبوا السيئات . فالذي ارتكب سوءاً واحداً فذلك يعني أنه ضعيف في ناحية واحدة ويبالغ ويجتهد في الزوايا والجوانب الأخرى من الطاعات التي لا ضعف له فيها ليحاول ستر ضعفه .

إنك ترى أمثال هذا الإنسان في هؤلاء الذين يبالغون في إقامة مشروعات الخير ، فهذه المشروعات تأتي من أناس أسرفوا على أنفسهم في ناحية لم يقدروا على أنفسهم فيها فيأتوا في نواحي خير كثيرة ، ويزيدوا في فعل الخير رجاء أن يمحو الله سيئاتهم التي تركوها وأقلعوا وتابوا عنها .

ومن ذلك نعلم أن أحداً لا يستطيع أن يمكر مع الله ؛ فالذي أخذ راحته في ناحية ، يوضح له الله : أنا سآتي بتعبك من نواحٍ أخرى لصالح منهجي ، ويسلط الله عليه الوهم ، ويتخيل ماذا سيفعل السيئة به ، فيندفع إلى صنع الخير . وكأن الحق يثبت لعبيده : أنت استمتعت بناحية واحدة ، ومنهجي وديني استفادا منك كثيراً ، فأنت تبني المساجد والمدارس وتتصدق على الفقراء ، كل هذا لأن عندك سيئة واحدة .

إذن فلا يمكن لأحد أن يمكر على الله ، وعبر القرآن عن صاحب السيئة بوصف هذه الزلة بكلمة « السوء » ، ولكنه وصف الشارد الموغل فى الشرود عن منهج الله بأنه يفعل « السيئات » ، فهو ليس صاحب نقطة ضعف واحدة ، لكنه يقترف سيئات متعددة ، ويمعن فى الضلال ، ولا يقتصر الأمر على هذا بل يؤجل التوبة إلى لحظة بلوغ الأجل ، بل إنهم قد لا ينسبون الخير الصادر منهم إلى الدين مثلما يفعل الملاحدة ، أو الجهلة الذين لا يعلمون بأن كل خير إنما يأمر به الدين .

مثال ذلك مذهب « الماسونية » ، يقال : إن هذا المذهب وضعه اليهود ، والظاهر فى سلوك الماسونيين أنهم يجتمعون لفعل خير ما يستفيد منه المجتمع ، وما خفى من أفعال قمة أعضاء الماسونية أنهم يخدمون أغراض الصهيونية ، وقد ينضم إليهم بعض ممن لا يعرفون أهداف الماسونية الفعلية ليشركوا فى عمل الخير الظاهر . ونقول لكل واحد من هؤلاء : انظر إلى دينك ، تجده يحضك على فعل مثل هذا الخير ، فلماذا تنسبه إلى الماسونية ولا تفعله على أنه أمر إسلامى . ولماذا لا تنسب هذا الخير إلى الإسلام وتنسبه لغير الإسلام ؟

وفى هذا العصر هناك ما يسمّى بأندية « الروتارى » ويأخذ الإنسان غرور الفخر بالانتماء إلى تلك الأندية ، ويقول : « أنا عضو فى الروتارى » وعندما تسأله : لماذا ؟ يجيب : إنها أندية تحض على التعاون والتواصل والمودة والرحمة ، ونقول له : وهل الإسلام حرم ذلك ؟ لماذا تفعل مثل هذا الخير وتنسبه إلى « الروتارى » ، ولا تفعل الخير وتنسبه إلى دينك الإسلام ؟ إذن فهذا عداء للمنهج .

ونجد الشاردين عن المنهج ، مثلهم كمثل الرجل الذى قالوا له ما تريد نفسك الآن ؟ وأراد الرجل أن يجاد الله فقال : تريد نفسى أن أفطر فى يوم رمضان ، وعلى كأس خمر ، وأشترى كأس الخمر هذه بثمن خنزير مسروق .

إنه يريد فطر رمضان وهو محرّم ، ويفطر على خمر وهى محرمة ، وبثمن خنزير والخنزير حرام على المسلم ، والخنزير مسروق أيضا . وسألوه : ولماذا كل هذا التعقيد ؟ فقال : حتى تكون هذه الفعلة حراماً أربع مرات .

إذن فهذه مضادة لله ، وهذا رجل شارد عن المنهج . فهل هذا يتوب الله عليه ؟ لا ، « وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت » وعند لحظة الموت يبدأ الجبن وتتمثل أخلاق الأرانب ، ولماذا لم يصر على موقفه للنهاية ؟ لأنه جاء إلى اللحظة التي لا يمكن أن يكذب فيها الإنسان على نفسه « حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن » لكن التوبة لا تقبل ، ولن ينتفع بها المجتمع ، وشر مثل هذا الإنسان متهى ، وتوبته تأتي وهو لا يقدر على أي عمل ، إذن فهو يستهزىء بالله ؛ فلا تنفعه التوبة .

ولكن انظروا إلى رحمة الله واحترامه للشهادة الإيمانية التي يقر فيها المؤمن بأنه . « لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » .

هذا المؤمن جعله الله في مقابل الكافر ، فيأخذ عذاباً على قدر ما فعل من ذنوب ، ويأتي احترام الحق سبحانه لإيمان القمة لقوله : « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » فيوضح سبحانه : لن نجعلك كالكافر ، بدليل أنه عطف عليه « ولا الذين يموتون وهم كفار » ، وإنما يقدر للمؤمن العاصي من العذاب على قدر ما ارتكب من معاصٍ ، ويحترم الحق إيمان القمة ، فيدخلون الجنة ؛ لذلك لم يقل الحق : إنهم خالدون في النار . وإنما قال : « أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليما » و« أولئك » تعني الصنفين ـ المؤمن والكافر ـ فالعذاب لكل واحد حسب ذنبه .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ
أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ
بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ
مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ

فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾

وقلنا : ساعة ينادى الحق عباده الذى آمنوا به يقول سبحانه : « يأيها الذين آمنوا » ، فمعناها : يا من آمنتم بى بمحض اختياركم ، وآمنتم بى إلهاً له كل صفات العلم والقدرة والحكمة والقيومية ، مادمتم قد آمنتم بهذا الإله اسمعوا من الإله الأحكام التى يطلبها منكم إذن فهو لم ينادِ غير مؤمن وإنما نادى من آمن باختياره وبترجيح عقله فالحق يقول :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾

(من الآية ٢٥٦ سورة البقرة)

يريد الحق سبحانه وتعالى أن يعالج قضية تتعلق بالنساء وبمستضعفيهم . لقد جاء الإسلام والنساء فى الجاهلية فى غبن وظلم وحيف عليهن . و ـ سبحانه ـ قال : « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً » وكلمة « ورث » تدل على أن واحداً قد توفى وله وارث ، وهناك شىء قد تركه الميت ولا يصح أن يرثه أحدٌ بعده ، لأنه عندما يقول : « لا يحل لكم أن ترثوا » ، فقد مات مورّث ، ويخاطب وارثاً إذن فالكلام فى الموروث ، لكن الموروث مرة يكون حلالاً ، ولذلك شرع الله تقسيمه ، وتناولناه من قبل ، لكن الكلام هنا فى متروك لا يصح أن يكون موروثاً ، ما هو ؟

قال سبحانه : « لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها » ، وهل المقصود ألا يرث الوارث من مورثه إماء تركهن ؟ لا . إن الوارث يرث من مورثه الإماء اللاتى تركهن ، ولكن عندما تنصرف كلمة « النساء » تكون لأشرف مواقعها أى للحرائر ، لأن الأخريات تعتبر الواحدة منهن ملك يمين ، « لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها » ، وهل فيه ميراث للنساء يرضى ؟ وكيف تورث المرأة ؟

ننتبه هنا إلى قوله سبحانه « كرها » ، وكان الواقع فى الجاهلية أن الرجل إذا مات

وعنده امرأة جاء وليه ، وألقى ثوبه على امرأته فتصير ملكا لهما وإن لم تقبل فإنه يرثها كرها ، أو إن لم يكن له هوى فيها فهو يحبسها عنده حتى تموت ويرثها ، أو يأتي واحد ويزوجها له ويأخذ مهرها لنفسه ؛ كأنه يتصرف فيها تصرف المالك ؛ لذلك جاء القول الفصل :

« لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن » ، و« العضل » في الأصل هو المنع ، ويقال : « عضلت المرأة بولدها » ، ذلك أصل الاشتقاق بالضبط . فالمرأة ساعة تلد فمن فضل الله عليها أن لها عضلات تنقبض وتنبسط ، تنبسط فيتسع مكان خروج الولد ، وقد تعضل المرأة أثناء الولادة ، فبدلا من أن تنبسط العضلات لتفسح للولد أن يخرج تنقبض ، فتأتي هنا العمليات التي يقومون بها مثل القيصرية .

إذن فالعضل معناه مأخوذ من عضلت المرأة بولدها أي انقبضت عضلاتها ولم تنبسط حتى لا يخرج الوليد ، وعضلت الدجاجة بيضها أي أن البيضة عندما تكون في طريقها لتنزل فتنقبض العضلة فلا تنزل البيضة لأن اختلالا وظيفيا قد حدث نتيجة للحركة الناقصة ، ولماذا تأتي الحركة ناقصة للبسط ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى لم يشأ أن يجعل الأسباب في الكون تعمل آليا وميكانيكيا بحيث إذا وجدت الأسباب يوجد المسبب ، لا . فتوفر الأسباب مسبب إن شاء قال للأسباب : قفي فتقف .

إذن فكل المخالفات التي نراها تتم على خلاف ما تؤديه الأسباب إنما هي دليل طلاقة القدرة ، فلو كانت لأشياء تسير هكذا ميكانيكيا ، فسوف يقول الناس : إن الميكانيكا دقيقة لا تتخلف . لكن الحق يلفتنا إلى أنه يزاول سلطانه في ملكه ، فهو لم يزاول السلطان مرة واحدة ، ثم خلق الميكانيكا في الكون والأسباب ثم تركها تتصرف ، لا ، هو يوضح لنا : أنا قيوم لا تأخذني سنة ولا نوم ، أقول للأسباب اعمل أو لا تعمل ، وبذلك نلتفت إلى أنه المسيطر .

ونجد هذه المخالفات في الشواذ في الكون ، حتى لا نقيم ربوبية الأسباب ، ولنذكر الله باستمرار ، ويكون الإنسان على ذكر من واهب الأسباب ومن خالقها ، فلا تتولد عندنا بلادة من أن الأسباب مستمرة دائما ، ويلفتنا الحق إلى وجوده ، فتختلف

الأسباب لتلفتك إلى أنها ليست فاعلة بذاتها ، بل هي فاعلة لأن الله خلقها وتركها تفعل ، ولو شاء لعطلها

قلنا هذا في معجزة إبراهيم عليه السلام ، حيث ألقاه أهله في النار ولم يُحرق ، كان من الممكن أن ينجي الله إبراهيم بأي طريقة أخرى ، ولكن هل المسألة نجاة إبراهيم ؟ إن كانت المسألة كذلك فما كان ليمكنهم منه ، لكنه سبحانه مكنهم منه وأمسكوه ولم يفلت منهم ، وكان من الممكن أن يأمر السماء فتمطر عندما ألقوه في النار ، وكان المطر كفيلا بإطفاء النار ، لكن لم تمطر السماء بل وتأجج النار . وبعد ذلك يقول لها الحق :

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

بالله أهذا غيظ لهم أم لا ؟ هذا غيظ لهم ، فقد قدرتم عليه وألقيتموه في النار ، وبعد ذلك لم يُنزِّل مطر ليطفىء النار ، والنار موجودة وإبراهيم في النار ، لكن النار لا تحرقه . هذه هي عظمة القدرة .

إذن فما معنى « تعضلوهن » ؟ العضل : أخذنا من كلمة « المخ » ؛ فعضلات المرأة أي قبضت عضلاتها فلم ينزل الوليد ، وأنت ستعضلها كيف ؟ بأن تمنعها من حقها الطبيعي حين مات زوجها ، وأن من حقها بعد أن تقضي العدة أنْ تتزوج من تريد أو من يتقدم لها ، وينهى الحق : « ولا تعضلوهن » أي لا تحبسوهن عندكم وتمنعوهن ، لماذا تفعلون ذلك ؟ « لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن » كأن هذا حكم آخر ، لا ترثوا النساء كرها هذا حكم ، وأيضا لا تعضلوهن حكم ثانٍ .

والمثال عندما يكون الرجل كارها لامرأته فيقول لها : والله لن أطلقك ، أنا سأجعلك موقوفة ومعلقة لا أكون أنا لك زوجا ولا أمكنك أيضا من أن تتزوجي ودلك حتى تفتدي نفسها فتُرضيه الرجل من النفقة ومؤخر الصداق ؛ فيحمي الإسلام المرأة ويحرم مثل تلك الأفعال .

ولكن متى تعضلوهن ؟ هنا يقول الحق : « إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » لأنهم

سيحبسونهن ، وهذا قبل التشريع بالحد . وقال بعض الفقهاء . للزوج أن يأخذ من زوجته ما تفتدى به نفسها منه وذلك يكون بمال أو غيره إذا أتت بفاحشة من زنا أو سوء عشرة ، وهذا ما يسمى بالخلع وهو الطلاق بمقابل يطلبه الزوج .

ويتابع الحق . « وعاشروهن بالمعروف » وكلمة « المعروف » أوسع دائرة من كلمة المودة : فالمودة هي أنك تحسن لمن عندك ودادة له وترتاح لمسك مواددته ، أنك فرح به وبوجوده ، لكن المعروف قد تبذله ولو لم تكره ، وهذه حدث لنا إشكالات كثيرة ، عندما أراد المستشرقون أن يبحثوا فى القرآن ليجدوا شيئا يدعون به أن فى القرآن تعارض فيقولون : قرآنكم يقول :

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة المجادلة)

كيف لا يراد المؤمن ابنه أو أباه أو أحداً من عشيرته لمجرد كفره . والقرآن فى موقع آخر منه يقول ؟

﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة لقمان)

ونقول إن هؤلاء لم يفهموا الفرق بين المودة والمعروف « الود » شيء و« المعروف » شيء آخر الود يكون عن حُب ، لكن المعروف ليس ضروريا أن يكون عن حُب ، ساعة يكون جوعان سأعطيه ليأكل والبى احتياجاته المادية هذا هو المعروف ، إنما الوُد هو أن أعمل لإرضائه نفسي وساعة يعطف الرجل المؤمن على أبيه الكافر لا يعطف عليه بنيته للود ، إنما هو يعطف عليه نتيجة للمعروف ؛ لأنه حتى لو كان كافرا سيعطيه بالمعروف .

ألم يعاتب الحق ـ سبحانه ـ إبراهيم فى ضيف جاء له فلم يكرمه لأنه سأله وعرف منه : أنه غير مؤمن لذلك لم يضيّفه ؟ فقال له ربنا : أمن أجل ليلة تستقبله فيها تريد أن تغير دينه ، بينما أنا أرزقه أربعين سنة وهو كافر ؟ فإذا فعل سيدنا إبراهيم ؟ جرى فلحق بالرجل . وناداه فقال له الرجل : ما الذى جعلها تتغير هذا التغيير المفاجىء فقال له إبراهيم « والله إن ربى عاتبنى لأنى ضيفت معك هذا . فقال له الرجل : أربك عاتبك وأنت رسول فىّ وأنا كافر به ، فنعم الرب ربّ يعاتب أحبابه فى أعدائه ، فأسلم .

هذا هو المعروف ، الحق يأمرنا أننا يجب أن ننتبه إلى هذه المسائل فى أثناء الحياة الزوجية ، وهذه قضية يجب أن ينتبه لها المسلمون جميعا كى لا يُخربوا البيوت . إنهم يريدون أن يبنوا البيوت على المودة والحب فلو لم تكن المودة والحب فى البيت خُرِبَ البيت ، نقول لهم : لا . بل « عاشروهن بالمعروف » حتى لو لم تحبوهن ، وقد يكون السبب الوحيد أنك تكره المرأة لأن شكلها لا يثير غرائزك ، يا هذا أنت لم تفهم عن الله ؛ ليس المفروض فى المرأة أن تثير غريزتك ، ولكن المفروض فى المرأة أن تكون مصرفا ، إذ هاجت غريزتك كباها بطبيعتها وجدت لها مصرفا . فأنت لا تحتاج لواحدة تغريك لتحرك ديك الغريزة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « إذا رأى أحدكم امرأة حسناء فأعجبته فليأت أهله فإن البضع واحد ومعها مثل الذى معها »[1] .

أى أن قطعة اللحم واحدة إن هاجت غريزتك بطبيعتها فأى مصرف يكفيك ، ولذلك عندما جاء رجل لسيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ وقال : يا أمير المؤمنين أنا كاره لامرأتى وأريد أن أطلقها ، قال له : لو لم تبن البيوت إلا على الحب ، فأين القيم ؟. لقد ظن الرجل أن امرأته ستظل طول عمرها خاطفة لقلبه ، ويدخل كل يوم ليقبلها ، فيلفته سيدنا عمر إلى أن هذه مسألة وجدت أولا وبعد ذلك تنبت فى الأسرة أشياء تربط الرجل بالمرأة وتربط المرأة بالرجل .

لذلك يقول الحق : « وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » ، أنت كرهتها فى زاوية وقد تكون الزاوية التى كرهتها فيها

(١) رواه الخطيب عن عمر

هى التى ستجعلها تحسن فى عدة زوايا ؛ لكى تعوض إحسانها فى الزوايا الأخرى هذه الزاوية الناقصة ، فلا تبن المسألة على أنك تريد امرأة عارضة أزياء لتثير غرائزك عندما تكون هادئا ، لا . فالمرأة مصرف طبيعى إن هاجت غرائزك بطبيعتها وجدت لها مصرفا ، أما أن ترى فى المرأة أنها ملهبة للغرائز فمعنى ذلك أنك تريد من المرأة أن تكون غانية فقط وأن تعيش معك من أجل العلاقة الجنسية فقط ، لكن هناك مسائل أخرى كثيرة ، فلا تأخذ من المرأة زاوية واحدة هى زاوية الانفعال الجنسى ، وخذ زوايا متعددة .

واعلم أن الله وزع أسباب عصمه على خلقه ، هذه أعطاها جمالاً ، وهذه أعطاها عقلاً ، وهذه أعطاها حكمة ، وهذه أعطاها أمانة ، وهذه أعطاها وفاء ، وهذه أعطاها فلاحًا ، هناك أسباب كثيرة جدا ، فإن كنت تريد أن تكون منصفا حكيما فخذ كل الزوايا ، أما أن تنظر للمرأة من زاوية واحدة فقط هى زاوية إحاجة الغريزة ، هنا نقول لك : ليست هذه هى الزاوية التى تصلح لتقدير المرأة فقط « فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا »

وانظر إلى الدقة فى العبارة « فعسى أن تكرهوا » فأنت تكره ، وقد تكون محق فى الكراهية أو غير محق ، إنما إن كرهت شيئا يقول لك الله عنه : « ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » فاطمئن إنك إن كرهت فى المرأة شيئا لا يتعلق بدينها ، فاعلم أنك إن صبرت عليه يجعل الله لك فى بقية الزوايا خيراً كثيراً . وعادام ربنا هو مَن يجعل هذا الخير الكثير فاطمئن إلى أنك لو تنبهت لزاوية أنت تكرهها ومع ذلك تصبر عليها ، فأنت تفسى أن ربنا سيجعل لك خيراً فى نواحٍ متعددة ، إن أى زاوية تغلبت على كرهك سيجعل الله فيها خير كثيرا .

إن الحق يطلق القضية هنا فى بناء الأسرة ثم يُعمم ، وكان بإمكانه أن يقول : فعسى أن تكرهوهن ويجعل الله فيهن خير ، لا . فقد شاء أن يجعلها سبحانه قضية عامة فى كل شىء قد تكرهه ، وتأتى الأحداث لتبين صدق الله فى ذلك ، فكم من أشياء كرهها الإنسان ثم تبين له وجه الخير فيها . وكم من أشياء أحبها الإنسان ثم تبين له وجه الشر فيها ، ليدلك على أن حكم الإنسان على الأشياء دائما غير دقيق ،

فقد يحكم بكره شيء وهو لا يستحق الكره ، وقد يحكم بحب شيء وهو لا يستحق الحب .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يأتي بالأشياء مخالفة لأحكامك ، فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ، فقدر دائما في المقارنة أن الكره منك وجَعْل الخير في المرأة من الله ، فلا تجعل جانب الكره منك يتغلب على جانب جعل الخير من الله .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾

فإذا صادفت بك المسائل ، بعد أن عاشرت بالمعروف ولم يعد ممكنا أن تستمر الحياة الزوجية في إطار يرضى عنه الله ، وتخاف أن تنفلت من نفسك إلى ما حرم الله ، ماذا تفعل ؟ يقول سبحانه - « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج » أي لك أن تستبدل مادامت المسألة ستصل إلى جرح منهج الله ، وعليك في هذا الاستبدال أن ترعى المنهج الإيماني مثلما أشار به سيدنا الحسن رضي الله عنه على الرجل الذي كان يستشيره في واحد جاء ليخطب ابنته . قال سيدنا الحسن - رضي الله عنه - : إن جاءك الرجل الصالح فزوجه ، فإنه إن أحب ابنتك أكرمها ، وإن كرهها لم يظلمها .

والحق يقول : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج » فهذا يعني أن الرغبة قد انصرفت عن الأول نهائيا ، ولا يمكن التغلب عليها بغير الانحراف عن المنهج . وقد يحدث أن يضيق الرجل بزوجته وهو لا يعاني من إلحاح في الناحية الغريزية ، فيطلقها ولا يتزوج ، فما شروط المنهج في هذا الأمر ؟

يقول الحق : « وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا » . كلمة « قنطار » وكلمة « قنطرة » مأخوذة من الشيء العظيم وقنطار تعني « المال » وقدروه قديما بأنه ملء مَسْك البقرة ، و« المسك » هو الجلد ، فعندما يتم سلخ البقرة يصبح جلدها مثل القربة ، وملء مَسْكها يسمى قنطارا ، والقنطار المعروف عندنا الآن له سعة وَزْنِيَّة ، والحق حين يعظم المهر بقنطار يقول : « وآتيتم إحداهن قنطارا » فهو يأتي لنا بمثل كبير وينهانا بقوله : « فلا تأخذوا منه شيئا » لماذا ؟ لأنك يجب أن تفهم أن المهر الذي تدفعه ليس مناسبا على زمن علاقتك بالمرأة إلى أن تنتهي حياتكما ، بل المهر مجعول ثمنا للبضع الذي أباحه الله لك ولو للحظة واحدة ، فلا تحسبها بمقدار ما مكثت معك ، لا ، إنما هو ثمن البضع ، فقد كشفت نفسها لك وتمكنت منها ولو مرة واحدة .

إذن فهذا القنطار عمره ينتهي في اللحظة الأولى ، لحظة تمكُّنك منها . « وآتيتم إحداهن قنطارا » وهذه هي المسألة التي قال فيها سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أخطأ عمر وأصابت امرأة ، لأنه كان يتكلم في خلاء للجمهور ؛ فقالت له المرأة : كيف تقول ذلك والله يقول : « وآتيتم إحداهن قنطار » ، فقال : أصابت امرأة وأخطأ عمر .

عن عمر رضي الله عنه أنه نهى وهو على المنبر عن زيادة صداق المرأة على أربعمائة درهم ثم نزل ، فاعترضته امرأة من قريش فقالت . أما سمعت الله يقول . (وآتيتم إحداهن قنطارا) ؟ فقال : اللهم عفوا كل الناس أفقه من عمر ثم رجع فركب المنبر فقال : « إني كنت قد نهيتكم أن تزيدوا في صدُقاتهن على أربعمائة درهم فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب »[1]

وعن عبدالله بن مصعب أن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال : « لا تزيدوا في مهور النساء على أربعين أوقية من فضة ، فمن زاد أوقية جعلتُ الزيادة في بيت المال ، فقالت امرأة : ما ذاك لك ، قال ولِمَ ؟ فقالت : لأن الله تعالى يقول : « وآتيتم إحداهن قنطارا » فقال عمر : « امرأة أصابت ورجل أخطأ » .

---

(١) رواه سعيد بن منصور ، وأبو يعلى

ثم ينكر القرآن مجرد فكرة الأخذ فيقول : « أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا » لماذا ؟ لأنه ليس ثمن استمتاعك بها طويلا ، بل هو ثمن تمكنك منها ، وهذا يحدث أول ما دخلت عليها وإن أخذت منها شيئا من المهر بعد ذلك فأنت آثم ، إلا إذا رضيت بذلك ، والإثم المبين هو الإثم المحيط .

ويأتي الحق من بعد ذلك بمزيد من الاستنكار فيقول : « وكيف تأخذونه » إنه استنكار لعملية أخذ شيء من المهر بحيثية الحكم فيقول :

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾

فلو أدركتم كل الكيميات فلن تجدوا كيفية تمر لكم الأحد ، لماذا ؟ لأن الحق قال : « وكيف تأخذونه » وانظر للتعليل : « وقد أفضى بعضكم إلى بعض » إذن فشمس البضع هو الإفضاء ، وكلمة « أفضى بعضكم إلى بعض » كلمة من إله ؛ لذلك تأخذ كل المعاني التي بين الرجل والمرأة ، و« أفضى » مأخوذة من « الفضاء » والفضاء هو المكان الواسع ، و« أفضى بعضكم » يعني دخلتم مع بعض دخولا غير مضيق .

إذن فالإفضاء معناه : أنكم دخلتم معا أوسع مداخلة ، وحسبك من قمة المداخلة أن عورتها التي تسترها عن أبيها وعن أخيها وحتى عن أمها وأختها تبيحها لك ، ولا يوجد إفضاء أكثر من هذا ، ودخلت معها في الاتصال الواسع ، أنفاسك ، ملامستك ، مباشرتك ، معاشرتك ، مدخلك ، مخرجك ، في حملك ، في المطبخ ، في كل شيء حدثت إفضاءات ، وأنت مادمت قد أفضيت لها وهي قد أفضت لك كما قال الحق أيضا في المداخلة الشاملة .

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

أى شيء تريد أكثر من هذا ؟! ولذلك عندما تشتد امرأة على زوجها ، قد يغضب ، ونقول له : يكفيك أن الله أحل لك منها ما حرمه على غيرك ، وأعطتك عرضها ، فحين تشتد عليك لا تغضب ، وتذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى »[1]

« وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا » والميثاق هو العهد يؤخذ بين اثنين ، ساعة سألت وليها : « زوجنى » فقال لك : زوجتك ، ومفهوم أن كلمة الزواج هذه ستعطى أسرة جديدة ، وكل ميثاق بين خلق وخلق فى غير العرض هو ميثاق عادى ، إلا الميثاق بين الرجل والمرأة التى يتزوجها ؛ فهذا هو الميثاق الغليظ ، أى غير اللين ، والله لم يصف به إلا ميثاق النبيين فوصفه بأنه غليظ[2] ، ووصف هذا الميثاق بأنه غليظ . ففى هذه الآية « أفضى بعضكم إلى بعض » فهما إفضاء وفى آية أخرى يكون كل من الزوجين لباسا وسترا للآخر « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » فهذا كان الميثاق غليظا ، وهذا الميثاق الغليظ يحتم عليك إن تعثرت المشرة أن تتحملها وتعاملها بالمعروف ، وإن تعثرت وليس هناك فائدة من استدامتها فيصح أن تستبدلها ، فإن كنت قد أعطيتها قنطارا فليس لك أن تأخذ منه شيئا ، لماذا ؟ لأن ذلك هو ثمن الإفضاء ، ومادام هذا القنطار هو ثمن الإفضاء وقد تم ، فلا تأخذ منه شيئا ، فالإفضاء ليس شائعا فى الزمن كى تورعه ، لا .

والحق يقول : « وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا » هنا يجب أن نفهم أن الحق حين يشرع فهو يشرع الحقوق ، ولكنه لا يمنع الفضل ، بدليل أنه قال :

﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾

(من الآية ٤ سورة النساء)

---

(١) رواه الترمذى عن عائشة ، ورواه ابن ماجه عن ابن عباس ورواه الطبرانى فى الكبير عن معاوية

(٢) الآية رقم ٧ من سورة الأحزاب .

إذن ففيه فرق بين الحق وما طلب لكم ، والأثر يحكى عن القاضى الذى قال لقومه : أنتم اختصمونى لأحكم فى النزاع القائم بينكم فهذا تريدون منى ؟! الحكم بالعدل أم بما هو خير من العدل ؟ فقالوا له : وهل يوجد خير من العدل ؟ قال : نعم ، الفضل . فالعدل : أن كل واحد يأخذ حقه ، والفضل : أن تتنازل عن حقك وهو يتنازل عن حقه ، وننتهى المسألة ، إذن فالفضل أحسن من العدل ، والحق سبحانه وتعالى حين يشرع الحقوق يضع الضمانات ، ولكنه لا يمنع الفضل بين الناس .

فيقول ـ جل شأنه ـ :

﴿ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾

(من الآية ٢٣٧ سورة البقرة)

ويقول الحق فى آية الدين :

﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

ويأمركم الحق أن توثقوا الدين لأنكم لا تحمون مال الدائن فحسب بل تحمون المدين نفسه ، لأنه حين يعلم أن الدين موثق عليه ومكتوب عليه فلن ينكره ، لكن لو لم يكن مكتوبا فقد تحدثه نفسه أن ينكره ، إذن فالحق يحمى الدائن والمدين من نفسه قال : « ولا تسأموا أن تكتبوه » ، وقال بعدها :

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ ﴾

(من الآية ٢٨٣ سورة البقرة)

فقد تقول لمن يستدين منك . لا داعى لكتابة إيصال وصكّ بينى وبينك ، وهذه أريحية لا يمنعها الله فإذا كان قد أمن بعضكم بعضا فليستح كل منكم وليؤد الذى ؤتمن أمانته وليتق الله ربه

ومادام قد جعل للفصل مجالا مع تسجيل الحقوق فلا تنسوا ذلك . فيا بالنا بالميثاق الغليظ بين الرجل والمرأة . . وغلظ الميثاق إنما يتأتى بما يتطلبه الميثاق ، ولا يوجد ميثاق أغلظ مما أخذه الله من النبيين ومما بين الرجل والمرأة ؛ لأنه تعرض لمسألة لا تباح من الزوجة لغير زوجها ، ولا من الزوج لغير زوجته . إن على الرجل أن يوفى حق المرأة ولا يصح أن ينقصها شيئا إلا إذا تنازلت هي . فقد سبق أن قال الحق :

﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾

(من الآية ٤ سورة النساء)

ومادامت النفس قد طابت ، إذن فالرضا بين الطرفين موجود ، وذلك استطراق أنسى بين الرجل والمرأة . فالمهر حقها ، ولكن لا يجب أن يقبض بالفعل ، فهو في ذمة الزوج ، إن شاء أعطاه كله أو أخره كله أو أعطى بعضه وأخر بعضه . ولكن حين تنفصل الزوجة بعد الدخول يكون لها الحق كاملا في مهرها ، إن كان قد أخره كله فالواجب أن تأخذه ، أو تأخذ الباقي لها إن كان قد دفع جزءا منه كمقدم صداق . ولكن حين تنتقل ملكية المهر إلى الزوجة يفتح الله باب الرضا والتراضي بين الرجل والمرأة فقال : « فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا » فهو هبة تخرج عن تراضٍ . وذلك مما يؤكد دوام العشرة والألفة والمودة والرحمة بين الزوجين . وبعد ذلك يبقى حكم آخر هَبْ أن الخلاف استمر بين الرجل والمرأة

حالة تكره هي وتحب أن تخرج منه لا جناح أن تفتدي منه نفسها ببعض المال لأنها كارهة ، ومادامت هي كارهة ، فسيضطر هو إلى أن يبني بزوجة جديدة ، إذن فلا مانع أن تختلع المرأة منه بشيء تعطيه للزوج :

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾

(من الآية ٢٢٩ سورة البقرة)

والحق سبحانه وتعالى أراد أن يعطينا الدليل على أن حق المرأة يجب أن يحفظ لها ، ولذلك جاء بأسلوب تناول مسألة أخذ الزوج لبعض مهر الزوجة في أسلوب التعجب :

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾

(الآية ٢١ سورة النساء)

فكان «وكيف تأخذونه» هذه دليل على أنه لا يوجد وجه من وجوه الحق يبيح لك أن تأخذ منها مهرها ، فساعة يستفهم فيقول «كيف» فهذا تعجيب من أن تحدث هذه ، وقلنا : إن كل المواثيق بين اثنين لا تعطى إلا حقوقاً دون العرض ، ولكن ميثاق الزواج يعطى حقوقاً فى العرض ، ومن هنا جاء لفظ الميثاق ، وكل عهد وميثاق بين اثنين قد ينصب إلى المال ، وقد ينصب إلى الخدمة ، وقد ينصب إلى أن تنقل عنه الدِّية ، وقد ينصب إلى أنك تعطيه مثلاً المعونة ، هذه ألوان من المواثيق إلا مسألة العرض ، فمسألة العرض عهد خاص بين الزوجين ، ومن هنا جاء الميثاق الغليظ .

وبعد ذلك يتناول الحق سبحانه وتعالى قضية يستديم بها طهر الأسرة وعفافها وكرامتها وعزتها ، ويبقى لأطراف الأسرة المحبة والمودة فلا يدخل شىء يقضى على هذه المحبة والمودة ويُدخل نزغ الشيطان فيها . قال الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾

فكأن هذه مسألة كانت موجودة ، كان ينكح الولد زوج أبيه التى هى غير أمه . و« صفوان بن أمية » وهو من سادة قريش قد خلف أباه أمية بن خلف على « فاختة بنت الأسود بن المطلب » كانت تحت أبيه ، فلما مات أبوه تزوجها هو ، ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يبعد هذه القضية من محيط الأسرة ، لماذا ؟ . لأن الأب والابن لهما من العلاقات كالمودة والرحمة والحنان والعطف من الأب ، والبر والأدب ، والاستكانة ، وجناح الذل من الابن ، فحين يتزوج الرجل امرأة وله ابن ، فذلك دليل على أن الأب كان متزوجاً أمه قبلها ، وكأن الزوجة الجديدة طرأت على الأسرة .

وسبحانه يريد ألا يجعل العين من الولد تتطلع إلى المرأة التي تحت أبيه ، ربما راقته ، وربما أعجبته ، فإذا ما راقته وأعجبته فأقل أنواع التفكير أن يقول بينه وبين نفسه : بعد أن يموت أبي أتزوجها ، فحين يوجد له الأمل في أنه بعدما يموت والده يتزوجها ، ربما يفرح بموت أبيه ، هذا إن لم يكن يسعى في التخلص من أبيه ، وأنتم تعلمون سعار الغرائز حين تأتي ، فيريد الحق سبحانه وتعالى أن يقطع على الولد أمل الالتقاء ولو بالرجاء والتمني ، وأنه يجب عليه أن ينظر إلى الجارية أو الزوجة التي تحت أبيه نظرته إلى أمه ، حين ينظر إليها هذه النظرة تمتنع نزعات الشيطان .

فيقول الحق : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم » والنكاح هنا يُطلق فينصرف إلى الوطء والدخول ، وقد ينصرف إلى العقد ، إلا أن انصرافه إلى الوطء والدخول ـ أي العملية الجنسية ـ هو الشائع والأولى ، لأن الله حينما يقول : « الزاني لا ينكح إلا زانية » معناها أنه ينكح دون عقد وأن تتم العملية الجنسية دون زواج .

والحق هنا يقول : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف » فما هو السلف هذا ؟ إن ما سلف كان موجوداً ، أي جاء الإسلام فوجد ذلك الأمر متبعاً ، وجاء الإسلام بتحريم مثل هذا الأمر فالزمن الجديد بعد الإسلام لا يحل أن يحدث فيه ذلك وإن كان عقد النكاح قد حدث قبل الإسلام . ولذلك قال ـ سبحانه ـ : « إلا ما قد سلف » فجاء بـ(ما) وهي راجعة للزمن . كأن الزمن الجديد لا يوجد فيه هذا

هب أن واحداً قد تزوج بامرأة أبيه ثم جاء الحكم . . أيقول سلف أن تزوّجتها قبل الحكم ! نقول . لا الزمن انتهى ، إذن فقوله : « ما قد سلف » يعني الزمن ، وما دام الزمن انتهى يكون الزمن الجديد ليس فيه شيء من مثل تلك الأمور . لذا جاءت (ما) ولو جاءت (مَن) بدل (ما) لكان الحكم أن ما نكحت قبل الإسلام تبقى معه ، لكنه قال (إلا ما قد سلف) فلا يصح في المستقبل أن يوجد منه شيء البتة ويجب التفريق بين الزوجين فيما كان قائما من هذا الزواج .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا أنه حين يشرّع فهو يشرع ما تقتضيه الفطرة

السليمة . فلم يقل : إنكم إن فعلتم ذلك يكون فاحشة ، بل إنه برغم وجوده من قديم كان فاحشة وكان فعلاً قبيحاً « إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً » وما كان يصح بالفطرة أن تكون هذه المسألة على تلك الصورة ، إلا أنّ الناس عندما فسدت فطرتهم لجأوا إلى أن يتزوج الرجل امرأة أبيه ، ولذلك إذا استقرأت التاريخ القديم وجدت أن كل رجل تزوج من امرأة أبيه كان يُسمَّى عندهم نكاح « المقت » والولد الذى ينشأ يسمُّونه « المقتى » أى المكروه .

إذن فقوله : « إنه كان » أى قبل أن أحكم أنا هذا الحكم « كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً » . فالله يوضح : إننى أشرع لكم ما تقتضيه الفطرة والفطرة قد تنطمس فى بعض الأمور ، وقد لا تنطمس فى البعض الآخر لأن بعض الأمور فاقعة وظاهرة والتحريم فيها يتم بالفطرة

مثال ذلك : أن واحداً ما تزوج أمه قبل ذلك . أو تزوج ابنته ، أو تزوج أخته . إذن ففيه أشياء حتى فى الجاهلية ما اجترأ أحدٌ عليها . إذن جاء بالحكم الذى يحرم ما اجترأت عليه الجاهلية وتجاوزت وتخبطت فيه الفطرة ، فقال سبحانه : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف » أى مضى .

لقد وصف سبحانه نجاح الأبناء لزوجات آبائهم بأنه « كان فاحشة » أى قبيحاً ، و« مقتاً » أى مكروهاً ، « وساء سبيلاً » أى فى بناء الأسرة .

ثم شرع الحق سبحانه وتعالى يبين لنا المحرمات وإن كانت الجاهلية قد اتفقت فيها ، إلا أن الله حين يشرع حكماً كانت الجاهلية سائرة فيه لا يشرعه لأن الجاهلية فعلته ، لا . هو يشرعه لأن الفطرة تقتضيه . وكون الجاهلية لم تفعله ، فهذا دليل على أنها فطرة لم تستطع الجاهلية أن تغيرها ، فقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ

وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ
وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ
وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ
وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن
نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟
دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ
أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن
تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

من الذى يحلل ويحرم ؟ إنه الله ، فهم رغم جاهليتهم وغفلتهم عن الدين حرموا زواج المحارم ، فحتى الذى لم يتدين بدين الإسلام توجد عنده محرمات لا يقربها . اى أنهم قد حرموا الأم والبنت والأخت . إلخ ، من أين جاءتهم هذه ؟ الحق يوضح :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة فاطر)

ومنهج السماء أنزله الله من قديم بدليل قوله

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ
ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾

(سورة طه)

فبمجرد أن خلق الله آدم وخلق زوجته ، أنزل هذا المنهج ، هذا المنهج مستوى الأركان ، إذن فبقاء الأشياء التي جاء الإسلام لوجدها على الحكم الذي يريده الإسلام إنما نشأ من رواسب الديانات القديمة ، وإن أخذ حكم العادة وحكم الفطرة . أي أن الناس اعتادوه وفطروا عليه ولم يخطر ببالهم أن الله شرعه في ديانات سابقة .

والعلوم الحديثة أعانتنا في فهم كثير من أحكام الله ، لأنهم وجدوا أن كل تكاثر سواء أكان في النبات أم في الحيوان أم في الإنسان أيضاً ، كلما ابتعد النوعان « الذكورة والأنوثة » فالنسل يجيء قوياً في الصفات . أما إذا كان لزوج والزوجة أو الذكر والأنثى من أي شيء : في النبات ، في الحيوان ، في الإنسان قريبين من اتصال البنية الدموية والجنسية فالنسل ينشأ ضعيفاً ، ولذلك يقولون في الزراعة والحيوان : « تهجين » أي ناقح للأنوثة بذكورة من بعيد . والنبي عليه الصلاة والسلام يقول لنا :

(اغتربوا لا تضْوُوا) وقال : « لا تنكحوا القرابة القريبة فإن الولد يخلق ضاويا »[1]

فالرسول يأمرنا حين نريد الزواج ألا نأخذ الأقارب ، بل علينا الابتعاد ، لأننا إن أخذنا الأقارب فالنسل يجيء هزيلاً . وبالاستقراء وجد أن العائلات التي جعلت من سنتها في الحياة ألا تنكح إلا منها ، فبعد فترة ينشأ فيها ضعف عقلي ، أو ضعف جنسي ، أو ضعف مناعي ، فقول رسول الله « اغتربوا لا تضووا »أي إن أردتم لزواج فلا تأخذوا من الأقارب ، لأنكم إن أخذتم من الأقارب تهزلوا ، فإن « ضوى » بمعنى « هزل » فإن أردتم ألا تضووا ، أي ألا تهزلوا فابتعدوا ، وقبلنا يقول النبي هذا الكلام وجد بالاستقراء في البيئة الجاهلية هذا . ولذلك يقول الشاعر الجاهلي :

أنصح من كان بعيد الهم

---

(١) رواه إبراهيم الحربي مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ورواه موقوفا على عمر ، وقد روى براهيم الحربي في غريب الحديث عن عمر رضي الله عنه قال : (يا بني السائب قد أضويتم فانكحوا في الغرائب) من كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي .

تزويج أبناء بنات العم
فليس يسجو من ضَوَى وسُقُم

فقد يضوى سليل الأقارب ، وعندنا فى الأحياء الشعبية عندما يمدحون واحداً يقولون « دنوة » أى فتى لم تلده بنت عم قريبة وفى البلدات يقولون . إن كنت تزرع ذرة فى محافظة الغربية لابد أن تأتى بالتقاوى من محافظة الشرقية مثلا ، وكذلك فى لبطيخ الشبليان يأتون ببذوره من أمريكا ؛ فيزرعونها فيخرج البطيخ جيلاً لذيذا ، بعض الناس قد يرفض شراء مثل تلك لبذور لعلو ثمنها . فيأخذ من بذور ما زرع ويعمل منه التقاوى ، ويخرج المحصول ضعيفٌ لكن لو ظل يأتى به من الخارج وإن وصل ثمن الكيلو مبلغاً كبيراً فهو يأخذ محصولاً طيباً

وكذلك فى الحيوانات وكذلك فينا ؛ ولذلك كان العرب يقول : ما ذكّ رءوس الأبطال كابن الأعجمية ؛ لأنه جاء من جنس آخر . أى أن هذا الرجل البطل أخذ الخصائص الكاملة فى جنس آخر . فلقاح الخصائص الكاملة بالخصائص الكاملة يعطى الخصائص الأكمل ، إذن فتحريم الحق سبحانه وتعالى زواج الأم والأخت وكافة المحارم وإن كانت عملية أدبية إلا أنها أيضاً عملية عضوية . « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم » لماذا ؟ لأن هذه الصلة صلة أصل ، والصلة الأخرى صلة فرع ، الأمهات صلة الأصل ، والبنات صلة الفرع ، « وأخواتكم » وهى صلة الأخ بأخته إنها بنوة من والد واحد ، « وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة » .

إذن فالمسألة مشتبكة فى القرابة القريبة . والله يريد قوة النسل ، قوة الإنجاب ، ويريد أمرا آخر هو : أن العلاقة الزوجية دائما عرضة للأغيار النفسية ، فالرجل يتزوج المرأة وبعد ذلك تأتى أغيار نفسية ويحدث بينهما خلاف مثلما قلنا فى قوله تعالى : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج » ؛ ويكره منها كذا وكذا ، فكيف تكون العلاقة بين الأم وابنها إذا ما حدث شىء من هذا ؟! والمفروض أن لها صلة تحتم عليه أن يظل على وفاء لها ، وكذلك الأمر بالنسبة للبنت ، أو الأخت ، أو العمة ، أو الخالة ، فيأمر الحق الرجل : ابتعد بهذه المسألة عن مجال الشفاق

ومن حسن العقل وبعد النظر ألا تدخل المقدمات فى الزواج ، أو ما يسمى « بزواج البدل » ، حيث يتبادل رجلان الزواج ، يتزوج كل منهما أخت الآخر مثلا ، فإذا حدث الخلاف فى شىء حدث ضرورة فى مقابله وإن كان الوفاق سائداً . فحسن الفطنة يقول لك : إياك أن تزوج أختك لواحد لأنك ستأخذ أخته ، فقد تتفق زوجة مع زوجها ، لكن أخته قد لا تتوافق مع زوجها الذى هو شقيق للأخرى . وتصوروا ماذا يكون إحساس الأم حين ترى الغريبة مرتاحة عند بنها لكن ابنتها تعانى ولا تجد الراحة فى بيت زوجها ماذا يكون الموقف ؟ تكون قد وسعنا دائرة الشقاق والنفاق عند من لا يصح أن يوجد فيه شقاق ولا نفاق .

والحكمة الإلهية ليست فى مسألة واحدة ، بل الحكمة الإلهية شاملة ، تأخذ كل هذه المسائل ، « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم » والمحرم هنا بطبيعة الحال هن الأمهات وإن علون ، فالتحريم يشمل الجدة سواء كانت جدة من جهة الأب ، أو جدة من جهة الأم . وما ينشأ منه . وكل واحدة تكون زوجة لرجل فأمها محرمة عليه ، « وبناتكم » وبنات الابن وكل ما ينشأ منها ، وكذلك بنات البنت ، « وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم » .

ولماذا يحرم الحق « أمهاتكم اللاتى أرضعنكم » ؟ لأنها بالإرضاع أسهمت فى تكوين خلايا فيمن أرضعته ؟ فلبنه بَضْعَة منها ، ولهذه البَضْعَة حُرمة الأمومة ، ولذلك قال العلماء يحرم زواج الرجل بامرأة جمعه معها رضاعة يغلب على الظن أنها تُنشىء خلايا ، وحلل البعض زواج من رضع لرجل منها مصة أو مصتين مثلا ، إلا أن أبا حنيفة رأى تحريم أى امرأة رضع منها الرجل ، وأفتى المحققون وقالوا : لا تحرم المرأة إلا أن تكون قد أرضعت الرجل ، أو رضع الرجل معها خمس رضعات مشبعات ، أو يرضع من المرأة يوما وليلة ويكتفى بها ، وأن يكون ذلك فى مدة الرضاع . وهى بنص القرآن سنتان . « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين » .

وهذه المسألة حدث الكلام فيها بين سيدنا الإمام على ـ رضوان الله عليه وكرم الله

وجهه ـ وسيدنا عثمان ـ رضى الله عنه ـ حينما جاءوا بامرأة ولدت لستة شهور وكان الحمل الشائع يمكث تسعة أشهر ، وأحيانا نادرة يولد الطفل بعد سبعة أشهر ، لكن أن تلد امرأة بعد ستة شهور فهذا أمر غير متوقع . . ولذلك أراد عثمان ـ رضى الله عنه ـ أن يقيم الحد عليها ؛ لأنها مادام ولدت لستة أشهر تكون خاطئة ، لكنَّ سيدنا على ـ رضوان الله عليه وكرم الله وجهه ـ أدرك المسألة .

قال : يا أمير المؤمنين ، لماذا تقيم عليها الحد ؟ فقال عثمان بن عفان : لأنها ولدت لستة أشهر وهذا لا يكون . وأجرى الله فتوحاته على سيدنا على ، وأجرى النصوص على خياله ساعة الفتيا ، وهذا هو الفتح ، فقد يوجد النص فى القرآن لكن النفس لا تنتبه له ، وقد تكون المسألة ليست من نص واحد بل من اجتماع نصين أو أكثر ، ومن الذى يأتى فى خاطره ساعة الفتيا أن يطوف بكتاب الله ويأتى بالنص الذى يسعفه ويساعده على الفتيا ، إنه الإمام على ، وقال لسيدنا عثمان . الله يقول غير ذلك ، قال له : وماذا قال الله فى هذا ؟ قال :

﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾

(من الآية ٢٣٣ سورة البقرة)

إذن فإتمام الرضاعة يكون فى حولين كاملين أى فى أربعة وعشرين شهرا ، ـ والتاريخ محسوب بالتوقيت العربى ـ والحق سبحانه قال أيضا :

﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

فلما كان مجموع أشهر الحمل والرضاع ، ثلاثين شهرا ، والرضاع التام أربعة وعشرون شهرا ، إذن فمدة الحمل تساوى ستة أشهر .

هكذا استنبط سيدنا على ـ رضى الله عنه وكرم الله وجهه ـ والإنسان قد يعرف آية وتغيب عنه آيات ، والله لم يخصص زمنا معينا بحس الفتيا وحرم الأزمنة الأخرى ، وإنما فيوضات الله تكون لكل الأزمان ، فقد يقول قائل : لا يوجد فى المسلمين من يصل بعمله إلى مرتبة الصحابة ، ومن يقول ذلك ينسى ما قاله الحق فى سورة الواقعة :

﴿ وَالسَّٰبِقُونَ السَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُولَٰٓئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ النَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ۝١٤ ﴾

(سورة الواقعة)

أى أن الآخرين أيضا لن يحرموا من أن يكون فيهم مقربون قادرون على استيعاب الصوص لاستنباط الحكم ، إذن فالرضاع : مصة أو مصتان ، هذا مذهب ، وعشر رضعات مذهب آخر ، وخمس رضعات مشبعات مذهب ثالث ، وأخذ جمهور الفقهاء بالمتوسط وهو خمس رضعات مشبعات تحرم من الزواج ، لكن بشرط أن تكون فى مدة الرضاع ، فلو رضع فى غير مدة الرضاعة ، نقول إنه استغنى بالأكل وأصبح الأكل هو الذى يعطيه مقومات البنية .

إذن فمسألة الرضاع متشعبة ؛ لأن النبى عليه الصلاة والسلام قال . « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب »[1] .

والمحرم من الرضاع هو : الأم من الرضاع ، والبنت من الرضاع ، والأخت من الرضاع ، والعمة من الرضاع ، والخالة من الرضاع ، وهكذا نرى أنها عملية متشعبة تحتاج من كل أسرة إلى اليقظة ، لأننا حين نرى أن بركة الله لا تحوم حول كثير من البيوت لا بد أن ندرك لها أسبابا ، أسباب البعد عن استقبال البركة من الله . . فالإرسال الإلهى مستمر ، ونحن نريد أجهزة استقبال حساسة تحس الاستقبال ، فإذا كانت أجهزة الاستقبال خربة ، والإرسال مستمراً فلن يستفيد أحد من الإرسال ، وهب أن محطة الإذاعة تذيع ، لكن المذياع خرب ، فكيف يصل الإرسال للناس ؟

إذن فمدد الله وبركات الله المتنزلة موجودة دائما ويوجد أناس لا يأخذون هذه البركات ؛ لأن أجهزة استقبالها ليست سليمة ، ولو جهاز لاستقبال البركة أن البيت يبنى على حل فى كل شىء . . يعنى : لقاء الزوج والزوجة على حل ، وكثير من

---

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه عن عائشة

الناس يدخلون فى الحرمة وإن لم يكن بقصد ، وهذا ناشىء من الخوس والاختلاط والفوضى فى شأن الرضاعة ، والناس يرضعون أبناءهم هكذا دون ضابط وليس الحكم فى بالهم . وبعد ذلك نقول لهم : يا قوم أنتم احتطتم لأولادكم فيما يؤدى إلى سلامة بنيتهم ، فكان لكل ولد ملف فيه : شهادة الميلاد ، وفيه ميعاد تلقى التطعيمات ضد الدفتريا ، وشلل الأطفال وغير ذلك .

فلماذا يا أسرة الإسلام لا تضعون ورقة فى هذا الملف لتضمنوا سلامة أسركم ، ويكتب فى تلك الورقة من الذى أرضع الطفل غير أمه ، وساعة يأتى للزواج نقول : يا موثق هذا ملفه إنه رضع من فلانة ، فى هذا الملف تُدرج أسماء النساء اللاتى رضع منهن . . فنبنى بذلك أسرة جديدة على أسس إيمانية سليمة ، بدلا من أن نهاجىء رجلا تزوج امرأة ، وعاشا معا وأنجبا وبعد ذلك يتبين أنهما رضعا معا ، وبذلك تصير المسألة إلى إشكال شرعى وإشكال مدنى وإشكال اجتماعى ناشىء من أن الناس لم تُعد لمنهجها الإيمانى ما أعدته لمنهجها المادى .

إذن فلا بد من التزام كل أسرة أن تأتى فى ملف ابنها أو بنتها وتضع ورقة فيها أسماء من رضع منهن المولود . وعلى كل حال لم تعد هناك الآن ضرورة أن نأتى بمرضعة للأولاد ، فاللبن الجاف من الحيوانات يكفى ويؤدى المهمة ، وصرنا لا ندخل فى المتاهة التى قد تؤدى بنا فى المستقبل إلى أن الإنسان يتزوج أخته من الرضاعة أو أمه من الرضاعة ، أو أى شىء من ذلك ، وبعد ذلك تمتنع بركة الله من أن تمتد إلى هذه الأسرة . « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة » . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم . « يحرم من الرضع ما يحرم من النسب »[1] .

وجاء القرآن بالأمور البارزة فيها فقط ، « وأمهات نسائكم » فإذا تزوج رجل من امرأة ولها أم ، بالله أيتزوج أمها أيضا ؟ إنها عملية غير مقبولة ، « وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن » . الربيبة هى بنت المرأة من غير زوجها ، فقد يتزوج رجل من امرأة كانت متزوجة من قبل وترملت أو طلقت بعد أن ولدت

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه عن عائشة .

بنتا . هذه البنت يسمونها « ربيبة » وزوج الأم الجديد سيُدخلها فى حمايته وفى تربيته ، وبذلك تأخذ مرتبة البنوة والأمر هنا مشروط . « من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا قد دخلتم بهن فلا جناح عليكم » فبمجرد الرجل قد عقد على المرأة ولم يدخل بها تكون بنتها غير محرمة . أما العقد على البنت حتى دون دخول فإنه يحرم الأمهات

« وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم » أى زوجة الابن ، وكلمة « من أصلابكم » تدل على أنه كان يطلق لفظ « الأبناء » على أناس ليسوا من الأصلاب ، وإلا لو أن كلمة « الأبناء » اقتصرت فى الاستعمال على أولاد الإنسان من صلبه ، لما قال : « أبنائكم الذين من أصلابكم » .

إذن كان يوجد فى البيئة الجاهلية أبناء ليسوا من الأصلاب هم أبناء التبنى ، وكانت هذه المسألة شائعة عند العرب ، فكان الرجل يتبنى طفلا ويلحقه بنسبه ويطلق عليه اسمه وإرثه . وجاء الإسلام ليقول . لا ، لا يصح أن تنسب لنفسك من لم تنجبه ، لأنه سيدخل فى مسألة أخرة لابنتك مثلا ، وسيدخل على محارمك ، ولذلك ألغى الله هذه المسألة ، وجاء هذا الإلغاء على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كانت المسألة متأصلة عند العرب .

ونعلم أن زيد بن حارثة خُطف من أهله ، وبعد ذلك بيع على أنه رقيق ، واشتراه حكيم بن حزام . وأهدته سيدتنا خديجة وبعد ذلك وهبته لسيدنا رسول الله . وصار زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعندما علم أهل زيد أن ولدهم الذى خُطف قديما موجود فى مكة جاءوا إليها ، فرأوا زيد بن حارثة ، ولما سألوه أن يعود معهم قال هم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أخيره بين أن يذهب معكم أو أن يبقى معى ، انظروا إلى زيد بن حارثة كيف صنع به إيمانه وحبه لسيدنا رسول الله : قال : ما كنت لأختار على رسول الله أحداً . وظل مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأراد الرسول أن يكرمه على العادة التى كانت شائعة فسماه « زيد بن محمد » وتبناه .

إذن فالمسألة وصلت إلى بيت النبوة ، النبى وصل بيت رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، وأراد الله أن يبين هذه المسألة فقال سبحانه :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الأحزاب)

هذا يدل على أن صرامة التشريع لا تجامل أحداً حتى ولا محمدا بن عبدالله وهو رسول ، « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » .

وبعض الناس الذين يتسقطون للقرآن يقولون : إن رسول الله كان عنده إبراهيم وكان عنده الطيب وكان عنده القاسم ، ويقول : أكان هؤلاء رجالا ؟! لقد ماتوا أطفالا ، والكلام « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » ، وهب أنهم كبروا وصاروا رجالا ، أقال من رجالكم أم من رجاله ؟ قال : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » أى لا يمنع أن يكون أبا أحد من رجاله ، هو أبو القاسم وأبو الطيب وأبو إبراهيم هم أولاده فافهموا القول .

وهذه المسألة اتخذت خجة عند خصوم الاسلام والمستشرقين والحق سبحانه وتعالى وإن كان قد عدل لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فتعديل الله لرسوله يشرف رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن من الذى يعدل لمحمد ؟ إنه الله الذى أرسله .

ويقول : « وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم » . ومفهوم هذه العبارة أن المحرمة إنما هى حليلة الابن من الصلب . وقوله : « من أصلابكم » يدل على أنه كان هناك أبناء ليسوا من الصلب ، إذن فالتبنى كان موجوداً قبل نزول هذا الحكم ، وأراد الله أن يبطل عادة التبنى ، وكانت متغلغلة فى الأمة العربية ، فأبطلها على يد سيدنا رسول الله ، لا مشرعا ينقل حكم الله فحسب ، ولكن مطبقا يطبق حكم الله فى ذاته وفى نفسه حتى يأخذ الحكم قداسته ، ويجب أن نفطن إلى أن فكرة التبنى كانت فى ذاتها تهدف إلى أن ولدا نجيبا يلحقه رجل به ليعطيه كل حقوق أولاده كنوع من التكريم .

ولذلك علينا أن نلحظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تصرف بالكيل البشرى

في إطار العدل البشري ، والعدل هو : القسط ، وساعة نبي زيد بن حارثة وسماه زيد بن محمد إنما كان يهدف إلى أن يعوضه والده ، لأن زيدا اختار رسول الله على أبيه ، إذن فكان ذلك التبني من رسول الله كمالا وعدلا بشريا بالنسبة للوفاء لواحد أثر اختياره على اختيار أهله فإذا أراد الله أن يصوب فيكون كمالا إلهيا وعدلا إلهيا ، فلا غضاضة عند أحد أن يُصوِّب الكمال البشري بالكمال الإلهي ، ولا أن يصوب العدل البشري والقسط البشري بالعدل الإلهي والقسط الإلهي ، وأنزل الله وهو أحكم العادلين هذا الحكم بعبارة تعطي ذلك كله :

﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٥ سورة الأحزاب)

أي إن دعاءهم لآبائهم « أقسط عند الله » . وكلمة : « أقسط » إياكم أن تكونوا بعدتم ونأيتم بها عن « عظيم » و« أعظم » ، إنك ساعة تأتي بصيغة التفضيل يكون المقابل لها وصفا من جنسها ، فـ « أعظم » المقابل لها « عظيم » ، و« أقسط » المقابل لها « قِسْط » ، فما فعله رسول الله هو قِسْطٌ وعدل ، ولكن ما عدله الله أقسط مما صنعه رسول الله . إذن فيجب أن نفطن إلى أن الكمال البشري والعدل البشري شيء ، والكمال الإلهي والعدل الإلهي شيء آخر . ومن نقله الله من عدل بشريته إلى عدل ألوهيته يكون قد تلقى نعمة كبرى .

وإذا ما حاول المستشرقون أن يأخذوا هذه المسألة على أن ربنا عدل له ويحاولوا أن يلصقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم خطأ ما ، نقول لهم : أنتم لا تحسنون تقدير الأمر ولا تفهمون المراد من ذلك ، فالذي صوب هو الله الذي أرسله ، وقد صوب له فعلا فعله في إطار البشرية ، وقال الحق : « هو أقسط عند الله » ومن الذي يجعل البشر متساوين مع الله في القسط والعدل والكمال ؟

إن هناك قصة طار بها المستشرقون فرحا وكذلك يروجها خصوم الإسلام من أبناء الإسلام ؛ لأن من مصلحة خصوم الإسلام ، وكذلك الذين لا يحملون من الإسلام إلا اسمه ؛ يروجون أن هذا الدين يحتوي على أكاذيب - والعياذ بالله - فإمام الواحد منهم لا يقدر أن يحمل نفسه على منهج الدين لا يكون له مندوحة ولا نجاة إلا أن يقول :

هذا الدين غير صحيح ؛ لأن هذا الدين إذ كان صحيحا فسوف يهلك هو ومن على شاكلته ، فيكذبون أنفسهم وينكرون على الدين أملاً في النجاة في ظنهم إذ لا منجى ولا أمل لهؤلاء إلا أن يكون الدين كذبا كله

لننظر إلى القصة التي طار بها المستشرقون فرحا : النبي صلى الله عليه وسلم هو محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب ، وكان عبدالمطلب له بنت اسمها . أميمة بنت عبدالمطلب ، وهي بذلك تكون أختا لعبدالله بن عبدالمطلب وأنجبت أميمة بنتا اسمها « برّة » ، وغير النبي صلى الله عليه وسلم اسمها ، لأنه صلوات الله وسلامه عليه كان له مبحث في الأسماء ، اسمها « برّة » . والاسم جميل لأنه من البر وهو صفة تجمع كل خصال الخير ، لكن رسول الله كره أن يقال فيما بعد : خرج رسول الله من عند « برّة » ، فسماها « زينب » .

« برّة » هذه هي بنت أميمة فهي بنت عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وزيد ابن حارثة ـ كما قلت ـ كان طفلا ثم خُطف وسُرق ، وبيع وانصرف إلى ملكية رسول الله ، وبعد ذلك أراد رسول الله أن يكرمه على ما يقتضيه كماله البشري وعدله البشري فسماه « زيد بن محمد » .

وعندما أراد زيد بن محمد أن يتزوج . . زوّجه رسول الله من « برة » على مضض منها ، لأنه مَوْلى ، وهي بنت سيد قريش . وكان ملحظ الرسول صلى الله عليه وسلم أنه يريد أن يجعل من المسلمين مزيجا واحداً ، فلا فرق بين مَوْلى وسيد ، وزوّج بنت عمته لزيد ، وبعد الزواج لم يشأ بينهما ودّ ، وكل هذه تمهيدات الأقدار للأقدار .

. بالله لو أنها كانت أخذته عن حب وكان بينهما ولهام ، وبعد ذلك أراد الله أن يشرّع فهل يشرع على حساب قلبين متعاطفين متحابين ليمزقهما ؟ لا ، المسألة ـ إذن ـ تمهيد من أولها ، فلم تكن لها رغبة فيه . وعندما يجد الرجل أن المرأة ليس لها رغبة فيه ، تهيج كرامته ، وخصوصا أنه صار ابنا بالتبني لرسول الله ، ويكون رفضُ امرأةٍ له مسألةً ليست هينة ، وتصعب عليه نفسه ، فيأتي لرسول الله شاكيا ، وقال له : لم

تعجبين معاشرة « برّة » وأريد أن أفارقها ، وكان ذلك تمهيداً من الله سبحانه لأنه يريد أن ينهى مسألة التبنى ، فقد كانوا فى الجاهلية يحرمون أن يتزوج الرجل امرأة ابنه المتبنى ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأحزاب)

ومادام يقول له : « أمسك عليك زوجك » فالكلام إذن قد جاء معبراً عن رغبة زيد فى أن يفارقها ، لكن خصوم الإسلام وأبواقهم من المسلمين يقولون فى قوله : « وتخفى فى نفسك » إن محمدا كان معجبا بالمرأة ويريد أن يتزوجها ، ويحمى هذه الحكاية

يقول لهم : كونوا منطقيين وافهموا النص ، فربنا يقول : « وتخفى فى نفسك » ، أنتم أخذتم منها أن النبى كان يريد أن يتزوجها . ولحق قال : « وتخفى فى نفسك ما الله مبديه » . فإذا كنت تريد أن تعرف ما أخفاه رسول الله ، فاعرف ما أبداه الله ، هذه هى عدالة الاستقبال ، وبدلا من أن تقول هذا الكلام كى تشفى مرض نفسك انظر كيف أعطاك ربنا من تفاصيل الحكاية . قال سبحانه « وتخفى فى نفسك ما الله مبديه » فماذا أبدى ربنا ؟ وحين يبدى ربنا أمرًا يكون هو عين ما أخفاه رسوله ، فلما ذهب زيد للنبى وقال له : أريد أن أفارق « برّة » قال له : « أمسك عليك زوجك » لأن رسول الله عَلِم مِنَ الله أنه يريد أن يزوجه « برة » التى هى امرأة زيد الذى تبناه كى ينهى مسألة التبنى ، وأن امرأة المتبنى لا تحرم على الرجل ، ويطبقها رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسه .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

لكنّ هناك أناس مدوال عندهم مرض فى قلوبهم ، وأناس منافقون ، والرسول عليه الصلاة والسلام أراد أن يكون هذا الأمر واردا من الله فى قرآنه . فلو كان قد قال هذا الأمر بمجرد الإيحاء الذى جعله الله بينه وبينه لقالوا : هذا كلام منه هو ؛ بذلك قال محمد صلى الله عليه وسلم لزيد : أمسك عليك زوجك ، فينزل ربنا الأمر كله قرآنا ، فلم يقل محمد الهمى ربنا ، أو ألقى فى روعى ، لا ، جاء هذا الأمر قرآنا ، ولذلك يقدم الحق سبحانه وتعالى هذه المسألة فى سورة الأحزاب فيقول .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

فالله أنعم على زيد بالإسلام وأنعمت أنت يا رسول الله عليه بالتبنى فلا تخش الناس أن يقولوا . طلق المرأة من زيد ليتزوجها . كأن زواج « زيد » من « زينب » ، كان لغاية واحدة وهى أن تكون « بره » التى سماها رسول الله « زينب » منكوحة لزيد الذى تبناه رسول الله بدليل : « فلما قضى زيد منها وطرا » أى أدى المهمة ، فأردنا أن نعطى الحكم : « زوّجناها » فمن الذى زوّج ؟ إنه الله ، وليس رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى تزوج .

فإن كنتم تريدون أن تصعدوا المسألة فاتركوا رسول الله فى حاله ، وصعدوها إلى ربنا ، فقوله سبحانه : « فلما قضى زيد منها وطرا » يدل على أن أصل الزواج من البداية معهد له ، فالغاية منه أن يقضى زيد منها وطرا وهو متبنى رسول الله ، ويكون هذا الزواج عن كره منها ، إنها غير موافقة عليه ، وتنتقل المسألة عند زيد إلى عزة

ويقول : لا أريدها . ويذهب إلى الرسول ويقول : أريد أن أطلق « برّة » فيقول له الرسول : « أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه » . والذى أبداه الله هو قوله لرسوله « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها » كأن الغاية من النكاح أن يقضى زيد منها وطرا وتنتهى الحكاية بالنسبة لزيد ، ويأتى الحكم بالنسبة لرسول الله فيقول ربُّنا : « زوجناكها » .

فالذى يريد أن يمسك المسألة لا يمسكها على الرسول ، لكن عليه أن يصعدها إلى ربنا ، « زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا » . كأن العملية جاءت من أجل أن ما أبداه ربنا فى زواج الرجل من مطلقة الولد المتبنى إذا قضى منها وطرا ، هذا ما أبداه ربنا ، إن الله حكم بأن الذى أخفاه النبى صلى الله عليه وسلم سيبديه ، إن الوحى هو الذى بيّن السبب الباعث على زواج الرسول بزينب إنه قوله تعالى : « لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا »

فالعلة فى هذه العملية . يا ناس ، يا محمد ، يا زيد ، يا زينب ، أو يا من يحب أن يوجد ، العلة فى كل ذلك علة إلهية من كمال إلهى وعدل إلهى يتركز فى قوله سبحانه « لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا » ، والأدعياء . هم الذين يتبنوهم من غير ولادة .

ومادام ربنا يريد أمرا فلا بد أن يفعل ، وأنتم آمنتم بأنه رسول ، وإن لم تؤمنوا بأنه رسول يكون تكذيبكم برسالته أكبر من أنكم تنقدون تصرفه ، فإن كنتم مكذبين أنه رسول ، فما شأنكم إذن ؟ إن تكذيبكم له كرسول هو أشد من أن تنقدوا تصرف من تصرفاته بأنه تزوج ممن كانت امرأة ابنه المتبنى . وإن آمنتم بأنه رسول ، فهذا الرسول مبلغ عن الله .

إذن ففعل الرسول المبلغ عن الله هو الميزان للأعمال لا ما تنصبونه أنتم من موازين أتقولون للرسول الذى أرسله ربنا كى يبلغ منهجه ويطبق هذا المنهج ويكون هو ميزانا للتصرفات ، تقولون له : سنأخذ تصرفاتك ونعيدها على الميزان

الذي نضعه ؟ ما كان يصح أن يفعل أحد هذا ، فإن قلت ذلك فقد عطلت الميزان من عندك ، ونقلت الأمر إلى غير الحق ، وهذا أول خطأ ؛ فالأصل في الرسول أن كل فعل له هو الكمال ، ولا تأتي أنت بميزان الكمال وتأتي للرسول وتقول له : كيف فعلت هذه العملية ؟ لأنك عندما تقول ذلك فقد نصبت ميزان كمال من عندك ، وتأخذ تصرف الرسول لتزنه بميزان الكمال من عندك ، وهذا مناقض للحق لأنك آمنت بأنه رسول .

وبعد ذلك يأتي بالقضية العامة ليقول سبحانه :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وكلمة « أبا أحد » أي لم يكن أباً لأحد ، ماذا تفهم منها ؟ نفهم منها أنه أبوكم كلكم ، « ما كان محمد أبا أحد » لأنه أبو لجميع ، بدليل أن أزواجه أمهاتكم ، وحرمات عليكم ، فهو إذن والدكم كلكم ؛ إذن فخذ بالك من دقة الأداء « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » وبمنطق الواقع هو أب لكم كلكم ؛ لذلك هو لا يأخذ واحداً فقط ويقول : هذا ابني ، لا ، هو أب لكم كلكم وكل المؤمنين أولاده بدليل أن أزواجه أمهات لهم ، قد يقول واحد : لقد كان عنده أبناء .

نقول له : إن أبناءه لم يبلغوا سن الرجولة ، وهب أنهم بلغوا سن الرجولة حتى باعتبار ما سيكون. فهؤلاء ليسوا رجالكم ولكنهم رجاله « ولكن رسول الله وخاتم النبيين » والرسالة وختم النبوة به فوق شرف الأبوة . وجاء الحق بذلك حتى لا يحزن زيد ، فرسول الله قد شرفه ، وإن شرفك يا زيد أنك كنت تدعى ابن محمد ، فما يشرفك أكثر أنك مؤمن بمحمد كرسول ، فالعظمة في محمد صلى الله عليه وسلم أنه جاء رسولاً .

ولذلك قلنا : إن هذه جعلت نبوة الدم بلا قيمة عند الأنبياء ، ونجد أن النبي جاء بسليمان وهو من فارس وليس من قبيلته ولا هو بعربي وقال :

(سلمان منا آل البيت)[1]

وقول الحق « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » بمفهوم العبارة ونصها الذوقي والأدائي والأسلوبي أنه أبوكم كلكم ، فلا ينفرد به أحد دون الآخر ، « ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً » وعندما كان زيدٌ ابنَ محمد ، أصبح زيدا ابن حارثة ، ومحمد هو رسول الله ، ومادمت أنت مؤمنا به - يا زيد - فرسول الله عنده تعويض إلهاء الأبوة بالنسبة لك ، ثم إنك داخل في الأبوة العامة من رسول الله للمؤمنين ؛ لأنك آمنت به كرسول . إذن فعندما نحقق في هذه العبارة نجد أنه يُسمِّي زيدًا أيضاً . وخير من هذا - أنك يا زيد - إن فقدت بين الناس اسم زيد ابن محمد ، وكنت تجعل ذلك شرفاً لك ، فأنت الوحيد من صحابة رسول الله الذي يُذكر في القرآن باسمه الشخصي ، وتصبح كلمة « زيد » قرآنا يُذكر ويُتلى ، ويتعبد بتلاوته ، ومعجوزا على الألسنة ؛ ومرفوع الذكر . إذن فقد عوضك الله يا زيد ، فقد قال الحق . « فلما قضى زيد منها وطراً » وهب أنه بقي زيد ابن محمد ، فما الذي يحدث ؟ سنقرأه في السيرة ، لكن يرتفع شرف ذلك عندما نقرأها في كتاب الله المعجزة المتعبد بتلاوته ، الذي ضمن الله حفظه ، فقد ضمن الله تخليد اسم زيد إلى أن تقوم الساعة ، إذن فذكره كزيد ابن محمد في حياته أولى أو ذكر زيد في القرآن ؟ بل ذكر اسمه في القرآن أولى ، « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً »

إذن فقول الحق سبحانه - « وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم » يدل على أن حلائل الأبناء المتبنين حل لكم ، بعد أن كانوا - في الجاهلية - يحرمون ذلك ، ويقول الحق من بعد ذلك « وأن تجمعوا بين الأختين » وتحريم الجمع في الزواج بين الأختين لأن بينهن رحماً يجب أن تظل معه المودة والرحمة والصفاء ، لكن إذا كانتا تحت رجل واحد تحدث عداوة ، « وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفوراً رحيماً » وهذا الجزء من الآية « وأن تجمعوا بين الأختين » مع استثناء الحق

في قوله : « وأحل لكم ما وراء ذلك » قد حصل في فهمها والمراد منها خلاف .

---

(١) رواه الطبراني في الكبير ورواه الحاكم في المستدرك

ونقول أولا المرأة فى ملك اليمين ليس لها حق قِبَلَ سيدها فى أن يطأها أو يستمتع بها ، فملك اليمين لا يوجب على السيد أن يجعل إماءه أمهات أولاد

إنّ الأمام عليا ـ رضى الله عنه وكرّم الله وجهه ـ وسيدنا عثمان ـ رضى الله عنه ـ أخذ كل واحد منهما موقفاً ، فسيدنا عثمان سئل عن الأختين مما ملكت اليمين ؟ فقال : « لا أمرك ولا أنهاك أحلتهما آية وحرّمتهما آية » فتوقف رضى الله عنه ولم يفت . أما سيدنا علىّ فقد حرم الجمع فى وطء الأختين بملك اليمين ، أما التملك من غير وطء فهو حلال ، وهذا هو الذى عليه أهل العلم بكتاب الله ولا اعتبار برأى من شذ عن ذلك من أهل الظاهر

ويتابع الحق . « إلا ما قد سلف إن الله كان غفوراً رحيماً » أى أن هذا الأمر مادام قد سلف قبل أن يشرع الله ، فهو سبحانه من غفرانه ورحمته لم يؤاخذنا بالقانون الرجعى ، فلا تجريم إلا بنص ولا عقوبة إلا بتجريم ، ومادام الحكم لم يأت إلا الآن فيطبق من الآن ولا يصح أن يجمع أحدٌ أختين غته فى نكاح أو فى وطء بملك يمين ، ولا يجمع أيضا بينهما فى زواج من إحداهما ووطء بملك يمين لأخرى .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾

وقول الحق : « والمحصنات من النساء » هو قول معطوف على ما جاء في الآية السابقة من المحرمات ، أي سيضم إلى المحرمات السابقات المحصنات من النساء ، ومن هن المحصنات من النساء ؟ الأصل في الاشتقاق عادة يوجد معنى مشتركا فهذه مأخوذة من « الحصن » ، وهو مكان يتحصن فيه القوم من عدوهم ، فإذا تحصنوا به امتنعوا على عدوهم . . أما إذا لم يكونوا محصنين فهم عرضة أن يُغير عليهم عدوهم ويأخذهم ، هذا هو أصل الحصن ، والاشتقاقات التي أخذت من هذه كثيرة : منها ما جاء في قوله تعالى :

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾

(من الآية ١٢ سورة التحريم)

و« أحصنت فرجها » يعني أنها عفت ومنعت أي إنسان أن يقترب منها ، وهنا قوله : « والمحصنات » في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، المقصود بها المتزوجات ، فما دامت المرأة متزوجة ، فيكون بضعها مشغولاً بالغير ، فيمتنع أن يأخذه أحد ، وهي تمتنع عن أي طارىء جديد يفد على عقدها مع زوجها . هذا معنى « المحصنات من النساء » ، فالمحصنات هنا هن العفيفات بالزواج ، والحق يقول :

﴿ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة النساء)

فما دامت الإماء قد أحصن بالزواج ، هل يكن من المحصنات كالحرائر ؟ لا ، فهذه غير تلك ، فهن لا يدخلن في المحصنات من الحرائر ، وإلا لو دخلن في المحصنات يكون الحكم واحداً ، فهو سبحانه يقول : « فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » ، وأصل الإحصان وهو العفة . . توصف به الحرة ، لأن الحرة عادة لا يقربها أحد . وهذه امرأة أبي سفيان في بيعة النساء قالت : وهل تزني الحرة؟ كأن الزنا كان خاصا بالإماء ؛ لأنهن المهينات . وليس لهن أب أو أم أو عرض ، قد يغار عليها أي واحد ، وليس لها شوكة

ولا أعل ، ولذلك جاء عقابه نصف عذاب الحرة ؛ لأن الأمة يحرم حرها من الناس من تسوّل له نفسه فعل الفاحشة .

إذن فالإحصان يُطلق ويراد به العفة ، ويطلق الإحصان ويراد به أن تكون حرة ، ويطلق الإحصان ويقصد به أن تكون متزوجة ، وتطلق المحصنات على الحرائر فالوضع العام للحرة هو الذى يجعل لها أهلاً ولا يجترىء عليها أحد ، لكن هَبْ أن امرأة متزوجة ثم حدث خلاف أو حرب بين قومها وبين المؤمنين وصارت أسيرة لدى المسلمين مع أنها متزوجة بطريقتهم فى بلادها ، وهى بالأسر قد انتقلت من هذا الزواج وجاءت فى البيئة الإسلامية وصارت مملوكة ، ومملوكيتها وأسرّها اسقطت عنها الإحصان ، فقال : « إلا ما ملكت أيمانكم » .

إذن فهى بملك اليمين يسقط عنها الإحصان ، ويلمسلم أن يتزوجها أو أن يستمتع بها إذا دخلت فى ملكه وإن كانت متزوجة لأن هناك اختلافاً فى الدارين ، هى فى دار الإسلام ، وخرجت من دار حرب فصارت ملك يمين ، ولا يكون هذا إلا بعد استبرائها والاستيثاق من خلو رحمها من جنين يكون قد جاءت به من قومها لقوله صلى الله عليه وسلم فى سبايا أوطاس « لا توطأ حامل حتى تضع ، ولا غير ذات حمل حتى تحيض » وهذا تكريم لها لأنها عندما بعدت عن زوجها وصارت مملوكة ملك يمين فلم يرد الحق أن يعضلها بل جعلها تتمتع بسيدها وتعيش فى كنفه كى لا تكون محرومة من التواصل العاطفى والجسدى ، بدلاً من أن يلغ سيدها فى أعراض الناس

« والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم » وهو كتاب الله يعنى : كَتَبَ الله ذلك كتاباً عليكم ، وهو أمر مسجل موثق ، وكما هو كتاب عليكم فهو لكم أيضاً ، ويقول الحق : « وأحل لكم ما وراء ذلكم » . إذن فالمحرمات هن : محرمات نسب ، ومحرمات رضاع ، ومحرمات إحصان بزواج .

« وأحل لكم ما وراء ذلكم » أى أحل لكم أن تتزوجوهن ، ولذلك قال : « وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا » أى تطلبوا « بأموالكم محصنين » ولقائل نعلم أنه ثمرة الحركة والحركة تقتضى التعب والمشقة ، وكل إنسان يحب ثمرة عمله ، وقد يدافع عنها إلى أن يموت دون ماله ؛ لأن المال ما جاء إلا ثمرة جدّ ، وحق إذا

ما جاء المال عن ميراث ؛ فالذي ورثك أيضاً ما ورثك إلا نتيجة كدّ وتعب ، وعرفنا أن الذي يتعب مدّة من الزمن تساوي عشر سنوات قد يورثه الله ما يكفيه أن يعيش بعدها مرتاحاً ، والذي يتعب عشرين سنة قد يورثه الله ما يكفيه أن يعيش ولده مرتاحاً ، والذي يتعب ثلاثين سنة يعيش حفيده مرتاحا

إذن فكل ما تراه من مال موروث كان نتيجة جدّ وكدّ ومشقة من الآباء ، وإذا ما قال الحق : « أن تبتغوا بأموالكم » دلّ على أن مقابل البضع يكون من جهة الرجل . « أن تبتغوا بأموالكم » التي قال عنها سيدنا رسول الله : (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)[1] .

ومادام المال عزيزاً على الإنسان وأخذه من طريق الحركة وطريق الجدّ وطريق العرق فيجب ألا ينفقه إلا فيما يعود عليه بالخير العاجل ولا ينسى الخير الآجل ، فإن هو حقق به خيراً عاجلاً ثم سها وغفل عن شرّ آجل فهو لم يضع المال في موضعه . « أن تبتغوا بأموالكم محصنين » و« محصنين » كما عرفنا لها معان متعددة . « محصنين » أي متعففين أن تلغوا وتقعوا في أعراض الناس بأموالكم ، أي ضع مالك الذي كسبته بكدّ فيما يعود عليك بالخير العاجل والآجل ، فلا تلغوا به في أعراض الناس ؛ لأنه من الممكن أن يبتغي إنسان لقاء امرأة بأمواله لكنه غير محصن ، ونقول له : أنت حققت لذة ونفعاً عاجلاً ولكنك ذهلت عن شرّ آجل ، يقول فيها ربنا : « محصنين غير مسافحين » ومنه أخذ السِفاح .

فإياك أن تدفع أموالك لكي تأخذ واحدة تقضي معها وطراً . فكلمة « محصنين » تعني التزام العفة ، وشرح الحق كلمة محصنين بمقابلها وهو . مسافحين ، من السفح وهو . الصب ، والصب هطول ونزول الماء بقوة ، فالماء قد ينزل نقطة نقطة ، إنما السفح صبٌّ ، ولذلك سمي سمح الجبل بذلك لأن الماء ينزل من كل الجبل مصبوباً .

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبوداود والترمذي والنسائي عن عبدالله بن مسعود

هـ يلاحظ أن الحق حين يتكلم عن الرجال يقول « محصنين » بكسر الصاد ، وحين يتكلم عن النساء يقول « محصنات » بالفتح لم يقل « محصنات » بالكسرة ، لأن العادة أن الذكورة هي الصفة دائماً للأنوثة ، والأنوثة مصونة دائماً

« غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن » والاستمتاع هو إدراك متعة للنفس ، والمتعة توجد أولا في الخطبة ، ساعة يخطب رجل امرأة فهذا استمتاع ، وساعة يعقد عليها وساعة ترف له ، هذه كلها مقدمات طويلة في الاستمتاع ، لكن الاستمتاع ليس هو الغرض فقط ، يقول لك إذا استمتعت بهن فلا بد أن تعطيهن مهورهن ، ولذلك إذا تزوج رجل بامرأة ثم طلقها قبل أن يدخل بها نقول له : ادفع نصف المهر ، لأنك أخذت نصف المتعة ، فلو أن المتعة هي العملية الجنسية فقط لم يكن قد أخذ شيئا وبالتالي فلا شيء عليه من المهر ، لكن نقول : إن المتعة في أنه تقدم إلى بنت فلان وخطب وعقد ، كل هذه مقدمات متعة ، فعندما يكون ذلك فإنه يكون قد استمتع بعض الشيء

الحق سبحانه وتعالى يريد منا أن نبني حياة الأسرة على طهر ، وعلى أمن ملكات ، فأنت تجد الرجل حين يكون بين أهله لا يجد غضاضة في أن يغلق عليها الباب ، لكن تصور وجوده مع امرأة دون زواج ، فالملكات النفسية تتصارع فيه ، ويتربص ، ويمكننا أن ننظر رجفته إذا سمع أي شيء ، لأن ملكاته ليست مسجمة ، هو سيمتع ملكة واحدة . لكن الملكات النفسية الباقية ملكات منزعة ، مما يدل على أن ما يفعله ليس أمرا طبيعيا ، ومادام ليس أمر طبيعيا فالملكات النفسية تناقضه ، الحق سبحانه وتعالى يريد أن نبني الأسرة على طهر وعلى أمن ، وهذا الأمن النفسي يعطي لكل ملكات النفس متعة

وقلنا من قبل إن الإنسان إذا كان له بنت ثم رأى شابا يمر كثير على البيت ويلتفت كثيرا إلى الشرفة ، ثم يقع بصر والد البنت عليه ، ماذا يكون موقفه ؟ تهيج كل جوارحه ، فإذا ما جاء الولد أو أبوه وطرق الباب وقال : يا فلان أنا أريد أن أخطب ابنتك لنفسي ، أو أريد ابنتك لابني . ماذا يكون موقف والد الفتاة ؟ إنه السرور والانشراح وتصبح الملكات راضية والنفس مطمئنة ، ويتم إعلان البهجة وهو الذي

يدعو الناس ويقيم عرسا ؛ لأن الذى خلق الزوجين الذكر والأنثى حينما شرع الالتقاء ، أعطى فى النفس البشرية وفى غرائب رضا بهذا الحكم بالالتقاء

ولذلك رُوى . « جَدَعَ الحلال أنف الغَيْرة »

أى أن من يغار على ابنته هو الذى يوجه الدعوات لزوجها ، فكأن الغيرة فيها حمية ، وإن طُبِّب عرض عن غير طريق خالق الأعراض فلا بد أن تهيج النفس ، فإن طلبه على وفق ما شرع خالق الأعراض تطمئن النفس وهذه عملية قد يكون من الصعب تصورها . من الذى يسبب لرضا ، ومن الذى يدفع فى القلب الحمية والغضب والثورة ؟ إنه ـ سبحانه ـ هو الذى يفعل ذلك .

والإنسان عليه أن يلتفت إلى أن كلاًّ منا مكون من ملكات متعددة ، فعقد الزواج وقول « زوجتك » و« زوجتك » وحضور الشهود ، ماذا يعمل فى ذرات تكوين النفس لكى تُسر ؟ إنها إرادة الحق . وهذا شىء معروف . وأنت حين يكون لك إنسان تعرفه فقط ، والإلف السيال بينك وبينه مازال فى أوله ، يكفى عندئذ تقابله أن تلقى عليه السلام وتنهى الأمر ، لكنْ هناك إنسان آخر لا يكفى هذ السيال الودى بينك وبينه ، بل لا بد أن تسلم عليه بيدك ؛ لأن هناك جاذبية ومودة ولكل منهما تأثير

إذن فعملية الود والولاء أمر يصنع تعبيرا كيماويا فى النفس ، ويكون التنافر إذا ما جاء النقاء عن طريق ما حرم الله ، والذى يأتى عن طريق ما شرع الله يحقق التجاذب . والشاعر عندما خاطب من يحب قال .

نأيتِ عنى وددتُه فاقتربتِ
وقضى الله بعدنا أن اجتمعنا
وتمنيته فلما التقينا
كان تسليمه علىَّ وداعا

كان الشاعر يريد تطويل أمد التسليم ومسافته كى يمتد ما عنده من الود ، وكأنه يريد أن يقول : أن التقيت مع من أوده فاحتفى فى واحتفيت فيه ، وهذا ناشىء عن الامتزاج

إذن فالتكوين لماطمى أو السيال أوجده الله كسيال التقاء . هذا إذ ما كان على شرع الله ، أما في الحالة الأخرى فهو سيال كرامية وما الذي يسبب ذلك ؟ إنه عطاء من الله وهو خالق الرجل وخالق المرأة ، فساعة يجيء للقاء على وفق ما شرع الله فلا تستبعد أن يعدل الخالق الذرات ، فعندما يحدث الامتزاج فلا بد أن الوفاء يأتي كنتيجة طبيعية وكذلك لولاء ، ويتحقق الانسجام هذا يجاب ، أما إذ كان التقاء على غير طريق الله فلا انسجام فيه وهذا سبب

إذن فالخلق سبحانه وتعالى يبقي الأسرة على هذا المعنى وأنتم تعلمون أن الانتقاءات التي تحدث عن غير طريق الله إنما تحدث في الخفاء ، وتكوره الثمرة ، فإن جاء منها أثر وحمل فسيلقى الوليد في الشارع ويكون لقيطا وقد يميتونه ، إنما الثمرة التي تأتي بالحل فالكل يفرح بها

فالحق سبحانه وتعالى يقول « وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن » والاستمتاع أشياء كثيرة ، وجاء الشيعة في قوله . « فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن » . وقالوا هذا نكاح المتعة بدليل أنه سبحانه سمى ما أخذ في نظير ذلك أجرًا ونقول : كلمة « أجر » هذه واردة في الزواج ، فسيدنا شعيب عندما جاءه سيدنا موسى عليه السلام قال له . أعطني أجر ثماني حجج . وسيأتي في الآية نفسها التي يتقولون بها ويقول : « وآتوهن أجورهن بالمعروف » . فسمى المهر « أجرًا » أيضا ، فلماذا تأخذون هذا المعنى ؟ هم يقولون . نكاح المتعة حدث . ونقول لهم نكاح المتعة حدث ولنظر إلى أسبابه .

إن هذا النكاح قد حصل على يد مشرع وله حكمة ، ولكن ماذا بعد أن أنهى المشرع هذا الحكم وانتقل إلى الرفيق الأعلى ؟ لقد أنهى الحكم ، إذ الرسول صلى الله عليه وسلم أحل زواج المتعة في فترة وجيزة حينما كانوا في غزوة من الغزوات ، وذهب قوم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنهم يريدون أن يبنوا حركة حياتهم على الإيمان الناصع كان من الممكن أن يواروا هذه المسألة عن الرسول ، إنهم قالوا له يا رسول الله أنستحصي ؟ أي نخصي أنفسنا ؟ فإذا ما الجهاد بطلب منا أن نكون

في هذا الموقع بعيد عن هذا فلنتخلص حتى لا يكون عندنا رغبة فأباح لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم رواج المتعة ، ولكنه أنهاهم ، والدليل على أنه نهاه ، أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ، وأنتم تعلمون منزلته - رضي الله عنه - من التشريع في أحكام الله ، إنه كان يقترح الاقتراح فيرون القرآن موافقا له ، يقول عمر ما يجيء واحد ليستمتع إلى أجل إلا رجمته

إذن انتهت المسألة وسيدنا علي - كرم الله وجهه - أقر نهي سيدنا عمر ، وقالوا إن ابن عباس قال به لكنه قال ، إني كنت قد أخطأت فيه ، ونعلم أن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجلسوا في فصول تعليمية لسماع الوحي ، بل كان كل منهم يذهب إلى رسول الله بعد أن يفرغ من عمله ، فهذا سمع وذلك لم يسمع وهذا هو السبب في أن هذا يروي وذاك لم يرو ، فسيدنا ابن عباس قال إني كنت أعرف مسألة المتعة ، ولم يصح عندي حتى منعها إلا في آخر حياتي

إذن فقول الشيعة ، إن المتعة موجودة هو نتيجة استدلال خاطئ ، فقوله سبحانه ، « فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن » علينا أن نقرنه بقوله أيضا في المهور في الآية السابقة ، « فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن » لأن هناك فرقا بين الثمن وبين الأجر ، فالثمن للعين ، والأجر للمنفعة من العين ، ولم يملك الرجل بضعه المرأة إنما ملك الانتفاع بالمرأة ، ومادام هو ملك انتفاع فيقال له أجر أيضا .

« فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة » أي أن الذي فرض ذلك هو ربنا « ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة » ونلحظ هنا أن هناك فرقا بين أن يشرع الحق حق ، وأن يترك باب الفضل مفتوحا ، فمن حقها أنها تأخذ المهر . لكن هذا إذن تراضت المرأة مع الرجل في ألا تأخذ المهر وتتنازل له عنه ؟ أو أن يعطيها أكثر من المهر ؟ هذا ما يدخل في قوله تعالى . « ولا تنسوا الفضل بينكم » ، فلا لوم ولا تثريب فيما يتراضى به الزوجان من بعد الفريضة ، وكلمة « تراضيتم » تدخل في قوله سبحانه

﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾

(من الآية ٤ سورة النساء)

وفى عصرنا نجد أن المرأة تأخذ مهرها من الرجل وتجهز منه أثاث البيت ، مع أن المفروض أن يجهز الرجل لزوجته لبيت وأن يبقى المهر كاملا لها ، ولكن التعاون هو الذى يعطى العطف والتكاتف .

ويذيل الحق الآية « إن الله كان عليما حكيما » إذن فكل أحكام الله مبنية على العلم بما يصلح خلقه ، ولا يغيب عنه أمر كى يؤخر تشريعه ، فتأخير التشريع يعنى أن الذى شرع عاب عن ذهنه جزئيات ما كانت فى باله ساعة شرع ، وحين يأتى الواقع يأتى له بجزئيات لم تكن موجودة ، فيضطر إلى إصدار تشريع جديد يستدرك به ما لم يكن فى باله . والذين يقولون . إن التشريع الإلهى لا يغطى حاجة البشر نقول لهم . من الذى سيعطيه ؟ أنتم يا مفكرون أتعدلون على الله ؟ إن الله يكشفكم أنكم تأتون بتفيهات ، وبعد ذلك يظهر عيبها وعوارها وأضطروا أن تعدلوا ، فسبحانه عليم حكيم فإذا أخر حكما عن ميعاده فقد اقتضت الحكمة أن يكون كذلك .

ومثال ذلك تحريم الخمر ، لم يجئ به مرة واحدة ، لأن الشىء الذى تحكمه العادة والإلف ، لا بد فيه من التريث ، وأن يصدر التشريع على مراحل ، وكل مرحلة تسهل المسألة بالنسبة لما سبقها ، ويكون الأمر صعبا إذا كان التشريع دفعة واحدة لأن ترك العادة دون تدرج يكون عسيرا شاقا ، لأن أهم شىء فى الخمر أنها تعود إلى الاعتياد ، بدليل أن مدمن الخمر عندما يمر عليه الوقت يضطر فيأخذ كأس ليستريح ، وأول مرحلة فى التحريم أن الحق كسر الاعتياد ، ومادامت هى عادة متأصلة فمن الصعب جدا أن يرفعها صاحبها من نفسه مرة واحدة فأولا جاء الأمر كعظة ، وبعد ذلك يقول . « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » ومادمت لا تشربها وأنت تصلى فكم مرة تصلى ؟ خمس مرات فى النهار ، إذن تعودك أن تترك وقتا من الأوقات غير ملتبس بالخمر ، وتكون قد تعودت على ترك الخمر طوال النهار وبعد ذلك يتدرج فيقول .

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

لكن الأحق عادة يرجح الإثم ويعمله، ومادام سبحانه قال . « فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » إذن فالإثم يترجح وبعد ذلك جعلها بعلمه ـ سبحانه ـ أمرًا نهائيا ، والحكمة شاءت أن يكون التحريم بالتدريج . ويضمن الحق على أن علمه وحكمته سوف بها إجراء الأحكام ، ولذلك قال

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(سورة البقرة)

وسبحانه عليم لا يخفى عليه شيء ، ويعلم ان امرأة أحبت زوجها لدرجة أن هذا الأجر ليس له قيمة ، أو رجل أحب زوجته أيضا لدرجة أن النقود ليس لها قيمة عنده ، ومادام سبحانه حكيم فهو قد يجرى الأمور لا يحتمله ما افترض ، ولكن بإبقاء على فضل المتعاملين .

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ

أَلْمَنَتَ مِسكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾

والاستطاعة تعنى أن يدخل الشيء فى طاعتى فلا يعصى ولا يتأبى على ، وافرض أنى أمسكت قطعة حديد ولويتها ، هنا تكون قطعة الحديد قد دخلت فى طوعى ، ومثال ذلك ابنا آدم ، حين قدم كل منهما قربانا لله فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، فالذى لم يتقبل الله منه القربان قال :

﴿ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة المائدة)

فإذا كان ردُّ الذى تلقى التهديد ؟ قال :

﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ما معنى « طوعت له » ؟ طوعت يعنى : حملته فى استطاعته ، وعندما تمعن النظر فى « فطوعت له نفسه » تجد أن « الهاء » تشير إليه هو ، وذلك يدل على أن الإنسان فيه ملكات متعددة ؛ ملكة تقول : اقتله ، وملكة أخرى تقول له . لا تقتله ضميره يقول له : لا تفعل ، والنفس الأماره بالسوء تقول له . اقتل ، ويكون هو مترددا بين الأمرين

وقوله الحق : « فطوعت له » دليل على أن نفسه كانت متأبية عليه ، لكن النفس

الأمارة بالسوء طمعت وراءه بالإلحاح حتى أن نفسه لعاعلة طوعت له أن يقتل أخاه ، ومع أن نفسه طوعت له أن يقتل أخاه إلا أنه صبح بعد ذلك من النادمين ، وبعد أن أخذ شهوته من القتل ندم ، وبدأ هذا الندم على لسانه

﴿ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِي فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المائدة)

أنت الذي قتلته ، لكنك أصبحت من النادمين لماذا ؟ لأن ملكات الخير دائما تصعد عمل الخير وتحبط عمل الشر . والإنسان قد يبدأ شريرا ، وإن كانت ملكاته ملكات خير عالية ، فهو يترفع من هذا الشر العالي ويخجله ، وإن كانت ملكات الشر غالبة فهو يبدأ في الشر قليلا ثم يصعده ، فيقول في نفسه فلان فعل بي كذا وأريد أن أصفعه صفعة ، وبعد ذلك قد يرتدع من شره فيقول « أو أضربه ضربة » لكن إذا ما كان الإنسان خيّراً ، فيقول « فلان كذا لي ، أريد أن أضربه رصاصة أو اضربه صفعتين أو أوبخه » إنه يترفع من الشر ويصعد من الخير . كما في قصة سيدنا يوسف وإخوته حين قالوا

﴿ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝١٠ ﴾

(سورة يوسف)

إنهم أسباط ، وأولاد النبي يعقوب ، فيقلون من الشر ، يخففونه مباشرة قائلين : « أو اطرحوه أرضا » يعني يلقونه في أرض بعيدة ، إذن فخففوا القتل في نفس واحد ، كيف تم هذا الانتقال من القتل إلى اطرحوه أرضا ؟ ثم خففوا الأمر ثانية حتى لا يأكله سبع أو يتوه ، فقالوا « وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة »

إذن فقوله : « ومن لم يستطع منكم » أي من لم يستطع دخول الشيء في طوعه أو أن تطوله يداه . وهذا هو المقصود بالطول ، « فطالت يده » يعني صار في استطاعته ، وفلان تطول عليّ ، أي تفضل عليّ بشيء ، « وفلان تطاول عنّ » أي ما كان يصح أن يجتريء عليّ ، وكلها من الطول ، و« طولا » : تعني قدرة تطول بها الرواح بمن تحب ، أي أنت لا تملك مالا ولا تستطيع الطول ، فهناك مرحلة أخرى ، لا داعي للحيرة لأن مهرها عالٍ عالٍ ؛ فحد من الإماء الأسيرات لأن مؤنتهن ونفقتهن خفيفة ، وليس لها عصبة ولا أهل يجادلونك في المهر ، فقال « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » . والذي نلمحه في الآية ، أن نكاح ما ملكت اليمين يكون لغير مالكها ؛ لأن مالكها لا يحتاج ذلك ، إنه يستمتع بها ويتعشاها ، لأنها ملك يمينه وليست مملوكة للغير .

إذن فقد أباح الله للمسلم أن ينكح مما ملكت يمين غيره على شرط أن يكون ذلك بإذن مولاها ؛ لأنها بالرواج تقتطع جزءا من وقتها وخدمتها لمن يملك رقبتها ، فلا بد أن يُستأذن حتى يكون أمر انقطاعها إلى الزوج في بعض خدماته مما هو معلوم لأوليائهن ، وأمر أيضا سبحانه ألا ينتهين بأنها مملوكة ومهينة فلا يأتيها مهرها ، بل يجب أن يُؤدى لهؤلاء مهورهن بما يعرف ، أي بالمتعارف عليه ؛ لأن ذلك عوض البضع ، فإذا كان الحق قد أمر بأن نستأذن مواليهن وأمر بأن يأتيهن أجورهن ، هنا بعض الإشكال لأن المملوكة لا تملك ؛ لأن العبد وما ملكت يداه لسيده .

نقول له : نعم ، ولكن إذا قلت العبد وما ملكت يداه لسيده فلا بد أن تحقق لها ملكا أولا ثم يكون ما تملكه لسيدها أما أن تتعداها وتعطي المال لسيدها فإنها في هذه الحالة لم يتحقق لها مهر ، فقولك : لعبد وما ملكت يداه ، أي أعطها فترة وفرصة لتكون مالكة بأن تُعطى الأجر تكريما لها ، أما كون مالها لسيدها فهذا موضوع آخر وبعد ذلك تذهب لتزوجها إن ذلك يصح ، فهل فهم من ذلك أنك إذا استمعت طَوْلا لا تنكح الإماء ؟ لا . وهل هذا يقلل من شأن الإماء ؟ لا لماذا ؟ انظر للحكم العالية التي لا يعولها إلا رب .

الله يريد أن يصفي مسألة الرق ، فحين يأتي واحد ويتزوج أمة مملوكة لغيره

فأولادها يتبعونها فى الرق . فالأولاد فى الدين تتبع خير الأبوين ، وفى الحرية والرق يتبع الأولاد الأم ، فإذا ما تزوج إنسان أمة مملوكة لغيره فأولاده الذين سيأتون يكونون عبيدا وحين يتركها لسيدها ويتزوج غيرها من الحرائر ، فمن بقاء من سيدها يكون حرا ، إذن فسبحانه يريد أن يصفى الرق ، هذه واحدة ، الشىء الآخر أن الزواج التقاء الذكر بالأنثى ليكونا نواة أسرة ، فإذا ما كان الزوج والزوجة أكفاء فالزوج لا يجد فى نفسه تعاليا على الزوجة ، والزوجة لا تجد فى نفسها تعاليا على الزوج ؛ لأن كل واحد منهما كفء للآخر ، وهذه تضمن استقرار الحياة واتزان التعامل ، لكن حين يتزوج واحد أمةً ليس لها أهل فقد يستضعفها وقد يستعلى عليها وقد يذلها . وقد يعيرها ، وحين يكون لها أولاد قد يقولون لهم : ليس لكم خال مثلا . والمشرع يريد أن يبنى حياة أسرية متزنة ، ولذلك اشترط الكفاءة ، وقال .

﴿ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة النور)

وبعض من الناس تفهم عندما ترى طيبة فلا بد أن يتزوجها رجل طيب ، يقول لهم إن هذا تشريع والتشريع تكليف وعرضة أن يطاع وعرضة أن يعصى فسبحانه حين يشرع أن الطيبات يكن للطيبين والخبيثات للخبيثين ، فإن طبقتم التشريع تكون المسائل مستقيمة ، وهذا يحسم الرد على من يقولون مادام ربنا يقول « الطيبات للطيبين » فكيف يتزوج فلان بفلانة وأحدهما طيب والآخر خبيث ؟

ونقول : إن هذا الحكم ليس فى قضية كونية حدثت ، بل هو قضية تشريعية تقتضى منا أن نتبعه وأن نجعل الطيبين للطيبات والخبيثين للخبيثات يتحقق التوازن . فإن كان خبيثا وقال لها . أنت كذا وكذا تقول له : أنت كذا وكذا . فلا يقول هذه كى لا تقول له مثلها ، أما الإنسان العيب فهو يلين جانبه مرة وهى طيبة وتلين جانبها مرة

« ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات » كلمة « المحصنات » تعنى هنا الحرائر ؛ لأنها لو كانت متزوجة فلن تكون محل تزويج لآخر « فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » وكلمة « فتى » تطلقها فى الحر على من له

فتوة وشباب ، ويطلق كلمه فتاة على أى أمة ولو كانت عجوزا ، وعندما رسول الله ألا يقول هذا عبدى وهذه أمتى وإنما يقول « فتاى » و« فتاتى »

« فمن ما ملكت أيمانكم » ويتساءل البعض : وهل يتزوج الإنسان ممن يملكها ؟ نقول له لا إنها حلال له فهى مملوكة له ملك يمين ويستطيع أن يكون له منها ولد ، إذن فتكون ما ملكت أيمان غيركم ، لأن الله يخاطب المؤمنين على فهم وحلة بيانية ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا »[1] .

ويقول الحق .

﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓا أَنفُسَكُمْ ﴾

(من الآية ١١ سورة الحجرات)

ويقول فى موضع آخر

﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٦١ سورة النور)

فهل يسلم المؤمن على نفسه أو يسلم على من دخل عليهم ؟

إن الحق يريد بالتشريع أن يجعل المؤمنين كالجسد الواحد ، ولذلك قال أيضا :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة النساء)

أى لا تقتلوا غيركم ، والمعنى هو أن الوحدة الإيمانية يجب أن تجعلنا متكاتفين فى وحدة .

« فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم » . وقد تقول :

---

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى عن أبى موسى

إن إيمان ملك اليمين ضعيف وتحمله عبء يفوق لك الحق لا ، والله أعلم بإيمانكم ، ولعل الله خير في الإبقاء عليك ، لأن هذه مسألة دخائل قلوب ، وأنت يكفيك أن تعلم الظاهر

والحق سبحانه وتعالى حين يعالج الأمور يعالجه معالجة رب يعلم واقع ما خلق ويعطي كل مطلوبات المخلوق ، هو أولا أوضح . أنتم إن كنتم لا تستطيعون طولا أن تنكحوا المحصنات فانكحوا الإماء ، وهذا من أجل مزيد من تصفية الرق

بعد ذلك يقول « والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض » فإن كنت ستتزوج يجب أن تجعل نصب عينيك أمرا هو أن « بعضكم من بعض » أي أنكم جميعا من آدم ومادمت قد آمنت ، فالإيمان سوّى بينكم ، فإذا دعيت تتزوج فلا بد أن تضع هذا نصب عينيك ، إنه سبحانه يعالج واقعا

ويقول بعد ذلك : « فانكحوهن بإذن أهلهن » وهذا إشعار بأن من تحت يده فتاة يملك أمرها فعليه أن يعاملها معاملة الأهل ليعوّضها عن فقدتها عند أهلها هناك ، ولتشعر أنها في حصانة الإسلام مثلما كانت في حصانة أهلها وآبائها أو أكثر

إذن فالذي يملك لابد أن تجعل نفسه من الأهل ، وبذلك يزيد الحق سبحانه وتعالى من أبواب تصفية الرق ، وأوضح . فإن لم يُدخل واحد منكم مَن يملكه في هذا الصداق فسوف يقبه رقيقاً ، وإذن فعليه أن يطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا يكلفه ما لا يطيق ، فإن كلفه ما لا يطيق فبدك بيده وعندما يوجد معك إنسان تلبسه من لبسك وتطعمه من أكلك ، وعندما يعمل عملاً يصعب عليه فأنت تساعده ، فأي معاملة هذه ؟ إنها معاملة أهل .

انظر كم مسألة يعالجها الحق . يعالج طالب الزواج ويعالج المملوكة ، ويعالج السادة ، إنه تشريع ربّ الجميع . فلا يشرع لواحد على حساب آخر ومادامت ملك يمين وفيها سيّد فهذا السيد له مصالح لابد أن تستأديه ، فقد لا يستطيع أن يستغني عنها لأنها تخدمه ، فقال . « بإذن أهلهن » ، لكن في الظهور قال .

« فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف » فالأمة تنكح بإذن من يملكها كي يعرف أن هناك من دخل شريكا له في العملية ويأخذ الصبع وهو الروح ، وحين يُستأذن السيد ويزوّجها فهو يعلم أنها لم تعد له ، وبذلك لن يأخذها أحد من خلف ظهره ، وهو بالاستئذان والتزويج يرتب نفسه على أن الصبع قد أعلق بالسنة به ، وبقيت له ملكية الرقبة أما هناك الصبع فهو بالروح

« وآتوهن أجورهن بالمعروف » فإياكم أن تقولوا : هذه مملوكة يمين وأي شيء يرضيها ويكفيها ، لا فلها مهر بالمعروف أي بالمتعارف الذي يعطيها ميزان الكرامة في البيئة ، « محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان » وقلنا : إن المحصنة هي العفيفة ، « غير مسافحات » و« مسافحه » هي من تمارس وتزاول عملية الزنا ، ويسمونها مرأة عامه ، ومتخذات أخدان : أي يتخذن عشّاقا وأخدانا

« فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » أي إذا تزوجت الإماء وحافظت الواحدة منهن بفاحشة فلها عقاب أما إن لم تحصن فليس عليهن حاكم ويقوم سيدها بتعزيرها وتأديبها ؛ لأن الأمة عانه متبذلة ، لكن عندما تتزوج تصير محصنة ، فإن أتت بفاحشة نقول لها أنت لك عقابك الخصوصي ، لن يعافيك عقاب الحرّة ؛ لأن أجره يضعف عليها الزنا ، لكن الأمة قد لا يضعف عليها أن يحدث منها ذلك ، فليس لها أب ولا أخ ولا أسرة ، فقال : « فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » ، أي نصف ما على الحرائر من العذاب

لكن الخوارج أخذوا الكلمة في معنى من معانيها ليخدم قضية عندهم وقالوا : إن « المحصنات » هن المتزوجات ، هم يريدون أن يأخذوها بمعنى المتزوجات كي يقولوا مادامت الأمة عليها نصف ما على المتزوجة ، إذن فالمتزوجة ليس عليها رجم ؛ لأن الرجم لا ينصف والخوارج أخذوا هذه وقالوا : إن القرآن لا يوجد فيه رجم واكتفوا بجلد الزانية مائة جلدة

ونقول لهم أنتم أخذتم المحصنة على معنى أنها المتزوجة ، ونسيتم « ومن لم

يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات ، فالمحصنات هن الحرائر ، فلماذا أحللتم المحصنات هناك بمعنى الحرائر والمحصنات هنا بمعنى المتزوجات ؟! إن عليكم أن تأخذوها بمعنى الحرائر ولا حجة لكم في مثل هذا الباطل . وبذلك تسقط الحجة ، فالدليل إذا تسرب إليه الاحتمال سقط به الاستدلال

ثم نبحث بحثاً آخر ، نقول : يقول الحق « فعليهن نصف ما على المحصنات » لو أن الحكم على إطلاقه لما قال الحق « من العذاب » ، فكأن الذي عليها فيه النصف هو العذاب ، وما هو العذاب ؟ العذاب هو إيلام من يتألم ، والرجم ليس فيه عذاب لأنه عملية إنهاء حياة ، والآية تبين المناصفة فيما يكون عذاباً ، أما ما لا يكون عذاباً فهو لا ينصف والحكم غير متعلق به فالعذاب إنما يأتي لمن يتألم ، والألم فرع الحياة والرجم مزيل للحياة ، إذن فالرجم لا يعتبر من العذاب . والدليل على أن العذاب مقابل للموت أن الحق سبحانه وتعالى حينما حكى عن سيدنا سليمان وتفقده الطير قال .

﴿ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ ﴾

(من الآية ٢٠/٢١ سورة النمل)

فالذبح وإزهاق الحياة مقابل للعذاب ، فقوله : « نصف ما على المحصنات » فلنتكلم فيه الآن العذاب وليس الرجم ، وليس إزهاق الحياة وبهذا يسقط الاستدلال

والذين يقولون إن آيات القرآن لا تدل على رجم بمول لهم ومن الذي قال لكم إن القرآن جامع لكل أحكام منهج الله في الإسلام وأنه فصل كل شيء ؟ القرآن لم يجيء كتاب منهج فقط ، وإنما جاء معجزة وكتاب منهج للأصول ، ثم ترك للرسول صلى الله عليه وسلم أن يبين للناس ما نزل إليهم فضلاً على أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعض القرآن عنده تفويض من الله أن يشرع ، وتلك ميزة تميز بها صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين فالله قد أعطاه الحق في أن يشرع ، بدليل أنه سبحانه قال في صلب القرآن الذي يشتمل على أصول منهج الإسلام :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

إذن فللرسول عمل مع القرآن ، وإلا فليقل لى من يدّعى أنّ فى القرآن كل حكم من أحكام دين الله ، من أين أحد تفصيل حكم الصلوات الخمس ؟ ومن أى آية أحد أن الصبح ركعتان ؟ وأحد الظهر أربعاً وأحد العصر أربعاً ، والمغرب ثلاثاً ، والعشاء أربعاً ، من أين أحدها ؟! إذن لا يوجد شيء من ذلك . فما معنى ذلك ؟ معنى ذلك أن القرآن جاء كتاب معجزة وفيه منهج يتعلق بالأصول . ومادام المنهج الذى تعلق بأصول الأشياء قد أعطى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشرع ، إذن فتشريعه مأمور به ومأذون فيه من صلب القرآن ولذلك إذا جاء لك حكم من الأحكام وقال لك المعلم . هات لى هذا الحكم من القرآن ، ونظرت فى كتاب الله فلم تجد ، فقل له دليلى الحكم فى القرآن هو قول الله « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، وأى حكم من الأحكام يأتى ولا تجد له سنداً من كتاب الله ويقال لك : ما سنده ؟ قل : « وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »

والمنهج أوامر ونواهٍ . إذن فالطاعة أن تمتثل أمراً وتجتنب نهياً ، تلك هى الطاعة ، كل منهج أو دين أمر ونهى ، فامتثل الأمر واجتنب النهى وأنت إذا تصفحت القرآن وجدت آيات الطاعة المطلوبة من المؤمن بمنهج الله والذى شهد بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله تتمثل فى الأمر والنهى فإذا ما استقرأت القرآن وجدت - كما قلنا سابقاً - أن الحق سبحانه وتعالى يقول مرة فى الطاعة :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة آل عمران)

ولم يكرر الحق هنا أمر الطاعة ، فالطاع هو المكرر ، فهو « أطيعوا » أمر واحد ، تطيع من؟.. الله والرسول المطاع هنا هو الله ورسوله ، ومرة يكرر أمر الطاعة فيقول :

﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٩٢ سورة المائدة)

ومرة ثالثة يقول :

﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة النور)

ومرة رابعة يقول .

﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة النساء)

وادخل هنا أولى الأمر أيضاً ، إذن فمرة يأمر بالطاعة ويكرر المطاع فقط أى : يوحد أمر الطاعة ، ويكرر المطاع « قل أطيعوا الله والرسول » ، فوحد أمر الطاعة وكرر المطاع ، ومرة يكرر أمر الطاعة ، ويكرر معها المطاع . « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول » ، ومرة يقول « وأطيعوا الرسول » فإذا قال لك « أطيعوا الله والرسول » فالأمر قد توارد فيه حكم الله وحكم الرسول . إذن فتطيع فيه الله والرسول ، وإذا كان لله أمر إجمالي وللرسول أمر تفصيلي كالصلاة والزكاة والحج ، إذن فتطيع الله وتطيع الرسول

وإذا لم يكن لله أمر فيه بل جاء من باطن التفويض فى قوله سبحانه « وما اتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، فهذا الأمر أطيع فيه الرسول ، لأنه جاء فى آية أخرى قوله « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ، لماذا ؟ لأن الرسول عمل بالتفويض الذى أعطاه الله به حسب قول الحق : « وما اتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »

وبقيت طاعة أولى الأمر التى جاءت فى قوله « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » أى أطيعوا أولى الأمر من باطن طاعة الله وطاعة رسوله ، فلم يفرد ولى الأمر بطاعة وإنما جعل طاعته من « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » ، فلم يقل وأطيعوا أولى الأمر ، بل قال وأولى الأمر ، أى من باطن طاعة الله والرسول ، إنها دقة الأداء فى القرآن . تأمل ما يقوله الحق سبحانه . « وما اتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »

لقد قلت إن الطاعة امتثال أمر واجتناب نهي والموجود هنا « آتاكم » و« نهاكم » ، و« آتى » هذه جاءت بدل وما أمركم والنهي موجود بلفظة « وما نهاكم عنه » الأمر هو « آتاكم » ، ولماذا لم يقل وما أمركم به الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ؟ ولماذا لم يختصر فيقول : وما آتاكم الرسول فخذوه ؟! لأن الإتيان من الرسول إما أن يكون قولاً وإما أن يكون فعلاً ، ولكن أيكون المنهيّ عنه فعلاً يفعله الرسول ؟! لا يمكن

إذن فالنهي لا يتأتى إلا شيئاً وضعيا من الفعل ، لكن الإيتاء يكون قولاً أو فعلاً ، لأنه عندما يقول لك . لا تشرب الخمر ، فماذا كان يفعل النبي كي يأخذه من الفعل ؟ إن الرسول قطعا لم يشرب الخمر إذن فقول الرسول وفعله يتأتى في المأمور به ، وأما في المنهي عنه فلا يتأتى إلا قولاً بالله أمن الممكن أن يأتي بهذا عقل بشري ؟ لا يمكن ، ولا يقولها إلا الله .

ثم نبحث بحثاً آخر يا خواجا . إن الرسول إنما جاء ليبلغ عن الله ـ ومراد التبليغ أن يعلمنا بالحكم ، لنؤدي مدلوله ، فإذا جاء حكم قولاً بالنص ، فالذي يشرحه لنا هو ما يفعله الرسول ، وحين يفعله الرسول أيوجد مجال للكلام في هذا النص ؟ لا يوجد ، بل تكون المسألة منتهية . إذن فالفعل أقوى ألوان النص في الأوامر ؛ لأن الأمر قد يأتي كلاماً نظرياً ، وقد يتأول فيه البعض . لكن عندما يفعل الرسول يكون الحكم لازماً ، لأن الذي فعل هو المشرع .

أرجم رسول الله أم لم يرجم ؟ قد فعل رسول الله ذلك ، وفعله هو نص عمليّ . إنّ الفعل ليس نصاً قوليًا يُتأول فيه لقد رجم الرسول ماعزاً والغامدية ورجم اليهودي واليهوديه وكانا قد أحصنا بالزواج والحرية وفعل الرسول هو الأصل في الحكم فدليل الخواجا إذن قد سقط به الاستدلال وبقي ما فعله المشرع وهو الرسول المفوض من الله في أن يشرع قولاً أو فعلاً أو تقريراً ، أي يرى أحدا يفعل فعلا فيقرّه عليه .

ثم نبحثها بالعقل . إذا كنت تريد ألا يوجد في الرق حد إلا الجلد ، أتسوي بين من لم يتزوج ومن تزوج ؟ إن المتزوجة لها عرض ولها زوج ولها نسب وسكن . هل

هذه مثل تلك التي لم تتزوج ؟ إن هذا لا يتأتى أبدا بالعقل ، إذن فحكم الرجم موجود من فعل الرسول ، والدليل الذي استدل به الخوارج هو دليل تسرب إليه الاحتمال . والدليل إذا تسرب إليه الاحتمال سقط به الاستدلال .

« فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم » ومن هو المقصود بـ « ذلك » ؟ المقصود به إباحة نكاح الإماء لمن لم يجد طولا أن ينكح من الحرائر . وما هو « العنت » ؟ « العنت » هو المشقة والجهد ، وإرهاق الأعصاب ، وتلف الأخلاق والقيم ، لأن الإنسان إذا هاجت غرائزه إما أن يعف وإما أن ينغلت فإن انغلت فقد تسرب الفساد إلى قيمه وإلى خلقه ، وإذ لم يعفت والتزم ، فماذا يحدث ؟ سيقع بين انياب المرض النفسي وتأتيه الأمراض العصبية فأباح له الله أن يتزوج الأمة ، إذ لم يجد طولا في الزواج من الحرائر

وبذلك يكون مفهوم الآية إذ الذي لا يخشى العنت فليس ضروريا أن يتزوج الأمة[1] وليس هذا تزهيدا في الأمة بل فيه احترام لها ، لأنها إذا تزوجت ثم ولدت من تزوجته فسيصبح ولدها عبدا ، والله يريد أن ينهي الرق والعبودية ، فيوضح له دعها لسيدها فإن أعجبته وحلت في عينه ووطئها وجاءت منه بولد فستكون هي والولد من الأحرار إنهما قد دخلا في دائرة الحرية

إذن فالحق يريد أن ينهي الرق ، ثم قال . « وأن تصبروا خير لكم » أي وصبركم عن نكاح الإماء . وأنتم في عفة وطهر عن مقارفة الإثم إن ذلك خير لكم من زواجهن ، فنكاح الحرائر أفضل .

ويذيل الحق الآية . بقوله « والله غفور رحيم » أي إنه (غفور) لما قد يدر وحصل منكم من ذنوب استغفرتم ربكم منها (رحيم) بكم فلا يعاجلكم بالعقوبة شفقة عليكم ورحمة في رجوعكم إليه .

---

(١) من الفقهاء من يشترط لصحة نكاح الأمة شروطا هي ألا يجد ما يتزوج به امرأة حرة ، وأن تكون الأمة مسلمة وأن يخاف الوقوع في الإثم

ويقول الحق من بعد ذلك .

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

مادا يبين لنا ؟ إنه ـ سبحانه ـ يبين القوانين الحاكمة لانتظام الحياة ولنا إنه لا يمكن أن يوجد تجريم إلا بنص ولا توجد عقوبة إلا بتجريم . فحينما يعاقبك على أمر فهو يقول لك . هذه جريمة ونُص عليها ، إنه لا يأتى ليقول لك : فعلت الشيء الفلانى وهذه عقوبته ، لأنك قد تقول له . فعلت هذا الفعل من قبل ولم أعرف أنه جريمة وعليه عقوبة . إذن فلا يمكن أن تعاقب إلا إذا أجرمت ، ولا يمكن أن تجرم إلا بنص ، يريد الله أن يبصركم ببيان ما تصلح به حركة حياتكم ، والله أعلم بكم من أنفسكم ، لأنه هو سبحانه الذى خلق وهو يعلم من خلق .

إن سبحانه وحده ـ الذى يقنن ما يصلح مخلوقه ، أما أن يخلق هو وأنت تقنن فهذا عندنا ؛ لأنه سبحانه يقنن لما يعلم ـ ولله المثل الأعلى ـ وقلنا سابقا : إن المهندس الذى يصنع التليفزيون هو الذى يضع له قانون الصيانة ؛ لأنه هو الذى صمم الآلة ، وهو الجدير بأن يضع لها قانون صيانتها ، فيعلمنا : المفتاح هذا لكذا ، وهذا للصورة وهذا للصوت

إن الذى خلق الإنسان هو الذى يضع قانون صيانته المتمثل فى « افعل ولا تفعل » ، وترك سبحانه أمورا لم يرد فيها افعل ولا تفعل ، وهى متروكة على الإباحة ، تفعله أو لا تفعله ، إنه سبحانه « يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم » ، والسنة هى الناموس الحاكم لحركة الحياة . والحق يقول .

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

والرسل سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعرفنا الذين أطاعوا رسلهم ماذا حدث لهم ، والذين كذبوا رسلهم ماذا حدث لهم لقد قال الحق فى شأنهم

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

فالله يريد أن يبين لنا سنن من قبلنا ، أى الطرق التى حُكموا بها ، وماذا حدث لأهل الحق وماذا حدث لأهل الباطل . إذن فهو ليس نقيب أصم ، بل هو نقيب مسبوق بوقائع مؤكدة وموثقة ، « ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم » وهو سبحانه يبين ويوضح ويتوب ، « والله عليم » لأنه خالق ، « حكيم » يضع الأمر فى موضعه والنهى فى موضعه فالحكمة هى وضع الشىء فى موضعه ، وسبحانه يضعه عن علم ، فالعلم يقتضى اتساع المعلومات ، والحكمة هى وضع كل معلوم فى موقعه

وبعد ذلك يقول سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾

سبحانه قال فى الآية السابقة : « يريد الله ليبين لكم » ، وبعد ذلك يقول : « ويهديكم » ، وبعد ذلك « ويتوب عليكم » ، وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : « والله يريد أن يتوب عليكم » ، فلماذا جاء أولا بـ « ويتوب عليكم » وجاء هنا ثانيا بـ « والله يريد أن يتوب عليكم » ؟

بقبول التوبة لا بد أن تكون مشروعة أولا من الله ، وإلا فهل لك أن تتوب إلى الله من الذنب لم يشرع الله لك التوبة ؟ أتصح هذه التوبة ؟ إنه سبحانه إذن يشرع التوبة أولا ، وبعد ذلك أنت تتوب على ضوء ما شرع ، ويقبل هو التوبة ، وبذلك نكون أمام ثلاث مراحل أولا مشروعية التوبة من الله رحمة منه بنا ، ثم توبة العبد ، وبعد ذلك قبول الله التوبة ممن تاب رحمة منه ـ سبحانه ـ إذن فتوبة العبد بين توبتين من الرب . توبة تشريع ، وتوبة قبول

« والله يريد أن يتوب عليكم » . هذا سبحانه قد شرع التوبة أيشرعها ولا يقبلها ؟! لا ، فهذا قد شرع وعلىَّ أن أتوب فمعنى ذلك أنه فتح لى باب التوبة ، وفتحُ باب التوبة من رحمة العليم الحكيم بخلقه ، لأن الحق حينما خلق الإنسان زوده دون سائر الأجناس بطاقة من الاختيارات الفاعلة . أى أن الإنسان يستطيع أن يفعل هذه أو يفعل تلك ، وجعل أجهزته تصلح للأمر وللنهى . فالعين صالحة أن ترى بها فى كون الله تعتبر بها ، والعين ـ أيضا ـ صالحة أن تمتد إلى المحارم واللسان صالح أن تسب به ، وصالح أن تذكر الله به قائلا لا إله إلا الله وسائر أنواع الذكر واليد عضلاتها صالحة أن ترفعها وتضرب بها ، وصالحة لأن تقيل وترفع بها عائرا واقعاً فى الطريق

هذا هو معنى الاختيار فى القول وفى الفعل وفى الجوارح ، فالاختيار طاقة مطلقة توجهها إرادة المختار ، وإذا نظرت إلى اليد تجد أنك إذا أردت أن ترفعها ، فإنك لا تعرف شيئاً عن العضلات التى تستعملها كى ترفع اليد فالذى يرفع يده هل يعلم ؟ وما العضلات التى تخدم هذا الرفع ؟ وأنت ترى ذلك مثلا فى الإنسان الميكانيكى أو تراه فى رافعة الأثقال ـ الونش ـ التى ترفع الأشياء ، انظر كم عملية لتعمل ذلك ؟ أنت لا تعلم شيئاً عن هذه المسألة فى نفسك ، لكنك بمجرد أن تريد تحريك يدك فأنت تحركها وتطيعك وعندما يريد المهندس أن يحرك الإنسان الآلى فهو يوجهه بحسابات معينة ليعمل كذا وكذا ، أن الإنسان يحرك اليد أو القدم أو العين بمجرد الإرادة

والحق حين يسلب قدرة الإنسان ـ والعياذ بالله ـ يصيبه بالشلل ، إنه يريد

فلا تتعمل له اليد أو غيرها ولا يعلم ما الذى تعطل إلى أن يذهب إلى الأطباء ليبحثوا فى الجهاز العصبى ، ويعرفوا لماذا لم تتعد أعصابه الأوامر ، إنها عصبية طويلة . إذن فالإنسان ـ عندما يريد الحركة ـ يوجه الطاقة المخلوقة لله فقط ، فليس له عمل فى الحقيقة ، فإن أثابنى الله وجازانى على طاعة فذلك لأنى وجهت الآلة الصالحة للعمل إلى عمل الخير ، وعندما تسمع أنه لا أحد بيده أن يعمل شيئاً فهذا صحيح ؛ لأن أحداً لا يعرف كيف يعمل أى شىء ، إنه فقط يريد ، فإن وجهت الطاقة للعمل فهذا عملك أنت ، ومعنى الاختيار ـ إذن ـ أن تكون صالحاً للفعل ومقابل العمل وهو الانتهاء والترك

وعندما يبين الحق سبحانه وتعالى لك ويرسل لك المنهج الذى يقول لك : وجه طاقتك لهذه ولا توجهها لهذه ، معنى ذلك أن طاقتك صالحة للاثنين . إذن فأنت مخلوق على صلاحية أن تفعل وألا تفعل ، وما تركه المنهج دون أن يقول لك فيه « افعل » ولا « تفعل » فإن فعلته على أى وجه لا يفسد به الكون ولا تفسد به حركة حياتك فهذا هو المباح لك .

وحينما شرع الحق سبحانه التوبة أوضح أنه إذا انفعل مريد لعمل شىء فوجه طاقته لعمل شىء مخالف ، قد تكون شهوته أو شرّه قد غلب عليه ، فتوجه فى ساعة ضعف إلى عمل شرّ ؛ لذلك شرعت التوبة لماذا ؟ لأننا لو أخرجنا هذا الإنسان من حظيرة المطيعين بمجرد فعل أول عمل شرّ لصارت كل أعماله من بعد ذلك شروراً ، وهذا هو الذى نسميه « فاقداً » ، فيشرع الحق إن فعلت ذنباً فلا تيأس ، فنحن سنسامحك ونتوب عليك

فساعة شرع الله التوبة رحم المجتمع من شراسة أول عاصٍ ، فلو لم تأت هذه التوبة لكثرت المعاصى بعد أول معصية ومقابل قول الحق « والله يريد أن يتوب عليكم » ونسبه أن الذنوب التى فعلتها قبل ذلك يطهرك منها بالتوبة ، مقابل ذلك الذين يتبعون الشهوات ويريدون منك أن تأتى بذنوب جديدة ، لذلك يقول الحق سبحانه « ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا » والميل هو مطلق عمل الذنوب إنك بذلك تميل عن الحق ؛ لأن الميل هو انحراف عن جادة مرسومة لحكيم ، والجادة هى الطريق المستقيم

هذه الجادة من الذي صنعها ؟ إنه الحكيم . وإذا مال الإنسان مرّة فربما يعدله على الجادة مرّة ثانية ، ويقول له « أنا تبت عليك » ، إنه ـ سبحانه ـ يعمل ذلك كي يحمي العالم من شرّه ، لكن الذين يتبعون الشهوات لا يحبون لكم فقط أن تميلوا لمرّة واحدة ، بل يريدون لكم ميلاً موصوفا بأنه ميل عظيم . لماذا ؟ . لأن الإنسان بطبيعته ـ كما قلنا سابقاً ـ إن كان يكذب فإنه يحترم الصادق ، وإن كان خائناً فهو يحترم الأمين ، بدليل أنه إن كان خائناً وعنده شيء يخاف عليه فهو يختار واحداً أميناً ليضع هذا الشيء عنده

إذن فالأمانة والصدق والوفاء وكل هذه القيم أمور معترف بها بالفطرة ، فساعة يوجد إنسان لم يقو على حمل نفسه على جادة القيم ، ووجد هذا الإنسان واحداً آخر قدر على أن يحمل نفسه على جادة القيم فهو يصاب بالضيق الشديد ، وما الذي يشفيه ويريحه ؟ إنه لا يقدر أن يصوّب عمله وسلوكه ويقوّم من اعوجاج نفسه ، لذلك يحاول أن يجعل صاحب السلوك القويم منحرفاً مثله ، وإن كانت الصداقة ترتبط بين اثنين وانحرف أحدهما فانحرف يستحدي أمام نفسه بانحرافه ، ويحاول أن يشد صديقه إلى الانحراف كي لا يكون مكسور العين أمامه وهو لا يريده منحرفاً مثله فقط بل يريده أشد انحرافاً ، ليكون هو متميزاً عليه إذن فالقيم معترف بها أيضاً حتى لدى المنحرفين ، واذكروا جيداً أننا قرأنا في سورة يوسف هذا القول الحكيم .

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة يوسف)

هم في السجن مع يوسف ، لكن لكل منهم في أنهم سجنوه ، فهؤلاء الذين سألوا يوسف هو أنهم أجرموا ، لكن سبب وجود يوسف في السجن أنه بريء والبريء كل فكره في الله ، أما الذين انحرفوا ودخلوا معه السجن عندما ينظرون إليه يحمدونه على حاله حسنة ، بدليل أن أمراً جدهم وهمّهم في دائهم بأن رأوا رؤيا ،

فذهبوا لمن يعرفون أنه إنسان طيب برغم وجوده معهم فى السجن ، فقد أعجبوا به بدليل أنهم قالوا له . « إنا نراك من المحسنين » . ومن يقول : « إنا نراك من المحسنين » لابد أن تكون عنده قدرة على تمييز القيم ، ثم قاسوا فعل يوسف عليهم فوجدوها حسنة ، وإلا فكيف يُعرف ؟ . إذن فالقيم معروفة عندهم ، فلما جاء أمر يهمهم فى ذاتهم ذهبوا إلى يوسف

ومثال ذلك هناك لص لا يمل من السرقة ولا يكف عنها ، وبعد ذلك جاء له أمر يستدعيه للسفر إلى مكان غير مأمون ، فاللص فى هذه الحالة يبحث عن إنسان أمين ليقضى الليل عنده ولا يذهب للص مثله . إذن فالقيم هى القيم ، وعندما قال أصحاب يوسف فى السجن . « إنا نراك من المحسنين » ، استغل سيدنا يوسف هذه المسألة ووجدهم واثقين فيه فلم يقل لهم عن حكمتهم انتداء وبزول لهم الرؤيا ، بل استغل حاجتهم إليه وعرض عليهم الإيمان قال :

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة يوسف)

لقد فهمهم من حكايتهم لحكايته ، فهاهما يريدان استغلال حسنه فلماذا لا يستغل حاجتهم له ويعطيها ويشرحها بدين الله ؟ وكأنه يقول لهما : أنتما جئتما إلىّ لأنكما تقولان إنى من المحسنين وأنتما لم تريا كل ما عندى بل إن الله أعطانى الكثير من فيضه وفضله ، ويقول الحق على لسان يوسف :

﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة يوسف)

أى أن يوسف الصديق عنده الكثير من العلم ، ويقر هو بفضل الله عليه فليس هذا العلم من عندى

﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة يوسف)

وبعد ذلك يدعوهما لعبادة الإله الواحد كى يستبدلا به بدلاً من الآلهة المتعددة

التى يتخذانها معبودا فى وهى لا تضر ولا تنفع .

﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة يوسف)

إذن فالقيم واحدة ، والله يريد أن يتوب عليكم ، ولكن الذين يتبعون الشهوات يريدون أن تميلوا ميلاً عظيماً ، حتى لا تكونوا مميزين عنهم تميزاً يحقرهم أمام أنفسهم ، فهم يريدون أن تكونوا فى الانحراف أكثر منهم ، لأنهم يريدون أن يكونوا متميزين فى الخير أيضا ويقولون لأنفسهم . « إن كنا شريرين فهناك أناس شرٌ منا »

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾

سبحانه بعد أن قال : « يريد الله ليبين لكم » ليبصر ، و « الله يريد أن يتوب عليكم » ليعمر ، والآن يقول : « يريد الله أن يخفف عنكم » ليسر ، وهى ثلاثة أمور هامة . ويقول سيدنا ابن عباس - رضى الله عنه وعن أبيه - : « فى سورة النساء ثمان آيات لأمة محمد هى خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب

الأولى قول الحق .

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

والثانية هى قول الحق :

﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة النساء)

والثالثة هى قول الحق :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة النساء)

والرابعة هى قول الحق :

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة النساء)

والخامسة هى قول الحق :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة النساء)

والسادسة هى قوله سبحانه :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

والسابعة هى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

والثامنة هى قوله تعالى :

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾

(سورة النساء)

هذه هى الآيات الثمانى التى لم تؤت مثلها أى أمة إلا أمة محمد عليه الصلاة والسلام ومنها قول الحق : « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا » . وما هو ضعف الإنسان ؟ . الضعف هو أن تستبله المغريات ولا يملك القدرة على استصحاب المكافأة على الطاعة أو الجزاء على المعصية ، لأن الذى تتفتح نفسه إلى شهوة مايستعذبه غالباً ـ خاطر العقوبة ، وعلى سبيل المثال ، لو أن السارق وضع فى

ذهنه أن يده ستقطع إن سرق ، فسيتردد في السرقة ، لكنه يقدر لنفسه السلامة ويقول : أنا أحتاج وأعمل كذا وكذ كي أحرج .

إذن فضعف الإنسان من ناحية أن الله جعله مختارا تستهويه الشهوات العاجلة ، لكنه لو جمع الشهوات أو صعد الشهوات فلن يجد شهوة أحظى بالاهتمام من أن يفوز برضاء ولقاء الله في الآخرة .

وقوله الحق . « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا » نلحظ فيه أن التخفيف مناسب للضعف ، والضعف جاء من ناحية أن الإنسان أصبح مختاراً وخاصة في أمور التكليف ، فالذي جعل فيه الضعف جعله مختاراً يفعل كذ أو يفعل كذا ولكل أمر معرياته ، ومعريات الشهوات حاضرة . ومعريات الطاعة مستقبلة . فهو يغلب دائماً جانب الحاضر على جانب المستقبل .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾

وعندما يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفت خلقه إلى أن يؤمنوا به يلفتهم إلى الكون ، ويلفتهم إلى ما خلق الله من ظواهر ليتأكدوا أن هذه الظواهر لا يمكن أن تكون قد نشأت إلا عن قادر عليم حكيم . فإذا ما انتهوا إلى الإيمان به استقبلوا التكليف الذي يتمثل في افعل كذا ولا تفعل كذا ، فحين يخاطبهم بالتكليف يجعل لأمر التكليف مقدمة هي أنك ألزمت نفسك في أن تدخل إلى هذا التكليف ، ولم يرغمك الله على أن تكون مكلفاً ، وإنما أنت دخلت إلى الإيمان بالله باختيارك

وطواعيتك ومادمت قد دخلت على الإيمان باختيارك وطواعيتك فاجعل إيمانك بالله حيثية كل حكم يحكم به الله عليك من افعل كذا ولا تفعل كذا ، ولا تقل : لماذا أفعل كذا يارب ، ولماذا لا أفعل كذا يارب ؟ بل يكفي أن تقول : الذي آمنت به إلها حكيماً قادراً هو سبحانه مأمون على أن يأمرني وأن ينهاني ولذلك يجيء الحق دائما قبل آيات التكليف بقوله سبحانه « ياأيها الذين آمنوا » فهو لم يكلف مطلق الناس ، وإنما كلف من آمن به

إذن فحين يكلف من آمن به لا يكون قد اشتط وجار عليه لأنه قد آمن به بمحض اختياره .

وإذا لقتُ إنسانا ونبهته وأمرته بأمر تكليفي مثل صَلِّ ، أو امتنع عن فعل المنكر فقال لك : « لا إكراه في الدين » هنا يجب أن تقول له أنت لم تفهم معنى قول الحق « لا إكراه في الدين » فأصل التدين والإيمان بالله ألاّ يكرهك أحد عليه ، بل ادخل إلى الإيمان بالله باختيارك ، لكن إذا دخلت إلى الإيمان بالله فالتزم بالسماع من الله في « افعل » و « لا تفعل » فحين يقول الحق « ياأيها الذين آمنوا » فهو يعطينا حيثيات التكليف ، أي علة الحكم . فعلّة الحكم أنك آمنت بالله إلهاً حكيماً قادراً ومادمت آمنت بالله إلها حكيماً قادراً فسلم زمام الأوامر والنواهي له سبحانه ، فإن وقفت في أمر بشيء أو نهي عن شيء فراجع إيمانك بالله .

إذن فقوله : « لا إكراه في الدين » أي أنك حر على أن تدخل في الإيمان بالله أو لا تدخل ، لكن إذا ما دخلت فإياك أن تكسر حكماً من أحكام الله الذي آمنت به ، وإن كسرت حكماً من أحكام الله تدخل معنا في إشكال ارتكاب السيئات أو الذنوب .

والأحكام التي سبقت للذين آمنوا هي أحكام تعلقت بالأعراض وبإنشاء الأسرة على نظام ظاهر نقي كي يأتي التكاثر تكاثراً نقياً طاهراً ، وتكلمت الآيات عن المحرمات من النساء وكذلك المحللات ؛ وهاهو ذا سبحانه يتكلم عن المال ، وهو الذي يقيم الحياة ، والمال كما نعرف ثمرة الجهد والمشقة ، وكل ما يتمول يعتبر مالاً ، إلا أن المال ينقسم قسمين . مال يمكن أن تنتفع به مباشرة ، فهناك من يملك

الطعام ، وآخر يملك الشراب ، وثالث يملك أثوابا، وهذا نوع من المال ينتفع به مباشرة ، وهناك نوع آخر من المال ، وهو « النقد » ولا ينتفع به مباشرة ، بل ينتفع به بإيجاد ما ينتفع به مباشرة .

وهكذا ينقسم المال إلى رزق مباشر ورزق غير مباشر والحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمي حركة الحياة ، لأنه بحماية حركة الحياة يغري المتحرك بأن يتحرك ويزداد حركة ولو لم يحم الحق حركة الحياة ، وثمرة حركة الحياة فماذا يقع ؟ تتعطل حركة الحياة

وإنا نلاحظ أن كل مجتمع لا يؤمن فيه على الغاية والثمرة من عمل الإنسان تقل حركة العمل فيه ، ويعمل كل واحد على قدر قوته ويقول لنفسه . لماذا أعمل ؟ لأنه غير آمن لكن إذا كان آمناً على ثمرة حركته يقريه الأمن على ماله على أن يزيد في حركة العمل ، وحين تزيد حركة العمل فالمجتمع ينتفع ولو لم يقصد المتحرك فليس ضرورياً أن يقصد الإنسان بكل حركته أن ينفع المجتمع . لا ، اجعله يعمل لنفع نفسه .

لقد ضربنا هذا المثل سابقاً : إنسان مثلاً عنده آلاف الخنزيرات وبعد ذلك وضعها في خزانة ثم تساءل لماذا أضعها في خزانة ؟ لماذا لا آتي بها بيتاً آخر وأكرى منه شقتين ، فسيأتيني منه عائد ؟ هل كان المجتمع في بال مثل هذا الإنسان ؟ لا ، إنه بالله مشغول بمصلحته ؛ لذلك فلنجعل مصلحة كل إنسان في ماله ، وهنا سيستفيد المجتمع بحركته قصد أو لم يقصد . لأنه ساعة يأتي ليحفر الأساس سيعطي أناساً أجورهم ؛ وساعة يأتي بالطوب يشتريه بثمن ، وساعة يبني يعطي المهندس والعمال أجورهم ، لذلك أقول : اعمل لنفسك في ضوء شرع الله ، وسينتفع المجتمع قهراً عنك

ومن العجيب أنك تريد أن تنفع نفسك فيُبَيِّن لك ربنا . أنت ستنفع غيرك قبل أن تنتفع بعائد المنزل الذي بنيته ، ولا تظن أن أحداً سيأخذ ورق ربنا ومن يجريه على الخلق ، لا ، إن المجتمع سينتفع بالرغم منك

إذن فمن حظ المجتمع أنْ تصون حركة الحياة . ويؤمن كل متحرك في الحياة على ماله . لكن إن كنا حاكمين يجب أن نكون أعينا مبصرة : أيكسب من حلّ أم لا ؟ فإذا كان الكسب حلالاً شكرناه ، أما إذا كان يكسب من حرام ، فنحن نسائله ، وإن عمل على غير هذا توقفت حركة الحياة ، وإن توقفت حركة الحياة فهذا أمر ضار بالدين لايقدرون على الحركة ، لماذا ؟ لأن الله قسم المواهب على الناس ، فليس كل واحد من الناس يملك الطموح الحركي ، ولا يملك كل إنسان فكراً يخطط به ، فقد لا يكون في المجتمع إلا قلة تخطط ، والباقون هم جوارح تتفعل للمفكر المخطط ، والمفكر يعمل جوارح كثيرة ، فكذلك يكون هناك مفكر واحد هو الذي يضع خطة ينتفع بها الكثير من الناس .

إذن فلا بد أن نرعى حركة المتحرك وسعيها ، لأن المجتمع ينتفع منها ، وإن لم يقصد المتحرك إلا مصلحة نفسه ، صحيح أن الذي ليس في باله إلا نفسه إنما يخط ثواب عمله ، وصحيح أن من يضع الناس في باله إنما يُنمي ثمرة عمله ويأخذ ثواباً أيضاً من الله .

والحق سبحانه وتعالى يأتي في مسائل المال ويوضحها توضيحا تاماً ليحمي حركة الحياة ويُمري الناس بالحركة ـ وبذلك يتعدد المتحركون وتتعدد الحركات ، ويستفيد المجتمع ، فقال . « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » وساعة نجد أمراً للجماعة في جمع مأمور به فقسّم الأفراد على الأفراد .

مثال ذلك . عندما نقول لجماعة . اركبوا سياراتكم أي ليركب كل واحد منكم سيارته ، والمدرس يدخل الفصل ويقول للتلاميذ أخرجوا كتبكم . أي أن كل تلميذ عليه أن يخرج كتابه . فمقابلة الجمع بالجمع تقضي القسمة آحاداً ، وقول الحق . « لا تأكلوا » فهذا أمر لجمع . و« أموالكم » أيضا جمع ، فيكون معناه : لا يأكل كل واحد ماله ، وكيف لا يأكل كل واحد منكم ماله ؟ ـ يوضح الحق « بالباطل » . فيكون مطلوبا من كل واحد منكم ألا يأكل ماله بالباطل . والإنسان يأكل الشيء لينتفع به والحق يرضيك ويأمرك . إياك أن تصرف قرشاً من مالك وتضيعه إلا في حق . هذا إذا كنا سنقابل المفرد ، فلا يأكل واحد منكم ماله

بالباطل ، بل يوجهه إلى الأمر النافع ، الذي ليس فيه حرمة ، والذي لا يأتي بعذاب في الآخرة .

وإذا كان المراد أن لا أحد يأكل مال الآخر ، فسوضحه بالمثل الآتي . لنفترض أن تلميذاً قال لمدرسه . يا أستاذ قلمي كان هنا وضاع فيقول الأستاذ للتلاميذ لا تسرقوا أقلامكم ، فهل معنى ذلك أن الأستاذ يقول . لا يسرق كل واحد قلمه أو لا يسرق كل واحد قلم أخيه ، إذن فيكون المعنى الثاني « لا تأكلوا أموالكم » ، أي لا يأكل كل واحد منك مال أخيه بالباطل .

وكيف يقول : « أموالكم »؟ ومعلوم مالهم عليهم حرج ؟ لا ، لأن معناها المقصود . لا يأكل كل واحد منكم مال أخيه ولماذا لم يقل ذلك وقال « أموالكم » ؟ لأن عادة الأوامر من الحق ليست موجهة إلى طائفة حُيفت عن أن تكون آكلة ، وطائفة حُيفت على أن تكون مأكوله . بل كل واحد عرضة في مرة أن يكون آكلاً مال غيره ، ومرة أخرى يكون ماله مأكولاً . فأنا إذا أكلت مال غيري فسوف يأكل غيري مالي فأكون قد عملت له أسوة ويأكل مالي أيضاً ، فكأنه سبحانه عندما يقول لك : لا تأكل مالك إنما يعني لك مالك

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يصنع من المجتمع الإيماني مجتمعاً واحداً ويقول إن المال الذي عند كل واحد هو للكل . وأنت إن حفظت على مال غيرك حفظ غيرك على مالك وأنت إن اعتديت على مال غيرك فسيجترىء المجموع على مالك وأنت ساعة تأكل مال واحد تجرىء آلاف الناس على أن يأكلوا مالك . وحين لا تأكل مال غيرك كأنك لم تأكل مالك .

« لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » وكلمة « أكل » معناها : الأخذ ، لأن الأكل هو أهم ظاهرة من ظواهر الحياة ، لأنها الظاهرة المتكررة ، فقد تسكن في بيت واحد طوال عمرك ، وتلبس جلباباً كل ستة أشهر ، لكن أنت تتناول الأكل كل يوم ، وحينما نزلت الآية قال المسلمون نحن لا نأكل أموالنا بالباطل وتحرجوا أن يأكلوا عند إخوانهم وبعد ذلك رفع الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأوضح أن

أكل التكارم ليس بالباطل - أنزل الله قوله .

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾

(من الآية ٦١ سورة النور)

« هذه رفعت عندهم الحرج ، إنما ساعة سمعوا أكل الباطل قالوا لا أحد حاجة من أحد إلا بمقابل

وما هو « الباطل »؟ . الباطل هو أن تأخذ الشيء بغير حقه . مثال ذلك الربا ، لأن معنى « ربا » أن واحدا عنده فائض وآخر يحتاج ، والمحتاج ليس عنده الأصل أتطلب منه أن يرد الأصل وزيادة ، ويعطى الزيادة لمن عنده ؟

كيف يتأتى هذا ؟ هذا هو الأخذ بالربا ، أو الأخذ بالسرقة ، بالاختلاس أو بالرشوة أو بالغش فى السلع ، كل ذلك هو أكل مال بالباطل، وساعة تريد أن تأكل مالاً بالباطل ، كأنك تريد أن تتمتع بثمرة عمل غيرك ، وأنت بذلك تتعود على التمتع بثمرة عمل غيرك ، وتضمحل عندك قدرة العمل ويصير أحدك من غيرك . أخذ المال تَرْهاً وبغير وجه حق وبذلك تتعطل حركة متحرك فى الحياة وهو ذلك العاطل « البلطجى » ، ويخاف التحرك فى الحياة وهو من تُفرض عليه الإتاوة فيقل ويضعف نشاطه فى الحياة ، كيف يكون شكل هذا المجتمع ؟ إن المجتمع فى هذه الحالة سيعانى من كرب وصعوبات فى الحياة

فقوله سبحانه . « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » هو أمر لكل مسلم لا تراب ، ولا تسرق ، ولا تغش ، ولا تدلس ، ولا تلعب ميسراً ، ولا تختلس ،

ولا يرتشى ؛ لأن كل هذه الأمور هى أكل أموال بالباطل . وعندما يدقق فى مسألة لعب الميسر يجد أمراً عجباً ؛ فالذين يلعبون الميسر يدعون أنهم أصدقاء ، وينتظر بعضهم بعضاً ويأكلون معاً ، وكل واحد منهم يجلس أمام الآخر وهو حريص أن يأخذ ما فى جيبه ، فأى صداقة هذه ؟

إذن فساعة يقول الحق . « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » ، وساعة يأمرك الحق إياك أن يصعب عليك التكليف ؛ لأنه شاق عليك . ولكن قدر ما يأخذه منك التكليف من تضييق حركة تصرفك . وما يعطيك التكليف من تضييق حركة الآخرين ، الحق قال لك . لا تأخذ مال غيرك لكى لا يأخذ غيرك مالك ، وبذلك تكسب أنت ويكسب كل المجتمع ، فحين يصدر أمر لإنسان أن يكف يده عن السرقة فهو أمر للناس جميعاً كى يكفوا عن سرقة هذا الإنسان ، لذلك فحين تستقبل أى حكم عن الله لا تنظر إلى ما أخذه الحكم من حريتك ، ولكن انظر إلى ما أعطاه الحكم لصالحك من حرية الآخرين

ومثال ذلك - حين يوضح الحق وينهى عن النظر إلى المرأة الأجنبية فإياك أن تمد عينك إلى محارم غيرك ، هو أمر لا يخصك وحدك ، ولكنه أمر للذين الناس ألا يمدوا عيونهم إلى محارمك ، وعندما تؤدى الأمر فأنت الذى تكون أكثر كسباً .

إنى لذلك أقول دائماً لا تنظر إلى ما فى التكليف من مشقة أو إلى ما أُخذ منك ، ولكن انظر فيه إلى ما يعطى لك ؛ فإن نظرت هذه النظرة وجدت كل تكليف من الحق هو ربح لك أنت وإلا لو أنا أطلقت يدك فى الناس جميعاً لا بد أن تضر أنانا بطلق أيدى الناس جميعاً فيك وأنت إذا أطلقت يدك فى الناس فمن تؤثر فيهم مثلما يؤثرون فيك لو أطلقوا أيديهم فيك وهيهات يخصك ، فمن مصلحتك ألا تطلق يدك فى الناس .

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » وكلمة « إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » أى إلا فى الصفة المتبادلة تبادل الأعراض؛ شىء عوض شىء . وجاءت التجارة ؛ لأن التجارة هى

الحلقة الجامعة لأعمال الحياة ؛ فالتاجر هو وسيط بين من ينتج سلعة ومن يستهلكها والسلع فى حركتها إنتاج واستهلاك والإنتاج قد يكون زراعيا او صناعياً أو خدمياً إذن فالتجارة جامعة لذلك كله

وكلمة « عن تراض » تدل على أن رضا النفس البشرية فى الأعواض مشروط ، حتى ما أخذ بسيف الحياء يكون حراما ؛ لذلك أقول . على كل واحد أن يغربل إيمانه ، وينظر هل حياته فى أعواض الأموال وأعواض التجارة وأعواض المعادلات مستوية أو غير مستوية ؟ فإن لم تكن مستوية ؛ فعليه أن يفكر فيها قبيلاً حتى يُعطى كل ذى حق حقه وحتى لا يدخل فى دائرة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلىّ ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها »[1]

ويتابع الحق . « ولا تقتلوا أنفسكم » وهنا أيضاً مقابله جمع بجمع ، ويعنى : لا يقتل كل واحد منكم نفسه ، وهذا ما يفعله المنتحر ـ ولا يقتل نفسه إلا إنسان وجد نفسه فى ظرف لا يستطيع فى حدود أسبابه أن يخرج منه . ويقول له . أنت نظرت لنفسك كإنسان معزول عن خالق أعلى ، لكن المؤمن لا يعزل نفسه عن خالقه ؛ فساعة يأتيه ظرف فوق أسبابه ولا يقوى عليه فعليه أن يفكر وهل أنا فى الكون وحدى ؟ لا ، إن لى ربًا ومادام لى رب قادر لا أقدر وهو ـ سبحانه ـ يقدر ، وهنا يطرد فكرة الانتحار ؛ لأن المنتحر هو إنسان تضيق أسبابه عن مواجهة ظروفه فيقتل نفسه

وإن فائدة الإيمان أنه ساعة يأتى ظرف عليك وتنتهى أسبابك تقول إن الله لن يحدلى وهو يرزقنى من حيث لا أحتسب ، ويفتح لى أبواباً ليست فى بالى ، وضرب مثلاً كى يقرب المعنى . وقلنا : هب أن إنساناً يسير فى الطريق ومعه « جنيه واحد »

---

(١) رواه مالك فى الموطأ ورواه أحمد فى مسنده ورواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أم سلمة

فى جيبه ، ثم ضاع الجيب . وليس فى بيته إلا هو ، لذلك يجزن حداً على ذلك الجيب لكن من يضيع منه « جيبه » وعنده فى البيت خمسة « جيبات » فالمصيبة تكون خفيفة ، كذلك من فقد أسبابه فعليه أن يخفف الأمر على نفسه فلا ييأس ، فلِمَ يقتل نفسه ؟ الله يقول فى الحديث القدسى :

(بادرنى عبدى بنفسه حرمت عليه جنتى)[1]

وهل أنت من وهبت الحياة لنفسك ؟ لا ، ولذلك فواهب الحياة هو الذى يأخذها ، ومن ينتحر لا يدخل الجنة ، لأنه لم يتذكر أن له إلهاً ولنذكر هنا موقف قوم موسى عليه السلام عندما خرجوا ، وصادفهم قوم فرعون . فماذا قال قوم موسى ؟ قالوا .

﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الشعراء)

وهذا كلام صحيح فأمامهم البحر ومن وراثهم فرعون ، وهم قد قالوا ذلك بأسبابهم وبشريتهم لكن ماذا قال سيدنا موسى ؟

﴿ قَالَ كَلَّا ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الشعراء)

و« كلا » هذه نعم ، وكيف يقول موسى « كلا » وما رصيدها ؟ إنه لم يقل : « كلا » بيشريته ، ولكن قالها برصيده من الإيمان بالإله العظيم فقال

﴿ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الشعراء)

إذن فقوله « ولا تقتلوا أنفسكم » أى ولا يقتل كل واحد منكم نفسه ؛ لأنك لا تقتل نفسك إلا إذا ضاقت أسبابك عن مواجهة ما تعانيه ، وهذا يدل على أنك

---

(١) رواه البخارى فى الجنائز

عرلت نفسك عن ربك ، ولو ظللت على الإيمان بأن لك خالقاً لاعترجت عنك الكروب ، وأي مسألة تأتي تقول : « إن معي ربي سيهدين » .

إن الإيمان يعطيك صلابة استقبال الصعاب وقد تأخذ « ولا تقتلوا أنفسكم » معنى آخر أي ، ولا تؤذوا أنفسكم لأن تقتلوا ، أي لا تلق بنفسك إلى التهلكه ، أو « ولا تقتلوا أنفسكم » على أن المؤمنين على وحدة إيمانيه ، أو أن المشرع هذه الوحدة قال : الذي يقتل يُقتل فإياك أن تقتل نفسك ، أي لا تقتل غيرك حتى لا يصير الأمر إلى أنك تقتل نفسك لأنه سيقتص منك

فقوله « ولا تقتلوا أنفسكم » يعني لا تعملوا ما يؤدي بكم إلى القتل ، ويحس الحق الإنسان على نفسه وليس على الناس فحسب ، فلا يقول لك لا تقتل حتى لا تُقْتل ، لأنه سبق أن قال

﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وعندما يعرف القاتل أنه إن قتل يُقتل ، فهو يتجنب ذلك ، ونلحظ أن الحق قال في آية أخرى

﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾

(من الآية ٦١ سورة النور)

وهل أنا سأسلم على نفسي أو على الناس الداخل عليهم ؟ إن الإنسان يسلم على هؤلاء الناس ، وعندما تقول : « السلام عليكم » ، يعني الأمان لكم . فسيقولون لك : « وعليكم السلام » فكأنك قد سلمت على نفسك . أو أن الحق قد جعل المؤمنين وحدة واحدة ، ومعنى « وحدة » يعني أن ما يحدث لواحد يكون للكل .

إذن فقوله « ولا تقتلوا أنفسكم » أي ولا يقتل واحد منكم نفسه ، فتصلح « ولا تقتلوا أنفسكم » بمعنى ولا يقتل واحد منكم نفسه بأن ينتحر ، هذه واحدة ، ولا يفعل واحدٌ منكم بنفسه بأن يلقي بها إلى التهلكه ، أو لا يقتل واحد منكم نفسه بأن يقتل غيره فيقتل قصاصا ، أو لا تقتلوا أنفسكم يعني . لا يقتل أحد منكم نفس

غيره لأنكم وحدة إنسانية وليس واحداً بعينه هو المأمور بل الكل مأمور ، فلا يقتل واحد منكم نفس غيره

ويدبل الحق الآية : « إن الله كان بكم رحيماً » وبالله ، ساعة ينهانى الحق عن أن أقتل نفسى أو أقتل غيرى ، أليست هذه منتهى رحمة الصانع بصنعته ؟ إنها منتهى الرحمة

ويقول سبحانه بعد ذلك .

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾

« ذلك » : « ذا » وحدها للإشارة ، و « الكاف » للخطاب ، والخطاب إذا أفرد ، فالمراد به خطاب الله لرسوله ، والمؤمنون فى طى ذلك الخطاب . ومرة يقول « ذلكم » أى أنه يخاطبنا نحن ، مثل

﴿ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾

(من الآية ٢٣٢ سورة البقرة)

وذلك إشارة لما تقدم مباشرة فى الآية الخاصة بقتل النفس ، وكذلك ما قبلها وهو أكل الأموال والبعض يأخذها لكل ما تقدم من أول قوله « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف » . والبعض الآخر يأخذها من أول الأوامر والنواهى من أول السورة إلى هنا ، وكلها تصح

« ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً » والعدوان هو التعدى ، والتعدى قد يكون ظلماً وقد يكون نسياناً ومن يتعدى بالظلم يكون عارفاً وياخذ حق غيره ، أما

التعدى بالسباب يقتضى أن يراجع الإنسان سلوكه ، لماذا ؟ لأن العاقبة مريرة .

وقوله تعالى : « ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً » والفعل إذا أسند لفاعله أخذ قوته من فاعله فعندما يقول لك أحد : إن عملت هذه فابنى لصغير سيصنعك صنعة ، وهو قول يختلف عن التهديد بأن يضربك شاب قوى ، لماذا ؟ لأن قوة الحدث تأخذها من فاعل الحدث ، من الذى يُمَثِّل المعتدى النار ؟ إنه الله ، وسبحانه سيجعله يصطلى بها .

ويقول الحق . « وكان ذلك على الله يسيرا » لأن فعل الله ليس عن معالجة بل يفقد فوراً . ونعلم أن فعل المصلحة هو كل فعل يحتاج لوقت ، فهناك عمل يحتاج لساعة وكل دقيقة من هذه الساعة تأخذ جزئية من العمل ، وعندما تقسم العمل لستين جزئية ، ينتهى العمل فى ساعة ، وإن كان العمل ينهى فى عشرة أيام تقول له : أسقط أوقات الراحة وعدم مزاولة العمل ، وقسم العمل على الباقى من الوقت هذا هو ما يسمى علاجاً ؛ لأن ذلك من عمل الإنسان ، لكن عمل الله يختلف ، فالحق يقول للشىء « كن فيكون » إذن فكل فعل على الله يسير مادامت المسألة « كن فيكون » قال سبحانه :

﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة لقمان)

وسبحانه يوضح . أنا لا أوجد كل واحد مثلما خلقت آدم وأسكنه وأحلفه ثم أبعثه ، لا ، بل كل الخلق كنفس واحدة

ويقول الحق من بعد ذلك

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾

هذه الآية هى إحدى ثمانى آيات قال عنها ابن عباس - رضى الله عنه - : فى هذه السورة - سورة النساء - ثمانى آيات خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس أو غربت ، وهنا إن هذه الآيات تبدأ بقوله سبحانه : « يريد الله ليبين لكم » ، « والله يريد أن يتوب عليكم » ، « يريد الله أن يخفف عنكم » ، ثم جاءت « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه » و « الاجتناب » ليس معناه عدم مزاولة الحدث أو الفعل ، ولكن عدم الاقتراب من مكان الحدث أو الفعل حتى يسدّ المؤمن على نفسه غريزة شهوة المعصية له وتصوره لها وترائيها له .

هذه الآيات الكريمات كانت خيرٌ هذه الأمة مما طلعت عليه الشمس أو غربت ، لأنها تحمى من حق الاختيار الذى وجد فى الإنسان حين لا يلتزم بمنهج الله ، ولو أن الإنسان كان مسيّراً ومُكْرَهاً على الفعل لارتاح من هذا الاختيار وتعب الإنسان جاء من ناحية أن اختُرَ بميزته على سائر خلق الله ، والميزة التى مَيّز الله بها الإنسان هى العقل الذى يختار به بين البدائل . بينما سائر الأجناس كلها رضيت من الله أن تكون مسخرة مقهورة على ما جعلها له بدون اختيار . ونعرف أن الحق قال :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الاحزاب)

فالإنسان قد ظلم نفسه ، لأنه أرجح نفسه عند اختيار الشهوة أو اختيار مرادات منهج الله ، بينما المقهورون أو المسخرون ليست عندهم هذه المسألة . وكل كائن منهم يقوم بعمله آلياً وارتاح من حق الاختيار - فهذه الآيات طمأنت الإنسان على أنه بحق اختياره فى شىء فالله يريد أن يبصره ، والله يريد أن يتوب عليه ، والله يريد أن يخفف عنه والله يريد إن اجتنب الكبائر أن يرفع عنه السيئات ويكفرها كل هذه مطمئنات للنفس البشرية حتى لا تأخذها مسألة اليأس من حق الاختيار ، فيوضح : أنا خالقك وأعرف أنك ضعيف لأنّ عندك مسلكين كل مسلك يغريك . تكليف الله لك فيه من الخير لك وما تنتظره من ثواب الله فى الآخرة يُغرى ، وشهوة النفس العاجلة تُغرى

ومادامت المسألة قد تخلخلت بين اختيار واختيار فالضعف ينشأ ، لذلك يوضح

سبحانه : أنا أحترم هذا فيك لأنه وليد الاختيار ، وأنا الذي وهبت لك هذا الاختيار

والحق حين وهب الاختيار لهذا الجنس الذي هو سيد الأجناس كلها ، يُحبُّ أن يأتي لربه راغبا محبًا لأن هناك فارقاً بين أن يسخر المسخر ولا يستطيع أن يفلت عما قدر له أن يعمله ، وذلك تؤديها صفة القدرة لله ، لكن لم تعط لله صفة المحبوبية ؛ لأن المحبوبية أن تكون مختاراً أن تطيع ومختاراً أن تعصي ثم تطيع ، هذه صفة المحبوبية ، والله يريد من الإنسان أن تشتد طاعته صفة المحبوبية لله سبحانه ؛ فالإنسان المحب لمولاه يرغم أنه مختار أن يفعل الطاعة أولا تفعلها مختار بالإيمان إلى جانب الطاعة

« إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه » كأن الله بعد تكليفاته في أمور الأعراض والأموال وتكليفاته في الدماء من قتل النفس وغيرها ، أوضح إياكم أن تستقلوا الأشياء استقلالاً يجعلكم تيأسون من بعضكم قد تعجزون عن التكليف ببعض الأمور ، فأنا سأرضي باجتناب الكبائر من المساوئ : فالصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ، والجمعة للجمعة كفارة ، ومن رمضان لرمضان كفارة ، لكن بشرط ألا يكون عندكم إصرار على الصغائر لماذا ؟ لأنك إن قدرت ذلك فقدر أنك لا تقدر على استبقاء حياتك إلى أن تستغفر ، فلا تقل سأفعل الذنب ثم أستغفر ، هذه لا تضمنها ، وأيضا تكون كالمستهزئ بربه

« إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم » ـ في السيئات يقول : « نكفر عنكم سيئاتكم » ولم يقل إن « الكفر » هو « الستر » أي يسترها ـ ومعنى سترها يعني لا يعاقب عليها ، فالتكفير إماطة للعقاب ، والإحباط إماطة للثواب . فإن ارتكب إنسان أمراً يستحق عليه عقاباً وقد اجتنب الكبائر يكفر عنه الله أي يضع ويستر عنه العقاب ، أما من عمل حسنة ولم يقبلها الله ، فهو يحبطها ، إذن فالتكفير ـ كما قلنا ـ إماطة للعقاب ، و« الإحباط » إماطة للثواب كما في قوله

﴿ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾

(من الآية ٢١٧ سورة البقرة)

أى ليس لهم على تلك الأعمال ثواب ، لأنهم فعلوها وليس فى بالهم الذى يعطى الثواب وهو الله . بل كان فى بالهم الخلق ، ولذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم :

(فعلت ليقال وقد قيل) .

أنت فعلت ليقال وقد قيل ، وقالوا عملك إنك محسن كبير ، قالوا : إنك بنيت المسجد ، وقرأوا اللافتة التى وضعتها على المسجد وسط احتفال كبير . ويفوت الحق .

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

أنت فعلت ليقال وقد قيل ، ولذلك فالذين عملوا مثل هذه روضعوا لافتات من رحام عليهم أن يغطوا هذا الأمر ، وإن كان الواحد منهم حريصاً على أنه يأخذ الثواب من يد الله فليرفع هذه اللافتة ويسترها وتنتهى المسألة ، فالله سبحانه وتعالى يحب ممن يتصدق أن يكون كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله منهم :

(ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)[1]

فأنت حين تتصدق هاذ تفصح من يتقبل الصدقة والحق يقول : « إن تجتنبوا » ، و « الاجتناب » هو إعطاء الشىء جانباً ولذلك يقولون فلان ازورّ جانبه عنى ، أى أنه عندما قابلنى أعطانى جانبه ، والمراد فى قوله : « إن تجتنبو » هو التباعد ، والحق ساعة يطلب منك ألا تصنع الحدث ويطلب منك بأسلوب آخر أن تجتنبه ، فهذا يدل على أن الاجتناب أبلغ ، لأن الاجتناب معناه ألا تكون مع المنهى عنه فى مكان واحد فعندما يقول الحق :

﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الحج)

---

١ - رواه مسلم واحمد والنسائى والترمذى

وعندما يقول

﴿ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الحج)

فاجتنبوه أى . ابتعدوا عنه . لماذا ؟ لأن حمى الله محارمه .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع فى المشبهات وقع فى الحرام كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله تعالى فى أرضه محارمه . »[1] .

والحق يقول

﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة المائدة)

واجتنابه يكون بألا توجد معه فى مكان واحد بحيلك ويشاغلك ويتمثل لك ، فعندما تكون مثلاً فى سطقة الذين يشربون الخمر يقول لك لحق اجتنبها أى لا تذهب إليها ؛ لأن الخمر عندما توجد أمامك وترى من يشربون وهم مستريحون مسرورون فقد تشربها ، لكن عندما تجتنب الخمر ومجالسها فأنت لا تقع فى براثنها وإغرائها ، ولذلك قلنا . إن الاجتناب أبلغ من التحريم ، وهناك أناس يبررون الخمر لأنفسهم ويقولون إن الخمر لم يرد فيها تحريم بالنص !! نقول لكل واحد منهم حسبك أن شرب الخمر قُرن بالرجس من الأوثان ، فالحق يقول :

﴿ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النحل)

فاجتناب الطاغوت ليس معناه ألا تعبده ، بل إياك أن تراه ، إذن فاجتناب الخمر ليس بألا تشربها ، بل إياك أن تكون فى محضرها .

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة

« والكبائر » جميع « كبيرة » ، ومادام فيه « كبيرة » يكون هناك مقابل لها وهى « صغيرة » و« أصغر » ، فالأقل من « الكبيرة » ، ليس « صغيرة » فقط ، لأن فيه « صغيرة » ، وفيه « أصغر » من « الصغيرة » وهو « اللمم » .

والحق يقول « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم » و« السيئات » منوطة بالأمر الصغير وبالأصغر ، لكن هذه المسألة وقف فيها العلماء ، قالوا : معنى ذلك أننا سنعرى الناس بفعل السيئات ماداموا قد اجتنبوا الكبائر فقد يفعلون الصغائر نقول لا ، فالإصرار على الصغيرة كبيرة من الكبائر ، لذلك لا تجز الصغائر لنفسك ، فالحق يكفر ما فات منك فقط ، ولذلك يقول الحق

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾

(من الآية ١٧ سورة النساء)

يفعلون الأمر السيء بدون ترتيب وتقدير سابق وهو سبحانه فإن بعد ذلك

﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة النساء)

إذن فمعنى أنك تصرّ على صغيرة وتكررها إنها بذلك تكون كبيرة ، وإن لم تجتنب الكبائر ووقعت فيها فماذا يكون ؟ يقول العلماء الذين جعلهم الله هبات لطف ورحمة على الخلق لا كبيرة مع الاستغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار فإن أخذت هذه فخذ تلك ، خذ الاثنتين ، فلا كبيرة مع الاستغفار ، ومقابلها لا صغيرة مع الإصرار

وحينما أراد العلماء أن يعرفوا الكبيرة قالوا : الكبيرة هى ما جاء فيها وعيد من الله بعذاب الآخرة ، أو جاء فيها عقوبة كالحد مثلاً فهذه كبيرة ، والتى لم يأت فيها حد فقد دخلت فى عداد السيئة المغفورة باجتناب الكبيرة أو الصغيرة أو الأصغر .

وأن سيدنا عمرو بن عبيد عالم من علماء البصرة وزاهد من زهادها ، وهو الذى قال فيه أحد الخلفاء : كلهم طالب صيد غير عمرو بن عبيد ، أى أن كل العلماء

يذهبون إلى هناك ليأخذوا هبات وهديا إلا عمرو بن عبيد ، إذ فقد شهد له ، هذا العالم عندما أراد أن يعرف مدلول الكبيرة ، وأصر ألا يعرف مدلولها بكلام علماء ، بل قال : أريد أن أعرفها من نص القرآن ، الذي يقول لي عن الكبيرة يأتيني بنص من القرآن ودخل ابن عبيد البصري على سيدنا أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق ، ومعرف سيدنا جعفر الصادق وهو أولى الناس بأن يُسأل ؛ لأنه عالم بهل البيت ، ولأنه قد بحث في كنوز القرآن وخرج منها الأسرار وعاش في رحاب الميض ، فقال ابن عبيد : هذا هو من أسأله ، فلما سُلّم وجلس قرأ قول الله سبحانه

﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة النجم)

ثم سكت !! فقال له سيدنا أبو عبدالله جعفر الصادق : ما أسكتك يا بن عبيد ؟ قال : أحب أن أعرف الكبائر من كتاب الله

وانظروا إلى الثقة بمعرفة كنوز القرآن ، ساعة قال له « أحب أن أعرف الكبائر من كتاب الله » قال أبو عبدالله نعم ، أي على حبر بها سقطت ، أي حيث لن يعرفها ، ثم قال : « الشرك بالله » قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة النساء)

وقال تعالى :

﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة المائدة)

وأضاف : واليأس من رحمة الله فإن الحق قال :

﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة يوسف)

وهكذا جاء سيدنا أبو عبدالله جعفر الصادق بالحكم وجاء بدليله ، وأضاف : ومن أمن مكر الله ؛ لأنه سبحانه قال

﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

(من الآية ٩٩ سورة الأعراف)

والكبيرة الرابعة . عقوق الوالدين ؛ لأن الله وصف صاحبها بأنه جبار شقي ، قال تعالى

﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة مريم)

وقتل النفس قال تعالى :

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾

(من الآية ٩٣ سورة النساء)

وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات قال تعالى

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة النور)

وأكل الربا . قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾

(من الآية ٢٧٥ سورة البقرة)

والفرار يوم الزحف ، أي إن هوجم المسلمون من أعدائهم وزحف المسلمون فرّ واحد من الزحف . فقد قال تعالى في شأنه

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وأكل مال اليتيم قال تعالى

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

والربا . قال تعالى

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ ﴾

(جزء من الآية ٦٨ ، والآية ٦٩ سورة الفرقان)

وكتمان الشهادة . قال تعالى :

﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾

(من الآية ٢٨٣ سورة البقرة)

واليمين الغموس وهو أن يحلف إنسان على شيء فعله وهو لم يفعله أو أقسم أنه لم يفعله ، وهو قد فعله ، أى القسم الذى لا يتعلق بشيء مستقبل قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

والغلول أى أن يخون فى الغنيمة . قال تعالى :

﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

(من الآية ١٦١ سورة آل عمران)

وشرب الخمر ؛ لأن الله قرنه بالوثنية قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة المائدة)

وترك الصلاة ؛ لأن الله قال

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة المدثر)

ونقض العهد ، وقطيعة الرحم وهو مما أمر الله به أن يوصل . قال تعالى

﴿ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ ، وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ

﴿ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إذن فكل هذه ، هي الكبائر بنص القرآن ، وكل كبيرة معها حكمة ، عرضها لنا سيدنا بن عبيد لأنه خاطب عقلاً ، فإذا ما نظرنا إلى الاستنباط الذي جاء به سيدنا ابن سيدنا ، جعفر الصادق ، عندما سأله ، ثم يجيبه بهذا الترتيب وبشجاعة من يقول لابن عبيد . « نعم » أي إن جوابك عندي ، ثم يذكرها ترتيبة بدون تفكير ، وهذا دليل على أنها مسألة قد اختمرت في ذهنه ، وخصوصاً أنها ليست آيات رتيبة مسلسلة متتابعة ! بل هي آيات يختارها من هنا ومن هناك ، مما يدل على أنه يُعايش أسرار القرآن

لقد نشأ هذا الرجل في بيت سيدنا جعفر الصادق وهو الذي وضع للمؤمن منهجاً بحيث لا يصيبه شيء في نفسه إلا وجد له علاجاً ودواء في كتاب الله ، إنه وجد أن الروايا التي تعكّر على الإنسان أنه يخاف من شيء ، والذي يخاف من شيء يكون هذا الشيء ـ غالباً ـ محدوداً معروفاً

أنا أخاف من الشيء الفلاني ، ولكنّ واحداً يصيبه غمّ وهمّ لا يدري سببه ، فيقول لك أنا مغمّ دون أن أعرف السبب إذن ففيه نقاص لا يعرف سببه ، وهناك مثلاً إنسان يكيد له أناس كثيرون ويمكرون به ويأتمرون به ، وهناك ثالث يحب الذهب ويريد أن تكون الذنب عنده ، كل هذه هي مشاغل النفس البشرية أن تخاف من شيء ، أن تغمّ من شيء ، أن تشفق من مكر بك وكيد لك ، أن تتصلب أمرٌ من أمور الدنيا ، وسيدنا جعفر هو الذي قال عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قول الله سبحانه :

﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾

(من الآية ١٧٣ سورة آل عمران)

انظر لاستنباط الدليل ، الذي يقوله سيدنا جعفر فإني سمعت الله بعقبها يقول

﴿ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾

(من الآية ١٧٤ سورة آل عمران)

انظر دقة الأداء ، يقول سمعت الله ، ولم يقل قرأت ، كأن الإنسان ساعة يقرأ قرآناً لابد ان يتأكد أن الله هو الذى يتكلم وجلال القديم يعطى على جدية الحادث ، فالذى يقرأ أمامك حادث ، لكنه يقرأ كلام الله ، إذن فجلال القديم يعطى على جدية الحادث . ويضيف سيدنا جعفر : وعجبت لمن اغتم ولم يفزع إلى قول الله سبحانه :

﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة الأنبياء)

ثم يقول فإن سمعت الله بعضها يقول

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

ويضيف سيدنا جعفر : وعجبت لم مُكِرَ به ولم يفزع إلى قول الله سبحانه .

﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة غافر)

فإن سمعت الله بعضها يقول

﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة غافر)

وعجبت لمن طلب الدنيا كيف لا يفزع إلى قول الله سبحانه .

﴿ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة الكهف)

فإن سمعت الله بعضها يقول

﴿ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾

(من الآية ٣٩ وجزء من الآية ٤٠ سورة الكهف)

هذه هى الاستنباطات الإيمانية ، والاستنباطات هنا كالاستنباطات هناك ، وإذا ما نظرت إلى الاستنباطات التى قالها سيدنا جعفر تجدها تغطى زوايا النفس الاجترائية ، لأن التكليف حينما يأتى يحدّ حركة الإنسان عن الشهوات ، فالآيات

جاءت لتحدّ من الاجتراء ، ونجدها تأخذ بالقمة من أول الاجتراء على الوحدانية فى الألوهية إلى قطيعة الرحم ، وقد عطلت الآيات كل جوانب الاجتراءات فى النفس البشرية ، أول اجتراء . هو الشرك . . لأنه قال « إن الشرك لظلم عظيم » والظلم الذى نعرفه . أنك تحكم بشىء للغير وليس من حقه ، فبالله عندما تحكم أن ربنا له شريك ، أليس هذا أعظم الظلم ، وهو ظلم لنفسك ، فإياك أن تظن أنك تظلم الله ؛ لأن ربنا أغنى الشركاء عن الشرك ؛ ولذلك يقول فى الحديث القدسى .

(أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه)[1]

إن هذا ظلم لنفسك ؛ لأنك حين تعتقد أنّ لله شركاء فقد أتعبت نفسك تعب الأغبياء . واقرأ قول الله

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الزمر)

فعبد مملوك لعشرة أسياد ، ويأليت العشرة الأسياد متفقون ، بل هذا يقول له اذهب ، وهذا يقول له تعال ، إذن فقد أتعب نفسه وأرهقها . إذن فقد ظلمها . قال تعالى :

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة يونس)

إن الإيمان بإله واحد يجعلك غير خاضع إلا لوجهة واحدة ، ولا أوامر من جهة أخرى أبداً ، إذن فقد أرحت نفسك ، وهذه قضية يثبتها الواقع ؛ لأن الله قد أنزل فى قرآنه المحفوظ المتلو المقروء :

﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه)

فالمؤمن يقول . هذه كلمة صدق ، والكافر يقول ـ والعياذ بالله ـ . هذه الكلمة غير صدق ، والمسألة على أى تقدير منتهية ، واحد جاء وأخذ الكون وقال لا يوجد

(١) رواه مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة

إله إلا أنت ، والذى أخذ منه الكون إله ولكن أعنيم أن الكون أخذ منه أم م يعلم بذلك ؟ إن لم يكن قد درى تكون مصيبة فى هذا الإله ، وإن كان قد درى فما الذى أسكته ؟ فالمسألة ـ إذن ـ معلومة ، هذه مسألة الشرك .

إن الإيمان بوحدانية إله جاءت بتريح النفس البشرية من كثرة تلفتاتها إلى آلهة متعددين ، إنه هو الحق ، وهو الذى يسمع ويبصر ، إنكم حين تكونون لإله واحد كمثل العبد يكون لمالك واحد ، أما عندما تعبدون آلهة متعددين تكونون كمثل العبد الذى له شركاء وبالتهم متعنون ؛ بين هم مختلفون .

بعد ذلك يأتى فى المرحلة الثانية وهى اليأس من روْح الله ، و« الرَّوْح » من « الرائحة » وهى النسيم ، فساعة تكون فى ضيق واخو حار تلتمت لتجد واحة فتأوى إلى ظلها وهوائها وتلجأ إلى حضنها ، هذه الراحة يعطيها الله لمن لا ييأس من روْح الله فتعطيه صلابة إيمانية لاستقبال أحداث الحياة ؛ لأن الحياة أغيار ، وأحداثها متعددة ، وللعالم وللكون الظاهر سنن فى الأسباب والمسببات

فَبَّ أن أسبابك ضاقت بشىء ولم يعد عندك أسباب له أبداً ، فالذى لا يؤمن بإله قوى يخرق الأسباب ، ماذا يفعل ؟ ينتحر كم فعلنا .

إذن فاليأس من روْح الله هو من جعل قوة الله العليا التى خلقت النواميس متساوية مع النواميس بحيث إذا ضاقت وعزت أسبابها البشرية فى شىء يئس منها ، أما المؤمن فنقول له : أنت لا تيأس ؛ لأنك مؤمن بإله قادر فوق النواميس ؛ فالذى ييأس من روْح الله كأنه يعطل طلاقة القدرة الإلهية على النواميس الكونية ، إنّ الله ، هو خالق هذه النواميس . فعندما ييأس إنسان من روح الله ، يكون قد سوّى الله ـ بطلاقة قدرته ـ بالنواميس ، إنّ الذى تأباه النواميس فسبحانه قادر أن ييسره .

وبعد ذلك جاء بـ « عقوق الوالدين » وهما الخلية الأولى التى يواجهها الإنسان ، وهما السبب المباشر فى إيجادك ؛ لأنك حين تعق وتعصى من كان سبباً مباشراً لوجودك تكون قد عققت وعصيت من كان سبباً أولياً لوجودك ، وهو الله الذى لم تره ، إذن

فاحترامها والبرّ بها ليس ـ فقط ـ لأنها سبب في وجودك وإنما ـ أيضا ـ لأنها ربياك صغيراً فعليك بالبر بها ، وهذا عقلك ويدفعك إلى أن تحفظ الجميل لمن كان سبباً في إنجادك ، وتربيتك،وعندما ترقيها وتتساءل : من أوجد أباك ؟ جدّك . ومن أوجد جدّك ؟ تصل إلى أين ؟ لا يمكن أن تكون لها نهاية إلا أن تتصل بمن لا نهاية له ، وهو أن الله قد خلق آدم

ثم قال : قتل النفس ، والقتل هو نقض بنية الكائن ، وهو يختلف عن الموت ، فالموت أن يموت الإنسان وبنيته سليمة ، لكن إن تلقى ضربة على رأسه فهو يموت منها ، هذا هو نقض البنية سواء أكان الضرب بحجر أم برصاصة أم بأي شيء ولنقرأ القرآن بإمعان ، إنّ الحق يقول .

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة آل عمران)

فالموت هو سلب الحياة بدون نقض بنية ، وهذا لا يجريه إلا الله ، إنما القتل يهدم البنية ، فأي إنسان يستطيع أن يفعله ، فتخرج الروح بإذن الله ، وليس معنى ذلك أن أحداً عجّل بأجل القتيل ، لا ، ولكنه تدخل في بنيان أقامه الله فهدمه ، ولو لم يتدخل أحد في بنيان الله ليهدمه لكان أجله قد جاء إذن فالقاتل يُعاقب لأنه تدخل في هدم البنية وهو يعرف أن هذه الروح لا تحل إلا في بنيان له مواصفات خاصة تقتضي أن يكون المخ سليماً ، وكذلك القلب ، وبقية أجزاء الجسم لكن حين يجيء الأجل يموت الإنسان ولو لم ينقض أحد البنية

وضربنا مثلاً لنقرّب هذا الأمر ـ ولله المثل الأعلى :

إنّ هذه الروح نشبهها بالكهرباء ، فأنت لا تعرف الروح ولم ترها ولم تسمعها ولم تشمّها ولم تذقها ، إذن فبأي وسيلة من وسائل الإدراك أنت لا تعرفها لكنك تعرف أنها تدير حياة جسمك كله ، بدليل أن الروح عندما تُسحب من الجسم يصير رِمّة وقد جعلها الله كدليل دائم في النفس البشرية عن وجود إله لا تدركه الأبصار وهو

يدرك الأبصار ، تقول : لا نرى الله . نقول لك : نعم ، فهو سبحانه يقول :

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

إن الحق لا يطلبك بأن تبصر ما في الكون فقط من آيات ، بل إن الأدلة لا تتعداك أنت أولاً ، فروحك التي تدير جسمك أين هي ؟ ما شكلها ؟ ما لونها ؟ ما رائحتها ؟ أتعرف ؟ لا ، ولكنها موجودة فيك وأنت لا تراها ، فكيف تطلب أن ترى إلهاً وقد خلق شيئاً لم تقو على أن تراه ؟ المخلوق لا تقدر أن تراه ، وبعد ذلك تريد أن ترى خالقه . إذن فمن عظمته أنه لا يُدْرك ، ويقول الحق سبحانه وتعالى عن لحظة تنزل الروح في الجسم :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة ص)

لأنه سيكون إنساناً سوياً ، فإن شبهنا تلك الروح بالكهرباء ـ ولله المثل الأعلى ـ هل تعرف ماهي هل رأيتها ؟ . لم ترها ، هل أحد عرفها ؟ الذين اكتشفوها ، أعرفوا ماهي ؟ لم يعرفوا ، إنما نعرفها بآثارها ، ساعة نرى المصباح منيراً نقول . جاءت الكهرباء ، وساعة تدور المروحة نقول : الكهرباء جاءت . إذن فأنت تعرفها بآثارها ، كذلك تعرف الشخص أنه مات عندما لاتجد له حركة . وعندما تجف الحركة وتجمُد يقولون : خذ الحركة من شيء إن وقف يكون الموت ، وليس من اليد ، لأن اليد قد لاتتحرك لإصابتها بالشلل ، بينما الإنسان مازال حيا ، وبذلك هات المرآة وضعها أمام مخرج النفس ، فإن وجدت بخاراً على المرآة فهذا يعني أن هذا الإنسان مازال حياً ، وفيه روح ، وكذلك عندما يكسر المصباح الكهربائي فالكهرباء لاتعمل عملها ؛ لأن الكهرباء لاتظهر إلا في قالب من هذا النوع ، زجاجة مفرغة الهواء مصنوعة بشكل خاص إن انكسرت أو ثقبت يذهب النور .

إذن فعندما يهيم الجسم لاتجد الروح الوعاء الذي تظهر فيه ، فكذلك المصباح الكهربائي إذ انكسر تكون الكهرباء موجودة في الأسلاك إنما لايوجد نور ، وعندما تأتي بمصباح جديد يأتي النور ، كذلك الروح لاتظهر إلا في الجسد الذي له مواصفات خاصة ، هذا وإن القتل هو دليل عجز القاتل ، لأن القاتل حين يقتل خصمه فهذه شهادة

منه أنه أعجز من خصمه ، صحيح أنه قد قدر عليه وضربه وأماته وهذا مظهر قدرة بشرية حقاه لكن في الواقع أن هذا عجز

إن معنى القتل ونقص الحياة أن القاتل يعلن أمام الملأ أنه لا يستطيع أن يواجه حركة حياة خصمه ، ولا يرتاح إلا اذ مات هذا الانسان ، إذن فقد شهد القاتل حين يقتل بعجزه . فلو علم القاتل أن قتله لنفس أخرى ليس دليل قدرة وقوة له ولكنه شهادة عجز ، وأنه لايمكن أن يواجه حياة هذا الحي إلا بأن يميته لما قتله ، والحق يحمي النفس البشرية من القتل حتى لايكون أي انسان مهددا ، وحتى لاتتعطل الخلافة التي أرادها الله في الكون

ثم تأتي كبيرة أخرى وهي قذف المحصنات الخرائر ، ويعرف أن ركناً من أركان المجتمع السليم أن تظل الخرائر مصونات كي لايعاني النشء والنسل الذي ينسل منهم من ظل الريبة والعار ، وحين لاتظل النفس البشرية بريئة فهي تواجه الحياة بمنتهى طاقتها وبمنتهى قدرتها ؛ لذلك فالذي يحب أن تشيع الفاحشة ويقذف المحصنات والخرائر بغير ما اكتسبن فهو يحدث زلزلة في المجتمع ، زلزلة في نسب أفراد المجتمع ، ويضار بها من ليس له ذنب ، يضار بها الأولاد الصغار ، وما ذنبهم وقد قال تعالى :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ١٨ سورة فاطر)

وبعد ذلك قال : أكل الربا ، لأن الربا يصنع خللاً إقتصادياً فهو يحمل غير الواجد أن يزيد ثروة الواجد .

والزنا كبيرة من الكبائر والحق يقول

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ۖ وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الاسراء)

فالزنا يجعل العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة استمتاع فقط ، وليعلاقة الأولى التي أرادها الله حينما أوجد حواء لآدم هي أن تكون المرأة سكناً وليست أداة استمتاع

فقط ، والاستمتاع إنما جاء لحفظ النوع وأطلقه فى النفس البشرية ؛ لأن آثار هذا الاستمتاع تبعتها طويلة من تربية للأطفال الذين تطول طفولتهم ويحتاجون لرعاية ، ولو لم يربطها هذا الاستمتاع لكان كثير من الناس يزهد فى الأولاد

وكذلك الفرار يوم الزحف كبيرة من الكبائر ، لأن الفرار يصنع خللاً فى المجتمع الإيمانى ؛ لأن معنى الزحف أن أعداء الاسلام أغاروا علينا ، ومادامو قد أغاروا علينا فكل مسلم يقف على ثغرة من ثغور الاسلام ، حتى لايمكن أعداء الإسلام من ديار الإسلام ، وتظل كلمة الله هى العليا ، ففرار المسلم يعطى أسوة على ضعف الإيمان فى النفس ، ولذلك لاتعتبروا بأن هذا صار مؤمناً وذاك صار مؤمناً ، فلو كان مؤمناً حقاً ووثق بالغاية فهو لايهاب القتال ؛ لأنه إن قتل صار شهيداً ومبشراً من الله بكذا وكذا ، لذلك فالفرار فى يوم الزحف يعطى أسوة سيئة ليس فى الحرب فقط ، بل سيعطى شيوع خلخلة إيمانية فى النفس البشرية ، والحق سبحانه وتعالى أوضح أن المؤمن عندما يدخل الحرب يرغب فى أحد أمرين كلاهما حسن النصر أو الشهادة ، فقال سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

والمؤمن يتربص بالكافر ليحقق ماقاله الله :

﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

فإذا كان الحق سبحانه وتعالى يريد من المؤمن أن يثبت يقين إيمانه بأن يعقد الحياة التى هى سبب التمسك بمظاهر الحياة لأنه ذاهب لحياة أحسن ، ولكن الحق سبحانه وتعالى لايحب للمؤمنين أن يقدموا على عمليات انتحارية إلا حين تكون هناك مظنة للنصر بدليل قوله الحق .

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأنفال)

فالإنسان لايدخل فى معركة وهو غير مستعد لها ، أو ليس لديه مظنة النصر ، إنه إن فعل ذلك فإنما ينقص المسلمين واحداً ، فماذا أفادنا ؟ إن على المؤمن أن يقبل على الاستشهاد بشرط يخصه وهو الجنة ، وبشرط يُبقى للجماعة الأمان أو النصر .

وبعد ذلك قال : واليمين الغموس . واليمين الغموس تمثل قضية من قضايا خلل المجتمع ، لأن اليمين الغموس هى السبب الذى يمس صاحبه فى النار ؛ لأنه حلف على شىء أنه كان وهو لم يكن ، أو على شىء لم يكن وهو قد كان . وبهذا يتسلل الكذب إلى الصدق ، ولايعرف القاضى التمييز حين يفصل فى الحقوق ، هناك إنسان يكذب ويشهد ويحلف اليمين أن هذا حدث ويؤدى ذلك إلى ضرر بالغير ، فمن يريد أن يظلم لن يعدم شاهدين على باب المحكمة يحلفان له ، عندئذ يصبح الإنسان غير مطمئن إلى حركة حياته ولا إلى مصالحه

وتأتى كبيرة أخرى وهى الغلول . وتعنى أن المسلمين حين يلتحمون بأعدائهم ويأخذون منهم الغنائم وهى ماسميها « السَّلَب » .وهى أسلحة الأعداء وماعندهم من أشياء . . فبالله من يدخل معركة بهذا الشكل ويجد غنيمة ويأخذها ، أيكون قد قضى عملية الحرب فى سبيل الله أم لا ؟ إنه يقضى عملية الحرب فى سبيل الله ، إن الحرب فى سبيل الله شرعت لتكون كلمة الله هى العليا ، وبذلك يقول الحق :

﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾

(من الآية ١٦١ سورة آل عمران)

لقد قلنا : إن كان قد غلّ بقرة . . فسيحملها يوم القيامة ، وسيكون لها حوار .

وإن غل فى أسمنت فسيأتى حامله يوم القيمة ، ومن غلّ فى حديد أو استورد لحوما فاسدة أو سمكا نتنا فإنه سيأتى وهو يحمله يوم القيامة

ثم تأتى كبيرة وهى شهادة الزور شهادة الزور أيضا ركن من أركان فساد المجتمعات كلها ، لأنها لاتجعل المؤمن مطمئنا عن حقه .

أما السحر فهو كبيرة تهدد المجتمع بما يفزع كيانه ، لأنه ينتهى إلى قوة خفيه ، إذ

ليس لهام الذى يتعرض للإصابة به عدو مباشر يواجهه ، حتى يرتب لنفسه الحماية منه . ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة البقرة)

أى ليس له نصيب فى الآخرة ، وربما يقول قائل : إذا كانت هذه مضرة السحر فى هدم كيان المجتمع وتفريقه ، فلماذا وجد ؟ نقول له : إن الكائنات مخلوقة لله ، وكل كائن له قانون ، وقد يكون قانون كائن أخف وأسرع من قانون آخر ، فأفراد الجنس الواحد محكومون بقانون واحد وحين يوجد لأفراد الجنس الواحد قانون يحكم حركته يكون قد وجد فى ذلك الجنس تكافؤ الفرص ، بمعنى أن لك فرصة هى لغيرك أما أن توجد لك فرصة ولا توجد لغيرك ، فهذا يمثل خللاً فى تكافؤ الفرص فى الجنس الواحد .

إن تكافؤ الفرص هو الأمر الذى يحمى المجتمع ، بأن تكون فرصك أنت وفرصى أنا متساوية ، فيكون صاحب الحركة فى مادة الكون هو الذى يغلب ، وبذلك لا أجد أنا فرصة غير موجودة عندك فتكافؤ الفرص هو الذى يرحم البشرية

وإذا كانت قوة الشرق تتمثل فى الشيوعية فى روسيا قد سقطت وبقيت قوة فى الغرب تتمثل فى أمريكا ، فهناك قوى جديدة تحاول أن تعدل الميزان ، اليابان ، ألمانيا الموحدة ، وأوروبا التى تبحث عن الوحدة ، وكل ذلك من أجل أن تتوزن القوى فى الفرص المادية الموجودة وهذا هو ما يحمى الكون من الدمار ؛ لأن أى واحد يفكر فى أى شر جارف يخاف من رد الفعل ، ويخاف أن يردوا عليه بشر أشد ، ولو تيقنوا أن وحدة أقوى من الأخرى لجاء الخراب ، إذن فحيوية الجنس البشرى إنما تنشأ من تكافؤ الفرص بين أفراده ، ولكن الإنسان جنس ، والجن جنس آخر ، والإنس والجن مكلفان من الله ، فعنصر الاختيار موجود فيهما ، ولذلك حكى القرآن

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢ ﴾

(سورة الجن)

وعندما سمعوا قال القرآن :

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الجن)

إذن فهم مثلنا .. لكنهم هم قانون ولنا قانون :

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

إذن فقانون الجن أنه يرى الإنسان ، والإنسان لا يراه ، وقانونه أخف من قانون الإنسان ؛ لأن كل جنس يستمد قانونه من جرثومة تكوينه الأولى ، فنحن البشر مخلوقون من طين . أي أن لنا مادية محسة وكثيفة . والجن مخلوق من النار ، والمخلوق من مادة الطين مثلنا ، النبات والحيوان ، تفاحة مثلاً مخلوقة من مادة الطين لأنها أخذت عناصر غذائها وتكوينها من تربة الأرض وخصوبتها هب أنها خلف جدار وأنت جالس أيتغذى طعمها لك ؟ أتتغذى رائحتها لك ؟ أيتغذى لونها لك ؟ لا ، إذن فالحرمة المميزة لا تجعلك تنتفع به

لكن هب أن ناراً موضوعة وراء الجدار ، وبعد مضي مدة ستشعر بالحرارة ، أي أن الحرارة قد تعدت والجن له شفافيه وله خصه في قانونه وفي انتقاله ولا توجد مثل هذه الشفافية والخفة للإنسان ، ولذلك لاحظ أن الحق سبحانه وتعالى حينما أراد أن يبين لنا هذا ، ضرب لنا المثل بسيدنا سليمان عليه وعلى نبينا السلام الذي سخر الله له الجن

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾

(من الآية ١٣ سورة سبأ)

وحينما اجتمع في جنوده ومن حوله من الناس قال :

﴿ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة النمل)

وبعد ذلك جاءه الهدهد وقال له :

﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ

﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

(جزء من الآية ٢٢ والآية ٢٣ سورة النمل)

وهذا كله ليس بمهم ، إنما المهم هو قول الهدهد :

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة النمل)

وهذا ما يهم سيدنا سليمان كرسول . فسيدنا سليمان يتميز بأنه رسول وملك ، فجاء بالملكية أولاً : « إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم » هذه مقومات الملك ، أما المسألة التي تهم سيدنا سليمان : « وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله » ، والسجود للشمس من دون الله ضايق الهدهد وهو الطائر ، كأن الهدهد عارف لقضية التوحيد وقضية الإيمان بدليل أنه غضب ، ثم يقول :

﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة النمل)

إذن فهو يعرف من الذي يستحق السجود ، ولاحظ أنه جاء بـ« الخبء » لأن طعامه دائماً من تحت الأرض ، ينقر ويُخرج رزقه

واستمرت القصة حتى قال سليمان لمن يجلس معه :

﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة النمل)

وهذا يدل على أن سليمان عليه السلام كان على علم بأن بلقيس ـ ملكة سبأ ـ في الطريق إليه ، ومعنى أن يقول : « أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين » . معناها أن الذي يتصدّى لهذا الأمر عليه أن يذهب من عند بيت المقدس إلى اليمن ويحلّ ويحمل العرش ويأتي به قبل أن تأتي بلقيس .

بالله هل من قانون بشري يأتي به ؟ وكيف ذلك ؟ . ولذلك لم يتكلم إنسيٌّ عادي ، فالإنس العادي يعرف أن قانونه البشري لا يقدر على تلك المهمة ، لأن سليمان قال :

« قبل أن يأتوني » ، ومادام قال ذلك فقد علم أنهم في الطريق . فهل يذهب إنسان عادي ويحمل العرش ويحمله ويأتي به قبل أن يأتوا ؟ لا ، ولذلك عرفنا من هذه قول الحق :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الإسراء)

وهنا يتصدى أحد الأذكياء من الجن قائلاً :

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النمل)

ومن يقول ذلك ليس بجن عادي ، فالجن أيضاً فيهم عفاريت أذكياء وفيهم من هو عاجز قليل الذكاء ، مثل الإنسان ، ومن قال ذلك أكد أنه قادر على أن يأتي بعرش بلقيس قبل أن يقوم سليمان من مقامه ، فكم يمكث من الوقت ؟ لا نعرف ، تُرى هل يجلس سليمان مع القوم ساعتين أو ثلاث ساعات لا نعرف ، إذن فنأخذ هذه العملية ومن مقامه ، لكن ها هو ذلك الإنسيّ الذي أعطاه الله فتحاً من الكتاب وعلماً يقول :

﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النمل)

الإنسيّ العادي لم يتكلم ، والعفريت من الجن قال : « أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك » أما الإنسيّ الذي أعطاه الله الفتح من الكتاب فقد قال . « أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك » وبذلك نظر إلى الأداء العاجل في القرآن أداء الحركة :

﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النمل)

فالمسألة حدثت على الفور .

والمهم لنا هنا أن نعرف أن الجن قال . « أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك » ، ومنها نعرف أن له قانوناً في الحركة والسرعة ، والإنسان الذي وهبه الله علماً بالكتاب له قدرة وحركة . إذن فكل جنس من الأجناس له القانون المناسب له .

وقد يقف بعض الناس كما وقف كثير من سطحيي المفكرين قائلين ما الجن والملائكة والعالم الخفي الذي تحدثوننا به ؟ نقول : ألا تؤمن إلا بالمحسّ بالنسبة لك ؟ فما رأيك في الميكروبات التي ظهرت الآن بعدما اخترع المجهر ؟ لقد كانت موجودة ، أكنت تعرفها ؟ لقد كنت غبياً عندك ، فلماذا لا تأخذ من أن شيئاً لم يكن موجوداً تحت حسّك وغير مُدرك بإدراكك ، كان موجوداً وكنت لا تملك آلة إدراكه ، لماذا لا تأخذ من ذلك دليلاً على وجود أجناس غير مُدركة ، وعندما تحدثك القرآن عن هذه الأجناس غير المدركة نتساءل عنها ؟ فما المشكلة في هذا ؟ .

وبعد ذلك عندما يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف .

(وإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم)[1]

قد نتساءل وهل للشيطان يجري مجرى الدم ، أهو سائل أم ماذا ؟

نقول : هو خلق لطيف حيّ له قانونه الخاص ، فربنا فضح المكر المتعمد وفضح التشكيك في العيبيات التي يذكرها الله ، واكتشفنا أن هناك مخلوقات هي الميكروبات ، وهي من الجنس المادي من لطين ، لكنه ضئيلة جداً ، وماذا يفعل الميكروب ؟ إنه ينفذ في الجسم ولا تدري أنت به وهو داخل في جسمك ، وبعد ذلك ماذا يفعل في حرارتك ؟ وماذا يفعل في جسمك ؟ . فعندما يقول لك الرسول المبلغ عن الله : إن الشيطان سيجري منك مجرى الدم فما التناقض في هذا ؟ إذا كان هناك شيء من مادتك ضئيل ولا تعرف كيف دخل ، ولا تشعر به وهو داخل ، ثم يقلب ميزانك في الحرارة ويغرس العبث بكل جسمك ، فتهيج الكرات البيضاء لتقاومه وتخرج الصديد . أي تناقض إذن ؟

إن ربنا ترك من عيبيات كونه المادي ما يثبت صدقه في التحدث بعيبيات أخرى . « قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك » ، لقد جاء

---

(١) رواه احمد والبخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه

الحق بواحد من الإنس حتى لا يظن الجن أنه أخذ سعة قانونه وشعاعيته وسرعته من عنصر تكوينه بل إنه أخذها بإرادة المكون ـ سبحانه ـ إذن فالمسألة ليست عنصرية بل هي إرادة الله إنه ـ جلت قدرته ـ لو صح: أنا أستطيع أن أجعل من الجن القوى بقانونه وهو الجن محكوماً لواحد من الإنس ، ويجعله يعمل ما يريده . ولم يطلقها الله كصفة ممنوحة لكل البشر حتى لا تحدث فتنة عند من يمنحها . لأنها ستعطيه فرصة ليست موجودة عند غيره وقد يطغى بها وهذا هو السحر وأوضحنا ذلك عند قوله سبحانه

﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ۚ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة البقرة)

فتنة ، لماذا ؟ . لأنك تأخذ فرصة ليست موجودة لغيرك ، وعندما توجد عندك فرصة ليست موجودة لغيرك فأنت لا تضمن نفسك أن تستعملها في الضار فقد تستعملها في ذلك ؛ فستذهب بك إلى النار. والحق يقول :

﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة البقرة)

إذن فالحق سبحانه وتعالى من خلاله قدرته يعطي للجنس الضعيف وهو الإنسان شيئا يستطيع به أن يسحر الأقوى وهو الجن ، والجن يعرف هذه الحكاية . ولذلك فكل الذين يتمثل لهم الجن لا يأتي ويدوم بل يأتي لمحة خاطفة ؛ لأنه لا يستطيع أن يستمر على صورته التي يتمثل فيها ، فلو تمثل بإنسان أو بحيوان مثلا لحكمته الصورة ، ولن حكمته الصورة ، واستطاع من يراه أن يطلق عليه رصاصة من « مسدسه » لقتله !

ولذلك فالجن يأتي لمحة مثل ومضة البرق ويختفي ، إنه طلاقة قدرة الحق التي

يمكن أن تعطى للجنس الأقل ـ الإنسان ـ قوة القدرة على أن يُسخّر الجنس الأقوى ـ الجن ـ ، لكن هذه ليست فى مصلحة الإنسان ، ولذلك فالمؤمن من الجنّ يقول : أن أكتفى فى جسى هانوى ، فربما يجعلنى عدم تكافؤ الفُرص طاغيا ، لأن من يملكون هذه القدرة يطغون فى الناس . والذى يقوم بعمل تكره به المرأة زوجها ويكره به الزوج امرأته هو نفسه من يَحِلّ مثل هذا العمل ، ومن مصلحته أن تستمر هذه الحكاية

ولذلك لا أحد يتغلب على تلك المسألة إلا إذا استحضر قول الحق : « وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله » فالسحر وارد بنص القرآن ، لكن يجب أن تعلم أن هذه ليست طبيعية فى السحرة ولا ذاتية فيهم ، وإذا أراد الله ألا يضار الإنسان بالسحر فلن ينفع السحر ، وإن اتسعت المعرفة بهذا الأمر تكون فتنة للناس ، والذى يتبع هؤلاء السحرة ويذهب لهم ليفكّوا له السحر ، ويذهب لهم ليسحروا له الخصوم ، وينفتن فيهم يعيش طوال عمره مُرهقاً مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الجن)

صحيح أنهم يقدرون أن يسحروا ، لكن ذلك السحر يريد التسبب فيه رهقاً وتعبا .

وعلى المؤمن أن يحمى نفسه بهذا الدعاء . « اللهم قد أقدرت بعض خلقك على السحر ، واحتفظت لذاتك بإذن الصر ، فأعوذ مما أقدرت عليه بما احتفظت به » .

عندئذ لن يخافهم ولن يجدوا سبيلاً لهم إليه ، فهم يستغلون الضعيف فقط ، والسحر يُوجد عدم تكافؤ فرص ، ويفتن الناس فى الناس ، ويؤدى إلى إخلال توازن المجتمع .

وبعد ذلك نجىء كبيرة منع الزكاة ، والحق سبحانه وتعالى حين يطلب منا أن نُزكى ، إنما يلفتنا إلى أننا لم نأت بشىء من عندنا ؛ فالعقل الذى يخطط للعمل مخلوق لله ، والجوارح التى تعمل مخلوقة لله ، والأرض التى تعمل فيها أو الصنعة التى

تصنعها مخلوقة لله . إذن فكل حاجة لله ، لكنه أوصح لك . سأحترم عملك ، وعليك أن تعطى أخاك الفقير بعضاً مما رزقتك به

ويقول قائل : مادام هو ربُّ الكلّ ، فلماذا يترك واحداً فقيراً ؟ نقول . لكي يُثبت الأغيار في الكون ، ويعرف الغنيُ أن الفقر قد يلحقه ، ويعرف القوى أن الضعف قد يلحقه ، إذن فالمسألة جاءت لنظام الكون ، فيُحس الخالق قلب الواجد على المعدم ليعطيه ، فيوم تمنع الزكاة يظهر أثر ذلك في الكون لأنها مسألة محسوبة بحساب دقيق . ولذلك فإذا رأيت واحداً جوعان بحق فاعرف أن واحداً منع زكاته فلم يؤدها ، وإن رأيت عورة في المجتمع فاعرف أن فيه حداً مضيّعاً لله ، لأن ربنا جعل المجتمع متساوياً والنقص هنا يكمّله من هناك ، فإن رأيت نقصاً عاماً فاعرف أن فيه حقاً لله مضيعاً

وبعد ذلك حدثنا سيدنا جعفر الصادق عن كبيرة ترك الصلاة ، ونعرف أن الصلاة هي إعلان دوام الولاء للإله الواحد ، فأنت تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله مرّة واحدة في العمر ، وتُزكّي إن كنت واجداً وقادراً مرّة واحدة في السنة ، وتحجّ مرّة واحدة في العمر ، وتصوم شهراً واحداً في السنة ، وإن كنت مريضاً لاتصوم وقد يسقط عنك هذا الركن إذا كان هناك مرض لايرجى شفاؤه أو أصبح لشخص لايقوى على الصوم لكبر سنه ، وإذا كنت فقيراً لاتزكي ، فقد سقطت الزكاة عنك أيضاً ، وإن كنت غير مستطيع فلا تحج ويسقط عنك الحج .

هاهي ذي ثلاثة أركان لك عذر إن لم تفعلها . ويبقى ركنان اثنان من أركان الإسلام : شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والصلاة ، وشهادة أن لا إله إلا الله يكفي أن تقولها في العمر مرة ، فماذا يبقى من أركان الإسلام ؟ يبقى الصلاة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم :

« الصلاة عمود الدين »[1] .

(١) رواه أبو نعيم الفضل بن دكين في الصلاة من غير رفع حديث حسن ، ورواه البيهقي في شعب الإيمان بلفظ (الصلاة عماد الدين) من غير رفع ولكنه ضعيف .

إذن فترك الصلاة معناه : أنه تمرد على إعلان العبودية والولاء للحق . وقد طلبها الله في اليوم خمس مرات ، وحتّم الجماعة فيها في يوم الجمعة في الأسبوع . لماذا ؟ حتى يرانا كل العبيد لله عبيداً لله . فلا يعبد واحد ربنا سراً وبعد ذلك لا يرى أحد منا أحداً فكلنا نسجد لله ولا بد من إعلان الولاء لله ، فيوم تُترك الصلاة يُعدم إعلان الولاء لله ـ سبحانه ـ .

ومن العجيب أن الصلاة فرضها الله عليك بأنك تذهب له خمس مرات في اليوم ، هذا بالأمر والتكليف ، ورغم أنك لم تذهب تأثم إنه ما أغلق الباب اذهب له في أي وقت تجده في استقبالك في أي مكان تقف وتقول : الله أكبر تكون في حضرة ربنا ، وقلنا سابقاً : إن من له السيادة في الدنيا حين تطلب لقاءه تقدم طلباً حتى تلقاه . وبعد ذلك الميعاد ، وبعد ذلك يسألك أحد رجاله : ستتكلم في ماذا وقد يقف المسئول أو السيد في الدنيا وينهي المحادثة لكن ربنا ليس كذلك . أنت تذهب له في أي وقت وفي أي زمان وتطيل كما تحب ولن ينهي المقابلة إلا إذا أنهيتها أنت . ولذلك يقولون :

حسبُ نفسي عزاً بأني عبد
بجنابي به بلا مواعيد ربّ
هو في قدسه الأعزُّ ولكن
أما النفس مني وأين أُحبّ

صحيح هو يأمرنا أن نلقاه خمس مرات في اليوم ، لكن الباب مفتوح للقائه في أي وقت ، وأوضحنا سابقاً ـ ولله المثل الأعلى ـ هب أن صنعة تعرض على صانعها خمس مرات كل يوم ـ أيوجد فيها عطب ؟ لا وأنت تعرض على خالقك وصانعك كل يوم خمس مرات . والصنعة العادية يُصلحها صانعها بسلك أو بمسمار أو بوصلة يضعها ، أما أنت المخلوق لله وربّك غيب وهو يُصلح جهازك بما يراه مناسباً

وبعد ذلك بقي من الكبائر نقض العهد وقطيعة الرحم ، ونقض العهد لا يجعل إنساناً يثق في وعد إنسان آخر . فينتشر التشكك في نفوس الجماعة الإيمانية بعضها من بعض ، والوعد قد يجعل مشاكل للناس المُعسرين ، فعندما يقول قادر لغير قادر : أعدك بكذا . ويعطيه ماوعده به ، فإن وعده المدين بسداد الدين وأخلفه مرة فلن

يصدقه بعد ذلك وإن وعده وصدق ثم وعده وصدق ثم وعده وصدق ، يصبح صادقاً ، وكل ماعند الناس يصبح عنده ، ولذلك يقولون : من ياحد ويعطي يكون المال ماله .

وبعد ذلك تأتي كبيرة قطيعة الرحم : لأن الحق سبحانه وتعالى اشتق للرحم اسماً من اسمه فهو القائل في الحديث القدسي :

(أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته)[1]

ونعلم جميعاً حكاية سيدنا معاوية عندما دخل عليه الحاجب وقال له . يا أمير المؤمنين هناك واحد بالباب يقول : إنه أخوك ، فيقول معاوية للحاجب : أي إخوتي هو ؟ ألا تعرف إخوتي ؟ فقال الحاجب إنه يقول : إنه أخوك . فلما دخل الرجل ، سأله معاوية . أأنت أخي ؟ قال . نعم فقال معاوية . وأي إخوتي أنت ؟ . فقال . أنا أخوك من آدم ! فقال معاوية رحمٌ مقطوعة ، لاأكون أول من وصلها

تلك هي الكبائر التي ذكرها سيدنا جعفر الصادق وهي تمثل مايمكن أن يكون نقصاً للمجتمع كله من أساسه ، فكل كبيرة تنقص ناحية من نواحي المجتمع ، وهذا يخالف الإيمان ، لأن الإيمان هو منهج إن اتبعناه جميعاً عشنا في أمن . والإسلام أيضاً منهج إن اتبعناه جميعاً عشنا في سلام ، فيوم تأتي - أيها المسلم - كبيرة من هذه الكبائر فأنت تزلزل بها ركناً من الأركان ، وحينئذ لايكون هناك أمان ولاسلام ، ولذلك يقول الحق سبحانه : « إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه» وعندما ندقق في كلمة «تنهون عنه» نلتفت إلى أن أصل الفضائل أن تسلب نقيضة وأن توجب كمالاً ، فقبلما توجب الكمال بالأوامر اسلب النقائض بالنواهي ؛ ولذلك يقولون : التخلية قبل التحلية .

« إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم»..و« نكفر » أي نستر ، لأن

(١) رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد ، وأبو داود والترمذي والحاكم عن عبدالرحمن بن عوف

الكفر هو الستر ، وقلنا . إن التكفير للذنوب إسقاط للعقاب ، والإحباط إسقاط للثواب ، «وندخلكم مدخلاً كريماً» فلن نسقط عنكم العذاب فقط بل نعطيكم المدخل الكريم - يقول الحق .

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة يونس)

وقد كان يكفى ألا تعاقب ، يكفيك حينما تتجنب الكبائر لايسقط عنك العقاب فقط ، بل يدخلك الله مدخلاً كريماً ، والمدخل الكريم يتناسب مع من يدخلك فى مدخله ، فانظر ، إلى المدخل الكريم من الله وما شكله ؟ يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله تعالى :

(أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واقرأوا إن شئتم . « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين »)[1] .

وبذلك تنتقل الصورة إلى شىء جديد ، وهو التوازن بين أفراد الجنس الإنسانى ، كل هذا الكلام كى يحفظ الجنس الإنسانى مع بعضه ، وبعد ذلك يريد الله أن يقيم توازناً ومصالحة إيمانية بين نوعى الجنس الإنسانى ، والجنس الإنسانى فيه ذكورة وفيه أنوثة ويعرف أن كل جنس من الأجناس لاينقسم إلى نوعين إلا إذا كان فيه قدر مشترك يجمع النوعين من الجنس ، وفيه شىء مفترق يجعل هذا نوعاً وهذا نوعاً ولو لم يكن فيه شىء مفترق لما كان نوعين ، إذن فما دام الجنس الواحد نوعين فلا بد أن نجمعهما فى شىء مشترك ، ومادام الجنس الواحد قد انقسم لنوعين فكل نوع له مهمة . والذكورة والأنوثة هما نوعان لجنس البشر ، فالذكر والأنثى يشتركان فى مطلوبات الجنس ، وبعد ذلك ينفردان فى مطلوبات النوع ، وبعد ذلك كل نوع ينقسم إلى أفراد . والأفراد أيضاً ليسوا مكررين ، بل فيه قدر مشترك يجمع كل الأفراد ، وبعد ذلك كل واحد له موهبة وله زيادة وله شطارة فى مجال كذا أو كذا ، وبذلك يتكامل أفراد الجنس البشرى .

ومادام الجنس البشرى قد انقسم لنوعين ، فيكون للرجال خصوصية وللنساء

(١) رواه البخارى ومسلم

خصوصية . وربنا سبحانه وتعالى لايأتى حتى فى البنية العامة ليجعل الجنسين مستويين فى خصائص البنية ، صحيح البنية واحدة : رأس وجذع وأرجل، إنما يأتى ويميز بنية كل نوع بشىء ، الرجل له شكل مميز ، والمرأة لها شكل مميز . ولذلك فالذين يقولون : نسوى الرجل بالمرأة أو المرأة بالرجل نقول لهم المرأة لها تكوين خاص ، والرجل له تكوينه الخاص ، فإذا سويت المرأة بالرجل أعطيت لها مجالات الرجل ، وبقيت مجالاتها التى لايمكن للرجل أن يشاركها فيها ، معطلة لايقوم بها أحد. إذن فأنت حملتها فوق ماتطيق وأنت مخطىء ، لأنك تأتيها بمتاعب أخرى .

إن الحق سبحانه وتعالى ساعة يخلق جنساً ، وساعة يقسم الجنس إلى نوعين ، يوضح : تنبهوا أن كل نوع له مهمة وفيه شىء مشترك ، المشترك بين الأنوثة والذكورة ، ماهو ؟ إن هذا إنسان وذلك إنسان ، وإن هذا من ناحية الإيمان مُطالب منه أن يكون له عقيدة إيمانية ولا أحد يسيطر على الآخر فى عقيدته الإيمانية ، الاثنان متساويان فيها ، ولا يفرضها واحد على الآخر ، وضرب الله سبحانه وتعالى لنا مثلاً على تشخص الذكورة وتشخص الأنوثة فى الأمر الأول للإيمان ، وإن اختلفت فى الأمر الثانوى للأحكام ، فيقول :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة التحريم)

وهذان رسولان ، ومع ذلك لم يستطيعا إقناع زوجتيهما بالتوحيد إذن فكل إنسان له حرية العقيدة والتعقل ، ولا أحد تابع لآخر فى هذه المسألة أبداً . ويقول الحق :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة التحريم)

فرعون الذى ادعى الألوهية لم يقدر أن يرغم إمرأته على أن تكفر والحق سبحانه وتعالى قال فيها :

﴿ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾

(من الآية ١١ سورة التحريم)

إذن ففي مسألة العقيدة الكل فيها سواء ، الذكورة والأنوثة ، فيها عقل وفيها تفكير . ولعل المرأة تشير برأي قد يعز على كثير من الرجال . ولنا مثل من زوج رسول الله (أم سلمة) وموقفها في صلح الحديبية فعندما يأتي الرسول صلى الله عليه وسلم ليعقد المعاهدة ، ويحرن أصحابه ومنهم عمر رضي الله عنه الذي قال . أنقبل الدنية في ديننا فيقول له سيدنا أبوبكر : الزم غرزك ياعمر إنه رسول الله . فدخل رسول الله منصباً ، طبعاً من حمية عمر وحرن الصحابة ، لأنها مسألة تمر على النفس البشرية ، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يذهب فيجد أم سلمة فيقول لها . هلك المسلمون ، ألا ترين إلى الناس آمرهم بالأمر فلا يصلونه وهم يسمعون كلامي وينظرون وجهي ؟ فقالت يارسول الله : لاتلمهم فإنهم قد داخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح يا نبي الله اخرج إليهم ولا تكلم أحدا كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك » .

لقد وقع رسول الله صلح الحديبية وانتهت المسألة ولكن رحمة الله بالمؤمنين الذين وقفوا أمام رسول الله في هذه المسألة ، ورحمة الله لهم بأم سلمة أوضح لهم الرسول : سأبين لكم : أنتم لو دخلتم مكة وفيها أناس مسلمون لاتعرفونهم إنهم يكتمون إيمانهم وإسلامهم ، والبيت الكافر قد يكون فيه واحد مسلم ، وقد تقتلون أناساً مسلمين لا تعرفونهم فتصيبكم معرة أي ما تكرهونه ويشق عليكم مصداقاً لقول الحق تعالى :

﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الفتح)

لو تزيلوا أي لو تميز المؤمنون في منطقة لعاقبت الكافرين عقابا شديدًا . إذن لقد أوضح لهم العلة ، فرضي الكل ، ولما أن نلتفت إلى أن المسألة جاءت من سيدتنا

أم سلمة ، وهذا دليل على أن الله لا يمنع أن يكون لامرأة عقل وتفكير ناضج ، ولذلك نجد القرآن يؤكد ذلك فى قصة بلقيس ، لقد فكرت بلقيس فى الرجل الآن ليرلزل ملكها : يا ترى هل هو طالب ملك ، فجاء على لسانها فى القرآن الكريم :

﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة النمل)

فماذا قال القادة ؟ قالوا : لا ، هذه ليست مسألتنا ، وجاء القرآن بقولهم .

﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة النمل)

كان رجل الحرب يُؤمر فقط ، يحارب أو لا يحارب ، لكن الذى يقدر هذا هم الساسة الذين ليس عندهم حمية وحركية القتال . نقول لقائد الجند : أنت تنتظر الأمر ، وتجعل الساسة المدنيين يفكرون فى عواقب الأمور ، لذلك قال قادة الجند لبلقيس « نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك » لقد وضعوا الأمر فى رقبتها وهى امرأة ، ففكرت : ساجرب واختبره وأنظر أهو طالب مُلك أم صاحب دين ـ فأرسلت هدية له ، فلما جاءته الهدية جاء القرآن بما قاله سيدنا سليمان عندما تلقى الهدية

﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ۖ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النمل)

فعرفت بلقيس أن المَلِكَ ليس هدفه ، وبعد ذلك عرفت أنه صاحب رسالة ، فقالت : أذهب له وأسلم ، انظر أداء العبارة القرآنية عندما تصور إيمان ملكة قالت .

﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة النمل)

يعني : أنا وهو أصبحنا عبيداً لله ، هذه رفعة الإيمان ؛ فلا غضاضة مادامت هي وهو عبيداً لإله واحد ، وبلقيس امرأة ولم يحرمها ربنا من الرأي الحسن أيضاً ومن الأدب الجميل ، وهي عندما ذهبت ووجدت عرشها وقد جاء به من عنده علم من الكتاب وأقامه ، لقد تركت العرش في بلدها وجاءت إلى سليمان فوجدت عرشها ، وكان لا بد أن يلتبس عليها الأمر ، وقالوا لها . أهكذا عرشك ؟:

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة النمل)

فأجابت إجابة دبلوماسية وكياسة :

﴿ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة النمل)

هي امرأة ولم يحرمها الله من نعيم المكر ، لذلك لا يصح أن نحرم المرأة من أن يكون لها فكر . لكن المهم أن تعلم أن لها حدوداً في إطار نوعيتها ، ولا تعتبر النقص في شيء للرجل أنه نقص فيه ، فإذا ما كان عندها كمال لا يوجد عند الرجل فلتعلم أنه حق في البنية يختلف الرجل عن المرأة ؛ الرجل فيه خشونة وفيه صلابة وفيه قوة ، والمرأة فيها رقة وفيها ليونة ومسيلة ، ولها عاطفة فياضة ، وفيض حنان ، والرجل فيه صلابة حزم وعزم ، إذن فكل واحد معدّ لمهمة . فلا يقولن أحد أنا ناقص في هذه ، لكن انظر غيرك إنه ناقص في ماذا وهو عندك أيضاً كامل .

ويأتي الدين ليوضح : يا مؤمنون . الحرير حرام على الذكور وحلال للإناث الذهب حرام على الذكور وحلال للإناث ، أي تذليل أكثر من هذا ؟ . لقد حرم على الرجال التمتع بالحرير والذهب وأعطاهما للنساء ، والدين يطلب أن تكون المرأة سكناً للرجل ، فالمفروض أن الرجل هو الذي يتحرك حركة الحياة خارجاً ، وعندما يعود لمنزله فهو يسكن لزوجه ، والذي يصقل السيف ويحده ، مثل الشجاع الذي يضرب به لماماً.كل له عمل يكمل عمل الآخر ، وكذلك الرجل عندما يدخل منزله ويجد حياته مرتبة بفضل جهد زوجته فهو يرتاح ويشكر لها ما شاركته من أعباء الحياة .

ويقول الحق من بعد ذلك .

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى خلق الكون وفيه أجناس ، وكل جنس يشمل أنواعاً أو نوعين ، وتحت كل نوع أفراد . فإذا ما رأيت جنساً من الأجناس انقسم إلى نوعين ، فاعلم أنهما يشتركان في مطلوب الجنس ، ثم يختلفان في مطلوب النوع ، ولو كانا متحدين لما انقسما إلى نوعين كذلك في الأفراد وإذا نظرت إلى الجماد وجدنا الجماد جنساً عاما ولكنه انقسم إلى عناصر مختلفة ، لكل عنصر من هذه العناصر مهمة مختلفة ، فمثلاً إذا أردنا إقامة بناء ، فهذا البناء يتطلب رملاً ، ويتطلب أسمنتاً ، ويتطلب آجرًّا ، ويتطلب حديداً ، فجنس الجماد كله مشترك في إقامة البناء ، ولكن للأسمنت مهمة ، وللجبس مهمة ، وللرمل مهمة ، وللمرو - وهو الرملط - مهمة ، فلا تأخذ شيئاً في مهمة شيء آخر . وكذلك انقسم الإنسان إلى نوعين ، إلى ذكورة تتمثل في الرجال ، وإلى أنوثة تتمثل في النساء ، وبينهما قدر مشترك يجمعهما كجنس ، ثم بينهما اختلاف باختلاف نوعيهما . فلو أردت أن تصنع نوعاً مكان نوع لما استطعت

إذن فمن العبث أن يخلق الله من جنس نوعين ، ثم تأتي لتقول . إن هذا النوع يجب أن يكون مثل هذا النوع . وأيضاً نعرف ذلك عن الزمن ، فالزمن ظرف للأحداث ، أي أن كل حدث لا بد له من زمن ، لكن لكل زمن حدث يناسبه ، فالزمن وهو النهار ظرف لحدث في زمنه ، والليل أيضاً ظرف لحدث في زمنه ولكن الليل حدثه السكون والراحة ، والنهار حدثه الحركة والنشاط . فإن أردت أن تعكس هذا مكان هذا أحلت وجمعت بين المتناقضين .

لقد أوضحنا أن الله يلفتنا إلى شيء قد نختلف فيه بشيء قد اتفقنا عليه ، فبين

لك : هذا الذى تختلف فيه ردّ إلى المتفق عليه . فالرمز لا خلاف فى أنك تجعل الليل سكناً ولباساً وراحة وهدوءاً ، والنهار للحركة . وكل الناس يصنعون ذلك . فالحق سبحانه وتعالى يوضح : كى نجعل الرمز ظرفاً لحركة إلا أن حركة هذا تختلف عن حركة هذا ، وهل معنى ذلك أن الليل والنهار نقيضان أو ضدان أو متكاملان ؟

إنهما متكاملان ؛ لأن راحة الليل إنما جُعلت لتصح حركة النهار . فأنت تنام وترتاح لتستأنف نشاطاً جديداً . إذن فالليل هو الذى يعين النهار على مهمته . ولو أن إنساناً استيقظ ليلة ثم جاء صباحاً ما استطاع أن يفعل شيئاً . إذن فما الذى أعان حركة النهار ؟ إنه سكون الليل ، فالحق سبحانه وتعالى بيّن : أن ذلك أمر متفق عليه بين الناس جميعاً متدينين وغير متدينين فإذا اختلفتم فى أن الذكورة والأنوثة يجب أن يتجددا فى العمل والحركة والنوع نقول لكم : لا ، هذا أمر متفق عليه فى الرمز ، فخذوا ما اتفقتم عليه دليلاً على صحة ما اختلفتم فيه . ولذلك ضرب الله المثل فقال :

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ ﴾

(سورة الليل)

فعندما يغشى الليل يأتى السكون وقال الحق بعد ذلك :

﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ ﴾

(سورة الليل)

وعندما تبزغ الشمس تدب الحركة ، ثم جاء بالشىء المختلف فيه ، فأتبع سبحانه ذلك بقوله :

﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ ﴾

(سورة الليل)

أى أن لكل جنس مهمة .

وهكذا نعرف أن الإنسان ينقسم إلى نوعين : الذكورة والأنوثة وفيهما عمل مشترك وخاصية مشتركة . وأن كلا منهما إنسان له كرامة الإنسان وله حرية العقيدة فلا يرجد رجل يرغم امرأة على عقيدة ، وضربنا المثل بامرأة نوح وامرأة لوط وامرأة فرعون

راجع اصله وخرّج احاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

إذن فالقدر المشترك هو حرية الاعتقاد ، فلا سلطان لنوع على نوع ، وكذلك حرية التعقل فى المهمات ، وعرفنا كيف أن أم سلمة - رضى الله عنها - أشارت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة الحديبية إشارة أنقذت المسلمين من انقسام فظيع أمام حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعرفنا قصة بلقيس - ملكة سبأ - التى استطاعت أن تبرم أمراً تخلّى عنه الرجال ، إذن فمن الممكن أن يكون للمرأة تعقل وأن يكون للمرأة فكر ، وحتى قبل أن يوجد الإسلام كانت هناك نساء لهن أصالة الرأى ، وحكمة المشورة فى نوع مهمتها .

فمثلاً يحدثنا التاريخ أن ملك « كِندة » سمع عن جمال امرأة اسمها « أم إياس » بنت عوف بن محل الشيبانى ، فأراد أن يتزوجها ، فدعا امرأة من « كِندة » يقال لها « عصام » وكانت ذات أدب وبيان وعقل ولسان ، وقال لها اذهبى حتى تعلمى لى علم ابنة عوف أى أرسلها خاطبة . فلما ذهبت إلى والدة « أم إياس » واسمها « أمامة بنت الحارث » وأعلمتها بما جاءت له . وأرسلت الأم تستدعى الابنة من خيمتها ، وقالت لها هذه خالتك جاءت لتنظر إلى بعض شأنك فلا تسترى عنها شيئاً أرادت النظر إليه من وجه وخلق وناطقيها فى استنطقتك به . فلما احتلت « عصام » بالبنت فعلت مثل ما أمرتها أمها . وكشفت للخاطبة « عصام » عن كل ما تريد من محاسنها ، فقالت الخاطبة كلمتها المشهورة . « ترك الخداع ما انكشف القناع » ، وصار هذا القول مثلاً ، أى أن القناع عندما يزول يرى الإنسان الحقيقة ، وعادت الخاطبة « عصام » إلى الملك فسألها ما وراءك يا « عصام » إنه يسأل : أى خبر جئت به من عند « أم إياس » ؟ . فقالت أبدى المحض عن الزبد والمحض هو : هزّ الحليب فى القربة ليفصل الزبد عن اللبن . وذلك يعنى أن رحلتها قد جاءت بنتيجة .

فقال لها : أخبرينى .

قالت . أخبرك حقاً وصدقاً . ووصفتها من شعرها إلى قدمها وصفاً أغرى الملك . فأرسل إلى أبيها وخطبها وزفت إليه .

وفى ليلة الزفاف نرى الأم العاقلة توصى ابنتها فى ميدان عملها ، فى ميدان

أمورها ، فى ميدان أنوثتها . قالت الأم لابنتها . « أى بنية ، إن النصيحة لو تركت لفضل أدب لتركت لذلك منك ـ أى أنها كأم تثق فى أدب ابنتها ولا تحتاج فى هذا الأمر لنصيحة ـ ولكنها معونة للغافل وتذكرة للعاقل . إنك غداً ستذهبين إلى بيت لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه . فكونى له أمَةً يكن لك عبداً . واحفظى عنى عشر خصال تكن لك ذخراً » .

وانظروا إلى الخصال التى استنبطتها امرأة من ميدان رسالتها ، تستمر كلمات الأم « أما الأولى والثانية : فالمعاشرة له بالسمع والطاعة والرضا بالقناعة ، وأما الثالثة والرابعة : فالتعهد لموقع عينه وموضع أنفه فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح والخامسة والسادسة : التفقد لوقت طعامه والهدوء عند منامه فإن تغيض النوم مغضبة ، وحرارة الجوع ملهبة . أما السابعة والثامنة : فالتدبير لماله والإرعاء على حشمه وعلى عياله وأما التاسعة والعاشرة : فلا تفشى له سراً ولا تعصى له أمراً ؛ فإنك إن أفشيت سرّه لم تأمنى غدره ، وإن عصيت أمره أوغرت صدره ، وإياك بعد ذلك والفرح إن كان ترحاً والحزن إن كان فرحاً » .

فذهبت أم إياس بهذه النصائح إلى زوجها وأجبت له البين والسفر وسعدت معه وسعد معها .

تلك نصيحة من أم تدل على منتهى التعقل ، ولكن فى أى شىء ؟. فى ميدان مهمتها . إذن فالمرأة يمنحها الله ويعطيها أن تتعقل وهو ميدان ولا يأتى هذا التعقل غالباً إلا فى ميدانها . لأن ميدان الرجل له حركة تتطلب الحزم ، وتتطلب الشدة ، والمرأة حركتها تتطلب العطف والحنان ؛ والأمثال فى حياتنا اليومية تؤكد ذلك ، إن الرجل عندما يدخل بيته ويجب أن ينام ، قد يأتى له طفله صارخاً باكياً ، فيثور الأب على زوجته ويسب الولد ويسب أمه ، وقد يقول ألفاظاً مثل : « اكتمى أنفاسه إنى أريد أن أستريح » . وتأخذ الأم طفلها وتذهب تربت على كتفه وتسكته ، ويستجيب لها الطفل . فهذه مهمة الأم ، ولذلك نجد أن الأحداث التاريخية العصيبة تبرز الرجل فى مكانه والمرأة فى مكانها .

فمثلا : سيدنا إبراهيم عليه السلام أسكن هاجر وابنها إسماعيل بوادٍ غير ذى

زرع ، قالت له : أتتركنا فى مكان ليس فيه حتى الماء ، أهذا نزلك برأيك أم الله أنزلك فيه ؟ . قال لها : أنزلنى الله هذا المكان . فقالت له : اذهب كى شئت فإنه لا يضيعنا . هذه المهمة للمرأة . هاجر مع طفل فى مكان ليس فيه مقوم الحياة الأول وهو الماء . فانظروا عطفها وحنانها ، مهما فعلت ؟ لقد سعت بين الصفا والمروة ، صعدت الجبل إلى أن أنهكت قواها .

إن الذى يذهب إلى الحج أو العمرة ويجرب الأشواط السبعة هذه يعرف أقصى ما يمكن أن تتحمله المرأة فى سبيل ابنها ؛ لأن هذا موقف عطف وحنان ، ابنها يريد أن يشرب وكأن الله قال لها : إنك قد سعيت ولكنى سأجعل رزقك من حيث لا تحتسبين ، أنت سعيت بين الصفا والمروة ، والماء ينبع تحت قدمى ولذلك إذن صدقت فى قولها : إنه لا يضيعنا ، ولو أن سعيها جاء بالماء لظننا جميعاً أن السعى هو الذى يأتى بالماء ، ولكن اسع ولا تعتقد فى السعى ، بل اعتقد فى الرزّاق الأعلى ، تلك مسألة ظاهرة فى أمنا هاجر .

وحينما جاء موقف الابتلاء بالذبح ، اختفت هاجر من المسرح ، وجاء دور سيدنا إبراهيم بحزمه وعزمه ونبوته . ورأى فى الرؤيا أنه يذبح ابنه ، أين أمه فى هذا ؟ اختفت من المسرح ؛ لأن هذا موقف لا يتفق مع عواطفها وحنانها . إذن فكل واحد منهما له مهمة والنجاح يكون على قدر هذه المهمة ولذلك يقول الحق : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » ساعة ترى جنساً أخذ شيئاً وجنساً آخر أخذ شيئاً ، إياك أن تشغل بالك وتتمنى وتقول « أريد هذه » ، ولكن اسأل الله من فضله ؛ لأن كلمة « ولا تتمنوا » هى نهى عن أن تتمنى ما فضل الله به بعضنا على بعض ، ولذلك يقول : « واسألوا الله من فضله » ومادمت تسأل الله من فضله ؛ فهنا أمل أن يعطيك .

وقد يرى البعض هنا مشكلة فيتساءل : كيف ينهانا الله عن أن نتمنى ما فضل الله به بعضنا على بعض فقال : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » مع أن فضل الله من شأنه أن يفضل بعضنا على بعض بدليل قوله:(ورفعنا بعضكم فوق بعض درجات) فضلا على أننى أطمع فى أن أسأل الله ليعطينى ؛ لأنه ـ سبحانه ـ

ما أمرنا بالسؤال إلا ليعطينا .

ونقول : لا ، التمنى عادة أن تطلب شيئاً يستحيل أو لم تجر به العادة ، إنما السؤال والدعاء هو مجال أن تأتى إلى شيء تستطيع الحصول عليه ، فأوضح : لا تذهب إلى منطقة التمنى ، ولذلك ضربوا المثل للتمنى ببيت الشاعر :

ألا ليت الشباب يعود يوماً
فأخبره بما فعل المشيب

تمنّى الشاعر أن يعود الشباب يوماً فهل هذا يتأتى ؟ إنه لا يتأتى . أو أن يقول قائل ليت الكواكب تدنو لى فأنظمها ، هل يمكن أن يحدث ذلك ؟ لا . ولكن هذا القول يدل على أن هذا الشيء محبوب وإن كان لم تجر به العادة ، أو هو مستحيل ، إذن فالسؤال يجب أن يكون فى حدود الممكن بالنسبة لك . والحق يوضح : لا تنظروا إلى ما فضل الله به بعضكم على بعض . ومادام الله قد فضل بعضاً على بعض فليسأل الإنسان لا فى منطقة ما فضل الله غيره عليه ويطلبه لنفسه ويسلبه من سواه ، ولكن فى منطقة أن توفق فى إبراز ما فضلك الله به ؛ ولذلك نجد الحق فى آيات التفضيل يقول .

﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ﴾

(من الآية ٧١ سورة النحل)

وما هو الرزق ؟ هل هو نقود فقط ؟ لا . بل الرزق هو كل ما ينتفع به ، فالعلم رزق ، والعلم رزق ، والشجاعة رزق ، كل هذا رزق ، وقوله الحق : « ما فضل الله به بعضكم على بعض » يجعلنا نتساءل : من هو المفضل ومن هو المفضل عليه ؟ لأنه قال . « بعضكم » . لم يبينها لنا ، إذن فبعض مفضل وبعض مفضل عليه

وسؤال آخر : وأى بعض مفضل وأى بعض مفضل عليه ؟ إن كل إنسان هو فاضل فى شيء ومفضول عليه فى شيء آخر ، فإنسان يأخذ درجة الكمال فى ناحية ، وإنسان يفتقد أدنى درجة فى تلك الناحية ، لكنه يملك موهبة أخرى قد تكون كامنة

ومكنونة . وهذا يعني التكامل في المواهب ، وهذا التكامل هو أساس الحركة في المجتمع .

لننتبه إلى الترس ، نحن نجد الترس الرائد يدخل في الترس الآخر ، فتدور الحركة ، لكن إذا وضعت ترساً زائداً مقابل ترس زائد مثله فلن تحدث الحركة إذن فلابد أن يكون متميزا في شيء والآخر متميزًا في شيء آخر فيحدث التكامل بينهما ، ومثل ذلك قلنا الليل والنهار ، الليل يعيننا على حركة النهار ، وقلنا : إن السيف في يد الفارس يضرب به ويقتل ، ولو لم يسنه خبير في الحدادة ويشحذه ويصقله لما أدى السيف مهمته ، وقد لا يستطيع هذا الخبير في صقل السيوف الذهاب للمعركة ، وقد يخاف أن يضرب بالسيف ، لكن له فضل مثل فضل المحارب بالسيف .

إن كل واحد له مهمة يؤديها ، والأقدار تعطي الناس مواهبهم المتكاملة وليست المتكررة المتعاندة ، ومادامت المواهب متكاملة فلا أحسد من تفوّق عليّ في مجال ما ؛ لأنني أحتاج إليه ، وهو لا يحسدني إن تفوقت عليه في موهبة أو عمل لأنه يحتاج إلى ، إذن فأنا أريده أن يتفوق ، وهو يريدني أن أتفوق ، وذلك مما يحبب الناس في نعم ومواهب الناس ، فأنا أحب النعمة التي وهبها الله للآخر ، وهو يحب النعمة والموهبة التي عندي .

مثال ذلك عندما نجد رجلا موهوبا في تفصيل الملابس ويحيك أجود الجلابيب فالكل يفرح به ، وهذا الرجل يحتاج إلى نجار موهوب ليصنع له باباً جيداً لدكانه ، ومن مصلحة الاثنين أن تكون كل نعمة عند واحد محمودة ، ولذلك سمانا الله « بعضا » و« بعضا » ويتكون الكل من بعض وبعض ، فأنت موهوب في بعض الأمور ولا تؤدي كل الأمور أبداً ، ولكن مصممة البعض الآخر تملك جميعاً مواهب بعضنا بعضا .

ويتابع الحق . « للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن » فمهمة النجاح للرجل أو المرأة هو أن يكون كل منهما صالحاً ومؤديا للمهمة التي خُلق من أجلها ، بعد ذلك يكون حساب الثواب والعقاب وكل واحد على قدر تكليفه .

فالثواب والعقاب يأتى على مقدار ما يقوم كل مخلوق مما كلف به .

والمثال على اختلاف مهمة الرجل عن مهمة المرأة، يتجلى فى أننا نجد الرجل عندما تغضب امرأته أو تمرض ، ويكون عنده ولد رضيع ، فهل يستطيع هو أن يرضع الطفل ؟ طبعاً لا ، لأن لكل واحد مهمة ؛ فالعاقل هو من يحترم قدر الله فى خلقه ، ويحترم مواهب الله حين أعطاها ، وهو يسأل الله من فضله ، أى مما فضله به ليعطى له البركة فى مقامه . وحين يقول الحق : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن » نلحظ أن هذه تساوى تلك تماماً

« واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شىء عليما » ومن واسع علمه سبحانه أنه وزع المواهب فى خلقه حتى يتكامل المجتمع ولا يتكرر ؛ لأن تكرار المجتمع هو الذى يولد الشقاق ، أما تكامله فيولد الوفاق ، وسبب نزول الآية « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » أن النساء قلن : إنا لم نكتب علينا الجهاد وأعطانا ربنا نصف الرجل من الميراث ، وقد أوضح الحق من قبل للمرأة أنها أخذت نصف الرجل لأنها محمية على عيرها ولن تصرف وتنفق من دخلها على نفسها ، بل سيصرف الرجل وينفق عليها، والمسألة بذلك تكون عادلة. وكذلك قال الرجال: مادام الله قد فضلنا فى الميراث، وأعطانا ضعف نصيب المرأة فلعله يفضلنا فى الآخرة ويعطينا ضعف ثوابها ، فيصبح الرجل العمل الواحد ويريد الضعف !.

وانظر لذكاء المرأة ، حينما قالت : مادام ربنا أعطانا نصف ميراثكم فلماذا لا يعطيك نصف العقوبة إذن ؟ فأوضح لهم الله : اهدأوا « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » أى أن على كل واحد أن يرضى بما قسمه الله له .

وبعد ذلك يقول الحق .

﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ

وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

وساعة ترى لفظة « لكل » وتجدها منونة ، فاعرف أن هناك حاجة مقدرة ، وأصلها « لكل إنسان » ، وحذف الاسم وجاء بدلاً منه التنوين ، مثل قوله :

﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

ونجد التنوين فى « حينئذٍ » أى حين بلغت الروح الحلقوم ، فحذف حين بلغت الروح الحلقوم وعوض عنها التنوين فى « حينئذٍ » إذن فالتنوين جاء بدلاً من المحذوف .

وقول الحق : « ولكل جعلنا موالى » ، و« الموالى » جمع « مَوْلى » . وقبل أن تنزل آيات الميراث ، آخى النبى بين الأنصار والمهاجرين ، فكانوا يتوارثون بهذه المؤاخاة ، وكان هناك شىء اسمه « مولى المناصرة » وهو أن يستريح ثمان لبعضهما ويقول كل منهما للآخر : أنا أحوك وأنت أخى ، حربى حربك ، وسلمى سلمك ، ودمى دمك ، وترث منى وأرث منك ، وتعقل عنى وأعقل عنك ، أى أن فعلتْ جناية تدفع عنى ، وإن فعلتَ أنت جناية أدفع عنك . مؤاخاة .

هؤلاء كان لهم نصيب فى مال المتوفى ، فالحق يبيِّن : لكل إنسان من الرجال والنساء جعلنا ورثة يرثون مما ترك الوالدان ، والأقربون .. أى لهم نصيب من ذلك ولأولياء المناصرة بعض من الميراث كذلك . فإياكم أن تأتوا أنتم وتقولوا : لا ، لابد أن تعطوهم نصيبهم الذى كان مشروطاً لهم وهو السدس

لكن أظل ذلك الحكم ؟ لا لقد نسخ وأنزل الله قوله

﴿ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة الأنفال)

فيادام الله قد قال : « ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون » . أى ولكل إنسان من الموالى شىء من آثار ما ترك الوالدان والأقربون . فإياكم أن تقولوا : هم ذهبوا فلا نعطيهم شيئا ، لا ما كانوا متفقين فيه وعقدو أيمانهم عليه آتوهم نصيبهم مصداقاً لقوله الحق « فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شىء شهيدا » فالله شهيد على هذه . وشهيد على أنكم تنفذون أو لا تنفذون .

وبعد ذلك جاء ليتكلم فى قضية متصلة بقول الحق سبحانه : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » فقال :

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾

«الرجال قوامون على النساء» أول ما نلتفت إليه أن بعضهم لم يفسروا الآية إلا على الرجل وزوجته على الرغم من أن الآية تكلمت عن مطلق رجال ومطلق نساء ، فليست الآية مقصورة على الرجل وزوجه ، فالأب قوام على البنات ،والأخ على أخواته . ولنفهم أولاً « الرجال قوامون » وماذا تعنى ؟ ولننظر أهله تعطى لنساء التفوق والمركز

أم تعطيهن التعب والحق سبحانه وتعالى يطلب منا أن نحترم قضية كونية ، فهو الخالق الذى أحسن كل شىء خلقه وأوضح القضية الإيمانية « الرجال قوامون على النساء » والذى يخالف فيها عليه أن يوضح - إن وجد - ما يؤدى إلى المخالفة ، والمرأة التى تخاف من هذه الآية ، نجد أنها لو لم ترزق بولد ذكر لغضبت ، وإذا سألناها : لماذا؟ تقول : أريد ابنًا ليحميا كيف وأنت تعارضين فى هذا الأمر ؟.

ولنفهم ما معنى « قوّام » ، القوّام هو المبالغ فى القيام . وجاء الحق هنا بالقيام الذى فيه تعب ، وعندما تقول : فلان يقوم على لقوم ؛ أى لا يرتاح أبدا . إذن فلماذا تأخذ « قوامون على النساء » على أنه كتم أنفاس ؟ لماذا لا تأخذها على أنه سعى فى مصالحهن ؟ فالرجل مكلف بمهمة القيام على النساء ، أى أن يقوم بأداء ما يصلح الأمر . ونجد أن الحق جاء بكلمة « الرجال » على عمومها ، وكلمة « النساء » على عمومها ، وشىء واحد تكلم فيه بعد ذلك فى قوله . « بما فضل الله بعضهم على بعض » فما وجه التفضيل ؟ .

إن وجه التفضيل أن الرجل له انكدح وله الضرب فى الأرض وله السعى على المعاش ، وذلك حتى يكفل للمرأة سبل الحياة اللائقة عندما يقوم برعايتها . وفى قصة آدم عليه السلام لنا المثل ، حين حذر الحق سبحانه آدم وزوجته من الشيطان ، إبليس الذى دُعى إلى السجود مع الملائكة لآدم فأبى ، وبذلك عرفنا العداوة المسبقة من إبليس لآدم ، وحيثيتها :

﴿ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الاسراء)

وأوضح الحق لآدم . إذا هبطت إلى الأرض فاذكر هذه العداوة واعلم أنه لن يتركك ، وسيظل يعويك ويغريك ؛ لأنه لا يريد أن يكون عاصياً بمفرده ، بل يريد أن يضم إليه آخرين من الجنس الذى أبى أن يسجد هو لأبيهم آدم يريد أن يغويهم ، كما حاول إغواء آدم :

﴿ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ ﴾

(من الآية ١١٧ سورة طه)

وهل قال الحق بعدها : فتشقيا أو فتشقى ؟ قال سبحانه .

﴿ فَتَشْقَىٰ ﴾

(من الآية ١١٧ سورة طه)

فساعة جاء الشقاء في الأرض والكفاح ستر المرأة وكان الخطاب للرجل . وهذا يدل على أن القوامة تحتاج إلى تعب ، وإلى جهد ، وإلى سعى ، وهذه المهمة تكون للرجل .

ونلحظ أنه ساعة التفضيل قال : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض » لقد جاء بـ « بعضهم » لأنه ساعة فضل الرجل لأنه قوّام فضل المرأة أيضا لشيء آخر وهو كونه السكن حين يستريح عنده الرجل وتقوم بمهمتها .

ثم تأتى حيثية القوامة . « وبما أنفقوا من أموالهم » . والمال يأتى نتيجة الحركة ونتيجة التعب ، فالذى يتعب تقول له . أنت قوّام ، إذن فالمرأة يجب أن تفرح بذلك ؛ لأنه سبحانه أعطى المشقة وأعطى التعب للجنس المؤهل لذلك ولكن مهمتها وإن كانت مهمة عظيمة إلا أنها تتناسب والخصلة المطلوبة أولاً فيها : الرقة والحنان والعطف والوداعة . فلم يأت بمثل هذا ناحية الرجل ؛ لأن الكسب لا يريد هذه الامور ، بل يحتاج إلى القوة والعزم والشدة ، فقول الله « قوامون » يعنى مبالغين فى القيام على أمور النساء .

ويوضح للنساء : لا تذكرن فقط أنها حكاية زوج وزوجة . قدرن أن القيام يكون على أمر البنات والأخوات والأمهات . فلا يصح أن تأخذ « قوام » على أنها السيطرة ؛ لأن مهمة القيام جاءت للرجل بمشقة ، وهى مهمة صعبة عليه أن يبالغ فى القيام على أمر من يتولى شئونهن .

« وبما أنفقوا من أموالهم » فإذا كان ازواج متعة للأنثى وللذكر . والاثنان يستمتعان ويريدان استبقاء النوع فى الذرية ، ما دامت المتعة مشتركة وطلب الذرية أيضا مشتركا فالتبعات التى تترتب على ذلك لم تقع على كل منهما ، ولكنها جاءت على

الرجل فقط . . . صداقاً ونفقة حتى ولو كانت المرأة غنية لا يفرض عليها الشرع حتى أن تقرض زوجها .

إذن فقوامة الرجال جاءت للنساء براحة ومنعت عنهن المتاعب . فلماذا تحزن امرأة منها ؟ فـ « الرجال قوامون على النساء » أي قائمون إقامة دائمة ، لأنه لا يقال قوّام لمطلق قائم ، فالقائم يؤدي مهمة لمرة واحدة ، لكن « قوّام » تعني أنه مستمر في القوامة .

« الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » وما دمنا نكدح ونتعب للمرأة فلابد أن تكون للمرأة مهمة توازي ذلك وهي أن تكون سكناً له ، وهذه فيها تفضيل أيضاً

لقد قدم الحق سبحانه وتعالى في صدر الآية مقدمة بحكم يجب أن يُلتزم به؛لأنه حكم الخالق الذي أحسن كل شيء خلقه ، فلوضح القضية الإيمانية : « الرجال قوامون على النساء » ثم جاء بالحيثيات فقال : « بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » ويتابع الحق : « فالصالحات قانتات حافظات للغيب » والمرأة الصالحة هي المرأة التي استقامت على المنهج الذي وضعه لها من خلقها في نوعها ، فمادامت هي صالحة تكون قانتة ، والقنوت هو دوام الطاعة لله ، ومنه قنوت الفجر الذي يقنته ، وندعو ونقف مدة أطول في الصلاة التي فيها قنوت .

والمرأة القانتة خاضعة لله ، إذن فحين تكون خاضعة لله تلتزم منهج الله وأمره فيما حكم به من أن الرجال قوامون على النساء ، « فالصالحات قانتات حافظات للغيب » وحافظات للغيب تدل على سلامة العفة . فالمرأة حين يغيب عنها الراعي لها والحامي لعرضها كالأب بالنسبة للبنت والابن بالنسبة للأم ، والزوج بالنسبة للزوجة ، فكل امرأة في ولاية أحد لا بد أن تحفظ غيبته ، ولذلك فالرسول صلى الله عليه وسلم حينما حدد المرأة الصالحة قال في حديث عن الدنيا :

« الدنيا كلها متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة »(١)

(١) رواه أحمد ومسلم والنسائي عن ابن عمرو

لقد وضع صلى الله عليه وسلم قانوناً للمرأة الصالحة يقول فيه

« خير النساء التي تسرّه إذا نظر وتطيعه إذا أمر ولا تخالفه في نفسها ولا مالها بما يكره »[1]

وأي شيء يحتاج الرجل إليه أحسن من ذلك وكلمة « إن نظرت إليها سرّتك » إياك أن توجهها ناحية الجمال فقط ، جمال المبنى ، لا ، فساعة تراها اجمع كل صفات الخير فيها ولا تأخذ صفة وتترك صفة ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم حذرنا من أن تأخذ صفة في المرأة وتترك صفة أخرى ، بل لابد أن تأخذها في مجموع صفاتها فقال .

« تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك »[2] .

المطلوب ألا تنظر إلى زاوية واحدة في الجمال ، بل انظر إلى كل الزوايا ، فلو نظرت إلى الزاوية التي تشغل الناس ، الزاوية الجمالية ، لوجدتها أقل الزوايا بالنسبة إلى تكوين المرأة ؛ لأن عمر هذه المسألة « شهر عسل » - كما يقولون - وتنتهي ، ثم بعد ذلك تبدو المقومات الأخرى . فإن دخلت على مقوم واحد وهي أن تكون جميلة فأنت تخدع نفسك ، وتظن أنك تريدها سيدة صالحة ! ونقول لك : هذه الصفة أمدها بسيط في عمر الزمن ، لكن ما يبقى لك هو أن تكون أمينة ، أن تكون مخلصة ، أن تكون مدبرة ؛ ولذلك فالفشل ينشأ في الأسرة من أن الرجال يدخلون على الزواج بمقياس واحد هو مقياس جمال البنية ، وهذا المقياس الواحد عمره قصير ، يذهب بعد فترة وتهدأ ثورته وبعد ذلك تستيقظ عيون الرجل لتتطلع إلى نواحي الجمال الأخرى ، فلا يجدها فيحدث الفشل ؛ لذلك لابد أن تأخذ مجموعة الزوايا كلها إياك أن تأخذ زاوية واحدة ، وخير الزوايا أن يكون له دين . وكذلك المقياس بالنسبة لقبول المرأة للزوج ، أيضاً خير الزوايا أن يكون له دين ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

---

(١) رواه أحمد والنسائي والحاكم .

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه

« إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه إن لا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض »[1] .

وعندما استشار رجل سيدنا الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ قال : زَوِّجها من ذي الدين ، إن أحبها أكرمها ، وإن كرهها لم يظلمها .

إذن فالدين يرشدنا : لا بد أن ننظر إلى المسألة التي سيكون لها عمر طويل في الحياة الممتدة ، وبعد ذلك إذا أرادت أن تكون ناجحة فعليها أن ترى إطار نوعيتها وتنبغ فيه ، ومن الممكن إن كان عندها وقت أن توسع دائرة مهمتها في بيتها ، فإذا كان عندها أولاد فعليها أن تتعلم الحياكة وتقوم بتفصيل وحياكة ملابسها وملابس أولادها فتوفر النقود ، أو تتعلم التطريز كي لا تدفع أجرة ، أو تتعلم التمريض حتى إذا مرض ولدها استطاعت أن تمرضه وترعاه ، أن تتعلم كي تغني عن مدرس خصوصي يأخذ نقوداً من دخل الأسرة ، وإن بقي عندها وقت فلتتعلم السباكة لتوفر أجرة السباك إذا فسد صنبور ماء ، أو تتعلم إصلاح الكهرباء لتصلح مفتاح الإضاءة . وتستطيع المرأة أن تقوم بأي عمل وهي جالسة في بيتها وتوفر دخلا لتقابل به المهام التي لا تقدر أن تفعلها ، والمرأة تكون من « حافظات الغيب » ليس بارتجال من عندها أو باختيار ، بل بالمنهج الذي وضعه الله لحفظ الغيب ؟

فما المنهج الذي وضعه الله لحفظ الغيب ؟ تحافظ على عرضها وعلى مال زوجها في غيبته ، فتنظر المنافذ التي تأتي منها الفتنة وتمتنع عنها ، لا تخرج إلى الشوارع إلا لحاجة ماسة أو ضرورة كي لا ترى أحداً يفتنها أو يفتن بها ، لأن هذه هي مقدمات الحفظ ، ولا تذهب في رحمة الحياة ، وبعد ذلك نقول لها « حافظي على الغيب » بل عليها أن تنظر ما بيّنه الله في ذلك . فإن اضطررت أن تخرجي فلتغضي البصر ؛ ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾

(من الآية ٣١ سورة النور)

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة

فالمرأة إن لم تغض النظر يحدث التفات عاطفى ؛ لأن كل شعور فى الإنسان له ثلاث مراحل : مرحلة أن يدرك ، ومرحلة أن يجد فى نفسه ، ومرحلة أن ينزع ، أى يحول الأمر إلى سلوك . ونضرب دائماً المثل بالوردة . وأنت تسير ترى وردة فى بستان وبمجرد رؤيتك لها فهذا إدراك ، وإذا أعجبتك الوردة وعشقتها وأحببتها فهذا اسمه وجدان . وإذا اتجهت لتقطفها فهذه عملية نزوعية ، فكم مرحلة ؟ ثلاث مراحل : إدراك ، فوجدان فنزوع

ومتى يتدخل الشرع ؟ الشرع يتدخل فى عملية النزوع دائماً يقول لك : أنت نظرت الوردة ولم تعترض على ذلك ، أحببتها وأعجبتك فلم نقل لك شيئاً ، لكن ساعة جئت لتمدّ يدك لتأخذها قلنا لك : لا ، الوردة ليست لك .

إذن فأنت حرّ فى أن تدرك ، وحرّ فى أن تجد فى نفسك ، إنما ساعة تنزع نقول لك : لا ، هى ليست لك ، وإن أعجبتك فازرع لك وردة فى البيت ، أو استأذن صاحبها مثلاً .

إذن فالتشريع يتدخل فى منطقة النزوع ، إلا فى أمر المرأة فالتشريع يتدخل من أول الإدراك ؛ لأن الذى خلقنا علم أننا إن أدركنا جمالاً ، نظرنا له ، وستتولد عندنا مواجيد بالنسبة للأشياء التى نراها ونشتهيها ، وساعة يوجد إدراك واشتهاء ، لا يمكن أن ينفصل هذا عن النزوع ؛ لأنك ـ كرجل ـ مركب تركيباً كيميائيا بحيث إذ أدركت جمالاً ثم حدث لك وجدان واشتهاء ، فالاشتهاء لا يهدأ إلا بنزوع ، فبيّن لك الشرع : أنا رحمتك من أول الأمر ، وتدخلت من أول المسألة وكل شىء أتدخل فيه عند النزوع إلا المرأة فقد تدخلت فيها من أول الإدراك ؛ لذلك أمر الحق الرجل أن يغض البصر ، وكذلك أمر المرأة .

لماذا ؟ لأنك إن أدركت فستجد ، وإن وجدت فستحاول أن تنزع ونزوعك سيكون عربدة فى أعراض الناس ، وإن لم تنزع فسيبقى عندك كبت ؛ لذلك حسم الحق المسألة من أولها وقال .

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ

خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾

(الآية ٣٠ وجزء من الآية ٣١ سورة النور)

فاسمعوا المسألة من أول مراحلها لماذا ؟ لأنني عندما أرى وردة ، ثم قالوا لي : هي ليست لك فلا تقطفها ، فلا يحدث عندي ارتباك في ماذا ، لكن عندما يرى الرجل امرأة جميلة وتدخل في وجدانه فسيحدث عنده النزوع ؛ لأن له أجهزة مخصوصة تنفعل لهذا الجمال ، ولذلك يوضح لك الحق : أنا خالقك وسأتدخل في المسألة من أول الأمر ، فقوله : « بما حفظ الله » أي بالمنهج الذي وضعه الله للحفظ : ألا أعرض نفسي إلى إحراك ، فينشأ عنه وجدان ، وبعد ذلك أفكر في النزوع ، . فإن نزعت أفسدت ، وإن لم تنزع تعقدت ، فيأتي شرّ من ذلك ، هذا معنى « بما حفظ الله » ، يعني انظروا إلى المنهج الذي وضعه الله لأن تحفظ المرأة عيبة زوجها ، وهي تحفظه ليس بمنهج من عندها . بل بالمنهج الذي وضعه خالقها وخالقه

وها هو ذا الحق سبحانه وتعالى حينما يرى في عبده حاسة اليقظة قال : « واللاتي تخافون نشوزهن » فالنشوز لم يحدث بل مخافة أن يحدث ، فاليقظة تقتضي الترقب من أول الأمر ، لا تترك المسألة حتى يحدث النشوز ، و« النشوز » من « مشر » أي ارتفع في المكان ومنه « النشز » وهو المكان المرتفع ، وصدام الحق قد قال : « الرجال قوامون على النساء » فالمعنى هنا : مَن تريد أن تتعالى وتوضع في مكانة عالية ؟! ولذلك فالشاز حتى في النغم هو : صوت خارج عن قواعد النغم فيقولون : هذه النغمة شاز ، أي خرجت عن قاعدة السمعة التي سبقتها . وكذلك المرأة المفروض فيها أنها تكون متطامنة ، فإن شعرت أن في بالها أن تتعالى فإياك أن تتركها إلى أن تصعد إلى الربوة وترتفع . بل عليك التصرف من أول ما تشعر ببوادر النشوز فتسنه ، ومعنى قوله . « واللاتي تخافون » يعني أن النشوز أمر متخوف منه ومتوقع ولم يحدث بعد .

وكيف يكون العلاج ؟ يقول الحق : « فعظوهن » أي ساعة تراها تنوي هذا فعظها ، والوعظ : النصح بالرقة والرفق ، قالوا في النصح بالرقة : أن تنتهز فرصة

انسجام المرأة معك ، وتنصحها فى الظرف المناسب لكى يكون الوعظ والإرشاد مقبولاً فلا تأت لإنسان وتعظه إلا وقلبه متعلق بك .

ولنفترض أن ابناً طلب من والده طلباً ، ولم يحضره الأب ، ثم جاءت الأم لتشكو للأب سلوك الابن ، فيحاول الأب إحضار الطلب الذى تمناه الابن ، ويقول له :

ـ تعال هنا يا بنى ، إن الله قد وفقنى أن أحضر لك ما طلبت .

وفى لحظة فرح الابن بالحصول على ما تمنى ، يقول له الأب . لو تذكرت ما قالته لى أمك من سلوكك الردىء لما أحضرته لك

ولو سب الأب ابنه فى هذه اللحظة فإن الابن يضحك .

لماذا ؟ لأن الأب أعطى الابن الدرس والعظة فى وقت ارتباط قلبه وعاطفته به . ولكن نحن نعمل عير ذلك . فالواحد يأتى للولد فى الوقت الذى يكون هناك نفور بينهما ، ويحاول أن يعظه ، لذلك لا تنفع الموعظة ، وإذا أردنا أن تنفع الموعظة يجب أن نغير من أنفسنا ، وأن نتحين فرصة التصاق عواطف من نرغب فى وعظه فنأتى ونعطى العظة .

هكذا « فعظوهن » هذه معناها : برفق وبلطف ، ومن الرفق واللطف أن تختار وقت العظة ، وتعرف وقت العظة عندما يكون هناك انسجام ، فإن لم تنفع هذه العظة ورأيت الأمر داخلاً إلى ناحية الربوة ، والنشوز فاتنبه . والمرأة عادة تميل على الرجل بما تعرف فيه من إقباله عليها . وقد تصبر المرأة على الرجل أكثر من صبر الرجل عليها ، لأن تكوين الرجل له جهاز لا يهدأ إلا أن يفعل . لكن المرأة تستثار ببطء ، فعندما تنفعل أجهزة الرجل فهو لا يقدر أن يصبر ، لكن المرأة لا تنفعل ولا تستثار بسرعة ، فلتت ساعة نرى هذه الحكاية ، وهى تعرفك أنك رجل تحب نتائج العواطف والاسترسال ، فأعط لها درسا فى هذه الناحية ، اهجرها فى المضجع .

وانظر إلى الدقة ، لا تهجرها فى البيت ، لا تهجرها فى الحجرة ، بل تنام فى جانب وهى فى جانب آخر ، حتى لا تفضح ما بينكما من غضب ، اهجرها فى المضجع ؛ لأنك إن هجرتها وكل البيت علم أنك تنام فى حجرة مستقلة لو تركت البيت وهربت ، فأنت تثير فيها غريزة العناد ، لكن عندما تهجرها فى المضجع فذلك أمر يكون بينك وبينها فقط ، وسيأتيها ظرف عاطفى فتتغاضى ، وسيأتيك أنت أيضاً ظرف عاطفى فتتغاضى ، وقد يتمنى كل منكما أن يصالح الآخر .

إذن فقوله : « واهجروهن فى المضاجع » كأنك تقول لها : إن كنت ستُذِلِّينَ بهذه فأنا أقدر على نفسى . ويتساءل بعضهم : وماذا يعنى بأن يهجرها فى المضاجع ؟ . نقول : مادام المضجع واحداً فليعطها ظهره وبشرط ألا يفضح المسألة ، بل ينام على السرير وتُغلق الحجرة عليهما ولا يعرف أحد شيئاً ؛ لأن أى خلاف بين الرجل والمرأة إن ظل بينهما فهو ينتهى إلى أقرب وقت ، وساعة يخرج الرجل وعواطفه تلتهب قليلاً ، يرجع ويتلمسها ، وهى أيضاً تتلمسه . والذى يفسد البيوت أن عناصر من الخارج تتدخل ، وهذه العناصر تورث فى المرأة عناداً وفى الرجل عناداً ؛ لذلك لا يصح أن يفضح الرجل ما بينه وبينه المرأة عند الأم والأب والأخ ، ولتجعل الخلاف دائماً محصوراً بين الرجل والمرأة فقط فهناك أمر بينهما سيلجئهما إلى أن يتصالحا معاً .

« فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن » وقالوا : إن الضرب بشرط ألا يسيل دماً ولا يكسر عظماً . . أى يكون ضرباً خفيفاً يدل على عدم الرضا ؛ ولذلك فبعض العلماء قالوا : يضربها بالسواك .

وعلمنا ربنا هذا الأمر فى قصة سيدنا أيوب عندما حلف أن يضرب امرأته مائة جلدة ، قال له ربنا :

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة ص)

والضغث هو الحزمة من الحشيش يكون فيها مائة عود ، ويضربها ضربة واحدة فكأنه ضربها مائة ضربة وانتهت . فالمرأة عندما تجد الضرب مشوباً بحنان الضارب

فهي تطيع من نفسها ، وعلى كل حال فإياكم أن تفهموا أن الذى خلقنا يشرع حكماً تأباه العواطف ، إنما يأباه كبرياء العواطف ، فالذى شرع وقال هذا لابد أن يكون هكذا .

« واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن » أى ضرباً غير مبرح ، ومعنى : غير مبرح أى ألا يسيل دماً أو يكسر عظماً ويتابع الحق : « فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » .

فالمسألة ليست استذلالاً : بل إصلاحا وتقويما ، وأنت لك الظاهر من أمرها ، إياك أن تقول : إنها تطيعنى لكن قلبها ليس معى ؛ وتدخل فى دوامة الغيب ، نقول لك : ليس لك شأن لأن المحكوم عليه فى كل التصرفات هو ظاهر الأحداث . أما باطن الأحداث فليس لك به شأن مادام الحق قال : « أطعنكم » ؛ فظاهر الحدث إذن أن المسألة انتهت ولا نشوز تخافه ، وأنت إن بغيت عليها سبيلاً بعد أن أطاعتك ، كنت قوياً عليها فيجب أن تتنبه إلى أن الذى أحلها لك بكلمة هو أقوى عليك منك عليها وهذا تهديد من الله

ومعنى التهديد من الله لنا أنه أوصح : هذه صنعتى ، وأنا الذى جعلتك تأخذها بكلمتى « زوجتى .. زوجتك » .. ومادمت قد ملكتها بكلمة منى فلا تتعال عليها ؛ لأنى كما حميت حقك أحمى حقها . فلا أحد منكما أولى بى من الآخر ، لأنكما صنعتى وأنا أريد أن تستقر الأمور ، وبعد هذا الخطاب للأزواج يأتى خطاب جديد فى قول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾

وقوله . « وإن خفتم شقاق بينهما » يعنى أن الشقاق لم يقع بعد ، إنما تخافون أن يقع الشقاق ، وما هو « الشقاق » ؟ الشقاق مادته من الشق ، وشق : أى أبعد شيئاً عن شيء ، شققت اللوح : أى أبعدت نصفيه عن بعضهما ، إذن فكلمة « شقاق بينهما » تدل على أنهما التحما بالزواج وصارا شيئاً واحداً ، فأى شيء يبعد بين الاثنين يكون « شقاقاً » إذ بالزواج والمعاشرة يكون الرجل قد التحم بزوجه هذا ما قاله الله :

﴿ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾

(من الآية ٢١ سورة النساء)

ويتأكد هذا المعنى فى آية أخرى :

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

وهذا يعنى أن المرأة مظروفة فى الرجل والرجل مظروف فيها . فالرجل ساتر عليها وهى ساترة عليه ، إذا تعدّاهما الأمر ، يقول الحق : « وإن خفتم شقاق بينهما » مَن الذين يخافون ؟ . . أهو ولىّ الأمر أم القرابة القريبة من أولياء أمورهما وأموره ؟ أى الناس الذين يهمهم هذه المسألة .

« وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها » إنهم البيئة والمجال العائلى ، إذن فلا تدع المسائل إلى أن يحدث الشقاق ، كان الإسلام والقرآن ينبهنا إلى أن كل أناس فى محيط الأسرة يجب أن يكونوا يقظين إلى الحالات النفسية التى تعترض هذه الأسرة ، سواء أكان أباً أم أماً أم قريباً عليه أن يكون متنبهاً لأحوال الأسرة ولا يترك الأمور حتى يحدث الشقاق بدليل أنه قال : « وإن خفتم شقاق بينهما » . فالشقاق لم يحدث ، ويجب ألا تترك المسألة إلى أن يحدث الشقاق ، « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا » وهذا القول هو لولىّ الأمر العام أيضا إذا كانت عيونه يقظة إلى أنه يشرف على علاقات كل البيوت ، ولكن هذا أمر غير وارد فى ضوء مسئوليات ولى الأمر فى العصر الحديث . إذن فلا بد أن الذى سيتيسر له تطبيق هذا الأمر هم البارزون من الأهل هنا وهناك ، وعلى كل من لهم وجاهة فى الأسرة أن يلاحظوا الخط البيانى للأسرة ، يقولون . نرى كذا وكذا .

ونأخذ حَكَماً من هنا وحكماً من هناك وننظر المسألة التى ستؤدى إلى عاصفة قبل أن

تحدث العاصفة ، فالمصلحة انتقلت من الزوجين إلى واحد من أهل الزوج وواحد من أهل الزوجة ، فهؤلاء ليس بينهما مسألة ظاهرة بأدلتها ، ولم تتبلور المشكلة بعد ، وليس لى صدر أى منهما حُكْمٌ مسبق ، ويجوز أن يكون بين الزوجين أشياء ، إنما الحكَم من أهل الزوج والحكَم من أهل الزوجة ليس فى صدر أى منهما شىء ، وملخص الاثنان ستوكل إليهما مهمة الحكم . فلا بد أن يتصفا على ما يحدث بحيث إذا رأى الاثنان أنه لا صلح إلا بأن تطلق ، فهما يحكمان بالطلاق ، والناس قد تفهم أن الحكم هم أناس يُصْلِحُون بين الزوجين فإن لم يعجبهم الحكم بقى الزوجان على الشقاق ، لا . فنحن نختار حكماً من هنا وحكماً من هناك .

إن ما يقوله الحكمان لابد أن ننفذه ، فقد حصرت هذه المسألة فى الحكمين فقال : « إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما » .. فكأن المهمة الأساسية هى الإصلاح وعلى الحكمين أن يدخلا بنية الإصلاح ، فإن لم يوفق الله بينهما فكأن الحكمين قد دخلا بألا يصلحا .

إذ على كل حكم أن يخاف على نفسه ويحاول أن يخلص فى سبيل الوصول إلى الإصلاح ؛ لأنه إن لم يخلص فستنتقل المسألة إلى فضيحة له . فالذى خلق الجميع : الزوج والزوجة والحكم من أهل الزوج والحكم من أهل الزوجة قال : « إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما » فليذهب الاثنان تحت هذه القضية ، وبصراً بإخلاص فى التوفيق بينهما ؛ لأن الله حين يطلق قضية كونية ، فكل واحد يسوس نفسه وحركته فى دائرة هذه القضية . وحين يطلق الله قضية عامة فهو العليم الخبير ، ومثال ذلك قوله :

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(سورة الصافات)

إنه سبحانه قال ذلك ، فليحرص كل جندى على أن يكون جندياً لله ، لأنه إن انهزم فسنقول له : أنت لم تكن جندياً لله ، فيحلف من هذه . إذن فرضية القضية الكونية فى إطار عقدى كى يجند الإنسان كل ملكاته فى إنجاح المهمة ، وعندما يقول الله : « إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما » ، فإياك أن تغتر بحزم الحكمين ، وبذكاء الحكمين ، فهذه أسباب . ونؤكد دائماً : إياك أن تغتر بالأسباب ؛ لأن كل شىء من

المسبب الأعلى ، ولنلحظ دقة القول الحكيم : « يوفق الله بينهما » فسبحانه لم يقل : إن يريدا إصلاحاً يوفقا بينهما . بل احتفظ سبحانه لنفسه بفضل التوفيق بين الزوجين .

ويذيل سبحانه الآية : « إن الله كان عليما خبيرا » أي بأحوال الزوج ، وبأحوال الزوجة ، وبأحوال الحكم من أهله ، وبأحوال الحكم من أهلها ، فهم محوطون بعلمه . وعلى كل واحد أن يحرص على تصرفه ؛ لأنه مسئول عن كل حركة من الحركات التي تكتنف هذه القضية ؛ فربنا عليم وخبير .

وما الفرق بين « عليم » و« خبير » ؟ . . فالعلم قد تأخذه من علم غيرك إنما الخبرة فهي لذاتك .

وبعد أن تكلم الحق على ما سبق من الأحكام في الزواج وفي المحرمات ، وأخذنا من مقابلها المحللات ، وتكلم عمن لا يستطيع طولاً وتكلم عن المال . . وحذرنا أن نأكله بالباطل ، وتكلم عن الحال بين الرجل والمرأة ، وبعد ذلك لمتنا الحق ووجهنا ونبهنا إلى المنهج الأعلى وهو قوله سبحانه :

﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾

وعندما يقول لنا الحق : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا » أى : إياكم أن تدخلوا فى قضية من هذه القضايا على غير طاعة الله فى منهجه . . والعبادة هى : طاعة العابد للمعبود ، فلا تأخذها على أنها العبادات التى نفعلها فقط من : الصلاة والصوم والزكاة والحج ؛ لأن هذه أركان الإسلام ، ومادامت هذه هى الأركان والأسس التى بنى عليها الإسلام ، إذن فالإسلام لا يتكون من الأركان فقط بل الأركان هى الأسس التى بنى عليها الإسلام ، والأسس التى بنى عليها البيت ليست هى كل البيت ؛ لذلك فالإسلام بنيان متعدد . فالذين يحاولون أن يأخذوا من المصطلح التصنيفى ، أو المصطلح الفنى فى العلوم ويقولون : إن العبادات هى : الصلاة وما يتعلق بها . . والزكاة والصوم والحج ؛ لأنها تسمى فى كتب الفقه « العبادات » فلقد قلت : إن هذا هو الاسم الاصطلاحى ، لكن كل أمر من الله هو عبادة

ولذلك فبعض الناس يقول . نعبد الله ولا نعمل . نقول لهم العبادة هى طاعة عابد لأمر معبود ، ولا تفهموا العبادة على أساس أنها الشعائر فقط ، فالشعائر هى إعلان استدامة الولاء لله . وتعطى شحنة لنستقبل أحداث الحياة ، ولكن الشعائر وحدها ليست كل العبادة ، فالمعاملات عبدة ، والمفهوم الحقيقى للعبادة أنها تشمل عمارة الأرض ، فالحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ﴾

(من الآية ٩ سورة الجمعة)

كأنه أخرجهم من البيع إلى الصلاة ، ولم يخرجهم من فراغ بل أخرجهم من حركة البيع ، وجاء بـ« البيع » لأنه العملية التى يأتى ربحها مباشرة ؛ لأنك عندما تزرع زرعا ستنتظر مدة تطول أو تقصر لتحرج الثمار ، لكن البيع تأتى ثمرته مباشرة ، تبيع فتأخذ الربح فى الحال . والبيع ـ كما نعلم ـ ينظم كل حركات الحياة ، لأن معنى البيع : أنه وسيط بين منتج ومستهلك ، فعندما تبيع سلعة ، هذه السلعة جاءت من منتج ، والمنتج يبحث عن وسيط يبيعها لمستهلك ، وهذا المستهلك تجده منتجا أيضا ، والمنتج تجده أيضاً مستهلكاً . فالإنتاج والاستهلاك تبادل وحركة الحياة كلها فى البيع وفى الشراء ، ومادام هناك بيع ففيه شراء . فهذا استمرار لحركة الحياة . والبائع دائماً يحب أن يبيع ، لكن المشترى قد لا يحب أن يشترى ؛ لأن المشترى

سيدفع مالاً والبائع يكسب مالاً ، فيوضح الله : أتركوا هذه العملية التي يأتي ربحها مباشرة ، ولبّوا النداء لصلاة الجمعة . لكن ماذا بعد الصلاة ؟ يقول الحق :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

(سورة الجمعة)

إذن فهذا أمر أيضاً . فإن أطعنا الأمر الأول : « فاسعوا إلى ذكر الله » فالأمر في « فانتشروا في الأرض » يستوجب الطاعة كذلك . إذن فكل هذه عبادة ، وتكون حركة الحياة كلها عبادة : إن كانت صلاة فهي عبادة ، والصوم عبادة ، وبعد ذلك.. ألا تحتاج الصلاة لقوام حياة ؟ لا بد أن تتوافر لك مقومات حياة حتى تصلي . وما هي مقومات حياتك ؟ إنها طعام وشراب ومسكن وملبس ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . إذن فجماع حركة الحياة كلها سلسلة عبادة ، ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة هود)

إذن فكل عمل يؤدي إلى عمارة الكون واستنباط أسرار الله في الوجود يعتبر عبادة لله ؛ لأنك تخرج من كنوز الله التي أودعها في الأرض ما يلفت الناس إلى الحقيقة الكونية التي جاء بها الإيمان

وإياك أن تظن أن العبادة هي فقط العبادة التصفية التي في الفقه « قسم العبادات » و« قسم المعاملات » .. لا ، فكله عبادة ، لكن الحركات الحياتية الأخرى لا تظهر فيها العبادة مباشرة ؛ لأنك تعمل لنفعك ، أما في الصلاة فأنت تقتطع من وقتك ، فسميناها العبادة الصحيحة ؛ لأن العمليات الأخرى يعمل مثلها من لم يؤمن بإله ، فهو أيضا يخرج للحياة ويزرع ويصنع .

ولماذا سموها العبادات ؟ لأن مثلها لا يأتي من غير متدين . إنما الأعمال الأخرى من عمارة الكون والمصلحة الدنيوية فغير المتدين يفعلها ولكن كل أمر لله نطيعه فيه اسمه عبادة . هذا مفهوم العبادة الذي يجب أن يتأكد لنا أن نخلص العمل بالعقول التي

خلقها الله لنا بالطاقات المخلوقة لنا ، فى المادة المخلوقة وهى الأرض وعناصرها لنرقى بالوجود إلى مستوى يسعدنا ويرضى الله عنه .

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا » . بعدما قال كل هذا الكلام السابق ، لفتنا ربنا إلى قضية يجب أن نلحظها دائما فى كل تصرفاتنا هى أن نأتمر بأمر الله فى منهجه ، وألا نشرك به شيئاً ، لأن الشرك يضر قضية الإنسان فى الوجود ، فإن كنت فى عمل إياك أن تجعل الأسباب فى ذهنك أمام المسبب الأعلى . بل اقصد فى كل عمل وجه الله .

ويضرب الحق المثل لراحة الموحد وتعب المشرك فقال :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الزمر)

فهذا عبد مملوك لجماعة ، والجماعة مختلفة ومتشاكسة ، وهو لا يعرف كيف يوفق بين أوامر كل منهم التى تتضارب ، فإن أرضى هذا ، أغضب ذاك . إذن فهو عبد مبدد الطاقة موزع الجهد ، مقسم الالتفاتات ، ولكن العبد المملوك لواحد ، لا يتلقى أمراً إلا من سيد واحد ونهياً من السيد نفسه . والحق يشرع القضية لعباده بصيغة الاستفهام ، وهو العليم بكل شىء ليجعل المؤمن به يشاركه فى الجواب حتى إذا ما قال الحق : « هل يستويان » ؟ هنا يعرضها الإنسان على عقله ويريد أن يجيب ، فماذا يقول ؟ سيجيب بطبيعة الفطرة وطبيعة منطق الحق قائلاً : لا يارب لا يستويان .

إذن فأنت أيها العبد المؤمن قد قلتها ، ولم يفرضها الله عليك . وقد طرحها الحق سبحانه سؤالاً منه إليك ؛ حتى يكون جوابك الذى لن تجد جواباً سواه . فإذا ما كنت كذلك أيها العبد المؤمن قد ارتحت فى الوجود وتوافرت لك طاقتك لأمر واحد ونهى واحد ، هنا تصبح سيداً فى الكون ، فلا تجد فى الكون من يأخذ منك عبوديتك للمكون . وتلك هى راحتنا فى تنفيذ قول الله : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا »

لأن الإشراك بالله ـ والعياذ بالله ـ يرهق صاحبه . وبالبت المشركين حين يشركون يأخذون عون الله ، ولا يأخذون عون الشركاء . لكن الله يتخلى عن العبد المشرك ، لأنه سبحانه يقول .

(أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه)[1] .

الحق إذن يتخلى عن العبد المشرك . وبيت العبد المشرك يأخذ حظه من الله كشريك . . وإنما ينعدم عنه حظ الله ؛ لأن الله غنى أن يشرك معه أحدا آخر وهكذا يكون الشرك بلا رصيد إيمان ، ويحيا فى كد وتعب ويردف الحق سبحانه وتعالى عبادته بالإحسان إلى الوالدين فيأتى قوله ـ جل شأنه ـ : « وبالوالدين إحسانا » والوالدان هما الأب والأم ؛ لأنهما السبب المباشر فى وجودك أيها المؤمن . ومادامت عبادتك لله هى فرع وجودك ، إذن فإيجادك من أب وأم كسببين يجب أن يلفتك إلى السبب الأول ؛ إن ذلك يلفتك إلى من أوجد السلسلة إلى أن تصل إلى الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام .

« وبالوالدين إحسانا » . . انظر إلى المنزلة التى أعطاها الله للوالدين ، وهما الأب والأم . والخطاب لك أيها المسلم لتعبد الله ، والتكليف لك وأنت فرع الوجود ؛ لأن الخطاب للمكلف ، والتكليف فرع الوجود ، والوالدان هما السبب المباشر لوجودك ، فإذا صعّدت السبب فالوالدان من أين جاءا ؟ . . من والدين ، وهكذا حتى تصل لله ، إذن فانتهت المسألة إلى الواحد ؛ لأن التكليف من المُكلِّف إلى المُكلَّف فرع الوجود . والوجود له سبب ظاهرى هما « الوالدان » ، وعندما تسلسلها تصل لله إنه ـ سبحانه ـ أمر . اعبدنى ولا تشرك بى شيئا ، وبجد ذلك . « وبالوالدين إحسانا » . . كلمة « الإحسان » تدل على المبالغة فى العطاء الزائد . . الذى نسميه مقام الإحسان

« وبالوالدين إحسانا » الحق سبحانه وتعالى حينما قرن الوالدين بعبادته لأنه إله واحد ولا تشرك به شيئا ، لم يذكر أو يتعرض لإيمانهما أو كفرهما ، لأن هناك آية أخرى

(١) رواه مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة

يقول فيها :

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة لقمان)

صحيح لا تطعهم ولكن احترمهم ؛ لأنهما السبب المباشر فى الوجود وإن كان هذا السبب مخلوقاً لمن أنشأه وأوجده وهو الله ـ جلت قدرته ـ ، « وصاحبهما فى الدنيا معروفا » والمعروف يصنعه الإنسان فيمن يحبه وفيمن لا يحبه ، إياك أن يكون ذلك متعلقاً بهما إن كانا مشركين ، لكن صاحبهما فى الدنيا معروفا ؛ ولذلك قال: « وصاحبهما فى الدنيا » أى انظر مصلحتهما فى أمور الدنيا معروف منك . والمعروف تصنعه فيمن تحب وفيمن لا تحب .

والحق يقول : « وبالوالدين إحسانا » . ويكررها فى آيات متعددة . فقد سبق فى سورة البقرة أن قال لنا :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾

(من الآية ٨٣ سورة البقرة)

وبعد ذلك تأتى هذه الآية التى نحن بصددها . « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا » .

وبعد ذلك يأتى أيضاً قوله سبحانه :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

وبعد ذلك يأتى الحق سبحانه وتعالى فيقول :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

ويأتي أيضاً في سورة العنكبوت فيقول

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾

(من الآية ٨ سورة العنكبوت)

لكن إن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، فإن كان الوالدان مشركين فلا بد أن نعطف عليهما معروفا . . والمعروف كما أوضحنا يكون لمن تحب ومن لا تحب ، ولكن الممنوع هو : الودادة القلبية ؛ ولذلك قال :

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة المجادلة)

ولا يوجد تناقض أو شبه تناقض بين الآية التي نحن بصددها وبين آية سورة المجادلة . وهناك آيات تكلم فيها الحق وقرن عبادته بالإحسان إلى الوالدين ، وهناك آيتان جاء الأمر فيهما بالتوصية بالوالدين استقلالا

وذلك في قوله تعالى :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

وفي قوله سبحانه :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾

(الآية ٨ سورة العنكبوت)

ففيه « إحسان » ، وفيه « حسن » ، « الإحسان » هو أن تعمل فوق ما كلفك الله مستشعراً أنه يراك فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، و« الإحسان » من « أحسن » ، فيكون معناها أنه ارتضى التكليف وزاد على ما كلفه . وعندما يريد الإنسان على ما كلفه الله أن يصلي الخمس المطلوبة ثم يجعلها عشرة ، ويصوم شهر رمضان ، ثم يصوم يومي الاثنين والخميس أو كذا من الشهور ، ويزكي حسب ما قرر الشرع باثنين ونصف في المائة وقد يريد الزكاة إلى عشرة في المائة ، ويحج ثم يزيد الحج مرتين . إذن فالمسألة أن تزيد على ما افترض الله ، فيكون قد أدخلك الله في مقام الإحسان ؛ لأنك حين جربت أداء الفرائض ذقت حلاوتها . وعلمت مما أقامه الله عليك من معين التقوى ومن رصيد قوله :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

علمت أن الله يستحق منك أكثر مما كلفك به ؛ ولذلك فبعض الصالحين في أحد سبحاته قال : « اللهم إني أخشى ألا تثيبني على الطاعة لأني أصبحت أشتهيها » .. أي صارت شهوة نفس ، فهو خائف أن يفقد حلاوة التكليف والمشقة فيقول : يارب إني أصبحت أحبها ، ومفروض منا أننا نمنع شهوات أنفسنا لكنها أصبحت شهوة فماذا أفعل ؟

إذن فهذا الرجل قد دخل في مقام الإحسان واطمأنت نفسه ورضيت وأصبح هواه تبعا لما أمر به الله ورضيه .

ولذلك يجب أن نلحظ أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن المتقين قال

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

لماذا هم محسنون يارب ؟ ..

يقول الحق :

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

وهل كلفني الله . ألا أهجع إلا قليلاً من الليل ؟ إن الإنسان يصلي العشاء من أول الليل وينام حتى الفجر ، هذا هو التكليف ، لكن أن تحلو للمؤمن العبادة ، ويزداد الإيمان في القلب والجوارح ، ويأنس العبد بالقرب من الله ، فالحق لا يَرُدُّ مثل هذا العبد بل إنه يستقبله ويدخله في مقام الإحسان .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾

﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

(جزء من الآية ١٦ ، والآيتان ١٧ ، ١٨ سورة الذاريات)

ورسنا لم يكلفهم بذلك ، إنما كلفهم فقط بخمسة فروض . ونعرف قصة الأعرابى الذى قال للرسول صلى الله عليه وسلم . هل علىّ غيرها ؟ قال له : لا ، إلا أن تَطَوَّعَ ، وذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم الزكاة ، فقال : هل علىّ غيرها ؟ قال . لا ، إلا أن تطَوَّع ، قال : فأدبر الرجل وهو يقول . والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . (أفلح إن صدق)[1] .

وبذلك دخل هذا الأعرابى فى نطاق المفحين . إذن فالذى يزيد على هذا يدخله الله فى نطاق المحسنين :

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

ولنلحظ دقة الأداء ، إن الحق لم يذكر أن للمحرومين فى أموال المحسنين حقاً معلوماً . لماذا ؟ ، لأن الحق سبحانه ـ ترك للمحسن الحرية فى أن يزيد على نسبة الزكاة التى يمنحها للسائل والمحروم ، وحينما يتكلم سبحانه عن مطلوب الإيمان يقول :

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة المعارج)

إذن فالذى يزيد على ذلك ينتقل من مقام الإيمان ليدخل فى مقام الإحسان . كأنه يقول لك فى الآية التى نحن بصددها . إياك أن تعمل مع ربك القدر المفروض فقط ، بل ادخل فى برّه والإنعام عليها والتلطف بها وارحمه بها وذلّه الانكسار فوق ما يطلب منك ، ادخل فى مقام الإحسان ، ثم يأتى فى آية أخرى ليرشدنا بعد أن أدخلنا فى مقام الإحسان ، إنه يصف ذلك الإحسان بشىء آخر وهو « الحسن » .

(١) رواه مسلم فى كتاب الإيمان

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾

(من الآية ٨ سورة العنكبوت)

وما هو المقابل « للحسن » ؟ إنه « القبح » ، إذن فالحق أدخلنا فى مقام الجمال مرة ، وفى مقام الإحسان مرة أخرى . وهنا أكثر من ملحظ يجب ألا يغيب عن بال المسلم ، أولاً : نجد أن المفروض فى الشائع الغالب أن الوالدين يربيان أبناءهما ، ومن النادر أن يصبح الولد يتيما ويربيه غير والديه ، فقال : الحظ سبب التربية بعد الوجود ، فسبب الوجود : يوجب عليك أن تعطيهما حقوقهما وفوق حقوقهما وتدخل فى مقام الإحسان ، ولكنه جاء فى آية وعلل ذلك فقال :

﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الإسراء)

لقد جاء الحق بالتربية حيثية فى الدعاء لهما وفى البر التوصية بهما ، لكن لو أن إنساناً أخذ فيك منزلة التربية ولم يأخذ فيك سببية الإيجاد ، أليه حق عليك أن يكون كوالديك ؟

إن الحق يقول : « كما ربيانى » ، فإذا كان والدى هما هذا الحق ، فكذلك من قام بتربيتى من غير الوالدين له هذا الحق أيضا ! مادام جاء الحق بالوالدين فى علة الإحسان : « وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » . . فمرة نلحظ أنه لا يجىء بسبب التربية كى نعلم أن الوالدين هما سبب الوجود ، ومرة يلفتنا إلى أن من يتولى التربية يأخذ حظ الوالدين ، وشىء آخر : وهو أن الحق سبحانه وتعالى حينما وصى بالوالدين إحسانا ، جاء فى الحيثيات بما يتعلق بالأم ولم يأت بما يتعلق بالأب :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

هنا جاء الحق بالحيثيات للأم وترك الأب بدون حيثية ، وهذا كلام رب ؛ لأن إحسان الوالدة لولدها وجد وقت أن صار جيناً . فهى قد حافظت على نفسها وسرت بحساب وحرص فانشغلت به وهو مازال جنيناً . وحاولت أن توفر كل المطالب قبلما يتكون له عقل وفكر بينما والده قد يكون بعيداً لا يعرفه إلا عندما يكبر ويصير غلاماً ليربيه لكفاح الحياة ، أما فى فترة الحمل والمهد فكل الخدمات تؤديها الأم ولم يكن

للطفل عقل حتى يدرك هذا ، إنما بمجرد أن وجد العقل وجد أباه يعايشه ويعاشره ، وكلما احتاج إلى شيء قالت له الأم : أبوك يحقق لك ، وكل حاجة يحتاج إليها الطفل يسأل أباه أن يأتيه بها ، وينسى الطفل حكاية أمه وحملها له في بطنها وأنها أرضعته وسهرت عليه ؛ لأنه لم يكن عنده إدراك ساعة فعلت كل ذلك ، فمن الذي ـ إذن ـ يحتاج إلى الحيثية ؟ إنها الأم ، أما حيثية إكرام الأب فموجودة للإنسان منذ ولد ووعيه لأنه رأى كل حاجته معه ؛ لذلك قال الحق :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

والطفل لا يعرف حكاية الحمل هذه ، وعندما يتنبه يجد أن والده هو الذي يأتي بكل حاجة ، ولمادام أبوه هو الذي في الصورة ، فتكون الحيثية عنه موجودة ، ولأم حيثيتها مغفولة ومستورة ، فكان لابد من أن يذكرنا الله بالحيثية المتروكة عند الإنسان مكتفياً بالحيثية للأب الموجودة والواضحة عند الابن ، ولذلك تجد النبي صلى الله عليه وسلم حينما يوصّي قال : أمك ثم أمك ثم أمك ، وبعد ذلك قال : ثم أبوك . كما جاء في الحديث : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك قال ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك »[1]

ولو حسبتها تجدها واضحة ، وأيضا فالأبوة رجولة ، والرجولة كفاح وسعي . والأمومة حنان وستر ، فهي تحتاج ألا تخرج لسؤال الناس لقضاء مصالحها ، أبوك إن خرج ليعمل فعمله شرف له . إنما خروج الأم للسعي للرزق فأمر صعب على النفس ، فالحق سبحانه وتعالى يقول . « وبالوالدين إحسانا » . . أو « بوالديه حسنا » إنها . . مقرونة في ثلاث آيات بعبادة الله وعدم الإشراك به ، ثم أفردها بالإحسان في آيتين ، ويلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم قال :

---

(١) رواه البخاري ومسلم

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾

(من الآية ١٥ سورة لقمان)

لكن هذا لا يمنع أن تعطيهما المعروف وما يحتاجان إليه ، ونلحظ أن الحق لم يأت لهما بطلب الرحمة وهما على الشرك والكفر كما طلبها لهما فى قوله :

﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الإسراء)

لأنهما وإن ربيا جسد الولد فلم يربيا قلبه وإيمانه ، فلا يستحقان أن يقول : ارحمهما ؛ لأن الحق أراد أن يسع الولد والديه فى الدنيا وإن كانا على الكفر .

والحق سبحانه وتعالى حينما يريد أن يشيع الإحسان فى الكون كله ، يبتدىء بالأقرب فالقريب فالجار ، فقال : « وبالوالدين إحسانا وبذى القربى » . إذن ففيه دوائر ولو أن كل واحد أحسن إلى أبويه فلن نجد واحداً فى شيخوخته مهيناً أبداً ، لذلك يوسع سبحانه دوائر الهمّة الإيمانية فجاء بالوالدين ثم قال بعدها : « وبذى القربى » أى صاحب القربى ، وما القربى ؟ إن كل من له علاقة نَسَبيّة بالإنسان يكون قريباً . هذه هى الدائرة الثانية ، ولو أن كل إنسان موسعاً عليه وقادراً أخذ دائرة الوالدين ثم أخذ دائرة القربى فستتداخل ألوان البر من أقرباء متعددين على القريب الواحد ، وطالما الدوائر ستتداخل ، فالواحد القريب سيجد له كثيرين يقومون على شأنه فلا يكون أحد محتاجا .

وبعد ذلك يتكلم سبحانه عن اليتامى ، واليتيم ـ كما نعلم ـ هو : من فقد أبوه ولم يبلغ مبلغ الرجال ، إنه يحتاج إلى حنان أولى . لكن بعد أن يبلغ مبلغ الرجال فهو لا يعتبر يتيماً ؛ فقد أصبح له ذاتية مستقلة ؛ ولذلك يتخلى عنه الوصف باليتم ، والذى تموت أمه لا نسميه « يتيما » ، لكن اليتيم فى الحيوانات ليس من فقد أباه بل من فقد أمه ، وإن كانت طفولة الحيوانات تنتهى بسرعة ؛ لأن والدة الحيوان هى التى ترعاه فى طفولته القصيرة نسبياً . إذن فيتم الحيوان من جهة الأم ، والإنسان يتمه هو فَقْد الأب ؛ لأن الإنسان أطول الحيوانات طفولة لأنه مُرَبٍّ لمهمة أسمى من الحيوانية ، وعرفنا من قبل ذلك عندما تأتى لتزرع ـ مثلاً ـ فِجْلاً . فبعد خمسة عشر يوماً تأكل منه ، لكنك حينما تزرع نخلة أو تزرع شجرة « مانجو » تمكث كذا سنة ،

حتى تثمر . . إذن فطول مدة الطفولة وعدم النسل للمثل يتوقف على المهمة الموكولة للشيء ، فإن كانت مهمته كبيرة ، تكن مدة طفولته أطول .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يوسع دائرة الإحسان . فيريك أن تقتصر على الوالدين فقط أو أصحاب القربى فقط حذ في الدائرة أيضاً « اليتيم » ، لأن اليتيم فقد أباه ، ثم يرى كثيراً من زملائه وأقربائه لهم آباء ، ولو لم يوصّ الحق سبحانه وتعالى بهذا اليتيم لنشأ هذا الولد وفي قلبه جذوة من الحقد على المجتمع ، وقد يتمرد على الله ، ويتساءل : لماذا لا يكون لي أب وكل واحد من أقراني له أب يأتيه بحاجته ، لكن حين يرى أنه فقد أباً واحداً ثم وجد في الجو الإيماني آباء متعددين فهو لا يسخط على أن الله أماته أباه

إن الذين يخافون أن يموتوا ويتركوا من بعدهم ذرية ضعافا ، عليهم بالإحسان إلى اليتيم فلو رأى الواحد من يتيماً يُكرم في بيئة أبوه إيمانية لما شغل نفسه ولما خاف أن يموت ويترك ولداً صغيراً ، بل يقول الإنسان لنفسه : إن المجتمع فيه خير كثير ، وبذلك يستقبل الإنسان قدر الله بنفس راضية ، ولا يزرق نفسه ، وهذه مسألة تشغل الناس منقول لكل إنسان قادر : إذا كنت في بيئة إيمانية واليتيم يجد رعاية من آباء إيمانيين متعددين فسينشأ اليتيم وليس فيه حقد ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

لأنك إن رأيت المجتمع الإيماني قد رعى أيتام غيرك فستكون على ثقة من أنه يرعى أيتامك ، فإن جاء الموت أو لم يأت فلا تشغل نفسك به ، لكن إذا رأى الإنسان يتيماً مضيعاً ، فهو يحرص على أسباب الحياة ويريد أن يأتي بالدنيا كلها لولده ، ويقول لمثل هذا الأب : اعمل لابنك بأن تضع ما تريد أن تدخره له في يد الله ؛ لأن الذي خلق أمر من المخلوق ؛ ولذلك قلنا من قبل : إن سيدنا معاوية وسيدنا عمرو بن العاص كانا يجلسان - في أخريات حياتهما - يتكلمان معاً ، فيقول عمرو بن العاص لمعاوية : يا أمير المؤمنين : ماذا بقي لك من متع الدنيا ؟ قال معاوية : أما الطعام فقد سئمت

أطيبه ، وأما الليلس فقد مللت ألينه ، وحظى الآن فى شربة ماء بارد فى يوم صائف تحت ظل شجرة .

وهذه كلمة تعطى الإنسان طموحات إنسانية فى الكون ، فبعدما صار معاوية خليفة وأميراً للمؤمنين والكل مقبل عليه قال : حظى فى شربة ماء بارد فى ظل شجرة فى يوم صائف ، وهذه توجد عند ناس كثيرين كأن الطموح انتهى إلى ما يوجد عند كل أحد : شربة ماء بارد ، ثم قال معاوية لعمرو : وأنت يا عمرو . ماذا بقى لك من متع الدنيا ؟ قال عمرو بن العاص . بقى لى أرض خوارة ـ يعنى فيها حيوانات تخور مثل البقر ـ فيها عين غزارة . . أى تعطى ماءً وفير لتروى الأرض ، وتكون فى فى حياتى ولولدى بعد مماتى ، وكان هناك خادم يخدمهما اسمه « وردان » أراد أمير المؤمنين أن يلاطفه فقال له : وأنت يا وردان ، ماذا بقى لك من متاع الدنيا ؟ انظروا إلى جواب العبد كى تعرفوا أن الإيمان ليس فيه سيد ومسود ، فقال له : حظى يا أمير المؤمنين : « صنيعة معروف أضعه فى أعناق قوم كرام لا يؤدونه إلىّ فى حياتى » أى لا يرون هذا الجميل لى حتى تبقى لعقبى فى عقبهم إذن فحظه صنيعة معروف يضعه فى أعناق قوم كرام لا يؤدونه إليه فى حياته حتى تكون لعقبه أى لمن سيترك من أولاده .

كأنه يفهمنا أنه لا شىء يضيع ، فكما تمد يدك بمد غيرك يده لك ، والرسول صلى الله عليه وسلم يعطينا هذه المنزلة فيقول « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا » وأشار بإصبعيه متجاورين » ، أىّ منزلة هذه ، فالله بعد ذلك ألا يبحث كل واحد منّا عن يتيم يكفله لكى يكون مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الجنة وهذه المنزلة كانت أمنية كل صحابى .

فقد جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محزون فقال له النبى صلى الله عليه وسلم:« يا فلان مالى أراك محزونا؟» فقال: يا نبىّ الله شىء فكرت فيه فقال : (ما هو ؟) قال:نحن نغشو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك وغداً ترفع مع النبيين فلا نصل إليك ، فلم يرد عليه النبى صلى الله عليه وسلم ونزل عليه جبريل بهذه الآية :

﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

فبعث النبي صلى الله عليه وسلم فبشّره .[1] .

فالحق يقول لهؤلاء : لا تحزنوا ، فبالتأكيد تحبون رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرحون في الدنيا لأنكم معه فلا تخشوا مسألة وجودكم معه بالجنة فسوف أبعثكم معه في الجنة ، فالمرء مع من أحب ، ولذلك أقول لكل مسلم : ابحث عن يتيم تكفله كي تأخذ المنزلة الإيمانية ، المنزلة العلية في الآخرة .

فقد قال عليه الصلاة والسلام : « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وأشار بالسبابة والوسطى وفرّج بينهما »[2] .

فقل لي إذا عاملنا اليتيم في ضوء هذه التعاليم فماذا يحدث ؟ سينتشر التكافل في المجتمع .

ويقول الحق بعد ذلك : « والمساكين » .. ونعرف أن لمساكين . كما قال الفقهاء عنهم وعن الفقراء إن كلهم في حاجة ، فهل المسكين هو من لا يملك حاجة ، أو الفقير هو الذي لا يملك حاجة أو يملك دون حاجته . كأن يكون إيراده مثلاً عشرة بينما حاجتهُ تحتاج إلى عشرين ؟ المهم أنه يكون محتاجاً . وكلمة « فقير » مأخوذة من فقر الظهر أي مصاب بما يقصم الوسط والظهر . وهو اسم معبر .

و« مسكين » أيضاً اسم معبر من المسكنة والسكن أي ليس له استعلاء في شيء .. مقلوب ومقهور .. فاللفظ نفسه جاء معبراً ، و« الجار » كلمة « جار » تعني : عدل ، كقولنا . جار عن الطريق أي عدل عنه ، فكيف أسمي من في جانبي « جاراً » ؟ لأن مَن في جانبك حدد مكاناً له من دنيا واسعة ، فيكون قد ترك الكثير

(١) من تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير .
(٢) رواه البخاري .

وجاء للقليل ، وأصبح جارك ، أى أنه عدل عن دنياواسعة وجد جانبك ، فسموا الجار لمن جار ، أى عدل عن كل الأمكنة الواسعة وجاء إلى مكان بجانبك .

وهذا الجار يوصى به الله سبحانه وتعالى كما أوصى بالقريب ، وباليتيم وبالمسكين ، للجار حقوق كثيرة ؛ لذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم كما جاء فى الحديث : « الجيران ثلاثة : فجار له حق واحد ، وهو أدنى الجيران حقا . وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق : فأما الذى له حق واحد فجار مشرك لا رحم له ، له حق الجوار ، وأما الذى له حقان فجار مسلم له حق الإسلام وحق الجوار ، وأما الذى له ثلاثة حقوق فجار مسلم ذو رحم له حق الإسلام وحق الجوار وحق الرحم »[1] .

ويقول صلى الله عليه وسلم فى حق الجار :

« مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه »[2] .

أى سيجعل له من الميراث . وما هى حدود الجار ؟ . حدوده الأقرب بابا إليك ، إلى أربعين ذراعاً ، وقالوا : إلى أربعين داراً ، هنا يقول الحق . « والجار ذى القربى » . فأعطاه حق القربى وحق الجوار ، وقال : « والجار الجنب » لأن فيه جاراً قريباً وجاراً بعيداً وقوله . « الجنب » أى البعيد ، « والصاحب بالجنب » « الصاحب » هو الرفيق . وه بالجنب » أى بجانبه . قالو : هو الزوجة أو رفيق السفر ؛ لأن الرفقاء فى السفر مع بعضهم دائماً ، أو التابع الذى يتبعك طمعاً فيما عندك من الرزق سواء كان الرزق مالاً أو علماً أو حرفة يريد أن يتعلمها منك ؛ فهو الملازم لك ، والخدم أيضاً يكون « بالجنب » وكل هذا يوسع الدائرة للإحسان ، ولو حسبت هذه الدوائر لوجدتها كلها متداخلة .

وها هو ذا النبى عليه الصلاة والسلام يقول لأبى ذر رضى الله عنه :

---

(١) رواه البزار وأبو الشيخ فى الثواب ، وأبو نعيم فى الحلية عن جابر ، وهو حديث ضعيف .

(٢) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والترمذى عن ابن عمر .

« يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك »[1]

والمهم أن تتواصل مع جارك ، أو الجار ذى القربى : أى الذى قربته المعرفة ، وكثير من الجيران يكون بينهم ودّ ، وهناك جار لا تعرف حتى اسمه ، فهذا هو « الجار الجنب » ، وهو الصاحب بالجنب وابن السبيل « وابن السبيل » قد تقول مثلاً : فلان بن فلان ، كأنك لا تعرف أباه ، أو تقول : فلان ابن البلد الفلانية أى لا تعرف عنه شيئاً سوى أنه منسوب لبلد معين ، وعندما تقول : ابن سبيل تعنى أنه غريب انقطعت به كل الأسباب حتى الأسباب التى يمكن أن تعرفه بها ، فساعة تراه تقول « ابن سبيل » أى ابن طريق ، ولا تجد مكاناً ينسب إليه إلا الطريق ، لا يجد أبا ينسب إليه ، لا يجد أمّا ، لا يجد قبيلة ، لا تعرف عنه شيئا .

« وما ملكت إيمانكم » - وسبق أن تكلمنا عن ملك اليمين وقلنا : إن الإسلام إنما جاء لا ليشرع رقاً . ولكن جاء لينهى رقاً ، ويسد منابعه التى كانت موجودة قبل الإسلام ، ولا يبقى إلا منبع واحد - هذا المنبع الواحد هو الحرب المشروعة ، ولماذا لم يطلقهم ؟ . لأن الحرب المشروعة عرضة أن يأخذ الخصوم من أبنائى وأنا آخذ من أبنائهم ، فلا أطلق أبناءهم إن جاءوا فى يدى حتى يطلقوا أبنائى الذين فى أيديهم ، ويصير الأمر إلى المعاملة بالمثل ، التى انتهى إليها العالم الحديث وهى تبادل الأسرى .

وقد نهانا الإسلام فى ملك اليمين عن أن يقال : « عبدى » بل يقال . فتاى . ولا يقال : « أمتى » بل يقال : فتاتى ، حتى التسمية أراد الشرع أن ينهى عنها ، كى لا تنصرف العبودية إلا لله .

الحق سبحانه وتعالى جاء بالإسلام والرق كان موجوداً ، وله ينابيع متعددة فوق العشرين ، وليس له إلا مصرف واحد هو إرادة السيد ، فجاء الإسلام ليصفى الرق ، وأول تصفية لشىء هو أن تسد منابعه . وبدل أن يكون مجرد مصرف واحد ، وهى رغبة السيد ، جعل له الإسلام مصارف متعددة ، إذن فنكون قد حددنا المنابع فى نبع واحد ، وعددنا المصارف . فالذنب بينك وبين الله تكفره بأن تعتق رقبة ،

---

(١) رواه مسلم

أو أحدثت ظهاراً مثلا تُعتق رقبة ، وهذه رغبة من يريد أن يصفى الرق ، فإذا لم توجد عند أى مالك أسباب لتصفيه الرق وظل الفتى أو الفتاة تحت يمينه ، فالإسلام يرشدك ويهديك : مادمت لم تؤثر أن تعتقه واستبقيته فأحسن معاملته ، أطعمه مما تطعم وألبسه مما تلبس ، ولا تكلفه ما لا يطيق ، فإن كلفته فبدك معه ، وهات لى واحداً يلبس من ملابس سيده ويأكل مثله وعندما يعمل عملاً فوق طاقته تجدُّ يَد السيد بيده . . أليست هذه هى المعاملة الطيبة ! قال الله : « وما ملكت أيمانكم » .

وبعد ذلك يجىء الحق سبحانه وتعالى فى ختام الآية بما يدك كبرياء ذى الإحسان ، فإياك أن تكون النعمة أو البذل الذى ستبذله يعطيك فى نفسك غرور الاستعلاء ؛ لأن غرور الاستعلاء هذا يكون استعلاء كاذباً . وأنت إذا استعليت على غيرك بأعراض الحياة ، فهذه الأعراض تتغير ، ومعنى « أعراض » أنها تأتى وتزول . فالذى يريد أن يستعلى ويستكبر فعليه أن يستعلى ويستكبر بحاجة ذاتية فيه ، ولذلك لا يوجد كبرياء إلا لله ، إنما الأغيار من البشر فنحن نرى من كان قوياً يصير إلى ضعف ، ومن كان غنياً يصير إلى فقر ، ومن كان عالماً يصبح كمن لا يعلم :

﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾

(من الآية ٥ سورة الحج)

فلا كبرياء إذن لمخلوق ، ومن يريد أن يستعلى ويتكبر على غيره فليتكبر - كى نقلها - بحاجة ذاتية فيه ، أى بشىء لا يسلب منه ، والخلق كلهم فى أغيار ، والوجود الإنسانى تطرأ عليه الأغيار ، إذن فاجعل الكبرياء لصاحبه ، وإياك أن تظن أنه عندما قلنا لك : اعمل كذا وأحسن لدى القربى واليتامى والمساكين ، إياك أن تحبط هذه الأعمال بأن تستعلى بها ؛ لأنها موهوبة لك من الله ، ومادامت موهوبة لك من الله فاستح ؛ لأن الذى يتكبر هو الذى لا يجد أمام عينه من هو أكبر منه .

هات واحداً يتكبر لأن عنده مليوناً من الجنيهات ثم دخل عليه واحد آخر عنده أكثر منه ماذا يفعل ؟ إنه يستحى ويتضاءل ، ولا يتكبر الإنسان إلا إذا وجد كل الموجودين أقل منه ، لكنه لو ظل ناظراً إلى الله لعلم أن الكبرياء لله وحده .

إذن فعندما يتكبر المتكبر ، إنما يفعل ذلك لأن الله ليس في باله . لكن لو كان الحق المتكبر بذاته في باله لاستحى ، فإذا كان في بالك من يعطيك لاستحييت .

إذن معنى المتكبر أن رب غائب عن باله ، لذلك يقول الحق في ختام الآية : « إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً » وما « الاختيال »؟ وما « الفخر » ؟

إن المادة كلها تدل على زهو الحركة ، ولذلك نسمي الحصان « خيلا » ؛ لأنها تتخايل في حركتها ، وعندما يركبها أحد تتخذ به ؛ ولذلك نسمي الخيلاء من هذه . إذن « لاختيال » . حركة مرئية ، « والفخر » حركة مسموعة ، فالحق ينهى الإنسان عن أن يمشي بمنجهية ، كما نهاه عن أن يسير مائلا بجانبه ولا أن يعتبر نفسه مصدراً للنعمة حتى لا ينطبق عليه قوله سبحانه :

﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الحج)

أما الفخر فهو أن يتشدق الإنسان بالكلام فيحكي عما فعل وكأنه مصدر كل عطاء للبشر ، والخيلاء والفخر ممنوعان ، وعلى المسلم أن يمتنع عن الحركة المرئية وعن كلام الفخر ، ولماذا جاء الحق بهذا هنا ؟ إنه جاء به حتى لا يظن عبد أنه يحسن إلى غيره من ذاتيته ، إنه يحسن مما وهبه الله .

ولا يصح أن تستخدم من أحسنت إليهم وتتخذهم عبيداً ؛ لأنك تحس عليهم . وعندما تنظر إلى سيادتك على هؤلاء لأنك تعطيهم ، فلماذا لا تنظر إلى سيادة من أعطاك ؟ إنك عندما تفعل ذلك وتنظر إلى سيادة خالقك فإنك قد التزمت الأدب معه وبعدت عن الاختيال والفخر بما قدمت لغيرك ، يقول الحق .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النساء)

وبعدما قال الحق : « وبالوالدين إحسانا » قال : « وبذي القربى واليتامى » .

ونحدث عن البذل والأريحية والجود والسماح وبسط اليد ، أي سبحانه بالحديث عن المقابل وهو :

﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ ﴾

وما معنى البخل ؟ إنه مشقة الإعطاء . فعندما يقطع حاجة من خاصة ماله ليعطيها لغيره يجد في ذلك مشقة ولا يقبل عليها، لكن الكريم عنده بسط يد ، وأريحية . ورتاح للمعروف ، إذن فالبخل معناه مشقة الإعطاء ، وقد يتعدى البخل ويتجاوز الحد بضن الشخص بالشيء الذي لا يضر بذله ولا ينفع منعه ، لأنه لا يريد أن يعطي . وهذا البخل والشح يكون في نفس البخيل ، لأنه أولاً قد بخل على نفسه ، فإذا كان قد بخل على نفسه ، أتريد أن يجود على الناس ؟.

والشاعر يصور بخيلاً اسمه « عيسى » ويريد أن يذمه؛لأنه بخيل جداً ؛ ويظهر صورة البخل بأنه ليس على الناس فقط بل على نفسه أيضاً ، فيما لا يضر بذله ولا ينفعه منعه . ومادام يقتر على نفسه فسيكون تقتيره على غيره أمراً متوقعاً :

بقتر عيسى على نفسه ... وليس بباق ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره ... تنفس من منخر واحد

إنه بخيلٌ لدرجة أنه يفكر لو استطاع أن يتنفس من فتحة أنف واحدة لفعل ؛ حتى لا يتنفس بفتحتي أنفه .

والشاعر الآخر يأتي بصورة أيضاً توضح كيف يمنع البخيل نفسه من الأريحية

والإنسانية فيقول :

لو أن بيتك يا ابن عم محمد إبر يضيق بها فضاء المنزل
وأتاك يوسف يستعيرك إبرة ليخيط قد قميصه لم تفعل

فالشاعر يصور أن سيدنا يوسف لو جاء إلى هذا البخيل وقال له : أعطني إبرة لكي أخيط قد القميص الذي مزقته زليخاء ، وهذا البخيل عنده بيت يمتلىء فناؤه بالإبر ، لفرط البخل ورفض .

إذن فالبخيل : هو من يضيق بالإعطاء ، حتى أنه يضيق بإعطاء شيء لا يضر أن يبذله ولا ينفعه أن يمنعه ، ويقول الحق عن البخلاء :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فالحق يجعل للبخيل مما بخل به طوقاً حول عنقه ، ولو أن البخيل قد بذل قليلاً ، لكان الطوق خفيفاً حول رقبته يوم القيامة . لكن البخيل كلما منع نفسه من العطاء ازداد الطوق ثقلاً .

ولقد قال الحق أيضاً عن الذين يكنزون الذهب والفضة

﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

(جزء من الآية ٣٤ والآية ٣٥ سورة التوبة)

فإن كان اكتنازهم لكميات كبيرة فما سيحمى على النار منها يكون كثيراً، ويكوون

به . إذن فالإنسان لا بد أن يعف عن نفسه الكيّ ، والذين يبخلون لا يكتفون بهذه الخسيسة الخلقية فى نفوسهم بل يحبّون أيضاً أن تتعدى إلى سواهم كأنهم عشقوا البخل ، ويؤلمهم أن يروا إنساناً جواداً ؛ يقول لك البخيل : لا تنفق ؛ لأنه يتألم حين يرى إنساناً جواداً ، ويريد أن يكون الناس كلهم بخلاء ؛ كى لا يكون أحد أحسن منه .

إنه يعرف أن الكرم أحسن ، بدليل أنه يريد أن يكون الناس كلهم بخلاء ، والبخل ضن بما أوتيته عن من لم يؤت . وهل البخل يكون فى المال فقط ؟. لا بل يكون فى كل موهبة أوتيتها وتنقص عند غيرك ويفتقر إليها ، إن ضننت بها فأنت داخل فى البخل .

إن الذى يبخل بقدرته على معونة العاجز عن القدرة ، والذى يبخل بما عنده من علم على من لا يعلم ، هذا بخل ، والذى يبخل على السفيه حتى بالحلم هذا بخل أيضاً ، فإن كانت عندك طاقة حلم فابذلها . إذن فالبخل معناه : أنك تمنع شيئا وهبه الله لك عن محتاجه ، معلم ـ مثلاً ـ عنده عشرة تلاميذ يتعلمون الصنعة ، ويحاول أن يستر عنهم أسرار الصنعة ؛ يكون قد بخل .

« الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل » والآية معناها يتسع لكل أمر مادى أو قيمى ونحن نأخذها أيضاً فى المعانى العالية ، فالذين أوتوا الكتاب كانوا يعرفون صفته صلى الله عليه وسلم ، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، فلما جاءهم مصدقاً لما معهم كفروا برسالته صلى الله عليه وسلم وكتموا معرفتهم به عن الناس ، وكتموا معرفتهم بما جاء به من علم وهو الصادق المصدوق . وهذا بخل فى القمة ، وبعد ذلك استمروا يأمرون الناس بالبخل

وأنتم تعرفون أن الأنصار كانت عندهم الأريحية الأنصارية ، وساعة ذهب إليهم المهاجرون ، قاسموهم المال ، حتى لنعمة التى غرس الله فى قلب المؤمن الغيرة عليها من أن يتاها أحد حتى ولو كان كارهاً لها ، وهى نعمة المرأة ؛ لأن الرجل حتى وإن كره امرأته فهو يغار أن يأخذها أحد ، وبكن الأنصار اقتسموا الزوجات ، فكم من

رجل كان متزوجاً من أكثر من واحدة ، طلق زوجة ليزوجها لمهاجر ، فاختق سبحانه وتعالى بصعد لأريحية الأنصار حتى أن الأنصارى يأتى بالمهاجر ويقول له : انظر إلى إحدى زوجتى أو إحدى زوجاتى فاختر ما يروقك فأطلقها وتتزوجها .

أية أريحية سامية هذه ؟ فإذا كنت ذا نعمة وأنت مؤمن فأنت تحب أن تمدى أثر نعمتك إلى غيرك ، فإذا كان عندك سيارة فاخرة قد تحب أن تتصدق بها ، لكن المرأة ، لا . لكن هذه الإريحية جاءت من الأنصار وقالوا : هؤلاء مهاجرون وتاركون أهلهم . وكان هذا ارتقاءً إيمانياً فى ذات الأنصار .

لقد جاء إليهم المهاجرون وبينهم شباب يمتلئون فتوة ، وكانت قريش قد منعت أهليهم عنهم ، ليس معهم زوجات . فيقول الأنصارى : لماذا لا أطلق إحدى زوجاتى ، وليتزوجها أنسى المهاجر لأنفس عن عواطفه . وأقل ما فيها أن تمنع نظره أن يتحول حراماً لكنّ اليهود والمشركين والمنافقين يقولون لهم : لا تنفقوا على من عند رسول الله . ويقول القرآن الكريم فى هذا الموقف :

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة المنافقون)

لقد أخطأوا الظن بمن آمنوا برسول الله ، ظنوا أنهم إن لم ينفقوا عليهم فسيرتدون عن إيمانهم . ونسوا أن المؤمنين المهاجرين قد تركوا أموالهم وتركوا بلادهم ، فمن ترك أمواله للهجرة فى سبيل الله أيكفر به عندما لا يجد شيئاً ؟ لا ؛ لأنه ترك كل شىء فى سبيل الله . وها هوذا سيدنا مصعب بن عمير المدلل فى قريش ، وكانت أمه تغدق عليه النعمة وهو صاحب لعطور ، وبعد ذلك يذهب إلى المدينة ، فيلبس جلد شاة ، فينظر له النبى صلى الله عليه وسلم ويقول لأصحابه : انظروا كيف صنع الإيمان بصاحبكم ، فعندما يقول المنافقون كعبدالله بن أبىّ للأنصار : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ، يظنون أن المؤمنين يمكن أن يبيعوا إيمانهم بلقمة وكأنهم نسوا أن الذى يبيع إيمانه باللقمة هو من يحمل على مبدأ باطل ، لكن من يعتنق ويعتقد مبدأ حق يجد حلاوته فى النفس ، وأجره مدخر عند ربه . إنه

لا يتحول عنه. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

« نجئت المسجد ، فطلع علينا مصعب بن عمير في بردة له مرقوعة بفروة ، وكان أنعم غلام بمكة وأرقه ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر ما كان فيه من النعيم ، ورأى حاله التي هو عليها فدرفت عيناه عليه ، ثم قال : أنتم اليوم خير أم إذا غدى على أحدكم بجفنة من خبز ولحم ؟ فقلنا : نحن يومئذ خير نكفى المؤنة ونتفرغ للعبادة ، فقال : « بل أنتم اليوم خير منكم يومئذ »[1] .

وقلنا : يجب أن نذكروا جيداً أن من حلاوة اليقين وحلاوة الإيمان أن المؤمن يضحّي بكل شيء في سبيل رفعة الإيمان . لكن أصحاب المبادىء الباطلة لا يدخلون غيرهم فيها إلا إن دفعوا الثمن مقدماً ، أي أنهم يشترونهم . فإذا رأيت مبدأ من المبادىء يشترى البشر فاعرف أنه مبدأ باطل . . ولو كان مبدأ حق لدفع الإنسان من أجل أن يدخل فيه نفيس ماله ، بل ويضحي في سبيله بنفسه أيضا .

ومن عجائب مبادىء الإسلام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما أخذ العهد لنفسه في بيعة العقبة ، قال له الأنصار : فإن نحن وفّينا بهذا فماذا يكون لنا ؟ كأنهم يقولون : أنت أخذت مالك فماذا يبقى لنا ؟ . .

انظروا إلى سمو الإيمان ، ويقين المصطفى بأن الإيمان نفسه جائزة ، فهل بشرهم بأنهم سيملكون الأرض ؟ هل بشرهم بأن هؤلاء المستضعفين هم الذين سيمكنون فيها ؟ لا ، بل قال لهم : لكم الجنة . فلو قال لهم : لكم سيادة الدنيا ، لكان في ذلك نظر ، صحيح أن الدنيا دانت وخضعت لهم ، لكن منهم من مات قبل أن تدنو له الدنيا وتذل ، فأين صدق النبوءة ؟

إذن فقد قال لهم عن الشيء المضمون ، الشيء الذي يجد المؤمن فيه نفسه من فور أن يموت . قال لهم : لكم الجنة . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - وحوله

---

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة باب حال مصعب بن عمير بعد الاسلام وأخرجه الحاكم ، وأورده ابن سعد في طبقاته وابن الأثير في « أسد الغابة »

عصابة من أصحابه ـ : « تعالوا بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوني في معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه »[1] .

لم يعرفهم بأنهم سيكونون أصحاب سلطان ، ولم يقل لهم : أنتم ستجلسون على البُسُط والدنيا ستدين لكم ، إنما قال لهم في أول البيعة : لكم الجنة ، فإياكم أن يطمع أحد منكم في شيء إلا في الجنة ؛ ولذلك فالأنصار محبوبون لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ولما كانت غزوة حنين وأعطى المهاجرين بعضاً من الغنائم ولم يكن للأنصار منها شيء ، وجد الأنصار في نفوسهم فلفتهم رسول الله لفتة إيمانية وقال لهم :

« ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شِعباً وسلكت الأنصار شِعبا آخر لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار »[2] .

فبكى القوم حتى اخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحظاً .

أي سموّ إيماني هذا ؟ لكن المنافقون قالوا للأنصار : لا تنفقوا أموالكم على من عند رسول الله حتى ينفضّو .

لكنّ المؤمنين لم ينفضّوا . إنهم قد تركوا النعيم والأموال في مكة وجاءوا إلى الهجرة ، فهم لم يأتوا ليأخذوا نعيماً مظنوناً محدوداً قليلا ، وحسبهم ما وعدوا به من نعيم متيقن عريض باقٍ . لقد عرفوا بالإيمان أن نعيم الدنيا إما أن تفوته بالموت وإمّا أن يفوتك بالتقلب ، لكن نعيم الآخرة ليس له حدٌ ينتهي عنده ، ولا يفوتك ولا تفوته .

---

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه البخاري في كتاب المغازي ورواه مسلم في كتاب الزكاة باب إعطاء المؤلفة قلوبهم .

ثم سبحانه يقول : « ويكتمون ما آتاهم الله من فضله » ، وساعة نرى شيئا يكتم شيئاً ، لابد أن نفهم منها أن هذا الكتم معناه . منع شيء يريد أن يخرج بطبيعته ، وكما يقولون : اكتم الدم فلو لم تكتمه يستطرق . كأن المال أو العلم يريد أن يخرج للناس ولكن أصحابه يكتمونه . وكأن الفطرة الطبيعية في كل رزق سواءً أكان رزقا مادياً أم رزقا معنوياً أنه يستطرق ؛ لأن كل شيء مخلوق لخدمة الإنسان ، فعندما يأتي إنسان ويحور شيئاً عما هو مخلوق لخدمة الإنسان ويحجبه فهو بذلك يمنع الشيء المكتوم من رسالته ؛ لأن كل شيء مخلوق لخدمة بني آدم ، فعندما تمنعه عن هذه الخدمة فالشيء يحزن ، وليتسع ظنكم إلى أن الجمادات تحزن أيضاً .

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الدخان)

فالسماء والأرض لها بكاء ، ليس بكاء دموع إنما بكاء بعلم الله كنهه وحقيقته ، إذن فقوله : « ويكتمون ما آتاهم الله من فضله » . كأنه يقول . ما آتاك الله من فضله ليس ملكك ، وليس ذاتية فيك ، فأنت لم تأت به من عندك . وانظر إلى الكون حولك تجده كله أغيارا ، ألم تر في حياتك قادراً أصبح عاجزاً ؟ ألم تر غنياً أصبح فقيراً ؟ فالدنيا دول ، وما من واحد إلا ويمر أمام عينيه وفي تاريخه وفي سياق من يثق بكلامه أنه « كان » هناك غنيٌ ثم صار فقيراً ، فلماذا لا تعتبر بالأغيار التي قد تمر بك ، وبعد أن كان يُطلب منك أن تعطي ، صرت في حال يطلب الحق سبحانه من غيرك أن يعطيك ، ادخر لنفسك الآن - بالخير تبذله - حتى إذا جاءتك الأغيار تجد لك ما ينتظرك .

« الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذاباً مهينا » انظر ماذا فعل فيه البخل ، إنه جعل صاحبه كافراً ، لأن البخيل ستر نعمة كان من الممكن أن تتسع له ولغيره ، فجاء له بالشيء الذي يخيف : « وأعتدنا للكافرين عذاباً مهينا » « أعتدنا » أي أعددنا وهيأنا . فالمسألة موجودة وقد أعدت ، والنبي صلى الله عليه وسلم حينما يتكلم عن الجنة يقول :

(عُرضت عليّ الجنة لو مددتُ يدي لتناولت من قطوفها)[1].

(١) رواه البخاري واحمد . وانظر المتقي الهندي في كنز العمال .

هذه ثقة اليقين في أنها مسألة جاهزة وليست تحت الإعداد ، ومن الذي أعد ؟ إنه الله ، قوى القوى، قدرة القدر هي التي تعد، وهو يعدها على قدر سعة قدرته، عذاب مهين ؛ لأنه قد يتطاول أحد ويقول أنا أتحمل العذاب ، كما قال الشاعر :

ولجلدي للشامتين أريهمو أني لريب الدهر لا أتضعضع

فسبحانه يوضح : لن يلقى البخيل العذاب فقط ، بل سيلقى عذابا مهينا ثم يأتي الحق سبحانه بالمقابل ، يأتي بغير البخيل ، فيقول :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ ﴾

إن هذه الآية الكريمة تتحدث عن الذي ينفق ، لكن الغاية غير واضحة عنده . الغاية ضعيفة لأنه ينفق رئاء الناس : إنه يريد بالإنفاق مراءاة الناس ؛ ولذلك يقول العارفون بفضل الله . اختر من يثمن عطاءك . فأنت عندما تعطي شيئاً لإنسان فهو يثمن هذا الشيء بإمكاناته وقدراته ، سواء بكلمة ثناء يقولها مثلاً أو بغير ذلك ، لكن العطاء لله كيف يُثمِّنه سبحانه ؟ لابد أن يكون الثمن غالياً

إذن فالعاقل ينظر لمن سيعطي النعمة ، ولنا الأسوة في سيدنا عثمان رضي الله عنه عندما علم التجار أن هناك تجارة آتية له ، جاء كل التجار ليشتروا منه البضاعة ثم يبيعوها ليربحوا وقال لهم : جاءني أكثر من ثمنكم ، وفي النهاية قال لهم : أنا بعتها لله ـ إذن فقد تاجر سيدنا عثمان مع الله ، فرفع من ثمن بضاعته ، فالذي يعطي لرئاء الناس نقول له : أنت خائب ، لأنك ما ثمنت نعمتك ، بل ألقيتها تافهة الثمن ، ماذا سيفعل لك الناس ؟ هم قد يحسدونك على نعمتك ويتمنون أن يأخذوها منك ،

فلماذا تراليهم ؟ إذن فهذه صفقة فاشلة خاسرة ؛ ولذلك قال الحق :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ١١١ من سورة التوبة)

ومادام سبحانه هو الذى اشترى فلابد أن الثمن كبير ؛ لأنه يعطى النعيم الذى ليس فيه أغيار ، نعيم جنة لا تفوت النعمة مؤمناً ، ولا هو يفوتها فالذى يرائى الناس خاسر ، ولا يعرف أصول التجارة ؛ لأنه لم يعرف طعم التجارة مع الله ؛ ولذلك شبه عمله فى آية أخرى بقوله :

﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ﴾

(من الآية ٢٦٤ سورة البقرة)

و « الصفوان » هو المروة وجمعه مرو وهى حجارة بيض براقة ، والمروة ناعمة وليست خشنة . لكنْ بها بعض من الشقوق يدخل فيها التراب ؛ ولأن المروة ناعمة جداً فقليل من الماء ولو كان رذاذاً يذهب بالتراب والذى ينفق ماله رئاء الناس هو من تتضح له قضية الإيمان ولكن لم يثبت الإيمان فى قلبه بعد ، فلو كنت تعلم أنك تريد أن تبيع سلعة وهناك تاجر يعطيك فيها ثمنا أغلى فلماذا تعطيها للأقل ثمنا ؟ إنك إن فعلت فقد خبت وخسرت فأوضح لك الحق : مادمت تريد رئاء الناس إذن فأنت ليس عندك إيمان بالذى يشترى بأعلى ، فتكون فى عالم الاقتصاد تاجرا فاشلاً ، ولذلك قلنا : ليحذر كل واحد حين يعطى أن يخاف من العطاء . فالعطاء يستقبله الله بحسن الأجر ، ولكن عليه ألا يعطى بضجيج ودعاية تفضح عطاءه ؛ ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم ـ ضمن السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله :

(رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)[٦]

إنَّ العبد الصالح حين يعطى فهو يعلم أن يده هى العليا ويده خير من اليد السفلى ، فليستر على الناس المحتاجين سفلية أيديهم ، ولا يجعلها واضحة . ولكن الحق سبحانه وتعالى لا يريد أن يضيق مجال الإعطاء فقال :

(٦) رواه أحمد والبخارى ومسلم والنسائى عن أبى هريرة .

﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فإبداء الصدقات لا مانع منه إن كان من يفعل ذلك يريد أن يكون أسوة ، المهم أن يخرج الرياء من القلب لحظه إعطاء الصدقة ، فالحق يوضح : إياك أن تنفق وفيك رئاء ، أما من يخرج الصدقة وفي قلبه رياء فالله لا يحرم المحتاجين من عطاء معطٍ ؛ لأنه سبحانه يؤكد حتى منه وهو الخاسر ، لأنه لن يأخذ ثواباً ، لكن المجتمع ينتفع .

إن الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس هم من الذين « لا يؤمنون بالله » لأنه سبحانه هو المعطي ، وهو يحب أن يضع المسلم عطاءه في يده « ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » فلو كانوا يؤمنون باليوم الآخر لرأوا الجزاء الباقي ، فأنت إذا كنت تحب نعمتك فحذ النعمة وحاول أن تجعلها مثمرة .. أي كثيرة الثمار ، فالذي لم يتصدق من ماله ولم ينفقه حتى على نفسه يكون قد أنهى مسألة المال وعمر ماله معه عند هذا الحدّ ، أما الذي أنفقه في سبيل الله فسيجده في الآخرة ، فيكون قد أطال عمر ماله

فالبخيل هو عدو ماله ؛ لأنه لم يستطع أن يثمره ، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف :

« إن الله تعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمةٍ جاثية ، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن ، ورجل قُتل في سبيل الله ، ورجل كثير المال فيقول الله للقارىء ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي ؟

قال . بلى يارب ، قال . فماذا عملت فيما علمت ؟ قال . كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار ، فيقول الله له . كذبت وتقول الملائكة . كذبت ، ويقول الله له . بل أردت أن يُقال : فلان قارىء فقد قيل ذلك ، ويؤتى بصاحب المال . . . . »[1]

لكن هل قال لك الدين . لا تعمل.؟ لا ، اعمل لينتفع الناس بالرغم منك .

(١) رواه الترمذي في الزهد ، وأخرجه ابن خزيمة ومسلم

والبخيل عندما يكثر ماله يكون قد حرّم على نفسه هذا المال ثم يأتي ابن له يريد أن يستمتع بالمال ، ولذلك يقال في الريف : مال الكُنرى للتزهى ، ولا أحد بقادر أن يخدع خالقه أبداً !! سبحانه يوضح : أنا أعطيتك نعمة أنت لم تعطها لأحد ، لكني سأيسر السبيل لطائع لي ، إياك أن تظن أنك خدعتني عندما بخلت ، فبخلك يقع عليك . إذن فأنت قد ضيقت رزقك بالبخل ولو أنفقت لأعطاك الله خيرا كثيرا « وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه » لكنك تركته لورثتك وسيأخذونه ليكون رزقهم متسعاً ، وأيضاً فإنك حين تمنع المال عن غيرك فأنت قد يسرت سبيلاً لمن يبذل .

كيف ؟ لنفترض أن إنساناً كريماً ، وكرمه لا يدعه يتوارى من السائل ، وليس لديه أمل فيه ويعد ذلك لم ينهض دخله بتبعاته ، فإن كان عنده « فدادين » فهو يبيع فداناً ليفرج به على المحتاجين ، وعندما يبيع الفدان سيشتريه من يكتنز ، فيكون المكتنز قد يسّر سبيلاً للكريم ، فإياك أن تظن أنك قادر على خدع من خلقك وخلق الكون وأعطاك هذه النعمة ، وهذا يشبه صاحب السيئة الذي منّ الله عليه بالتوبة والرجوع إلى الله ، إنما نقول له : إياك أن تعتقد أنك اختلست شهوة من الله أبداً . أنت اختلست شهوة ستلهث أخيراً ، ولجهلك تعمل حساب مثلها عشرين مرة ، لأنه سبحانه قد قال .

﴿ إِنَّ الْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّـَٔاتِ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة هود)

فأنت لن تضحك على خالقك لأنه سيجعلها وراءك ، فتعمل خيراً كثيراً ، كذلك البخيل نقول له : ستيسر سبيلاً لكريم بذّال . والحق سبحانه وتعالى بيّن لي آخر الآية السبب الذي حمله على ذلك ، إن الأسباب متعددة لكن تجمعها كلمة « شيطان » ، فكل من يمنعك من سبيل الهدى هو شيطان ، ابتداءً من شهوات نفسك وغفلة عقلك عن المنهج ، إنها قرين سوء يزين لك الفحشاء ، ويزين لك الإثم ، إن وراء كل هذه الأمور شيطانا يوسوس إليك ، وكل هؤلاء نسميهم « شيطاناً » لأن الشيطان هو من يبعدك عن المنهج ، وهناك شياطين من الجن ، وشياطين من الإنس ، فالنفس حين تحدث الإنسان ألاّ يلتزم بالمنهج ، لأن التزامه بالمنهج سيفوت عليه فرصة شهوة ـ هي شيطان . إنّ النفس التي ترى الشهوة العاجلة وتضيع منها شهوة آجلة لا حدود لها ـ هي شيطان. فالشيطان إذن هو الذي جعلهم

يبخلون ويأمرون الناس بالبخل .. وهذا الشيطان وساعة يكون قريناً للإنسان ، فمعنى ذلك أنه مقترن به ، والقِرن بكسر القاف ـ هو من تنازله .

وكلمة « قَرْن » تطلق أيضاً على فترة من الزمن هى مائة عام ؛ لأنها تقرن الأجيال ببعضها ، فالشيطان قرين أى ملازم لصاحبه ومقترن به ، فيقول الحق : « ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً » أى بئس هذا القرين لأنه القرين الذى لا ينفعنى ولا يصدنى عن مجال ضار .

ولذلك فالناس قد يحب بعضهم بعضا فى الدنيا لأنهم يجتمعون على معصية . أما فى الآخرة فماذا يفعلون ؟ يقول الحق :

﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

لأن المتقين يعين بعضهم بعضا على الطاعة ، فالواحد منهم يقول لصاحبه : كنت تعينى على الطاعة ، كنت توجهنى وتذكرنى إن غفلت ، فيزداد الحب بينهما لكن الإنسان يلعن من أغواه وأول من نلعن يوم القيامة نلعن الشيطان ، وكذلك الشيطان أول ما يتبرأ يتبرأ منّا ، ولذلك فعندما تحين المجادلة نجد الشيطان يقول لمن أغواهم وأضلهم :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

والسلطان هو القوة العالية التى تجبر من دونها ، فالإنسان تُجبر مادته وبنيته بسلطان القهر المادى ، ويُقهر فى اعتقاداته بالدليل والحجة . والإكراه فى المادة إنما يتحكم فى القالب ، لكنه لا يتحكم فى القلب ، فقد تكون ضعيفًا أمام واحد قوى ولكنك تمسك له سوطا وتقول له اسجد لى اخضع ، فيسجد لك ويخضع وأنت بذلك تقهر القالب ، لكنك لم تقهر القلب ، هذا هو السلطان المادى الذى يقهر القالب ، لكن إذ جاء لك إنسان بالحجج وأقنعك ، فهذا قهر إقناع ، وقدرة قهر العقول بالإقناع نوع من السلطان أيضا .

إذن فالسلطان يأتى من ناحيتين . سلطان يقهر القالب ، وسلطان يقهر فقه القلب ، فسلطان القالب يجعلك تخضع قهراً عنك ، وسلطان الحجة والبرهان يجعلك تفعل برضى منك ، والشيطان يقول لمن اتبعوه . يا من جعلتمونى قريناً لكم لا تعرقونى ؛ أنتم أعطياء ؛ فليس لىَ عليكم سلطان ، وما كان لىَ من القوة بحيث أستطيع أن أرغمكم على أن ترتكبوا المعاصى ، وما كان عندى منطق ولا حجة لكى أقنعكم أن تعملوا المعاصى ، لكنكم كنتم غافلين ، أنا أشرت لكم فقط فلست أملك قوة أقهر مادتكم بها ، ولا برهان عندى لأسيطر على عقولكم :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا أَنفُسَكُم ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

إذن فالغلبة منكم أنتم ، ولذلك يقول الحق :

﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

ماذا يعنى « مصرخكم »؟ إنها استعانة واحد فى أزمة لا يقدر عليها وضاقت به الأسباب ، عندئذ يستنصر بغيره ، فيصرخ على غيره ، أى يناديهم لإنقاذه ولنجدته ، فالذى يستجيب له ويأتى لإنقاذه يقال له . أزال صراخه ، إذن فأصرخه يعنى سارع وأجاب صرخته ، والشيطان يقول : إن استنجدتم بى فلن أنجدكم وأنتم لن تنجدونى ، فكل واحد منا عرف مسئوليته وقدرته . وبالنسبة للإنسان فقد قال الحق :

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الإسراء)

فمن يتخذ الشيطان قريناً ، « فساء قرينا » وكلمة « ساء » مثل كلمة « بئس » كلتاهما تستعمل للذم وتقبيح الشىء أى ، فبئس أن يكون الشيطان قريناً لك ؛ لأن الشيطان أخذ على نفسه العهد أمام الله ألا يغوى من يطيعه سبحانه ويغوى مَن سواهم من الناس أجمعين .

وعندما نتأمل الآية ، نجد أن الحق يقول « والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا » . فالآية إذن تتناول لونا من الإنفاق يحبط الله ثوابه . فنفقة المرائي تتعدى إلى نفع غيره لكن لا ينتفع المرائي منها ، بل تكون قد أنقصت من ماله ولم تثمر عند ربه .

والحق يلفتنا إلى أن ذلك كله راجع إلى معوقات الإيمان الذي يتطلب من الإنسان أن يكون في كل حركات حياته على منهاج ربه ، هذه المعوقات تظهر في النفس البشرية وفي شهواتها التي تزين الإقبال على المعصية لشهوة العاجلة ، وتزين الراحة في ترك الأوامر ، والشيطان أيضاً يتمثل في المعوقات ، والشيطان كما نعلم . اسم للعاصي من الجنس الثاني من المكلفين وهم الجن ويتمثل في إبليس وفي جنوده ، ويطلق على كل متمرد من الإنس أيضا يقول تعالى « وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا » وأنت حين تريد أن تعرف المعوق أهو من نفسك أم من الشيطان ؟. فانظر إلى نفسك حيال المعصية ، أهي معصيه تدفعك نفسك أن تأتيها وحدها ، أم معصية إن عزّ عليك أن تفعلها فأنت تنتقل إلى معصية سواها ؟ هل هي معصية ملازمة أو معصية تنتقل منها إلى غيرها ؟.

فهب أن إنساناً كانت معصية نفسه في أن يشتهي ما حُرّم عليه ، أو أن يسرق مال غيره ، نقول له : أوقفت في المعصية عند هذه بحيث لا تتعداها إلى غيرها ؟ يقول نعم . فبقية المعاصي لا ألتفت إليها . نقول : تلك شهوة نفس ، فإن كانت المعصية حين تمتنع عليك من سرقة مثلاً فأنت تلتفت إلى معصية أخرى فهذا لون من المعاصي ليس من حظ النفس ، وإنما هو حظ الشيطان منك ، لأن الشيطان يريد العاصي عاصياً على أي لون من المعصية ، فإن عزّ عليه أن يلوي زمامه إلى لون من المعصية ، انتقل إلى معصية أخرى لعلّه يصادف ناحية الضعف فيه .

لكن النفس حين تشتهي فإنها تشتهي شيئاً بعينه ، فأنت إذن تستطيع أن تعرف المعوق من قبل نفسك أم من قبل الشيطان ، فإن وقفت عند معصية واحدة لا تتعداها وتلح عليك هذه المعصية ، وكلما عزّ عليك باب من أبوابها تجد باباً آخر

لتصل إليها ، فتلك شهوة نفسك . وإن عرّت عليك معصية تنتقل إلى معصية أخرى فهذا من عمل الشيطان ؛ لأن الشيطان لا يريد عاصياً من لون واحد ، وإنما يريدك عاصياً على إطلاقك .

وعداوة الشيطان ـ كما نعلم ـ هي عداوة مسبقة ، فقد امتنع الشيطان عن السجود لآدم بحجة أنه خير من آدم وحذر الله آدم . ولابد أن آدم عليه السلام قد نقل هذا التحذير لذريته وأعلمهم أن الشيطان عدو ولكن الغفلة حين تسيطر على النفوس تفسح مجالا للشيطان لينفذ إلى نفس الإنسان ، والشيطان ـ كما نعرف ـ لا يأتي للعاصي الذي تعوبه نفسه ؛ لأن العاصي تكفيه نفسه ؛ لذلك يأتي الشيطان للطائع ليفسد عليه طاعته ، ولهذا يقول الله عنه .

﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأعراف)

إذن فمقعد الشيطان ليس في الخيارة أو في مكان فساد ، إنما يجلس على باب المسجد ، لكي يفسد على كل ذاهب إلى الطاعة طاعته . وهذا معنى : « لأقعدن لهم صراطك المستقيم » ؛ ولذلك كانوا يقولون : إن الطوائف الأقلية غير المسلمة في أي بلد إسلامي لا تحدث بينهم الشحناء ، ولا البغضاء ، ولا حرق الزروع ولا سمّ المواشي ، ولا القتل ، وتأتي هذه المعاصي في جمهرة المسلمين ، نقول : نعم ؛ لأن الشيطان ضمن أن هؤلاء وصلوا إلى قمة المعصية فابتعد عن إغوائهم ، أما المسلمون فهم أهل الطريق المستقيم ، لذلك يركز الشيطان في عمله معهم ، إذن فإدام عمل الشيطان على الطريق المستقيم فهو يأتي لأصحاب منهج الهداية ، أما الفاسق بطبيعته ، والذي كَفَرَ كُفْرَ القمة فالشيطان ليس له عمل معه ؛ لأنه فعل أكثر مما يطلب الشيطان من النفس البشرية .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس » أي : أنفقوا وأنفصوا مالهم فلماذا المراءاة إذن ؟ لأن الشيطان قرينهم ، وعندما ينفقون فهذا عمل طاعة ، ولماذا يترك لهم هذا العمل ليسلم الثواب لهم ؟ فلا بد أن يفسد لهم هذا العمل الذي عملوه ، وهو يقول : « ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قرينا » مثل هذا القرين أيمدح أم يذم ؟ إنه يذم بطبيعة الحال ، ولذلك قال الله : « فساء

قرينا ، أى بئس ذلك القرين ، فالقرين الذى بلفتك عن فعل الخير هو الذى بعد أن أنقص مالك بالنفقة أفسد عليك الثواب بالرياء .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ ﴾

وقوله سبحانه . « وماذا عليهم » رأى تبعة ومشقة وضرر عليهم من الإيمان والإنفاق فى سبيل الله ؟ إنه سبحانه لم يستفهم منهم عما يصيبهم من ذلك ولكنه ـ جل شأنه ـ يَذُمُّهُمْ ويوبخهم ويصفهم ويصمهم بالجهل والغفلة عما ينصمهم .

فالتلميذ الذى يلعب ، ويرسب تقول له : وماذا عليك لو أنك ذاكرت ؟! يعنى أى ضرر عليك فى هذا ، إذن فمعنى ذلك أنها لا تقال إلا لإنسان فى قدرته أن يفعل الفعل ، فمثل هذا التلميذ يقدر أن يذاكر . لكننا لا نأتى لإنسان فيه صفة لا دخل له فيها كالقصر فى القامة مثلاً ثم نقول لك . ماذا عليك لو كنت طويلاً ؟! هذا قول لا ينفع ولا يصح .

إذن فماذا عليك لا تقال إلا لمن فى قدرته الاختيارية أن يكون كذلك ، أما من لا يكون فى قدرته ألا يكون كذلك فلا تقال له . ويقول ذلك لأن طائفة الجبريّة قالت . إن الذى كفر لا يقدر أن يؤمن فالكافر يظل كافراً ، لكنهم لم يلتفتوا إلى قول ربنا : « وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر » فمعنى هذا القول أن الباب مفتوح وإلا لو كانوا ملزمين بالكفر لما قال ربنا : « وماذا عليهم » وهذه الآية لا ترد فقط على مذهب الجبريّة ، بل تهدم مذهب الجبريّة كله . فالإنسان ليس مجبراً على فعل وتنتهى المسألة ، وكما يقولون . كالريشة فى مهب الريح . ومثلما قال الشاعر .

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له
إياك إياك أن تبتل بالماء

نقول لهم : أنتم تسبتم لله ـ والعياذ بالله ـ الظلم ، فالله سبحانه وتعالى لم يطلب من الإنسان أن يؤمن به إلا وقد أودع فيه قوة اختيارية تختار بين البديلات . وأنتم لم تعطوا إلى حقيقة كتابة كل شيء أولاً فاحذتم منها الشيء الذي لا بد للناس أن تنفذه ، ولم تلتفتوا إلى أن هناك فرقاً بين أن يكون قد كتب ليلزم ، وأن يكون قد كتب لأنه علم .

هو سبحانه كتب لماذا ؟ لأنه علم أزلاً أن عبده سيختار كذا ويختار كذا . إذن فالكتابة ليست للإلزام ولكن لسبق العلم . والعلم صفة انكشاف لا صفة تأثير .

وحتى نوضح ذلك نقول : إن الصفات نوعان . صفة تكشف الأشياء على ما هي عليه بصرف النظر عن أن تقهر أو لا تقهر ، والقدرة صفة إبراز وليست صفة انكشاف ، ومثال ذلك عميد الكلية الذي يأتي فيقول لأستاذ مادة من المواد . جاءت لي مكافأة للطالب النابغ في مادة كذا ، فاصنع اختباراً للطلاب حتى نعطي هذه الجائزة لمن يستحقها فيقول أستاذ المادة : لا ضرورة للاختبار لأني أعلمهم وأعرف مواقعهم من الجد ومواقعهم من الاجتهاد ومواقعهم من فقه العلم ، فلان هو الأول وأعطه الجائزة ، فلا يقتنع عميد الكلية ، ويضع هو اختباراً أو يأتي بأساتذة آخرين يضعون الاختبار دون هذا الأستاذ وبعد ذلك يفوز الطالب الذي حدده الأستاذ مسبقاً بالدرجة الأولى .

أساعة أجاب الطالب عن الأسئلة التي وضعت له أكان مع الطالب الذي فاز بالمركز الأول من يرغمه على أن يكتب المادة العلمية التي جعلته يحصل على الجائزة ؟ لا . فلماذا قال الأستاذ عنه ذلك ؟ لأنه علم بما عنده قدرة من العلم . لقد حكم الأستاذ أولاً لأنه يعلم .

ولله المثل الأعلى من قبل ومن بعد ، فالخلق سبحانه وتعالى أعطى للناس الاختيار

بين البديلات ، لكنه أوضح : أنا أعلم أن عبدى سيختار كذا وكذا . إذن فهذه سبق علم لا قهر قدرة . فالقدرة لها تأثير والعلم لا تأثير له ولا قهر وقول الله هنا : « وماذا عليهم لو آمنوا بالله » فقوله : « وماذا عليهم » تعنى أى ضرر يلحقهم . كلمة « عليهم » دائماً تكشف للإنسان ما عليه ، لذلك لا يقول « لهم » من يقول . أى ضرر كان يلحقهم لو أنهم آمنوا بالله ؛ ولذلك يقول الحق .

﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة البقرة)

لم يقل سبحانه الذين يتيقنون . بل إن مجرد الظن بلقاء الله جعلهم يعملون الأعمال الصالحة ، فما بالك إذا كان العبد متيقناً ؟ إن المتيقن يقوم بالعمل الصالح من باب أولى . ولذلك فهذه المسألة أخرجت « المعرّى » عما اتهموه به من أنه ينكر البعث ، صحيح أنه فى أول حياته قال :

تحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يُعاد لنا سَبْكُ

فقالوا إن قوله « لا يعاد له سبك » معناه أنه ينفى قدرة الحق على أن يبعثنا مرة ثانية ، مع أنه من الممكن أن يتأول فيها ، أى لا يعاد لنا سبك فى حياتنا هذه ، ونحن لا نرى من مات يعود مرة ثانية ونقول كذلك : إن هذه قالها فى أول حياته ولكنه قال فى آخر الأمر :

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تحشر الأجساد قلت إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولى فالخسار عليكما

فهو يطلب من الطبيب والمنجم أن يكفا عن إفساد العقول بالشك وهب أنه اعتقد ألا بعث ، وواحد آخر اعتقد أن فيه بعثاً ، نقول له : إما أن يجىء بعث فيكذب من قال : لا بعث ، وإما ألا يجىء بعث ، فإذا لم يجىء البعث ، ما الذى ضر من آمن بالبعث ؟ وإذا جاء البعث فمن الذى خسر ؟ سيخسر من أنكره ، إذن فالذى ينكر البعث يخسر ولا يكسب ، لكن من قال . إن هناك بعثاً لا يخسر ، وهكذا

وقول الحق : « وماذا عليهم » إنه تساؤل عن أى ضرر كان يلحقهم لو أنهم آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله » إن من يعطى الصدقة ويضعها فى يد الله يستثمرها عند المعطى ، لكن عندما يقوم بذلك رئاء الناس فهو يثمر عند من لا يعطى . وبذلك يكونون قد خسروا أموالهم وخسروا تثمير الأموال فى يد الله بالثواب فى الآخرة .

« وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما » وعلم الله متعلق وسبحانه يعلم الخفايا . وسبحانه محيط بكل شىء علما ؛ لذلك يقول الحق بعد ذلك .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

والظلم الأصل فيه محبة الانتفاع بجهد غيره ، فعندما تظلم واحداً فهذا يعنى أنك تأخذ حقه ، وحقه ما جاء به بجهده وعرقه ، وتأخذه أنت بدون جهد ولا عرق . ويتبع هذا أن يكون الظالم قوياً . لكن ماذا عن الذى يظلم إنساناً لحساب إنسان آخر ؟ إنه لم ينتفع بظلمه ولكن غيره هو الذى انتفع . وهذا شر من الأول : عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (بادروا بالأعمال ستكون فتنا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً ويمسى كافراً أو يمسى مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا)[1] .

لأنه ظلم إنساناً لنفع عبد آخر ولم يأخذ هو شيئاً لنفسه .

إذن فالظلم إما أن يكون الانتفاع بثمرة جهد غيرك من غير كد ، وإما أن تنفع شخصا بجهد غيره ، والله سبحانه وتعالى إذا نظرنا إليه - وهو قوة القوى - إذ أراد أن يظلم - وحاشا لله أن يظلم - فبماذا يكون شكل ظلمه ؟ إن الظلم يتناسب مع قوة

(١) رواه مسلم ، والترمذى ، وأحمد

الظالم ، إذن فقوة القوى عندما تظلم فظلمها لا يُطاق ، ثم لماذا يظلم ؟ وماذا يريد أن يأخذ وهو من وهب ؟ إنه سبحانه مستغنٍ ، ولن يأخذ من هذا ليعطي ذاك ، فكلهم بالنسبة له سواء ؛ لأنه سبحانه لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً ، كلهم مُتساوون ، فلماذا يظلم ؟

إن الظلم بالنسبة لله محال عقلياً ومحال منطقياً ، فلا يمكن لله أن يضيع عمل حسنة ولا أن يضاعف سيئة . فهذه لا تتأتى ، وتلك لا تتأتى ، والله وهب كل النعم للناس جميعاً . ومادام هو من وهب كل النعم ، فسبحانه غير منتفع بآثاره في خلقه إن الحق سبحانه وتعالى ينفي عن نفسه الظلم في قوله :

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة فصلت)

لكلمة « ظلّام » مثل قولنا : فلان « أكّال » وفلان « نوّام » . وهي تختلف عن قولنا : فلان نائم، يعني نام مرة، ولكن «نوام» فهذا يعني مداومته على النوم كثيراً، أي أنه إما أن يكون مبالغاً في الحدث ، وإما أن يكون مكرراً للحدث ، فالمبالغة ـ كما نعرف ـ تأتي مرة لأن الحدث واحد لكنه قوي ، ومرة يكون الحدث عادياً لكنه مكرر ، هذه هي المبالغة ، فقوله سبحانه وتعالى « وما ربك بظلّام » نفي للمبالغة ، وهذا لا يقتضي نفي غير المبالغة . ونقول الله لو ظلم لكان ظلمه من قدرته فيكون كبيراً كثيراً ، ولو كان ظلمًا لشمل ظلمه وعَمَّ الخلق جميعا فيكون كذلك كبيراً كثيراً ولكن الله ـ سبحانه ـ يقول . « إن الله لا يظلم مثقال ذرة » وسبحانه يحسب لسيئة سيئة واحدة . أما الحسنة فيضاعفها ، « إن الله لا يظلم مثقال ذرة » « مثقال » . يعني ثقل ووزن ، والثقل هو . مقدار جاذبية الأرض للشيء فعندما يكون وزن الشيء قليلا وتلقيه من أعلى ، فهو ينزل ببطء ، أما الشيء الثقيل فعندما تلقيه من أعلى فهو ينزل بسرعة ؛ لأن قوة الجاذبية له تكون أقوى ، والإنسان ما حين ينظر إلى كلمة « مثقال » ؛ ويعبر عنها بأنها وزن ، فمعيار الميزان هو « الذرة » . وما « الذرة » ؟

قال العلماء فيها : هي رأس النملة الصغيرة التي لا تكاد تُرى بالعين المجردة ، أو النملة نفسها هذه مقولة ، أو الذرة كما قال ابن عباس حين سُئل عنها : أخذ شيئاً

من تراب الأرض ثم نفخه ، فلما نفخ تطاير التراب فى الهواء ، فقال لهم كل واحدة من هذه اسمها « ذرة » وهو ما نسميه « اهباء » ، ونحن الآن الموجودين فى مكان واحد لا نرى شيئاً فى الجو ، لكن انظر إلى حزمة ضوئية - أى ثقب تدخل منه أشعة الشمس - فسوف ترى ثقباً يُدخل أشعة الشمس ترى غباراً كثيراً يسبح . والمهم أنك لا تراه جارياً إلا فى شعاع الشمس فقط ، فهو كان موجوداً ونستنشقه ، فما الذى جعلنى لا أراه ؟. لأنه بلغ من الصغر و اللطف مبلغاً فوق حدود العين أن تراه ، فالذرة واحدة من هذا الغبار ،واسمه « الهباء » وواحدة الهباء هى الذرة .

إن الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا أن كل شىء موزون إلى أقل درجات الوزن وهو الذرة ، وهى الهباء ، ونحن لا نراها إلا فى نور محجوز ، لأننا فى النور القوى لا نرى تلك الذرات ، بل نراها فقط فى نور له مصدر واحد ونافذ ، والحق سبحانه وتعالى لا يظلم مثقال ذرة ، وهذا تمثيل فقط ؛ لأن الذرة يمكن أن تكبر ، فالذى يكبر يمكن أن يصغر ، وقال الحق ذلك ولم يكن عند الإنسان المقياس الذى يُقدّر به الذرة ، وقد حدث أن استطاع الإنسان ذلك ، فبعد الحرب العالمية الأولى صنعت ألمانيا استوامات تحطيم الجوهر الفرد ، أو الجزء الذى لا يتجزأ كما كان يصفه الفلاسفة قديماً ، ومعنى جزء لا يتجزأ أى لا يمكن أن يأتى أقل منه ولم يلتفتوا إلى أن أى شىء له مادة إن كان يقبل الكبير فهو أيضاً يقبل التصغير . والمهم أن توجد عند الإنسان الآلة التى تدرك الصغر .

ومثال ذلك عندما صنعت الأقمار الصناعية وأخذوا من الجو صورة لمدينة نيويورك ، خرجت الصورة صغيرة لمدينة نيويورك . بعد ذلك كبروا الصورة ؛ فأخرجوا أرقام السيارات التى كانت تسير ! كيف حدث هذا ؟ لقد كانت الصورة الصغيرة تحتوى تفاصيل أكثر دقة لا تراها العين المجردة ، وعندما يتم تكبيرها يتضح كل شىء حتى أرقام السيارات وضحت بعد أن كانت غير ظاهرة ، وإن كنت موجوداً فى نيويورك فى هذه الساعة أكنت تظهر بها ؟ لا يمكن أن تظهر . لماذا ؟. لأنّ صورتك صغرت إلى الحد والقدر الذى لا يمكنك أن تراها وهى بهذا الحجم وهكذا ، فالنور عندما يكون محزوماً ، فالحزمة الضوئية التى تدخل إلى مكان ما ، لها من القوة التى تظهر ذرة الهباء الذى لم تكن تراها .

إذن فنور من الله مخلوق ظهرت فيه الذرة ، أيخفى على نور الخالق ذرة ؟ لا يمكن أن تخفى عليه سبحانه ذرة ، لأن النور الذى خلقه أظهر الذرة والهباء الذى كان موجوداً ولا نراه ، فلن يخفى عن نور النور ذرة فى الأرض .

وهكذا نعرف أن المسألة بالنسبة لله عملية قطعية ، وعندما اخترعوا اسطوانة تحطيم الجوهر الفرد كانت مثل عصارة القصب ، ونحن نعرف أن عود القصب يوضع بين عمودين من الحديد . والعمود الواحد اسمه « اسطوانة » وعندما يضيقون الاسطوانتين ثم يمررون عود القصب بينهما ، فلا بد أن تكون المسافة بينهما ضيقة حتى إذا نفذ عود القصب يُعصر ، إذن فكلما ضيقت بين الاسطوانتين يزداد العصر ، ومادامت الاسطوانتان تجرى كل واحدة منهما على الأخرى فهما فراغ ضئيل جداً ، وحاول العلماء الألمان تضييق الاسطوانتين تضييقاً يفتت لنا هذه الذرة ، ونجحوا ، وأصبح هناك شىء آخر أقل من الذرة

وظن السطحيون الذين يتربصون بالإسلام وبكتاب الله الدوائر ، ويريدون أن يجدوا فيه متعدداً . قالوا : إن الله قال : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » على أنها أقل شىء وظهر أن هناك أقل من مثقال ذرة ؛ لأن الذرة تحطمت وقلنا لهؤلاء : أنتم أخذتم آية ونسيتم آيات ، فالقرآن قد جاء معجزة لبواعه مجتمعات شتى من لدن رسول الله إلى أن تقوم الساعة ، فلا بد أن يكون فيه ما يشبع العقول من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن تقوم الساعة . ولو أن عطاء القرآن صُب مرة واحدة فى عصر الرسالة لجاءت القرون التالية وليس لقرآن عطاء فأراد ربنا أن يكون القرآن هو المعجزة والمنهج المتضمن للأحكام والكليات ، وهذه أمور مفهومة بالنسبة لعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أن تقوم الساعة لكن لا يرالله هناك كونيات وبرامج للحق فى الوجود لم تظهر بعد ، فسبحانه يعطى كل عصر على قدر اتساع فهمه .

وعندما نعرف أسرار قضية كونيه لا يزيد عليها حكم ، فعندما نعرف قضية مثلاً كقضية الذرة وتفتيتها ووجود إشارات لها فى القرآن الكريم لا يزيد ذلك علما أى حكم بل طلب الأحكام كما هى فالأحكام واضحة كل الوضوح ؛ لأن من

بفعلها يثاب ، ومن لا يفعلها يعاقب . والناس الذين سيقوم عليهم الساعة مثل الناس الذين عاصروا حضرة النبى عليه الصلاة والسلام ؛ لذلك لابد أن تكون الأحكام واحدة ، فمن ناحية أن القرآن كتاب أحكام فهذا أمر واضح وضوحاً لا زيادة فيه ، ولم يفهم المعاصر لرسول الله حكماً ثم جاء الإنسان فى زماننا ليفهم حكماً آخر ، بل كل الأحكام سواء .

والقرآن كمعجزة هو أيضاً معجزة للجميع . ولابد أن تكون هناك معجزة لكل جيل . ولكل عصر ، ويأتى الإعجاز فى الآيات الكونية التى لو لم نعرفها فلن يحدث شىء بالنسبة للأحكام . مثال ذلك . لو لم نعرف أن الأرض تدور أكان انتفاعنا بالأرض يقل ؟ لا . . فنحن ننتفع بالأرض سواء أعلمنا كرويتها أم لم نعلم ، لكن الحق سبحانه وتعالى يواجه العقول بما يمكن أن تطيقه . فإذا ما ارتقت العقول وتثورت واستنارت بمقتضى طموحاتها العلمية فى الكون . فالقرآن إن لم يؤيدها فهو لا يعارضها .

وعندما فتتوا الذرة قال المشككون : إن ربنا يضرب بالذرة المثل لأصغر شىء « ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » لكن هناك ما هو أقل من الذرة . وترد عليهم : أنتم نظرتم إلى آية ونسيتم آيات أنتم لم تنتبهوا - كما قلنا - إلى أن من فتتوا الذرة إلى إلكترونات وأيونات وموجب وسالب حاولوا بعد ذلك أن يفتتوا ما فتتّ والآية التى نحن بصددها الآن : « إن الله لا يظلم مثقال ذرة » أرضت العقول التى تعرف الذرة الأصلية هذه واحدة ، ولماذا لا نسمع قول الله :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة يونس)

إذن فهناك ذرة وهناك أصغر من الذرة ، ولم تأخذوا فى بالكم أن « أصغر » هذه أفعل تفضيل ، ولا يوجد أصغر إلا إن وجد صغير ، إذن فهناك ذرة ، وهناك صغير

عن الذرة ، وهناك أصغر من الصغير ، فهناك إذن ثلاث مراحل ، فإن فتشوها فنحن رصيد في القرآن يقول بالصغر ، فإن فتشتم المفتت ، فلنا رصيد في القرآن بأصغر ؛ ، لأن كل أصغر لا بد أن يسبقه صغير ، وإن كنت ستفتت المفتت فما زال عندنا رصيد من القرآن يسبق عقولكم في الابتكار ، فإن قلت تفتيت جاز ، وإن قلت تجميع جاز ، لأنها أصغر وأكبر ، تفتيت أو تجميع ، والمعقول أنك تقول لا يغيب الأصغر والصغير ، والذرة كذلك لا تغيب فكيف يعبر عن الأكبر بأنه لا يغيب مع أنه ظاهر وواضح ؟.

ونقول لك : إن المتكلم هو ربنا ، فالشيء لا يدرك إما لأنه لطيف في غاية اللطافة بحيث لا تتعلق به الباصرة فلا يُرى ، وأيضاً لا يُدرك لأنه كبير بصورة أكبر من أن يحيط به الباصرة ، فحين ترى جبلاً كبيراً على بعد اثنين من الكيلو مترات أو ثلاثة فأنت لا تدركه ؛ لأنه أكبر من أن يحيط به إشعاع بصرك ، ولكن الأمر بالنسبة لله يختلف فلا يوجد صغير بدقة لا يراه ، ولا كبير يكبر لا يراه ، إذن فلا بد أن تأتي ؛ ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ؛ وفي آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة سبأ)

وانظروا إلى دقة الحق في الرد على الإنكار للساعة وهي قضية كونية تنسحب على كل العصور . فيقول سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة سبأ)

كان يكفي أن يقول : إن الساعة آتية ، لكنه أوضح : اعرفوا أن الساعة آتية ، وكل ما فعلتموه معروف ، ولهذا يقولون . لا تأتي الساعة ؟ إن هذا لون من تكذيب النفس لأنهم لم يعملوا على مقتضى ما يتطلبه قيام الساعة ، فالذي لم يعمل لذلك يود

لأن من مصلحته ذلك ـ أن تكون مسألة الساعة كذب ؛ لأنه قد عمل أشياء يخاف أن يحاسب عليها ، فجاء سبحانه بالآية لكي ترد على المقولة وعلى الدافع للمقولة . وكل مقولة لها دافع . لقد كان الدافع لمقولتهم هو إسرافهم على أنفسهم فلم يقدموا عملاً صالحاً ضمن مصلحتهم الأمانية ألا تأتي الساعة ، كي لا يعاقبوا ، وسبحانه يعلم أزلاً ما فعلوا وردّ على المقولة وردّ على الدافع الذهني للمقولة ، فأوضح سبحانه . أنا عالم كل أمر ولن يعيب عني عمل من أعمالكم .

وقول الحق في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : « وإن تك حسنة » يعني : وإن يكن الورد حسنة يضاعفها الله ، وعندما يحدثنا سبحانه عن الحسنة وأنها تضاعف ثم لا يتكلم عن السيئة فهذا يدل على أن السيئة بمثلها ، والحق قد تكلم عن المضاعفة للحسنة في كثير من الآيات « والله يضاعف لمن يشاء »

وفي آية أخرى يقول الحق :

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ﴾

(من الآية ٢٦١ سورة البقرة)

وبعد ذلك يقول

﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٢٦١ سورة البقرة)

ففيه فرق بين نظام حساب الحسنات ونظام حساب السيئات ، فالحسنة تضاعف لعشر أمثالها لسبعمائة ضعف ، هذا هو نظام الحساب ، وإرادة خالق هذا النظام تعطي كما تريد ، إذا كنا نحن ـ كبشر ـ عندما نوظف موظفاً نقول : أنت تدخل السلم الوظيفي ، وتبدأ السلم الوظيفي من أول درجاته ثم ترقى درجة بعد درجة ، ثم يأتي رئيس الدولة ليعينك في درجة أعلى من ذلك بكثير ، فما بالنا بحساب الرب الأعلى ؟ إنه يعطي بعملية حسابية فيها زيادة فضل ؛ ولذلك قال بعد هذه الآية . « وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً » أي إنه سبحانه يعطي من عنده ذلك الأجر العظيم ، وهذا اسمه « محض الفضل » وكيف يسميه الله أجراً مع

أنه زائد ؟ لأن هذا الفضل جاء تابعا للأجر ، فإذا لم يعمل الإنسان هذا العمل فإنه لا يستحق أجراً ، وبالتالى فلا ينال فضلا وحين يضرب الله الأمثال للناس فذلك لتقريب المعانى ، لأن الله قاله والله صادق فيما يقول ، فيعطى الحق سبحانه وتعالى مثلاً إيناسية فى الكون ، حتى لا تستبعد أن الحسنة تذهب هذه الأضعاف المضاعفة فيوضح لك هذه الأرض أمامك هات حبة واحدة وضعها فى الأرض تخرج لك سبع سنابل وكل سنبلة فيها مائة حبة فإذا كانت الأرض ـ وهى مخلوقة لله ـ أعطت سبعمائة ضعف ، فكم يعطى من خلق الأرض؟ إنه يعطى بغير حساب

إذن فكلمة « من لدنه » هذه تعطيك الباب الواسع الذى يتناسب مع الله . فالأرض تعطيك على قدر جهدها ، وعلى قدر العناصر الغذائية الموجودة فيها . . والذى عنده وبيده الخير وخلق كل الكون يوضح : إذا كان خلق من خلقى يعطى حتى الكافر ، سبعمائة ضعف فالذى خلق هذا يعطى للمؤمن أجراً للحسنة بلا حدود ؛ ولذلك فالإيناسات التمثيلية فى الكون يتركها الله لتقرب للعقل المعنى البعيد الذى قد يقف فيه. فالإنسان من مادة هى البدن ويحل فيه الروح. وعندما تسحب الروح من البدن ، ماذا يصير؟ يصير الجسد رمة ، ويتحلل لعوامله الأولى وتنتهى منه مظاهر الحياة .

إذن فالروح هى السبب فى الحركة ، وفى أن كل جهاز يقوم بعمله ، وفى النمو ، وعندما تسحب الروح ينتهى الأمر ، إن الروح هى التى تدير كل هذا الجسم ، والروح لا لون لها ، ولا أحد يراها ، ولا يشمها كائن ، فكيف ندركها إذن ؟

نقول : إن الجوهر الذى يدخل فى جسدك ويعطيه الحركة فيديره . أنت لا تراه ولا تحسه ، وهو غيب بالنسبة لك ، فإذا حدثت أن ربك غيب فلا تتعجب ، فروحك التى بين جنبيك لا تعرف كنهها ، وعليك إذن أن تصدق عندما يقال لك : ربك ليس بمحدود بمكان وعندما يقول سبحانه :

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة الأنعام)

فكلنا نقول : نعم هذا كلام صحيح ؛ لأنه إذا كان هناك مخلوق لله وهو الروح لم

تدركه الأبصار ، أفتريد أن يُدرَك من خَلْقَ ؟ لا يمكن.وهو سبحانه من عظمته أنه لا يُدرَك .

وسبحانه يقول : « ويؤت من لدنه أجراً عظيماً » وقف عند كلمة « من لدنه » . ونعرف أن فيه فرقا بين الإتيان بالناموس ـ وهو النظام الموضوع ـ والعطاء المباشر ، وعندما يقول الحق : « من لدنه » فهذا يعني أن الوسائط تمتنع . ونعلم قصة سيدنا موسى عندما ذهب ليقابل العبد الصالح قال تعالى في وصف العبد الصالح

﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الكهف)

وهذا يعني أن العبد الصالح قد تعلم ليس بوساطة أحد بل من الله مباشرة ، بدليل أن الذي جاء ليتعلم منه وتعلم منه ثم وقف معه في أمور جاءت على خلاف ما تجري به النواميس والعادات.فكلمة « من لدنا » تعني تجاوز الحجب ، والوسائط ، والأنظمة

والحق سبحانه يحترم أصل عملك ويسمي عطاءه لك « أجراً » ، لأنه أعطى من لدنه بعدما أعطى له النصيب المقدر كأجر ، وهذا الأجر موصوف بأنه عظيم؛لأنه مناسب للمعطي .

ثم يقول الحق :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾

وساعة تسمع كلمة « كيف » فاعرف أن هناك شيئا عجيبا ، نقول مثلاً . أنت سببت السلطان فكيف إذا واجهوك ووجدته أمامك ماذا تفعل ؟ كأن مواجهة

لسلطان ذاتها مسألة فوق التصور فكل شيء يتعجب منه يؤتى فيه بـ « كيف » ، ومثال ذلك قوله الحق

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة البقرة)

وهذا يعني تعجبا من معصية وكارثة هي الكفر بالله ، فقولوا لنا : كيف جاءت هذه ؟ إنها مسألة عجيبة ، ونقول : فكيف يكون حال هؤلاء الكافرين ، كيف يكون حال هؤلاء العُصاة ، في يوم العرض الأخير ، « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد » و « الشهيد » هو : الذي يشهد ليقرر حقيقة ، ونحن نعلم أن الحق أخبرنا :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة فاطر)

وهذا النذير شهيد على تلك الأمة أنه ينعها المنهج ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم شهيد على أمته أنه بلغ ، فقوله . « وجئنا بك على هؤلاء » من هم ؟ انظر قوله « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد » وهو رسولها الذي بلغ عن الله منهجه ، وكيف يكون الموقف إذا جاء وقال . أنا أبلغتهم الموقف ولا عذر لهم لأني أعلمتهم به ، « وجئنا بك » يا محمد ـ صلى الله عليك وسلم « على هؤلاء » فهل المعني بـ « هؤلاء » هم الشهداء الذين هم الرسل أو على هؤلاء المكذبين لك ؟ وتكون أيضاً شهيداً على هؤلاء مثلما أنت شهيد على أمتك ؟ إن كلا من الحالين يصح ، لماذا ؟ .

لأن الله جاء بكتابه المعجزة وفيه ما يثبت أن الرسل قد بلغوا أممهم ، فكأن الرسول حين سُجل في كتابه المعجزة وكتابه المنهج أن الرسل قد بلغوا أممهم فهو سيشهد أيضاً . هم بلغوكم بدليل أن ربنا قال لي في كتاب المعجزة وفي المنهج . ويكون رسولنا شهيداً على هؤلاء المكذبين الذين أرسل إليهم وهم أمة الدعوة فالمعنى هذا يصح ، وكذلك يصلح المعنى الآخر . ولا يوجد معنى صحيح يطرد معنى صحيحا في كتاب الله ، وهذه هي عظمة القرآن . إن عظمة القرآن هي في أنه يعطي إشعاعات كثيرة مثل قص الماس ، فالماس غالٍ ونفيس ؛ لأنه قاسٍ ويُكسر به وكل ذرة فيه لها شعاع ، المعادن الأخرى لها إشعاع واحد ، لكن كل ذرة في الماس لها إشعاع ؛ ولذلك يقولون إنه يضوي ويلألأ ، فكل ذراته تعطي إشعاعاً .

والحق سبحانه وتعالى يوضح : أن حال هؤلاء سيكون فضيحاً حينما يأتي يوم العرض يوم القيامة ، ويقولون : إنا بلغناكم ، لو الحق سبحانه وتعالى عرض هذه المسألة بالنسبة للرسل وأممهم ، وبالنسبة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته أو للأمم كلها ، فنحن أيضاً سنكون شهداء :

﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة البقرة)

وهذه ميزة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم لأن أمة محمد هي الأمة الوحيدة التي أمنها الله على أن يحملوا المنهج إلى أن تقوم الساعة ، على يأتي أنبياء أبداً بعد رسول الله ، فيقول « لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » إذن فنحن بنص هذه الآية أخذنا امتداد الرسالة .

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« اقرأ عليّ القرآن فقلت يارسول الله : أقرأ عليك وعليك أُنزل ؟ .

قال نعم إني أحب أن أسمعه من غيري ، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا به على هؤلاء شهيدا) فقال: حسبك ، فإذا عيناه تذرفان الدموع »[1] .

فإذا كان الشهيد بكى من وقع الآية فكيف يكون حال المشهود عليه ؟ الشهيد الذي سيشهد بكى من الآية ، نعم لأنك تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم من رحمته رحمة بأمته ، ولذلك قلنا إن حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمته جعل ربه يعرض عليه أن يتولى أمر أمته ، بعد أن علم سبحانه مدى عنايته صلى الله عليه وسلم بهذه الأمة

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾

(سورة الشعراء)

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد

فأمر أمته صلى الله عليه وسلم كان يقلقه جداً على الرغم من أن الحق سبحانه قد أوضح له أنت عليك البلاغ وليس عليك أن تهدى بالفعل ، وهو صلى الله عليه وسلم يعرف هذا إنما حرصه ورحمته بأمته جعله يحب أن يؤمنوا ، وعليه الصلاة والسلام خاف على أمته من موقف يشهد فيه عليهم بعض من سيشهد عليهم يوم الحشر فلما رأى الحق سبحانه وتعالى أن رسوله مشغول بأمر أمته قال له - لو شئت جعلت أمر أمتك إليك

وانظر إلى العظمة المحمدية والفهم عن الله ، والفطنة ، فقال له . لا يارب أنت أرحم بهم منى

وكأنه صلى الله عليه وسلم يقول للخالق . « أتنقل مسألتهم فى يدى وأنا أخوهم ، إنما أنت رب ورحيم ، فهل أكون أنا أرحم بهم منك ؟ لقد كان من المتصور أن يقول رسول الله : نعم أعطنى أمر أمتى لكنه صلى الله عليه وسلم قال . يارب أنت أرحم بهم منى فكيف يكون ردّ الرب عليه ؟ قال سبحانه : فلا أخزيك فيهم أبداً ، وسبحانه يعلم رحمة سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم بأمته

عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما - أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل فى إبراهيم : « رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى . » وقول عيسى عليه السلام « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » فرفع يديه وقال : « اللهم أمتى أمتى وبكى » ، فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فسله ما يبكيك »؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم ، فقال الله . « يا جبريل اذهب إلى محمد فقل . إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوؤك »[1]

« فكيف إذا جئنا » أى كيف يكون حال هؤلاء العصاة المكذبين . . « إذا جئنا من كل أمة بشهيد » أنه أدّى وبلغ عن الله مراده من خلقه . « وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » ؟

(١) رواه مسلم

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾

وساعة ترى « يومئذ » ونجد فيها هذا التنوين فاعلم أنه عوض عن شيء محذوف والمحذوف هنا أكثر من جملة ويصبح المعنى : يوم إذ نجيء من كل أمة بشهيد وتكون أنت عليهم شهيداً ، في هذا اليوم « يودّ الذين كفروا وعصوا الرسول » لأنهم فوجئوا بعملية كانوا يكذبونها ، فلم يكونوا معتقدين أن الحكاية جادة ، كانوا يحسبون أن كلام الرسول مجرد كلام ينتهي ، فعندما يفاجئهم يوم القيامة ماذا يكون موقفهم ؟ « يودّ الذين كفروا وعصوا الرسول لو تُسوّى بهم الأرض » وما معنى « تُسوّى بهم الأرض » ؟ كما تقول . ساسوّي بملان الأرض ، أي تدوسه دوسة بحيث يكون في مستوى الأرض .

« ولا يكتمون الله حديثا » . فكيف لا يكتمون الله حديثا ؟ وهو قد قال في آية أخرى .

﴿ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

قال الحق ذلك عنهم لأن الأمر به مراحل : تمرة يتكلمون ، ويكذبون ، فهم يكذبون عندما يقولون .

﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الأنعام)

وسيقولون عن الأصنام التي عبدوها .

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾

(من الآية ٣ سورة الزمر)

إذن فقوله : « ولا يكتمون الله حديثا » دليل على أن الحديث مندفع ولا يقدر صاحبه أن يكتمه . فالكتم : أن تعوق شيئاً يخرج بطبيعته من شيء آخر فتكتمه والواحد منهم في الآخرة : لا يقدر أن يكتم حديثا ؛ لأن ذاتية النطق ليست في أداة النطق كما كان الأمر في الدنيا فقط ، بل سيجدون أنفسهم وقد قدموا إقرارات بخطاياهم ، وبألسنتهم وبجوارحهم ؛ لأن النطق ليس باللسان فقط ، فاللسان سيشهد ، والجلود تشهد ، واليدان تشهدان ؛ بل كل الجوارح تشهد .

إذن فالمسألة ليست تحت سيطرة أحد ، لماذا ؟ ؛ لأن هناك ما نسميه « ولاية الاقتدار » ، ومعناها أن . هناك قادراً ، وهناك مقدور عليه ولكي نقرب الصورة ، عندما توجد كتيبة من الجيش وعليها قائد وبعد ذلك قامت الكتيبة في مهمة ، والقانون العام في هذه المهمة : أن يحمل هذا القائد قادرية الأوامر وعلى الجنود طاعته ؛ وألا يخالفوا الأوامر العسكرية ، فإذا أصدر هذا القائد أمراً نسبب في فشل معركة ما ، وذهب الجنود للقائد الأعلى منه ، ويسمونه الضابط الأعلى من الضابط الصغير ، فيكون للجنود معه كلام آخر ، إنهم يقدرون أن يقولوا هو الذي قال لنا ونفذنا أوامره .

أقول ذلك لتقريب المعنى لحظة الوقوف أمام الحق سبحانه وتعالى فحينما خلق سبحانه الإنسان خلق جوارحه منفعلة لإرادته ، وإرادته مكيفة حسب اختياره فإرادة الطائع إطاعة أمر واجتناب نهي ، وإرادة العاصي على العكس ؛ لا يطيع الأمر ولا يتجنب المنهي عنه فواحد أراد أن يشرب الخمر ، فرجله مشت ، ولسانه نطق للرَّجُل الذي يعطيه الكأس ، ويده امتدت وأخذت الكأس وشرب ، والجوارح التي تقوم بهذه العملية هي خاضعة لقادرية إرادته ، فقد خلقها ربنا هكذا ، وبعد ذلك ، حين تذهب إلى من دبر هذا الأمر في الآخرة تقول له : يارب هو عمل لي كذا وكذا ، لماذا ؟ لأن قادرية الإرادة منتفت :

﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

وليس لي ولا لأحد إرادة في الآخرة ، ومادام ليس لي إرادة فاليد تتكلم وتعترف عمل لي كذا كذا وكنت يارب مقهورة لقادرية إرادته التي أعطيتها له فبمجرد ما يريد

فأنا أنفذ . عندما أراد أن أضرب واحداً لم أمتنع ويعترف اللسان بسببه لفلان ، أو مدحه لآخر ، إذن فكل هذه ولاية القادرية من الإرادة على المقدورات من الجوارح لكن إذا ما وهبت لي من وهب القدرية للإرادة ؛ فلا يوجد أحد له إرادة . فكأن الجوارح حين تصنع غير مرادات الله بحكم أنها خاضعة للمريد وهو غير طائع تكون كارهة لذلك تفعل أوامر صاحبها وهي كارهة . فإذا ما انحسرت إرادته وحدث الغرغرة فتقول ما حدث :

﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة فصلت)

« يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تُسوَّى بهم الأرض » ، لأن الكافر سيقول .

﴿ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النبأ)

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾

هنا ينقلنا الحق من الأوامر ، من العبادات وعدم الإشراك بالله ، من التحذير من النعقة رثاء الناس وأنه سبحانه لا يظلم أحداً وأننا كلنا سنجتمع أمامه يوم لا ظل إلا ظله ، بعد ذلك أراد أن يصلنا به وصل العبادية التي تجعلك تعنى ولاءك لله في كل يوم ، خمس مرات ، وسبحانه يريدك أن تقبل عليه بجماع عقلك وفكرك وروحك بحيث لا يغيب منك شيء

هو سبحانه يقول : « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » ولم يقل : لا تصلوا وأنتم سكارى ؟ أي لا تقاربوا الصلاة ولا تقوموا إليها واجتنبوها ، وفيه إشارة إلى ترك المسكرات ، فما معنى « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى »؟ معنى ذلك أنهم إذا كانوا لا يقربون الصلاة إذا ما شربوا الخمر ، فيكون تحريم المسكرات لم يأت به التشريع بعد ، فقد مرّ هذا الأمر على مراحل ؛ لأن الدين حينما جاء ليواجه أمة كانت على فترة من الرسل أي بعدت صلتها بالرسل ، فيجيء إلى أمر العقائد فيتكلم فيها كلاماً حاسماً ماتًا لا مرحليّة فيه ، فالإيمان بإله واحد وعدم الشرك بالله هذه أمور ليس فيها مراحل ، ولا هوادة فيها لكن المسائل التي تتعلق بإلف العادة ، فقد جاءت الأوامر فيها مرحلية . فلا نقسر ولا نكره العادة على غير معتادها بل نحاول أن نتدرج في المسائل الخاضعة للعادة مادام هناك شيء يقود إلى التعود

إذ الحق سبحانه وتعالى من رحمته بمن يشرع لهم جعل في مسائل العادة والرتابة مرحليات ، فهذه مرحلة من المراحل « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » ، والصلاة هي . الأقوال والأفعال المعروفة المبدوءة بالتكبير والمنتهية بالتسليم بشرائطها الخاصة ، هذه هي الصلاة ، اصطلاحيّ في الإسلام وإن كانت الصلاة في المعنى اللغوي العام هي : مطلق الدعاء .

و« سُكارى » جمع « سكران » وهو من شرب ما يستر عقله ، وأصل المسألة مأخوذة من السُكْر ما سد به النهر ، فالماء حين ينساب يصنون سداً ، هذا السد يمنع تدفق الماء ، كذلك الخمر ساعة يشربها تمنع تدفق الفكر والعقل ، فأخذ من هذا المعنى ، « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » المفهوم أن الصلاة تأخذكم خمسة أوقات للقاء الله ، والسُكر والخُمار ؛ وهو ما يمكث من أثر المُسْكِر في النفس ، ومادام لن يقرب الصلاة وهو سكران فيمتنع في الأوقات المتقاربة بالنهار إذن فقد حملهم على أن

يخرقوا العادة بأوقات يطول فيها أمد الابتعاد عن السُّكر ومداموا قد اعتادوا أن يتركوهم طول النهار وحتى العشاء ، فيصل الواحد منهم العشاء ثم يشرب وينام إذن فقد مكث طوال النهار لم يشرب ، هذه مرحلة من المراحل ، وأوجد الحق سبحانه وتعالى في هذه المسألة مرحليات تتقبلها النفس البشرية فأول ما جاء ليتكلم عن الخمر قال :

﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾

(من الآية ٦٧ سورة النحل)

ويلاحظ هنا أن « السُّكر » متقدم ، على الرزق الموصوف بالحسن ، ففيه سكر وفيه رزق . كأنهم عندما كانوا يأكلون العنب أو البلح فهذا رزق ، ووصف الله الرزق بأنه حسن . لكنهم كانوا أيضا يأخذون العنب ويصنعون منه خمراً ، فقدم ربما « السُّكَرَ » لأنهم يفعلون ذلك فيه ولكنه لم يصفه بالحسن ، بل قال « تتخذون منه سكراً » ، لكن كلمة رزق وُصفت بالحسن .

بالله عندما نسمع « سكراً ورزقاً حسناً » ألا نفهم أن كونه سكراً يعني غير حسن ، لأن مقابل الحسن : قبيح وكأنه قال : ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا أي شراب قبيحا ورزقاً حسناً ، ولاهتمامكم أنتم بالسكر ، قدمه ، وبعد ذلك ماذا حدث ؟ عندما يريد الحق سبحانه وتعالى أن يأتي بحكم تكون المقدمة له مثل النصيحة ؛ فالنصيحة ليست حكماً شرعياً ، والنصيحة أن يبين لك وأنت تختار ، يقول الحق

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾

(من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

هو سبحانه شرح القضية فقط وأنت حر في أن تختار فقال « قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس » ولكن الإثم أكبر من النفع ، فهل قال لنا ماذا نعمل ؟ لا ؛ لأنه يريد أن يستأنس العقول لترجح من نفسها الحكم ، وأن يصل الإنسان إلى الحكم بنفسه ، فسبحانه قال : « وإثمهما أكبر من نفعهما » فعندما الإثم أكبر من النفع فيا مرجحات البدائل ؟ مرجحات البدائل تظهر لك حين تقارن بين بديلين ثم تعرف أقل البديلين شراً وأكثر البديلين خيراً .

فحين يقول الحق « فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » إذن فهذه نصيحة ، ومادامت نصيحة فالخير أن يتبعها الإنسان ويستأمن الله على نصيحته . لكن لا حكم هنا ، فظل هناك ناس يشربون وناس لا يشربون ، وبعد ذلك حدثت قصة من جاء يصلى وقرأ سورة الكافرون،ولأن عقله قد سدّ قال : قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون فوصلت المسألة ذروتها وهنا جاء الحكم فنحن لا نتدخل معك سواء سكرت أم لا ، لكن سكرك لا يصح أن يؤدى بك أن تكفر فى الصلاة ، فلا تقرب الصلاة وأنت مخمور . هذا نهى ، وأمر ، وتكليف

« لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » ومادام لا تقرب الصلاة ونحن سكارى فسنأخذ وقتاً نمتنع فيه ، إذن ففيه إلف بالترك ، وبعد ذلك حدثت الحكاية التى طلبوا فيها أن يفتى الرسول صلى الله عليه وسلم فى أمر الخمر ، فقالوا للنبى : بيّن لنا فى الخمر بياناً شافياً ، فنزل قوله الحق

﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة المائدة)

إذن فقوله . « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » ، مرحلة من مراحل التلطف فى تحريم الخمر ، فحرمها زمناً ، هذا الزمن هو الوقت الذى يلقى الإنسان فيه ربه ، إنّه أوضح لك . اعملها بعيداً ، لكن عندما تأتينى فعليك أن تأتى بجماع فكرك وجماع عقلك ، « حتى تعلموا ما تقولون » فكأن هذه أعطتنا حكماً . أن الذى يسكر لا يعرف ماذا يقول ، هذه واحدة ، ومادام لا يعرف ما يقوله ، إن كان فى المسائل العادية فليقل ما يقول ، إنما فى العبادة وفى القرآن فلا يصح أن يصل إلى هذا الحدّ ، وعندما تصل إلى هذا الحدّ يتدخل ربنا فيقول . « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون »

ثم جاء بحكم آخر « ولا جنباً إلا عابرى سبيل حتى تغتسلوا » ومعروف ما هى الجنابة : إنها الأثر الناتج من التقاء الرجل بالمرأة ويقال : إنها اللذة التى يغيب فيها الفكر عن خالقه ، وهذه لذة يسمونها « جماع اللذات » ، لأنها تعمل فى البدن تلك الرعشة المخصوصة التى تأخذ خلاصات الجسم ، ولذلك قيل : إنه نور عينيك ومخّ ساقك فأكثر منه أو أقلل يعنى أنا أعطيك هذه القدرة وأنت حرّ ونحن نغتسل لنعيد النشاط إلى النفس البشرية ، وليس لأحد شأن بهذه المسائل مادامت تتم فى ضوء

شريعة الله وشأنا فى ذلك أن نأتمر بأمر ربنا ونغتسل من الجنابة سواء فهمنا الحكمة من وراء ذلك أو لم نفهم

« ولا جنباً إلا عابرى سبيل » إذا كان المراد بالصلاة ، فلا تقربوا الصلاة ، بالسكر أو بالجنابة ولم يقل . « لا تصلوا » . والصلاة مكانها المسجد ، فقول . « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً » ، أى لا تقربوا الصلاة ، والقرب عرضة أن يكون ذهاب للمسجد ، فكأنه يقول لا تذهب إلا إذا كان المسجد لا طريق يليه إلا منه .

« وإن كنتم مرضى أو على سفر » أى كان عندكم عذر يمنع من الماء « أو جاء أحد منكم من الغائط » ، و « لغائط » هو . الأرض الوطيئة ، الهابطة قليلاً ، وكانوا يقصدون فيها حاجاتهم ، وأصبح علماً على قضاء الحاجة ، وكل واحد منا يكنى عنها بأشياء كثيرة فيقول واحد : أنا أريد أن أذهب إلى « بيت الماء » ويتساءل آخر أين « دورة المياه ؟ » وفى هذا تلطف فى الإخبار عن عملية تستقذرها النفس ؛ ولذلك نقول فى العبارات الشائعة : أنا ذاهب - أعمل رى الناس - يعنى أنا لست مدعاً أن أقضى حاجتى ، فكل الناس تعمل هذا .

فربنا سبحانه وتعالى يقول . « أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيبا » ومن رحمة الله بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن لطف الحق بها أن التشريع جاء ليقبل عليه الإنسان ؛ لأنه تشريع فلا تقل لى مثلا أنا اتوضأ لكى أنظف نفسى ولكننا نقول لك . هل تتوضأ لتنظف نفسك وعندما تفقد الماء تأتى بتراب لتنظفه عن وجهك ؟ فلا تقل لى النظافة أو كذا ، إنه استباحة الصلاة بالشىء الذى فرضه الله ، فقال لى : توضأ فإن لم تجد ماءً فتيمم ، أيقلق من الماء الذى ينظف إلى أن امسح كفّىّ بالتراب ثم المس بهما وجهى ؟! نعم ، لأن المسألة أمر من الله فهمت علّته أو لم تفهم ، ولذلك فالنبى عليه الصلاة والسلام يقول « أعطيتُ خمسا لم يُعطهن أحد من الأنبياء قبلى نصرت بالرعب مسيرة شهر وجُعلت لى الأرض مسجداً طهوراً فأيما رجل من امتى أدركته الصلاة فليصل وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبل وأعطيت الشفاعة وكان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة

وبعثت إلى الناس عامة »[1].

« فتيمموا صعيداً طيباً » ، أى أن تكون واثقاً أنه ليس عليه نجاسة ، « فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » ، المسألة فيها « جنب » وفيها كذا وكذا . . « وتيمم » ، إذن فكلمة « فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » ليس ذلك معناه أن التيمم خلف وبديل عن الوضوء فحسب ، ففى الوضوء كنت أتمضمض ، وكنت أستنشق ، وكنت أغسل الوجه ، وكنت أغسل اليدين ، وأمسح الرأس والأذنين مثلاً ، وأنا أتكلم عن الأركان والسنن وفى هذه الآية يوضح الحق : مادامت المسألة بصعيد طيب وتراب فذلك يصح سواء أكانت للحدث الأصغر أم للجنابة ، إذن فيكفى أن تمسح بالوجه واليدين

« فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » وتساءل بعضهم : أهى ضربة واحدة نلمس بها الأرض أم ضربتان ؟ نقول : سبحانه قال : « فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » ، وبعض العلماء قال ضربة واحدة ، وبعضهم قال . ضربتان وكلها تيسير وهذا التخفيف مناسب لكلمة العفو ، فيقول الحق : « إن الله كان عفواً غفوراً » ولكن مادا حدث مما يذكر المغفرة ؟ لأنه عفر وستر علينا المشقة فى ضرورة البحث عن الماء ويسر ورخص لنا فى التيمم

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ ﴾

حين يريد الحق سبحانه وتعالى أن يؤكد قضية من قضايا الكون يمهد لقضية من قضايا العقائد التى تحرس نظام الكون فهو يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم

(١) رواه البخارى ومسلم والنسائى عن جابر

بقوله . « ألم تر » والرؤية عمل العين ـ وعمل العين متعلق بانكشاف الأحداث التي تتعرض لها العين ـ والشيء المرئي دليله معه ، لأن الشيء المسموع دليله يؤخذ من صدق قائله ، وصدق قائله أمر مظنون ، أيكذب أم يصدق ؟ أما المرئي فدليله معه ، ولذلك قالوا : ليس مع العين أين ، ى أنك إذا رأيت شيئاً فلا تقل أين هو ، وليس الخبر كالعيان ، فالخبر الذي تسمعه ليس كالمشاهدة ، إذن فالمشاهدة دليلها معها ، فلا يقال : دلل على أن فلاناً يلبس حذاءاً أبيض وأنت تراه

إذن فحين يريد الحق أن يؤكد قضية يقول أرأيت ولذلك فأنت إذا حدثت إنساناً عن انحراف إنسان آخر قد يصدقك وقد لا يصدقك ، لكن إذا ما رأيت الإنسان يلعب ميسراً أو يشرب خمراً ثم تقول لمن حدثته من قبل أرأيت من قلت لك عليه ، كأن الرؤية دليل والحق سبحانه وتعالى حين يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله : « أرأيت » ينظر إلى الأمر ، فإذا كان مشهوداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يراه بذلك تكون « أرأيت » على حقيقتها ، كما يقول له :

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ۝ ﴾

(سورة العلق)

هو صلى الله عليه وسلم قد رآه ، فتكون « أرأيت » على حقيقتها أم ليست على حقيقتها ؟ ولماذا يأتي بهمزة الاستفهام « أرأيت » ؟ على الرغم من أنه صلى الله عليه وسلم قد رأى من ينهى إنساناً عن الصلاة ولماذا لم يقل : « رأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى » ، لا ؛ لأن الحق يريد أن يؤكد الخبر بمراحل فمرة يكون الخبر خبر تسمعه الأذن ، ومرة يكون رؤية تراه ، ومرة لا يقول له : أنت رأيت ، ولكن يستفهم منه بـ « أرأيت » لكي ينتظر منه الجواب وبذلك يأتي الجواب من المخاطب نفسه وليس من المتكلم ، وهذه أكد أنواع البيان وآكد ألوان التحقيق ، فحين يخاطب الحق سبحانه وتعالى بقوله : « أرأيت » نقول أكان ذلك مشهداً لرسول الله رآه ، فتكون الرؤيه على حقيقتها . فإذا كان الأمر لم يكن معاصراً لرسول الله ثم يخاطب الله رسوله بقوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝ ﴾

(سورة الفيل)

ونعلم أن أصحاب الفيل كانوا عام ميلاده صلى الله عليه وسلم ، فهو حين

يخاطب رسوله لم يكن المشهد أمامه ، فـ « ألم تر » هنا بمعنى أعلمت ، ولهذا عدل هنا عن أعلمت إلى قوله : « ألم تر » ؟. لأن الحق سبحانه وتعالى حين يخاطب رسوله بأمر منه فهو يوضح له . إن أخبرتك بشيء فاعلم أني أصدق من عينك ، فإذا قال سبحانه : « ألم تر » فهذا يعني أنك علمت من الحق سبحانه وتعالى ، وإخبار الحق ليس كإخبار الخلق ؛ لأن إخبار الخلق يحتمل الصدق والكذب ، لكن إخبار الحق لا يعني إلا الصدق ، إذن فرؤية عينك قد تخونك ؛ لأنك قد تكون غافلاً فلا ترى كل الحقيقة ، لكن إذا أخبرك الحق سبحانه وتعالى فسيحركك بكل زوايا الحقيقة . إذن فإخبار الحق أوثق وآكد من رؤية العين وسبحانه عندما قال :

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝ ﴾

(سورة العلق)

هذه مثلت الأولى ، وحين قال سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝ ﴾

(سورة الفيل)

كأنك تراهم الآن ، فـ « ألم تر » تعني كأن المشهد أمامك

إذن فوسائل تأكيد الأشياء : خبر من خلق يحتمل الصدق ويحتمل الكذب هذه واحدة ، ورؤية من خلق تحتمل أنها استوعبت كل المرئي أو حاطت ببعضه ، أو خبر من خالق أحاط بكل شيء ، فيجب أن يكون الخبر من الخالق أوثق الأخبار في تصديقهم

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب » جاءت هذه الآية ورسول الله يعاصره قوم من اليهود ورأى منهم بالفعل أنهم أوتوا نصيباً من الكتاب ، لأنهم أهل كتاب ، ومع ذلك يشترون الضلالة ؛ ولا يقولون الحق ، فيكون هذا أمرا مشهدياً بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحينما أرسل الله محمداً جعله خاتماً للأنبياء وختم به ركب النبوة ، وهذا يعني : أن النبوة كان لها ركب وفي كل عصر من العصور يأتي نبي على مقدار اتساع الخيلة ، وعلى مقدار التقاء المكانين في الحياة ، وعلى مقدار الداءات والأمراض التي تأتي في المجتمع ، ولكن الله علم أزلاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيأتي في فترة ورسالته ومنهجه ينتظم ويضم كل قضايا الزمن إلى أن

تقوم الساعة . وهو زمن يعلم الله أن فوارق المواصلات فيه ستنتهي ، وفوارق الحواجز فيه ستنتهي ، فيحدث الخبر في أدنى الشرق وأعلاه فتسمعه في أدنى الغرب وأعلاه ، والخبر في الغرب تسمعه في الشرق . والداء يوجد مرة في أمريكا وبعد يوم أو يومين يوجد في أي بلد من البلاد .

إذن فالمسافات انتهت ، وجعلت المواصلات العالم كقطعة واحدة ، إذن فالداءات في المجتمع القديم لعسر الاتصال كانت تنعزل انعزالاً إقليمياً وكل داء في جماعة قد لا يصل إلى الجماعة الأخرى ، فهؤلاء لهم داء لا يصل إلى الجماعة الأخرى ؛ لذلك كان الحق يرسل رسولاً لكل جماعة ليعالج داءاتها ، لكن إذا التحم العالم هذا الالتحام ؛ فلا بد أن يأتي رسول واحد جامع للناس جميعاً ؛ لأن قضايا الداءات ستكون واحدة ونحن نرى الآن كل يوم عجبا ، كلما تحدث حادثة هناك نجدها عندنا

إذن فلا بد أن تتوحد الرسالة وحين تتوحد الرسالة فلا يأتي رسول ليستدرك بعد ذلك ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم جاء خاتماً ؛ ولذلك أخذ الله العهد على كل رسول أن يبشر قومه بأنه سيأتي رسول خاتم ليكون عند أهل كل ديانة خلفية تطمئنهم على أنه إذا جاء رسول ، فقد عرفوا خبر مقدمه ويقولون : لقد قالت لنا رسلنا ؛ ولذلك قال الحق .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾

(من الآية ٨١ سورة آل عمران)

ثم قال :

﴿ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(من الآية ٨١ سورة آل عمران)

راجع أصله وخرج أحاديثه فضيلة الدكتور / أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر

إذن فرسول الله مشهود له من كل الرسل ؛ ولذلك أكد صلى الله عليه وسلم ديانات كل الرسل . وجاء دينه بديانات كل الرسل ؛ لأنهم معه على منهجه الذى نزل به . والذين يلتحمون بالإيمان بالسماء بواسطة لرسل السابقين ؛ إذا ما جاءهم خبر رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فقد يجعلهم تعصبهم لدينهم ينصرفون عنه ، فأعطاهم الحق الخبرة الإيمانية وأوضح لهم : سيأتى رسول خاتم فتنبهوا يا كل الأقوام إذا ما جاء الرسول الخاتم فلا بد أن تؤمنوا به . وكان عندهم فى كتبهم الدلالات والإخبارات . إذن فالله أعطاهم نصيبا من الكتاب وانظروا إلى دقة الأداء القرآنى « ألم تر » يا محمد « إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب » جاء هذا القول وهو يحمل لهم عذرهم إن فاتهم شىء من الكتاب ؛ لأنه سيقول فى آية أخرى :

﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾

(من الآية ١٣ سورة المائدة)

ومادامو قد نسوا فهم معذورون ، لكن من عندهم كفاية فى العلم من الدين « أوتو نصيباً من لكتاب » ، كان المفروض فيهم أن تكون آذانهم مستشرفة إلى صوت داعية الحق الخاتم ، وهذا كان معروف لهم من قبل ؛ لذلك يقول لنا ربنا

﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

فهم كانو يقولون لعبدة الأوثان من العرب . نحن فى انتظار النبى الخاتم الذى سيرسله الله لنسوقكم إلى الإيمان به ، فإذا ماسوقناكم إلى الإيمان به وطللتم على كفركم ، سنقتلكم به قتل عاد وإرم . إذن فهم معتصمون بالإيمان بالسماء ، فقل لى إذا قالوا هذا القول ، وهم معروفون أنهم أهل كتاب فلماذا كفرو بالرسول صلى الله عليه وسلم ؟ إن كفار قريش لم يقولوا . إننا أهل كتاب ، بل كانوا على فترة من الرسل ، فكان المفروض أنه إذا ما جاء الرسول تسابق أهل الكتاب إلى الإيمان به لأنه سبق لهم أن توعدوا به العرب . لقد أعطاهم الله منزلة عالية لكنهم من لؤمهم لم ينتفعوا بها ؛ فيقول الحق .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة الرعد)

لقد جعلكم الحق شهوداً على صدق الدعوة ، هو شاهد وأنتم شهود ، وهذه منزلة كبيرة ، لكنهم لم يلتفتوا إلى تلك المنزلة وركبوا سفينة العناد الغارقة :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِۦ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

ولكن يجب أن نفطن إلى أن الحق سبحانه وتعالى حينما يرسل قضية عقدية فى الكون فيخالفها مخالف يظن أنه يضار الله ، نقول له : لا أنت تفعل ذلك لشهوة فى نفسك لكن الحق سيجعلها لنصرة الدين الخاتم ، وتكون أنت مغفلاً فى هذا الموقف . فإياك أن تظن أنك قادر أن تصادر مرادات الله حين كذبت بمحمد وجعلك ربنا تقول هذه الكلمة للمشركين من قريش ، فانظر ماذا ستفعل هذه الكلمة ؟ ولكى تعرف أنت بإنكارك ماذا قدمت للإيمان أنت فهمت أنك صادمت الإيمان لا . أنت أيدت ونصرت الإيمان لكن بتغفيل ! وعليك وزر

فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعلن دعوته من ربه قال العرب المشركون الوثنيون : إن هذا النبى هو الذى توعدتنا به اليهود ، فهيا نسبق إلى الإيمان به قبل أن يسبقونا .

إذن أخدموا الإيمان أم لا ؟ .. لقد خدموا الإيمان . إذن فلا يظن عاصٍ أنه يقدر أن يطفىء نور الله ؛ لأن الله يتم نوره ولو كره الكافرون ومثال لذلك عندما غَيّر ربنا القبلة ويوضح : يا محمد أنا أعرف أنك مستشرف ومتشوق إلى أن تتوجه إلى الكعبة ، وأنا قد وجهتك أولاً لبيت المقدس لمعنى . ولكن أنا سأوجهك للكعبة وعليك أن تلاحظ أننى حين أوجهك إلى الكعبة سيقول السفهاء « وهم اليهود » :

﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة البقرة)

فهم يتساءلون : ما الذى جعلهم يتركون القبلة التى كانوا عليها ؟ فإن كانت قبلة إبراهيم هى الكعبة فلماذا لم يتجه إليها من أول الأمر ؟ هم سيقولون هذا الكلام . ونزل به قرآن يتلى ويسجل . ومن تغفيلهم ساعة تغيرت القبلة قالوا ذلك القول أيضاً ، ولم يلتفتوا إلى أن الحق قال من قبل :

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة البقرة)

فعلى الرغم من ذكائهم إلا أنهم قالوا هذا الكلام ، مما يدل على أن الكفر مظلم والكافر فى ظلام فلا يعرف كيف ينصر نفسه . وجعل الله الكفر وسيلة للإيمان . فلو أنهم كانوا أذكياء بحق وأصحاب بصيرة لكانوا بمجرد أن قال القرآن . « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها » ، لجمعوا بعضهم وقالوا : القرآن قال . إننا سنقول كذا وكذا ، فهيا لا نقول كى يكون القرآن غير صادق . لكنهم لم يقدروا على ذلك . إذن فالكافر مغفل هم يظنون أنهم بكفرهم يطمسون الإيمان بالله . لا ؛ لأن الله جعل الكفر وسيلة للإيمان ، والحديث الشريف يقول :

(إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر)[1] .

فالحق سبحانه وتعالى يبيّن : هؤلاء أوتوا نصيباً من الكتاب ، وكان المفروض لمن أوتوا نصيباً من الكتاب أن يكونوا أول من آمن . لكنهم لم يؤمنوا ، هذه أول مرتبة ، وليتهم اقتصروا فى الشرّ عن هذه ، وبذلك تقف المسألة وتظل معلقة بهم ، ولكنهم يشترون الضلالة ، ليس فقط فى نفوسهم بل يريدون أن يُضلوا غيرهم ، وهذه هى المرحلة الثانية ، فهناك من يَضِل فى ذاته وهو حرّ ، لكن أن يحاول إضلال غيره فهذ كفر مركب . أنت ضللت وانتهيت ، فلماذا تريدنى أن أضل ؟ لأن الضال أو المنحرف أو الذى ليس على طريق مستقيم إنما يعرف الطريق المستقيم جيداً . ولكن الصعوبة فى أنه لا يستطيع أن يحمل نفسه عليه . فإذا ما وجد إنساناً مؤمناً فهو يستصغر نفسه ، « لماذا آمن هو وأنا لم أؤمن » ؟

إذن فلا أقل من أن يحاول جذبه فى صفه حتى لا يكون هو المنحرف الوحيد ، فإذا رأيت مثلاً فى بلد من البلاد بعض المنحرفين ، ويرون واحداً مستقيماً فهم يتصاءلون أمامه ، وينظرون إليه نظرة حقد ، ويقولون لماذا هو مستقيم ؟ لا بد أن نسحبه للانحراف .

---

(١) رواه البخارى

ولذلك يجب على المستقيمين أن ينتبهوا جيداً إلى أن شياطين الإنس لن تتركهم فى طاعتهم ، بل إنهم سيحاولون أن يستميلوهم ، لأنه يعز عليهم أنهم لا يقدرون على أنفسهم ويحز فى نفوسهم أكثر أن يجدوا بشراً مثلهم قد قدر على نفسه واستقام . ولذلك يقررون . هيا نكون كلنا معاً فى المعصية حتى لا يرفع أحد رأسه على الآخر. فلنكن كلنا كذابين حتى لا يوجد فينا واحد صادق يذلنا والكذاب كلما رأى الصادق يشعر أن هناك حربة تنغرز فى قلبه !! والخائن ساعة يرى الأمين تكون الرؤية حربة تنزل فى قلبه ، فيريد أن يكون الكل مثله . هذه معنى « يشترون الضلالة » .

والحق يقول لهم : أنتم أحرار بشرائكم الضلالة وستجدون جزاء فى النار ، فلماذا تريدون أن تضلوا الناس ؟ إذن فيجب أن ينتبه أهل الطاعة إلى هذا الأمر ، وعندما يستهزىء أحد من طاعتهم فعليهم أن يلتفتوا إلى قول الحق سبحانه .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾

(سورة المطففين)

وهذا ما يحدث إذا رأى بعض المنحرفين واحداً يذهب إلى المسجد أو يصلى ، يقولون له : « خذنا على جلحك » ويسخرون منه ويستهزئون ، لأنهم ساعة يرونه مقبلاً على الطاعة وهم غير قادرين على أن يكونوا طائعين يتضاءلون أمام أنفسهم ؛ لذلك يريدون أن يكون الكل غير طائع ، وهذه هى الصورة التى نراها الآن ، وعندما يقابل هؤلاء أهاليهم يتضاحكون بسرور من أنهم ضايقوا مؤمناً ، ويقولون : قابلنا مؤمناً واستهزأنا به ، ويتابع الحق :

﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣١﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة المطففين)

والله سبحانه وتعالى يوضح لنا : أن هؤلاء المستهزئين بالذين يتهمون المتدينين بأنهم على ضلال . فإياكم أن تيأسوا أمام هؤلاء ، إياكم أن تهزموا أمام هؤلاء لأنى سأنتقم عيناً من هؤلاء ، وذلك يأتى يوم الآخرة ويقول الله بعد أن يتزل بهم النكال والعذاب :

﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (سورة المطففين)

فالحق يتساءل ليأتي الجواب على ألسنتنا ، والسؤال هو : هل قدرنا أن نجازيهم على ما فعلوه فيكم ؟ فاسخروا أنتم منهم ، واضحكوا عليهم كما سخروا منكم في الدنيا .

وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب » وهم اليهود . و « أوتوا نصيباً من الكتاب » أي أنهم لم يأخذوا بكل الكتاب بدليل أنهم نسوا حظاً مما ذكروا به ، « ويشترون الضلالة » ، وساعة تسمع كلمة « يشترى » عرف أن هناك معاوضة ومبادلة ، سلعة وثمنا ، فيشترون الضلالة بماذا ؟ ماذا سيدفعون ؟ الحق يقول في آية أخرى :

﴿ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ ﴾

(من الآية ١٦ سورة البقرة)

أي أنهم دفعوا الهدى ثمناً وأخذوا الضلالة سلعة ، وعادة ما ندفعه يضيع من يدنا ، ومن نشتريه نأخذه لنا . فحين تشتري سلعة بجنيه . فالجنيه يضيع ، بعد أن كان معك أولاً ، فحين يقول « اشتروا الضلالة بالهدى » فهل كان معهم هدى وقدموه وأخذوا الضلالة ؟! نعم ، كان معهم هدى الفطرة فكل واحد عنده هدى الفطرة .

إياك أن تظن أن العقل الواعي ينتظر رسولاً ليدله على الله ، إنما هو ينتظر رسولا ليبلغه مرادات الله منه ، ذلك أن الإيمان بالله أمر من أمور الفطرة ، فالإنسان عندما يتفتح وعيه يجد أشياء في الكون تخدمه ، خدمة مستقيمة رتيبة ، ولا تتخلف عن خدمته أبداً ، هناك شمس تطلع كل يوم ، وهواء يمر ، أرض عندما تزرعها تعطيك خيراً كثيراً ألك قدرة على شيء من هذا ؟ هل ادعى إنسان مثلك أن له قدرة عليه ؟ كل هذه الكائنات أنت تطرأ عليها ، ولم تأت بها .

وعندما يولد الإنسان ويرى كل هذه النعم موجودة . ألا يؤمن بأنه من عطاء خالق ؟ الإنسان فوجيء عندما ولد بوجود النعم . وأيضاً آدم عندما خلق فوجيء بالنعم موجودة، إذن فهو قد طرأ عليها، فالله سبحانه هو قد طرأ عليها ألا يفكر من الذي أقام هذه النعم له ؟ كان لابد أن يفكر من الذي صنع له كل هذه النعم ، وضربنا من

قبل مثلاً ممن انقطعت به الوسائل وهو في الصحراء ولم يجد ماءً ولم يجد طعاماً، ثم يئس فنام ، ثم استيقظ فوجد مائدة عليها أطايب الطعام ، بالله قبلها يأكل ألا ينظر ويفكر ويقول في نفسه : من الذي أعدّ وأقام تلك المائدة ؟ أنت - إذن - وارد على الكون بخيره كله ، ولا أحد قال لك أنا الذي فعلته ، لا أبوك ولا جدك ولا جد جدك قال هذا ، فلا بد أن تنتبه إلى أن له خالقاً .

إذن فالذين اشتروا الضلالة بالهدى ، أكان معهم هدى فتركوه وأخذوا الضلالة ؟ ! نعم كان معهم هدى الفطرة ، ولذلك حين سُئل الإمام علي - كرّم الله وجهه - : أعرفت ربك بمحمد أم عرفت محمداً بربك ؟

قال : لو عرفت محمداً بربي ما احتجت إلى رسول ، إذن فلايصلح أيضا أن يقال لأحد « عرفت ربك بمحمد »،لذلك قال علي كرم الله وجهه : ولكني عرفت ربي بربي ، وجاء محمد فبلغني مراد ربي مني إذن فقوله : « الذين اشتروا الضلالة بالهدى » ماذا فعلوا ؟ باعوا هدى لفطرة واشتروا الضلالة . وهما يقول الحق . « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ».

ولم يأت بـ « الهدى » هنا ، وهذا يدل على أن الفطرة انطمست عندهم انطماسا بحيث لم يقدموا ثمناً للضلالة من الهدى .

« ويريدون أن تضلوا السبيل »و الإرادة هي : أن يرجح الشخص المختارُ حكماً على حكم ، ومثال ذلك : أنت أمامك جوربان مثلا ، فلك أن تختار واحداً منهما ، لكن لو كان أمامك جورب واحد فإرادتك لاترجح . إن الإرادة ترجح اختيارا على اختيار ، وما معنى « تضلوا »؟ الضلال يطلق بإطلاقات متعددة ، فحواها كلها أن هناك أمراً من الحق ليس على بالك ، فهل يحدث ذلك لأنك نسيته أو عرفته وتعمدت أن تتركه ؟ . فالذي نسي هذا الأمر معذور.لكنْ هناك إنسان آخر يعرف هذا الأمر لكنه تعمد أن يتركه ، إذن فالضلال يطلق مرة على النسيان كما في قول الحق

﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

فالضلال منا نسباد لكن هناك من يضل لأنه يفتقد المنهج الحق ويتشوف ويتطلع إليه ليتبعه ، كما في قوله :

﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الضحى)

أي أن المسائل متشعبة على الإنسان فيرى هذا وذاك ، فأوضح لحق لك لاتتعب نفسك لأني سأعطيك السبيل المستقيم إذن فالضلالة لها معان متعددة ، وفحواها جميعاً أنها لاتوصلك إلى الغاية ، والحق سبحانه وتعالى حينما يعرض قضية إيمانية عقدية معنوية يستعمل فيها الألفاظ التي يستعملها الناس في الكونيات ، ولذلك فما هو السبيل؟ السبيل - عندنا - هو الطريق ، وكلنا حتى غير المؤمنين يعرفون أن الطريق يُصنع ليوصل إلى غاية ، ولكن لابد أن نعرف الهدف أولاً وبعد ذلك نرصف الطريق ونعبّده ، ففيه فرق بين السبب الدافع والواقع

نحن قديما نرصف الطريق نرى إلى أين يذهب؟ إذن فالغاية أولاً وبعد ذلك نلتمس أقصر طريق يوصلنا إلى المطلوب وعندما نكتشف أقصر طريق يوصلنا للمطلوب نمهده ونعبّده لكيلا نتعب الناس ، إذن فالسبيل هو : الطريق الموصل إلى الغاية . ولذلك لوضح لنا الحق أن الطريق إلى الإيمان مستقيم كي لا يأخذ مسافات ، فالخط المستقيم هو أقصر الخطوط .

إننا لا بد أن نعرف الغاية قبل أن نعرف السبيل إلى الغاية . وآفة الدنيا وأهلها أنهم يعيشون فيها ولايعرفون غاياتهم النهائية ، إنما يعرفون غاياتهم الجزئية ، فالطالب يريد أن يتعلم كي يكون موظفا ، لكي يتزوج ويقيم أسرة ، والتاجر يتاجر لكي يعمل كذا ، هذه هي الغايات الجزئية ، والذكي هو من لايذهب للغايات القريبة المنتهية ، بل ينظر إلى الغايات الأخيرة ؛ لأن الناس تختلف في الغايات المنتهية ، فواحد يعيش خمسين سنة ، وآخر يعيش ستين عاما ، وثالث يعيش لمدة سنة ، إذن فلابد أن تنظر إلى الغاية التي سيذهب لها الكل ، وآفة الناس أنها تعمل للدنيا ، يعني للغايات القريبة ، برغم أن « الدنيا » تعني الأقل والأتفه ، ولذلك اسمها « الدنيا » ، ومادامت « دنيا » إذن فهناك « عليا » .

إن تعب الناس يأتى من أنها تعمل للغايات الدنيا ؛ لذلك نقول لكل إنسان . انظر الغاية العليا التى سيكون الكل شركاء فيها ، والكل لابد أن يصل لها . فإذا ما عرفنا الغاية العليا نجونا من إرهاق قصر النظر والغرق فى الغايات المحدودة ، مثلاً : أنت تبعث ابنك ليتعلم من سن الحضانة ثم إلى الروضة ثم الابتدائى ثم الإعدادى ثم الثانوى ثم التعليم العالى ثم يتخصص فى مجال معين فى التعليم العالى ، وتصل سنوات عمره إلى العشرين سنة ليتخرج ويتوظف ويقدر أن يعيش بكده وعرقه،والأب يعمل لهذه الغاية ، وقد لا يصل الابن إلى الوظيفة ، وقد يُتعب الابن والده ولا يكمل تعليمه وبذلك تفلت منه الغاية . لكن نحن نريد الغاية التى لا تفلت ، فأنت الآن تعيش فى أسباب خلقها لك الحق ، فاجعل غايتك أن تعيش مع الحق .

إنك فى الدنيا تعيش مع الأسباب التى خلقها لك الحق ، لكنك فى الآخرة ستكون مع الحق نفسه . أنت فى الدنيا تعيش بالأسباب ، ولكنك تعيش فى الآخرة بالمسبب ، ومهما ارتقت أسبابك . فأنت لن تستطيع أن تصل إلى مستوى رفاهة الآخرة . صحيح أنه إذا ارتقت حياتك فى الدنيا فقد تضغط على زر فى الحجرة ويأتيك فنجان قهوة ، أو تضغط على زر يأتيك الأكل ، ولكن قل لى مهما ارتقت الحياة أيوجد ارتقاء بحيث إذا خطر الشىء على بالك يأتيك ؟ لا يمكن ، وهذا ما سيكون لنا فى الآخرة ، إذن فهدفه هى الغاية الحسنة ، ونحن نعيش فى الدنيا مع أسباب الله الممدودة لنا ، أما فى الآخرة سوف نعيش مع الله ولذلك أوضح سبحانه : سأعطى المؤمن والكافر الأسباب فى الدنيا ، فالكافر عندما يزرع يجد نتاجاً ، وعندما يبحث فى الكون وينظر أسراره فالأسرار تتكشف له ، لأن الأسباب خلقها الله من يأخذ بها سواء أكان مؤمناً أم كافراً لكن المسبب لا يذهب له إلا من آمن به ، أما الكافر فقد آمن بالأسباب فأخذ الأسباب ، ولم يمنعها الله منه.

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الشورى)

إذن فهل غايتك أن تبقى مع الأسباب أو تذهب إلى المسبب ؟ انظر إلى غايات

الدنيا الفرعية ، سنجد أنها قد تنتهي قبل أن تصل إليها ويكون تعبك قد ذهب هباء ولذلك أخفى الله الموت وأسبابه ورمزه كي يصبر الإنسان ، فهناك من يحقق كل ما رغب فيه وفي آخر الأمر تنتهي المسألة بالموت ، وهو قد أخذ الهباء لأنه لم يؤمن بالمسبب ، هب أنه أخذ الذهب كلها عنده ، نقول له . سيأتيك الموت ، يعني إما أن تفارق أنت النعمة وإما أن تفارقك النعمة ، ولكن في الحياة الآخرة أنت لا تفارق النعمة ولا النعمة تفارقك فهذه - إذن - هي الغاية الحقة ، غاية العقلاء . ومتعتك في دنياك كما قلنا على قدر أسبابك أما متعتك في الآخرة فهي على قدر المسبب ، وسبحانه لا يقادر قدره ولا أحد يماثله في فعله . والعاقل هو من ينظر إلى الغاية البعيدة .

إذن فالسبيل لا يمكن أن يكون طريقاً إلا إذا علمت الغاية ، والذي يجعل الناس تتعب في الدنيا ، أنهم لا يعرفون إلا الغايات القريبة ، ولذلك سموها « الدنيا » ولا يوجد اسم أدق من ذلك لها ، وكان يجب أن يوحي هذا الاسم بأنها فانية وهناك باقية . إذن فقبلما ترسم السبيل لابد أن تحدد الغاية وبعدما تحدد الغاية تختار السبيل الذي يوصلك للغاية ، وهكذا نعرف أن هناك فرقا بين واقع ودافع ، الشيء الدافع هو أن تنصب الغاية أولاً وتحددها ، فالتلميذ يجتهد كي ينجح ، وينجح لكي يأخذ حظه في الحياة ، وهذه الغاية لابد أن توجد في ذهنه قبل يتعلم ، وعندما يتصور النجاح ولذته في ذهنه فهو يبدأ في المذاكرة ، وعندما يذاكر يصل إلى الغاية وهي النجاح ، فالغاية نوعان غاية دافعة ، وغاية واقعة ، فالغاية الدافعة تسبق الطريق ، والغاية الواقعة تتأخر عن الطريق ، ومن الذي يحدد الغاية ؟ .

إن الذي يحدد غاية كل شيء هو من صنعه ، وغايتك أنت من الذي يحددها ؟ أنت تحدد الغايات الدنيا ، أما الغايات العليا فعليك أن تتركها للأعلى ليحددها وهو الله . ولما دام هو سبحانه الذي يحددها لأنك صنعته وخلقه ، لذلك سأله . أنت سبحانك الذي تعلم موقعها فهيء لنا الطريق الذي يوصلنا لها . لابد إذن من الإيمان إذا ما كانت الغاية هي أن تعيش مع الحق ، والسبيل هو المنهج :

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

أي ان سبلكم أنتم لا توصلكم إلىّ ، لأنكم حددتموها بغاياتكم ، أمّا أنا فقد

حددت السبيل بعايتى فمن أراد أن يصل إلىّ فليظر إلى طريقى . وكلمة « السبيل » ، و« الطريق » كلها أمور حسية ، والحق يستعملها لنا ليدلنا على المعانى العقدية والمعانى المعنوية يوضحها ـ سبحانه ـ بأمور حسية أمامنا ، وعندما توجد فى مفترق طرق وتريد أن تصل إلى المطقة الفلانية . فانحرافك بمقدار ملليمتر واحد فى بداية الطريق ، يبعدك عن الهدف ، وكلما امتد بك السير اتسع المشوار وتبعد المسافة ، فأنت تتوه ، ولمثل هذا بشىء بسيط جداً : كلنا نركب القطارات ، والقطارات تسير على قضبان مستقيمة . فإذا أردنا أن نحول القطار فنحن لا نرفعه ونضعه على قضيب آخر ، بل نأتى بتحويلة لا تتجاوز اثنين من الملليمتر ونقربها إلى حد الالتصاق فى القضيب الأصلى ، وهذا ما يفعله « المحولجى » ، فيحرف القطر لينتظم الخط وليصل إلى المحطة المطلوبة

ولعلنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك بما رواه سيدنا حذيفة ـ رضى الله عنه ـ حينما قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما ، وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا : أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ـ أى أن الإيمان فطرى ـ ثم نزل القرآن ، فعلموا من القرآن وعلموا من السنة .

ثم حدثنا رسول الله عن رفع الأمانة قال :

«ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت ـ وهو اللمعة التى توجد أثراً على الجلد ـ ثم ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر المجْل» (والمجل هو أثر الحمرة التى تظل مدة طويلة على جلد الإنسان فتسبب ورماً فيه مياه ـ كحمر دحرجته على رجلك فقط ـ أى انتفخ ـ فتراه منتبراً وليس به شىء) فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد يوجد أحد منهم يؤدى الأمانة حتى يقال: « إن فى بنى فلان رجلاً أميناً »[1] .

ويستمر سيدنا حذيفة قائلاً :

ولقد مر علىّ زمان وما كنت أبالى أيكم بايعت لئن كان مسلماً ليردنه علىّ دينه ،

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه واحمد

ولئن كان نصرانياً ليردنه على ساعيه ـ أى المحتسب ـ وأما الآن فما كنت أتابع منكم إلا فلاناً وفلاناً .

إن الإيمان فطرى . إنّ قصارى ما يعطيك هذا الإيمان الفطرى أن وراء هذا الكون الدقيق قوة عظمى ؛ فالكون المنظم ، الرتيب ، الذى لا يدخل تحت طاقتك ولا تحت قدرتك ، هذا الكون يسير على أحسن نظام . والقوة العظمى القادرة التى وراء ذلك الكون تتصف بالقدرة ، وبالعلم ، وبالحكمة ، وبكل صفات الكمال

لكن أيعطيك فكرك وعقلك اسم هذه القوة ؟ لا يمكن أن يعطى العقل اسم هذه القوة . أيعطيك فكرك وعقلك مرادات هذه القوة ؟ إنك لا تستطيع أن تعرف مرادات هذه القوة إلا برسول ترسله ليبلغ عنها . والرسول عندما يأتى يقول : إن القوة التى تبحثون عنها ، والتى آمنتم بها إيماناً مجملاً اسمها « الله » . فلا بد أن تصدق الرسول . فالعقل لا يقول لنا اسم القوة الخالقة . ولكن الذى يقول لنا اسم هذه القوة هو البلاغ ، ويعطينا الحق هذا البلاغ من خلال الرسول بكل مراداته من وجودنا .

وهذا هو أقصر طريق للوصول إلى الحق بعيداً عن تعقيدات الفلسفة أو تعقيدات المنطق ، وسفسطة الجدل ، هذا الطريق الذى يثبت أن من يعبد أى قوة غير الله لا حق له فى مثل هذه العبادة . فالذى يعبد الشمس مثلاً هل يستطيع أن يقول لنا ما هو منهج الشمس الذى تعامله من الإنسان ؟ وماذا قالت لمن يعبدها جزاءً للفعل الحسن أو عقاباً على الفعل السيء ؟ ماذا تستطيع هذه الشمس أن تفعل لمن لا يعبدها ؟ . إنها لا تملك ثواباً ولا عقاباً ، ولا منهج لها ، وإله بلا منهج لا يصلح أن يكون إلهاً . فالإله لا بد له من منهج يدل الناس على صواب الفعل وينهى عن سوء الفعل ويملك سلطان الثواب والعقاب . والشمس لا تملك منهجاً تعطيه ، وكذلك الحجر أو القمر .

إذن فهذه الأشياء مخلوقة بدورها من قبل خالق ولا تصلح أن تكون آلهة . ووجود الرسل المبلغين عن الله دليل على صدق الدعوة. فالحق سبحانه وتعالى يعطينا إيماناً بوجوده من خلال المنهج . . ونحن قبل البلاغ نعرف أن هناك قوة خالقة لا نعرف

اسمها ولا مرادها ، ولذلك فعندما يأتي الرسول بالبلاغ فهذه رحمة من الله بالخلق . أما من يحاول أن يحيط بعقله لحياته بدون الرسول فنقول له : أنت تتعب نفسك وروحك بالتعب ولن تصل إلى شيء . ونضرب هذا المثل دائماً ـ ولله المثل الأعلى ـ هب أننا نجلس في غرفة والباب مغلق ثم طرق الباب طارق . هنا نتفق نحن الخلوس في الغرفة في أن وراء الباب طارقاً .

ولكن إذا أردنا تحديد هذا الطارق وتعيينه فستختلف . فيقول قائل : إنه رجل . . ويقول آخر . لا إنه امرأة . ويقول ثالث : لا إنه طفل ويقول رابع هذا بشير ويقول خامس : هذا نذير . ويقول سادس . إنه اقتدم لنا بالقهوة . ويقول سابع : إنه رجل مكلف بالقبض علينا .

هكذا نتفق على أن طارقاً بالباب ونختلف في تحديد « مَن الطارق » . وهكذا الكون ، الكون وراءه قوة هائلة وعندما يحاول الإنسان أن يقول اسم هذه القوة بعقله أو مرادات هذه القوة فهذا يسبب الخلاف . ولكن حينما ترسل القوة عن نفسها رسولاً ليقول : إن القوة الخالقة اسمها الله ومرادات الله كذا ، فهي ذلك حسم للخلاف .

إن الذي أرهق الفلاسفة ووصل ببعضهم إلى دهاليز التيه ، هو أن بعضهم لم يكتف بتعقل القوة التي خلقت الكون . بل إنهم أرادوا أن يتصوروا القوة وما هياتها ومراداتها ونقول إن نظرة الفلاسفة إلى الخالق لا تصلح ؛ لأنهم بتلك النظرة يظلون في التيه ، ولكن البلاغ عن طريق رسول هو الذي يحسم هذه المسألة . والحديث الذي رواه لنا سيدنا حذيفة عن الأمانة يصور لنا مهمة الإيمان وكيف يتعلم المؤمن من القرآن والسنة ، وعندما يهمل هذا العلم ، فما الذي يحدث ؟

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يمثل لنا مراحل فقدان الأمانة وينبهنا . احذروا من أن تتسلل الانحرافات بومة قليلة ، ثم إلى أخرى أكبر منها ، ثم إلى ثالثة أكبر وأوسع وشرحنا ذلك بمثل الانحراف المقصود لعجلات السكك الحديدية

إن قوله الحق سبحانه : « يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل » كي لا ينفردوا ـ وحدهم ـ بالضلال ، والحق سبحانه يعطينا مناعة ضد كلامهم ، فهم لهم حظ من علم الكتاب وهذا قد يجعلنا نحسن الظن بأن لهم صلة بالسماء لأنهم أتباع رسل ، فسبحانه يوضح لنا : هؤلاء يريدون أن تضلوا السبيل وينحدوا من نصيب الكتاب الذي عندهم وسيلة كي يضلوكم .

وفي عصرنا نجد أن أعدى أعداء أي عقيدة ليسوا أعداءها الظاهرين وإنما أعداؤها من أنفسهم لأن عدوّ الظاهر الكافر بجسمي وأنا واثق أنه يريد أن يدس لديني ويدلس ويحرف فيه ، لكن عندما يكون هناك مسلم مثل يأتي ليكلمني فربما آخذ كلامه عن أنه مسلم ؛ ولذلك فخصوم الإسلام يشنوا أن يواجهوا الإسلام مواجهة صريحة ؛ ولذلك نجد العرب قد توقف الآن عن مسألة الاستشراق ، وما بقي من الاستشراق فهذا هو القديم . وكان المستشرق من هؤلاء يؤلف كتاباً ؛ ساعة يقرأه المسلم قد يقول . إنه رجل يعمل على خدمة العلم وعلى خدمة الثقافة ، وخدمة سنة رسول الله . وقد يكتفي هذا المؤلف بأن يدس في الكتاب الواحد فكرة واحدة بعد أن يجعل القارىء يثق فيه .

وعندما علموا أننا عرفنا هذا دخلوا علينا بالمستغربين . وهم أناس منا ذهبوا إلى الغرب فأخذوا الدراسات من هناك وجاءوا بثوها في مناهج تعليمنا ، وفي برامجنا ، وفي وسائل الإعلام ، وفي الصحافة ، والواحد من هؤلاء المستغربين يفعل ذلك وهو مسلم ، فيكون محل ثقة ، ووجد الغرب أن أيسر طريق لهم الآن أن يدخلوا إلينا عن طريق بعض المسلمين الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ؛ لأن الإنسان سيكون مطمئناً إلى أن هؤلاء مسلمون ؛ فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا : أن خصومك الظاهرين أهون عليك من خصومك المنسوبين إلى دينك ؛ لأن هؤلاء يدخلون عليك بالثقة الأولى ، ثقة انتسابهم للإسلام ؛ ولذلك يوضح لنا ربنا هذا الأمر لأنه قد يتعب ويصيب المؤمنين بالعنت لذلك يقول : « أوتوا نصيباً من الكتاب » وهم يعيشون على هذه .

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾

قد يكون عندكم علم بالأعداء فيقال : أنتم عالمون بأعدائكم ، لكن الله أعلم بالأعداء جميعا؛ لأنه قد تكون لك عداوة بينك وبين نفسك ، أو عداوة من روحتك ، أو عداوة من أولادك أو كل هذه العداوات جميعها أو بعضها . وهؤلاء في ظاهر الأمر لا يمكن للإنسان أن يتبين عداوتهم جميعا ، لكن الله أعلم بهم وبما يخفون ؛ لذلك يقول . « والله أعلم بأعدائكم » .

وجاء بها بعد قوله : « ويريدون أن تضلوا السبيل » أي مخافة أن تقول : إن هؤلاء أهل كتاب أو مسلمون مثلنا وكذا وكذ . ومادام الله هو الأعلم بالأعداء . فهو لن يخدعنا ولن يغشنا ، فيجب أن ننتبه إلى ما يقوله الحق من أنهم أعداؤنا ، ويقول بعدها : «وكفى بالله وليًّا» وحين يقول هذا، فالقول يعني أنك لا تريد ولياً بعد ذلك، كما يقولون . كفاني فلانٌ ؛ أي أنك قد تحتاج إلى هذا وهذا ثم تقول لكنَّ فلاناً عرفته فكفاني عن كل ذلك ، أي لا يحوجني إلى أحد سواه ؛ لأنني أجد عنده الكفاية التي تكفيني في كل حركة حياتي .

«وكفى بالله وليًّا » . نعم كفى به وليًّا لأن غيره من البشر إنما يملكون الأسباب ، والحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق الأسباب ، فيملك ما هو فوق الأسباب ولذلك يقول مطمئناً لنا .

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾

(سورة الطلاق)

و« الولي » دائماً هو من يليك مباشره أي أنه قريب منك . « وكفى بالله نصيرا » إذن فهناك قريب ، وهناك أيضا نصير ، فقد يكون هناك من هو قريب منك ولا ينصرك، لكن الله ولي ونصير ، فإذا انت المسألة مسألة معركة « والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً » ، كأن الحق ينبهنا : إياكم أن تقولوا إننا نلتمس

النصرة عند أحد ، اصنعوا ما فى استطاعتكم أن تصنعوه ثم اتركوا ما فوق الاستطاعة إلى الله . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى أوضح لنا : إياكم أن تتخذوا من أعدائكم أولياء ، وإياكم أن تفعلوا ؛ ماذا نفعل ونحن ضعفاء ، ونريد أن نكون فى حمى أحد ، وماذا نفعل فى أعدائنا ؟ لا تقولوا ذلك؛لأن الله أعلمنا : أنا أنصركم بالرعب بأن ألقى فى قلوب أعدائكم الخوف فيهزموا من غير سبب وفيهم قوة وغلبة ، فإن لم يكن عندكم أسلحة سأنصركم بالرعب ومادام سينصرنا بالرعب فهذه كافية ؛ لأنه ساعة ينصرنى بالرعب ؛ يلقى عدوى سلاحه وأنا آخذه ؛ ولذلك قال . اعملوا ما فى استطاعتكم ، ولم يقل . أعدوا لخصومكم ما تحققون به النصر ، فهو سبحانه قادر على أن ينصرنا بالرعب :

﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة آل عمران)

ومادام ألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فوسائلهم كلها تكون للمؤمنين وتنتهى المسألة .

ويقول الحق بعد ذلك .

﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾

تكلّم الحق فى سورة النساء عن الخلق الأول وأوضح : أنى خلقتكم من نفس واحدة وهى « آدم » وبعد ذلك خلقت منها زوجها ، ثم بثت منهما رجالا كثيرا ونساء ، والبث الكثير للرجال والنساء لتستديم الخلافة للإنسان ، لكن كيف يأتى ذلك ؟ أوضح سبحانه : أريد مجتمعاً قوياً ، وإياكم أن يضيع فيه اليتيم . وبعد ذلك مادمت أريد استدامة هذا الاستخلاف فليأخذ الأيتام نصيباً ، وتكلم - سبحانه - عن التركة ، ثم تكلم عن السفهاء غير المؤتمنين على مالهم ، وبعد ذلك تكلم عن كيفية الزواج

إذن فكل هذه العملية ليبنى لنا نظام حياة متكاملا ؛ لأن الخلافة فى الأرض تقتضى دوام هذه الخلافة بالتكاثر ، والتكاثر لا يؤدى مراده إلا إذا كان تكاثر أقوياء ، أما تكاثر الضعاف فهو لا ينفع فإن كان فيكم يتيم لا بد أن تلاحظوه ، وإن كان فيكم سفيه لا يستطيع أن يدبر ماله فدبروا أنتم له ماله ، واجتهدوا لتتركوا من حركة حياتكم للناس الذين سيأتون بعدكم إلى أن تقوى نفوسهم على الحركة وأوضح سبحانه منهاج الميراث ، وأمر سبحانه : أن تزوجوا ، لكن للتزاوج شروطه وقد أوضحها ، ثم أعطانا المنهج العام : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا » ، ووضح هذه الأحكام كلها

وبعد ذلك ما الحكمة فى أنه - سبحانه - يرجع بنا مرة ثانية للبهود ؟ الحق سبحانه وتعالى يوفى الأحكام ، وإلقاء الأحكام شىء وحمل النفس على مراد الله فى الأحكام شىء آخر ، فيوضح لنا : أن هناك ناساً ستعلم الحكم لكنها لا تقدر أن تحمل نفسها عليه ، فإياكم أن تكونوا كذلك واعلموا أن هناك أناساً عندهم نصيب من الكتاب أيضاً ، ويعلمون مثلكم تماماً ، إنما اشتروا الضلالة ، إذن فهو شرح لنا ، إنه الواقع الملموس ولا يأتينا - سبحانه - بكلام خبرى أو إنشائى ، قد تقول : يحدث أو لا يحدث ، إنه يأتيك بأحداث من واقع الكون ، وبينها : إياكم أن تكونوا مثلهم ، فقال : « من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه » والتحريف أنك تأتى باللفظ الذى يحتمل معنيين : معنى خير ، ومعنى شرّ ، ولكنك تريد منه الشرّ ، مثل الذى يقول « السام عليكم والعياذ بالله » هى فى ظاهرها أنه يقول السلام عليكم ، لكنه يقول السام يعنى « الموت » ، إذن فمعنى اللفظ ما يُلحظ ملحظ الخير ، ولكن العدو يميله إلى الشرّ

ومثل هذا ما قالوه للنبي : « قالوا راعنا » وهي من المراعاة ، لكنهم كانوا يأخذونها من الرعونة ، فيأتي الأمر : اترك الكلمة التي تحتمل المعنيين واقطع الطريق على الكلمة التي تحتمل التوجهين ؛ لأن المتكلم ، قد يريد بها خيراً وقد يريد بها شراً ، فمعنى تحريف الكلام أي أن الكلام يحتمل كذا ويحتمل كذا . والمثال على ذلك : الرجل الذي ذهب لخياط ليخيط له قباء[1] ـ وكان الخياط كريم العين ـ أي له عين واحدة ـ فلم يُعجب الرجُل بخياطة القباء فقال : والله ما دمت أفتضح بهذا الثوب الذي خاطه لي أمام الناس فلا بد أن أقول فيه شعراً يفضحه في الناس ، فقال :

خياط لي عمرو قباه ... ليت عينيه سواء

فقوله : ليت عينيه سواء يظهر ماذا ؟ . هل يا ترى يتمنى له أن تكون عينه المريضة مثل السليمة ؟ أو يتمنى أن تكون العين السليمة مثل المريضة ؟ إذن فالكلام يحتمل الخير والشر ، ومثلما حكوا لنا أن واحداً من الولاة طلب من الخطيب أن يسب سيدنا عليًا ـ كرم الله وجهه وآله ـ وأن يلعنهم على المنبر .

فقال الخطيب : اعفني

فقال الوالي : لا ، عزمت عليك إلاَّ فعلت .

فقال له الخطيب : إن كنت عزمت عليَّ إلاَّ سبتُ ، فسأصعد المنبر وأقول . طلب مني فلان أن أسب عليًا فقولوا معي يلعنه الله

فقال له : لا تقل شيئاً . فقد فهم الوالي مقصد الخطيب وقدرته على استعمال الكلام على معنيين .

والحق يقول : « من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه » . وأريد أن تنتبهوا إلى أن أسلوب القرآن يأتي في بعض المواقع بألفاظ واحدة ، ولكنه يعدل عن عبارة

(١) القباء ثوب يلبس فوق الثياب وينمنطق عليه أي يشد عليه حزام ، ولعله ما يسمى بالقفطان

إلى عبارة ، فيخيل لأصحاب النظرة السطحية أن الأمر تكرار ، ولكنه ليس كذلك ، مثلما يقول مرة . « يشترون الضلالة بالهدى » ومرة لا يأتى بالهدى كثمن للضلالة ويقول . « يشترون الضلالة » ، ولم يلتفتوا إلى أن هدى لفظة مطموس عندهم هما ، ومثال آخر هو قول الحق :

﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ﴾

(من الآية ٤١ سورة المائدة)

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول سبحانه : « يحرفون الكلم عن مواضعه » ، فكأن المسألة لها أصل عندهم ، فالكلام المنزل من الله وضع ـ أولا ـ وضعه الحقيقى ثم أزالوه وبدّلوه ووضعوا مكانه كلاما غيره مثل تحريفهم الرجم بوضعهم الجلد مكانه .

أما قوله : « من بعد مواضعه » فتفيد أنهم رفعوا الكلام المقدس من موضعه الحق ووضعوه موضع الباطل ، بالتأويل والتحريف حسب أهوائهم بما اقتضته شهواتهم ، فكأنه كانت له مواضع . وهو جدير بها ، فحين حرفوه تركوه كالغريب المنقطع الذى لا موضع له ، فمرة يبدلون كلام الله بكلام من عندهم ، ومرة أخرى يحرفون كلام الله بتأويله حسب أهوائهم .

« ويقولون سمعنا وعصينا » . فهم يعلنون قولاً مسموعاً « سمعنا » ثم يقولون فى أنفسهم : « وعصينا » . فقولهم « سمعنا وعصينا » ففى بيتهم « عصينا » ، إذن فقولهم « سمعنا » يعنى سماع أذن فقط . إنما « عصينا » فهى تعنى : عصيان التكليف ، وهم قالوا بالفعل سمعت جهرا وقالوا عصينا سرًّا أو هم قالوا : سمعنا ، وهم يضمرون المعصية ، « واسمع غير مسمع » ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يُسْمِعُكم ، بدليل أنكم قلتم : سمعنا ، فإذا تريدون بقولكم : اسمع ؟ هل تطلبون أن يسمع منكم لأنه يقول كلاماً لا يعجبكم وستردون عليه ، أو أنتم تريدون استخدام كلمة تحتمل وجوهاً أخرى فتقلبونها إلى معانٍ لا تليق ، مثل قولكم : « غير مُسْمَع » ما يسرك ، أو « غير مسمع » أى لا سمعت ، لأنهم يبيتون له ـ معاذ الله ـ الصمم ، وقد تكون سباباً من قولهم . أسمع فلان فلانا إذا سبّه وشتمه ، فالكلام محتمل .

« واسمع غير مسمع وراعنا ليّاً بألسنتهم » لم يقولوا: « راعنا » من الرعاية بل من الرعونة ، فقال : لا . اتركوا هذا اللفظ لأنهم سيأخذون منه كلمة يريدون منها الإساءة إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وه الل » : هو فتل الشيء ، والفتل : توجيه شقي الحبل الذي تفتله عن الاستقامة ، وهذا الفتل يعطيه القوة ، وهم يعملون هذه العمليات لماذا ؟ لأنهم يفهمون أنها تعطي قوة لهم

« ليّاً بألسنتهم وطعناً في الدين » ، ومادامو يلوون الكلام عن الاستقامة فهم يريدون شرّاً ؛ لأن الدين جاء استقامة ، فساعة يلويه أحد فماذا يريد ؟ إنه يريد « طعناً في الدين » ، « ولو أنهم قالوا سمعنا » ، وبدلاً من إضمار المعصية يقولون : « وأطعنا واسمع وانظرنا » بدلاً من « راعنا » ، فـ« انظرنا » لا تحتمل معنى سيئاً .

إذن فمعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يحمي أحباب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن خصومه يأتون بالألفاظ محتملة لدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لذلك يوضح : احذروا أن تقولوا الألفاظ التي يقولونها ؛ لأنهم يريدون فيها جانب الشر وعليكم أن تبتعدوا عن الألفاظ التي يمكن أن تحول إلى شرّ . فلو قالوا سمعنا وأطعنا « واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن » ، وساعة تسمع كلمة « لكن » فلتعلم أن الأمر جاء على خلاف ما يريده المشرع ؛ لأنه يقول « ولو أنهم قالوا » ، لكنهم لم يقولوا ، إذن فالأمر جاء على خلاف مراد المشرع .

« ولكن لعنهم الله بكفرهم » وه اللعن » هو : الطرد والإبعاد ، فهل تحبّ الله عليهم في لعنهم وطردهم ؟ لا هو لم يلعنهم إلا بسبب كفرهم ، إذن فلا يقولن أحد لماذا لعنهم الله وطردهم وما ذنبهم ؟ نقول : لا هو سبحانه لعنهم بسبب كفرهم ، إذن فالذي سبق هو كفرهم ، وجاء اللعن والطرد نتيجة للكفر .

« ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا » وساعة تسمع بمعنى حدث « لا يؤمنون » ثم يأتي استثناء « إلا » ، فهو يثبت بعض الحدث ، نقول مثلاً لا يأكل إلا قليلاً ، كلمة « لا يأكل » نفت الأكل ، « وإلا قليلاً » أثبت بعض الأكل ، فهو سبحانه يقول « فلا يؤمنون إلا قليلاً » . والإيمان حدث يقتضي عمدنا

هو . من آمن ، إذن ، فمنذى حدث ودخل الحدث ، فساعة تسمع استثناء تقول : هذا الاستثناء صالح أن يكون للحدث ، وصالح أن يكون لفاعل الحدث ، كلمة « فلا يؤمنون إلا قليلاً » تعني . فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً ؛ لأنهم يؤمنون قليلاً بالصلاة ، وبأنهم لا يعملون يوم السبت ، أما بقية مطلوبات الإيمان فليست في بالهم ولا يؤدونها ، أو فلا يؤمنون إلا قليلاً فقد يكون بعض منهم هو الذي يؤمن ، وهذا صحيح عندما نقوله ؛ لأن بعضاً منهم آمن بالفعل ، ونجد أيضاً أنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، فيكون إيمانهم قليلاً بالحدث نفسه .

وهناك أناس منهم بعدما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتُلي القرآن ورأوا صورته فوجدوه مثلما وُصف عندهم تماماً فآمنوا ، ولكن هل آمن كل يهود ، أو آمن قليل منهم ؟ آمن قليل منهم مثل عبدالله بن سَلاَم ، وكعب الأحبار ، وابن عبدالله بن صُورْيَا ، وكعب بن أسد ، وكعب بن الأشرف وغيرهم من اليهود فلم يؤمنوا .

إذن فإن أردت أن بعضاً « قليلاً منهم » هو الذي آمن فهذا صحيح ، ويصح أيضاً أن الكافرين منهم كانوا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، وفي ذلك تعبير من الحق سبحانه وتعالى نسميه « صيانة الاحتمال » ؛ لأن القرآن ساعة ينزل بمثل هذا القول فمن الجائز ـ وهذا ما حدث ـ أن هناك أناساً من اليهود يمكرون في أنهم يعلنون الإيمان برسول الله ، فلو قال:« فلا يؤمنون » فقط لكان من الصعب عليهم أن يعلنوا الإيمان ـ لكن عندما يقول:« إلا قليلا » فالذي عنده فكرة عن الإيمان يعرف أن الذي يخبر هذا الإخبار عالم بدخائل النفوس ، فصان بالاحتمال إعلان هؤلاء القلة للإيمان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا

مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا
فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ
السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾

نعلم أن كل التشريعات التي جاءت من السماء لا يوجد فيها تضارب ؛ فالمشرع واحد ولن يشرع اليوم شريعة ثم يأتي رسول آخر يشرع شريعة أخرى جديدة . فأصول الأديان كلها التي جاء بها رتب الرسالات واحدة ، ولا تختلف إلا في بعض الأحكام التي تتطلبها ظروف العصور ، وفي التشريع الواحد تتطور الأحكام وخصوصاً ما يتعلق بالعادات . وما كان الله سبحانه وتعالى الرحيم بعبده يأتي لمسألة من المسائل تعرض الناس فيها لعادة فتمكنت منهم تلك العادة ، وأصبحت تقودهم أن يفعلوها ثم يأتي ليبهها بكلمة . لم تأت الكلمة الفصل إلا في العقيدة . لكن المسائل التي تحتاج إلى التعود فالحق يتلطف في أن يخرجها خروجاً ميسوراً ، بمعنى أنه يجعلها مرحليات كي لا توجد فجوة الانتقال .

ويمكن أن نشبه فجوة الانتقال . مثلما يكون هناك من يدخن السجائر ، ويصل معدل تدخينه في اليوم مائة سيجارة ، فإذا قلنا له : اجعله خمسين سيجارة ، ثم ثلاثين ، وهكذا ، وبذلك نكون قد وزعنا عادته على بعض الزمن ، وبدلاً من أن تكون المسافة بين السيجارة والسيجارة عشر دقائق أو نصف ساعة فلنجعلها ساعة فنكون قد كسرنا جزءاً من الاعتياد ، وكذلك مرحليات الأمور الاجتماعية التي تنشأ من رتابة التعود .

إذ الحق سبحانه وتعالى يقول « يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم » فالحق يوضح : لم نأت بحاجة جديدة ، بل كلها مما عندكم . قد يقول قائل : مادامت مما عندهم فما لداعي لها ؟ . نقول : لأن هناك جديداً في أقضية العصر التي لم تكن موجودة عندهم ، والذي زاد هو معالجة تلك الأقضية الجديدة ،

ولكن أصل الإيمان موجود بالقرآن المعجز الذى ينزل من السماء ؛ بالمعجزة ، بالتوحيد ، والقضايا العقدية ، كل هذه لا يوجد فيها خلاف .

« يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا » ، وكلمة « أوتوا الكتاب » إلزام لهم بالحجة ، وتعنى : نحن لا نكلمكم بكلام لا تعرفونه ؛ لأنه يقول : « مصدقاً لما معكم » إنهم يعلمون ما معهم جيداً ، فكان من الواجب أن يقارنوا ويوازنوا ما جاء لهم من حديد على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عندهم ، بل وجدوه مصدقاً لما عندهم فقد انتهت المسألة .

ثم انظر إلى التهديد « من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنّا أصحاب السبت ، وكان أمر الله مفعولا » ، سبحانه يباديهم : بادروا ، كما نقول مثلاً : « الحق نفسك وآمن » ويقول الحق . « من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها » . والطمس هو : المحو . فالشيء الذى طمس هو الذى عمى بعدما كان شيئاً مميزاً ، وكلمة « وجوه » وردت فى القرآن بمعانٍ متعددة ، فتطلق مرة فى البدن على ما يواجه وهو « الوجه » كما فى قوله .

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ ﴾

(من الآية ١٠٦ سورة آل عمران)

وتطلق الكلمة مرة على القصد والنية والوجهة ، قال تعالى :

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة البقرة)

و« أسلم وجهه » تعنى قصده ووجهته وبيته .

إذن فمرة يطلق الوجه على الوجه الذى به المواجهة ، ومرة يطلق على القصد ، وما العلاقة بين القصد ، والنية ، والوجه ؟ . لأن الإنسان إذا قصد شيئاً اتجه إليه بوجهه ، وسار له . إذن فالوجه يطلق على هذه الجارحة « الوجه » ، ويطلق على القصد والنية . ولما دام يطلق بإطلاقين فيطلق على الوجه المعروف فيما ، ويطلق على القصد والنية التى نوجهنا فالاثنان يصحان

وقوله: « نطمس وجوهاً » لأنه سبحانه أوضح : أنا مكرمكم وجعلت لكم سمات تميزكم ، بشكلها ، حواجب ، وعينين ، وأنفا جميلاً ، وفماً ، بحيث إنك لو أردت أن تخلق هذه الخلقة ، لما استطعت ، وسبحانه يعلن : أنا أقدر أن أطمس هذه الوجوه التي تميزكم ، بحيث أردها على الأدبار ، فيكون الوجه مثل القفا ، وتصبح كقطعة اللحم ، هذا إن أردنا بقوله: « وجوهاً » ، الوجه الذي في البدن

وإن أردنا بالوجه « القصد » نقول : الذين يشترون الضلالة ، والذين يريدون أن تضلوا السبيل ، والذين يحرفون الكلام عن مواضعه ، والذين يقولون : « راعنا » ، والذين يقولون : « اسمع غير مسمع » . أليس لهم وجهة ؟ وما وجهتهم في هذا الموقف وما قصدهم ؟

إن قصدهم هو صرف أنفسهم وصرف الناس عن اتباع محمد ، فكأنه يقول لهم : بادروا وآمنوا قبل أن نطمس ونمحو قصدكم فلا يصل إلى منتهاه مِنْ صدكم عن الإيمان برسول الله ، الحقوا أنفسكم قبل أن يحدث ذلك ونلعنكم ونطردكم من رحمتنا ، ولذلك نجد سيدنا عبدالله بن سلام عندما سمع الآية ، ذهب إلى رسول الله ويده على وجهه وقال : والله لقد خفت قبل أن أسلم أن يُطمس وجهي .

وهذا دليل على أنه آمن بأن الذي قال هذا الكلام قادر على الإنفاذ وفي عهد سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ نجد كعب الأحبار يذهب له ، ولم تكن الآية قد بلغته ، فلما بلغته ذهب إلى سيدنا عمر وهو واضع يده على وجهه خائفا أن يُطمس وجهه قبل أن يعلن إسلامه . وذلك دليل عن يقينه من أن الذي قال هذا الكلام قادر على الإنفاذ .

وقد يقول قائل : ولكنْ منهم أناس لم يؤمنوا ولم يحدث لهم هذا لطمس نقول : أهو قال سنطمس الوجوه فقط ؟ لا ، بل قال أيضاً : « أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت » ويكفي أن هناك أناساً اعتقدوا أن الطمس قد يجيء وهم من وجوه أهل الكتاب ومن أحبارهم ، فالذين آمنوا برسول الله من هؤلاء كانوا يعلمون كيد اليهود ، فسيدنا عبدالله بن سلام قبل أن يسلم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

أنا أحب أن أسلم ، ولكني أخشى إن أسلمت أن يقول اليهود فيّ شراً فقبل أن أسلم أسألهم عني ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبار اليهود : ماذا تقولون في عبدالله بن سلام ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا وعالمنا وحبرنا ونجدوه ، فلما سمع ابن سلام منهم هذا الكلام قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله فقالوا : هو ابن كذا وابن كذا وسبوه ، فقال ابن سلام . يا رسول الله ألم أقل لك : إنهم قوم بهت[1] .

فقد روى أن عبدالله بن سلام لما سمع بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه فنظر إلى وجهه الكريم فعلم أنه ليس بوجه كذاب ، وتأمله فتحقق أنه النبي المنتظر ، فقال له . إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي : ما أول شرائط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ والولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه ؟ فقال عليه السلام : « أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد الحوت ، وأما الولد فإن سبق ماء الرجل نزعه ، وإن سبق ماء المرأة نزعته » فقال : أشهد أنك رسول الله حقا فقام ثم قال : يا رسول الله ، إن اليهود قوم بهت فإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني عندك ، فجاءت اليهود فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : أيّ رجل عبدالله فيكم ؟ فقالوا : خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا ، قال : أرأيتم إن أسلم عبدالله ؟ قالوا أعاذه الله من ذلك ، فخرج إليهم عبدالله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فقالوا شرنا وابن شرنا وانتقصوه ، قال : هذا ما كنت أخاف يا رسول الله وأحذر ، قال سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشي على الأرض : إنه من أهل الجنة إلا لعبدالله بن سلام ، وفيه نزل : « قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله »[2] .

« من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها » فإن أردنا طمس الوجه حقيقة ، فهو الأمر الذي خاف منه عبدالله بن سلام وكعب الأحبار ، هذا ذهب إلى رسول الله

(١) قولهم بهت فلان فلاناً أي قذفه بالباطل والذي حله الكذب ، واسم الفاعل بهوت والجمع بهتت مثل رسول ورسل

(٢) رواه البخاري ومسلم والنسائي

وذاك ذهب إلى عمر ، وكل منهما كان يمسك وجهه خشية أن يطمس ، إذن فقوله : « نطمس وجوهاً » أى نجعلها مثل « القفا » مجرد قطعة لحم من غير تمييز ، أو نحول بينهم وبين قصدهم أى لا نمكنهم من الوصول إلى ما يريدون من صدهم الناس عن الإيمان برسول الله « من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم » أو أن نطردهم من رحمتنا ومن ساحة إيماننا ، فيقول الحق .

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة البقرة)

مداموا هم قد كفروا نقول لكل منهم . ألم تكن تريد أن تكفر؟ والله سيريد لك الختم على قلبك وسنعينك على هذه الحكاية أيضاً قال تعالى :

﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾

(من الآية ١٠ سورة البقرة)

فإذا كنت أنت تريد هذه فستعطيك ما فى نفسك « فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت » وسبحانه يخاطب اليهود ، واليهود يعرفون قصة السبت ويعرفون أنها واقعة حدثت ، وعرفهم الله وأهلكهم ومسخهم وأعدَّ لهم عذاباً عظيماً إذن فهو لا يأتيهم بمسألة وعيد بدون رصيد ، لا ، فهذا وعيد يسبقه رصيد . . أنتم - يا معشر يهود - تؤمنون به وتذكرونه وله تاريخ عندكم ، « كما لعنا أصحاب السبت » ، وقصة أصحاب السبت معروفة وإن كانت ستأتى فى سورة أخرى ، و« السبْت » وهو السكون والراحة ، ومنه السُّبات أى النوم ، سبت يسبت بمعنى سكن واستقر وارتاح

« أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت » ، واللعن قالوا فيه : إنه الطرد والإهانة ، وقالوا فى معناه : إنه الإهلاك . والذين يحاولون أن يشككوا فى مفهومات آيات القرآن يقولون . أنتم لا تتفقون عند معنى واحد للكلمة ، إما أن يراد كذا ، وإما أن يراد كذا . نقول لهم : أنتم ليست لكم ملكة فى اللغة حتى وإن تعلمتم اللغة فتعلمكم للغة تعلم صنعة لا تعلم ملكة . وتعلم الصنعة يعطيك القاعدة ولكن لا يعطيك قدرة وضع اللفظ فى معناه الحقيقى ولا بيان المراد منه - واللعن - إذا كان

معناه الطرد ـ كان يجب أن تفهموا أن الطرد يقتضى طارداً ، ويقتضى مطروداً ويقتضى مطروداً منه .

ومن لذى يَطْرد ؟.
ومن لذى يُطرد ؟.
وعن أى شىء يُطرد ؟.

حين تأخذون المعنى على هذاالوضع لا تجدون غضاضة فى أن تتعدد معانى الطرد . فهب أنك تجلس للأكل ثم جاءك كلبك الذى تعتز به للحراسة ليحوم حول مائدتك ، ماذا تصنع له ؟. تطرده عن المائدة ، ذلك طرد . وهب أنّ ابنك مثلاً صنع شيئاً وعندك ضيوف فأردت أن تخرجه من المجلس وقلت له اذهب عند أمك ، هذا طرد .

وإذا كان ذنب الابن كبيراً ولك سيطرة فأنت قد تخرجه من البيت فلا يجلس فيه ، وهذا طرد وإذا كان ذنب الابن لا يُحتمل فأنت تخرجه من العربة ، وهذا طرد . فإذا كان هناك إنسان قد أذنب ذنباً كبيراً وكنت صاحب قوة نافذة فأنت تخرجه من الحياة كلها فتكون قد أبعدته من الحياة كلها إذن فكل ذلك طرد . فإن أردنا الخزى والهوان يتأتى اللعن ، وإن أردنا الإهلاك فقد هلك منهم الكثير فى المعارك وماتوا الخزى والهوان ؛ لأننا سبينا نساءهم وبناتهم ، وقهرناهم ، وأهلكناهم ، وأخرجناهم من ديارهم إلى بلاد الشام وإلى أذرعات ، وأهلكهم الله بالموت . إذن فكل معانى الطرد تتأتى . فقد جاء بمس كل الذى حدث هم ، ولكنه يختلف باختلاف الطارد ، وباختلاف المطرود ، وباختلاف المطرود منه .

وحين يقول الحق : « كما لعنّا أصحاب السبت » فهذا يدل على أن اللعن له أشياء مختلفة ، أنا سآخذ منها لعن أصحاب السبت ، والسبت يوم من أيام الأسبوع ، أى وحدة زمنية فى الأسبوع ، ونلحظ أن بقية أيام الأسبوع السبعة فيها إشارات إلى العدد، يوم الأحد يعنى واحد ويوم الاثنين تعنى اثنين.وهكذا فى الثلاثاء والأربعاء والخميس، فيه خمسة أيام بأعداد موجودة إلا يومين اثنين لم يؤثر فيهما العدد : يوم « الجمعة »،

ويوم « السبت » ، وهذان اللفظان أخذا معان غير العددية ، ولكنها يأخذان معنى العددية بالبعدية أو القبلية .

يعني عندما نقول مثلاً « الخميس » فيكون يوم الجمعة يعني « ستة » ، إنما لم يقل « ستة » وقال « الجمعة » ويوم « السبت » يكون سبعة ، إذن فأنت تستطيع أن تضع العدد البعدي بعد الأعداد : واحد . اثنين ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة ، سبعة ، لكننا نجد أن لها اسمين مختلفين ؛ لأن في كل واحد منها حدثاً غلب العددية . فـ« الجمعة » للاجتماع ، فتركنا كلمة « ستة » وأخذنا بدلا منها « الجمعة » ، و« السبت » للسكون ؛ لأن مادتها في اللغة : سبت يسبت ، أي سكن وهدأ ولم يتحرك ، مثل قول الحق

﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ ﴾

(سورة النبأ)

أي سكوناً وهدوءاً .

والحق سبحانه وتعالى حين يريد ابتلاء بعض خلقه ليعلم منازعهم من الإيمان واليقين والانصياع لأوامر الحق ، يأتي فيحرم حدثاً في زمن وهو مباح في غير ذلك الزمن ، فقد يحرم الصيد في أحد الأيام وكان مسموحاً بأن يصطادوا في كل يوم . وكانوا يأتون بالسمك كزرق من البحر ، فجاء في هذا اليوم خصوصاً وقال لهم : لاتصطادوا في هذا اليوم ، أي أن يسكنوا عن الحركة ، هذا هو « السبت » بمعنى السكون ، و« أصحاب السبت » هم الجماعة الذين اجتمعوا على حادثة تتعلق بالسبت أو تتعلق بالسكون ، أي تتعلق بعدم العمل وبعدم الحركة ، وقصة أصحاب السبت شرحها الحق وتكلم عنها إجمالياً في سورة البقرة :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة البقرة)

وقوله هنا : « كما لعنَّا أصحاب السبت » ، لكن القصة بالتفصيل ذكرها الحق سبحانه وتعالى وقال مخاطباً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالله الآمر ، والرسول هو الذي سأله الله أن يسأل ، والمسئولون هم أصحاب الحكاية وهم اليهود ، وحين

يطلب الحق خبراً مؤكداً من الأخبار ، قد يلقيه خبراً فيصدقه أهل اليقين الذين يثقون في الله ويصدقونه ، وقد لايتركه خبراً ، بل يأتي به في صيغة الاستفهام ؛ لأنه واثق أن المستفهم منه لايجد جواباً إلا الحق الذي يريده سبحانه وتعالى ، وعندما يقول ربنا لنبيه :

﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾
(١٦٣ سورة الأعراف)

ذلك حدث لايستطيعون إنكاره ، وكان من الممكن أن يقص الله الحدث من عنده ، ولكنه يريد أن يوثق الحدث توثيقاً لايحتمل إنكار منكر ولا مكابرة مكابر ، فاوضح : أنا لاأقول عن الحدث ، ولكن يامحمد اسألهم أنت عن هذه الحادثة فسيكون جوابهم جواباً مطابقاً لما حدث ، لأنها مسألة واضحة لا تنكر .

« واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر » وكلمة « قرية » مأخوذة من « القِرى » والقِرَى هو أن تكرم واحداً مقبلاً عليك كضيف مثلاً ولكن ليس عندك مايعطيه « قرى كاملاً » أي مايقيم حياته لأيام أو شهور ، بل عندك « قرْية واحدة » ، أي أكلة واحدة تكفيه لوجبة واحدة ، فإذا قد مر عليك فأنت تعطيه قرية واحدة ـ وجبة واحدة ـ فإن كانت البلد « أم القرى » . فيكون فيها حاجات كثيرة ؛ أو لأنها أعظم القرى شأناً والقَرْية التي جاء ذكرها في سورة الأعراف يتم تعريفها بأنها : « حاضرة البحر » والحاضر هو القريب . فيقال : حضر فلان أي أصبح على مقربة مني ، و « الحاضرة » أيضاً هي : التي إن طلبت فيها شيئاً وجدته ، كما قال شوقي ـ رحمة الله عليه :

ليل يجانبني كل شيء إذن حضر

فكذلك « احضر » معناه : أن كل حاجة فيها موجودة ، أما البادية فحاجاتها تكون على قدر أهلها فقط ، ولذلك فـ « حضر » ضد « بادية » وأخذوا منها « الحواضر » مثل العواصم الآن ، إذن فقوله : « حاضرة البحر » تأخذها بمعنى قريبة

من البحر ، أو أنها هى البلد المتحضر على البحر ، أو الحامعة لأنواع الخير على البحر ، وهى التى كانت بين « مدين » و« الطور » واسمها « أيلة » .

وقصتهم : أن الله أراد أن يبتليهم بشىء وهو : تحريم الصيد فى ذلك اليوم ، ومادامت « حاضرة البحر » ، فرزقهم على الصيد ، فقال . لاتصطادوا فى هذا اليوم ، ولكن الله حين يريد أن يحكم الابتلاء ليعلمَ علم إبراز لخلقه مدى تنفيذهم للابتلاء ، وإلا فهو عالم مادا سيفعلون . فقال : لاتصطادوا فى هذا اليوم . قد يقول قائل . لماذا حرم هذا الحدث فى ذلك الرمن ؟ . نقول له أنت تريد أن تعلم من لله أن كل تحريم له مضارة ، نقول لك . لا ، فقد يكون تحريم ابتلاء واختبار ، ولذلك قال تعالى :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

« الطيبات » هى الحلال ، لكنهم هم فعلوا مايستحقون عليه العقاب ، فقلنا لهم : مادمتم تجاورتم حدودكمْ وأخذتم ماليس حلاً ، فجعلتموه حلاً فلابد أن أجعل من الحل الذى هو لكم حراماً عليكم ، هذه مقابل تلك ، فلماذا اجترأت على محرم فأحللته ؟وما دمت قد فعلت ذلك ولم ترتض تحليلى وتحريمى فأن سآخذ شيئاً من الذى كان حلاً لك وأحرمك منه .

إذن فلا يتطلب من كل تحريم أن يكون فيه مضارة ، إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يكون الإيمان له أصول ثابتة ، ولذلك يقول :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ ۚ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الحج)

إذن فالحق لايريد من الناس أن يعبدوه على حرف . . أى على طرف من الدين بل فى وسطه وقلبه أى أنهم على قلق واضطراب فى دينهم لا على سكون وطمأنينة ، كالذى على طرف العسكر والجيش . . فإن أحسّ بظفر ونصر وغنيمة سكن واطمأن ، وإلاّ مرّ وطار على وجهه . هو يريد منك إيماناً حقاً ، ولذلك فبعض الناس

يقول : سأزكى لأريد من مالى . نقول له : اخرج من بالك ظنك أن مالك سيريد ، بل أنت تزكى لأن الله طلب منك أن تزكى . أما أن يزيد مالك فهذا شىء آخر ، فلعل الله يبتلى إيمانك ويريد أن يرى : أأنت مقبل على الحكم لأن الله قاله ، أم لأنه سيعطيك ربحاً زائداً ؟ وسبحانه حين يعطى ربحاً زائداً ستزكيه أيضاً . لكن هو يريد من يقبل على الحكم لأنه سبحانه قد قاله

وقد حرم الحق سبحانه وتعالى عليهم الصيد يوم السبت بظلم منهم ، وكان من الجائز جداً ألا يكون هناك مغريات على المخالفة ، ولكنه أراد أن يبلوهم بلاءً حقاً فيأتى فى اليوم المحرم فيه الصيد ويكثر من السمك ، ترى السمكة ظاهرة مثل شراع المركب ، وهذا معناه إغراء بالمخالفة . فلو لم يظهر السمك فى هذا اليوم لكانت المسألة عادية ، لكنهم حين ينظرون السمك وقد « شرع » مثل المراكب سابحاً فى الماء ، « إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرّعاً ويوم لايسبتون لاتأتيهم » .

إذن فالابتلاء جاء من أكثر من زاوية : يوم سبتهم تأتى الحيتان شُرّعاً ، وفى غير يوم السبت لاتأتى ، وهذا الأمر يجعلهم فى حالة قلق . فلو كانوا على اليقين والإيمان لالتزموا بالأمر .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يمحصهم لتمحيص الدقيق ، فإذا هم فاعلون ؟ هم يريدون أن ينفذوا الأمر ، إنما طمعهم المادى يصعب عليهم ألا يصطادوا هذا السمك الذى يأتيهم يوم السبت ، ولو أنهم وثقوا بعطاء الله فى المنع لنجحوا فى الاختبار . ذلك أن الحق قد يجعل فى المنع عطاء ، لكن مَن الذى يتنبه لذلك ؟

لم يقولوا : ما عند الله خير من هذا السمك الشُّرع الذى يأتينا ويلفتنا . لكنهم احتالوا حيلاً ، مثلاً . صنعوا من الأسلاك والحبال « مصايد » و« حُجَى » . و« ملاقف » يحجزون بها هذا السمك الشُّرع فى الماء ثم يأتون فى اليوم التالى فيجدونه محبوسا ، وظنوا أنهم بذلك احتالوا على الله ولم يتفهموا معنى الصيد ، فالصيد هو جعل السمك فى حيازتك ، ومادمت قد عملت بحيث تتمكن من حيازة السمك فى أى وقت تكون قد اصطدت . إذن فهم يحتالون على الله ؛ ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ۘ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾

(١٦٣ سورة الأعراف)

ومادام الواحد منهم يمسك ويحل نفسه شيئاً حرمه ربنا عليه ، فيوضح له ربنا . مادمت قد فعلت ذلك فسوف أحرم عليك شيئاً أحللته لك ؛ لأنك أعطيت لنفسك حرية في أن تُحل ماحرمت ، فأنا سأحرم ما أحللت لك .

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وهذا دليل على وجود عناصر خير فيما بينهم ، وقالت عناصر الخير : اتقوا الله . فقال لهم آخرون : لِمَ تعظون قوماً الله مهلكهم ، إذن فهناك ثلاث جماعات : جماعة خالفوا ، وجماعة أرادوا أن يعظوهم كي لايقعوا في المخالفة ، وجماعة لاموا من يعظونهم وقالوا . دعوهم ليهلكهم الله أو يعذبهم . . « الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً » ، فقالت الجماعة التي تعظ : نحن نريد بالوعظ أن يكون لنا عذر أمام الله بأننا لم نسكت عن المنكر ونحن نعمل لأنفسنا . « قالوا معذرة إلى ربكم » وأيضا فلعلهم يتقون ربهم بترك ماهم فيه من المعصية والفسق . فإذا حدث ؟ . يقول الحق :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ومادام قد قال : « أنجينا » ، فهناك مقابلها وهو « أهلكنا » ، إذن نجاه هنا « اللعن » بمعنى الهلاك .

ويختم الحق الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : « وكان أمر الله مفعولاً » نعم لأن الحق سبحانه وتعالى بقدرته الشاملة وصفات جلاله الكامله ، لا يتخلف شيء في

وجوده عن أمره ، فإذا وعد بشيء فلابد أن يحدث ، فأمر الله غير أوامر البشر ، فأوامر البشر هي التي تتخلف أحياناً سواء أكانت وعداً أم وعيداً ، لأنك قد تعد إنسان بخير ، ولكنك ساعة أداء الخير لا تستطيعه ، فتكون قدرتك هي التي تحتاج إلى أداء الخير . أو توعد إنساناً وتهدده بشرّ ، وتستعمل فيه كذا غداً ، وقد يأتيك غداً مرض يقعدك فلا تستطيع إنفاذ وعيدك .

إذن فأنت قد لا تستطيع إنفاذ شيء من وعدك ولا شيء من وعيدك ؛ لأن قدرتك من الأغيار ، وطالما قدرتك من الأغيار فقد توجد أو لا توجد . لكن الحق سبحانه وتعالى إذا قال بوعد أو قال بوعيد أيوجد شيء يغير هذا ؟ لا . إذن فساعة يقول ربنا بوعد أو وعيد فاعرف أن هذا سيحدث في الوعد ، أما في الوعيد فإن الله قد يتجاوز عنه كرما وتفضلا ما عدا الشرك بالله .

ونعرف أن الحق سبحانه وتعالى يوزع الأحداث على الزمن ، فلا زمن يقيده ؛ لأنه يملك كل الزمن ، أما أنت كواحد من البشر فتتكلم عن الحدث حسب زمانه.فإن كان هناك حدث قد حصل قبل أن تتكلم أنت عنه ، فتقول : فعل « ماض » . أي أن الحدث قد وقع في زمن قبل زمن تكلمك ، وإن كان الحدث يقع في وقت تكلمك . كان الفعل « مضارعا » ، والمضارع صالح للحال وللاستقبال ، تقول . فلان يأكل وذلك يعني أنه يأكل الآن وإن قلت : « سيأكل » ـ أي أنه سيأكل بعد قليل ، فإذا قلت عن أمر مستقبل إن هذا الأمر سيحدث ، أتملك أنت أن يحدث ؟ لا . إذن فالكلام منك على الاستقبال قد يكذب وقد يصدق ، لكن إذا قال الحق وأخبر عن أمر مستقبل وعبّر عنه بالفعل الماضي فمعنى ذلك أنه حادث لا محالة ؛ ولذلك فالزمن عند ربنا مُلغى .

وعندما نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾

(من الآية ١ سورة النحل)

« وأتى » هذه فعل ماض ، وقوله : « أتى » يدل على أنه أمر قد حدث قبل أن يتكلم ، وقوله : « فلا تستعجلوه » دلّ على أنه لم يحدث ،فالذي يشكك في القرآن يقول . ما هذا الذي يقوله القرآن .؟ يقول : « أتى » وهو لم يأت ؟ . نقول له هذا الكلام عندك أنت . لكن إذا قال الله : إنه « أتى » فهو آتٍ لا محالة ، فاحكم

على الحدث المستقبل من الله على أنه أمر كائن كما يكون كائناً ماضياً ، مادام قال فلا رادّ لأمره . « أتى أمر الله » فهي بمعنى سيأتي . ولا توجد قدرة في خلقه تصرف مراده أو تعجزه عن أن يفعل .

وقوله سبحانه : « وكان أمر الله مفعولا » جاء لأنه قال من قبل « أو نلعنهم » هذه مستقبل وقد يقول قائل : أن « نلعنهم » تعني أن اللعنة لم تأت وقد لا تحدث ، ونقول: لا ؛ لأن أمر الله كان مفعولاً ، وإياك أن تأخذ « نلعن » هذه التي للمستقبل كي تطبقها عند ربنا ، لأن الحق سبحانه وتعالى يوضح لك : أنت الذي عندك المستقبل ، والمستقبل قد يقع منك أو لا يقع ؛ لأنك لا تملك أسباب نفسك ، تقول : سأعمل الشيء الفلاني غداً وقد يأتي غدٌ وتكون أنت غير موجود هذه واحدة ، أو تقول سأقابل فلانا. وفلان هذا قد لا يكون موجوداً فقد يموت ، أو قد يتغير رأيك ويأتيك الشيء الذي كنت تطلبه قبل أن تتكلم مع ذلك الإنسان ، أو قد تقول : أنا سأنتقم من فلان ، وعندما يأتي وقت الانتقام يهدأ قلبك

إذن فأنت لا تملك شيئاً من هذا ، فلا يصح أن تجادل ؛ ولذلك يعلمنا الله الأدب مع الأحداث ومع الكون ومع المكون ، ويخرجنا عن أن نكون كذابين فيقول لرسوله :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾

(الآية ٢٣ وجزء من ٢٤ سورة الكهف)

يعلمك الحق ذلك حتى لا تكون كذاباً ، فإن قلت : أنا فاعل ذلك غداً ثم لا تفعله ، ومادمت لا تفعله فتكون كذاباً مجترئا ؛ لأنك افترضت في نفسك القدرة على الوجود .

وكل حدث من الأحداث مثلما قلنا : يحتاج إلى « فاعل » ، ويحتاج إلى « مفعول » يقع عليه ، ويحتاج إلى « زمن » ويحتاج إلى « سبب » ، ويحتاج إلى « قدرة » تبرزه في المستقبل . قل لي بالله عليك : ماذا تملكه من عناصر الفعل ؟

أنت لا تملك وجود نفسك ولا تملك وجود المفعول ولا تملك السبب ، ولا تملك

القدرة ، ولا تملك شيئاً ، فأدباً منك عليك أن تقول : « إن شاء الله » فإن لم يحدث تقول : أنا قلت إن شاء الله وهو لم يشأ ، فتكون قد خرجت من التبعة ، ولم تكن كذاباً . إذن فقول الحق : « وكان أمر الله مفعولاً » لأنه قال : « أو نلعنهم » . و« نلعن » هذا فعل مضارع ويأتي من بعد ذلك ، فواحد قد يقول : إنه سبحانه قال : سيلعن ، فهل ستتحقق اللعنة ؟ نقول له : نعم ، لأنه قال : « وكان أمر الله مفعولاً » . وكذلك ساعة تقرأ أو تقول : « وكان الله غفوراً رحيماً » . فعليك أن تضيف : ولايزال غفوراً رحيماً ، لأن صفة الرحمة لم توجد له ساعة وجد المرحوم ، لا . بل معنى « رحيم » أنه سبحانه يرحم غيره والذي وُجد ليتلقى رحمته سبحانه إنما جاء بعد أزليَّة رحمة الله ومغفرته.فسبحانه أزليّ قديم . والصفة أزلية وقديمة بقدمه ـ سبحانه قبل أن يوجد من يرحمه ، وهو لا تأتيه أغيار . ومادام سبحانه رحيماً قبل أن يوجدَ مرحوماً له فإذا أوجد مرحوماً له ، أتنحلّ الصفة أم تبقى ؟ إنها باقية دائما فكان الله ولا يزال غفوراً رحيماً ، « وكان أمر الله مفعولاً » نعم ، لأنه قد يفعله بأسبابه وقد يفعله بدون أسباب فالأمر متروك لمشيئته فإما أن يوجد الشيء من غير سبب أو يوجده بسبب،والشيء الموجود بالسبب مخلوق بالمسبب ،سبحانه خالق الأسباب .

وبعد ذلك ينتقل الحق سبحانه إلى قضية عقدية أساسية في صلة الإنسان بالحق سبحانه وتعالى . يقول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾

هذه من أرجى الآيات في كتاب الله ، ولذلك فحينما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما موجبات الإيمان ؟ أي ما الذي يعطينا الإيمان ؟ فقال صلى الله عليه وسلم :

« من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » .

وعن عثمان رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة »[1]

ونحن نقول إن من يشرك بالله فهو يرتكب الخيانة العظمى ، وقد أخذنا هذا المصطلح من القوانين الوضعية ، وإن كانت القوانين الوضعية ليس غرضها أن تؤكد قضايا دينية ، لكن غفلتهم تجعلنا نلتقط منها أنها تؤكد القضايا الدينية أيضاً . هب أن جماعة قاموا بحركة ، وبعد ذلك استغل واحد منهم الحركة فى نفع خاص له ، وواحد آخر استغل الحركة فى أن تكون له لا للآخر ، أى ينقلب عليه ، فالأول القائم على النظام يسميها خيانة عظمى ، أما من لا يقاوم بغرض خلع الحاكم ولكنه يظلم الناس فقد يعاتبه الحاكم على ما حدث منه ولبس على الخيانة العظمى . إذن ففى قانون البشر أيضا خيانة عظمى ، وفيه انحراف وهو الذى لا يتعرض للسيادة ، لكن أى حركة تتعرض للسيادة يكون فيها قطع رقاب ، وكل أمر آخر إنما يؤخذ بدرجة من العقوبة تناسب ذنبه

فالحق سبحانه وتعالى يوضح : أصل القضية الإيمانية أن الله سبحانه وتعالى يريد منكم أن تعترفوا بأنه الإله الواحد الذى لا شريك له ، وحين تعترف بأنه الإله الواحد الذى لا شريك له . فأنت تدخل حصن الأمان ، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الشريف :

« أشهد ألا إله إلا الله وأنى رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة »[2] .

وأبو ذر عندما قال للنبى فى محاورة بينهما حول هذه الآية ، قال له : « ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة ، قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال وإن زنى وإن سرق ، قلت وإن زنى وإن سرق ؟ قال وإن زنى وإن سرق (ثلاثا)

(١) رواه مسلم
(٢) رواه مسلم .

ثم قال في الرابعة : على رغم أنف أبي ذر[1]

لقد كان أبو ذر غيوراً على حدود الله ، فهل ساعة قال رسول الله : على رغم أنف أبي ذر ؛ هل هذه أحزنت أبا ذر؟ لا ، لم تحزنه ، ولذلك عندما كان يحكيها ويقولها : من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن رغم أنف أبي ذر وهو مسرور ، لماذا ؟ لأنها فتحت باب رحمة الحق ، لأنه إذا لم يكن هذا فما الفارق بين من اعتقدها وقالها وبين من لم يقلها ؟ فلا بد أن يكون لها تمييز . وكل جريمة موجودة في الإسلام والحق سبحانه قد جرمها - فهذا يعني أنها قد تحدث . مثال ذلك . . يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾

(من الآية ٣٨ سورة المائدة)

وهذا يعني أنه من الجائز أن يسرق المؤمن ، وكذلك قد يزني في غفلة من الغفلات ، وفي أسس الاستغفار يأتي البيان الواضح : من الصلاة للصلاة كفارة ما بينهما ، الجمعة للجمعة كفارة ، الحج كفارة ، الصوم كفارة .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال . « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تُغْشَ الكبائر »[2] .

أي أن ربنا قد جعل أبواباً متعددة للمغفرة وللرحمة ، وهو سبحانه يقول : « إن الله لا يغفر أن يشرك به » وهذه المسألة ليست لصالحه إنما لصالحكم أنتم حتى لا تتعدد آلهة البشر في الشر ويرهق الانسان ويشقى من كثرة الخضوع لكل من كان قويا عنه ، فأعفاك الله من هذا وأوضح لك . لا ، اخضع لواحد فقط يكفك كل الخضوع لغيره ، واعمل لوجه واحد يكفك كل الأوجه ، وفي ذلك راحة للمؤمن

إن الإيمان إذن يعلمك العزة والكرامة ، وبدلاً من أن تنحني لكل مخلوق اسجد للذي خلق الكون كله بصفات قدرته وكماله ، فلم تنشأ له صفة لم تكن موجودة ، هل أنتم زدتم له صفة ؟ لا . فهو بصفات الكمال أوجدكم وبصفات الكمال كان قيوماً عليكم ، فأنتم لم تضيفوا له شيئاً ، فكونك تشهد أن لا إله إلا الله .

(١) رواه مسلم
(٢) رواه مسلم والترمذي

ما مصلحتها بالنسبة لله ؟ إن مصلحتها تكون للعبد فحسب .

ولذلك قلنا إن الحق سبحانه وتعالى يريد من عباده أن يجتمعوا كل أسبوع مرة ؛ لأنك قد تصلي فرضاً فرضاً في مصنعك أو في مزرعتك أو في أي مكان ، إنما يوم الجمعة لا بد أن تجتمع مع غيرك ، لماذا ؟ لأنه من الجائز أنك تذل لله بينك وبينه ، تخضع وتسجد وتبكي بينك وبين الله ، لكنه يريد هذه الحكاية أمام الناس ، لترى كل من له سيادة وجاه يسجد ويخشع معك لله.وفي الحج ترى كل من له جاه ورئاسة يؤدي المناسك مثلك ، فتقول بينك وبين نفسك أو تقول له . لقد استويت في العبودية ، فلا يرتفع أحد على أحد ولا يذل له بل كلنا عبيد لله ونخضع له وحده .

إذن فالمسألة في مصلحة العبد ، « إن الله لا يغفر أن يشرك به » ، لأنه لو غفر أن يشرك به لتعدد الشركاء في الأرض ، وحين تتعدد الشركاء في الأرض يكون لكل واحد إله ،وإذا صار لكل واحد إله تفسد المسألة ، لكن الخضوع لإله واحد تأتمر جميعاً بأوامره يعربنا جميعاً . . فلا سيادة لأحد ولا عبودية لأحد عند أحد ، فقوله . « إن الله لا يغفر أن يشرك به » . . هذ لمصلحتنا .

« ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء »

وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال أتى وحشيٌ وهو قاتل سيدنا حمزة في غزوة أحد ، أتى على النبي صلى الله عليه وسلم ـ فقال . يا محمد أتيتك مستجير فأجرني حتى أسمع كلام الله.فقال رسول الله : « قد كنت أحب أن أراك على غير جوار فأما إذ أتيتني مستجيرا فأنت في جواري حتى تسمع كلام الله قال : فإني أشركت بالله وقتلت النفس التي حرم الله وزنيت هل يقبل الله مني توبة ؟ فصمت رسول الله حتى نزلت :

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾

(سورة الفرقان)

فتلاها عليه فقال أرى شرطا فلعلّ لا أعمل صالحا ، أنا فى جوارك حتى أسمع كلام الله فنزلت :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ (سورة النساء)

فدعا به فتلا عليه قال : فلعلّ ممن لا يشاء ، أنا فى جوارك حتى أسمع كلام الله فنزلت :

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ (سورة الزمر)

فقال نعم ، الآن لا أرى شرطا فأسلم .

إذن فالمسألة كلها تلطف من الخالق بخلقه ، واعتبار عمليات الغفلة عمليات طارئة على البشر ، ومادام الحق يقنن تقنينات فمن الجائز أنها تحدث ، لكن إذا حدثت معصية من واحد ثم استغفر عنها ، إياك أن تأتى بسيرتها عنده مرة أخرى وتذكره بها وافرض أن واحداً شهد زوراً ، افرض أن واحداً ارتكب ذنباً ، ثم استغفر الله منه وتاب إياك أن تقول له : يا شاهد الزور ، لأنه استغفر من يملك المغفرة ، فلا تجعله مذنباً عندك ، لأن الذى يملكها انتهت عنده المسألة

لماذا ؟ لكيلا يدلّ الناس بمعصية فعلت ، بل العكس ، إنّ أصحاب المعاصى الذين اسرفوا على أنفسهم يكونون فى نظر بعض الناس هينين محتقرين ، ولذلك نقول إن الواحد منهم كلما لذعته التوبة وندم على ما فعل كُتبت له حسنة ، فعلى رغم أنه ذاق المعصية لكنه مع ذلك تاب عنها ، وهذا هو السبب فى أن الله يبدل سيئاتهم حسنات ، وعندما نعلم أن ربنا يبدل سيئاتهم حسنات علينا أن نحتقر المسرفين على أنفسهم ، بل علينا أن نفرح بأنهم تابوا ، ولا نجعل لهم أثرا رجعيا فى الزلة والمعصية

« ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً » و « الافتراء » هو الكذب المتعمد . لأن

هناك من يقول لك قضية على حسب اعتقاده ، وتكون هذه القضية كاذبة ، كأن يقول لك : فلان زار فلاناً بالأمس .

هو قال ذلك حسب اعتقاده بأن قالوا له أو رأى أثرا للزيارة ، على الرغم من أن مثل هذه الزيارة لم تحدث فيكون كذباً فقط ، أما الشرك فهو تعمد الكذب على الله وهذا يطلق عليه « افترى إثماً عظيماً » لأنه مخالف لوجدانية الفطرة ، كأن وجدانية الفطرة تقول : لا تقل إلا ما تعرفه فعلاً وأنت متأكد بل عليك ألا تخالف فطرتك متعمدا وتجعل لله شريكا .

والحق سبحانه وتعالى عندما يقول . لا إله إلا الله وحده لا شريك له إما أن تكون هذه الكلمة صدقة فستهى ، وإما ألا تكون صادقة ـ ولعياذ بالله أى أن هناك أحداً آخر معه ، وهذا الآخر سمع أن هناك واحداً يقول : لا إله إلا أنا أسكت أم لم يسمع ؟ إن لم يكن قد سمع فيكون إلهاً غافلاً ، وإن كان قد سمع فلماذا لم يعارض ويقول : لا ، لا إله إلا أنا ، ويأتى بمعجزة أشد من معجزة الآخر ولم يحدث من ذلك شيء إذن فهذه لا تنفع وتلك لا تنفع ، فـ « لا إله إلا الله » حين يطلقها الله ويأتى بها رسول الله ويقول الله : أنا وحدى فى الكون ولا شريك لى ، ولم ينازعه فى ذلك أحد فلمسألة صادقة لله بالبداهة ولا جدال

« ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً » والافتراء كما يكون فى العمل وفى الكلام ويكون فى الاعتقاد أيضاً . « إثم عظيم » ، وهذا يعنى أن هناك إثماً غير عظيم ، « الإثم العظيم » هو الذى يُحِلّ قضية عقدية واحدة فى الكون تشمل الوجود كله هى أنه لا إله إلا الله .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى عوْداً على هؤلاء اليهود :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾

وتقدم أن أشرنا إلى قول الحق : « ألم تر » ، فإن كانت الصورة التي يخاطب عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم مرئية أمامه تكن الرؤية على حقيقتها ، وإن لم تكن مرئية أمامه وكان مراد الحق سبحانه أن يعلمه بها وهي غير معاصرة لرؤياه فالحق يقول : « ألم تر » يعني . ألم تعلم ، وكأن العلم بالنسبة لخبر الله يجب أن يكون أصدق مما تراه العين ؛ لأن العين قد تكذبه والبصر قد يخدعه ، « ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم » ، و « التزكية » هي أولاً : التطهير من المعايب وهذا يعني سلب النقيصة ، وبعد ذلك إيجاب كمالات زائدة فيها نماء ، والتزكية التي زكّوا بها أنفسهم أنهم قالوا :

﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾

(من الآية ١٨ سورة المائدة)

وجاء الرد عليهم في هذه القضية بقوله الحق :

﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ ﴾

(من الآية ١٨ سورة المائدة)

يعني : إن كنتم أحباءه وأبناءه فلماذا يعذبكم ؟ إذن فهذه قضية باطلة ، ثم ما فائدة أن تقولوها له ؟ أملك لكم شيئاً ؟ إذا كنتم تكذبونها على مَن يملك لكم كل شيء وهو الله ـ سبحانه ـ فما لنا نحن بكم ؟ والتزكية التي فعلوها أنهم مدحوا أنفسهم بالباطل ورأوا أنفسهم من العيوب وادعوا أنهم أبناء الله وهم ليسوا أبناء الله وليسوا أحباءه ، وقالوا أيضا :

﴿ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾

(من الآية ١١١ سورة البقرة)

وتلك أيضاً قضية باطلة ، وهنا نسأل : هل إذا زكى الإنسان نفسه يحق تكون تلك التزكية مقبولة ؟ . نقول : علينا أن نسأل : ما المراد منها ؟ إن كان المراد منها الفخر فكل باطلة ، لكن تكون التزكية للنفس واجبة في أمر يهتم ذلك . مثاله : عندما تركب جماعة زورقاً ويكون القائد أو من يجدف أو يمسك الشراع متوسط الموهبة ، ثم قامت عاصفة ولا يقوى متوسط الموهبة على قيادتها هنا يتقدم إنسان يفهم في قيادة الزوارق أثناء العواصف ويقول لمتوسط الموهبة : ابتعد عن القيادة فأنا أكثر فهماً وكفاءة وقدرة منك على هذا الأمر ويزحزحه ويمسك القيادة بدلاً منه ، هذه تزكية

للنفس ، وهى مطلوبة ، لأن الوقت ليس وقت تجربة ، وهو يزكى نفسه بحق ، إذن فهناك فرق بين التزكية بالباطل وبين التزكية بالحق

ونحن نعلم قصة سيدنا يوسف ، ونعلم قصة رؤيا الملك حيث رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف !! وكان المفروض العكس ، انظر إلى المجدبة ، لأن سبع الجدب ستأكل سبع الخصب ، لكن من الذى يتنبه إلى رموز الرؤيا . فتعبير الرؤيا ليس علماً بل هبة من الله يمنحها لأناس ويحجبها عن آخرين فى فك رموز ـ شفرة ـ الرؤيا . ودليل ذلك أن الملك قال هذه الرؤيا للناس فقالوا له : « أضغاث أحلام » ، و « أضغاث » مفردها « ضغث » وهو الحشيش المخلوط والمختلف ، لكنهم أخطأوا فقالوا :

﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة يوسف)

لقد أخطأوا فى فهم . لأن الذى يقول لك : لا أعلم فقد أتقى ، فيدام قد قال . لا أدرى فسيضطرك إلى أن تسأل سواه ، لكن إن قال لك أى جواب فستكتفى به وتتورط ، إذن فمن قال لا أدرى فقد أجاب . فهم عندما قالوا : أضغاث أحلام فقد احتالوا واحتاطوا لأنفسهم أيضا وقالوا . « وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » ، وكان الحق سبحانه وتعالى قد صنع التمهيد ليوسف وهو فى السجن عندما دخل عليه الفتيان :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يوسف)

ما الذى جعل الفتيين يعرفان أن يوسف المسجون هذا يعرف تأويل الأحلام ؟ لقد قالا وأوضحا العلة :

﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يوسف)

ومعنى ذلك أنهما شهدا سمته وسلوكه ، وعرفا أنه إنسان مسالم ، فلما حزبهما واشتد عليهما أمرٌ يتعلق بذاتهما قالا . لا يوجد أحسن من هذا الإنسان سأله، وقلت ولا أزال أكررها : إن القيم هى القيم ، والصادق محترم حتى عند الكذاب ، والذى لا يشرب الخمر محترم عند من يشرب بدليل أنهما عندما حزبهما أمر قالا : « إنا نراك من المحسنين » .

وهل يحكم واحد على آخر أنه محسن إلا إذا كان عنده مقياس يعرف به المحسن ويميزه عن القبيح ؟ وعندما قالا ذلك الأمر لسيدنا يوسف ، كان من الممكن أن يجيبهما إلى تأويل رؤياهما ، ولكن هذه ليست مهمته ، بل فكر : لماذا لا يستغل هو حاجتهما إليه لأمر يتعلق بشخصيهما ، وبعد ذلك ينفذ إلى مراده هو منهما قبل أن ينفذا إلى مرادهما منه ، فهو نبى ومن سلالة أنبياء فأوضح لهما . وماذا رأيتما من إحسانى ؟ إن عندى أشياء كثيرة .

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾

(من الآية ٣٧ سورة يوسف)

فقد زكى نفسه ، لكن انظروا لماذا زكى نفسه ؟ هو يريد أن يأخذ بيدهما إلى ربه هو ، بدليل أنه قال :

﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة يوسف)

إذن فالتزكية هنا مطلوبة ، وقد ردّها لله ، وأعلن أن تلك ليست خصوصية لى ، بل كل واحد من خلق الله يستطيع أن يكون مثلى .

﴿ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة يوسف)

وبعد ذلك قال .

﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة يوسف)

إذن فمن الممكن أن تكونوا مثلي إذا ماتبعتم هذا الطريق ، بعد ذلك قال لهم :

﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة يوسف)

أى إله واحد أحسن أم آلهة متعددة ؟ فأنتم يا أصحاب الآلهة المتعددة جئتم لصاحب الإله الواحد مع أن التعدد - فى الظاهر - يعطى القوة ، لكن هذا التعدد أعطى الضعف . لأنكم يا أصحاب الآلهة المتعددة لجأتم إلى صاحب الإله الواحد

﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة يوسف)

إذن فهو زكى نفسه أمامهما لكى يأخذهما إلى جانب من زكّى ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، وبعد ذلك عندما علم الملك قال : ائتونى به أستخلصه لنفسى ، ويكون مقرباً منى ثم بعد ذلك جاءت سنون الجدب التى تنبأ بها أولاً فى تفسير الرؤيا ، وأشار عليهم بضرورة الادخار من سنين الخصب لسنين الجدب ، لقد كانت التجربة إخباراً لأشياء ستحدث ، فلما وقعت علم أن المسألة ليست تجارب بل هى مسألة دقيقة . . فقال للملك :

﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة يوسف)

إذن فقد زكى نفسه ، وجاء بحيثية :

﴿ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة يوسف)

لأن هذه المسألة تحتاج حفظاً وعلماً ، فهى أمر غير خاضع للتجريب ، فيجرب واحد فيخيب ، ويجرب آخر فيخيب ، لا ، إنها تحتاج حفظ وعلم ، ومثال ذلك أيضاً عندما كان النبى صلى الله عليه وسلم يقسم الغنائم ، قال له المنافقون : اعدل يامحمد ! فيقول لهم : والله إنى لأمين فى السماء أمين فى الأرض ، فهو يزكى نفسه ، إذن فمتى تكون التزكية مطلوبة ؟ أولاً : أن تكون بحق ، ولن يكون لها هدف عند

من يعلم التزكية وإلى من يعطيك التزكية ويثنى عليك بما فيك وما أنت أهل له فتكون هذه تزكية صحيحة ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة النجم)

لأنك تزكى نفسك عند الذى سيعطى الجزاء وهو يعلم ، إذن فمن الحمق أن يزكى الإنسان نفسه فى غير المواقف التى يحتاج فيها الأمر إلى تزكية تكون لفائدة المسلمين لا لفائدته الخاصة ، والحق يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

إنَّ الحق سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية ، فمن الممكن أن واحداً يتصنع ويتكلف فى نفسه مدّة من الزمن أطلعك ، لكن هناك أشياء أنت لا تدركها ، لكن ربنا عندما يزكى تكون تزكيته عن علم وعن خبرة ، ومع ذلك لحين يزكون أنفسهم ، أهذه تحت حسناتهم ؟ لا فعلى الرغم من أنهم زكوا أنفسهم فالحق لم يأخذهم هكذا ، ويضيع حسناتهم ولكنهم « لا يظلمون فتيلا » وهذه مطلق العدالة .

ونعرف أن القرآن نزل بلسان عربى على نبى عربى ، والذين باشروه أولاً عرب ، ونعرف أن أغلب إيحاءاته كانت متوافقة مع البيئة ، وكان عندهم « النخل » وهى الشجرة المفضلة لأنها شجرة لا يسقط ورقها ، وكل ما فيها له فائدة ، فلا يوجد شىء فى النخلة إلا وفيه فائدة .

عن عبدالله بن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وهى مثل المسلم ، حدثونى ماهى ؟

فوقع الناس فى شجر البادية ووقع فى نفسى أنها النخلة » قال عبد الله فاستحييت ، فقالوا : يارسول الله أخبرنا بها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« هى النحلة » قال عبدالله فحدثتُ أبى بما وقع فى نفسى ، فقال : لأن تكون قلتها أحبُّ إلىَّ من أن يكون لى كذا وكذا »[1] .

وللنحلة فوائد كثيرة ، فكل ماتأخذه منها نجد له فائدة حتى اللهب حولها بجعل الحريد تأخذه ونصنع منه مكنسة وليفاً وه مقاطف » وه كراسى » . وحينما يطلب سبحانه وتعالى مثلاً على شىء معنوى فهو يأتى بالشىء المحس فى البيئة العربية

«ولا يظلمون فتيلاً» وه الفتيل » من « الفتلة » ، ومن معناها : الشىء بين الأصابع ، فأنت حين تدلك أصابعك مهما كانت نظيفة يخرج بعض « الوساخات مثل الفتلة »، أو « الفتيل » هو : الخيط فى شق نواة البلحة ونواة التمرة ، جاء سبحانه وتعالى فى القرآن ثلاثة أشياء متصلة بالنواة .

بـ « الفتيل » هنا ، وجاء بـ « النقير » : وهو النقرة الصغيرة فى ظهر النواة ومأخوذة من المنقار ، كأنها منقورة ، وجاء بـ « قطمير » : وهى القشرة التى تلف النواة ، مثل قشرة البيض الداخلية وهى قشرة ناعمة ، إذن ففى النواة ثلاثة أشياء استخدمها الله . الفتيل و « النقير » ، وه القطمير »

والحق يقول :

﴿ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴾

(من الآية ٥٣ سورة النساء)

إذن فالحق سبحانه وتعالى أخذ من النواة ثلاثة أشياء ويعطينا من الشىء المحس أمامنا أمثالاً يراها العربى فى كل وقت أمامه ويأخذ الحق أيضا أمثالا من السماء فيأتينا بمثل : « الهلال » ، يقول فى الهلال وهو صغير

﴿ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة يس)

فسباطة البلح فيها شماريخ ، وفيها يد تحمل الشماريخ ، فهذا اسمه « العرجون » ، والعرجون عندما يكون جديداً يكون مستقيما ، لكنه كلما

---

(١) رواه البخارى

قدم يمشى ويسحق ، فجاء لهم من الهلال فى السماء وأعطاهم مثالاً له فى الأرض « كالعرجون القديم »، والعرب قد أخذوا أمثالاً كثيرة ، لكن هناك حاجات قد لايُشبه إليها مثل قول العربى :

وغاب ضوء قُمَيْر كنت أرقبه مثل الغُلاَمَة قد قَدَّتْ من لُطُفر

فساعة تقص أظافرك تجدها مقوسة . لكن هذه المسألة لايشبه لها كل واحد ، فهو جاء بشىء واضح وقال : « كالعرجون القديم » إذن فالحق سبحانه وتعالى حين يعطى مثالاً لأمر معنوى فهو يأتى من الأمر المحس أمامك ليقرب لك المعنى ، وعندما تأكل التمرة، لاتنتفت إلى القتيلة مما يدل على أنها شىء تافه ، والنقير والقطمير كذلك . إذن فربنا أخذ من النواة أمثلة ، وأخذ من النخلة أمثلة كى يقرب لنا المعانى . « ولايظلمون فتيلا» .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ ﴾

وقول الحق « انظر » هى أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكل خطاب لرسول الله هو خطاب لأمته ، وعرفنا من قبل أن « الافتراء » : كذب متعمد « يفترون على الله الكذب » فى قولهم عندما أرادوا أن يزكوا أنفسهم:

﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾

(من الآية ١٨ سورة المائدة)

وقولهم :

﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ (من الآية ١١١ سورة البقرة)

« انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً مبينا » ، لماذا ؟ لأنك إن تكذب على مثلك ممن قد يصدقك فهذا معقول ، لكن إن تكذب على إله فهذه قحة ؛ لذلك قال الحق : « وكفى به إثماً مبينا » .

إذن فالكذب مطلقاً هو إثم و الكذب المبين : هو الكذب على الله ، والمهم أنه لم يُفدك .

ثم يقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾

قوله : « أوتوا نصيباً من الكتاب » يعني عندهم صلة وعلاقة بالسماء وبالرسل ، وبالكتب المنزلة من السماء على الرسل التي تحمل منهج الله ، ولو كانوا أناساً ليس لهم مثل هذا الحظ لكان كلامهم هذا معقولا لانقطاع أسباب السماء عنهم . إنما هؤلاء عندهم نصيب من الكتاب ، وأولى مهمات الكتب السماوية أن تربط المخلوق بالخالق ، وربط المخلوق بالخالق هو تربيب لقدرات المخلوق وتنميتها ؛ لأن أسباب الله في الكون قد تعزّ عليك ، وقد تقفر يدك منها . فإذا لم يكن لك إله تلجأ إليه عند عزوف الأسباب انهرت ، وربما فارقت حياتك منتحراً ، لكن المؤمن بالله ساعة تمتنع عنه أسبابه يقول : لاتهمني الأسباب ، لأن عندي المسبب .

إذن فالإيمان بالله يعطيك قوة والإيمان بالله يقف المؤمنين على أرض صُلبة ، فمهما عزّت أسبابك وانتهت فاذكر المسبب . وحين تذكر المسبب تجد آفاق حياتك

رحبة . فالذين يتحرون إنما يفعلون ذلك لأن الأسباب ضاقت عليهم ، وعلموا أنه لامناص من أنهم فى عذاب لكن المؤمن يقول يارب ، ومجرد أنه يقول . يارب ، فهذا قول يريحه حتى قبل أن يجاب ؛ لأنه التفت إلى مسبب الأسباب حين عزّت عليه الأسباب .

وساعة يلتفت إلى مسبب الأسباب عند امتناع الأسباب فهو يأخذ قوة الإيمان من حيث لايحتسب ، إنك بمجرد أنك قلت . يارب تجد نفسك قد ارتاحت ؛ لأنك وصلت كل كيانك بالخالق ، وكيانك مه ما هو مقهور لك ، ومه ماهو غير مقهور لك والكيان نفسه سيأتى فى الآخرة ويشهد على الإنسان .

ستشهد الأرجل والجلود وغيرها من الأبعاض . لأنها فى الدنيا كانت مقهورة لإرادتى . أنا أقول ليدى . افعلى كذا ، ولرجلى اسعى لكذا ، ولفمى . سب فلاناً ، فالله سخر الجوارح وأمرها ياجوارح أنت خاضعة لإرادة صاحبك فى الدنيا . لكن فى يوم القيامة أيكون لى إرادة على جوارحى ؟ لا ، ستتمرد علىّ جوارحى :

﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة فصلت)

وتقول الجوارح لنا : أنتم استخدمتمونا فى الدنيا وحملتمونا أن نفعل أشياء نحن نكرهها ، فدعونا اليوم لنشهد ، إنها تخرج أسرارها ؛ لأن الملك الآن للواحد القهار :

﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

انتهت سيطرة الإنسان وليس لأحد غير الله إرادة على الأبعاض .

إذن فالنصيب من الكتاب هو أول شىء يربط المخلوق بالخالق ، فإذا ارتبط

المخلوق بالخالق قويت أسبابه ، ويستقبل الأحداث بثبات ، ويأتيه فرج ربما ، وعندما نقرأ القرآن يجب أن نلتفت إلى اللقطات العقدية فيه ، فقد عرضنا مثلاً : أن سيدنا موسى عندما أراد أن يأخذ بني إسرائيل من فرعون ويخرج بهم ، وقبل أن يصل بهم إلى البحر تنبه لهم قوم فرعون وجاءوا بجيوشهم ، وكان قوم فرعون من ورائهم والبحر من أمامهم ، فقال قوم موسى إيماناً بالأسباب :

﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الشعراء)

بالله أأحد يكذِّب هذه المقولة ؟! لا ، فلماذا قال موسى عليه السلام ؟ لم يقل مثلما قال قومه ، ولكنه نظر للمُسبب الأعلى فقال بملء فيه

﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الشعراء)

وهل تُكذِّب مقولته ؟ لا.لا تُكذب ؛ لأنه لم يقل : « كَلَّا » عتماداً على أسبابه فليس من محيط أسبابه أن يخرج من مثل هذا الموقف ، بل قال : « إن معي ربي سيهدين » ، هذه ثمرة الإيمان ، فلما قال : « إن معي ربي سيهدين » ، ماذا قال له الله ؟

قال له :

﴿ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الشعراء)

لم يقل له : اهجم عليهم واعليهم ، لا.بل قال : « اضرب بعصاك البحر » ؛ كي يعطي الشيء ونقيضه ، ولتعرف أن مرادات الحق سبحانه وتعالى تعطي الشيء ونقيضه ، ولا أحد من البشر يقدر أن يصنع مثل ذلك ، فلما قال له : ضرب بعصاك البحر ، ضرب موسى البحر بالعصا ، وكان موسى يعلم قانون الماء استطراقا وسهولة ، لكن ها هي ذي المعجزة تتحقق :

﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الشعراء)

و« الطود » هو الجبل ، والجبل فيه صلابة ، والماء فيه رخاوة . فكيف انتقلت الرخاوة إلى صلابة ؟ إن الماء مهمته الاستطراق ، أي لا يمكن أن توجد منطقة منخفضة والماء أعلاها ، بل لابد أن يفد منها ، وعندما أطاع موسى أمر الله أراد أن يطمئن بأسباب البشر ، فأراد أن يضرب البحر كي يعود البحر مثلما كان ؛ حتى لا يأتي قوم فرعون وراءه فقال له ربنا .

﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الدخان)

أي : اتركه كما هو على هيئته قارًا ساكنا ؛ لأني أريد أن يغرقهم ما يرون من اليبس في البحر فيدخلوا ، فأعيد الماء إلى استطراقه وأطْبِقهُ عليهم ، فأكون قد أنجيت وأهلكت بالشيء الواحد

يقول الحق : « الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت » وكيف ذلك ؟

بعد موقعة أُحد جاء حُيَيّ بن أخطب وكعب بن الأشرف وابن أبي الحقيق ، وأبو رافع . هؤلاء هم صناديد اليهود ، وأخذوا أيضاً سبعين من اليهود معهم ونزلوا على أهل مكة ، ونقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله وبعد ذلك نزل كعب ابن الأشرف ـ زعيمهم ـ على أبي سفيان وقال له : نريد أن نتعاهد على أننا نقف أمام محمد فقال أبو سفيان : أنت صاحب كتاب ، وعندك توراة ، وعندك إيمان بالسماء ، وعندك رسول ، ونحن ليس عندنا هذا ، و« محمد » يقول إنه صاحب كتاب ورسول ، إذن فبيننا علاقة الاتصال بالسماء ، فما الذي يدرينا أنك متفق معه علينا في هذه الحكاية ؟ إننا لا نأمن مكرك ، ولن نصدق كلامك هذا إلا إذا جئت لآلهتنا وأقمت مراسم العبادة عندها فسجدت لها .

و« الجبت والطاغوت » هما صنمان لقريش ، وذهب إليهما اليهود أصحاب التوراة الذين عندهم نصيب من الكتاب وخضعوا لهما ، أو « الجبت » هو كل من يدعو لغير الله سواء أكان شيطاناً أم كاهناً أم ساحراً ، فإذا كان هذا هو « الجبت » فـ « الطاغوت » من « طغى » وهو اسم مبالغة وليس « طاغيًا » بل « طاغوت »

وهو لدى كل أطعته فى ظلم ارتقى إلى ظلم أكثر وسواء أكان الجبت والطاغوت صنمين أم إلهين من الآلهة التى يتبعونها ، المهم أن وفد اليهود خضعوا لهم وسجدوا ، لكى تصدق قريش عداء اليهود لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

وبعد ذلك سأل كعب بن الأشرف أبا سفيان ماذا فعل محمد معكم ؟ قال له : فارق دين آبائه ، وقطع رحمه وتركهم وفر إلى المدينة ، ونحن على غير ذلك . نحن نسقى الحجيج ، ونقرى الضيف ، ونفك العانى - الأسير - ونصل الرحم ، ونعمر البيت ونطوف به . وعظم أبو سفيان فى أفعال قريش ! ، فقال الذين أوتوا الكتاب - لعداوتهم لمحمد - قالوا لأبى سفيان وقومه : أنتم أهدى من محمد سبيلا !

ويوضح ربنا : يا محمد انظر لعجائبهم ؛ إنهم أوتوا نصيبا من الكتاب ، ومع ذلك فعداوتهم لك ووقوفهم أمام دينك وأمام النور الذى جئت به ، جعلهم يبدون نصيبهم من الكتاب ، ويؤمنون بالجبت والطاغوت ؛ وهم القوم أنفسهم الذين كانوا يقولون للعرب قديماً : إنه سيأتى نبى منكم نتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم . لكن هاهم أولاء يذهبون ويؤمنون بالطاغوت والجبت ، فهل عند مثل هؤلاء شىء من الدين ؟

إن الحق سبحانه يريد أن يطمئن رسول الله بأن هؤلاء منعزلوا عن عدد السماء ، فإن نشب بينك وبينهم حرب أو حلاف فاعلم أن الله قد تخلى عنهم لأنهم تركوا النصيب من الكتاب الذى أوتوه وإياك أن يأتى فى بالك أن هؤلاء أصحاب كتاب

إن الحق يطمئن رسوله أنه سبحانه قد تخلى عنهم وأن الله ناصرك - يا محمد - فلا يغرنك أنهم أصحاب مال أو أصحاب علم أو أصحاب ثروات ، فكل هذا إلى زوال ؛ لأن حبلهم من السماء قد انقطع ؛ ولأن الشرك قد حازهم وملكهم وضمهم إليه وقد جعلوا العداوة لك والانضمام إلى الكفار الذين كانوا يستفتحون عليهم ، ببعثك ورسالتك ، ثمناً لأن يتركوا الإيمان

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾

وقوله : « أولئك » هى اسم إشارة مكون من « أولاء » التى للجمع ، ومن «الكاف» التى هى لخطاب رسول الله ، ونحن - المسلمين - فى طى خطابه صلى الله عليه وسلم ، « أولئك » هى للذين أوتوا نصيبا من الكتاب ويؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ، أو « أولئك » لكل من اليهود والمشركين ، ولأحدهما إشارة هم جميعاً ، فى قوله تعالى : « أولئك الذين لعنهم الله » و« اللعن » إما أن يكون « الطرد » ، وإما أن يكون « الخزى » وإما أن يكون « الإهلاك » .

وكيف يلحق الله الخزى بالكافرين ؟ لأنك تجد المد الإسلامى كل يوم يزداد ، وهم تتناقص أرضهم :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾

(من الآية ٤١ سورة الرعد)

« أولئك الذين لعنهم الله » . . إذن فالطارد هو الله ، فحين يكون الطارد مساوياً للمطرود، ربما صادف من يعينه، لكن إذ كان الطارد هو الله فلا معين للمطرود ، « ومن يلعن الله » أى من يطرده ربما « فلن تجد له نصيراً » ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى مادام قد طرده سبحانه يُدخل فى رُوع الناس كلهم أن يتخلوا عنه لأى سبب من الأسباب فلا ينصره أحد « أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً » ويقول الحق بعد ذلك .

﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ ﴾

وما هى حكاية قوله ، « أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيرا »؟

إنه ـ سبحانه ـ يصفهم بفرط البخل وشدة الشح ، أى أنهم ـ فى واقع الأمر ـ ليس لهم ملك الدنيا وليس لهم ـ أيضا ـ ملك الله ؛ فالملك له وحده ـ جل شأنه ـ يؤتيه من يشاء وينزعه عمن يشاء ولكنهم لو أعطوا ملك الدنيا وملك الله لبخلوا وضنوا بما فى أيديهم . كما جاء فى قوله سبحانه :

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

أى إنكم تخشون الإنفاق حتى لا تقل الأموال عندكم ، فلو أحذتم خزائن ربنا فستقولون لو أخذت منه وأعطينا الناس لقلت ! ومحتوى العبارة : أن كل هؤلاء سواء أكانوا كفار قريش أم كبراء اليهود ، كانوا يحافظون على مكانتهم وأموالهم ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ليسوى بين الناس ، فمن الذى يحرن ؟ الذى يحرن هم الذين كانت لهم السيادة لأنهم لا يريدون أن تتساوى الرءوس ، وبالبتهم عندما أحذوا السيادة جعلوها حيراً للناس ، لكنهم لم يفعلوا فلو كان لهم الملك والأموال لن يُعطو للناس نقيراً ؛ لأن الإنسان بطبيعته لا يبرل عن حيروته ؛ لأن هذا الحيروت يعطيه سلطاناً ، ومادام الحيروت أعطاه سلطاناً فلا يلتفت إلى حقيقة الإيمان ، فإن حير الحير أن يدوم الحير ، فليس فقط أن تكون فى حير وسلطة لكن الصمن أنه يدوم ، وهذا الدوام ستأحذه بعمر الدنيا وأمدها قليل وعمرك فيها غير مضمون ، إذن فدوام الحير هناك فى الآحرة

﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

فأنتم إن كنتم تحرصون على هذا الجاه ، وتريدون أن يكون لكم هذا الملك والجاه والعظمة فهل أنتم تعطون الناس من حيركم هذا حتى يكون هناك عذر لكم فى الحرص على المال بأن الناس تستفيد منكم ؟

فلماذا ترونون أن يديم ربنا عليكم هذه وأنتم فى قمة البخل والشح ؟ لا يمكن أن يديمها عليكم .

ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول فى سورة الفجر يوضح هذه العملية :

﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الفجر)

إذن فالذى عنده نعمة يقول : (ربى أكرمن) ، والذى ليس عنده نعمة يقول : (ربى أهانن) ، فيقول الحق تعقيباً على القضيتين (كلا) .

ولماذا سبحانه يقول تعقيباً على القضيتين (كلا) فمعنى هذا أن كلا الطرفين كاذب ؛ فأنت تكذب يا من قلت : إن النعمة التى أخذتها دليل الإكرام ، وأنت كذاب أيضاً يا من قلت : عدم المال دليل الإهانة ، فلا إعطاء المال دليل الإكرام ، ولا سلب المال دليل الإهانة وهى قضية غير صادقة وخاطئة من أساسها . وقال الحق فى حيثيات ذلك :

﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الفجر)

أى عندكم المال ولا تكرمون اليتيم ، إذن فهذا المال هو حجة عليكم ، فهو ليس إكراما لكم بل سيعذبكم به . ويضيف سبحانه .

﴿ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الفجر)

فكيف يكون المال ـ إذن ـ إكراماً وهو سيأتيك بمصيبة ؟ فعدمه أفضل ؛ فالمال الذى يوجد عند إنسان ولا يرعى حق الضعفاء فيه هو وبال وشرّ ؛ لأن الحق يقول :

﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

(من الآية ١٨٠ سورة آل عمران)

فإن بخلت كثيراً فستطوّق بذُل أشد ، ولذلك عندما يشتد عليه الغُلّ يقول : يا ليتني حففت هذا الغل ، والحق يتساءل في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها لماذا يتفقون مع معسكر الشرك ، ويتركون النصيب الذي أعطوه من الكتاب ، ويذهبون ليقولوا للذين كفروا أنتم أهدى من محمد سبيلاً مع أنهم يعلمون بحكم ما عندهم من نصيب الكتاب أن محمداً على حق ؟.

لقد كانوا يحافظون على سيادتهم ، ومعسكر الشرك يحافظ على سيادته ، ونعلم أن اليهود كانوا في المدينة من أصحاب الثروات ، وكانوا يعيشون على الربا ، وهم أصحاب الحصون ، وأصحاب الزراعات وأصحاب العلم ، إذن فقد أخذوا كل عناصر السيادة وعندما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم تزلزلت كل هذه المسائل من تحت أقدامهم ، وحرنوا وكذلك كفار قريش . كانت لهم السيادة على كل الجزيرة ، فلا يستطيع أحد من أي قبيلة في الجزيرة أن يتعرض لقافلة قريش ؛ لأن القبائل تخاف من التعرض لهم ، ففي موسم الحج تذهب كل القبائل في حضن قريش والمهابة الملحودة لهم جاءت لهم من البيت الحرام الذي حفظه الله ورعاه وهزم من أراده بسوء وردّ كيده ودمره تدميرا تاما . كي حله في قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ① أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ② وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ③ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ④ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ⑤ ﴾

(سورة الفيل)

وعلّة هذه العملية تأتي في السورة التالية لها ، وهي قوله سبحانه :

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ① إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ② ﴾

(سورة قريش)

فلولا أنه سبحانه جعل هذ البيت لعبادته لانتهى وانتهت منهم السيادة فلا يقدرون أن يذهبوا إلى رحلة الشتاء ولا إلى رحلة الصيف ؛ ولذلك يقول سبحانه .

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة قريش)

فسبحانه الذى جعل لهم السيادة والعزّ وهو :

﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة قريش)

وجاء لهم بثمرات كل شىء ، وآمنهم من خوف حين تسير قوافلهم فى الشمال وفى الجنوب .

« أم لهم نصيب من الملك » فإذا كان لهم هذا النصيب ، فلا يأتون الناس نقيرا أى لا يعطونهم الشىء التافه

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾

والحسد هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن ربنا قد اصطفاه واختاره للرسالة ،

ولذلك قال بعض منهم :

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

إذن فالقرآن مقبول فى نظرهم ، لكن الذى يحزنهم أنه نزل على محمد ، وهذا من تعقيلهم ، وهو مثل تعقيل من قالوا

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأنفال)

لقد تمنوا الموت والقتل رميا بالحجارة من السماء ولم يتمنوا اتباع الحق ، وهذا قمة التعقيل الدال على أنها عصبية مجنونة ، ولذلك يقول الحق :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

وسبحانه يؤكد لنا أنه يختص برحمته من يشاء ، فلماذا الحسد إذن ؟ إنهم يحسدون الناس أن جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم ، ولو أنهم استقبلوا ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم استقبالاً عادلاً بعين الإنصاف لوجدوا أن كل ما جاء به هو كلام جميل . من يسمعه تنجمل به حياته وكان مقتضى من آتاهم الله من فضله علماً من الكتاب أن يبشروا برسول الله صلى الله عليه وسلم كما دعاهم إلى ذلك ما نزل عليهم فى كتابهم وأن يكونوا أول المصدقين به ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك ، بل كذبوا وصدوا عن سبيله وفضلوا عليه الكافرين الوثنيين . فقالوا إنهم أهدى من محمد سبيلاً

والحق سبحانه وتعالى حين يتفضل على بعض خلقه بخصوصيات يحب سبحانه أن تتعدى الخصوصيات إلى خلق الله ؛ لأننا نعرف أن فى كل خلق من خلق الله خصوصية مواهب ، فإذا ما تفضل المتفضل بموهبته عن الخلق تفضل بقية الخلق عليه بمواهبهم ، إذن فقد أخذ مواهب الجميع حين يعطى الجميع

وهؤلاء قوم آتاهم الله نصيباً فبخلوا وضنّوا ، وليتهم ضنّوا على أمر يتعلق بهم ، بل على الأمر الذى وصلهم بالإله ، وهو أنهم أصحاب كتاب عرفوا عن الله منهجه ،

وعرفوا عن الله ترتيب مواكب رسله ، فيريد الحق سبحانه أن يقول لهم أنتم أوتيتم نصيباً من الكتاب فلم تؤدوا حقه ، وأيضاً أنكم لو ملكتم الملك فإنكم لن تؤدوا حقه ، ولن تعطوا أحداً مقدار نقير وهو النقرة على ظهر النواة ، ولذلك قال :

﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة النساء)

إذن فلا هم في المعنويات والقيم معطون ، ولا هم في الماديات معطون . فإذا كانوا قد بخلوا بما عندهم من القيم فهم أولى أن يبخلوا بما عندهم من المادة ، وبذلك صاروا قوماً لا خير فيهم أبداً

ثم يوضح الحق . إذا كان هؤلاء قد أوتوا نصيباً من الكتاب يعرِّفهم سمات الرسول المقبل الخاتم فما الذي منعهم أن يؤمنوا به أولاً ويؤيدوه ؟. لاشك أنه الحسد ، على الرغم من أنه صلى الله عليه وسلم جاء مصدقاً لما معهم ، إنهم لاشك حسدوا الرسول صلى الله عليه وسلم ، والحسد لا يتأتى إلا عن قلب حاقد ، قلب متمرد على قسمة الله في خلقه ؛ لأن الحسد كما قالوا : هو أن تتمنى زوال نعمة غيرك ، ويقابله « الغبطة » وهي أن تتمنى مثل ما لغيرك ، فغيرك يظل بنعمة الله عليه ، ولكنك تريد مثلها وأنت إن أردت مثلها من الله فلا بد أن تغبطه ، والحق يقول .

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾

(من الآية ٩٦ سورة النحل)

ولذلك يجب أن يكون الناس في عطاء الله غير حاسدين وغير حاقدين . لكن بعض الناس ربما حسدوا غيرهم من الذين يعطيهم الأغنياء رغبة في أن يكون ذلك لهم وحدهم فإنك إن كان عندك كَمٌّ من المال ثم اتصل بك قوم في حاجة فأعطيتهم منه ، ربما قال الآخرون ممن يرغبون في عطائك ويأملون في خيرك إنك ستنقص مما عندك بقدر ما تُعطي هؤلاء ؛ لأن ما عندك محدود ، ولكن هنا العطاء ممن لا ينفد ما عنده ، إذن فيعطيك ويعطي الآخرين ولا ينقص مما عنده شيء .

إذن فالغبطة أمر بديهي عند المؤمن ؛ لأنه يعلم أن عطاء الله لواحد لا يمنع أن

يعطى الآخر ، ولو أعطى سبحانه كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عنده إلا كما ينقص المخيط إذا غمس فى البحر ، وذلك كما جاء فى الحديث القدسى « يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذ أدخل البحر »[1] .

« أم يحسدون الناس على ما آتاهم » ، فالحسد - كما عرفنا - هو . أن يتمنى إنسان زوال نعمة غيره ، هذا التمنى معناه أنك تكره أن تكون عند غيرك نعمة ، ولا تكره أن يكون عند غيرك نعمة إلا إذا كنت متمرداً على من يعطى النعم .

إن أول خطأ يقع فيه الحاسد هو : ردّه لقدر الله فى خلق الله ، وثانى ما يصيبه أنه قبل أن ينال المحسود بشرّ منه ، فقلبه يحترق حقداً . ولذلك قالوا الحسد هو الذنب أو الجريمة التى تسبقها عقوبتها ؛ لأن كل جريمة تتأخر عقوبتها عنها إلا الحسد ، فقبل أن يرتكب الحاسد الحسد تناله العقوبة ؛ لأن الحقد يحرق قلبه وربما قال قائل : وما ذنب المحسود ؟ . ونقول : إن الله جعل فى بعض خلقه داء يصيب الناس ، والحسد يصيبهم فى نعمهم وفى عافيتهم وما ذنب المقتول حين يوجه القاتل مسدسه ليقتله به ؟ هذه مثل تلك فالمسدس نعمة من نعم الله عند إنسان ليحمى نفسه به ، وليس له أن يستعمله فى باطل .

وهب أن الله سبحانه وتعالى حقق فى الإنسان شيئاً يكره النعمه عندغيره ، فلماذا لا يتذكر الإنسان حين يستقبل نعمة عند غيرك أن يقرنها بقوله: (ما شاء الله لا قوة إلا الله). فلو قارنت كل نعمة عند غيرك بما شاء الله الذى لا قوة إلا به لرددت عن قلبك سم حقدك . إنك ساعه ترى نعمه عند غيرك وتقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، فأنت تتذكر أن الإنسان لم يعط نفسه أى نعمة . إنما ربنا هو الذى أعطاه ، وسبحانه قادر على كل عطاء ، ومن الممكن أن يحسد الإنسان . لكن الذى يجد الحسد فى نفسه ويريد أن يطفئه ، عليه أن يردّ كل شىء إلى الله ، ومادام قد ردّ كل شىء إلى الله فقد عمل وقايه لنفسه من أن يكون حاسداً ووقاية للنعمة عند غيره من أن تكون محسودة ، والحق سبحانه وتعالى يبين لنا ذلك فى قوله سبحانه

(١) رواه مسلم فى باب تحريم الظلم ، ورواه أحمد

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الفلق)

إذن فمن الممكن أن يمتلىء قلب أى واحد منا بالحقد على نعمة وبعد ذلك يحدث منها حسد ، وعلى كل واحد منا أن يمنع نفسه من أن يدخل تيار الحقد على قلبه ، لأن تيار الحقد يحدث تغييراً كيمياوياً فى تكوين الإنسان ، وهذا التغير الكيماوى هو الذى يسبب التعب للإنسان ، وما يدرينا أن هذا التوتر الكيماوى من النعمة عند غيره تجعل فى نفس الإنسان وفى مادته تفاعلات ، وهذه التفاعلات يخرج منها إشعاع يذهب للمحسود فيقتله ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الفلق)

وعندما نستعيذ بالله من شر الحاسد ألاّ يصيبك ، قد يصيبك ، ولكن استعاذتك من شره معنى أنه إن أصابك فعليك أن تسترجع ، فتقول « وإنا لله وإنا اليه راجعون » وتعلم أن ذلك خير لك ؛ فإن أصابك فى نعمة فاعلم أن هذه المصيبة فيها خير ، فالحاسد إذا أصابك فى شىء من نعم الله عليك ، فالشر هو أن تحرم الثواب عليه !! فالمصاب هو من حرم الثواب ، فإذا جاءت مصيبة لأى واحد وقال . إنا لله وإنا إليه راجعون . . اللهم إنك ربى وإنك لا تحب لى إلاّ الخير لأن صنعتك ولم تجر علىّ إلاّ الخير لكنى قد لا أستطيع أن أفهم ذلك الخير .

إن المسلم إذا صنع ذلك فالله سبحانه وتعالى يبين له فيما بعد أنها كانت خيراً له ، فمن أصيب فى ولده وقال : من يدريني لعل ولدى الذى أماته الله كان سيعتنى فأكفر أو أسرق له وآخذ رشوة من أجله . لكن الله أحله منى ومنع عنى ذلك الشرّ ، أو أن النعمة قد تطغينى ، وقد تجعلنى أتجبر على الناس ، وقد تجعلنى أتطاول وأعتدى على الخلق ، فيقول لى ربى : امرض قليلا واهدأ . وهكذا نرى أن المصاب لا بد أن يتوقع الخير وأن يسترجع وأن يقول : لا بد أنه سيأتينى من الابتلاء خير ، وقد يقول قائل : نحن نقول :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾

وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

(سورة الفلق)

نقرأ ونكرر هذه السورة ولم يعلمنا الله من شرّ الحاسدين ويحسدنا الحاسدون أيضاً !

نقول له : أنت لم تفهم معنى قوله . « من شرّ حاسد إذا حسد » . إنك تهمه على أساس ألا يصيبك حسده ، لا . . إن حسده قد يصيبك ، لكن عليك أن تعرف قدر الله فى تلك الإصابة وتقول : يارب إنك أعريتها علىّ لخير عندك لى . فإن فعلتَ ذلك فقد كفيت شرّ .

ونحن نعيش فى عالم نرى فيه أنه كلما ارتقت الدنيا فى العلم بيّن لنا ربنا آيات فى كونه وفى أسرار الوجود تقرب لنا كثيراً من المعانى ؛ فالذين يصنعون الآن أسلحة الفتك والتدمير ، كلما يلطف السلاح ويدق ولا يكون داخلاً تحت مرائى البصر ، كان عيفاً ويختلف عن أسلحة الأزمنة القديمة حيث كان الإنسان يرمى آخر بحجر ، ثم آخر يرمى بمسدس ، ثم صار فى قدرة دولة أن تصنع قنبلة ذرية لا ينوب أى فرد منها إلا قدر رأس مسمار لكنها تقتل ، إذن فأسمحه الفتك كلما لطفت ـ أى دقت ـ عفت . ونرى الآن الأسلحة كلها بالإشعاع ، والإشعاع ليس جرماً ، وعمل الإشعاع نفاذ لكن لايوجد له جرم ، وكما يقول الأطباء : نجرى العملية من غير أن نسيل دماً بوساطة الأشعة ، ومثال ذلك أشعة الليزر ، إذن فكلما دقّ السلاح كان عيفاً ونتاكاً .

وهذا مثال يوضح ذلك لنفرض أنك أردت أن تبنى لك قصراً فى حلاء ، ثم مرّ عليك صديق فقال : لماذا لم تضع لنوافذ الدور الأول حديداً ؟ تقول له : لماذا ؟ فيقول لك : هنا سباع ودئاب . فتضع الحديد ليمنع الدئاب ، وآخر يمرّ على قصرك فيقول . إن فتحات الحديد واسعة وهنا توجد ثعابين كثيرة ، فتضيق الحديد وثالث يقول . هناك بعوض يلسع ويحمل الميكروبات . فتضع سلكاً على النوافذ

إذن فكلما دقّ العدو كان عيفاً فيحتاج احتياطاً أكبر ونحن نعلم أن الميكروب

الذى لا يُرى يأتى فيفتك بالناس ، فالآفة التى تصيب الناس كلما لطفت ، ـ أى دقت وصغرت ـ عنفت ، فلو كانت ضخمة فمن الممكن أن يدفعها الإنسان قليلاً قليلاً ، لكن عندما تصل إلى مرتبة من الدقة والصغر ، هنا لا يستطيع الإنسان أن يدفعها وأفتك الميكروبات هى التى تليق لدرجة أن الأطباء يقولون عن بعض الأمراض لا نعرف لها فيروساً ؛ بمعنى أن هذا الفيروس المسبب للمرض صار دقيقاً جداً حتى عن معايير المجاهر .

إذن فيا لذى يجعلنا نضيق ذرعاً بأن نقدر أن هناك شرارة من ميكروب تخرج من كيماوية الإنسان الحاقد الحاسد الذى تشقيه النعمة عند غيره ، وشرارة الميكروب هذه مثل أشعة الليزر تتجه لشىء فتفتك به !! ما المانع من هذا ؟! إننا نعمل ذلك الآن ونسلط الأشعة على أى شىء ، والأشعة هى من أفتك الأسلحة فى زماننا ، ولماذا لانصدق أن كيماوية الحاسد عندما تهيج يتكون منها إشعاع يذهب إلى المحسود فيفتك به ؟ ومثلها مثل أى نعمة يعمها ربنا عليك ، وبعد ذلك تستعملها فى الضرر . ومثال ذلك الرجل الذى عنده بعض من المال ، ومع ذلك يغلى حقداً على خصومه . فيشترى مسدساً أو بندقية ليقتلهم ؛ به يأخذ النعمة ويجعلها وسائل انتقام ، وهذا يأتى من هيجان الغريزة الداخلية المدبرة لانفعالات الإنسان

إذن فهؤلاء القوم عندما جاء رسول الله مصدقاً بما عندهم ، ماالذى منعهم أن يصدقوه ؟ لا شك أنهم حسدوه فى أن يأخذ هذه النعمة ، ونظروا إلى نعمة الرسالة على أنها مزية للرسل ، وهل كان ذلك صحيحا ؟ حقا إنها مزية للرسل ولكنها مع ذلك عملية شاقة عليهم ، والناس فى كل الأمم ـ ماعدا الأنبياء ـ يورثون أولادهم مالهم ، أما الأنبياء فلا يورثون أولادهم .

إنهم لم يأتوا ليأخذوا جاهاً ، أو ليستعلوا على الناس ، بل كلفوا بمتاعب جمة . إذن فأنتم تنظرون إلى السلطة التى أعطاكم الله إياها فى مسألة علم الدين وتجعلونها أداة للترف والرفاهية وللمنجهية وللعظمة ، وحين يجىء رسول لكى ينقض عنكم ويخلصكم من هذه السيطرة ، ماذا تفعلون ؟ أنتم تحزنون ؛ لأنكم اقمتم لأنفسكم سلطة زمنية ولم تجعلوا أنفسكم فى خدمة القيم ، وأحدثتم عظمة السيطرة فقط ، فلما جاء رسول يريد أن يزيل عنكم هذه السيطرة قلتم : لا . لن نتبعه . فإذا كنتم

تحسدون النبي عليه الصلاة والسلام على الرسالة وجعلتموها مسألة يُذَلِّله الله بها أو أنها تعطيه سيطرة ، فلماذا الحسد على سيدنا محمد وقد أعطى الله سيدنا إبراهيم الملك ، وأعطى لداود الملك ، وأعطى لسليمان الملك ، وأعطى ليوسف الملك ، فلماذا الحسد إذن عندما أراد الله سبحانه وتعالى أن يكرم الفرع الثاني من إبراهيم وهو إسماعيل عليه السلام ؟ .

لقد كرم الله سبحانه الفرع الأول في إسحاق وجاء من إسحاق يعقوب ، ومن يعقوب يوسف ، ثم جاء موسى وهارون ثم داود وسليمان ، كل هؤلاء قد كرموا ، وعندما يكرم سبحانه الفرع الثاني لإبراهيم وهو ذرية إسماعيل ويرسل منهم رسولاً ، تحسدون وتقفون هذا الموقف ؟

لماذا لا تنظرون إلى أن إسماعيل وفرعه أبى من ذرية إبراهيم ، ولماذا اعتبرتم الرسالة والنبوة نعمة مذللة ، ولم تنتبهوا إلى أنها عملية قاسية على الرسول ؟ لأن عليه أن يكون النموذج التطبيقي على نفسه وعلى آله ، ولا أحد من أهله يتمتع بذلك بل العكس ؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول . (إنا معشر الأنبياء لا نورث)[1] .

ويُحرم صلى الله عليه وسلم آل بيته من الزكاة . ويقول صلى الله عليه وسلم أيضا : (إن الصدقة لاتنبغي لآل محمد إنما هي أوساخ الناس)[2]

وهكذا نرى أنه لم يكن يعمل لنفسه ولا لأولاده .

ويتابع الحق . « فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً » و« الكتاب » هو المنهج الذي ينزل من السماء ، و« الحكمة » هي الكلام الذي يقوله الرسول مفسراً به منهج الله ، ومع ذلك آتاهم الله الملك أيضاً فسيدنا يوسف صار أميناً على خزائن الأرض ، وأصبح عزيز مصر ، وسيدنا داود ، وسيدنا سليمان آتاهما الله الملك مع النبوة . إذن فيه نبوة وفيه ملك ، ومحمد صلى الله عليه وسلم أعطاه

---

(١) رواه أحمد

(٢) رواه مسلم

ربنا النبوة ولم يعطه الملك فما وجه الحسد منكم له ؟!. ثم ماذا كان موقفكم من أنبيائكم الذين أعطاهم الله النبوة والملك ؟ يجيب الحق :

﴿ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾

وقوله سبحانه: « فمنهم من آمن به » . والمقصود الإيمان بما جاء في منهج إبراهيم والرسل الذين جاءوا من بعده الذين آتاهم الله النبوة والملك ، أو «منهم» أي من أهل الكتاب الذين نتكلم عنهم من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم كعبدالله بن سلام ، وكعب الأحبار مثلاً ، « ومنهم من صدّ عنه » أي أن منهم من كفر بمنهج الله ؛ لذلك يقول سبحانه بعدها : « وكفى بجهنم سعيراً » فكأن نتيجة الصدّ عن المنهج أنّه لا يأتي بعده إلا العذاب بجهنم ليصلوا بنارها ، وتكون مسعرة عليهم جزاءً على ماعملوا .

وبعد أن بين الحق سبحانه وتعالى موكب الرسل حينما أرسله الله على تتابع في كونه ، جاء ليذكر الناس بالمنهج ، فالمنهج هو الأصل الأصيل في مهمة آدم وذريته ؛ لأنه سبحانه وتعالى قد قال .

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة طه)

وينقل آدم إلى ذريته معلوماته عن حركة الحياة وعن الحق وعن المنهج . إلا أن الله قدّر الغفلة في خلقه عن منهجه ؛ لهذه المناهج تأتي دائماً ضد شهوات النفس الحمقاء العاجلة ، لكن لو نظرت إلى حقيقة المنهج الإلهي فأنت تجده يعطي النفس شهوات لكنها مُعلاة .

مثال ذلك عندما يقول :

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾

(من الآية ٩ سورة الحشر)

وكل واحد عنده أشياء ويحتاج إليها ، لكنه يجد أخاه المؤمن يحتاج إليها أكثر منه فيؤثره على نفسه ، أهو يفضله عن نفسه ؟ لا ؛ لكنه يحطى هذا الشيء القليل فى الفانية كى يأخذه فى الباقية ، فأخذ شهوة نفسه لكن شهوة معللة ، والذى قلنا له : غض طرفك عن محارم غيرك . ظاهر هذا الأمر أننا نحجبه عن شهوة يشتهيها ، لكننا ساعة نحجبك عن شهوة تشتهيها فى حرام الفانية ، نريد أن نحقق لك شهوة فى حلال الخالدة . فأيهما أعشق للجمال ؟ الذى ينظر بتفحص للمرأة الجميلة وهى تسير ، أم الذى يغض عينه عنها ؟ الأعشق للجمال هو الذى غض بصره .

إن الدين لم يأت إلا ضد النفس الحمقاء التى تريد عاجل الأمر وإن كان تافهاً . ويوضح له : كن للآجل ومعه ؛ لأنه يبقى فلا يتركك ولا تتركه ، أما أى شهوة تأخذها فى هذه الدنيا فإما أن تتركها وإما أن تتركك ، لكن فى الآخرة لا تتركها ولا تتركك .

لقد عرف الصالحون الورعون كيف يستفيدون ، لكنّ الآخرين هم الحمقى الذين لم يستفيدوا ، فالحق سبحانه وتعالى يوضح لنا أن الحسرة تكون لمن أراح نفسه بشهوة عاجلة ثم أعقبها العذاب الآجل المقيم ، فهذه هى الخيبة الحقة ، فالدنيا دار الأغيار ، يأتى للإنسان فيها ما يؤلمه وما يسره ، وليس فيها دوام حال أبداً ؛ لأنها دنيا الأغيار ، ومادامت دنيا الأغيار فيكون كل شيء فيها متغيراً . . ومادام كل شيء فيها متغيراً . إذن فالذى فى نعمة قد يصيبه شيء من الضر ، والذى فى قوة قد يصيبه شيء من الضعف ، والذى فى ضعف قد تأتيه قوة ، وإلا لو ظل الضعيف ضعيفاً وظل القوى قوياً لما كانت الدنيا أغياراً .

ولذلك يقولون : احذر أن تريد من الله أن يتم عليك نعمته كلها ؛ لأنها لو تمت لك النعمة كلها وأنت فى دار الأغيار فانتظر الموت ؛ فتمام النعمة هو صعود لأعلى

منطلقة فى الجبل وأنت فى دار الأغيار ، فهى تظل على القمة ؟ لا ، بل لابد أن تنزل ، فإياك أن تُسرَّ عندما تبلغ المسألة ذروتها ؛ لأنه سبحانه وتعالى يوضح : إنكم لابد أن تأخذوا هذه الدنيا على أنها معبر ، والذى يتعب الناس أنهم لا يحددون الغاية البعيدة ، بل إنهم يحددون الغايات القريبة .

إذ من حق بعض الناس أن يحزن الواحد منهم على مراق حبيب أو قريب له ، وخذها بالمنطق : ما غايتنا جميعاً ؟ إنها الموت ونعود إلى خالقنا . وهل عندما نعود إلى خالقنا نحزن ؟ لا ، بل يجب أن نسر ؛ لأننا فى الدنيا مع الأسباب ، أما بعد أن ننتقل إلى الآخرة فنكون مع المسبب ففى الدنيا تكون مع النعمة وستصبح بعد ذلك مع المنعم ، فما يحزنك فى هذا ؟ إن هذا يحزنك ساعة أن كنت مع النعمة ولم تُراع المنعم ، لكن لو كنت مع النعمة وراعيت المنعمَ لسررت أنك ذاهب للمنعم .

وإن كانت المسألة هى أن نصل إلى المنعم الحق ونكون فى حضانته فلماذا الحزن إذن ؟ ومن الحمق أن بعض الناس لا تعامل الحق سبحانه وتعالى كما يعاملون أنفسهم .

هب أن إنساناً من غايته أن يخرج من أسوان إلى القاهرة ، إذن فالقاهرة هى الغاية . ثم جاء واحد وقال له : سنذهب سيراً على الأقدام ، وقال الآخر : أنا سآتى بعطايا حسنة تركبها . وقال ثالث : سآتى بعربة ، وقال رابع : سنسافر بطائرة وقال خامس : سنسافر بصاروخ ، إذن فكل وسيلة تقرب من الغاية تكون محمودة ، ومادامت غايتنا أن نعود إلى الحق فلماذا نحزن عندما يموت واحد منا ؟ أنت - إذن - تحزن على نفسك ولا تحزن على من مات ، إن الذى يموت بعد أن يرعى حق الله فى الدنيا يكون مسروراً لأنه فى حضانة الحق ومع المنعم ، وأنت مع النعمة لموقوتة إنه يسخر منك لأنك حزنت ، ويقول . انظر إلى الساذج الغافل ، كان يريدنى أن أبقى مع الأسباب وأترك المسبب !

إننا نجد الذين يحزنون على أحبائهم لا يرونهم فى المنام أبداً ؛ لأن الميت لا تأتى روحه لزيارة من حزن لأنه ذهب إلى المنعم ، وعلى الناس أن تدرك الغاية من الوجود

بال تكون مع أسباب الحق في الدنيا ثم تصير مع الحق ، والمرت هو النقلة التي تنقلك من الأسباب إلى المسبب ، في الذي يحزنك في هذا ؟

نحن نقصّر عليك المسافة . فبدلاً من أن تقابلك عقبات الطريق ، وقد تنجح أو لا تنجح ، وبعضهم يقول مات وهو صغير ولم ير الدنيا ، نقول لهم وهل هذه تكون خيراً له أو لا ؟ أنت مثلاً كبرت وقد تكون مقترفاً للمعاصي ، فلعل الله أخذ الصغير حتى لا يعرضه للتجربة ، صح لمسألة أمامك واجعلها حقيقة

عن الحارث بن مالك الأنصاري أنه مرّ برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : كيف أصبحت يا حارث ؟ فقال . أصبحت مؤمن حقا قال : « نظر ما تقول ؛ فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي ، وأظمأت نهاري وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا ، وكأني انظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون[1] فيها فقال : « يا حارث عرفت فالزم ، ثلاثا »[2] .

ولنا العبرة في سيدنا حذيفة ـ رضي الله عنه ـ حينما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له كيف أصبحت ؟ أي كيف حالك الإيماني ؟ قال حذيفة . يا رسول الله ، عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي ذهبها ومدرها ـ أي أن الذهب تساوى مع الحصى ، هذه هي مسألة الدنيا ـ وأصاف حذيفة : وكأني أنظر أهل الجنة في الجنة ينعمون ، وإلى أهل النار في النار يعذبون

وساعة لا تغيب عن بال سيدنا الحارث صورة الآخرة ، فهو يسير في الحياة مستقيما . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « عرفت فالزم » .

الحق سبحانه وتعالى حين يذكر لنا بعض الأحكام يذكر لنا أيضاً خبر بعض الناس الذين يتمردون على الأحكام ، ثم يذكرنا بحكاية الجنة والنار ؛ ولذلك يقول لنا :

---

(١) يتضاغون : يصيحون من الألم
(٢) رواه الطبراني

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾

و« نصليهم » من الاصطلاء ، قد يقول قائل : مادام يصل النار وكلما يعرف أن نار الدنيا حين تحرق شيئاً ينتهي إلى عدم ، وحين ينتهي إلى عدم إذن فلا يوجد ألم ! ونقول : لتنتبه إلى أن الحق سبحانه وتعالى يقول في هذا الأمر « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » .. إذن فالعذاب ليس كنار الدنيا ، لأن نار الدنيا تحرق وتنتهي المسألة أما نار الآخرة فإنها عذاب سرمدي دائم مكرر « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » . فإذا ما حرقت الجلود فإن جلوداً أخرى ستأتي ، أهي عين الأولى أم غيرها ؟ وحتى أوضح ذلك . أنت عندما يكون عندك خاتم مثلاً ، ثم تقول أنا صنعت من الخاتم خاتما آخر ، فالمادة واحدة أيضاً ، فهل التعذيب للجلود أو للأعضاء ؟ إن العذاب دائماً للنفس الواعية ، بدليل أن الإنسان قد يصيبه ورم فيه بعض الصديد « نُمّل » يتعبه ولا يقدر على ألمه .. وبعد ذلك يفعل فينام ، بمجرد أن ينام فلا ألم لكن عندما يسقط ينألم من جديد .

إذن فالألم ليس للعضو بل للنفس الواعية ، بدليل أننا عندما ارتقينا في الطب ، قلنا إن النفس الواعية تستطيع أن تخدرها بحيث يحدث الألم ولا تشعر به ، ويفتح « النّمل » بالمشرط ولا يحس صاحبه بأي ألم وهكذا نجد أن الجلود والأعضاء ليس لها شأن بالعذاب ، إنما هي موصلة للمعذب ، والمعذّب هي النفس الواعية بدليل أنها ستشهد علينا يوم القيامة .. تشهد الجلود والجوارح ، وستكون آلة لتوصيل العذاب .. ومسرورة لأنها توصل لهم العذاب

إنه نظام إلهي فلا تتعجبوا من القرآن ، فإن العلم كلّما تقدم هدانا إلى شيء من آيات الله في الكون . أنتم ـ الآن ـ تخدرون النفس الواعية وتشقون الجسد بالمشارط

كما يحلو لكم فلا يحدث له ألم ، وعرفتم أن الألم ليس للعضو ، إنما الألم للنفس الواعية ، إذن فكل الجوارح هى آلات توصّل الألم للنفس الواعية ، وتكون مسرورة ؛ لأن النفس الواعية تعذب ، وهذه يشبهونها - مثلا - بواحد عنده « حكة » فى جلده ، فيهرش ، والهرش يسيل دمه فيكون مستلذاً .

إذن فقوله : « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » أى أن الجلود تبدل وتنشأ جلود أخرى من نفس مادتها توصل العذاب للنفس الواعية ، وهكذا

« إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » . نحن نعلم أن الحق سبحانه وتعالى أنزل كتاباً هو القرآن ، وجعله معجزة ومنهجا ، وهذه هى الميزة التى امتاز بها الإسلام منهج الإسلام هو عين المعجزة ، وكل رسول من الرسل كان منهجه شيئا ومعجزته كانت شيئا آخر

إن سيدنا موسى منهجه التوراة ومعجزته العصا ، وسيدنا عيسى منهجه الإنجيل ، ومعجزته إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله ، لكن معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت القرآن ؛ لأن دينه سيكون الامتداد الذاتى لآخر الدنيا ، ولذلك جعل الله منهجه هو عين معجزته ، لتكون المعجزة دليلاً على صدق المنهج فى أى وقت ، ولا يستطيع واحد من أتباع أى نبى سابق على رسول الله أن يقول : إن معجزة الرسول الذى أتبعه هى منهجه ؛ لأن معجزات الرسل السابقين على رسول الله كانت عمليات كونيه انتهت مثل عود كبريت احترق ، فمن رآه رآه وانتهى ، لكن المسلم يستطيع أن يقف ويعلن بملء فيه : إنّ محمداً رسول الله وصادق ، وتلك معجزته . فمعجزة محمد صلى الله عليه وسلم باقية بقاءً أبدياً ، ومتصلة به أبداً . أما معجزة كل رسول سبق رسول الله فقد أدت مهمتها لمن رآها وانتهت ، وانفصلت معجزة كل رسول سابق على رسول الله عن منهجه

والمنهج القرآنى فيه أحكام ، والأحكام معناها ؛ افعل كذا ، ولا تفعل كذا . وهى واضحة كل الوضوح منذ أن أنزل الله القرآن على رسوله وحتى تقوم الساعة . ومن فعل مطلوب الأحكام يثاب ، ومن لم يفعله يعاقب وكل الناس سواسية فى مطلوب الأحكام إلى أن تقوم الساعة

أما آيات الله الكونية التي لا تتأثر . . فأى فائدة للإنسان إن عرفها أو لم يعرفها : فقد طمرها الله وسترها في القرآن مع إشارة إليها ، لأن العقل المعاصر لنزول الكتاب لم يكن قادرا على استيعابها في زمن الرسالة ولو أن القرآن جاء بدية واضحة تفوت . إن الأرض كروية ومدور ، بالله ماذا كان المعاصرون لرسول الله يقولون ؟ إن بعضاً من البشر الآن يكذبون ذلك ، فما بالك بالبشر المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذين لو قال لهم رسول الله ذلك لانصرفوا عن اتباع ما جاء به

لقد كانوا يستفيدون من كروية الأرض ، مثلما يستفيد منها الفلاح أو البدوى ، ومثلما يستفيد الناس الآن الذين لم يدرسوا الكهرباء برؤية التليفزيون وضوء المصباح الكهربائى وغير ذلك من الاستخدامات، دون معرفة علمية بتفاصيل ذلك ، إن الشمس تسطع على الدنيا فتبخر الماء من الأنهار والمحيطات والبحار يصير سحابا ، ثم ينزل المطر من السحاب . وكل هذه لآيات الكونية لم يعط الله أسرارها إلا بقدر ما تتسع العقول ، وترك فى كتابه ما يدل على ما يمكن أن تنتهى إليه العقول المطموحة بالبحث العلمى .

وعندما نتعرف نحن ـ المسلمين ـ على اكتشاف علمى جديد فى الكون ، نقول . إن القرآن قد أشار له ، لكن قبل ذلك لا يصح أن نقول ذلك حتى لا يكذب الناس هذا الكتاب المعجز ، فسبحانه القائل :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة يونس)

لو أن القرآن قال : إن كل شيء فى الوجود يتكاثر ، وفيه موجب وفيه سالب ، ذكر وأنثى ، أكانوا يصدقون ذلك ؟ . لا ، لأنهم كانوا لا يعرفون الذكر والأنثى إلا فى الرجل والمرأة ، ويعرفون ذلك فى الحيوانات ، وأيضاً فى بعض النباتات مثل النخل ، لكن هناك نباتات كثيرة لا يعرفون حكاية التكاثر فيها ، ومثال ذلك القمح الذى نزرعه ونأكله ، وكذلك الذرة ، لم يكونوا عارفين بأن عنصر الذكورة يوجد فى « الشواشى » العلوى فى كوز الذرة وأن الهواء يضرب تلك الشواشى فتنزل منها حبوب اللقاح فيخرج الحب ، ولذلك نجد الزارع الذكى هو الذى يفتح «كوز الذرة» من أعلاه قليلاً حتى يتيح لحبوب اللقاح أن تصل إلى موقعها . وقد يفتح الفلاح أحد « كيزان الذرة » فيجد حبة مبتة وسط الحبوب المتراصة ويكتشف أنها حبة ليس لها خيط لأنها لم تتصل بحبوب اللقاح وهو ما يقولون عنه فى الريف « سنة عجوز » .

إذن فكل تكاثر له ذكورة وأنوثة ، ولذلك يقول ربنا :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة يس)

وكنا نعرف الأزواج في الأنعام ، ثم عرفناها في النبات ، وجاء الحق بـ « مما لا يعلمون » ليتدخل كل شيء ، وتكتشف الموجب والسالب في الكهرباء ، وصرنا نعرف أن كل كائن فيه ذكر وأنثى ، وكلما تقدم العلم فهو يشرح الآيات الكونية

ومن رحمة الحق سبحانه بعقول الأمة المكلَّفة برسالة محمد لم يشأ أن يجعل نواميسه في الكون واضحة صريحة حتى لا تقف العقول فيها وتعجز عن فهمها ، وخاصة أن الكتاب واجه أمة أمّية ؛ ليست لها ثقافة . وهب أنه واجه العالم المعاصر ، إذن هناك قضايا في الكون لا يعلمها العالم المعاصر ، فلو أن القرآن تعرض لها بصراحة لكانت سبباً من الأسباب التي تصرف الناس عن الكتاب . والقرآن جاء كتاب منهج ، والمعجزة أمر جاء لتأييد المنهج ، فلم يشأ أن يجعل من المعجزة ما يصرف عن المنهج ، لكنه ترك في الكون طموحات للعقل المخلوق لله والمادة الكونية المخلوقة لله ، وكل يوم يكتشف العقل البشري أشياء ، وهذا الاكتشاف لا يأتي من فراغ ، بل يأتي من أشياء موجودة

إذن فلو رددت أدق أقضية العلم التي يصل إليها العقل المعاصر ، ونسبتها في الكون لرجعت إلى الأمر البديهي . فلا يوجد صاحب عقل انتكر أو جاء بحاجة جديدة ، إنما هو أعمل عقله في موجود فاستنبط من مقدمات الموجود قضية معدومة ، ثم أصبحت القضية المعدومة مقدمة معلومة ليستنبط منها من يجيء بعد ذلك . ولذلك فالعلماء عادة قوم يغيبهم طابع التهذيب عندما يقولون : اكتشفنا الأمر الفلاني ، يعني كأنه كان موجوداً .

إن الحق سبحانه وتعالى يعطي لنا فكرة تقرب لنا الفهم ، فنحن عندما كنا نتعلم الهندسة مثلاً ؛ عرفنا أن الهندسة مكونة من نظريات ، تبدأ من نظرية « واحد » ،

وتنتهى إلى ما لا نهاية ، وحين جاء لنا مدرس ليبرهن لنا على نظرية « مائة » ، استخدم فى البرهان على تلك النظرية التسع والتسعين ، وعندما كان يبرهن على النظرية « التسع والتسعين » استعمل ما قبلها .

إذن فكل برهان على نظرية يستند إلى ما قبلها . والعقل الواعى المفكر المستنبط هو الذى يرتب المقدمات ويستخلص منها النتائج . وكل شىء فى الكون يشترك فيه كل الناس . لكن العمل الذى يرتب ويستنبط يجيل إليه وإلى الناس أنه جاء بجديد ، وهو لم يأت بجديد . بل ولّد من الموجود جديداً ، مثل ذلك الطفل عندما يولد من أبويه ، هل هما جاءا به من عدم ؟ لا ، بل جاء الولد من تزاوج ، وعندما نسلسل الأمر نصل إلى آدم ، فمن الذى جاء بآدم ؟ . إنه الله

إذن فالبديهيات التى فى الكون هى خميرة كل علم تقدمى وهى من صنع الله الذى أتقن كل شىء صنعاً ، وكل نظرية مهما كانت معقدة فى الكون منشؤها من الأمر البديهى ، مثال ذلك البخار ؛ عندما اكتشفوه وقبل أن يسيّروا به الآلات ماذا حدث ؟ كان هناك من يجلس قالتمت فوجد الإناء الذى به الماء يعلو ثم وجد غطاء الإناء يرتفع وينخفض ، وعندما تعرف على السرّ ، اكتشف أن كل بخار يستطيع أن يعطى قوة دافعة ، وبذلك بدأ عصر البخار . إذن فهو ذكى ، وقد أخذ اكتشافه من بديهية موجودة فى الكون ، فإياك أن تغتر وتقول . إن العقل هو الذى اخترع ، ولكن العقل عمل بالجهد فى مخلوقات الله فى الوجود ، ورتب ورتب ثم أخرج الاكتشاف

لذلك فعندما يبتكر العقل البشرى شيئاً جديداً نقول له : أنت لم تبتكر ، بل اكتشفت فقط ، والحق سبحانه وتعالى يترك هذه العملية فى الوجود . ويقول :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة فصلت)

والبشرية عندما تكتشف شيئاً جديداً ، تقول لهم : القرآن مسّها وجاء بها ، فيقولون : عجباً هل فعل القرآن ذلك منذ أربعة عشر قرناً ، على الرغم من أنه نزل

ليخاطب أمة أمية ، وجاء على لسان رسول أمّى ومنهم . نعم

والآية التى نحن بصددها فيها هذا

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾

(من الآية ٥٦ سورة النساء)

والجلود والأحاسيس شرحناها من قبل ، ونظرية « الحسّ » ـ كما نعرف ـ شغلت العلماء الماديين ، وأرادوا أن يعرفوا كيف نحسّ ؟ منهم من قال : نحن نحسّ بالمخ . نقول لهم : لكن هناك مسائل لا تصل للمخ ونحس بها ، بدليل أنه عندما يأتى واحد أمام عينى ويوجه أصبعه ليفتحها ويثقبها فقبلما يصل أصبعه أعلق عينى أى أن شيئاً لم يصل للمخ حتى أحسّ . وبعض العلماء قال : إن الإحساس يتم عن طريق التحاع الشوكى والحركة العكسية ، ثم انتهو إلى أن الإحساس إنما ينشأ بشعيرات حسية منبطحة مع الجلد ، بدليل أنك عندما تأخذ حقنة فى العضل ، فالحقنة فيها إبرة ، ويكون الألم مثل لدغة البرغوث يحدث بمجرد ما تنفذ الإبرة من الجلد ، وبعد ذلك لا نحس

إذن فمركز الإحساس فى الإنسان هو الشعيرات الحسية المنبطحة على الجلد ، بدليل أن ربنا أوضح أنه عندما يحترق الجلد يمتنع الإحساس ، فأنا أبدل لهم الجلد ليستمر الإحساس : « كلما نضجت جلودهم » أى صارت محترقة احتراقا تاما وتعطلت عن الإحساس بالألم ، آتيهم بجلد آخر لأديم عليهم العذاب ؛ لأنه هو الذى سيوصل للنفس الواعية متألم ، إذن فالآية مسّت قضية علمية معملية ، لو أن القرآن تعرض لها بصراحة وجاء بصورة فى الإحساس تقول : يا بنى آدم محلّ الإحساس عندكم الجلد ، لما فهموا شيئاً . لكنه تركها لتنضج فى العقول على مهل .

« كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » فتكون علّة التبديل للجلود التى أحرقت بجلود جديدة كى يدوم العذاب وبدليل الحق الآية : « إن الله كان عزيزا حكيما » والعزيز . هو الذى لا يُغلب ولا تقدر أن تحتاط من أنه يهزمك أبداً ، فقد يقول كافر : لقد تلذذنا بالمعصية مرة لمدة خمس دقائق ، ومرة لمدة

ساعتين فما بضيرك أن يحترق جلدى وتنتهى المسألة !! تقول له : لا.إن الذى يعذبك لا يُغلب فسوف يديم عليك العذاب بأن يبدل لك الجلد بجلد اخر ، وسبحانه حكيم.فالمسألة ليست مسألة جبروت يستعمله ، لا هو يستعمل جبروته بعدالة .

وبعد أن جاء بالعذاب أو بالجزاء المناسب لمن رفضوا الإيمان ، لم يترك للمقابل، لكى يكون البيان للفريقين : غاية الملتزم وغاية المنحرف . ولذلك يقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾

وفى هذه الآية يصف الحق ثواب الفئة المقابلة للفئة السابقة وهم الذين آمنوا ، ونعلم أن آخر موكب من مواكب الرسالة هو رسالة محمد صلى الله عليه وسلم إذن فأمة سيدنا محمد هى أقرب الأمم إلى لقاء الله . فالأمم من أيام آدم أخذت زمناً طويلاً ، لكننا نحن المسلمين قريبون ، ولذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم :

« بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين »[1] ، .

ولذلك لم يقل الحق فى هذه الآية : سوف ندخلهم . بل قال : « سندخلهم » ، أما مع الآخرين فاستخدم سبحانه « سوف » لأنها بعيدة ، أو أن هذا كناية وإشارة من الله لإمهال الكفار ليتوبوا ، وعندما يقرب لنا سبحانه المسافة فإنه يقربها بالطاعة ، المسألة ليست بعيدة ، بل قريبة ، لذلك يعبر عنها : « سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار » .

---

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم والترمذى عن أنس

إن كلمة « الجنة » مأخوذة من « الجَن » ، والستر ، و« الجَنّة » هي البستان الذي به شجر إذا سار فيه الإنسان يستره ، وهو غير البساتين الزهرية التي تخرج زهراً قريباً من الأرض تمثل ترفاً للعيون فقط ، أما الجنة ففيها أشجار عالية كثيفة بحيث لو سار فيها أحد يُستر ، ففيها الأكلات وفيها كل شيء ، فهي تستر عن أن تلتفت إلى غيرها لأن فيها ما يكفيك ، فالذي عنده حاجة لا تكفيه يتطلع إلى ما يكفيه ، لكن من عنده حاجة تكفيه فقد استر عن بقية الوجود ، والحق سبحانه وتعالى يعطينا صورة عن شيء هو الآن عنا غيب ، وسيصير بإذن الله وبمشيئته مشهداً ، ونحن نعرف أن الجنة بها كل ما تتمناه النفس ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله عز وجل :

« أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر »[1] مصداق ذلك في كتاب الله « فلا تعلم نفس ما أُخفِيَ لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » كانوا يعملون »

ونعلم أن الكائنات الوجودية يعرفها الإنسان بما يناسب إدراكه . . فقال « ما لا عين رأت ولا أذن سمعت » ، والعين حين ترى تكون محدودة ، لكن السمع دائرته أوسع من الرؤية ، لأنه سيسمع ممن رأى ، إنه سمع فوق ما رأى ، إذن فدائرة الإدراكات تأتي أولاً : بأن يرى الإنسان ، ثم بأن يسمع ، وهو يسمع أكثر مما يرى ، وعلى سبيل المثال قد أرى أسوان لكني أسمع عن أمريكا ، فدائرة السماع أوسع

وبعد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « ولا خطر على قلب بشر » أي أن ما في الجنة أكبر من التخيلات ، إذن فكم صنفاً هنّ للجنة ؟ الأولى قوله : ما لا عين رأت ، والعين مهما رأت فدائرتها محدودة ، والثانية : قوله : ولا أذن سمعت ، والأذن إن سمعت فدائرتها أوسع قليلاً . والثالثة : قوله : ولا خطر على قلب بشر ، وهذا أوسع من التخيلات ، فإذا كنت يا حق سبحانك ستعطينا في الجنة : ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فبأي الألفاظ يا ربي تؤدي لنا هذه الأشياء ، وألفاظ اللغة إنما وضعت لمعانٍ معروفة ، ومادمت ستأتي بحاجة لم ترها عين ، ولم تسمعها إذن ولم تخطر على قلب بشر ، فأي الألفاظ ستؤدي هذه المعاني ؟

---

(١) رواه مسلم في صفة الجنة

لقد أوضح صلى الله عليه وسلم : أنّه لا توجد ألفاظ ، لأن المعنى يُعرف أولاً ثم يوضع له اللفظ ، فكل لفظ وضع فى اللغة معروف أن له معنى ، لكن ما دامت الجنة هذه لم ترها عين ، ولم تسمعها أذن ، ولم تخطر على قلب بشر ، فلا توجد كلمات تعبر عنها ، لذلك لم يُقل صلى الله عليه وسلم : إن الجنة هكذا بل قال : « مثل الجنة » أما الجنة نفسها ، فليس فى لغتنا ألفاظ تؤدى هذه المعانى ، وحيث إن هذه المعانى لا رأتها عين ولا سمعتها أذن ولا خطرت على قلب بشر ، لذلك فليس فى لغة البشر ما يعطينا صورة عن الجنة ، وأوضح الحق سبحانه : سأختار أمراً هو أحسن ما عندكم وأعطيكم به مثلاً فقال :

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ ۖ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ ۚ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ۚ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾

(من الآية ١٥ سورة محمد)

ونحن نرى الأنهار ، والحق يطمئننا هنا بأن أنهار الجنة ستختلف فهو سبحانه سيسرع منها الصفة التى قد تعكر مهريتها ؛ فقد تقف مياه النهر وتصبح آسنة متغيرة ، فيقول . « أنهار من ماء غير آسن » ، إذن فهو يعطينى اسماً موجودا وهو النهر ، وكلنا نعرفه ، لكنه يوضح : أنا سأنزع منه الأكدار التى تراها فى النهر الحادث فى الحياة الدنيا ، وأيضاً فأنهار الدنيا تسير وتجرى فى شق بين شاطئين لكن أنهار الجنة سترى الماء فيها وليس لها شطوط تحجز الماء لأنها محجورة بالقدرة وستجد أيضاً أنهاراً من لبن لم يتغير طعمه .

إن العربى كان يأخذ اللبن من الإبل ويخزنه فى القِرَب ، وبعد ذلك ترحل الإبل بعيداً إلى المراعى وإلى حيث تسافر ، وعندما كان الأعرابى يحتاج إلى اللبن فلم يكن أمامه غير اللبن المخزن فى القرب . ويجده متغير الطعم لكنّ لا يجد غيره ؛ لذلك يوضح الحق : سأعطيكم أنهاراً من لبن فى الجنة لم يتغير طعمه ، ثم يقول : « وأنهار من خمر » وهم يعرفون الخمر ولنفهم أنها ليست كخمر لدنيا ؛ لأنه يقول :

« مثل » . . ولم يقل الحقيقة فقال . أنهار من خمر لكنها خمر « لذة للشاربين » ، وخمر الدنيا لا يشربها الناس بلذة ، بدليل أنك عندما ترى من يشرب كأس خمر . . فهو يسكبه فى فمه مرة واحدة ! ليس كما تشرب أنت كوباً من مانجو وتتلذذ به ، إنه يأخذه دفعة واحدة ليقلل سرعة مروره على مذاقاته لأنه لاذع ومحمض ؛ وتغتال العقول وتفسدها . لكن خمر الآخرة لا اغتيال فيها للعقول .

إذن فحين يعطينى الحق مثلاً للجنة . . فهو ينفى عن المثل الشوائب ، ولذلك نجد الأمثال تتنوع فى هذا المجال ؛ فالعربى عندما كان يمشى فى الصحراء ، ويجد شجرة « نبق » ويقال لها : « سدر » كان يعتبرها واحة يستريح عندها ، ويجد عليها النبق الجميل ، فهو يمد يده ليأكل منها لكنه قد يجد شوكاً فيعادى الشوك ، وفى بعض الأحيان تشكه شوكة ، وعندما لا يجد فى هذا الشجر شوكا يقول : هنا « سدر مخضود » أى شجرة نبق لا شوك فيها ، والحق يأتى بكل الآفات التى فى الدنيا ويغيبها عن جنة الآخرة .

« وأنهار من عسل مصفى » وكان العرب يأخذون العسل من الجبال فالنحل يصنع خلاياه داخل شقوق الجبال ، وعندما كانوا يخرجون العسل من الجبال يجدون فيه رملاً وحصى ، فأوضح الحق : ما يعكر عليك العسل هنا فى الدنيا أنا أصفيه لك هناك ، ومع أنه مثل لكنه يصفيه أيضاً ، ولماذا مثل ؟ . لأنه مادام نعيم الجنة « لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » . فكون لغة البشر كلها لا تؤدى ما فيها . لكنه ـ سبحانه ـ يعطينا صورة مقربة ، ويضرب الله المثل بالصورة المقربة للأشياء التى تتعالى عن افهم لبقربها من العقل . ومثال ذلك عندما أراد سبحانه أن يعطينا صورة لتنوير الله للكون ، وليس لنور الله الذاتى ، بل لتنوير الله للكون ، فيقول :

﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

إنه يعطينا مثلاً مقرباً لأن لغتك ليس فيها الألفاظ التى تؤدى الحقيقة ، ولذلك يقول :

﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾

(من الآية ١٠٠ سورة التوبة)

ومادامت جنات ففيها شجر ملتف وعالٍ ، ونحن نعرف أن الشجر لا بد أن يكون في منطقة فيها مياه ؛ لذلك قال « تجري من تحتها الأنهار » ، ومرة يقول « تجري تحتها الأنهار » لأن ما يجري تحتها قد يكون آتيا من مكان آخر ، ويكون منبعها من مكان بعيد وتجري الأنهار تحت جنتك ، وقد تظن أن بإمكان صاحب النبع أن يسدّها على جنتك ، فيشرح الحق لا هي جاءت من تحتها مباشرة .

ويقول الحق عن أهل الجنة : « خالدين فيها » وهو سبحانه وتعالى يخاطب قوماً شهدوا بعض النعيم في دنياهم من آثار نعمه عليهم ، لكنهم شهدوا أيضاً أن النعمة تزول عن الناس ، أو شهدوا أناساً يزولون عن النعمة ، فقال سبحانه عن جنة الآخرة : « خالدين فيها أبداً » فلا هي تزول عنهم ولا هم يحزنون عنها .

ويعطينا سبحانه أيضاً صورة من النعيم الذي يوجد عندنا في الدنيا لكنه يزول أيضاً أو نزول نحن عنه . « ولهم فيها أزواج مطهرة » وأزواج جمع « زوج » ، وعندما يصف الحق سبحانه وتعالى جمعا فهو يأتي في الصفة بجمع أيضاً مثل قوله :

﴿ وَقَدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾

(من الآية ١٣ سورة سبأ)

لأن « قدور » جمع « قِدر » ، ولم يقل هنا . وأزواج مطهرات وجاء بها مفردة لأن الرجل في الدنيا قد يتزوج بأكثر من واحدة فينشأ بين الزوجات المتعددات ظلال الشقاق فكأنهن متنافرات ، فقال : إنهن كلهن سيكنّ أزواجاً على صورة واحدة من الطهر . وليس في أي منهن ما يعكر صفو الأزواج كي يكون الأمر في الدنيا ، ولا يقولن واحد : « كيف تفضل المرأة أن يكون لها ضرة في الآخرة ؟ » لأن الحق سبحانه نزع من الصدور كل ما كان يكدر صفو النفوس في الدنيا فقال .

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

إذن فكأنهن - وإن تعددن - في سياق واحد من الطهر مما لا يعكر صفو لزوج ، إنه يعجبك شكلها ، ستعجبك ، أخلاقها ليس فيها عيب ولا نقص مما كان يوجد في الدنيا إنها مطهرة من ذلك كله . إذن فهو يعطيني خلاصة ما يمكن أن يتصور من النعيم في الأرواح .

ويكمل الحق : « وندخلهم ظلاً ظليلاً » ولغة العرب إذا أرادت أن تؤكد معنى فهي تأتي بالتوكيد من اللفظ نفسه ، فيقول العرب مثلاً : «هذا ليل أليل» أي ليل حالك ، وعندما يبالغ في « الظل » يقول:« ظليل » . وما هو « الظل » ؟ . « الظل » هو : انحسار الشمس عن مكان كانت فيه أو لم تدخله الشمس أصلاً كأن يكون الإنسان داخل كهف أو غار مثلاً .

إن كلمة ظل ظليل يعرفها الذين يعيشون في الصحراء ، فساعة يرى الإنسان هناك شجرة فهو يجلس تحتها ويستمتع بظلها ، والظل نفسه قد يكون ظليلاً ، مثال ذلك « الخيام المكيفة » التي يصنعونها الآن ، وتكون من طبقتين : الطبقة الأولى تتعرض للشمس فتحمل السخونة ، والطبقة الثانية تحجز السخونة ، ويسمون هذا السقف « السقف المزدوج » ويوجد خاصة في الأماكن العالية ؛ لأن الشقة على سبيل المثال التي تعلوها أدوار تكون محمية ، لكن الشقق الموجودة في آخر دور خصوصاً في البلاد الحارة تكون السخونة فيها صعبة وشديدة ؛ لذلك يصنعون سقفاً فوق السقف ، وبذلك يكون الظل نفسه في ظل .

ولماذا الإنسان يسعد بالظل تحت شجرة أكثر من سعادته بالظل في جدار ؟ لأن الظل في جدار مكون من طبقة واحدة ، صحيح أنه يمنع عنا الشمس لكنه أيضاً يحجب الهواء ، لكن الجلوس في ظل الشجرة يتميز بأن كل ورقة من أوراق الشجرة فوقها ورقة ، وأوراقها بعضها فوق بعض ، وكل ورقة في ظل الورقة الأعلى ولأن كل ورقة خفيفة لذلك يداعبها الهواء ، فتحجب عن الجالس تحت الشجرة حرارة الشمس ، وتعطيه هواء أيضاً ، هذا هو معنى قوله : « ظلاً ظليلاً » .

ولذلك فعندما أراد الشاعر أن يصف الروضة قال

وفانا لفحة الرمضاء وادٍ ... سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا ... حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالاً ... ألذ من المدامه للنديم
يصد الشمس أنّى واجهتنه ... فيحجبها ويأذن للنسيم

والشاعر هنا يصف الموقف حين يسير الإنسان فى صحراء ثم ينزل فى وادٍ به دوح وهذا الدوح يحنو على الإنسان حنو الأم على طفلها فى سن الفطام . وأنه قد سقاهم من مائه ما يلذ . وتصد الشمس عنهم الأشجار الكثيفة ولكن النسيم يمر بين أوراق الشجر . وهكذا نفهم أن كلمة « ظل ظليل » ، أى أن الظل فى ذاته مظلل

وبعد أن تكلم الحق عن العابات التى تنتظر الصنفين من خلقه : الصنف الذى يتأبى على منهج الله ، والصنف الذى يتطامن لمنهج الله : الصنف الأول أعد له الله النار التى تشوى جلوده ويبدله جلودا غيرها ليذوق العذاب ، والصنف المؤمن الذى أعد الله به الجنة ذات المواصفات المذكورة . وبعدما يجعل الغاية واضحة فى ذهنا من الكلام عن النار والكلام عن الجنة يلفتنا إلى حكم جديد ؛ لأن النفس تكون كارهة للنار ومحبة للجنة ، وعندما يأتى حكم جديد تتعلق النفس به وتتقده ؛ لأنها قريبة العهد ، بالترهيب من النار والترغيب فى الجنة،فيجعل الحق هذ الأمر مرة تذييلاً لما تقدم ، ومرة أخرى يجعله تمهيداً لما يأتى ؛ كى تستقبل الأحكام الجديدة فى ذهنك وتتضح لك الغاية التى تنتظر من الترم ، والغاية التى تنتظر من الحرف .

وعندما يأتى الحكم والغاية متضحة فى الذهن ومهيئة للإنسان فالتكليف يوضع فى بؤرة الشعور ؛ لأن هناك حاجات كثيرة تعلمها النفس البشرية ، ورحمة الله بالخلق أن هذا الرأس الذى فيه حافظة ، وفيه ذاكرة ، وفيه مخيلة ، لا يقدر أن يستوعب كل المعلومات فى بؤرة الشعور مرة واحدة ، ولا يمكن أن يجىء لك معنى جديد إلا إذا ترحزح المعنى الذى كنت مشغولاً به فى ذهنك قليلاً عن بؤرة الشعور وذهب إلى حاشية الشعور ، فإن بقى المعنى فى مكانه فلن يأتى لك خاطر جديد

راجع أصله وخرّج أحاديثه د. أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

إذن ببؤرة الشعور هى التى فيها ما أنت الآن بصدده فلا يمكن أن تتداخل الأفكار فى البؤرة الشعورية ، ولذلك عندما تريد أن تستدعى حاجة فى بؤرة الشعور . فالمعانى تتداعى كى تأتى بما فى حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور . وساعة يأتى ما تريده فى بؤرة الشعور يذهب الخاطر الأول .

إياك أن تظن أن العقل البشرى يستطيع أن يواجه فى بؤرة الشعور كل المعلومات ، لا . فمن رحمة الله أنه وضع لشعورك نظاما تخزن فيه معلوماتك ، ولذلك فأنت قد تتذكر حاجة من عشر سنوات ، فإذا كانت قد ذهبت من فكرك فكيف تذكرتها ؟ إذن فهى موجودة لكنها موجودة فى الحواشى البعيدة للشعور . . وعندما تداعت المعانى خرجت الخاطرة أو الحادثة إلى بؤرة الشعور ؛ ثم تؤدى مهمتها وتذهب ؛ وتأتى أخرى فى بؤرة الشعور .

إن هذا الذهن البشرى فيه قوة وطاقة يختزن فيها الأحداث ، وعلى الرغم من ذلك تختلف قدرات الناس ، فهناك من يحفظ قصيدة من عشر مرات ، وهناك ذهن يحفظ من مرتين ، وهناك من يحفظ من ثلاث مرات . إن الذهن كآلة التصوير « الفوتوجرافى » يلتقط من مرة واحدة ، والمهم فقط أن تكون بؤرة شعورك خالية ساعة الالتقاط . فإن كانت بؤرة شعورك خالية من غيرها تلتقطها .

أنت تكرر القصيدة أو الآية أو الكلمة كى تحفظها ؛ لأنك لو قدرت أن تجعل بؤرة شعورك مع النص لحفظت النص مباشرة ، لكنك لا تحفظ النص ؛ لأن هناك خواطر تأتيك فتحطف التركيز ، وتكون بؤرة الشعور مشغولة بسواها فلا تستطيع أن تحفظ المعلومة الجديدة ، فتكرر الحفظ إلى أن تصادف كل جزئية من جزئيات الشعر أو القصيدة أو الآية خلو بؤرة الشعور ؛ لذلك يقولون : هناك طالب يحفظ ببطء ، وآخر يحفظ بسرعة ، إن الذى يقدر أن يركز ذاكرته لما هو بصدده ، فذهنه يلتقط ما يقرأ من مرة واحدة أما الذى لا يركز فإن حفظه يكون بطيئا

وأضرب هذا المثل ، وقد يكون أغلبنا مرّ به ، وخصوصاً من تعرض للعدم وللامتحانات : هب أنك طالب فى امتحان ، وبعد ذلك فى الجرس لتدخل مكان

الامتحان ، ثم جاء وميل لك وقال لك : القطعة الفلانية سيأتى منها سؤال ، وأنت لم تكن قد ذاكرتها ، هنا تخطف أى كتاب وتقرؤها بإمعان ، فهل وأنت فى هذه الحالة تفكر فى ماذا ستأكل على العشاء ؟ أو تفكر فى من كان معك بالأمس ؟ لا ؛ لأن الوقت ضيق ولن يتركز فكرك إلا فى هذه القطعة التى تقرؤها ثم تدخل الامتحان فتجد سؤالاً فى القطعة التى ذاكرتها من دقائق ولمدة قصيرة تضع الإجابة الصحيحة ، وقد لا يعرفها من ذاكرها لمدة شهر ؛ لأنه ذاكرها وباله مشغول ، أما أنت فتضع إجابة السؤال كما يجب لأنك ذاكرتها وليس فى ذهنك غيرها ؛ لأن الوقت ضيق وكانت بؤرة شعورك محصورة فيها .

ومثال آخر : نجد تلميذاً من التلاميذ يشكو من عدم فهمه من أستاذه لكن هناك تلميذ آخر يفهم ، والتلميذ الذى لا يفهم هو من انصرف ذهنه عنه فى أثناء الشرح فى مسألة بعيدة عن العلم الذى يدرسه ، وعندما يجىء درس جديد ، فهو يفاجأ بمعلومات لا بد أن تستقر وتبنى على معلومات سابقة كان ذهنه مشغولاً عنها ، فلما شرح المدرس الدرس الجديد ، قال التلميذ الذى لا يفهم : ماذا يقول هذا المدرس ؟ لكن التلميذ المنتبه له والذى يربط المعلومات بعضها ببعض ؛ يفهم ما يقوله المدرس ، ولذلك فالأستاذ الجيد لا بد أن يثير الانتباهات دائماً لطلابه ، بمعنى أن يعاجلهم ، يقول مثلاً كم حملة ثم يقول للتلميذ قم ، ماذا قلت الآن ؟ فيجلس كل تلميذ وهو عُرضة أن يُسأل ، فيخاف أن يُحرجه الأستاذ ، فينتبه للدرس ويجعل بؤرة شعوره مع المدرس دائماً .

فالحق سبحانه وتعالى بعدما تكلم عن النار وعن الجنة وجعل هذا الأمر مستقراً فى بؤرة شعورهم ينزل الأحكام بعد ذلك ، ولذلك نجد دائماً بعد أن يذكر سبحانه الجنة والنار يأتى بعدها بأمهات الأحكام التى إذا فعلوها نالوا الجنة وابتعدوا عن النار . فبعدما شحنت بؤرة الشعور بالجنة والنار بالغاية المنفرة والغاية المرغبة ، هنا يأتى الحكم ، فيقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا

وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾

وقوله سبحانه : « أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » ، أوجز الله فيها كل تكاليف السماء لأهل الأرض ، لأن الأمانات هي الأمانة العليا وهي الإيمان بالله ، والأمانة التي تتعلق ببني الجنس ، والأمانة التي على النفس لكل الأجناس

ومعنى الأمانة هو : ما يكون لغيرك عندك من حقوق وأنت أمين عليها ، إن شئت فعلتها ، وإن شئت لم تفعلها ، أنت تقول : أن أودعت عند فلان أمانة ، هذه الأمانة لو كانت بإيصال لم كانت أمانة ، لأن هناك دليلاً ، ولو كان ما أودعته عند ذلك الإنسان عليه شهود لا تكون أمانة فالأمانة : أن تودع عنده شيئاً ، وضميره هو الحكم ، إن شاء أقر بما عنده لك حين تطلبه ، وإن شاء لم يقر به ، قال الحق :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

فما هي الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبت أن تحملها ثم حملها الإنسان ، وعلة تحمله لها أنه كان ظلوماً جهولاً ؟ إن الكون كما نعلم فيه أجناس ، أدناها الجماد ، وأوسطها النبات ، وأعلى من الأوسط الحيوان ثم الإنسان ، والإنسان هو سيد هذه الأجناس لأنها تخدمه جميعها ، لكن الجماد والنبات والحيوان لا اختيار لأي منها في أن يفعل أو لا يفعل ، وإنما كل جنس منها قد خلق لشيء ليؤديه ، ولا اختيار له في أن يمتنع عن الأداء .

الأرض والسماوات والجبال لم تقبل أن تكون مختارة أو أن تحمل أمانة وتكون المسألة فيها راجعة إلى اختيارها إن شاءت فعلت وإن شاءت لم تفعل . وأشفقت الأرض والسماوات والجبال من حمل الأمانة لعدم الثقة بحالة النفس وقت أداء

الأمانة . فيجوز أن يعقد الكائن العزم عند تحمل الأمانة أن يؤديها ، ولكن عند أدائها لا يملك نفسه ، فربما خانته نفسه وجعلته لا يقر بها . لقد احتاطت السموات والأرض والجبال وقالوا : لا نريد هذه الأمانة ولا نريد أن نكون مختارين بين أن نفعل أو نترك ، نطيع أو نعصي ، وإنما يارب نريد أن نكون مسخرين لما تحب دون اختيار لنا . فسدمت الأرض والسموات والجبال ، لكن الإنسان بما فيه من فكر يرجح الاختيار بين البديلات قال . أنا أقبلها وإن فكري سيخطط لأدائها . ولم يلتفت الإنسان ساعة تحمله الأمانة إلى حالة أدائه لها .

ومثال ذلك : من الجائز أن يعرض عليك إنسان مبلغاً من المال كأمانة عندك ، فأخذته وأنت واثق أنك ستؤديه حين يطلبه منك ، ولكنك ساعة الأداء قد لا تملك نفسك ، فقد تمر بك ظروف فتصرف شيئاً من المال ، أو أن تكون ـ والعياذ بالله ـ قد خربت ذمتك .

إذن فالإنسان لا يملك نفسه وقت الأداء وإن ملك نفسه وقت الأخذ ، فالذين يحتاطون يقولون . أبعد عنا تحمل الأمانة ، فلا نريد أن نحمل لك شيئا ولكن الإنسان قبل تحمل الأمانة ؛ لأنه « كان ظلوما جهولا » ظلم نفسه وجهل بحالته وقت الأداء ، إذن فالأمانة التي عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان هي أمانة الاختيار التي يترتب عليها التكليف من الله

إن التكليف محصور في « افعل » و« لا تفعل » ، فإن شئت فعلت في « افعل » ، وإن شئت لم تفعل في « لا تفعل » وإن شئت العكس ، ومعنى ذلك أن الأمانة في هذا المعنى مقصورة على ما طلبه الله من الإنسان وقت العرض . لكنها لم تتعرض للأمانات التي توجد بيننا ، والأمانة كذلك هي ما يتعلق بذمتك بحق غيرك ، لذلك فحين يعطي إنسان إنساناً شيئاً يصير الأخذ مؤتمناً فإن شاء أدى وإن شاء لم يؤد .

لكن هناك أمانات أخرى لم يعطها إنسان لإنسان ، وإنما أعطاها رب الإنسان لكل إنسان ، فالعلم الذي أعطاه الله للناس أمانة فهو الذي علمك علماً وأعطاه لك وبعد ذلك قال لك : أدِّه لي . كمثل من يكون مأموناً على مال ؟

نقول للعالم : العلم ليس من عندك حتى تعطيه لغيرك ويعد ذلك يرده لك ولكن الله يجازيك عليه ثواباً وكذلك فى الحلم والشجاعة ، ولا تتضح هذه المسائل بين العبد والعبد إلا فى المال ، لكن فى بقية الأشياء : نقول لك : أنت أمين عليها أمام خالقك ، وقد أمنك ربنا على هذه الأشياء كى تؤديها إلى من لا يعلم ، فأمنك على قدرة وأمرك : أعطها لمن لا يقدر ، وأمنك على علم وأوضح لك : أعطه لمن لا علم له . .

إذن فمن الذى أعطاك هذه الأمانة ؟ الله . فليس ضرورياً أن تكون الأمانة من صاحبها الذى أعطاها لك لتردها إليه ، فالأمانة : ما تصير مأموناً عليه ممن خَلَقَ أو من مخلوق ، فأدها ، والأمانة بهذا المعنى أمرها واسع ، فاستحقاق الله للتوحيد أمانة عندك ، أهليتك للتكليف من الله حين كلفك أمانة عندك ، وأهليتك فى المواهب المختلفة أمانة عندك ، فكل إنسان عنده موهبة هو أمين عليها ولابد أن يؤديها وينقل آثارها لمن لا توجد عنده هذه الموهبة . فربنا أعطى هذا الإنسان قوة عضل ، وأعطى ذلك قوة فكر ، وأعطى ثالثاً قوة حلم ، وأعطى رابعاً علماً . كل هذه الأشياء أمانات أودعها الله فى خلقه ليتكامل الخلق ، فحين يؤدى كل إنسان أمانته لكل إنسان يصبح كل إنسان عنده مواهب كل الآخرين .

والحق سبحانه وتعالى حينما يقول : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » نتذكر على الفور قمة الأمانة أن تعبده ولا تشرك به أحداً ، والأمانة فى التكاليف التى كلفك الله بها ؛ لأنها أمانة لغيرك عندك ، وأمانة عندك لغيرك . فحين يكلفك الله بألا تسرق ، يكون قد كلف الناس كلهم ألا يسرقوك .

إن كل أمانة عند غيرك تقابلها أمانة عندك ، فإن أديت مطلوبات الأمانة عندك أدى المجتمع الذى يحيط بك لأمانة التى عنده ، وهكذا تكون الأمانة هى . أداء حق فى ذمتك لغيرك

وقوله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » قيل نزلت فى عثمان ابن طلحة ابن أبى طلحة وكان سادن ـ خادم ـ الكعبة وحين دخل رسول الله صلى الله

عليه وسلم مكة يوم الفتح أغلق عثمان باب الكعبة وصعد السطح ، وأبى أن يدفع المفتاح إليه وقال لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه فلوى علىٌ بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ يده وأخذه منه وفتح ودخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصلى ركعتين ، فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية والسِّدانة فنزلت هذه الآية فأمر أن يرده إلى عثمان ـ رضى الله عنه ـ ويعتذر له فقال عثمان لعلى : أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق ، فقال لقد أنزل الله فيك قرآنا وقرأ عليه الآية فأسلم عثمان وهبط جبريل وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن السِّدانة فى أولاد عثمان أبدًا .

وهذا يقابل الأمانة شىء بعد ذلك اسمه العدل ، فلو أدى كل واحد ما لغيره عنده من حق لما احتجنا إلى عدل ، فالعدل إنما ينشأ من خصومة وتقاضٍ ، والتقاضى معناه : أن واحداً أنكر حق غيره فلو أدى كل واحد ما فى ذمته من حق لغيره لما وجد تقاضٍ ، ولما وجدت خصومة فلا ضرورة إلى العدل حينئذٍ .

ولكن الحق الذى خلق الخلق وعلم الأغيار فيهم قدر أن بعض الناس يغفل عن هذه القضية وينشأ منها أن الإنسان قد لا يعطى الحق الذى فى ذمته لغيره ، فقضى سبحانه بشىء آخر اسمه « العدل » . ولو أن المسألة الأولى انتهت لما احتجنا للعدل .

إذن فالعدل هو علاج للغفلة التى تصيب البشر من الأغيار التى تطرأ على نفوسهم ، فشاء الله أن يقول : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، فى الأولى لم يقل : إذا ائتمنتم فأدوا ، لا . بل قال . « إن الله يأمركم أن تؤدوا » . فإذا حدثت منكم غفلة عن هذه فما الذى يجمى هذه المسألة ؟ هما يأتى العدل وهو أن تقضى بحق فى ذمة غيرك لغيره ، أى ليس فى ذمتك أنت ، لأنك تحكم كى ترجح مسألة وتضع الأمر فى نصابه .

وبذلك نعرف أن مطلوبات أداء الأمانة تكون فى شىء عندك تؤديه لغيرك ، لكن مطلوبات العدل : تكون فى أشياء فى ذمة غيرك لغيرك . ولذلك قال الحق : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، وكما أن آية أداء الأمانة عامة ، كان لابد أن تكون آية العدل عامة أيضاً

إن قوله تعالى . « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ليست خاصة للحاكم فقط ، بل إنّ كل إنسان مطالب بالعدل ، فلو كنت مُحكّما من طرف قوم ورضوا بك أن تحكم فاحكم بالعدل حتى ولو كان الحكم فى الأمور التى يتعلق بها التكريم والشرف والموهبة ؛ فليس ضرورياً أن يكون الحكم بالعدل فى أمر له قيمة مادية ، مثلاً : سيدنا الإمام على ـ رضوان الله عليه وكرم الله وجهه ـ يرى غلامين يتحاكمان إلى ابنه الحسن ؛ ليحكم بينهما أى الخطين أجمل من الآخر ، وهذه مسألة قد ينظر لها الناس على أنها مسألة تافهة لكنها مادامت شغلت الطفلين وأراد كل واحد منهما أن يكون خطه أجمل ، فلابد أن يكون الحكم بالعدل . فقال الإمام عن لابنه الحسن : يا بنى انظر كيف تقضى ، فإن هذا حكم والله سائلك عنه يوم القيامة .

إن هذا يعطينا صورة فى دقة العدل حتى ولو كان الأمر صغيراً . وفى مباريات كرة القدم نجد الحكم الذى يقول هذه اللعبة تحتسب هدفاً أو لا تحتسب ، هذا الحكم يحتاج إلى مهارة لأنه سيترتب عليها فوز فريق أو هزيمته ، بدليل أنك حتى وأنت تراقب الكرة ثم وجدت الحكم لم يحتسب خطأ تثور عليه .

وهنا أتساءل : لماذا طبقتم قانون الجد فى اللعب ، ثم تركتم الجد بدون قانون ؟ وهذا ما يحدث . نحن ننقل قوانين الجد إلى اللعب ، ونترك الجد فى بعض الأحيان بدون قانون ، ولو اعتنينا بهذه كما اعتنينا بتلك . لتساوت الأمور ، فالعدل إذن هو حق فى ذمة غير لغير حتى ولو كانت مبراة فى اللعب ، ومادام الأمر قد شغل طرفين ، وجعل بينهما نزاعا وخلافا وتسابقا فعليك أن تنهى هذا الخلاف بالعدل .

ويتابع الحق : « إن الله نعما يعظكم به » ونعما ، يعنى نعم ما يعظكم به الله ، أى لا يوجد أفضل من هذه العظة التى هى : أداء الأمانة والحكم بالعدل ، فبهذا تستقيم حركة الحياة . فإذا أدى الناس الأمانة فلا نزاع ولا خلاف ، وإذا أدوا عدالة الحكم فإن كان هناك خلاف ينتهى . وقال العلماء إذا علم المجتمع أن عدلا يحرس حقوق الناس عند الناس فلن يجرؤ ذلك ظالماً على أن يظلم بعد ذلك ، فيقول الظالم : فلان ظلم ولم يحاكم ، فيغرى ذلك الظالم أن يزيد فى ظلمه ، لكن ساعة

يرى الناس أحداً يأخذ حق غيره ثم جاء الحاكم فردعه ، ورد الحق لصاحبه فلن يظلم أحد أحداً .

وسبحانه في أمره هذا لا حاجة له في أن تفعلوا أو لا تفعلو ، فهي أشياء لا تؤثر عنده في شيء ، إنما هي في مصالحكم أنتم بعضكم مع بعض ، وأحسن ألوان الأمر هو ما لا يعود على الأمر بفائدة ، لأن الأمر إذا ما كان فيه عود بالفائدة على الآمر قد يشكك في الأمر لكن أن تأمر بأمر ليس لك فيه فائدة فهذا قمة العدل . وقد يوجد إنسان يأمر بما لا فائدة له فيه ، لكنه قد لا يكون واسع العلم ولا واسع الحكمة ، والأمر هنا يختلف لأن الله سبحانه وتعالى ليس له مصلحة في الأمر ، هذه واحدة ، وأيضاً فهو ـ سبحانه ـ واسع العلم والحكمة ؛ لذلك كانت هذه العظة مقبولة جداً ، وهي نعمة من الله ولما عداها فبئست العظة ؛ لأن الله لا ينتفع بأمره هذا وهو مأمون على العباد جميعاً ، والثانية ، أنه قد يوجد غير لا ينتفع بالأمر ولكنه قاصر العلم وقاصر الحكمة فلا نعمت العظة منه ، فقوله : « إن الله نعما » يعني . نعم ما يعظكم به الله أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وأن تحكموا بالعدل .

ونلحظ الأداء البياني في القرآن في قوله : « تؤدوا » هذه للجماعة ، وهذا يعني أن كل واحد مطالب بهذا الحكم أولاً ، « وإذ حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، فيكون كل واحد مطالباً بالحكم أيضاً ، كأن مهمتكم الأمانية ليست مقصورة على أن تصونوا حقوقكم بينكم وبين أنفسكم ، لا ، فأنتم مكلفون بأن تصونوا الحقوق بين الناس والناس ولو لم يكونوا مؤمنين

إن قوله : « وإذا حكمتم بين الناس » يُفهم منها أيضاً حماية حقوق من آمن بالإسلام ومن لم يؤمن بدين الإسلام ؛ لأن الحق جل وعلا يريد منا أن تؤدى الأمانة إلى « أهلها » ، ولم يقل « لأهلها » المؤمنين أو الكافرين .

إن كلمة « الناس » هذه تدل على عدالة الأمر من إله هو رب للجميع ، فسبحانه هو الذي استدعى الإنسان للدنيا ، والإنسان منه مؤمن ومنه كافر . لكن أحداً لا يخرج عن نطاق الربوبية لله ، فربنا ربٌّ ويرعى كل إنسان ـ مؤمناً كان أو كافراً ـ هو يرزق الجميع ولذلك أمر الكون . يا كون أعط من فعّل الأسبابَ النهاية من

المسببات إن كان مؤمناً أو كافراً وهذا هو عطاء الربوبية ، إنه ـ سبحانه ـ رزق الإنسان وسخر الأشياء له ، فهو لم يسخر الكون للمؤمن فقط وإنما سخره للمؤمن وللكافر ، فكذلك طلب منا أن نؤدى الأمانة للمؤمن والكافر ، وطلب منا أن نعدل بين المؤمن والكافر .

ولنا فى الرسول صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة ، فقد حدث أن « طعمة ابن أبيرق » أحد بنى ظفر سرق درعاً[1] من جار له اسمه « قتادة بن النعمان » ، فى جراب دقيق والاثنان مسلمان ، إلا أن مناط الحق لم تكتب الجريمة ضيقة مهما ظن اتساعها ، مثلما نقول . « الجريمة لا تفيد » ، فوضع الدرع المسروقة فى جراب كان به دقيق ، فجعل الدقيق ينتثر من خرق فى الجراب وهو يسير من بيت قتادة بن النعمان وخبأ الدرع عند يهودى اسمه « زيد بن السمين » ، فلما فطن قتادة بن النعمان لضياع الدرع قال . سرق الدرع سرق الدرع . فتتبعوا الأثر فوجدوه إلى بيت طعمة ابن أبيرق ، فحلف ما أخذها وما له بها علم فتركوه . فتتبعوا الأثر ثانية فوجدوا الدرع عند اليهودى « زيد بن السمين » فقال اليهودى دفعها إلى طعمة وشهد له ناس من اليهود ، ورفع الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء بنو ظفر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وقالوا إن لم تفعل هلك صاحبنا وافتضح ويرى اليهودى فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل وأن يعاقب اليهودى فأنزل الله عليه حكمه الفصل :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ (سورة النساء)

أى لا تكن يا محمد مدافعاً عن الخائنين واستغفر الله إن كان هذا الخاطر قد جال برأسك بأن ترفع رأس مسلم على يهودى ، لأن الحق أولى من المسلم ؛ فهاذا هو قبل

(١) الدرع : هو القميص من حلقات من الحديد حتى يكاد تلبس وقاية من الطعن بالسلاح

أن يجون فلا تجادل عنه ، ولماذا طلب بنو ظفر التغاضي عن جريمة مسلم وإلصاقها بيهودي ؟ أيستخفون من الناس ولا يستخفون من الله ؟ وافرض أن هذه برأتهم عند الناس . أتبرئهم عند الله ؟ ويقول في آية أخرى :

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة النساء)

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » لابد أن نأخذه على أنه مطلب تكليفي من الله للمسلمين حتى يشيع في كل الناس ولا يخص المؤمنين يتعاملون به فيما بينهم ، وإنما يشمل أيضا ما بين المؤمنين والكافرين ، وما بين الكافرين بعضهم مع بعض إن ارتضوا حكم رسول الله .

« إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً » وحين ترون تذييل آية بصفتين من صفات الحق أو باسمين من أسماء الحق ، فلا بد أن تعلموا أن بين الصفتين أو بين الاسمين وبين متعلق الآية علاقة ، وهنا يعلمنا الحق أنه سميع وبصير . بعد أداء الأمانة ، والحكم بالعدل بين الناس ، لأن الرسول شرح ذلك حين أمر من يقضي بين الناس أن يسوي بين الخصمين في لحظه ولفظه أي لا ينظر لواحد دون الثاني ، ولا يكرم واحداً دون الآخر ، فيسوي بين الاثنين ومادام سيسوي بين الاثنين ، فلا بدَّ أن تكون النظرة واحدة ، والألفاظ واحدة .

روى أن يهوديا خاصم سيدنا عليا بن أبي طالب كرم الله وجهه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فنادى أمير المؤمنين عليا فقال : « قف يا أبا الحسن » فبدا الغضب على عليّ رضي الله عنه ، فقال له عمر . « أكرهت أن نسوي بينك وبين خصمك في مجلس القضاء ؟ فقال علي رضي الله عنه . « لا . ولكني كرهتُ منك أن عظمتني في الخطاب فناديتني بكنيتي ولم تصنع مع خصمي اليهودي ما صنعت معي »

إذن فحين يقول عمر رضي الله عنه لأبي موسى الأشعري : « آسِ بين الناس في مجلسك ووجهك »[1]

(١) من كتاب سيدنا عمر رضي الله عنه لأبي موسى الأشعري بعد تكليفه بالقضاء

فلا بد أن يقوم بتلك التسوية كل حاكم أو محكم بين خصمين فلا يميل ولا يرفع خصما على خصمه .

و« اللحظ » عمل العين وهذا يحتاج إلى بصير ، واللفظ يحتاج إلى أذن تسمع ، أى إلى سميع ، فقال : « إن الله كان سميعاً بصيراً » . لماذا قدم سبحانه هنا سميعاً على بصير ؟ لأن ما يُسمع فيه تعبير واضح . أما لنظرة فلا يعرفها إلا من يلاحظ أنه ينظر بحنان وإكبار ، وهل وجدت له سبحانه صفة السمع بعد أن وجد ما يسمعه ، وهل وجدت له صفة البصر بعد أن وجد ما يبصره ؟ أو أن صفة السمع أزلية قديمة قبل أن يخلق خلقاً يسمع منه ، وأن صفة البصر أزلية قديمة قبل أن يخلق خلقاً ليبصر أفعالهم ؟ إنه سبحانه قديم أزلاً ، موجود قبل كل موجود . وصفاته قديمة بقدمه

إذن فيه فرق بين أن تقول : سميع وبصير ، وسامع ومبصر ، فأنت تكون سامعاً إذا وجد بالفعل من يُسْمع ، إذن فما معنى كلمة « سميع » ؟ أن يكون المدرك على صفة يجب أن تدرك المسموع إن وجد المسموع وإن لم يوجد المسموع فهو ليس سامعًا فقط ، إنما هو سميع ، وكذلك بصير

وأضرب المثل ـ ولله المثل الأعلى ، وهو منزه عن كل تشبيه ـ الشاعر الذى يقول القصيدة ، إنه قبلما يقول القصيدة كان شاعراً فى ذاته وقال القصيدة بوجود ملكة الشعر فى ذاته . والحق سبحانه وتعالى « غفّر » قبل أن يخلق الخلق ، أى أنه على صفة تدرك الأمر إن وجد . . وهو غفار قبل أن يوجد الخلق ويرتكبوا ما يغفره ، وهو « سميع بصير » أزلاً . أى قبل أن يخلق الخلق الذين سينشأ منهم ما يُبصر وينشأ منهم ما يُسْمع .

ويقول الحق بعد ذلك .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ

وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

هذه الآية كثر كلامنا فيها ، وفي كل مناسبة من المناسبات جره الكلام عنها ، ولكن عليّ أيضاً أن أعيد بشيء من الإيجاز ما سبق أن قلناه فيها ، الله سبحانه وتعالى يقول « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » ، ولماذا أطيع الله وأطيع الرسول ؟ لأن فيه الحيثيات المقدمة ، فأنت عندما ترى حكماً من القاضي تجد أن هناك حيثيات لحكم أي التبرير القانوني للعقوبة أو للبراءة ؛ فيقول القاضي : بما أنه حدث كذا فقانونه كذا حسب المادة كذا هنه هي الحيثيات . و« الحيثيات » مأخوذة من . حيث إنه حدث كذا فحكمنا بكذا . أو حيث إنه لم يحدث كذا فحكمنا بكذا ، إذن فحيثيات الحكم معناها : التبريرات التي تدل على سند الحكم لمن حكم .

هنا يقول سبحانه « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » وهل الحق سبحانه وتعالى قال : يا أيها الناس أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ؟ لا لم يقل ذلك ، لقد قال « يا أيها الذين آمنوا » . إذن ما دمت قد آمنت بالله إلهاً حكيماً خالقاً عالماً مكلفاً فاسمع ما يريد أن يقوله لك ، فلم يكلف الله مطلق الناس بأن يطيعوه ، إنما دعا مطلق الناس أن يؤمنوا به . ومن يؤمن يقول له : أطعني مادمت قد آمنت بي .

إذن فحيثية الطاعة لله وللرسول صلى الله عليه وسلم نشأت من الإيمان بالله وبالرسول . وهذه عدالة كاملة ؛ لأنه سبحانه لا يكلف واحداً أن يفعل فعلاً إلا إذا كان قد آمن به ـ سبحانه ـ مكلفاً ، آمن به آمراً ، أما الذي لا يؤمن به فهو لا يقول له : افعل كذا ولا تفعل كذا ، إنه سبحانه يطالبه أن يؤمن به أولاً ، فإذا ما آمن به يقول له : استمع إلي ، ولذلك نجد كل تكليف يصدر بقوله سبحانه « يا أيها الذين آمنوا » .

إن حيثية إطاعة الله وإطاعة الرسول هي : الإيمان به ، هذه هي الحيثية الإيمانية الأولى ، أما إن جال ذهنك لتدرك سر الطاعة ، فهذا موضوع آخر ، ولذلك أوضح : إياكم أن تقبلوا على أحكام الله بالبحث فيها أولا فإن اقتنعتم بها أخذتموها

وإن لم تقتنعوا بها تركتموها ، لا إن مثل هذا التصرف معناه أنك شككت في الحكم بل عليك أن تقبل على تنفيذ أحكامه ، لأنه سبحانه قالها وأنت مؤمن بأنه إله حكيم لكن هل ذلك يمنع عقلك من أن يجول ليفهم الحكمة ؟

نقول لك أنت قد تفهم بعض الحكمة ، ولكن ليست كل الحكمة ؛ لأن كمالات حكمة الله لا تتناهى ، فقد تعرف جزءًا من الحكمة وغيرك يعرف جزءًا آخر ، ولذلك قالوا إن الفرق بين أمر البشر للبشر ، وأمر الله للمؤمنين به شيء يسير جداً هو . أمر الله للبشر تسبقه العلة وهي أنك آمنت به ، أما أمر البشر للبشر فأنت تقول لمن يأمرك : أتعنى لماذا أفعل هذه ؟ ؛ لأن عقلك ليس أرقى من عقل فأنت لا تصنع شيئا إلا إذا اقتنعت به وتكون التجارب قد أثبتت لك أصالة رأى من تستمع له وأنه لن يغشك .

وهكذا نرى أن طاعتنا لله تختلف عن طاعتنا للمخلوق ؛ فنحن نطيع الله لأننا آمنا به وحينما يطلب سبحانه منا أن نطيعه ، ننظر هل هذه الطاعة لصالحنا أو لصالحه ؟ فإذا وجدنا أنه بكل صفات الكمال الموجودة له خلقنا ؛ إذن فسبحانه لا يريد صفة جديدة تكون له ؛ لأنه لم يخلقنا إلا بصفات الكمال فيه ، وسبحانه قد خلقك دون أن يكون لك حق الخلق عنده ، خلقك بقدرته ، وأمدك لاستبقاء حياتك بقيوميته ، فحين يطلب منك الإله الذي يتصف بتلك الكمالات شيئ فهو يطلبه لصالحك ، كما ترى أي إنسان من البشر - ولله المثل الأعلى - يُعنى بصنعته ويحب أن تكون صنعته متميزة ، فكذلك الحق سبحانه وتعالى يريد أن يباهي بهذا الخلق . ويباهي بهذا الخلق ليس بالإكراه على أن يفعلوا ما يأمر به بالتسخير لا . بل بالمحبوبية لأمر الله وأن تمثل بسلوكنا : نحن نحبك يا ربنا . وإلا فأنت - أيها الإنسان - قد اختار أن تكون عاصيا . وما دمت قبلا أن تكون عاصياً ثم أطعت ، فهذه تثبت لله صفة المحبوبية لأنه ؛ - كما نعرف - هناك فرق بين من يقهر بقدرته وبين يعطيك الاختيار حتى تأتيه وأنت تحب ، على الرغم من أنه قادر على أن يقهرك .

ساعة قال الحق : « أطيعوا الله » معناها : أنه لم يطلب منا شططاً ، وكيف نطيع الله ؟ . أن نطيعه في كل أمر ، وهل أمَرَ اللهُ خلقه منفردين ؟ . لا ، بل أمرهم كأفراد

وكجماعة ، وأعطاهم الإيمان الفطرى الذى يثبت أن وراء الكون قوة أخرى خلقته . وهذه القوة لا يعرف أحد اسمها ، ولا مطلوباتها ، أو ماذا ستعطى لمن يطيعها ؛ إذن فلا بد أن يوجد مُبلِّغ ولذلك فأنا أرى أن بعض الفلاسفة قد جانبوا الصواب عندما قالوا : إن العقل كاف فى إدراك الدين ، وأقول لهم لا . العقل كاف فى إدراك من دين له ، ولكن العقل لا يأتى لنا بكيفية الدين ومنهجه .

لذلك لا بد من بلاغ عنه يقول افعلوا كذا وكذا وكذا ، يقول هؤلاء الفلاسفة : إن العقل كاف فى استنباط وجود قوة وراء هذا الكون ، أما شكل هذه القوة ، واسمها وماذا تريد ، فلا أحد يعرف ذلك إلا أن يوجد مبلِّغ عن هذه القوة ، ولا بد أن تكون القوة التى أمنت بها بفطرتك قد أرسلت من يقول : اسمه كذا ، ومطلوبه كذا ، إذن فقوله « أطيعوا الله » يلزم منها إطاعة الرسول .

وبعد ذلك قال : « وأولى الأمر » ، و« أولى الأمر » هنا لم يتكرر لهم الفعل ، فلم يقل : وأطيعوا أولى الأمر لنفهم أن أولى الأمر لا طاعة لهم إلا من باطن الطاعتين طاعة الله وطاعة الرسول ، ونعلم أن الطاعة تأتى فى أساليب القرآن بثلاثة أساليب : « أطيعوا الله والرسول » و« أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » ، وأطيعوا الرسول فقط . إذن فثلاثة أساليب فى الطاعة :

الأسلوب الأول : أطيعوا الله والرسول ، فأمر الطاعة واحد والمطاع هو الله والرسول

والأسلوب الثانى : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول .

والأسلوب الثالث : أطيعوا الرسول ، نعم فالتكليفات يأمر بها الحق سبحانه وتتأكد بحديث من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو فعله أو تقريره ، وهنا تكون الطاعة فى الأمر لله وللرسول ، أو أن الحق قد أمر إجمالاً والرسول عين تفصيلاً ؛ فقد أمرنا الله فى الإجمال وأطعنا الرسول فى التفصيل فتكون الطاعة لله ، وتكون الطاعة للرسول ، أو إن كان هناك أمر لم يتكلم فيه الله وتكلم الرسول فقط . ويثبت ذلك بقول الحق .

﴿ من يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة النساء)

وقوله تعالى :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

إذن فهذه تثبت أن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة ملاحظ فى التشريع : ملحظ يشرع فيه ما شرع الله تأكيداً له أو أن الله قد شرع إجمالا ، والرسول عين تفصيلا . والأمثلة على ذلك أن الله فرض علينا خمس صلوات ، وفرض علينا الزكاة ، وهذه تكليفات قالها ربنا ؛ والرسول يوضحها : النصاب كذا ، والسهم كذا ، إذن فنحن نطيع ربنا فى الأمر إجمالا ، وتطيع الرسول فى الأمر التفصيلى ، أو أن الأمر لم يتكلم فيه الله حكماً ، وإنما جاء من الرسول تشويض من الله ، ولذلك فإن قال لك أى إنسان عن أى حكم من الأحكام : هات دليله من القرآن ولم تجد دليلاً من القرآن فقل له : دليل أى أمر قال به الرسول من القرآن هو قول الحق :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

هذا دليل كل أمر تكليفى صدر عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد يقول قائل : هناك فارق بين الأمر الثابت بالسنة والفرض نقول : لا تخلط بين السنة وهى الأمر الذى إن فعلت تثاب وإن لم تفعله لا تعاقب ، والفرض الذى يجب على المكلف أن يفعله ، فإن تركه أثم وعوقب على الترك . وهذا الفرض جاء به الحق وأثبته بالدليل كالصلوات الخمس وعدد الركعات فى كل صلاة ، فالدليل فى الفرض هنا ثبت بالسنة وهذا ما يسمى سنية الدليل ؛ وهناك فرق بين سنية الحكم كأن يصلى المسلم قبل الظهر ركعتين وقبل الصبح ركعتين وفرضية الحكم كصلاة الصبح والظهر . . إذن ففيه فرق بين الشىء الذى إن فعلته تثاب عليه وإن لم تفعله لا تعاقب عليه والشىء الذى يفرض عليك أداؤه ، فإن تركته أثمت وعوقبت ، وأما سنية الدليل فهى شرح ما جاءت به الفروض شرحاً تطبيقياً ليتبعه المسلمون .

أما الأمر بطاعة أولى الأمر فقد جاءت بالعطف على المطاع دون أمر بالطاعة ، مما يدل على أن طاعة ولىّ الأمر ملزمة إن كانت من باطن طاعة الله وطاعة رسوله ، وفى ذلك عصمة للمجتمع الإيمانى من الحكام المتسلطين الذين يحاولون أن يستغلوا الناس بقول الله . « ولولى الأمر » ويدعون أن طاعتهم واجبة ، يقول الواحد منهم : ألستُ ولى أمر ؟ . فيرد العلماء . نعم أنت ولى أمر ولكنك معطوف على المطاع ولم يتكرر لك أمر الطاعة ، فدلّ ذلك على أن طاعتك واجبة إن كانت من باطن الطاعتين فإن لم تكن من باطن الطاعتين فلا طاعة لك ، لأن القاعدة هى « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » ، هكذا قال أبو حازم لمسلمة بن عبدالملك حينما قال له : ألست ولاة الأمر وقد قال الله : « وأولى الأمر » . قال : ويجب أن نعلم أيضاً إلى أنها مرت فى قوله سبحانه . « فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول » إذن فالحاكم المسلم مطالب أولاً بأداء الأمانة ، ومطالب بالعدل ، ومطالب أيضاً أن تكون طاعته من باطن طاعة الله وطاعة رسوله . فإن لم تكن فيه هذه الشروط ، فهو حاكم متسلط .

« فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول » إذن فالتنازع لابد من أن يكون فى قضية داخلة فى نطاق مأمورات الطاعة ، ويجب أن يكون له مردّ ينهى هذا التنازع « فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » .

والذين يعرفون هذه الأحكام هم العلماء ، فإن تنازع المحكوم مع الحاكم تذهب إلى العلماء ليبينوا لك حكم الله فى هذه المسألة . إذن فإن أريد بـ « أولى الأمر » الحاكم ، نقول له : « فردوه إلى الله والرسول » أى على الحاكم أن يتبع ما ثبت عن الله والرسول ، والحجة فى ذلك هم العلماء المشتغلون بهذا الأمر ، وهم الملاحظون لتنفيذ حكم الله بما يعرفونه عن الدين . والحق سبحانه وتعالى حين يطلب منا ذلك ، يريد أن ينهى مسألة التنازع ، لأن التنازع يجعل حركات الحياة متضاربة ، هذا يقول بكذا وذلك يقول بكذا ، فلا بد أن نرده إلى مردّ أعلى ، والحق يقول .

﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾

(من الآية ٨٣ سورة النساء)

إذن فقد يكون المراد بأولى الأمر « العلماء »

نقول : إن الآية الأولى عامة وهى التى جاءت بها طاعة ولى الأمر ضمن طاعة الله والرسول ، والثانية التى تخص الاستنباط يكون المقصود بأولى الأمر هم العلماء

و أولوا الأمر فى القضية الأولى التى عندما تنازع معهم فى أمر نرده إلى الله والرسول هم الذين يشرفون على تنفيذ أحكام الله ، وهذه سلطة تنفيذية ، أما سلطة العلماء فهى تشريعية إيمانية .

« فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » إذن فالذى لا يفعل ذلك يجازف بأن يدخل فى دائرة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، ونقول لكل منهم : راجع إيمانك بالله واليوم الآخر ـ ابتداءً فى تلقى الحكم ، وإيمانا باليوم الآخر ـ لتلقى الجزاء على مخالفة الحكم ، فالحق لم يجعل الدنيا دار الجزاء .

ويبهب الحق فى ختام الآية : « ذلك خير وأحسن تأويلاً » أى فى ذلك خير للحكام وللمحكومين معاً ؛ لأن الخير هو أن يقدر الإنسان ما ينفعه فى الدنيا والآخرة ، وكل شهوة من الشهوات إن قدرت نفعها فلن تنفعك سوى لحظة ثم يأتى منها الشر .

والتأويل هو : أن نُرْجع الأمر إلى حكمه الحقيقى ، من « آل » يئول إذا رجع . « وأحسن تأويلا » تعنى أحسن مَرْجعاً وأحمد مغبة وأجمل عاقبة ؛ لأنك إن حرصت بما تريد على مصالح دنياك ، فما ترجع إليه سيكون فيه شر لك إذن فالأحسن لك أن تفعل ما يجعلك من أهل الجنة ، أو « وأحسن تأويلا » فى الاستنباط ، لأن العلماء سيأخذونه من منطلق مفهوم قول الله وقول الرسول ، وأنت ستأخذها بهواك ، وفهمك عن الله يمنعك من الشطط ومن الخطأ .

فإن كنتم تريدون الخير فلاحظوا الخير فى كل أحيانه وأوقاته ، ولا ينظر الإنسان إلى الخير ساعة يؤدى له ما فى هواه ، ولكن لينظر إلى الخير الذى لا يأتى بعده شر . وإذا ما نظرنا تاريخ الكثير من الحكام ووجدناهم قد أمنوا على انتقادهم فى حياتهم بما فرضوه من القهر والبطش ، فلما ماتوا ظهرت العيوب ، وظهرت الحملات ، إن الواجب على من يحكم أن يعتبر بما سمع عمن حكم قبله . فالذى حكم قبله كمم الأفواه وكسر الأقلام ، وبعدما انتهى ، طالت الألسنة وكتبت الأقلام ، فيجب أن

نحسن التأويل وأن ننظر إلى المرجع النهائى ، فمن استطاع أن يحمى نفسه فى حياته بسطوته وجبروته لا يستطيع أن يحمى تاريخه وسمعته . إنه بعد أن انتهت السطوة والجبروت قيل فيه ما قيل ، ونحن مازلنا فى الدنيا ولم نذهب إلى الآخرة بعد ؛ فإذا كان هذا هو جزاء الخلق . فما شكل جزاء الحق إذن ؟!

« ذلك خير وأحسن تأويلا » أى مرجعاً وعاقبة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ ﴾

نعرف أن « ألم تر » تعنى : ألم تعلم ، إن كان المعلوم قد سبق الحديث عنه ، أو إن كان المعلوم ظاهراً حادثاً بحيث تراه ، ونعرف أن الحق عبر بـ « ألم تر » فى كثير من القضايا التى لم يدركها المخاطب وهو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليدلنا على أن ما يعلمه الله ـ وإن كان خبراً عن ماض ـ يجب أن نؤمن به إيمانك بالمرئى لك الآن ، لأن الله أوثق فى الصدق من عينك ؛ فعينك قد تخدعك ، لكن حاشا أن يخدعنا الله .

« ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك » والمراد هم المنافقون وبعض من أهل الكتاب الذين زعموا الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وفى الزعم » . مطية الكذب ، فهم « يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك »

وهو القرآن : « وما أنزل من قبلك » ، وهو التوراة والإنجيل و« يريدون » بعد ادعاء الإيمان : « أن يتحاكموا إلى الطاغوت » ، والتحاكم إلى شيء هو . الاستعانة أو اللجوء إلى ذلك لشيء ليقضي قضية الخلاف . فعندما نقول:« تحاكمنا إلى فلان » ، فمعنى قولنا هذا : أننا سئمنا من آثار الخلاف من شحناء وبغضاء ، ونريد أن نتفق إلى أن نتحاكم ، ولا يتفق الخصمان أن يتحاكما إلى شيء إلا إذا كان الطرفان قد أجهدهما الخصام ، فهما مختلفان على قضية ، وأصاب التعب كُلاًّ منهما

« يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت » و« الطاغوت » - كما عرفنا - هو الشخص الذي تزيده الطاعة طغياناً ، فهناك طاغٍ أي ظالم ، ولما رأى الناسَ تخافه استمرأ واستساغ الظلم مصداقاً لقول الحق :

﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الزخرف)

وهذا اسمه « طاغوت » مبالغة في الطغيان . والطاغوت يطلق على المعتدي الكثير الطغيان سواء أكان أناساً يُعبدون من دون الله ولهم تشريعات ويأمرون وينهون ، أم كان الشيطان الذي يُغري الناس ، أم كان حاكماً جبّاراً يخاف الناس شرّه ، وأي مظهر من تلك المظاهر يعتبر طاغوتاً وقالوا : لفظ الطاغوت يستوي فيه الواحد والمثنى والجمع فنقول : رجل طاغوت،ورجلان طاغوت ، ورجال طاغوت ، يأتي للجمع كقوله الحق :

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ ﴾

(من الآية ٢٥٧ سورة البقرة)

ويأتي للمفرد كقوله الحق :

﴿ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة النساء)

إذن مرة يأتي للجمع ومرة يأتي للمفرد ، وفي كل حكم قرآني قد نجد سبباً

خصوصاً نزل من أجله الحكم ، فلا يصح أن نقول : إن حكماً نزل لقضية معينة ولا يُعدَّى إلى غيرها ، هو يُعدَّى إلى غيرها إذا اشترك معها فى الأسباب والظروف ، فالعبرة بعموم الموضوع لا بخصوص السبب .

لقد نزلت هذه الآية فى قضية منافق اسمه « بشر » . حدث خلاف بينه وبين يهودى ، وأراد اليهودى أن يتحاكم إلى رسول الله ، وأراد المنافق أن يتحاكم إلى « كعب بن الأشرف » ، وكان اليهودى واثقاً أن الحق له ولم يطلب التحاكم إلى النبى حباً فيه ، بل حباً فى عدله ، ولذلك آثر من يعدل ، فطلب حكم رسول الله ، أما المنافق الذى يعلن إسلامه ويبطن ويخفى كفره فهو الذى قال : نذهب إلى كعب بن الأشرف الطاغوت ، وهذه تعطينا حيثية لصدق رسول الله فى البلاغ عن الله فى قوله : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

وكون اليهودى يريد أن يتحاكم إلى رسول الله ، فهذه تدل على ثقته فى أن رسول الله لن يضيع عنده الحق ، ولم يطلب التحاكم إلى كبير من كبراء اليهود مثل « كعب بن الأشرف » لأنه يعرف أنه يرتشى .

ويختم الحق الآية : « ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً » فهما حين يتحاكمان إلى الطاغوت وهو « كعب بن الأشرف » ؛ وبعد ذلك يقضى لمن ليس له حق ، سيغرى مثل هذا الحكم كل من به رعبة فى الظلم أن يظلم ، ويذهب له ليتحاكم إليه ! فالضلال البعيد جاء هنا لأن الظلم سيتسلسل ، فيكون على القاضى غير العادل وزر كل قضية يُحكم فيها بالباطل ، هذا هو معنى « الضلال البعيد » ، وليت الضلال يقتصر عليهم ، ولكن الضلال سيكون ممتداً

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى

الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾

وعندما نسمع قول الحق : « تعالوا » ، فهذا يعني نداء بمعنى اقبلوا ، ولكن كلمة « أقبلوا » تعني الإقبال على المساوي لك ، أما كلمة « تعالوا » فهي تعني الإقبال على الأعلى . فكأن لقضايا البشر تشريعاً هابطاً ؛ لأنه من صناعة العقل البشري ، وصناعة العقل البشري في قوانين صيانة المجتمعات ـ على فرض أننا أثبتنا حسن نياتهم وإخلاصهم ـ تكون على قدر مستوياتهم في الاستنباط واستقراء الأحداث .

لكن التشريع حينما يأتي من الله يكون عالياً ؛ لأنه ـ سبحانه ـ لا تغيب عنه جزئية مهما صغرت ، لكن التقنين البشري يوضع لحالة راهنة وتأتي أحداث بعدها تستوجب تعديله ، وتعديل القانون معناه أن الأحداث قد أثبتت قصور القانون وأنه قانون غير مستوعب للجديد ، وهذا ناشيء من أن أحداثاً جدّت لم تكن في بال من قنّن لصيانة المجتمع ، وكان فهمن مشرع القانون الوضعي قاصراً عنها ، كما أن تعديل أي قانون لا يحدث إلا بعد أن يرى المشرع الآثار الضارة في المجتمع ، تلك الآثار التي نشأت من قانونه الأول ، وضغطت أحداث الحياة ضغطاً كبيراً ليعدّلوا في الأحكام والقوانين

أما تشريع الله فهو يحمي المجتمع من أن تقع هذه الأحداث من البداية ، هذا هو الفارق بين تشريع وضعي بشري جاء ليقدنا من الأحداث ، وتشريع ربانى إلهي يقيه من تلك الأحداث . فالتشريع البشري كمثل الطب العلاجي . أما التشريع السماوي فهو كالطب الوقائي ، والوقاية خير من العلاج .

لذلك جاء الحق سبحانه وتعالى بالتشريعات التي تعيننا وتحمينا من شرّ الأحداث ، أي أنه يمنع عن الإنسان الضرر قبل أن يوجد ، وبذلك تتحقق رحمته سبحانه لطائفة من البشر حين أن تعصمهم الأحداث ، بينما نجد للقانون الوضعي ضحايا ، فيرق قلب المشرعين بعد رؤية هؤلاء الضحايا ليضعوا التعديل لأحكام وضعوها من قبل ،

فهى القانون الرضى نجد بشراً يقع عليهم عبء الظلم لأنه قانون لا يستوعب صيانة الإنسان صيانة شاملة ، وبعد حين من الزمن يتدخل المشرعون لتعديل قوانينهم ، وإلى أن يتم التقنين يقع البشر فى دائرة العبث وعدم الحصول على العدل أما الخالق سبحانه فقد برأ وخلق صنعته وهو أعلم بها ؛ لذلك لم يعين أحداً على حساب أحد ؛ فوضع تشريعاته السماوية ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الإسراء)

« شفاء » إذا وجد الداء من غفلة نظراً عليا ، « ورحمة » وذلك حتى لا يأتى الداء الحق سبحانه وتعالى يقول : « وإذ قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا » . إنه ـ سبحانه ـ يصنع من الأحداث ما يفضحهم فيتصرفون بما يكشف نفاقهم ، وبعد ذلك يخطرهم الرسول ويعرف عنهم المجتمع أنهم منافقون

وهم « يصدون عنك صدوداً » أى يُمرضون عنك يا رسول الله لأنهم منافقون ، وكل منافق عنده قضيتان قضية لسانية وقضية قلبية ؛ فهو باللسان يعلن إيمانه بالله وبرسول الله ، وفى القلب تتعارض ملكاته عكس المؤمن أو الكافر ، فالمؤمن ملكاته متساندة ؛ لأن قلبه انعقد على الإيمان ويقود انسجام الملكات إلى الهدى ، والكافر أيضاً ملكاته متساندة ؛ لأنه قال : إنه لم يؤمن ويقوده انسجام ملكاته إلى الضلال ، لكن المنافق يبعثر ملكاته ! ملكة هنا وملكة هناك ، ولذلك سيكونون فى الدرك الأسفل من النار ، الكافر منطفئ مع نفسه ، فلم يعلن الإيمان ؛ لأن قلبه لم يقتنع ، وكان من الممكن أن يقول كلمة الإيمان لكن لسانه لا يرضى أن ينطق عكس ما فى القلب ، وعداوته للإسلام واضحة أما المنافق فيقول بلسانه . أعلن كلمة الإيمان ظاهراً ؛ كى أبعد من هذا الإعلان إلى أغراضى وأن تطبّق عنّ أحكام الإسلام فأنتفع بأحكام الإسلام ، وأنا من صميم نفسى إن وجدت فرصة ضد الإسلام سأنتهزها . ولذلك يقول الحق

﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا

قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾

والمنافقون يواجهون تساؤلاً : إذا دعيتم للطاعوت ليحكم بينكم وتركتم رسول الله ؟ . فقالوا : نحن أردنا إحساناً ، وأن نرفق بك فلا تتعب نفسك بمشكلاتنا ، ونريد أن نوفق توفيقاً بعيداً عنك كيلا تصبك المسائل فتشق عليك ، ولم نرد مخالفة لك ولا تسخطا على حكمك ؛ وهم يقولون هذ بعد أن انفضحوا أمام الناس .

« فكيف إذا أصابتهم مصيبة » والمصيبة هي الأمر يطرأ على الإنسان مما يضرّه في غرضه ؛ ولأنهم منافقون فهم يريدون أن يكون هذا النفاق مكتوماً ، فإذا جاءت حادثة لتفضحهم صارت مصيبة على الرغم من أنّ الحادثة في واقعها ليست مصيبة فعندما تعرف المنافقين وبظهرهم أمام أنفسهم وأمام الناس فنحن نكفى أنفسنا شرّهم . وهم يريدون بالنفاق أموراً لأنفسهم .

وهكذا يكون الكشف لنفاقهم مصيبة بالنسبة لهم ، هم يرون النفاق نفعاً لهم ؛ فيه يستفيدون من أحكام الإسلام وإجرائها وتطبيقها عليهم ، وعندما ينفضح نفاقهم يشعرون بالمصيبة ، مثلهم كمثل لدى ذهب ليسرق ، ثم فوجىء وهو داخل المكان ليسرق أن الشرطة موجودة لتقبض عليه . وهذا في الواقع نعمة لأنها تضرب على أيدى المجرم العابث ، لكنها بالنسبة له مصيبة .

وعندما تحدث لهؤلاء المنافقين مصيبة فهم يحلفون بالله كذباً لأنهم يريدون استدامة نفاقهم . ويحاولون أن يعتذروا عما حدث ، يحلفون بالله إنهم بالذهاب إلى الطاغوت وأرادوا الإحسان والتوفيق بينهم وبين خصومهم . لكن الحق يعلم ما يخفون وما يعلنون

يقول سبحانه :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ ﴾

وماهيك بعلم الله ، ولذلك يقول ربنا :

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة محمد)

يعني . نحن لو شئنا أن نقول لك من هم لقلنا لك ودللناك عليهم حتى تعرفهم بأعيانهم ، ولكن الله ستر عليهم إبقاء عليهم لعلهم يتوبون ، ولتعرفهم من فحوى كلامهم وأسلوبهم .

« أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم » لقد ذهبوا ليتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد ذهبوا إلى هناك لعلمهم أنهم ليسوا على حق ، ولأنهم إن ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسيحكم بالحق ، والحق يضارُهم ويُضايقهم ، فهل كانوا بالفعل يريدون إحساناً وتوفيقاً ، أو كانوا لا يريدون الحق ؟. لقد أرادوا الحكم المزور .

لذلك يأتي الأمر من الحق لرسوله : « فأعرض عنهم » ؛ لأنك إن عاقبتهم فقد أخذت منهم حقك ، والله يريد أن يبقى حقك ليقتص ـ سبحانه ـ لك منهم ، وأعرض أيضاً عنهم لأننا نريد أن يُظهر منهم في كل فترة شيئاً لعلّم المجتمع الإيماني اليقظة إلى أن هناك أناساً مدسوسين بينهم ، لذلك لا بد من الحذر والتدبر كما أنك إذا أعرضت عنهم أسقطتهم من حساب دعوتك .

« وعظهم » أي قل لهم : استحوا من أفعالكم . « وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً » أي قل لهم قولاً يبلغ الغاية من النفس البشرية ويبلغ العاية من الوعظ . أي

يوعدهم الوعيد الذى يخيفهم كى يبلغ من أنفسهم مبلغاً ، أو « قل لهم فى أنفسهم » أى افصح لهم ما يسرون ؛ كى يعرفوا أن الله مطلعك على ما فى أنفسهم فيستحوا من فعلهم ولا يفعلوه ، قل لهم ذلك بدون أن تفضحهم أمام الناس ؛ لأن عدم فضحهم أمام الناس يجعل فيهم شيئا من الحياء ، وأيضاً لأن العظة تكون ذات أثر طيب إذا كان الوعظ فى خلوة مع الموعوظ فيناجيه ولا يفضحه ، ففضح الموعوظ أمام الناس ربما أثار فيه غريزة العناد ، لكن عندما تعظه فى السرّ يعرف أنك لا تزال به رحيماً ، ولاتزال تعامله بالرفق والحسنى .

« وعظهم وقل لهم فى أنفسهم » وإنك لو فعلت ذلك علناً فستعطى الأسوة لغيرك أن يفعل والله قد أطلعك على ما فى قلوب هؤلاء من الكفر أو غيرك فلا يطلعه الله على غيب ولو رمى أحدًا بذنب أو كفر فلعله لا يصادف الحق والواقع وتشريعنا يقول لنا :

« ادرأوا الحدود بالشبهات »

والتطبيق لهذا التشريع نجده عندما يتم القبض على سارق ، لكن هناك شبهة فى الاتهام ، هذه الشبهة يجب أن تفسر فى صالح المتهم ، وندرأ الحد لوجود شبهة ؛ فليس من مصلحة المسلمين أن نقول كل يوم : إننا قطعنا يد سارق أو رجمنا زانية . لكن إذا افتضحت الجرائم وليس فى ارتكابها شبهة والمسألة واضحة فلا بد أن نضرب على أيدى المجرمين . فنحن ندرأ الحد بالشبهة حتى لا يلحق ضرراً أو ينال من بريء ، ويطبق الحد حتى يرتدع كل من تسول له نفسه أمراً محرّما حتى لا يرتكب الأمر المحرّم وعندما يقام الحدّ فى أي بيئة ، فإنه لا يقام إلا لفترة قليلة وتتراجع بعدها الجرائم ، ولا يرى أحد سارقاً أو زانياً

إذن فقول الله . « وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغاً » يعنى . قل لهم ما يهددهم تهديداً يصل إلى أعماق نفوسهم ، أو «وقل لهم فى أنفسهم» بأن تكشف مستورات عيوبهم أو قل لهم فى أنفسهم بينك وبينهم ؛ لأن هذا أدعى إلى أن يتقبلوه منك ولا يوغر صدورهم ويثير فيهم غريزة العناد .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ
ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ
فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ
لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ ﴾

الغرض من إرسال الحق للرسول هو أن يعلم الناس شرع الله المتمثل في المنهج ، وأن يهديهم إلى دين الحق . والمنهج يحمل قواعد هي افعل ، ولا تفعل ، وما لا يرد فيه « افعل ولا تفعل » من أمور الحياة فالإنسان حرّ في اختيار ما يلائمه . وأي رسول لا يأتي بتكليفات من ذاته ، بل إن التكليفات تجيء بإذن الله . وهو لا يطاع إلا بإذن من الله فالرسول صلى الله عليه وسلم جاء بطاعة الله إلا أن يفوّض من الله في أمور أخرى ، وقد فوّض الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله الحق :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

فالمؤمنون برسالة محمد صلى الله عليه وسلم - إذن - عليهم طاعة الرسول في إطار ما فوّضه الله والله أذن له أن يشرع .

ويتابع الحق : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما » وظلم النفس أن تحقق لها شهوة عاجلة لتورثها شقاء دائماً . وظلم النفس أشقى أنواع الظلم ، فمن المعقول أن يظلم الإنسان غيره ، أما أن يظلم نفسه فليس معقولاً . وأي عاصٍ يترك واجباً تكليفياً ويقبل على أمر منهي عنه ، قد يظن في ظاهر الأمر أنه يحقق لنفسه متعة ، بينما هو يظلم نفسه ظلماً فاسياً ؛ فالذي يترك الصلاة ويتكاسل أو يشرب الخمر أو يرتكب أي معصية نقول له : أنت ظلمت نفسك ؛ لأنك طلبت أنك تحقق لنفسك متعة بينما أورثتها

شقاة أعنف وأبقى وأخلد ، ولست أميناً على نفسك .

والنفس ـ كما نعلم ـ تطلق على اجتماع الروح بالمادة ، وهذا الاجتماع هو ما يعطى النفس الإنسانية صفة الاطمئنان أو صفة الأمارة بالسوء ، أو صفة النفس اللوامة . وساعة تأتى الروح مع المادة تنشأ النفس البشرية . والروح قبلها تتصل بالمادة هى حيّرة بطبيعتها ، والمادة قبلها تتصل بالروح حيرة بطبيعتها ؛ فالمادة مقهورة لإرادة قاهرها وتفعل كل ما يطلبه منها . فإياك أن تقول : الحياة المادية والحياة الروحية ، وهذه كذا وكذا . لا .

إن المادة عن إطلاقها حيّرة ، طائعة ، مُسَخَّرة ، عابدة ، مُسَبِّحة . والروح عن إطلاقها كذلك ، فمتى يأتى الفساد ؟ . ساعة تلتقى الروح بالمادة ويوجد هذا التفاعل نقول : أنت يا مكلف ستطمئن إلى حكم الله وتنتهى المسألة أم ستبقى نفسك لوّامة أم ستستمرىء المعصية وتكون نفسك أمارة بالسوء ؟

فمَن يظلم مَن إذن ؟ . إنه هواك فى المخالفة الذى يظلم مجموع النفس من روحها ومادتها ، فأنت فى ظاهر الأمر تحقق شهوة لنفسك بالمخالفة ، لكن فى واقع الأمر أنك تتعب نفسك ، « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم » ولنعلم أن هناك فرقاً بين أن يأتى الفاحشة إنسان ليحقق لنفسه شهوة . وأن يظلم نفسه ، فالحق يقول :

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ١٣٥ سورة آل عمران)

إذن فارتكاب الفاحشة شىء وظلم النفس شىء آخر ، « فعل فاحشة » قد متع إنسان نفسه قليلاً ، لكن من ظلم نفسه لم يفعل ذلك . فهو لم يمتعها ولم يتركها على حالها ، إذن فقد ظلم نفسه ، لا أعطاها شهوة فى الدنيا ، ولم يرحمها من عذاب الآخرة ، فمثلاً شاهد الزور الذى يشهد لأحد واحداً حقّ آخر ، هذا ظلم قاس للنفس ، ولذلك قال الرسول : « بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم يصبح

الرجل مؤمنا ويمسي كافرا ، أو يمسي مؤمنا ويصبح كافرا ، يبيع دينه بعرض من الدنيا »[1] .

« ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله » . وظلم النفس أيضاً بأن يرفع الإنسان أمره إلى الطاغوت مثلاً ، لكن عندما يرفع الإنسان أمره للحاكم ، لا نعرف أيحكم لنا أم لا ، وقد يهديه الله ساعة الحكم .

إن قوله : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك » فالمسألة أنهم امتنعوا من المجيء إليك يا رسول الله ؛ فأول مرتبة أن يرجعوا عما فعلوه ، وبعد ذلك يستغفرون الله ؛ لأن الذنب بالنسبة لعدم مجيئهم للرسول قبل أن يتعلق بالرسول تعلق بمن بعث الرسول ، ولذلك يقولون : إهانة الرسول تكون إهانة للمرسل ، فصحيح أن عدم ذهابهم للرسول هو أمر متعلق بالرسول ولكن إذا صعدته تجده متعلقاً بمن بعث الرسول وهو الله ، لأن الرسول لم يأت بشيء من عنده ، وبعد أن تطيب نفس الرسول فيستغفر الله لهم ، إذن فالأول : يجيئون ، وثانياً : يستغفرون الله وثالثاً يستغفر لهم الرسول

وبعد ذلك يقول سبحانه : « لوجدوا الله تواباً رحيماً » إذن فوجدان الله تواباً رحيماً مشروط بعودتهم للرسول بدلاً من الإعراض عنه ثم أن يستغفروا الله ؛ لأن الله ما أرسل من رسول إلا ليطاع بإذنه ، فعندما تختلف معه لا تقل : إنني اختلفت مع الرسول ؛ لا . إنك إن اختلفت معه تكون قد اختلفت مع من أرسله وعليك أن تستغفر الله .

ولو أنك استغفرت الله دون ترضية الرسول فلن يقبل الله ذلك منك . فلا يقدر أحد أبداً أن يصلح ما بينه وبين الله من وراء محمد عليه الصلاة والسلام .

وحين يفعلون ذلك من المجيء إلى الرسول واستغفارهم الله واستغفار الرسول لهم سيجدون الله تواباً رحيماً ، وكلمة « توّاب » مبالغة في التوبة فتشير إلى أن ذنبهم كبير .

---

(١) رواه مسلم .

إن الحق سبحانه وتعالى خلق خلقه ويعلم أن الأغيار تأتى فى خواطرهم وفى نفوسهم وأن شهوتهم قد تستيقظ فى بعض الأوقات فتنفلت إلى بعض الذنوب ، ولأنه رب رحيم بين لنا ما يمحص كل هذه العملة ، فإذا أذنب العبد ذنباً أيتركه الرحيم يتركه هكذا للذنب ؟ لا إنه سبحانه شرع له العودة إليه ؛ لأن الله يحب أن يتوب عبده ويرجع إليه وإن غفل بمعصيته

إن الحق سبحانه وتعالى يعلمنا كيف نزيل عنا آثار المعاصى ، فقال : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك » فالعلاج من هذه أن يجيئوك لأنهم عقلوا عن أنك تنطق وتبلغ من قِبَل الحق فى التشريع وفى الحكم ، وبعد المجىء يستغفرون الله ويستغفر لهم الرسول ، تأييداً لاستغفارهم لله ، حينئذ يجدون الله تواباً رحيماً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾

إذن لا بد أن نستقبل الإيمان بالإقبال عن كل ما جاء به رسول الله ، فساعة حكم المنافقون غيره برغم إعلانهم للإسلام جاء الحكم بخروجهم من دائرة الإيمان ، وعلى المؤمنين أن يتعظوا بذلك .

ونلحظ فى قول الحق : « فلا وربك » وجود « لا » نافية ، وأنه ـ سبحانه ـ أقسم بقوله . « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك » ، ونعلم أن المنافقين قد دعوا فحكموا غير رسول الله ، مع أنهم شاهدون بأنه رسول الله فكيف يشهدون أنه رسول الله ، ثم يحكمون غيره ولا يرضون بقضائه ؟ وتلك قضية يحكم الحق فيها

يقول . لا . هذه لا تكون أبداً . إذن فـ « لا » النافية جاءت هنا لتنفى إيمانهم وشهادتهم أنه رسول الله ؛ لأنهم حكّموا غيره . فإذا ثبت أنهم شهدوا أنه رسول الله ثم ذهبوا لغيره ليقضى بينهم إذا حدث هذا فحكمنا فى القضية هو : لا يكون هم أبداً شرف شهادة أنه رسول الله .

وبعد ذلك أقسم الحق فقال « وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » ونحن الخلق لا نقسم إلا بالله . لكنه سبحانه له أن يقسم بما شاء على ما يشاء ، يقسم بالمادة الجبلية :

﴿ وَٱلطُّورِ ۝١ ﴾

(سورة الطور)

ويقسم بالذاريات .

﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١ ﴾

(سورة الذاريات)

والذاريات هى الرياح ، ويقسم بالنبات :

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ ﴾

(سورة التين)

ويقسم بالملائكة :

﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ ﴾

(سورة الصافات)

ولكنك إن نظرت إلى الإنس فلن تجده أقسم بأحد من سيد هذا الكون وهو الإنسان إلا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقسم بحياته فقال :

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢ ﴾

(سورة الحجر)

و لعمرك » يعني . وحياتك يا محمد إنهم في سكرتهم يعمهون ، أي هم في غوايتهم وضلالهم يتحيرون فلا يهتدون إلى الحق ، وأقسم الله بعد ذلك بنفسه ، فقال :

﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الذاريات)

وساعة يقول : « فورب السماء والأرض » فلا بد أن يأتي بربوبيته لخلق عظيم نراه نحن ، ولذلك قال

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة غافر)

يعني إذا فكرت أيها الإنسان في خلق السماوات والأرض لوجدته أكبر من خلق الناس .

وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » وهذا تكريم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودليل على أن محمداً عليه الصلاة والسلام ذو منزلة عالية ، إياكم أن تظنوا أنه حين قال « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس » أن محمدا قد دخل في الناس ، إنه سبحانه يوضح . لا ، سأقسم به كما أقسمت بالسماء والأرض . « فوربك لنسئلنهم » ، ولماذا يقسم برب السماء والأرض ؛ لأن الربّ له قدرة عظيمة هائلة ، فهو يخلق ويربي ، ويتعهد ويؤدب

إن خلق السماوات والأرض يكفي فيها الخلق وناموس الكون والتسخير . لكن عندما يخلق محمداً فلا يريد الخلق والإيجاد فقط ، بل يريد تربية فيها ارتقاءات النبوة مكتملة فيقول له : فوربك الذي خلقك ، والذي سواك ، والذي ربّاك ، والذي أهّلك لأن تكون خير خلق الله وأن تكون خاتم الرسل ، ولأن تكون رحمة الله للعالمين ، يقسم بهذا كله فيقول : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » أبعد ما يدخل سبحانه فيما هذه المهابة بالقسم برب رسول الله تقول : لا نحكم محمداً ومنهجه في حياتنا ؟

إذن فقوله . « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » وحَكَّم كل مادتها مثل « الحُكْم » و« التحكيم » و« الحكمة » و« التحكم » وكل هذا مأخوذ من الحَكَمَة وهى حديدة اللجام الذى يوضع فى فم الفرس يمنعه به صاحبه أن يشرد ، ويتحكم فيه يميناً ويساراً ، فكذلك « الحِكْمَة » تعوق كل واحد عن شروده فى أخذ حق غيره . فالتحكيم والحكم ، والحكمة ، كلها توحى بأن تضع الشىء فى موضعه الصحيح .

وكلمة « شجر » مأخوذة من مادة (الشين والجيم والراء) وإذا رأيتها فافهم أنها مأخوذة من الشجر الذى تعرفه . وهناك نباتات لا تلتصق ببعضها ، وهناك نباتات تكبر فيلتصق بعضها ببعض فتتشابك ، كما ترى مثلاً شجراً متشابكاً فى بعضه ، وتداخلت الأفرع مع بعضها بحيث لا تستطيع أيها الناظر أن تقول : إن هذه ورقة هذه الشجرة أو ورقة تلك الشجرة . وإذ ما أثمرتا وكانتا من نوع واحد لا تقدر أن تقول : إن هذه الثمرة من هذه الشجرة ، ولا هذه الثمرة من تلك الشجرة ، أى أن الأمر قد اختلط .

« وشجر بينهم » أى قام نزاع واختلاط فى أمر ، فأنت تذهب لتفصل هذه الشجرة عن تلك ، وهذه الثمرة عن تلك الثمرة ، وساعة ترى أشجاراً من نوع واحد ، وتداخلت مع بعضها واختلطت ، لا يعنيك إن كنت جانى الثمرة أن تكون هذه الثمرة التى قطفتها من هنا أو من هناك ، فأنت تأخذ الثمرة حيث وجدت ، لا يعنيك أن تكون من هذه أو من تلك ، وإن كنت تستظل تحت شجر لا يعنيك أن تعرف هل جاء هذا الظل من ورق هذه الشجرة أو من تلك الشجرة ، فهذه فائدة اختلاط المتساوى ، لكن إذا أردتَ ورقة شجرة من نوع معين فأنتقيها لأنى أريدها لأمر خاص

والخلق كلهم متساوون فكان يجب إن اختلطوا أن تكون المسألة مشاعاً بينهم ، لكن طبيعة النفس الشُحّ ، فتنازعوا ، ولذلك والقاضى لذكى يقول للمتخاصمين : أتريدان أن أحكم بينكما بالعدل أم بما هو خير من العدل ؟ فيفزعان ويقولان : أهناك خير من العدل ؟. يقول : نعم إنه الفضل ، فإذا امت المسألة أخوة واحدة ، والخير عندك كالخير عندى فلا تراع ، أمّا إذا حدث الشجر فلا بد من الفصل

ومن الذى يفصل ؟. إنه سيدنا رسول الله بحكم قول الحق : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » . . فالإيمان ليس قولة تقال فحسب وإنما هو قولة لها وظيفة ، فأن تقول : لا إله إلا الله وتشهد أن محمداً رسول الله فلا بد أن لهذا القول وظيفة ، وأن تُحكِم حركة حياتك على ضوء هذا القول ، فلا معبود إلا الله ، ولا آمر إلا الله ، ولا ناهى إلا الله ، ولا ضار إلا الله ، ولا مشرع إلا الله ، فهى ليست كلمة تقولها فقط ! وينتهى الأمر ، ثم عندما يأتيك أمر يحتاج إلى تطبيقها تفرّ منه . « فلا وربك لا يؤمنون » بمنهج الإسلام « حتى يحكموك » فهذا هو التطبيق « فيما شجر بينهم » ولا يصح أن يحكموك صورياً ، بل لا بُد أن يحكموك برضا فى التحكيم ، « ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً » أى ضيقا « مما قضيت » . فعندما يحكم رسول الله لا تتوانوا عن حكمه ، ولا تصيفوا به « ويسلموا تسليما » أى يُذْعِنوا إذعاناً .

إذن فالإيمان لا يتمثل فى قول يقال وإنما فى توظيف ذلك القول . بأن تلجأ إليه فى العمليات الحركية فى الحياة ، « فلا وربك لا يؤمنون » حتى يترجم الإيمان إلى قضية واقعية اختار الحق لها أعنف ساعات الحرج فى النفس البشرية وهى ساعة الخصومة التى تولد اللدد واميل عن الحق ، « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً » لأنه قد يجد حرجاً ولا يتكلم

وانظروا إلى الثلاثة : الأولى : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك » ، هذه واحدة ، « فاستغفروا الله » هذه هى الثانية ، « واستغفر لهم الرسول » هذه هى الثالثة ، هذه محصلات الذنوب ، والذى يدخلك فى حظيرة الإيمان ثلاثة أيضاً : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » هذه هى الأولى ، « ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت » هذه هى الثانية ، « ويسلموا تسليماً » هذه هى الثالثة إذن فالقولان فى رسول الله صلى الله عليه وسلم . دخول فى حظيرة إيمان ، وخروج من حَلّ ذنب .

وهنا وقفة لا أبالغ إذا قلت : إنها شغلتنى أكثر من عشر سنين ، هذه الوقفة حول قول الله : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيماً » ذلك يلزب تمحيص من عاصر رسولك صلى الله عليه

وسلم ، فما بال الذين لم يعاصروه ؟ فأين المحص الذى يقابل هذا لمن لم يعاصر حضرة النبى صلى الله عليه وسلم ، والرسول إنما جاء للناس جميعاً ، فكيف يوجد محص لقوم عاصروا رسول الله ثم يحرم من جاءوا بعد رسول الله من هذا التمحيص ؟

هذه مسألة ظلت فى ذهنى ولا أجد لها جواباً ، إلا أنى قلت : لقد ثبت عندى وعند بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مطمئنا المؤمنين فى كافة العصور :

(حياتى خير لكم تُحدِثون ويُحْدَثُ لكم فإذا أنا مت كانت وفاتى خيرا لكم تُعْرض علىّ أعمالكم فإن رأيتُ خيرا حمدت الله وإن رأيت شرا استغفرت لكم)[1]

انظر إلى التطمين فى قوله صلى الله عليه وسلم :

(تعرض علىّ أعمالكم فإن رأيت خيراً حمدت الله ، وإن رأيت غير ذلك استغفرت لكم)[2] .

فاستغفار الرسول لنا موجود . إذن فما بقى منها إلا أن نستغفر الله ، وما بقى إلا « جاءوك » أى يجيئون لسنتك ولما تركت منها فصلى الله عليه وسلم هو القائل :

(تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتى ولن يتفرقا حتى يردا علىّ الحوض)[3] .

فكلما كان الأحياء يجيئونه ، فنحن نجىء إلى حكمه وسنته وتشريعه ، وهو يستغفر لنا جميعاً ، إذن فهذه منتهية ، فبقى أن نستغفر الله قائلين : نستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحىّ القيوم ونتوب إليه . . نفصل ذلك إن شاء الله

(١) رواه ابن سعد عن بكر بن عبدالله مرسلا ورمز السيوطى له بالحسن .

(٢) رواه ابن سعد

(٣) رواه الحاكم عن أبى هريرة .

وقوله سبحانه وتعالى : « ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » أى لا يجدوا حرجاً عندما يذعنون لأى حكم تكليفى أو حكم قضائى ، والحكم التكليفى نعرفه فى . افعل ولا تفعل ، أما الحكم القضائى فهو عندما يتنازع اثنان فى شىء وهذا يقتضى أن نقبل الحكم فى النزاع إذا ما صدر عن رسول الله أو عن منهجه إذن فلا بد أن نسلم تسليماً فى الاثنين : فى الحكم التكليفى ، وفى الحكم القضائى .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ ﴾

وهنا يساوى الحق بين الأمر بقتل النفس والأمر بالإخراج من الديار ، فالقتل خروج الروح من الجسد بقوة قسرية غير الموت الطبيعى ، والإخراج من الديار هو الترحيل القسرى بقوة قسرية خارج الأرض التى يعيش فيها الإنسان ، إذن فعملية القتل قرينة لعملية الإخراج من الديار ، فساعة يُقتل الإنسان فهو يتألم ، وساعة يخرج من وطنه فهو يتألم ، وكلاهما شاق على الإنسان ، ويأتى الحق بهذين الحكمين اللذين سبقا فى قوم موسى عليه السلام ، فالحق يقول

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة البقرة)

ويقال : إن قوم موسى عندما سمعوا هذا الحكم قام سبعون ألفاً منهم بقتل أنفسهم ، ونعلم أيضاً أن قوم موسى أخرجوا من ديارهم وذهبوا في التيه يقول سبحانه وتعالى :

قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ

(من الآية ٢٦ سورة المائدة)

أي لا يدخلونها ولا يملكونها . والحق هنا يوضح : أن الإسلام لم يأت بمثل ما جاءت به الشرائع السابقة التي كانت التوبة فيها تقتضي قتل النفس ، تلك الشرائع التي رأت أن النفس تغوى صاحبها بمخالفة المنهج فلا بد أن يقتلها . ومن لطف الله أنه سبحانه لم يصدر علينا مثل هذا الحكم ، ولذلك فسيدنا عبدالله ابن مسعود ، وسيدنا عمار بن ياسر ، وثابت بن قيس ؛ كل هؤلاء قالوا : والله لو أمرنا بهذا لفعلنا ، وقال سيدنا عمر : والله لو أمرنا بهذا لفعلنا والحمد لله الذي لم يفعل بنا ذلك . إذن فهذا لطف ، إنه يمن لهم . لو كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو يخرجوا من ديارهم كما حدث لقوم موسى . ماذا كانوا يفعلون ؟ لكن ربنا استجاب لدعائهم :

﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

لقد استجاب الحق لهم ، لكن ماذا كان يحدث منكم لو كتب عليكم ذلك ؟ وسبب هذه الحكاية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم له ابن عمة اسمه « الزبير بن العوام » وهو من العشرة المبشرين بالجنة ، وهناك واحد آخر اسمه « حاطب بن أبي بلتعة » كانا في المدينة ، ومن زار المدينة المنورة يجد هناك منطقة اسمها « الحرة » وأرضها من حجارة سوداء كأنها محروقة ، وفيها بعض « الخرطان » أي : البساتين ؛ لأنهم يسمون البستان « حائطاً » ، فقد كانوا يخافون من طغيان السيل فيبنون حول الأرض المزروعة حائطاً ، يرد عنها عنف السيل ويحدد الحيازة فيها ، فكان لحاطب بن أبي بلتعة أرض زراعية منخفضة عن أرض الزبير بن العوام ، فالسيل يأتي أولاً من عند

أرض الزبير ثم ينزل إلى أرض حاطب ، ونعلم أن الأمطار تنزل متفرقة فى مكان ثم يتجمع الماء فى جدول صغير يسمونه « شراج » ومنه يروون بساتينهم .

فلما جاء السيل وأرادوا أن يرووا بساتينهم حدث خلاف بين الزبير بن العوام وحاطب بن أبى بلتعة ، فأرض الزبير تعلو أرض حاطب ، وحاطب يريد أن تمر المياه لأرضه أولاً ثم يروى الزبير أرضه بعد ذلك . فلما تحاكما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حكم للزبير فقد كان الحق معه ، ولم يكن الرسول ليلوى الحق لمجرد القرابة ، فمن الناس من يحكم بالظلم ليشتهر بين الناس بالعدل ، فقد يتخاصم ابنه مع واحد آخر ويلحق مع ابنه ، فلكيلا يقول الناس : إنه جامل ابنه . يحكم على ابنه ! وهذا ليس عدلاً ، فالعدل أن تحكم بالحق ثم تطلب من ابنك أن يتنازل عن حقه ليصبح عطاؤه لغيره فضلاً فالشجاعة هى أن تحكم بالحق ، وهناك شجاعة أقوى وهى أن تحكم بالحق وإن كان على نفسك ، لأن الحق أعز من نفسك

ونص هذه الواقعة كما أوردها الإمام البخارى فى صحيحه بسنده قال : « حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهرى قال أخبرنى عروة بن الزبير أن الزبير كان يحدث أنه خاصم رجلا من الأنصار قد شهد بدرًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شراج من الحرة كان يسقيان به كلاهما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير : اسق يا زبير ثم أرسل إلى جارك ، فغضب الأنصارى ، فقال : يا رسول الله أن كان ابن عمتك ؟ فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : اسق ثم احبس حتى يبلغ الجدر فاستوعى رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ للزبير حقه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك أشار على الزبير برأى فيه سعة له وللأنصارى ، فلما أحفظ الأنصارى رسول الله صلى الله عليه وسلم استوعى للزبير حقه فى صريح الحكم ، قال عروة : قال الزبير : والله ما أحسب هذه الآية نزلت إلا فى ذلك « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم »[1] .

فلما حكم رسول الله للزبير بأن يسقى زرعه ثم يرسل الماء إلى جاره لم يعجب ذلك

---

(١) رواه البخارى فى الصلح ومسلم فى الفضائل ، والترمذى فى الأحكام والنسائى فى القضاة وابن ماجه فى المقدمة

حاطب بن أبي بلتعة ، فقال : لأن كان ابن عمتك ، والعربي يقول الكلمة ويترك لنباهة السامع أن يستنبط الباقي ، وكأنه يعني : حكمت له لأنه ابن عمتك ولرى شدقيه ، فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لحظة عدمه أن ابن أبي بلتعة لم يقدر عدالة الحق والحكم . وكان كثير من الناس ممن كانوا يتصيدون للإسلام يقولون : هو قد حكم أولاً أن يروى الزبير ثم يطلق الماء لحاطب ، فلما عصب حاطب بن أبي بلتعة قال له : اسق يا زبير واستوف حقك ، وخذ من الماء ما يكفيك ثم أرسله لجارك ، فقالوا . لماذا حكم أولاً بأن يسقي ثم يرسل الماء إلى جاره ثم عدل في الحكم ؟

الناس لم تفهم أن أرض الزبير عالية بينما أرض حاطب منخفضة ، وانتم إذا نظرتم إلى أي وادٍ ، تجدون الخضرة والخصب في بطن الوادي وليس في السفح ؛ لأن الماء وإن جاء من الأرض العالية سينزل إلى الأرض المنخفضة ، وإذا رويت المنخفض أولا وأعطيته لا يصيب العالي شيء .

إذن فالحكم الأول كان مبنياً على التيسير والتفضل من الزبير ، والحكم الثاني جاء مبنيًا على العدل ، ورسول الله بالحكم الثاني - وهو أن يستوفي الزبير حقه ويأخذ من الماء ما يكفيه - كأنه قال له : سنعدل معك بعدما كنا تجاملك ، فقال الحق سبحانه وتعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً »

وإذا كان هذا هو الأمر فكيف لو فعلنا بهم مثلما فعل الرسول من الأمم السابقة؟ عندما أمروهم أن يقتلوا أنفسهم أو أن يخرجوا من ديارهم، هذا الحكم لم يفعله إلا عدد قليل منهم وهم الثابتون في الإيمان . وهكذا نعلم أن الحق لم يحمل الأمة من ممتثلين ملزمين يؤدون أمر الله كما يجب .

« ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به » ولو فرضنا أن الله قال . اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ثم بعد ذلك فعلوه لوجدوا في ذلك الخير عما كان في بالهم ؛ لأن النفس يجب أن تعطى إلى أن تسأل نفسها ما غاية المؤمن حين يؤمن بإله ؟ وما غاية هذا الإيمان ؟

أنت فى دينك تعيش مع أسباب الله المخلوقة لك ، وحين تنتقل إلى الله تعيش مع المسبب ، فيا الذى يحزنك عندما قال لك : اقتل نفسك ؟ إنه قال لك : اقتل نفسك لماذا ؟ لأنك تنتقل للمسبب وتحيا دون تعب .

إن الحكم من الله هو ارتقاء بالإنسان ، ونحن فى حياتنا الدنيا نجد من يدق الجرس فيأتيه الطعام ، ويدق الجرس فيأتيه الشاى ، ويدق الجرس فتأتيه الحلوى . لكن لا يمكن أن ترتقى الدنيا إلى أن يوجد ارتقاء بحيث إذا خطر الشىء ببال الإنسان وُجد الشىء أمامه ، فلا يدق جرسا ولا يجهد نفسه ، فيالله الذى يعيش فى الأسباب ثم نريد أن ننقله إلى أن يعيش مع المسبب ، فهل هذه تحزنه ؟ لا ؛ لأنهم سيجدون خيرا أكثر .

إنك : لو قارنت الأمر لوجدت الذى عمرها بالنسبة لك مظنون ، ومحدود ، ونعيمك على قدر إمكاناتك . لكنك حين تنتقل إلى لقاء الله لا تكون محدوداً ، لا بعمرك ولا بامكاناتك بل تعيش زمناً ليس له حدود ، وتنعم فيه على قدر سعة فضل الله .

« ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً » . وهذا الخبر أشد تثبيتاً لغيرهم ؛ لأن من يرونهم ينفذون حكم الله . فلا بد أنهم وثقوا أنهم سيذهبون إلى خير مما عندهم إذن فهو يثبت من بعدهم . أو المعنى : لو أنهم فعلوا ما أمروا به من اتباع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وطاعته والانقياد لما يراه ويحكم به لأنه الذى لا ينطق عن هوى لكان ذلك خيرا لهم فى دنياهم وأخراهم وأقوى وأشد تثبيتا واستقرارا للإيمان فى قلوبهم وأبعد عن الاضطراب فيه .

﴿ وَإِذًا لَّآتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ ﴾

فهم إذا فعلوا ما يوعظون به ، « وإذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيم » وساعة تسمع

« من لدنّا » اعرف أنها ليست من شأن ولا فعل الخلق بل من تفضل الخالق فالخلق سبحانه وتعالى يوصل لنا منهجه بوساطة الرسل ، لكنه يرضح أن بعضاً من الناس منحهم عطفاً وأعطاهم من لدنه علماً ، فهو القائل :

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

أى أن العلم الذى أعطاه الله لذلك العبد لم يَعْلَمْه موسى ، وعطاء الله للعلم خاضع لمشيته ، ونعرف من قبل أن الحسنات والأعمال لها نظام ، فمن يعمل خيراً يأخذ مقابله كذا حسنة ، ولكنّ هناك أعمال حسناتها من غير حساب ويجازى عليها الحق بفضله هو . واضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ نحن نجد ذلك متمثلاً لنا فى كثير من تصرفاتنا ، تقول لابنك مثلاً : يا بنى كم أجرك عندى من هذا العمل ؟ فيقول لك . مائة جنيه . فتقول له : هذه مائة هى أجرك ، وفوقها خمسون من عندى أنا ، ماذا تعنى « من عندى أنا » هذه ؟ إنها تعنى أنه مبلغ ليس له دخل بأجر العمل

« ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم » لقد عرفنا من قبل أن هناك فرقًا بين القتل والموت ، صحيح أن كليهما فيه إذهاب للحياة ، لكن الموت إذهاب للحياة بدون نقض البنية للجسم ، ولكن القتل إذهاب للحياة بنقض البنية كأن يكسر إنسان رأس إنسان آخر ، أو يطلق رصاصه توقف قلبه ، وهذا هدم للبنية ، والروح لا تحل إلا فى بنية لها مواصفات ، والروح لم تذهب أولاً . بل إن البنية هدمت أولاً . فلم تعد صالحة لسكنى الروح ، والمثل المعروف هو مصباح الكهرباء : إنك إن رميت عليه حجرًا صغيرًا ، يكسر ويتطفىء النور برغم أن الكهرباء موجودة لكنها لا تعطى نوراً إلا فى وعاء له مواصفات خاصة ، فإذا ذهبت هذه المواصفات الخاصة يذهب النور ، فتأتى بمصباح جديد له المواصفات الخاصة الصالحة فتجد النور قد جاء .

وكذلك الروح لا تسكن إلا فى جسم له مواصفات خاصة ، فإن جئت لهذه المواصفات الخاصة وسيدها المخ ، وضربته ضربة قاسية ، فقد نقضت البنية ، وفى هذه الحالة تغادر الروح الجسد لأنه غير صالح لها ، لكن الموت يأتى من غير نقض

للبنية ، ومصداق ذلك هو قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة آل عمران)

أى أن هناك أمرين : هناك موت ، وهناك قتل ، فالموت هو سلب الحياة ، والقتل هو سلب الحياة ، ولكن القتل سلب الحياة بعد نقض البنية التى تسكن فيها الروح ، ويختلف عن الموت لأن الموت هو خروج الروح دون قتل ، ولذلك يقولون : مات حتف أنفه ، أى مات على فراشه ولم يحدث له أى شىء .

والذى يُقتل فى الشهادة يقول فيه ربنا :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فإذا كان من يقاتل فى سبيل الله قد امتثل لأمر الله فسوف يجد فضلاً أكثر ، فكيف يكون جزاء من يقتل نفسه امتثالا لأمر ربه ؟ إن امتحان النفس يكون بالنفس ، وليس امتحان النفس بالعدو وما الميزة فى سيدنا إبراهيم ؟ هل قال له الحق : انا سأميت ولدك ؟ أقال له إن واحداً آخر سيقتل ابنك ؟ لا ، بل قال له : اذبحه أنت وهذه هى ارتقاء قتل النفس ، ففدى الحق إسماعيل عليه السلام بكبش عظيم . إذن فإذا جاء الأمر بأن يقتل الإنسان نفسه فلا بد أن هناك مرتبة أعلى . « ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتاً ، وإذاً لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما » ويقول الحق بعد ذلك .

﴿ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ ﴾

ونحن أمام أمرين : إما أن يقتلوا ، وإما أن يخرجوا من ديارهم ، فقوله : « ولهديناهم صراطاً مستقيماً » لمن ؟ للذى قُتِل أم لمن خَرَج ؟ هو قول لمن أخرج من ديارهم لأنه مازال على قيد الحياة

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾

والفعل هنا : « يطع » والمطاع هو : الله والرسول ، أى أن هذا الأمر تشريع الله مع تطبيق رسوله ، أى بالكتاب والسنة ، وساعة تجد الرسول معطوفاً على الحق بدون تكرير الفعل فاعلم أن المسألة واحدة .. أى ليس لكل واحد منهما أمر ، بل هو أمر واحد ، قول من الله وتطبيق من الرسول لأنه القدوة والأسوة ، ولذلك يقول الحق فى الفعل لواحد :

﴿ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ ﴾ (من الآية ٧٤ سورة التوبة)

فما أغناهم الله غنىً يناسبه وأغناهم الرسول غنىً ينسبه فالفعل هنا واحد . فالغنى هنا من الله ورسوله ؛ لأن الرسول لا يعمل إلا بإذن ربه وامتثالا لأمره ، فتكون المسألة واحدة

هناك قضية تعرض لها الكتاب وهى قضية قد تشغل كثيراً من الناس الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان مجلسه صلى الله عليه وسلم لا يُصد

عنه قادم ، يأتى فيجلس حيث ينتهى به المجلس ، فالذى يريد النبى دائما يستمر فى جلوسه ، والذى يريد أن يراه كل فترة يأتى كلما أراد ذلك.فثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قليل الصبر عنه ، فأتاه يوما ووجهه متغير وقد نحل وهزل جسمه ، وعُرف الحزن فى وجهه ، فسأله النبى قائلا : ما بك يا ثوبان ؟ فقال والله ما بى مرض ولا علة ، ولكنى أحبك وأشتاق إليك ، وقد علمت أنى فى الدنيا أراك وقتما أريد ، لكنك فى الآخرة ستلهب أنت فى عليين مع النبيين ، وإذ دخلت الجنة كنت فى منزل دون منزلك ، وإن لم أدخل فذاك حين لا أراك أبدا

ونص الحديث كما رواه ابن جرير ـ بسنده ـ عن سعيد بن جبير قال . « جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وهو محزون ـ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « يا فلان مالى أراك محزونا » ؟ فقال : يا نبى الله شىء فكرت فيه فقال . « ماهو » ؟ قال : نحن نغدو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك ، وغدا تُرفع مع النبيين فلا نصل إليك ، فلم يرد عليه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ شيئا فأتاه جبريل بهذه الآية : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين » . فبعث النبى صلى الله عليه وسلم إليه فبشره[1] » .

وكيف تأتى هذه على البال ؟! إنه إنسان مشغول بمحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وفكر : هل ستدوم له هذه النعمة ؟ وتفكر فى الجنة ومنازلها وكيف أن منزلة الرسول ستعلو كل المنازل . وثوبان يريد أن يطمئن على أن نعمة مشاهدته للنبى صلى الله عليه وسلم لن تنتهى ولن تزول منه ، إنه يراه فى الدنيا ، وبعد ذلك ماذا يحدث فى الآخرة . فإما أن يدخل الجنة أو لا يدخلها ، إن لم يدخل الجنة فلن يراه أبداً . وإن دخل الجنة والنبى فى مرتبة ومكانة عالية . فماذا يفعل ؟

انظر كيف يكون الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالله سبحانه وتعالى يلطف بمثل هذا المحب الذى شغل ذهنه بأمر قد لا يطرأ على بال الكثيرين ، فيقول الحق سبحانه وتعالى تطمينا لهؤلاء : « ومن يطع الله والرسول فأولئك » أى المطيعون

(١) رواه ابن جرير

لله والرسول « مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » والمسألة جاءت خاصة بثوبان ، بعد أن نبه الأذهان إلى قضية قد تشغل بال المحبين لرسول الله ، فأنت مع من أحببت ، ولكن الأمر لا يقتصر على ثوبان لقد كان كلام ثوبان سبباً في الفتح والتطمين لكل الصديقين والشهداء والصالحين وهي أصناف تستوعب كل المؤمنين ، فأبو بكر الصديق صِدِّيقٌ لماذا ؟ لأنه هو : المبالغ في تصديق كل ما يقوله سيدنا رسول الله ، ولا يعرض هذا القول للنقاش أو للتساؤل : أي هذه تنفع أو لا تنفع ؟ فعندما قالوا لسيدنا أبي بكر إن صاحبك يدعي أنه أتى بيت المقدس وعاد في ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل ، ماذا قال أبو بكر ؟ قال : إن كان قال ذلك لقد صدق

لم يعلل صدقه إلا بـ « إن كان قد قال ذلك » ، فهذا هو الصديق الحق ، فكلما قال محمد شيئا صدقه أبو بكر ، وأبو بكر ـ رضوان الله عليه ـ لم ينتظر حتى ينزل القرآن مصدقا للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل بمجرد أن قال صلى الله عليه وسلم : إني رسول . قال أبو بكر . نعم . إذن فهو صديق .

لقد كانت هناك تمهيدات لأناس سَبَقوا إلى الإسلام ؛ لأن أدلتهم على الإيمان سبقت بعثة الرسول ، هم جربوا النبي عليه الصلاة والسلام ، وعرفوه ، فلمّا تحدث بالرسالة ، صدقوه على الفور ؛ لأن التجارب السابقة والمقدمات دلت على أنه رسول ، ومثال ذلك : سيدتنا خديجة ـ رضوان الله عليها ـ ماذا قالت عندما قال لها النبي : إنه يأتيني كذا وكذا وأخاف أن يكون هذا رئيًّا ومَسًّا من الجن يصيبني

فقالت خديجة « كلا والله ما يُخزيك الله أبدا ؛ إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكلّ ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق »[1] . وهذا أول استنباط فقهي في الإسلام .

هذا هو معنى « مع النبيين والصديقين » ، « والشهداء » هم الذين قتلوا في سبيل الله ، لكن على المؤمن حين يقاتل في سبيل الله ألا يقول . أنا أريد أن أموت شهيداً . ويلقي بنفسه إلى التهلكة ، إياك أن تفهمها هكذا ، فأنت تدافع عن رسالة ولا بد أن تقاتل عدوك بدون أنك تمكنه من أن يقتلك ؛ لأن تمكينه من قتلك ، يفقد المسلمين

(١) رواه البخاري

مقاتلاً . فكما أن الشهداء هم فضل ؛ فالذين بقوا بدون استشهاد لهم فضل . فالإسلام يريد أدلة صدق على أن دعوته حق ، وهذه لا يثبتها إلا الشهداء .

لكن هل يمكن أن نصبح جميعاً شهداء ؟ ومن يحمل منهج الله إلى الباقين ؟ إذن فنحن نريد من يبقى ومن يذهب للحرب ، فهذا له مهمة وهذا له مهمة ، ولذلك كانت « التقية » وهي أن يظهر رغبته عن الإسلام ويوالي الكفار ظاهرا وقلبه مطمئن بالعداوة لهم انتظارًا لزوال المانع وذلك استبقاء لحياته كي يدفع ويجاهد في سبيل الله . وسببها أن الإسلام يريد من يؤكد صدق اليقين في أن الإنسان إذا قتل في سبيل الله ذهب إلى حياة أفضل وإلى عيش خير ، هذا يشته الشهيد . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى عندما تأتيهم عرفرة الشهادة يريهم ما هم مقبلون عليه ، فيتلفظون بألفاظ يسمعها من لم يقبل على الشهادة ، فهناك من يقول هيى يا رياح الجنة ، ويقول كلمة يتبين منها أنه ينظر إلى الجنة كي يسمع من خلفه ، ومفرد شهداء ، إما شهيد وهو الذي قتل في سبيل الله ، وإمّا هي جمع شاهد ، فيكون الشهداء هم الذين يشهدون عند الله أنهم بلغوا من بعدهم كما شهد رسول الله أنه بلغهم .

والمعاني كلها تدور حول معنى أن يشهد شيئاً يقول به وبذلك نعرف أننا نحتاج إلى الاثنين . من يقتل في سبيل الله ، ومن يبقى بدون قتل في سبيل الله ؛ لأن الأول يؤكد صدق اليقين بما يصير إليه الشهيد ، والثاني يُعطينا بقاء تبليغ الدعوة فهو شاهد أيضاً :

﴿ لِتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١٤٣ من سورة البقرة)

و« الصالحين » والصالح هو المؤهل لأن يتحمل مهمة الخلافة الإيمانية في الأرض . فكل شيء يؤدي نفعاً يتركه على حاله ، وإن أراد أن يزيد في النافع فليرق النفع منه ، فمثلاً : الماء ينزل من السماء ، وبعد ذلك يكون جداول ، ويسير في الوديان ، وتمتصه الأرض فيخرج عيوناً ، فعندما يرى عيناً للمياه فهو يتركها ولا يردمها فيكون قد ترك الصالح على صلاحه ، وهناك آخر يرقى النفع من تلك النعمة فيبني حولها كي يحافظ عليها . إذن فهذا قد أصلح بأن زاد في صلاحه .

وهناك ثالث يقول - بدلاً من أن يأتى الناس من أماكنهم متعبين بدوابهم ليحملوا الماء فى القِرَب أو على رءوس الحاملين ، لماذا لا أستخدم العقل البشرى فى الارتقاء بحياة الناس لينقل الماء إلى الناس فى أماكنهم ، وهنا يصنع الصهاريج العالية ويصلها بمواسير وأنابيب إلى كل من يريد ماء فيفتح الصنبور ليجد ما يريد . ومن فعل ذلك يسّر على الناس ، فيكون مصلحاً بأن جاء إلى الصالح فى ذاته فزاده صلاحاً .

ويختم الحق الآية بقوله : « وحسن أولئك رفيقاً » و« أولئك » تعنى النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، ولا توجد رفقة أفضل من هذه ، والرفيق هو : المرافق لك دائماً فى الإقامة وفى السفر ، ولذلك يقولون خذ الرفيق قبل الطريق ، فقد تتعرض فى الطريق لمتاعب ومراقيل ، لأنك خرجت عن رتابة عادتك فخذ الرفيق قبل الطريق . ونعرف أن الأصل فى المسائل المعنوية : كلها منقولة من الحسيات ، وفى يد الإنسان يوجد المرفق . . يقول الحق :

﴿ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾

(من الآية ٦ سورة المائدة)

وساعة يكون الواحد مرهقاً ورأسه منحنياً يكئ على مرفقه ليستريح ، وساعة يريد أن ينام ولم يجد وسادة يكئ على مرفقه أيضاً . إذن فالمادة كلها مأخوذة من الرفق ، فالرفيق مأخوذ من الرفق و« المرافق » مأخوذة من الرفق لأنها ترفق بالجسم وتريحه ، وفى كل بيت توجد المرافق وهى مكان إعداد الطعام وكذلك دورة المياه ، وفى الريف تزيد المرافق ليوجد مكان لمبيت الحيوانات التى تخدم الفلاح ، وبيوت الفقراء قد تكون حجرة واحدة فيها مكان للنوم ، ومكان الأكل ، وقد يربط الفقير حماره فى زاوية من الحجرة ، لكن عندما يكون ميسور الحال فهو يمد بيته بالمرافق المكتملة . أى يكون فى المنزل مطبخ مستقل ، ومحل لقضاء الحاجة ، وحظيرة مستقلة للمواشى ، وكذلك يكون هناك مخزن مستقل ، وهذه كلها اسمها « مرافق » لأنها تريح كل الناس .

إذن فقوله . « وحسن أولئك رفيقا » مأخوذة من الرفق وهو . إدخال اليسر ، والأنس ، والراحة ، ويكون هذا الإنسان الذى أطاع الله ورسوله بصحبة النبيين ،

والصديقين ، والشهداء ، والصالحين .

وقد يقول قائل . كيف يجتمع كل هؤلاء فى منزلة واحدة ؛ على الرغم من اختلاف أعمالهم فى الدنيا ، أليس الله هو القائل :

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النجم)

ونقول : مادام المؤمن أطاع الله وأطاع الرسول ، أليس ذلك من سعيه ؟ فهذه الطاعة والمحبة لله ولرسوله هى من سعى العبد ؛ وعلى ذلك فلا تناقض بين الآيتين ؛ لأن عمل الإنسان هو سعيه ، ويصبح من حقه أن يكون فى معية الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين . وقد تكون الصحبة تكريما لهم جميعا ليأنسوا بالصحبة ، وهذه المسألة ستشرح لنا قوله :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

فساعة يرى واحد منزلته فى الآخرة أعلى من آخر ، إياك أن تظن أنه سيقول . منزلتى أعلى من هذا ؛ لأنه مادام قد ترك الأسباب فى الدنيا وعاش مع مسبب الأسباب ، فهو من حبه لله يحب كل من سمع كلام ربنا فى الدنيا فيقول لكل محب لله : أنت تستحق منزلتك ، ويفرح لمن منزلته أعلى منه

واضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ لنفرض أن هناك فصلاً فيه تلاميذ كثيرة ، بعضهم يحب أن ينجح فقط ، وبعضهم يحب العلم لذات العلم ، وعندما يجد عشاق العلم تلميذاً نجيباً ، أيكرهونه أم يحبونه ؟ إنهم يحبونه ويسألونه ويمرحون به ويقولون : هذا هو الأول علينا ؛ لأنه لا يحب نفسه بل يحب الآخرين ، فكذلك المؤمن الذى يكون فى منزلة بالجنة ويرى غيره فى منزلة أعلى ، إياك أن تقول إن نفسه تتحرك عليه بالغيرة ، لا . لأنه من حب لربه وتقديره له يحب من كان طائعاً لله ويفرح له ، مثله مثل التلميذ الذى ينال مرتبة عالية فيحب التفوق للآخرين من غير حقد . وهكذا بعد أن نأتى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها لا نخدش قول الحق : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » .

وهناك بحث آخر فى قوله الحق « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » . فـ « اللام » تفيد الملك والحق ، كقولنا : ليس لك عندى إلا كذا ، أى أن هذا بحقك ، فقوله : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » أى هى حق للمؤمن وقد حددت العدل فى الحق ولم تحدد الفضل ، ولذلك قال بعدها :

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾

فالفضل من الله يستمد حيثيته من سعى الإنسان ، فقوله : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » حددت الحق الذى لك والذى توجبه عدالة التكليف ، لكن ربنا لم يقل . إن هذا العطاء لك من الحق والعدل ، بل هو من الفضل ، والفضل من الله هو مناط فرح المؤمن ؛ لأنك مهما عملت فى التكليف فلن تؤديه كما يجب بالنسبة لله ، ولذلك أوضح سبحانه لنا نسهوا . أنا كلفتكم وقد تعملون وتجتهدون ، لكن لا تفرحوا بما سيجمعه هذا العمل من حسنات ، ولكن سيكون فرحكم بما يعطيكم ربكم من فضله قال سبحانه .

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة يونس)

وذلك الفضل من الله يرد على من يقول : كيف يجىء « ثوبان » أو مَن دون « ثوبان » ويكون فى الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء ومع الصالحين ، ونقول : لو لم تكن منزلته أدنى لما كان فى ذلك تفضل ، إنه ينال الفضل بأن كانت طاعته لله ولرسوله فوق كل طاعة ، أما حبه لله وللرسول ، فهذا من سعيه وعمله بتوفيق الله له ـ وما توفيقى إلا بالله ـ والفضل هو مناط فرح المؤمن ، « ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما » . ونحن نرضى ونفرح ونكتفى بعلم الله ؛ لأنه سبحانه يرتب أحكامه على علم شامل ومحيط ، ويعرف صدق الحب القلبى وصدق المودة ،

وصدق تقدير المؤمن لمن زاد عنه فى المنزلة .

وبعد أن أمّن الحق لنا داخلية وطننا الإيمانى ، وتجمعنا الإسلامى بالأصول التى ذكرها ، وهى : أن نؤدى الأمانات ، وإذا أديت الأمانات فلن نحتاج إلى أن نتقاضى ، فإذا عقل بعضنا ولم يؤد أمانة ، وحدث نزاع فسيأتى الحكم بالعدل . وبعد ذلك نحتكم فى كل أمورنا إلى الله وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا نحتكم إلى الطواغيت ، وهات لى مجتمعا إيمانيا واحدا يؤدى الأمانة ولا يشعر بالاطمئنان .

وعرفنا أن الأمانة هى حق لغيرك فى ذمتك أنت تؤديه ، وكل ما عداك غير . وأنت غير بالنسبة لكل ما عداك ، فتكون كلها مسألة فى الخير المستطرق للناس جميعا ، وإذا حدثت عملة يأتى العدل . والعدل يحتاج حكم ، وعندما نأتى لنحكم نحتكم لله ولرسول ، وإياك أن تتحاكم إلى الطاغوت . وكان « كعب بن الأشرف » يمثل الطاغوت سابقا ، والآن أيضا يوجد من هم مثل كعب بن الأشرف . بل هناك طواغيت كثيرة .

إنك إذا رأيت خللاً فى العالم الإسلامى فاعلم أن هناك خللاً فى تطبيق التكليف الإسلامى ، فكيف نستقيم لنا الأمور ونحن بعيدون عن منهج تكاليف الإسلام المكتملة ؟ ولو استقامت الأمور لكانت شهادة بأن هذا المنهج لا ضرورة له . لكن إذا حدث شىء فهذا دليل صدق التكليف .

وبعد أن طمأننا على المصير الأخروى مع النبيين والصديقين والشهداء أوضح سبحانه : لاحظوا أن كل رسالة خير تأتى من السماء إلى الأرض ما جاءت إلا لمحاربة فساد وقضاء على فساد طام فى الأرض ؛ لأن النفس البشرية إما أن يكون لها وازع من نفسها بحيث إنها قد تهم مرة بمعصية ثم توبخ نفسها وتعود إلى المنهج ، فتكون مناعتها ذاتية ، وإما أن المناعة ليست ذاتية فى النفس بل ذاتية فى البيئة ، فمثلاً نجد واحداً لا يقدر على نفسه لكنه يجد واحداً آخر يقول له : « هذا عيب » وهذا يعنى أن البيئة مازال فيها خير ، وكانت الأمم السابقة قد خلت من المناعة وصارت على هيئة ومسلك واحد وهو ما يصوره الحق بقوله :

﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة المائدة)

إذن فقد فسدت مناعة الذات ، ولا توجد مناعة فى المجتمع ، فتتدخل ـ إذن ـ السماء لكن الحق فضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم وميزها على غيرها من الأمم لأن مناعتها دائماً فى ذوات أفرادها فإن لم تكن فى ذوات الأفراد ففى المجموع ؛ فلا يمكن أن يخلو المجتمع الإيمانى من فرد يقول : لا . ولذلك لن يأتى رسول بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلو كانت ستحدث طامة وفساد بها المجتمع ولا نجد فيه من يقول : لا . لكان ولا بد أن يأتى رسول ، لكن محمدا كان خاتم النبيين لأن الله سبحانه وتعالى فضل أمة محمد بأن جعل وازعها دائما إما من ذاتها بحيث يرد كل فرد نفسه وتكون نفسه لوّامة ، وإمّا مناعة فى المجتمع وكل واحد فيه يوصى ، وكل واحد يوصَى ، واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى .

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾

(سورة العصر)

تواصوا لماذا ؟ لأن النفس البشرية أغيار ، فقد تهيج نفسى لأحرج عن المنهج مرة ؛ فواحد آخر ينهانى ، وأنا أردها به وأهديه وأرشده إلى الصراط المستقيم ، وواحد آخر أخطأ فأنا أقول له وأنهاه . إذن فقوله . « وتواصوا » يعنى : ليكن كل واحد منكم موصياً وموصًى . فكلنا يَنظر بعضه ويلاحظه ؛ مَن ضعف فى شىء يجد من يقوّمه ، فلا ينعدم أن يوجد فى الأمة المحمدية موصٍ بالخير ومُوصى أيضا بالخير ، وتوجد فى النفس الواحدة أنه موصٍ فى موقف ومُوصًى فى موقف آخر ؛ بحيث لا يأبى إن وصاه غيره ؛ لأنه كان يوصى بالأمس . وكما قالوا : « رحم الله امرأ أهدى إلى عيوبى » .

وبعد أن استكمل الحق بناء البيئة الإيمانية برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وصرتم أنتم آخر الأمم . فهو سبحانه يطمئننا على أن الشر لا يعلم عندنا وستبقى فينا مناعة إيمانية حتى وإن لم يلتزم قوم فسيلتزم آخرون . وإن لم يلتزم الإنسان فى كل

تصرفاته ، فسيلتزم فى البعض ويترك البعض ، ولو لم تتدخل السماء بمنهج قويم لصار العالم متعبا . وكيف يتعب العالم ؟ إن العالم يتعب إذا تعطلت فيه مناهج الحق الذى استخلفنا فى الأرض . فتطغى مظاهر الجبروت والقوة على مظاهر الضعف . ويتحكم فى كل إنسان هواه .

وفى عالمنا المعاصر نرى حقا فى الأمم التى لا تؤمن بدين لا تترك شعوبها لهوى أفرادها ، بل ينصبون الحياة بتشريعات قد تتعبهم ، ووضعت الأمم غير المتدينة لنفسها نظاما يحجز هوى النفس ، ونقول لهم . أنتم عملتم على قدر فكركم ، وعلى قدر علمكم بخصال البشر ، وعلى قدر علمكم بالطبائع وأنتم تجيتم فى هذه ؛ لأنكم تقنون لشىء لم تخلقوه بشىء لم تصنعوه .

وأصل التقنين : أن تقنن لشىء صنعته ، كما قلنا : إن الذى يضع برنامج الصيانة لأى آلة هو من صنع الآلة ، فالذى صَنع التليفزيون أيترك الجزار يضع للتليفزيون برنامج الصيانة ؟ لا ، ممن صنع التليفزيون هو الذى يضع قانون صيانته ، فما بالنا بالذى خلقنا ؟ إنه هو الذى يضع قانون صيانتى : بـ « افعل ولا تفعل » ، فأنتم يا بشر تتحكمون فى أشياء بأهواء بعض الناس وتقولون : افعل هذه ولا تفعل هذه ، فعلى أى أساس عرفتم شرور المحالفات ؟ هل خلقتم أنتم النفس وتعرفون ملكاتها ؟ لا . بدليل أنكم تعدلون قوانينكم ، وبحدث التعديل ـ كما قلنا ـ لأن المشرع يتبين خطأ فيستدرك الخطأ ، والمشرع البشرى يخطىء لأنه يقنن لما لم يصنع ، فإذا كنا لا نريد أن يظهر خطأ فلنترك التقنين لمن صنع وهو الله .

والتاريخ البشرى يؤكد أن الفساد يعم عندما يتعطل منهج السماء ، والسماء تتدخل برسالة ، وكل رسالة جاءت كان لها خصوم وهم المنتفعون بالشر ، وهؤلاء لن يتركوا منهج الله يسيطر ليسلبهم هذه الهيمنة والسيطرة والقهر والجبروت والانتفاع بالشر ، بل يحاربون رسالات السماء ، ويلفتنا الحق إلى أن أهل الشر والناس المنتفعين من مناهج السماء وغير المتدينين ، سيسببون لكم متاعب ، فبعدما توطنون أنفسكم التوطين الإيمانى انتبهوا إلى خصومكم وإلى أعدائكم فى الله لقد قال الحق سبحانه وتعالى فى هذه القضية :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ ﴾

لا يقال لك : خذ حذرك إلا إذا كان هناك عدو يتربص بك ؛ فكلمة : خذ حذرك ، هذه دليل على أن هذا الحذر مثل السلاح ، مثلما يقولون : خذ بندقيتك ، خذ سيفك ، خذ عصاك ، فكأن هذه آلة تستعد بها في مواجهة خصومك واحتاط لكائدهم ، ولا تنتظر إلى أن تغير عليك المكائد ، بل عليك أن تجهز نفسك قبل ذلك على احتمال أن توجد غفلة منك ، هذا هو معنى أخذ الحذر ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

وهذا يعني : إياك أن تنتظر حتى يترجموا عداءهم لك إلى عدوان ؛ لأنهم سيعجلونك فلا توجد عندك فرصة زمنية كي تواجههم فلا بد لكم أيها المؤمنون من أخذ الحذر لأن لكم أعداء ، وهؤلاء الأعداء هم الذين لا يحبون لمنهج السماء أن يسيطر على الأرض . فحين يسيطر منهج السماء على الأرض فلن يوجد أمام أهواء الناس فرصة للتلاعب بأقدار الناس . ومن ينتفعون بسيطرتهم وبأهوائهم على البشر فلن يجدوا لهم فرصة سيادة .

« فانفروا ثبات أو انفروا جميعا » أي لتكن النفرة منكم على مقدار ما لديكم من الحذر ، و« ثبات » جمع ثُبَة وهي الطائفة أي انفروا سَرِيَّة بعد سريَّة و« جميعا » أي اخرجوا كلكم لمواجهة العدو ، وعلى ذلك يجب أن نكون على مستوى ما يهيج من الشر . فإن هاجمنا فصيلة أو سرية ، نفعل كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقد كان يرسل سرية على قدر المسألة التي تهددنا ، وإن كان الأمر أكبر من ذلك ويحتاج لتعبئة عامة فنحن ننفر جميعا . ولاحظوا أن الحق يخاطب المؤمنين ويعلم أن لهم أغيارًا قد تأتي في نفوسهم مع كونهم مؤمنين . فقد تخور النفس عند مواجهة الواقع على الرغم من وجود الإيمان .

ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى فى سورة البقرة :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤٦ سورة البقرة)

لقد كانوا هم الذين يطلبون القتال ، وماداموا هم الذين قد طلبوا القتال فلا بد أن يفرحوا حين يأتى لهم الأمر من الله بذلك القتال ، لكن الله أعلم بعباده بذلك قال لهم .

﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ﴾

(من الآية ٢٤٦ سورة البقرة)

فأوضح لهم الحق أن فكروا جيدا فى أنكم طلبتم لقتال وإياكم ألا تقاتلوا عندما نكتب عليكم هذ القتال لأننى لم أفرضه ابتداءً ، ولكنكم أنتم الذين طلبتم ، ولأن الكلام مازال نظريا فقد قالوا متسائلين :

﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ﴾

(من الآية ٢٤٦ سورة البقرة)

لقد تعجبوا واستنكروا ألا يقاتلوا فى سبيل الله ، خصوصاً أنهم يملكون السبب الذى يستوجب القتال وهو الإخراج من الديار وترك الأبناء ، لكن مادا حدث عندما كتب الحق عليهم القتال ؟.

﴿ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾

(من الآية ٢٤٦ سورة البقرة)

لقد هربت الكثرة من القتال وبقيت القلة المؤمنة وكانت مقدمات هؤلاء المتهربين من القتال هى قولهم رداً على نبيهم عندما أخبرهم أن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً فقالوا :

﴿ أَنْ يَكُونَ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ﴾

(من الآية ٢٤٧ سورة البقرة)

كانت تلك أول ذبذبة فى استقبال الحكم ، فأوضح لهم الحق السرّ فى اصطفاء طالوت ، فهو قوى والحرب تحتاج إلى قوة ، وهو عالم ، والحرب تحتاج إلى تخطيط دقيق ، فقال سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾

(من الآية ٢٤٧ سورة البقرة)

وعندما جاءوا للقتال أراد الحق أن يمحصهم ليختبر القوى من الضعيف فقال لهم طالوت :

﴿ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

والتمحيص هنا ليعرف من منهم يقدر عن نفسه وليختبر قوة التحمل عند كل فرد مقاتل ، فليس مسموحاً بالشرب من ذلك النهر إلا غرفة يد . فشربوا من النهر إلا قليلاً منهم ، هكذا أراد الحق أن يصفيهم تصفية جديدة . وعندما رأوا جيش جالوت قالوا :

﴿ لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

وما الضرورة فى كل هذه التصفيات ؟ لقد أراد الله ألاّ يتحمل الدفاع عن منهجه إلا المؤمنون حقاً ، وهم من قالوا :

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٥١ سورة البقرة)

لماذا أعطانا ربنا هذه الصورة من التصفيات ؟ كي نفهم أن النفس البشرية حين تواجه بالحكم نظرياً لها موقف ، وحين تواجه به تطبيقياً لها موقف ولو بالكلام ، وحين تواجه به فعلياً يكون لها موقف ، وعلى كل حال فقليل من قليل من قليل هم الذين صبرهم الله . إذن فيريد سبحانه أن يرى في نفوسنا أنه جل وعلا هو الذي يهزم ، وهو الذي يغلب مصداقاً لقوله الحق .

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة التوبة)

إذن فالحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : أنا قلت لكم انفروا ثبات أو انفروا جميعاً واعلموا أن النفس البشرية هي بعينها النفس البشرية ، وستتعرض للذبذبة حين تواجه الحكم للتطبيق ، ولذلك يأتي هنا بقوله الحق

﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ ﴾

فساعة ندعو إنساناً منكم للحرب قد يبطيء ويتخاذل ، مثلما قال في آية أخرى :

﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة التوبة)

و« اثاقلتم » تعنى : لم هناك من يتثاقل أى ينزل إلى الأرض بنفسه ، وعلينا أن نفرق بين من ينزل بجاذبية الأرض فقط ، وبين من يساعد الجاذبية فى نزاله ، فمعنى « أثاقل » أى تباطأ ، وركن ، وهذ دليل على أنه يريد أن يتحادل ، وهؤلاء لم يتباطأوا فحسب بل إنهم أقسموا على ذلك . ومنهم من كان يثبط ويُبطىء غيره عن الغزو كالمنافق عبدالله بن أبىّ .

« وإن منكم لمن ليبطئن » فافهموا وحذوا هذه المناعة ضد من يعوق زحف المنهج قبل أن تبدأ المعركة ، حتى إذا وقعت المعركة نكون قد عرفنا قوتنا وأعددنا أنفسنا على أساس المقاتلين الأشداء لا على من يتباطأون ويتثاقلون ، فهناك من يفرح ببقائه حياً عندما يرى هزيمة المسلمين أو قتل بعضهم لأنه لم يكن معهم ، فيظهر الحق أمثال ذلك ويقول : « وإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علىّ إذ لم أكن معهم شهيداً » . لقد تراخى وبقى ، وعندما تأتيهم المصيبة من قتل ، أو من هزيمة يقول لنفسه : الحمد لله أنى لست معهم .

إذن تثاقله وتخلفه وتأخره عن الجهاد ، كان عن قصد وإصرار فى نفسه . وهذه قمة التبجح فهو مخالف لربنا وعلى الرغم من ذلك يقول . أنعم الله علىّ ، مثله كمثل الذى يسرق ويقول ستر الله علىّ ، وهذه لمجة من لم يفهم المنهج الإيمانى ، فيقول : « قد أنعم الله علىّ إذ لم أكن معهم شهيداً » إنه لم يكن معهم ولم يكن شهيداً ويعتبر هذا من النعمة ، ولذلك قال بعض العارفين إن من قال ذلك دخل فى الشرك ، فالمصيبة فى نظره إما قتل وإما هزيمة ثم ماذا يكون موقف المتحادل المتثاقل المتباطىء عند الغنيمة أو انتصر ؟ يقول الحق

﴿ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن

لَمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ
فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾

إذن فالعلة في قوله : يا ليتني كنت معهم ليست رجوعاً عما كان في نفسه أولاً ، بل هو تحسّر أن فاتته الغنيمة ، وجاء الحق سبحانه وتعالى هنا بجملة اعتراضية في الآية تعطينا لقطة إيمانية ، فيقول : « ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً » .

والجملة الاعتراضية هي قوله « كأن لم تكن بينكم وبينه مودة كأن المودة الإيمانية ليس لها ثمن عنده ، فلو كان لها أدنى تقدير لكان عليه ألا يقول في البداية : أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً ، ولكان مع المقاتلين المسلمين ، لكنه يرغب في الثغور والغنيمة فقط ، ويبتعد عن المسلمين إذا ما أصابتهم الهزيمة أو استشهد عدد منهم .

وبذلك يكشف لنا الحق موقف المتخاذلين ويوضح لنا . إياكم أن تتأثروا بهؤلاء حين تنفرون ثبات أو حين تنفرون جميعاً. واعلموا أن فيكم مخذلين وفيكم مبطئين وفيكم متثاقلين ، لا يهمهم إلا أن يأخذوا حظاً من الغنائم ، ولذلك يحمدون الله أن هزمتم ولم يكونوا معكم ، ويحبون الغنائم ويتمنونها إن انتصرتم ولم يكونوا معكم ، إياكم أن تتأثروا بهذا وقد أعطيتم هذه المناعة حتى لا تفاجأوا بموقفهم منكم وتكونوا على بصيرة منهم . والمناعات ما هي إلا تربية الجسم ، إن كانت مناعة مادية ، أو تربية في المعنى ، إن حدث مكروه فأنت تملك فكرة عنه لتبني ردّ فعلك على أساس ذلك .

ونحن عندما يهاجمنا مرض نأتي بميكروب المرض نفسه على هيئة خامدة ونطعّم به المريض ، وبذلك يدرك ويشعر الجسم أن فيه مناعة ، فإذا ما جاء الميكروب مهاجماً الجسم على هيئته نشيطه ، فتقوى المقاومة في الجسم تتحرك معه وتحاصر الميكروب ، فكأن إعطاء حقن المناعة تربة وتنشيط لقوى المقاومة في الجسم ، وقد أودعها الله في

دعك كى تؤدى مهمتها ، كذلك فى المعانى يوضح الحق لكم : سيكون منكم من يفعل كذ وكذا ، حتى تعلّموا أنفسكم لاستقبال هذه الأشياء إعداداً ولا تهاجموا به ؛ لأنكم إن فوجئتم به فقد تنهارون . فإياكم أن تتأثروا بهذا

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾

ومادة : « شرى » ومادة « اشترى » كلها تدل على التبادل والتقايض ، فأنت تقول : أنا اشتريت هذا الثوب بدرهم ؛ أى أنك أخذت الثوب ودفعت الدرهم ، وشرى تأتى أيضا بمعنى باع مثل قول الحق :

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ ۚ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة يوسف)

فالجماعة الذين وجدوا سيدنا يوسف عليه السلام فى الجب كانوا فيه من الزاهدين وبعد ذلك باعوه بثمن بخس ، إذن فـ « شرى » من الأفعال التى تأتى بمعنى البيع وبمعنى الشراء ؛ لأن المبيع والمشترى يتماثلان فى القيمة ، وكان الناس قديماً يتعاملون على المقايضة فى السلع ، فلم يكن هناك نقد متداول ، كان هناك من يعطى بعض الحب ويأخذ بعض التمر ، فواحد يشترى التمر وآخر يشترى الحب ، والذى جعل المسألة تأخذ صورة شراء وبيع هو وجود سلع تباع بالمال .

وما الفرق بين السلع والمال ؟. السلعة هى رزق مباشر والمال رزق غير مباشر .

فأنت مثلاً تأكل رغيف الخبز وثمنه خمسة قروش ، لكن هو عندك جبل من ذهب وتحتاج رغيفا ولا تجده ؛ أينفعك جبل الذهب ؟ لا . إذن فالرغيف رزق مباشر ؛ لأنك ستأكله ، أما الذهب فهو رزق غير مباشر ؛ لأنك تشترى به ما تنتفع به وبذلك نستطيع أن نحدد المسألة ؛ فالسلعة المستفاد منها مباشرة هى رزق مباشر ، تدفع ثمنها مما لا تنتفع به مباشرة ، والحق سبحانه وتعالى يريد أن يعقد مع المؤمن به صفقة فيها بيع وشراء . وأنتم تعلمون أن البائع يعطى سلعة ويأخذ ثمنا ، والشارى يعطى ثمنا ويأخذ سلعة ، والحق يقول هنا :

﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة النساء)

فالمؤمن هنا يعطى الدنيا ليأخذ الآخرة التى تتمثل فى الجنة والجزاء ، ومنزلة الشهداء ، ولذلك يقول الحق فى آية أخرى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ١١١ سورة التوبة)

وقال بعدها :

﴿ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ﴾

(من الآية ١١١ سورة التوبة)

تلك هى الصفقة التى يعقدها الحق مع المؤمنين ، وهو سبحانه يريد أن يعطينا ما نتعرف به على الصفقات المربحة ، فكل منا فى حياته يحب أن يعقد صفقة مربحة بأن يعطى شيئاً ويأخذ شيئاً أكبر منه ، ولذلك يقول فى آية أخرى :

﴿ يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة فاطر)

هما أيضاً تجارة ، وأنت حين تريد أن تعقد صفقة عليك أن تقارن الشىء الذى تعطيه بالشىء الذى تأخذه ثم افرق بينهما ، ما الذى يجب أن يضحى به فى سبيل الآخر ؟ .

والحق قد وصف الحياة بأنها « الدنيا » ولا يوجد وصف أدق من هذا ، فأرضح المسألة : إنك ستعطى الدنيا وتأخذ الآخرة ، فإذا كان الذى تأخذه فوق الذى تعطيه فالصفقة - إذن - رابحة ، فالدنيا مهما طالت فإلى نهاية ، ولا تقل كم عمر الدنيا ، لأنه لا يعنيك أن يكون عمر الدنيا ألف قرن ، وإنما عمر الدنيا بالنسبة لكل فرد . هو مقدار حياته فيها ، وإلا فإن دامت لغيرى فما نفعى أنا ؟ . .

إذن فقيمة الدنيا هى : مقدار عمرك فيها ، ومقدار عمرك فيها مظنون ، وعلى الرغم من ارتفاع متوسطات الأعمار فى القرن العشرين ، فالبعض يقول : متوسط الأعمار فى أمريكا سبعون أو خمس وستون سنة ، لكن ذلك لا يمنع الموت من أن يأخذ طفلاً ، أو فتى ، أو رجلاً ، أو شيخاً .

إن عمر الدنيا بالنسبة لكل إنسان هو : مقدار حياته فيها ، فلا تقارنها بوجودها مع الآخرين ، إنما قارنها بوجودها معك أنت ، وهب أنه متيقن ولكنه محدود بسبعين عاماً على سبيل المثال ، ستجد أن تعمك خلالها مهما كبر وعظم فهو محدود .

والإنسان ما يظل يُربَّى إلى أن يبلغ الحُلُم . فإذا ما بلغ الحُلُم وأصبحت له حياة ذاتية ، أى أن إرادته لم تعد تابعة للأب أو للأم ، بينما فى طفولته كان كل اعتماده على أمرته ، أبوه يأتى له بالملبس فيلبسه ، وبالمطعم فيأكله ، ويوجهه فيتوجه ، لكن حينما توجد له ذاتية خاصة يقول لأبيه هذا اللون لا يعجبنى ! والأكل هذا لا يعجبنى !! هذه الكلية لن أذهب إليها ولا توجد للإنسان ذاتية إلا إذا وصل إلى مرحلة من العمر يستطيع أن ينسل مثله ، فإذا ما أصبح كذلك نقول له . هذا هو النضج ، وهو الذى يجعل لك قيمة ذاتية .

إنك إذا زرعت شجيرة بطيخ . فأنت ترعاها سقياً وتنظيراً وتسميداً ، وهى مازالت صغيرة وتتعهدها كى لا تخرج مشوهة ، حتى تنضج ، وساعة تنضج يكون الشمل الشاخل قد انتقل من الشجيرة إلى الثمرة « البطيخة » ، فيقال صار لها ذاتية ، لأنك إن شققتها لتأكلها تجد « اللب » قد نضج ، وإن زرعته نأل منه شجيرة أخرى .

ولكن إذا ما قطفت الثمرة قبل النضج فأنت قد تجد « اللب » أبيض لم ينضج بعد ، فلا تصلح تلك البذور لأن تأتى وتثمر مثلها ، وإذا كان « اللب » نصفه أبيض ونصفه أسود ، فهى لم تنضج تماما ، أما إذا وجدت « لبها » أسمر اللون داكناً فهو صالح للزراعة والإثمار ، وتجد الحلاوة متمشية مع نضج البذرة . فلو كانت الثمار تنضج قبل البذور لتعجل الخلق أكل الثمرة قبل أن ترى وتنضج البذور ولانقطع النوع ، لذلك لم يجعل ربنا حلاوة الثمرة إلا بعد أن تنضج البذور ، وكذلك الإنسان ، والحق يقول .

﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة النور)

وعندما يكون الإنسان طفلاً فنحن نتركه يلهو ويرتع فى البيت ويرى هذه وهذه ، لكن إذا كان قادراً على نسل مثله واكتملت رجولته فعليه أن يستأذن . وحين يكون الإنسان بهذا الشكل تصير له ذاتية ، ولنفترض أنه سيعيش عدداً من السنين تبلغ حوالى الخمسة والخمسين عاماً بعدما صارت له ذاتية ويستطيع النسل إنه سيقضى مرحلته فى التعلم إلى أن يصبح صالحاً لأن يكسب ويعيش ويتمتع ، ثم لنسأل كم سنة سيتمتع ؟ سنجدها عدداً قليلاً من السنوات .

إذن فالحياة محدودة ، والمتعة فيها على قدر إمكاناته ، فقد يسكن فى شقة من حجرتين أو فى شقة مكونة من ثلاث حجرات ، أو فى منزل خاص صغير أو حتى فى قصر ، وقد يركب سيارة أو يمشى على قدميه ، باختصار على قدر إمكاناته ، أما فى الآخرة فالموقف مختلف تماماً ، سيسلم نفسه إلى حياة عمرها غير محدود ، فإن قارنت المحدود بغير المحدود ستجد الغلبة للآخرة لأنها متيقنة والنعيم فيها على قدر سعة فضل الله وقدرته ، فالأحسن لنا أن نبيع الدنيا ونأخذ الآخرة ، لتكون هذه هى الصفقة الرابحة التى لا تبور .

ولماذا يدخل الله العبد فى عملية البيع هذه ؟ ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قبل أن يعرض عليك الصفقة لتدخل فى عملية البيع التى تجهدك إن لم تقتل أو تقتل فى سبيل الله لابد أن يوضح لك كيفية النهاية التى تأخذ بها الفوز فى الآخرة ، ولن تأخذ هذا

الفوز بالكلام فقط ، ولكن انظر إلى المنهج الذى سنقاتل من أجله ، إنّه تأسيس المجتمع الذى يؤدى كل امرىء فيه الأمانة ، وهذا الأمر لا يحزن منه إلا من يريد أن يأخذ عرق الناس ويبقى جسمه من كدهم وتعبهم ، وهات مجتمعاً لا يؤمن بالله وقل : يأيها الناس نريد أن يؤدى كل واحد منكم الأمانة التى عنده ، نريد أن نحكم بالعدل ، فسيمرح أهل هذا المجتمع .

إذن فلكى نحمى المجتمع لابد أن نؤدى الأمانة وأن نقيم العدالة ومن قبل ذلك أمرنا أن نعبد إلهاً واحداً فلا نتشتت ، ثم أوصانا بالوالدين والأقربين ، واليتامى والمساكين .

قل لى بالله عليك : لو لم يكن هذا دينا من السماء ، وكان تشريعاً من أهل الأرض ، أهناك أعدل من هذا ؟

إن مثل هذا المنهج الذى يكفل أمان الجميع يستحق أن يدافع الإنسان عن تطبيقه . وقبل أن يفرض علينا القتال أوضح سبحانه . هذا هو المجتمع الذى سنقاتلون من أجله ، واعلم أنك ساعة تذهب إلى القتال ، اقصى ما فيها أن تقتل ، فستأخذ صفقة الآخرة ، وقصرت مسافة غاياتك ؛ لأن كل شىء إنما يقاس برمز الغاية له ، فإذ قتلت فقد قصرت المدة للوصول إلى الغاية ، فتتصل إلى الجنة ، والحمق هو الذى يصيب الناس عندما يموت عزيز أو حبيب فيغرقون فى الحزن نقول لهم أنتم جميعاً سائرين إلى هذه الغاية ، فلماذا الغرق فى الحزن إذن ؟ .

والحق سبحانه وتعالى يكافىء من يقتل فى سبيل الله بحياة فى عالم الغيب وفيها رزق أيضاً . وبعض من الناس يظنون أنهم إن فتحوا قبر الشهيد فسيجدونه حياً يُرزق . ونقول لهم : إن الحق لم يقل : إن الشهداء أحياء عندكم ، بل أحياء عنده فى عالم الغيب . والحق سبحانه يطلب من الذى اقتنع بالإسلام أن ينشره ، وأن يعدل المسلمون بين أنفسهم لتصلح أمورهم ، وأن يواجهوا أصحاب الشرّ الذى لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة .

ولم تأمر السماء بقتال قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان الرسول من

السابقين على محمد صلى الله عليه وسلم يبلغ قومه برسالته ، فإن آمنوا بها ونعمت وإن لم يؤمنوا تتدخل السماء بالعقاب ، بريح صرصر ، رجفة ، صيحة ، خسف الأرض بهم ، إغراق ، فالرسول قبل محمد صلى الله عليه وسلم كان يبلغ ، والسماء تعاقب من لم يؤمن . وما وجد قتال إلا إذا اقترحوا هم القتال ، مثل بنى إسرائيل ، قال الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤٦ سورة البقرة)

هم الذين اقترحوا ، لكن القتال الذى يُثبّت المبدأ ويشر المنهج لإعلاء كلمة الله ، وسيطرة الخلافة الأمية الإيمانية على الأرض ، لم يشرع إلا على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكأن الله لم يأمن خلقاً على خلق إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقد جعلها أمينة . فأنتم أمناء أن تتولوا عن اسماء تأديب المخالف ، وبذلك أخذتم المستوى العالى فى المنهج والمستوى العالى فى الرسالة . وأكرم الله نبيّه فقال :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)

فجاء القتال وحارب المسلمون - وهم ضعاف - المجتمعات الفاسدة القوية . والشاعر يقول :

فقوى على الضلال مقيم وقطيع من الضعاف يُجارى

هذا القتال لو لم يجئ به دين ، ألا تقوم به الأمم التى لا دين لها لإصلاح أمرها ؟ إنها تقاتل ، فلماذا يكون مباحاً منهم أن يقاتلوا كى يقرروا مبادئهم ، وعندما يأتى الدين ليشرع القتال يقولون - لا . هذا دين سيف

نقول لهم : بالله لماذا إذن تحارب الشعوب ؟ أنت تجد شعوبا تتحارب وتجد ظالما يحارب ظالما آخر ، فإذا ما وجد عدل ليزحزح ظالما نقف فى طريقه ؟ لا . وذلك حتى

نعرف أن المسألة مسألة رسالة من السماء لا طغيان دولة اجتمعوا أو بيتوا مؤامرة لصنع انقلاب يسيطرون به على الناس .

لقد جاء الإسلام وآمن به الضعاف الذين لا يملكون أن يقاتلوا ، فلم يكن باستطاعتهم أن يحموا حتى أنفسهم ؛ ذلك حتى نعرف أن الحق ساعة يأتي ، يأتي عادة لا من قوى بل يأتي من ضعيف تعب كثيراً كي يثبت الإيمان ، والإسلام نادى وبه رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة لكنه لم ينتصر كدين ولم يستطع إلا من المدينة . فمكة بلد محمد وفيه قبيلته قريش التي ألفت السيادة على الجزيرة كلها ولا أحد يستطيع أن يقرب منها بعدوان ، ولم تكن هناك قوة تستطيع أن تعترض قوافلها بالتجارة إلى الجنوب أو إلى الشمال .

إن أي قبيلة تخاف أن تتعرض لها في الطريق ، لأن القبائل ستأتي إلى قريش في موسم الحج ، وتخاف كل قبيلة من انتقام قريش ، فلو أن الإسلام الذي صاح به رسول الله صلى الله عليه وسلم انتصر في مكة ربما قالوا : قبيلة عشقت السيادة ، ودانت لها أمة العرب فما المانع من أن تطمع في أن يدين لها العالم كله ؟

وأراد الحق أن تكون قريش هي أول من يضطهد رسول الله ويحاربه ، والضعاف هم الذين يتبعونه ، وبعد ذلك يأتي النصر لدين الله من مكان بعيد عن مكة من « المدينة » تتشهد الدنيا كلها أن الإيمان بمحمد هو الذي خلق العصبية لمحمد ، ولم تخلق العصبية لمحمد الإيمان بمحمد ، وها هوذا سيدنا عمر كان يسمع قول الله سبحانه

﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾

(سورة القمر)

فيقول : أي جمع هذا ونحن لا نقدر أن نحمي أنفسنا ؟ ويقول الحق :

﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾

(سورة القلم)

فيقول عمر : كيف ونحن لا نقدر أن ندافع عن أنفسنا ؟

وبعد ذلك تأتى موقعة « بدر » فتثبت له صدق هذا ، والعجيب أن الآية تنزل وهم لا يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم ، فلا يمكن أن يقال إن هناك مقدمات لذلك بحيث تستنتج النتيجة ؛ فالمقدمات لا توحى بأى نصر ، لكن ربما هو الذى قال ، ورأوا صحيحاً أن الوليد بن المغيرة ضرب على أنفه وتركت الضربة علامة على أنفه ؛ لأن الذى قال ذلك من قبل قادر على إنفاذ ما يقول بدون قوة تحول دون ذلك أبداً ، وهذا يدلنا على اختيار المبادىء .

إنك تجد أنّ الذى يؤمن بالمبادىء هو الذى يضحى أولاً ، يدفع ماله وقد يدفع دياره ، بأن يخرج منها ، وقد يدفع نفسه فيقتل ، كل ذلك من أجل المبدأ ، لكن الأمر يختلف مع المبادىء الباطلة ؛ فقبل أن يدخلها واحد نجده يأخذ الثمن . ومن يروجون للمبادىء الباطلة يقولون لمن يغررون به : خذ مالاً وعش واستمتع ، واشتر أحسن الثياب .

أما أصحاب مبدأ الحق فهم الفقراء الذين يدفعون الثمن ، وهم الحق أن يدفعوا الثمن لأن الثمن غال ، لكن فى الباطل لا يعرفون ثمناً . ولذى ينظر لمبدأ من المبادىء الهدامة ، يرى كيف يعيش قادتها ، بينما الرعية تحيا فى بؤس ، فيقول . أما أحد الثمن مقدماً والأمر يختلف مع المؤمنين ، فهم الذين يدفعون الثمن . ليسعدوا بالجزاء فى الآخرة .

والحق سبحانه وتعالى حين يشرع القتال لأمة محمد صلى الله عليه وسلم يشرعه أولا دفاعا ، كانوا يطلبون من رسول الله ، يقولون : يا رسول الله ، إئذن لنا نقاتل على قدر جهدنا ، فيقول « اصبروا فإنى لم أؤمر بالقتال »[1] .

وبعد ذلك يؤمر بالقتال كى يدافع عن الخلية الإيمانية بعدما ذهبوا إلى المدينة ، ونعلم أن القتال عملية ضرورية فى الحياة . فالحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾

(من الآية ٢٥١ سورة البقرة)

(١) الكاف الشاف فى تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر

وهو القائل :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الحج)

إذن فدفع الله بعض الخلق بالخلق أمر ضروري واقعي . وحين يعلب على الإسلام أمر القتال ، نقول لهم : إن الحق سبحانه وتعالى حينما شرع هذا القتال فقد شرعه لأن قوى البغي هي التي تحول دون تطبيق منهج من مناهج العدالة المعروفة ، ولا يستطيع أحد أن يجادل فيها ولو لم يكن العدل قائماً من السماء ما كان هناك منهج صالح يحكم الناس ، فإذا أراد الله أن يصنع العدل بمنهج أنزله هو ، فلماذا يأتي من يقف في الطريق ويقول للرسول : أنت جئت لكي ترغم الناس أن يؤمنوا بمنهجك ؟!

ويوضح الحق مسيرة الرسول أنه جاء لكي يثبت كرامة الإنسان فهو سيد الأجناس التي تحيط به ، فالجماد مسخر ، والنبات مسخر ، والحيوان مسخر ، وليس لأي منهم حرية في أن يقول : افعل ولا تفعل ، فلا توجد إرادة ولا اختيار عند كل الأجناس إلا عند الإنسان ؛ فالحق هو القائل عن أمانة الاختيار .

﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأحزاب)

إذن فبأي شيء تميز الإنسان على هؤلاء الأجناس ؟ تميز عليهم بالعقل ، ومهمة العقل أن يختار بين البديلات ، أما إذا كان هناك أمر ليس له بديل ، فليس للعقل عمل فيه .

ومثال ذلك : هناك مكان تريد أن تذهب إليه ، فيوضح لك إنسان : لا يوجد إلا هذا الطريق ، فهل تفكر أن تذهب عن طريق آخر ؟ طبعاً لا ، إذن فالعقل لا عمل له إلا الاختيار بين البديلات ، فإن لم يكن هناك بديل فلا عمل له . وإذا أراد العقل أن يختار بين البديلات ألا نضمن له حرية الاختيار أم نفقد حرية الاختيار لديه ؟

إنك إن قيدت حرية الاختيار بالإكراه فقد أخذت النعمة التي أعطيتها له ، وجعلته مقهوراً مسخراً مكرهاً ؛ ولذلك فالمكره لا يكون له حكم على الأشياء بل هو مجبر ومسخر .

ومادمت تقول : إن العقل هو الذي يختار بين البديلات ، فلا بد أن يكون حق الاختيار موجوداً ، فإن كان في الإنسان عطب كأن يكون مجنونا ، فلا اختيار له ، وإن كان العقل موجودا لكنه لم ينضج بعد نقول أيضا : لا اختيار .

إذن فلا بد أن يكون العقل موجودا وناضجا للاختيار بين البديلات ، ويكون للإنسان حرية أن يختار ، فإن لم يكن العقل موجودا فهو مجنون فلا تكليف له . والمجنون قد سلبه الله أعز ما أعطى للإنسان وهو العقل ، لكن أعفاه الله أن يسأله أحد عن شيء ، فيفعل ما يفعل دون سؤال ، فلا تكليف لمجنون ، فالتكليف إذن لصاحب العقل الناضج ، وكذلك لا تكليف من قبل البلوغ .

إذن فالإسلام جاء ليحمي كرامة الإنسان في حرية الاختيار ، ويعرض عليك أمر الإيمان ، فالذي حمل السيف ، لم يحمله ليجبر أحداً على الإيمان ، إنما ليرد كيد من أرادوا قهر الناس ، والجزية إنما فرضت لإعفاء غير المسلمين من مسئولية القتال ، ولو كان الإسلام يفرض الإيمان على الناس في البلاد التي فتحها لم وجدنا أتباع أي دين في البلاد التي دخلها الإسلام . وهذه شهادة للمسلمين .

إن الإسلام لم يجئ ليفرض دينا وإنما جاء ليحمي حرية اختيار الدين ؛ والذين يقولون:إن الإسلام جاء بالسيف نقول لهم : افهموا جيدا ، لقد كان المؤمنون الأوائل ضعفاء وظلوا على الضعف مدة طويلة ، والبلاد التي فتحت بالإسلام مازال فيها أناس غير المسلمين ، وهذا دليل أن الإسلام جاء ليحمي حرية الاختيار .

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ثم نأتي لنقطة أخرى وهي أن الإسلام لم يلتحق الجزية إلا لأن غير المسلم سيستمتع

بكل خيرات بلاد الإسلام ، والمسلم يدافع وأيضا يدفع الزكاة والخراج . إذن فالمسألة عدالة منهج ، وحول ذلك يجب أن نفهم أن قول الحق :

﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾

(سورة النساء)

فالقتال إنما جاء حتى تسيطر مناهج السماء ، وسبحانه حينما يقول : « فليقاتل فى سبيل الله » فهذا يدلنا على أن هناك قتالاً فى غير سبيل الله ، كأن يقتل الرجل حمية ، أو ليعلم مكانه من الشجاعة ، فقتال الرجل دائما حسب نيته ، ولذلك تساءل بعض الناس : من الشهيد ؟ قال العلماء : هو من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فيكون شهيدا . إذن فالقتال مرة يكون فى سبيل الله ، ومرة يكون فى سبيل النفس ، ومرة يكون فى سبيل الشيطان .

يقول الحق : « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة » أى يبيعون الدنيا ليأخذوا الآخرة ، « ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما »

إذن فالذى يدخل القتال هو أمام أمرين اثنين : إما أن يُقتل من الأعداء ، وإما إن ينتصر ، وهذه هى القضية الجدلية التى تنشأ بين معسكر الإيمان ومعسكر الكفر ، والمقاتل من معسكر الإيمان يقول لمعسكر الكفر : أنا أقاتل لإحدى الحسنين : إما أن أُقتل فأصبح شهيدًا آخذ حياة أفضل من هذه الحياة ، وإما أن أنتصر عليك ، فلماذا تتربصون بنا أيها الكفار ؟

إن المؤمن يثق أنه قادر بكل شيء ؛ فإن قُتل ذهب إلى الجنة وإلى حياة أفضل من حياتكم ، وإما أن ينتصر ، والحالتان على سواء من الخير .

وهذا للاستدلال بأن هذا المنهج يراق فيه الدم ، وشهادة لهذا الدين بأنه صحيح ، وإلا فلن يذهب أحد للقتال إن لم يكن مقتنعا بالدين ، فكل واحد يعمل

لحياته ونفسه ، فكل الأمور بالنسبة للإنسان نعمية حتى فى الدين ، ولذلك يقولون : لا تكن أنانيا رخيصا بل عليك أن تكون أنانيا غاليا ، والدين هو ممارسة لأنانية عليا .

ونضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ الذى ليس معه إلا جنيه وهو يحتاج إليه ثم رأى واحدا فى حاجة ماسة ، فيقول المؤمن لنفسه : لقد أكلت ، وقد يكون هذا الإنسان لم يأكل بعد فلأعطه الجنيه

بالله أهو يحب الذى أخذ الجنيه عن نفسه ؟ لا ، بل هو يحب نفسه ، لكنها أنانية عليا ؛ أنانية معللة . وسبق أن قلنا : إن الذى يجلس ويرى امرأة جميلة فتغض عينه أمره يختلف عن واحد آخر « يحملق » ويحدق وينظر إليها بشدة ، فأيهما يحب الجمال أكثر ؟ إن الذى غضّ بصره هو من يحب الجمال أكثر ؛ لأنه لا يريدها لحظة فقط ، بل يريدها مستديمة

فما بالنا بالذى يبيع الدنيا ويقتل فى سبيل الله ويأخذ الآخرة التى ليس فيها قتل أو أى شىء مكدر ؟ إذن فهذه أنانية عليا ، والحق سبحانه وتعالى يعاملنا بقانون النعمية ، لكنها نعميه على وليست نعمية رخيصه أو قصيرة المدى ، فيجعلنا نبيع الرخيص بالثمن الغالى .

ولقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين يقاتلون فى سبيل الله وعرض عليه منظرهم وهو فى ليلة الإسراء والمعراج ، رأى صلى الله عليه وسلم جماعة يزرعون ويحصدون بعد البذر مباشرة ؛ لأن الذى قتل فى سبيل الله إنما فعل ذلك إعلاء لكلمة الله ، فلا ينتهى نعيمه أبدا لذلك الذى بذله ، وحياته مستمرة فى حياة الملايين ؛ ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما ، وعرفنا أن كل مؤمن يقاتل فى سبيل الله إنما يقول لمعسكر الكفر ما جاء به الحق فى قوله :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

(سورة التوبة)

فالمؤمن يعلم أنه إما أن يُقتل ويكون شهيداً ، وإما أن يغلب معسكر الكفر . وهو يتربص بالكافرين أن يُصيبهم الله بعذاب من عنده أو بأيدى المؤمنين ، إذن فالمؤمنون رابحون على كل حال ، والكافرون خاسرون على كل حال .

و« المعرى » قبل أن يهديه الله وكان متشككاً قال :

تحطمنى الأيام حتى كأننى زجاج ولكن لا يُعاد لنا سبك

فقالوا إنه ينكر البعث ، فإذا هو قد جاء بمثل يقول فيه إن الإنسان كالزجاج إن تحطم فلن يستطيع أحد أن يعيده إلى سيرته الأولى ، قال ذلك أيام تكبر المكر ، وهذه تأتى فى أيام الغرور ، ثم جاءت الأحداث لتلويه وتضرب فى فكره وينتهى إلى الإيمان . لكن أكان ضامناً أن يعيش حتى يؤمن ؟ فلماذا لم يخلص نفسه من مرارة تجربة الشك ؟ ولكنه بعد أن آمن قال : « هأنذا أموت على عقيدة عجائز أهل نيسابور . ربنا حقٌ وربنا سميع وربنا بصير » وقال :

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تحشر الأجساد قلت إليكما
إن صحّ قولكما فلست بخاسر أو صحّ قولى فالخسار عليكما

أى إن صحّ قولكما على أنه لا بعث وقمت أنا بالأعمال الطيبة فى الدنيا ، فماذا أكون قد خسرت ؟ إننى لن أخسر شيئاً ، وإن صحّ قولى وفوجئتم بالآخرة والبعث فأنا الذى يكسب والخسران والبوار والعذاب عليكما ، إذن فإيمانى إن لم ينفعنى فلن يضرنى ، وكلامكما حتى لو صح -وهو غير صحيح ولا سديد- فلن يضرنى .

والحق يقول : « ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب سوف نؤتيه أجراً عظيماً » وسبحانه هنا يطيل أمد العطاء . انظروا دقة الأداء القرآنى،لأن الذى يتكلم هو الله ، ولنر كيفية ترتيب فعل على فعل ، فحين أقول لك : « احضر لى أكرمك » ، فمجرد الحضور يحدث الإكرام ، ولكن إن قلت لك : « إن حضرت إلىّ فسأكرمك » ، فهذا يعنى أن الزمن يمتد قليلاً ، فلن تكرم من فور أن تأتى بل أنت تحضر عندى وبعد ذلك تأخذ تحيتك ، ويأتيك الإكرام بعد قليل

وإن أردت أنا أن أطيل لزمس أكثر فإني أقول : « إن حضرت إليّ سوف أكرمك » . إذن فنحن أمام ثلاث مراحل لترتيب الجزاء على الفعل : جزاء يأتي من فور حصول الشرط ، وجزاء يأتي بعد زمن يسير تؤديه « السين » ، وجزاء يأتي بعد زمن أطول تؤديه « سوف » .

ولم يقل الحق : من يقاتل في سبيل الله نؤتيه أجراً عظيماً ، ولم يقل : فسنؤتيه أجراً عظيما ، ولكنه قال : « فسوف نؤتيه أجرا عظيماً » وهذا القول سيبقى ليوم القيامة ، لذلك كان لابد أن تأتي « سوف » هنا ، وهذا دليل على أنه جزاء موصول لا مقطوع ولا ممنوع

وهكذا نرى إحكام الأداء القرآني ، والحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن نفسه وذاته ، يأتي بأساليب كثيرة : تارة يأتي بأسلوب الجمع ، ونحن نقول ، كما علمونا في النحو . « النون للتعظيم » كما في قوله :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

لم يقل : أنا أنزلت . . فكل شيء يكون نتيجة فعل من أفعال الله . تأتيه « نون التعظيم » ؛ لأنه سبحانه حين يصنع شيئاً لخلقه من منعة أو من نعيم ، يريد صفات كثيرة : قدرة للإبراز ، وعلما لترتيب النعمة ، وتدبيرا وحكمة ، وبسطا ، فيقول هنا : « نؤتيه » ، لأن الصفات تتكاثف لتعمل الخير ، لكنه حين يتكلم عن ذاته مجرداً عن الفعل . سبحانه يتكلم بالوحدانية مثل قوله الحق .

﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه)

وكذلك قوله الحق :

﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة طه)

فساعة يتكلم سبحانه عن ذاته فهو يتكلم بالوحدانية ، ولا تقل بالإفراد تأدباً مع الله فليس له شريك أو مثيل ، وحينما يتكلم سبحانه عن فعله يأتي بالجمع فيقول : « نحن » وهذه حلت لنا إشكالات كثيرة ، مثلما حدث عند قراءة قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾

(من الآية ٢٧ سورة فاطر)

لقد جاء سبحانه في صدر الآية بـ « أنزل » وكان يناسبها أن يأتي بعدها « أخرج » ، لكنه قال : « فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها » فلماذا هذه « مفردة » وتلك « جمع » ؟ ؛ لأنه ساعة قال . « أنزلنا من السماء ماءً » لم يكن لأحد من خلقه ولو بالأسباب فعل في إنزال المطر ، لكن ساعة أن أنزل المطر ، نجد واحداً قد حرث الأرض ، وثانياً بذر ، وثالثاً روى الأرض ، وكل ذلك من أسباب خلقه ، فلم يجعل الله خلقه فقال : « أنزل من السماء ماءً » ثم بعد ذلك : أنا وخلقي بما أمددتهم ومنحتهم « فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها » إذن فلا بد أن ننتبه إلى دلالة الكلمة حين تأتي بالمفرد وحين تأتي بالجمع .

وقوله سبحانه « نؤتيه أجراً عظيماً » يلفتنا إلى أن كل فعل إنما هو حدث يتناسب مع فاعله أثراً وقوة . فالطفل عندما يصفع آخر لا تكون صفعته في قوة الشاب أو قوة الرجل ، فإذا كان الذي يعطي الأجر مثيلاً لك فسيعطيك أجراً على قدره ، لكن إذا كان من يعطي هو ربنا ، فسيعطي الأجر على قدره ، ولا بد أن يكون عظيماً . والأجر هو الشيء المقابل للمنفعة .

وهناك فرق بين الأجر والثمن ؛ فالثمن مقابل العين ، أما الأجر فهو مقابل المنفعة ، أما اشتريت هذه ، فهذا يعني أني دفعت ثمناً ، لكن إن استأجرت شيئاً فهو لصاحبه ولكن أخذته لأنتفع به فقط ، وجزاء الحق لمن يقتل في سبيل الله أهو أجر أم ثمن ؟ ، ونلتفت هنا أن الحق قد أوضح : أنا لم أثمن مَن قتل ، بل نظرت بعمله ، فأخذت أثر عمله ، وأعطيته « أجراً عظيماً »

ويعد ذلك يقول الحق .

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾

والآية تبدأ بالتعجيب ، ذلك أنه بعد إيضاح لون الجزاء على القتال فى سبيل الله كان لا بد أن يصير هذا القتال متسقاً مع الفطرة الإنسانية ، ونحن نقول فى حياتنا العادية . وما لك لا تعمل كذا ؟ كأننا نتساءل عن سبب التوقف عن فعل يوحى به الطبع ، والعقل . فإن لم يفعله الإنسان صار علم الفعل مستغرباً وعجيباً . فالقتال فى سبيل الله بعد أن أوضح الله أنه يعطى نتائج رائعة ، فالذى لا يفعله يصبح مثاراً للتعجب منه ، ولذلك يقول الحق . « ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله » أى لإعلاء كلمة الله ، ومرة يأتى القتال وذلك بأن يقف الإنسان المؤمن بجانب المستضعف الذى أوذى بسبب دينه . ويكون ذلك أيضا لإعلاء كلمة الله .

يقول سبحانه : « ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين » أى أن القتال يكون فى سبيل الله وفى خلاص المستضعفين ، وفى ذلك استثارة للهمم الإنسانية حتى يقف المقاتل فى سبيل رفع العذاب عن المستضعفين ، بل إننا نقاتل ولو من باب الإنسانية لأجل الناس المستضعفين فى سبيل تخليصهم من العذاب ؛ لأنهم مادامو صابرين على الإيمان مع هذا العذاب ، فهذا دليل على قوة الإيمان ، وهم أولى أن ندافع عنهم ونخلصهم من العذاب .

ويعطينا سبحانه ذلك فى أسلوب تعجب : « وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين » فكأن منطق العقل والعاطفة والدين يحكم أن نقاتل ، فإذا لم نقاتل ، فهذه مسألة تحتاج إلى بحث

وساعة يطرح رسا مثل هذه القضية يطرحها-على أساس أن كل الناس يستوون عند رؤيتها فى أنها تكون مثاراً للعجب لديهم ، مثلها مثل قوله الحق :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة البقرة)

يعنى كيف تكفرون بربنا أيها الكفار ؟ إن هذه مسألة عجيبة لا تدخل فى العقل ، فليقولوا لنا إذن : كيف يكفرون بربنا ؟

« وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال » وكلمة «والمستضعفين» يأتى بعدها « من الرجال » والمفروض فى الرجل القوة ، وهذه يلفتنا إلى الظرف الذى جعل الرجل مستضعفاً ، ومَنْ يأتى بعده أشد ضعفاً . « المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيرا » فقد بلغ من اضطهاد الكفار لهم أن يدعوا الله أن يخرجهم من هذه القرية الظالم أهلها ، والقرية هى « مكة » .

وقصة هؤلاء تحكى عن أناس من المؤمنون كانوا بمكة وليست لهم عصبية تمكنهم من الهجرة بعد أن هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم ممنوعون من أن يهاجروا ، وظلوا على دينهم ، فصاروا مستضعفين . رجالاً ونساءً وولداناً ، فالاضطهاد الذى أصابهم اضطهاد شرس لم يرحم حتى الولدان ، فيقول الحق للمؤمنين : « وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان »

وهؤلاء عندما استضعفوا ماذا قالوا ؟ . قالوا : « ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً » وعبارة لدعاء تدل على أنهم لن يخرجوا بل سيظل منهم أناس وثقوا فى أنه سوف يأتيهم ولىّ على أمرهم من المسلمين ، فكأنها أوحت لنا بأنه سيوجد فتح لمكة . وقد كان

لقد جعل الله لهم من لدنه خير ولىّ وخير ناصر وهو محمد - صلى الله عليه وسلم - فتولاهم أحسن التولى ونصرهم أقوى النصر .

هذه الجماعة من المستضعفين منهم « سلمة بن هشام » لم يستطع الهجرة ، ومنهم « الوليد بن الوليد » و« عياش بن أبي ربيعة » ، و« أبو جندل بن سهيل بن عمرو » . وسيدنا ابن عباس - رضي الله عنه - قال : لقد كنت أنا وأمي من هؤلاء المستضعفين من النساء والولدان ، وكانوا يضيقون عليا فلا نقدر أن نخرج ، فمثل هؤلاء كان يجب نصرهم ، لذلك يحض الله عليهم قلوب إخوانهم المؤمنين ويهيج الحمية فيهم ليقاتلوا في سبيلهم ؛ فظلم الكافرين لهم شرس لا يفرق بين الرجال والنساء والولدان في العذاب .

« الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً » وكان رسول الله والمسلمون نصراء لهم .

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾

وعرفنا أن الطاغوت هو : المبالغ والمسرف في الطغيان ، ويطلق على المفرد وعلى المثنى ، وعلى الجمع : فتقول : رجل طاغوت ، رجلان طاغوت ، رجال طاغوت ، والحق يقول :

﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ ﴾

(من الآية ٢٥٧ سورة البقرة)

إذن فالطاغوت يطلق على المفرد وعلى المثنى وعلى الجمع ، وهل الطاغوت هو الشيطان ؟ . يصح . أهو الظالم الجبار الذى يطلبه التسليم له بالظلم ؟ يصحّ ، أهو الذى يفرض الشرّ على الناس فيتقوا شرّه ؟ يصحّ ، وكل تلك الألوان اسمها « الطاغوت » .

والأسلوب القرآنى يتنوع فيأتى مرة ليقول :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ﴾

(من الآية ١٣ سورة آل عمران)

وانظر للمقابلة هنا : « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت » ، هنا « آمنوا » و« كفروا » وهنا أيضا فى « سبيل الله » و« فى سبيل الطاغوت » هذه مقابل تلك . لكى نعرف العبارات التى يبثها ربنا سبحانه وتعالى علينا أن ندرك فيها اللطفة الإعجازية ، قال فى هذه الآية : « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا » مقابلات ، لأن الكافر مفهوم أنه طاغوت ، ولكن : إذا ذكرت فى الثانية مقابلا لمحذوف من الأولى ، أو حذفت من الأولى مقابلاً من الثانية ، هذا يسمونه فى الأسلوب البياني احتباكا كيف ؟

ها هوذا قوله سبحانه وتعالى : « قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة » أى تقاتل فى سبيل الطاغوت . ويقابلها الفئة التى تقاتل فى سبيل الله ولا بد أن تكون مؤمنة .

إذن فالكلام كله منسجم ، فقال : « قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة » وترك صفتها كمؤمنة وقال : « تقاتل فى سبيل الله » وسنعرف على الفور أنها مؤمنة ، وربنا يحرك عقولنا كى لا يعطيها المسائل بوضوح مطلق بل لنعمل فكرنا ، كى لا يكون هناك تكرار ، ولكى نعرف أنه إذا قال . « فى سبيل الله » يعنى مؤمنٌ ، وإذا قال : « فى سبيل الطاغوت » يكون كافراً .

ويتابع الحق : « فقاتلوا أولياء الشيطان » . أى نصراء الشيطان الذين ينفخون فى مبادئه ، والذين ينصرون وسوسته فى نفوسهم ليوزعوها على الناس ، هؤلاء هم

أولياء الشيطان ؛ لأن الشيطان - كما نعرف - حينما حدث الحوار بينه وبين خالقه . قال :

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة ص)

لكنه عرف حدوده ولزمها فقال :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾

(سورة ص)

أي أن من تريده أنت يارب لا أقدر أنا عليه . وهذه تدلنا على أن المعركة ليست بين إبليس وبين الله ، فتعالى الله أن يدخل معه أحد في معركة ، بل المعركة بين إبليس وبين الخالقين من الخلق ، فعندما قال : « فبعزتك لأغوينهم أجمعين » دلّ على أنه عرف كيف يُقسم ويحلف ؛ لأن ربنا لو أراد الناس كلهم مؤمنين لما قدر الشيطان أن يقرب من أحد ، لكن ربنا عزيز عن خلقه ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . ومن هنا دخل الشيطان ، فالشيطان قد دخل من عزّتك على خلقك سبحانك لأنك لو كنت تريدهم كلهم مؤمنين لما استطاع الشيطان شيئاً ، بدليل قوله : « إلا عبادك منهم المخلصين » أي أنا لا أقدر عليهم . ولذلك قسم الشيطان أنه درس وتنبه لمسألة دخوله على العباد فقال :

﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأعراف)

إذن فالشيطان لن يأتي على الصراط المعوجّ ؛ لأن الذي يسير على الصراط المعوج والطريق الخطأ لا يريد شيطاناً ؛ فهو مريح للشيطان ، ويعينه على مهمته ، فيكون وليّه . فأولياء الشيطان هم كل المخالفين للمنهج ، وهم نصراء الشيطان .

والحق يأمرنا : « فقاتلوا أولياء الشيطان » . هؤلاء الذين بينهم وبين الشيطان ولاء ، هذا ينصر ذاك ، وذاك ينصر هذا ، ويطمئننا الحق على ذلك فيقول : « إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » ؛ لأن الشيطان عندما يكيد سيكون كيده في مقابل كيد

ربه ، فلا بد أن يكون كيده ضعيفاً جداً بالقياس لكيد الله ، وليس للشيطان سلطان يقهر قالب الإنسان على فعل ، ولا يستطيع أن يرغمك على أن تفعل ، وليس له حجة يقنعك بها .

والفرق بين من يكره القالب ـ قالبك ـ أنك تفعل الفعل وأنت كاره . كأن يهددك ويتوعدك إنسان ويمسك لك مسدساً ويقول لك: اسجد لي ـ مثلاً ـ إذن فقد قهر قالبك . لكن هل يقدر أن يقهر قلبك ليقول: « أحبني » ؟ . لا يمكن . إذن فالمتجبر يستطيع أن يكره القالب لكنه لا يقدر أن يقهر القلب ، فالذي يقهر القلب هو الحجة والبرهان ، بذلك يقتنع أن يفعل الفعل وليس مرغماً عليه . إذن فالأول يكون قوة ، والثاني يكون حجة .

والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا . اعرفوا أن هذ الشيطان ضعيف جداً ، فهو لا يملك قوة أن يرغمك فإذا أغراك تستطيع أن تقول له : لن أفعل . ولا يستطيع أن يأتي لقلبك ويقول لك لا بد أن تفعل ويحملك على الفعل قهراً عنك فليس عنده حجة يقنعك بها لتفعل ، فهو ضعيف ، فلماذا تطيعونه إذن ؟ . إنكم تطيعونه من خللكم وحبكم للشهوة ، والشيطان لا يقهر قلبكم ، ولا يقهر قالبكم . بل يكفي أن يشير لكم !! ، ولذلك سيقول الشيطان في حجته يوم القيامة على الخلق

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

أي لم يكن لي عليكم سلطان : لا سلطان قدرة أرغمكم على فعلكم بالقالب ، ولا سلطان حجة أرغمكم على أن تفعلوا بالقلب ، أي أنتم المخطئون وليس لي شأن ، إذن فكيد الشيطان ضعيف . و« الكيد » ـ كما تعرف ـ هو : محاولة إفساد الحال بالاحتيال ، فهناك من يفسد الحال لكن ليس بحيلة ، وهناك من يريد أن يفسدها بحيث إذا أمسكت به يقول لك . لم أفعل شيئاً ؛ لأنه يفعل الخطأ في الخفاء . ويفسد الحال بالاحتيال . والكيد لا يقبل عليه إلا الضعيف .

إن القوي هو من يواجه من يكيد له ، فالذي يدسّ السّم لإنسان آخر في القهوة

ـ مثلاً ـ هو من يرتكب عملاً لإفساد الحال باحتيال ، لأنه لا يقدر أن يواجه ، أما القوى فهو يأتى على فعل ذلك ، وحتى الذى يقتل واحداً ولو مواجهة نقول له أنت خائف ، أنت أثبت بجرأتك على قتله أنك لا تطيق حياته ، لكن الرجولة والشجاعة تقتضى أن تقول : أبقيه وأنا أمامه لأرى ماذا يقدر أن يفعل .

إذن فكيد الشيطان جاء ضعيفاً لأنه لا يملك قوة يقهر بها قالباً ، ولا يملك حجة يقهر بها قلباً ليقنعك ، فهو يشير لك باحتيال وأنت تأتيه : ولا يحتال إلا الضعيف . وكلما كان ضعيفاً كان كيده أكثر ، ولذلك كانوا يقولون مثلاً : المرأة أقوى من الرجل لأن ربنا يقول :

﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة يوسف)

ويقول لهم : مادام كيدهن عظيما ؛ إذن فضعفهن أعظم ، وإلا فلماذا تكيد ؟ . ولذلك يبرز الشاعر العربى هذا المعنى فيقول :

وضعيفة فإذا أصابت فرصة ... قتلت كذلك قدرة الضعفاء

لأن الضعيف ساعة يمسك خصمه مرة ـ ولتكنه الظروف منه ؛ يقول : لن أتركه لأنى لو تركته فسيفعل بى كذا وكذا . لكن القوى حينما يمسك بخصمه ، يقول . اتركه وإن فعل شيئاً آخر امسكه واضربه على رأسه ، إذن فإن كان الكيد عظيماً يكون الضعف أعظم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ

يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾

نعرف أن الحق ساعة يقول : « ألم تر » يعني . إن كانت مرئية في زمنها ، فلك أن تتأمل الواقعة على حقيقتها ، وإن كانت غير مرئية فمعناها : ألم تعلم ، ولكن العلم بإخبار الله أصدق من العين . وحين يقول الحق . « كفوا أيديكم » لا بد أن تكون بوادر مدّ الأيدي موجودة ، فلن يقال لواحد لم يمد يده : كف يدك . والكلام هنا في القتال ، فيكون قد كفوا أيديهم عن القتال ، بدليل أن الحق سبحانه وتعالى جاء في المقابل فقال : « فلما كتب عليهم القتال » إذن فقد قيل لهم : « كفوا أيديكم » لأن بوادر مدّ الأيدي للقتال قد ظهرت منهم إما قولاً بأن يقولوا . دعنا يا رسول الله نقاتل ، وإما فعلاً بأن تهيأوا للقتال . وعندما يقول القرآن : « فلما كُتِبَ عليهم القتال » دل هذا القول على وجود زمنين بصدد هذه الآية : زمن قيل لهم كفوا أيديكم ، وزمن كُتِبَ عليهم القتال ، فمنهم من هذه أنه كانت هناك بوادر لمدّ اليد إلى القتال قبل أن يكتب عليهم القتال والذين قالوا:دعنا نقاتل هم . ابن عوف وأصحاب له ، ولو كان الأمر بالقتال متروكا للرسول لكان قد أمرهم بمجرد أن قالوا ذلك .

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن عبدالرحمن بن عوف وأصحابا له أتوا النبي صلى الله عليه وسلم بمكة . فقالوا : يا نبي الله ، كنا في عزة ، ونحن مشركون ، فلما آمنا صرنا أذلة قال . « إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم » فلما حوله الله إلى المدينة أمره بالقتال ، فكفوا ، فأنزل الله «ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم »[1] .

---

(١) رواه ابن أبي حاتم ، ورواه النسائي والحاكم

راجع أصله وخرّج أحاديثه ، أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

وهذا دليل على أنه منتظر أمر السماء . وبعد ذلك كتب الله عليهم القتال ، فلما كتب عليهم القتال تملص البعض منه مصداقاً لقول الحق : « فلما كُتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » فلماذا هذه الخشية وهم مؤمنون : هل هذا يعني أنهم خافوا الناس أو رجعوا في الإيمان ؟ كما طلب بعض من بني إسرائيل القتال .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إذن فعندما تصل المسألة إلى الأمر التطبيقي ، قد يدب في نفوسهم الفرَق والخوف ، والحق سبحانه لم يمنع الأغيار أن تأتي على المؤمن ، فمادام الإنسان ليس رسولا ولا معصوما فلا تقل : فلان عمل كذا أو فلان عمل كذا ، لأن فلانا هذا لم يدع أنه معصوم ، ولذلك يصح أن تأتي منه الأخطاء ، وتأتيه خواطر نفسه ، وتأتيه هواجس في رأسه ، ويقف أحياناً موقف الضعف ، ولذلك عندما يقول لك واحد : فلانه عملت كذا وفلان عمل كذا ، قل له : وهل قال أحد إن هؤلاء معصومون ؟ ومادامو غير معصومين فقد يتأتى منهم هذا

والله يقول : « إذا فريق منهم » وهذا يعني أنهم ليسوا سواء ، ففريق منهم أصابه الضعف ، وفريق آخر بقي على شدته وصلابته في إيمانه لم تلن له قناة ولم ينله وهن ولا ضعف ، ثم انظر أدب الأداء لم يقل : فلان أو فلان . بل قال : « إذا فريق منهم » وهذا يستدعي أن يبحث كل إنسان في نفسه ، وهذه عملية أراد بها الحق الستر للعبد ، ومادام الستر قد جاء من الرب ، فلتعلم أن ربنا أغير على عبده من نفسه ، ولذلك نقول دائما : ساعة يستر ربنا غيب الناس على الناس فهذا معناه : تكريم للناس جميعا .

وهب أن الله اطلعك على غيب الناس أكنت أن يطلع الناس على عيبك؟! لا ، إذن فأنت عندما ترى أن ربنا قد ستر عيبك عن الناس وستر عيب الناس عنك فاعرف أن هذه نعمة ورحمة ؛ لأن الإنسان ابن أغيار ، فيصح أن واحداً أساء إليك في نفسه ولم يرغب أن تعرف ذلك ، وأنت أيضاً تريد أن تتخلص منه وتكرهه ، فلو أطلعه الله على ما في قلبك ، أو أطلعك على ما في قلبه لكانت معركة يجرح فيه كل منكما كرامة الآخر ، لكن ربنا ستر عيب خلقه عن خلقه رحمة بخلقه

وأنت أيضاً أيها العبد قد تعصيه ويجب أن يستر عليك ، ويأمر الآخرين ألا ينقصوا أحيار معصيتك له . هل أيوجد رب مثل هذا الرب ؟ شيء عجيب ؛ فقد تكون عاصياً له ويجب أن يستر عليك ، ويأمر غيرك : إياكم أن تتبعو عورات الناس ، فقد يكون عندهم بعض الحياء ، ويكونون مستترين في أسمالهم وملابسهم لماذا ؟ حتى لا يفقدوا أنفسهم أو يضلوا طريق التوبة لربهم .

إذن فالحق يرحم المجتمع ، ولكن الخيبة من الناس أنهم يلحون على أن يعلموا الغيب ويبحثوا عمن يكشف لهم الطالع . ونقول لن يفعل ذلك . يا رجل لقد ستر الله الغيب عنك نعمة منه عليك ، فاجعله مستورا كما أراد الله .

إن الحق سبحانه وتعالى يقول : « إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » والواحد من هذا الفريق يخشى القتال والقتل ، ويخاف من الموت ؛ لأنه سيأخذه إلى جزاء العمل الذي عمله في الدنيا . ولذلك نجد أحد الصحابة يقول : أكره الحق .

فتساءل صحابي آخر : كيف تكره الحق ؟ قال : أكره الموت ومن منا يحبه !

ولماذا يخشى الناس القتال ؟ لأن الله حين يُميت ؛ يُميت بدون هدم بنية ، ولكن الأعداء في القتال قد يقطعون جسد الإنسان ويمثلون به ، لكن إن استحضر العبد الجزاء على هذه المُثْلَة تهون عليه المسألة .

« إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا

القتال » وكأنهم قد نسوا أنهم طلبوا القتال ، كي نعرف أن النفس البشرية حين تكون بمأى عن الشيء تتمناه ، وعندما يأتيها تعارضه .

« وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب » فهل جاء هذا الكلام منهم على سبيل الاستفهام ؟ يوضح الله لنا ذلك : إنهم يقولون : يارب لماذا ابتليتنا هذا الابتلاء ، وقد لا نقدر عليه في ساعة الخوف من لقاء المعارك ؟ لذلك طلبوا أن يؤجل الله ذلك وأن يجعلهم يموتون حتف أنوفهم لا بيد العدو ، وكلمة « إلى أجل قريب » توضح أن كل واحد منهم يعي تماماً أنه سيموت حتماً ، لكن لا أحد منهم يريد أن تنتهي حياته بالقتل

ولماذا تطلبون التأخير ؟ أحباً في الدنيا ومتاعها ؟ ويأتي جواب الحق : « قل متاع الدنيا قليل » ولا يصح أن تحرصوا عليه أيها المؤمنون حرصاً يمنعكم أن تذهبوا لتقاتلوا ، فكلكم ستموتون ، وكل منا يجازيه ربنا على عمله ، أما الذي يُقتل في سبيل الله فسيجازيه على عمله فورا ، ويعطيه حياة أخرى مقابل الموت لأنه سيأخذ الشهادة ، ولذلك يأمر الحق رسوله بأن يقول : « قل متاع الدنيا قليل » إن قارنته بما يصل إليه المرء من ثواب عظيم إن قتل في الحرب جهاداً في سبيل الله . قال بعضهم إذا كان لا مفر من الموت ، فلماذا لا نذهب لنقاتل في سبيل الله ، فإن قتلنا فليكن موتنا بثمن رائد عن عملنا ، إذن فهذا تربيح وتنمية للعائدة ، ولذلك قال الحكيم .

ولو أن الحياة تبقى لحي لعددنا أضلنا الشجعان

أي أن الحياة لو كانت تبقى لحي لكان أضل الناس فيها هم الشجعان الذين يقتلون أنفسهم في الحرب ، لكن المسألة ليست كذلك ، والشاعر العربي يقول :

ألا أيها الزاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مُخلدي

والمتنبي يقول :

أرى كلنا يبغي الحياة لنفسه حريصا عليها مستهاما بها صبا
فحب الجبان النفس أورثه التقى وحب الشجاع النفس أورده الحربا

إذن فالاثنان يحبان نفسيهما ، لكن هناك فرق بين الحب الأحق والحب الأعمق .

وعندما ننظر إلى إجمالي السياق في الآية نجد أن الحق سبحانه يربي - في صدر الإسلام - الفئة المؤمنة تربية إيمانية لا تخضع لعصبية الجاهلية ولا لحمية النسب ، فريق من المؤمنين بمكة الذين ذاقوا الاضطهاد أحبوا أن يقاتلوا ، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم يبلغهم أنه لم يؤمر بالقتال بعد ، وأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأن يصبروا على ما هم فيه حتى يأذن الله بالقتال ، وتلك تربية أولى للفئة المؤمنة ؛ لأن الإسلام جاء وفي نفوس العرب حمية وعصبية وعزة وأنفة . فكلما أهيج واحد منهم في شيء فزع إلى سيفه وإلى قبيلته وشنها حرباً ، فيريد الله سبحانه أن يسل من الفئة المؤمنة الغضب للنفس والغضب للعصبية والغضب للحمية ، ويراد أن يجعل الغضب كله لله .

وحينما جاء الإذن بالقتال ، جاء لا ليفرض على الناس عقيدة ، ولا ليكرههم على إسلام ، وإنما جاء ليحمي النفس الإنسانية من أن يتسلط عليها الأقوى الذي يريد أن يجعل الأضعف تبعاً له ، فأراد سبحانه أن يحرر الاختيار في الإنسان فكان القتال حفاظاً على كرامة الإنسان أن يكون تبعاً في العقيدة لغيره ، وبعد ذلك يعرض قضية الإسلام عرضاً عقلياً ؛ فمن استجاب له فمرحباً به ، ومن لم يستجب فله أن يظل على دينه . وهذا يدل على أن الإسلام دين منع التسلط على عقائد الناس ، وضمن لهم الحرية في أن يختاروا ما يحبون من العقائد بعد أن بين لهم الرشد من الغي .

وحينما شرع الله القتال فقد شرعه دون أن يكون هناك أدنى تدخل لغضب النفس ولا لحميتها ولا لعزتها ، ويشاء الحق سبحانه وتعالى أن يصور العواطف الإنسانية التي تواجه الإسلام ويواجهها الإسلام تصويرا طبيعياً . فبين لنا أن الطبع الإنساني يعالج بالتربية ، ولهذا نجد أن بعضاً من الذين طلبوا القتال خافوا : « إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » .

إذن فهناك فرق بين نظرية أن نقاتل ، وأن نخوض القتال بالفعل ، لذلك نجد أن منهم من خاف الذهاب إلى القتال خشية أن يُقتلوا ، والقتل كما تعلمون هدم بنية ، ولكن الموت حتف الأنف هو الذي يسحب به الله الروح الإنسانية ، دون

هدم بنية أو نقض لها وأيضا فالقتال يكون مظنة القتل ، والخوف من القتال مظنة التراخي في الأجل ، فالقتل موت مقرب أمام المقاتل ، لكن الموت حتف الأنف علمه عند الله ، لذلك قالوا : « ربنا لم كتبت علينا القتال » .

فهل كان طلبهم للقتال لقصد الحمية ، وسبحانه يريد أن يبرىء المؤمن أن يكون قتاله للحمية ، لأنه جل وعلا يريد أن تكون المعركة إيمانية ؛ لتكون كلمة الله هي العليا حتى ولو كان المحالف له صلة نسب أو صلة عصب أو صلة عواطف .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يعلمنا ذلك ؛ لأن الأمة الإسلامية ستواجه عدوا شرسا في تثبيت قاعدة الاختبار الإيماني في البشر ، فقال الحق لرسوله صلى الله عليه وسلم : إن قالوا لك ذلك « قل متاع الدنيا قليل » ، فالحرص على أن يستبقي المؤمن نفسه من القتل ليموت بعد أجل قريب يعني أنه يريد أن يأخذ من الحياة فرصة أكبر ، فأوضح الحق : لا ، ضعوا مقياسا تقيسون به الجدوى ، فسبحانه قال :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ١١١ سورة التوبة)

إنه شراء وبيع . وأيضاً قال سبحانه في الصفقة الإيمانية :

﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الصف)

إذن فالله يعلمنا بلمحة النعمة الإنسانية ، والذيل ، الفطن ، الذكي هو الذي يتاجر في الصفقة الرابحة أو المضمونة أو التي تكون جدواها والفائدة منها أكثر من سواها . فلو أننا قارنا الدنيا ، لعلمنا أنها مهما طالت لا تؤثر ولا تزيد في عمر الفرد ؛ لأن الدنيا تطول في الزمن ، لكنها بالنسبة للأفراد تكون بمقدار عمر كل واحد فيها ، لا بمقدار أعمار الآخرين ، فإن دامت للآخرين طويلا ، فما دخل الفرد في ذلك ؟

إذن فالدنيا بالنسبة للفرد هي زمن محدد ، والله يبشر المؤمن الذي يقتل في سبيله أنه يأخذ من الصفقة زمناً غير محدود . وأيضاً فالبقاء في الدنيا بدون قتل وإلى أن

يموت الواحد حتف أنفه ، هو بقاء مظنون وغير متيقن . ونحن نرى من يموت طفلاً أو شاباً أو كهلاً . أما الآخرة فهى غير محدودة وهى متيقنة

إن النعيم فى الدنيا يكون على مقدار تصور الفرد للنعيم وإمكانات الفرد فى تحقيق النعيم . وأما النعيم فى الآخرة فيكون على المقدار الذى أعده الله لعباده بطلاقة قدرته وسعة رحمته . فإن قارنا صفقة الدنيا بالآخرة لوجدنا أن متاع الدنيا على فرض أنه متاع هو قليل بالنسبة للآخرة .

إذن فالحق يعطى لنا قيمة الصفقة الإيمانية ، ويعلم أن كل إنسان يحب الخير لنفسه ، فلا يظن أحد أن الدين جاء ليسلبه الحرية ، أو ليستذله ، فالدين إنما جاء ليريح المؤمن النفسية وينميها له

ومثال ذلك عندما منع الدين واحداً أن يسرق الآخرين فهو قد منع أيضاً كل الآخرين أن يسرقوا من أى واحد ، وبذلك يكسب كل إنسان حماية الدين له ، فحين يمنع الواحد عن فعل خطأ فى حق الآخرين فهو قد منع الآخرين وهم ملايين أن يخطئوا فى حقه . فإذا قال الدين لواحد لا تمد عينيك إلى محارم غيرك ، فمعنى هذا القول ما يوصى كل غير فى الدنيا : لا تمدوا أعينكم إلى محارم فلان ، فالكسب العظيم - إذن - يعود على الفرد

وقول الحق ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ﴾ يوضح لنا عظمة الصفقة الإيمانية ، وبعد ذلك يؤكد لنا العدل فى قوله ﴿ ولا تظلمون فتيلا ﴾ ونعرف أن الفتيل هو ما فُتل من الأقذار حينما يدعك الإنسان كفيه معاً ، فيخرج تالجا كالفتلة ، أو الفتيل هو الفتلة فى بطن النواة ، أى لا تظلم حتى فى الشىء التافه . والعدالة هنا بشروطها ؛ لأن الله أوضح أن من يصنع السيئة يجازى بسيئة مثلها ، ومن يصنع حسنة يجازى بعشرة أمثالها أو أكثر

وهكذا لا ترهق العدالة مؤمناً لأنها تأتى بفضلها ، فالحسنة بعشر أمثالها أو أكثر ، وتحسب الحسنة عند الله فى ميزان العدالة بما أخذ من الفضل ، فلا يقولن واحد : إن هناك عدلاً من الله بدون فضل .

إذن فقول الحق : « ولا تظلمون فتيلاً » هو بضميمة الفضل إلى العدل ولذلك نحن ندعو الله قائلين : اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل ، لأن مجرد العدل قد يتعبنا . وندعو الله : وبالإحسان لا بالميزان ، لأنه لو عاملنا بالميزان قد نتعب وندعو الله : وبالجبر لا بالحسب . والجبر هو أن يجبرنا الله ، وهكذا نرى أن قوله الحق : « ولا تظلمون فتيلا » بلاغ من الحق لنا أننا سنعدل معكم بالفضل فتكون السيئة بواحدة ، وتكون الحسنة بعشر أمثالها أو أكثر .

وقوله الحق : « ولا تظلمون فتيلاً » يعني فيما قضى به سبحانه متفضلاً بالفضل مع العدل وسبحانه يريد أن يطمئنك على أن قضايا الإيمان يجب أن يحافظ عليها ، وإياك أن تظن أن عملك هو الذي سيعطيك الجزاء ، ثم فضل الله هو الذي سيعطيك الجزاء . يقول الحق :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة يونس)

فالفضل هو الذي يُفرح قلب المؤمن . ثم يأتي الحق سبحانه ليرد من بعد ذلك على قضية قالها المنافقون حينما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحد ، ثم قتل من قتل من المسلمين ، فقال المنافقون : « لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا » ، فعلموا أن العندية عندهم حصن لهم من الموت ، وأن الذهاب إلى القتال هو الذي يجلب الموت ونعرف أن كل حدث من الأحداث له زمان وله مكان ويسميه الظرف

إن النحين يرسمو « الظرف » في النحو يقولون : « ظرف زمان أو ظرف مكان » ، وكل حدث من الأحداث لا بد أن يوجد له زمان ومكان والزمان في الموت مبهم والمكان في الموت أيضاً مبهم ، فظرف حدث الموت زماناً أو مكاناً مبهم ، وحين يبهم الله شيئاً ، فلا تظنوا أنه يريد أن يخفيه ويُغمضه علينا ، بل الحق يبهم الأمر ليوضحه أوضح بيان ، فالإبهام من عنده أوضح بيان ، كيف ؟ .

إنه سبحانه حين يبهمها يرمز الموت ويخفيه عليه فمعنى ذلك أن الإنسان قد يستقبل الموت في أي لحظة ، وهل هناك بيان أوضح من هذا ؟ . فحين جهّلنا برمز الموت فهو لم يمنع عنا معرفة زمنه ، ولكنه أشاع زمنه في كل زمن ، فلا أحد بقادر على

الاحتياط من زمن الموت ، وكذلك الحال فى مكان الموت

وها هوذا الحق يقول .

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ ﴾

والحق هنا يتعرض لقضية الموت مع المكان فقال : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » فالعقل البشرى الذى يتوهم أن بإمكانه الاحتياط من الموت ـ مكاناً ـ عليه أن يعى جيداً أنه لا يستطيع ذلك ، فوجود الشخص عند ظرف ما لا يدفع ولا يمنع عنه الموت ، فالعندية سواء فى معسكر الكفر أو فى معسكر الإيمان لن تمنع حدوث الموت .

والعندية ـ كما نعلم ـ تعطى ظرف المكان فلطالما تعلمل الموت تخترق أى مكان وزمان مادام الحق قد قضى به . وأعداء الإنسان فى عافيته وفى حياته كثيرون ، لكن إن نظرنا إليها فى العنف نجدها تتناسب مع اللطف . فكلما لطف عدو الإنسان وقق ، كان عنيفا ، وكلما كان ضخما كان أقل عنفا فالذى له ضخامة قد يهول الإنسان ويفزعه ، ولكن بإمكان الإنسان أن يدفعه . لكن متى يكون العدو صعباً ؟ يكون العدو صعبا كلما صغر ولطف ولا يدخل تحت الإدراك . فيتسلل إلى الإنسان

ومثال ذلك : هب أن واحداً يبنى بيتاً فى خلاء ومر عليه إنسان ليبارك له وضع

أساس البيت فيقول لصاحب البيت : إنك لم تحتط لمثل هذا المكان ، فهو يمتلىء بالذئاب والثعالب ويجب أن تضع حديداً على النوافذ التي في الدور الأرض ، وذلك حتى لا تدخل إليك هذه الحيوانات المفترسة .

ويضع صاحب البيت حديداً على نوافذ الدور الأول . ويجيء واحد ثان ويقول له : لقد فاتك أن هذا المكان به ثعابين كثيرة وعليك أن تضيق فتحات الحديد ، ويفعل ذلك صاحب البيت ليرد الثعابين . ويجيء ثالث لزيارة صاحب البيت فيقول : إني أتعجب منك كيف تحترس من الذئاب والثعابين ولا تحتاط من ذباب هذه المنطقة ؟ . إنه ذباب سام وهنا يضع صاحب البيت سلكاً على النوافذ . ويجيء واحد رابع ليقول لصاحب البيت : في هذه المنطقة حشرات أقل حجماً من الذباب وأكثر عدداً من البعوض ويمكنها أن تتسلل من فتحات السلك الذي تضعه على نوافذك ، فيخلع صاحب البيت السلك المعلق على نوافذ البيت ويقوم بتركيب سلك آخر فتحاته أكثر ضيقاً بحيث لا تمر منه هذه الحشرات . إذن فمدلول كلما لطف ودق عن الإدراك كان خطيراً .

ولذلك فأخطر الميكروبات التي تتسلل إلى الإنسان ، ولا يدري الإنسان كيف دخلت إلى جسمه ولا كيف طرقت جلده ، ولا يعرف إصابته بها إلا بعد أن تمر مدة التفريخ الخاصة بها وتظهر بجسمه آلامها ومتاعبها . إنها تدخل جسم الإنسان دون أن يدري ولا يعرف لذلك زماناً أو مكاناً

ويهتدنا سبحانه إلى أن الشيء عندنا كلما لطف ازداد عنفاً ، ولا تمنعه المداخل . فما بالكم بالموت وهو ألطف من كل هذا ، ولا أحد يستطيع أن يحتاط منه أبداً .

وما مقابل الموت ؟ . إنه الحياة حيث توجد الروح في الجسد . وما كنه الروح ؟ لا يعرف أحد كنه الروح على الرغم من أنه يحملها في نفسه ، ولا أحد يعرف أين تكون الروح أو ما شكلها ، ولا أحد يعرف من رآها أو سمعها أو لمسها .

وعندما يقبضها الله فإن الحياة تنتهي . والحق هو الذي جعل للحيّ روحاً ، وعندما ينتزعها فيه تأتي الحياة .

إن الحق ـ سبحانه ـ يلفتنا وينبهنا إلى ذلك فيترك في بعض ماديات أشياء لا يستطيع العلماء بالطب ولا المحاهر أن يعرفوا كنهها وحقيقتها ، فنحن لا نعرف ـ مثلاً ـ الميروس المسبب لبعض الأمراض .

فإذا كان الله قد جعل للإنسان روحاً يهبه بها الحياة ، فليذ لا نتصور أن للموت حقيقة ، فإذا ما تسلل للإنسان فإنه يسلب الروح منه ، وبذلك نستطيع أن نفهم قول الحق سبحانه وتعالى في سورة الملك :

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

(الآية ١ وجزء من الآية ٢ سورة الملك)

إذن فالموت ليس عملية سلبية كما يتوهم بعض الناس ، بل عمليه إيجابيه ، وهو مخلوق بسرٍ دقيق للغاية يناسب دقة الصانع ووصف الحق أمر الموت والحياة في سورة الملك وقدم لنا الموت على الحياه ، مع أننا في ظاهر الأمر نرى أن الحياة تأتي أولاً ثم يأتي الموت . لا ، إن الموت يكون أولاً ، ومن بعده تكون الحياة . فالحياة تعطى للإنسان ذاتية ليستقبل بها الأسباب المخلوقة، فيحرث الأرض أو يناجر في الأشياء أو يصنع ما يلائم حياته ويمتع به السمع والبصر ، فيظن أن الحياة هي المخلوقة أولاً .

ينبهنا ويوضح لنا الحق : لا تستقبل الحياة إلا إذا استفدت فيها ما ينقص الحياة ، فيفوز بنا عن نفسه . « الذي خلق الموت والحياة » وهذا ما يسهل علينا فهم الحديث القدسي الشريف الذي يشرح لنا كيف يكون الحال بعد أن يوجد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ويأتي الحق سبحانه بالموت في صورة كبش ويذبحه .

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . يؤتى بالموت يوم القيامة ، فيوقف على الصراط ، فيقال : يا أهل الجنة فيطمعون خائفين وَجِلين أن يخرجوا من مكانهم الذي هم فيه . فيقال : هل تعرفون هذا ؟ قالوا .

نعم ربنا ، هذا الموتُ ، ثم يُقال : يا أهل النار ، فيطلعون فرحين مستبشرين ، أن يخرجوا من مكانهم الذى هم فيه . فيُقال : هل تعرفون هذا ؟ قالوا : نعم هذا الموت ، فيأمر به فيُذبح على الصراط ، ثم يقال للفريقين « كلاهما »[1] « خلود فيما تجدون لا موت فيه أبد »[2] .

وتجسيد الموت فى صورة كبش معناه أن للموت كيونة . ويعلمنا الله أنه يقضى على الموت ، فنحيا فى خلود بلا موت . وينبه الناس الذين كفروا وظنوا أن الذين قتلوا فى سبيل الله لو كانوا عندهم لما ماتوا . نقول لهم : العندية عندكم لا تمنع الموت ولو كان من دنا أجله وحان حَيْنه يسكن فى بروج مشيدة لأدركه الموت

إن الأداء القرآنى يتنوع ، فهناك من الآداء ما نفهمه من الألفاظ ، وهناك ما نفهمه من الهدْى الأسلوبى للقرآن ؛ لأنه خطاب الرب فالبشر فيما بينهم يتخاطبون بملكات لغوية وملكات عقلية ، لكى عندما يخاطب الحقُّ الخلقَ فسبحانه يخاطب كل ملكات النفس ولذلك نجد طفلاً صغيراً يحفظ القرآن ويتمتع بالسرور ، فيسأله واحد من الكبار : ما الذى يسرك فى حفظ القرآن ؟ . فيجيب الصغير : إننى أحس بالانسجام وكفى هو لا يعرف لماذا يحس بالانسجام من سمع القرآن أو حفظه ، فالمتحدث هو الله ، وسبحانه بقدرته وجماله كيف يخاطب كل الملكات النفسية .

وسبحانه وتعالى يقول : « أينما تكونوا يدرككم الموت » أى أينما توجدوا يدرككم الموت . وكلمة « يدرككم » دليل على أن الإنسان عندما يذنب فيه الروح يطلق الموت مع الروح ، إلى أن يدركها فى الزمن الذى قدره الله . وكلمة « يدرك » توضح لنا أن الموت يلاحق الروح حتى إذا أدركها سلبها وكما قال الأثر الصالح عن ملاحقة الموت للحياة : « حتى إذا أدركها جرت ، فلا أحد منكم إلا هو مُدْرَك » ، ولذلك يقول أهل المعرفة والإشراق : « الموت سهم أرسل إليك وإنما عمرك هو بقدر سفره إليك » .

---

(١) كلمة (كلاهما) هكذا جاءت بالأصل ، والمعروف فى القاعدة « كليهما » ؛ لأن الكلمة تركيب مجرور ، ولعله على لغة من يلزم المثنى الألف

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد فى مسنده جـ٣٤ ص ٢٠٤

وهكذا نعرف أن قوله الحق : « يدرككم » يدل على أن الموت يلاحق حياة الإنسان ويجرى وراء روحه حتى يدركها .

ويقول الحق . « ولو كنتم فى بروج مشيدة » . وعندما نبحث فى الحروف الأصلية لمادة كلمة « البروج » نستطيع أن نرى المعنى العام لها والحروف الأصلية فى هذه الكلمة هى « الباء » و« الراء » و« الجيم » وكلها تدل على الارتفاع والظهور

فيقال : « هذه امرأة فيها بَرَج » أى أن عيونها واسعة وتحمل قدراً كبيراً من وجهها وتكون واضحه ، فالبَرَجُ هو الاتساع والظهور .

والأبراج عادة كان بناؤها مرتفعاً كحصون وقلاع بنيها نحن الآن من الأسمنت والحديد . والمقصد من « مشيدة » أى أنها بروج تم بناؤها بإحكام ، فالشىء قد يكون عالياً ولكنه قد يكون هشاً . أما الشىء المشيد فهو من « الشِّيد » وهو « الحص » ، ومن « الشِّيد » وهو « الارتفاع » ، والمقصود أن لبنات البرج تلتحم أعماقها وأجزاؤها بالحص فهى مرتفعة متماسكة .

إنك إذا رأيت جمعاً وقويل بجمع فمعنى ذلك أن القسمة تعطيها أحاداً . فساعة يدخل المدرس الفصل يقول لطلابه : أخرجوا كتبكم . فمعنى هذا القول أن يخرج كل تلميذ كتابه . وعلى ذلك يكون القياس فلو بنى كل إنسان لنفسه برجاً مشيداً بلغه الموت .

والجمع مقصود أيضا : أى لو كنتم جميعا معتصمين ببرج عال ببرج آخر وثالث ورابع ، كأنه حصن محصن فالحصون فى بعض الأحيان يتم بناؤها وكأنها نقطة محاطة بدائرة صغيرة وحول الدائرة دائرة أخرى أوسع . وبذلك تجد الحصن نقطة محاطة بعدد من الحصون . والموت يدرك البشر ولو كانوا فى برج محاط ببروج وكلا المعنيين يوضح قدرة الحق فى إنفاذ أمره بالموت .

وساعة يتكلم سبحانه عن الموت وعن الحياة فى الجهاد فهو يريد أن يخرج الناس

من الظلمات إلى النور ؛ لأن الدين هو نور طارىء على ظلمة ، والذين يعيشون فى الظلام يكونون قد ألفوا الظلمة والفوضى وكل منهم يعربد فى الآخرين . وعندما جاء الدين فرّ بعضهم من مجىء النور ؛ لأن النور يحرمهم من لذات الضلال ؛ ولأن النور يوضح الرؤية .

لذلك يوضح سبحانه وتعالى أنه أتى بالموت ليؤدى حاجتين : الحاجة الأولى : أنّ مَن يؤمن عليه أن يستحضر الموت لأن جزاءه لا يكون له منفذ إلا أن يموت ويلقى ربه ، ويعلم أن الحاجب بينه وبين جزاء الخالق هو الموت ، فساعة يسمع كلمة الموت فهو يستشرف للقاء الله ؛ لأنه ذاهب إلى الجزاء

والحاجة الثانية : أن غير المؤمن يخاف الموت ويخشاه ولا يستعد له ويخاف أن يلاقى ربه . إذن فكلمة « الموت » تعطى الرّغب والرّهب . فصاحب الإيمان ساعة يسمع كلمة الموت يقول لنفسه : إن متاعب الدنيا لن تدوم ، أريد أن ألقى ربى .

ولذلك يجب أن يستحضر المؤمنون بالله تلك القضية . وحين يستحضرون هذه القضية يهون عليهم كل مصاب فى عزيز ؛ فالإنسان مادام مؤمناً فهو يعرف أن العزيز الذى راح منه إما مؤمن وإمّا غير مؤمن ، فإن كان مؤمناً فليفرح له المؤمن الذى افتقده ؛ لأن الله عجّل به ليرى خيره ، فإن حزنت لفقد قريب مؤمن فأنت تحزن على نفسك . وإن كان الذى ذهب إلى ربه غير مؤمن ، فالمؤمن يرتاح من شره . إذن الموت راحة ، والذى عمل صالحاً يستشرف إليه ، وهذا رَغَب ، أما الكافر فهو خائف ؛ وهذا رَهَب .

ولذلك فمن الحمق أن يحزن الإنسان على ميّت ، وعليه أن يلتفت إلى قول الحق : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » .

ويتابع الحق : « وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً » . ومثل هذا الكلام ألِيق بمن ؟

الذى يقول عن الحسنة إنها من عند الله فهو يؤمن بالله وحده لكلمة لها فى ذهنه تصور . والآية لا تريد هذا الصنف من الناس ولكن بعضهم يريد أن يفرق بين محمد وربه . فيسب الخير والحسنة لله ، وينسب الشر والسيئة لمحمد ، وعلى هذا فالذين قالوا مثل هذا الكلام إما أن يكونوا من المنافقين الذين أعلنوا إسلامهم وولاءهم لرسول الله وفى قلوبهم الكفر ، وإمّا أن يكونوا من بعض أهل الكتاب لأنهم يؤمنون بالله ولكنهم لا يعترفون برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهؤلاء وأولئك ينظرون إلى الأمر الذى فيه خير على أساس أنه من عند الله ، ويلقون اتهاماً باطلاً لرسول الله أنه مسئول عن الشرور التى تحدث لهم . كأنهم يريدون أن يقيموا انعزالاً بين محمد وربه .

لا . فسبحانه لا يتيح لهم ذلك ؛ فقد أنزل قرآناً يتلى إلى أبد الآبدين :

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

والحق يقول :

﴿ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٣١ سورة آل عمران)

فلا أحد يملك أن يصنع مضارة بين محمد وربه ؛ لأن محمداً رسول من عند الله مبلغ لقول الله ومنهجه ، وسبحانه يقول :

﴿ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة التوبة)

والحق سبحانه وتعالى لا يرضى عن عبد يستغفر الله فقط ، ولكن لا بد أن يذهب العبد ويطلب من رسول الله أن يستغفر له الله ، فلا أحد يمكنه أن يقيم صلحاً مع الله من وراء محمد رسول الله ، فلا تفرقوا بين أمر الله وأمر رسول الله ، ومن يريد أن يصنع مضارة بين الله ورسوله بأن يقول عن الحسنة إنها من عند الله ، وأن السيئة من عند محمد ، فهذا قول خاسر

ما حكاية هذا القول ؟ إنهم إن ذهبوا إلى حرب لمنعوا قالوا : « إن الله أسعدنا بالغنائم » . وإن هُزموا قالوا : إن محمدا هو الذي أوقع بنا الهزيمة ، وكأن لمحمد تصرفاً دون تصرف الله . فإياك أن تخدع بمن يحاول أن يعزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه .

إن محمداً قد بعثه الله وأنزل عليه القرآن .

وكان رسول الله حين نزلت الدعوة يأمل أن يستجيب له القوم الذين يؤمنون بالله وهم أهل الكتاب وكانوا أقرب إلى قلبه من القوم الذين لا يؤمنون بالله وهم المشركون ، وكان هناك معسكران : معسكر الفرس ، ومعسكر الروم ، وكان معسكر الفرس يعبد النار ـ معاذ الله ـ أما معسكر الروم فهو يؤمن بالله وبالكتب السابقة على رسول الله ولكنه كافر بمحمد .

والذي يؤمن بالله كان قريباً إلى قلب محمد ممن كفر بالله ، وهذا دليل على أن عصبية محمد قد أتت له من الله وقد ينصرف المعنى إلى اليهود فحينما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة كان من المصادفة أن تقل ثمارهم ومزارعهم ؛ فقالوا : مزارعنا وثمارنا في نقص منذ قدم هذا الرجل . وهل كان ذلك الأمر مصادفة أو أننا نحد به تعطيلاً مادياً ؟

فحينما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أنكروه بعد أن كانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، وسلب مجيئه منهم السلطة الزمنية التي كانت هم ؛ لأنهم كانوا أهل مال ، ويتعاملون بالربا ويثيرون العصبية ، ويتاجرون من أجل أن تظل لهم السيادة ، وهم أهل علم بالكتاب وحاولو التجارة بكلمات الله . فكانت هم السيادة من ثلاث جهات . علمياً ومالياً ومنهجياً .

وعندما جاء الإسلام ألف بين الأوس والخزرج فبارت أسلحتهم وضاعت منهم السلطة التي صنعوها بالتفرقة ، وضاعت منهم سيادة المال ؛ لأن الإسلام حرم الربا ، وضاعت منهم سيادة المنهج لأن الإسلام كشف تحريفهم للكتاب وأنزل الله كتابا ـ وهو القرآن ـ غير قابل للتحريف .

وهكذا انتهت وسائل السيطرة ، لذلك وقعوا فى الحزن وانشغلوا بهذا الهم وكان الواحد من اليهود لا يسارر الآخر من اليهود ولا يناجيه إلا فى أمر محمد ومادامت هذه المسألة قد شغلتهم إلى هذه الدرجة فلا بد أنها قد شغلتهم عن الرواغة والاهتمام بها .

هم انشغلوا عن الأسباب فكانت النتيجة هى ما حدث . ولكنهم حاولوا إلصاق ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان من الصعب عليهم أن يفهموا الأمر الحادث لهم ، وإمّا أن يكون تفسير ذلك هو أن السماء أرادت لهم عقاباً لأنهم حاولوا المكر برسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك شغل وتتهم عن الأخذ بالأسباب وإمّا أن يكون ذلك من آفة سماوية فلماذا لم يلتفتوا إلى أن دين محمد هو المنقذ لهم مما هم فيه ؟

لقد كانوا يستعزون به لكنهم لم يؤمنوا به (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به) فنزل بهم أكثر من عقاب فالذين كانوا يتعاملون مع اليهود بالربا امتنعوا عن ذلك ، وكذلك نقصت الزروع والثمار .

إذن فالمسألة جاءتهم بنقص من الأموال ؛ فقالوا ما قاله الله عما أورده الحق على ألسنتهم : « وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله » . أى كل من الحسنة والسيئة من عند الله . وما الحسنة وما السيئة ؟

الحسنة هى الظفر والغنيمة والسراء والرخاء والخصب . والسيئة هى الهزيمة والقتل والضراء والبؤس والجدب . هذا ما فهموه ، ونحن ـ المؤمنين ـ نفهم الحسنة فهماً دقيقاً ؛ فالحسنة فى الشرع هى ما يأمر به الله ، والسيئة هى ما ينهى عنه الله ؛ بدليل أن المؤمن قد يصاب فى عزيز لديه ثم يقف موقفاً إيمانياً فى استقبال هذه المصيبة ويقول : « إن حزنى لن يرده فالأفضل أن أكسب به الجنة » ويزيد على ذلك : « يكفينى عزاءً الأجرُ عليه ، فأنا لم أكن سآخذ منه طيلة حياته مثل الأجر الذى سآخذه فى صبرى على مصيبتى فيه » .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبهنا بقوله : إياك أن تظن أن الحسنة هى

ما تستطيبه نفسك ، أو أن السيئة هي ما تشمئز منها نفسك ، لا ، فالصواب في عُرْف الشرع هو من حُرم الثواب . ولذلك جاء القول : « قل كل من عند الله » أي أن الحسنة والسيئة من عند الله

وهل يصنع الله سيئة ؟ ونقول : نستغفر الله ؛ فالسيئة في نظر الإنسان والحسنة في نظر الإنسان ، وكلها من عند الله ، ولكن إذا نسبنا الفعل إلى الله فكل ما يصدر عنه حسن ، وافتقاد المقاييس الصحيحة هو الذي يتعب . وعندما نحاول أن نحسب مثل تلك الأمور بحساب بالكمبيوتر تستقيم لنا النتائج .

ومثال ذلك : تلميذ أهمل في المذاكرة وفي حضور الدرس لذلك فهو يرسب آخر العام ، ولكنه ينظر إلى الرسوب على أنه سيئة ، ولكنها في عرف الحق عموماً حسنة . فنجاح مثل ذلك الخائب ضياع لمقاييس الاجتهاد ولا ذاكر أحد ولا نحترم العلم . وحينما وضع الله قانون أن من لا يستذكر يرسب ، فهذا إحياء للحسنة في آلاف غيره ، ويكون الراسب نموذجاً واضحا روافها وتطبيقها ، وخاضعًا لسنة الكون . وكذلك الذي لم يزرع أرضه أو تكاسل عن الحرث أو أهمل الري ، فهو يأتي يوم الحصاد ولا يُؤتى ثماراً وهذا أمر سيئ بالنسبة له ، أما بالنسبة لقضية الحق الكونية في ذاتها فهي حسنة ؛ لأن ذلك يدفع كل واحد إلى عدم إهمال أي سبب من الأسباب ؛ فالخائب بنتيجة عمله يعتبر المصيبة على أنها سيئة ؛ لأن فيها مشقة وإضرارا به ، ولكن لو قاس مسها له بما فعله لوجد أن ذلك هو سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وحين يضع الحق سبحانه وتعالى سنناً في كونه فالذي يأخذ بالأسباب يعطيه ، ويحرم سبحانه من لا يأخذ بالأسباب .

وعندما نقيس الأمور بهذا المقياس نرى الناجح هو المجدّ ، والمتكاسل هو الراسب ، والنتيجة كلها من عند الله تقنيناً كونياً .

والحق سبحانه وتعالى حينما يعرض أقوال طرف فإن كان مقراً بما فيه يتركه من غير تعليق عليه ، وإن كانت قضية باطلة يكر عليها بالحجة ليبطلها ويدحضها .

وهذا يلفتنا إلى أن الحق سبحانه وتعالى لا يريد أن تلف قضايا الخصوم لفاً بحيث لا نعرفها ، ولكنه يعرض قضية الخصوم عرضاً ثم يكر عليها بالنقد ليرى ـ كما قلنا ـ المناعة الإيمانية ، حتى لا تفاجئ قضيةٌ كفرية عقيدةً إيمانية ؛ فسبحانه يعرض قضايا الكفار ويوضح لنا : سيقولون كذا فقولوا لهم كذا . .

مثال ذلك : عندما قالوا إن الله اتخذ ولداً قال الحق :

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾

(من الآية ٥ سورة الكهف)

فهو سبحانه يعرض قضايا الخصوم ؛ لأن الذى يحاول أن يلف قضية الخصوم يكون مشفقاً منها ، لكن من يعرضها ينبه عقل السامع إليها ليبطلها ويقول . « ها هى ذى نقاط الضعف فى هذه القضية » . .

وحينما قالوا : « وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك » أرادوا بهذا القول أن يصنعوا مضارة بين الله ورسوله ، فأوضح الحق سبحانه : قل لهم يا محمدُ « كل من عند الله » ، وتتجلى دقة الحق سبحانه فى أنه جعل محمداً صلى الله عليه وسلم وكيلاً فى البلاغ عنه ، وكان من الممكن أن يسوق الحق القضية بدون « قل » .

لكنه سبحانه أراد فى هذه أن يوسط رسوله صلى الله عليه وسلم فى أنه يقول : « قل كل من عند الله » . و« كل » تعنى : كُلاً من الحسنة ومن السيئة . ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا أن قضايا الوجود تتسق مع فطرة الإيمان .

ولقد وقع خلاف طويل بين العلماء فى أفعال العباد ، وتساءلوا : هل يفعل العبد أى فعل بنفسه ، أو أن الله هو الذى يجرى على عباده الأفعال ؟ فإذا كان العبد هو الذى يفعل الفعل فمن العدالة أن يتلقى الثواب أو العذاب جزاء ما قدم . وإذا كان الله هو الذى يجرى كل الأفعال فلماذا يعذبه الله ؟ ودخل العلماء فى متاهة كبيرة

وهنا نقول : يجب أن نفهم أن الحق حينما خلق الكون جعل فيه سُنناً . ومن

عجيب الأمر أن السُّنن تنتظم وتشمل وتضم المؤمن والكافر مما يدل على أنه لا أحد فى كون الله أولى بربوبية الله من الآخر ، فحتى الذين لا يؤمنون بالله أدخلهم الحق فى ربوبيته فأمر الأسباب التى خلقها استجيبى لمن يخدمك وأعطيه المسببات ولا تلتفتى إلى أنه مؤمن أو كافر لأنى أنا الذى خلقته وأوجدته فى الكون ، ومادمت أنا الذى أوجدته فى الكون فلا بد أن أتكفل بكل ما يقيم حياته ، وأنا سأعرض منهجى ، وأقول لعبادى . أنا أحب هذا الفعل وأنا أكره هذا الفعل فمن يؤمن بى فسيكون له وضعٌ آخر ، سيكون عبداً لله .

إذن فالله بالألوهيّة مناط التكليف لمن يؤمن به ، والرب بالربوبية مناط الخلق والرزق وقيومية الاقتيات للخلق جميعا ، لكل العباد ، فالسنن والنواميس الكونية تخدم الكل ، بدليل أن بعض السنن كانت تحب أن تتمرد لأنها عصية إيمانية لله . عندما ترى الله يعطى بعضاً من عباده وهم غير مؤمنين به

فالسنن والنواميس كجنود لله نجدها متأبية على ابن آدم من عدم شكره لله ، لكن الحق يوضح للخلق المسخر : هم خلقى وأنا الذى استدعيتهم للوجود . فصنع الحق نواميس للكون تؤدى مهمتها للمؤمن وللكافر جميعا ، ثم أنزل سبحانه تكليفاً بوساطة الرسل . يوضح . أنا أحب كذا وأكره كذا فالذى يحبنى يعمل بتكليفى . إذن فمناط الربوبية غير مناط الألوهية .

مناط الربوبية خلق من عَدم وإمداد من عُدم . ومناط الألوهية طاعة ، والطاعة تقتضى أمراً ونهياً فكل ما كان من مدلول الأمر والنهى ـ الذى هو التكليف ـ فهذه مطلوبات الألوهية

وكل ما كان من مطلوبات السنن الكونية فهو من مناط الربوبية . والسنن الكونية لا تتخلف أبداً فمثلا الذى يريد أن ينجح فى مادة من المواد فى مدرسة ما . . لا بد أن يحصل على خمسين بالمائة من مجموع الدرجات . ومن يريد أن ينجح فى مادة أخرى لا بد أن يحصل على أربعين بالمائة . وحين تنطبق هذه الشروط على طالب ما . فهل هذا الطالب هو الذى أنجح نفسه أو أن القانون هو الذى أعطاه النجاح ؟

إن القانون هو الذي أعطاه لنجح . وصحيح أن القانون لم يقل للطالب وهو يكتب الإجابة : إن مستوى إجابته سيحقق له درجات النجاح ، إنه قد بذل جهداً في التحصيل الدراسي ، وحقق له هذا الجهد النجاح في نطاق ما تم تقديره . فالقانون لا ينجح أحداً ، ولا يتسبب في رسوب أحد ، ولكن الطالب الذي يبذل جهداً ينجح ، والطالب الذي لا يبذل جهداً يرسب . وعلى ذلك فكل شيء في الوجود له قانونه

إن اليد المخلوقة لله ، لو نظرنا إلى حركتها ، لا نعرف كيف تزاول مهمتها . وعندما يرفع أحدنا شيئاً من الأرض لا أحد فينا ـ غالباً ـ يعرف العضلات التي تتحرك بتحمل هذا الشيء . فالذي فعل حقيقة هو الله واليد سواء أفعل الإنسان بها خيراً ، أم شراً ، فالفاعل الحقيقي لكل فعل هو الله . وقام الإنسان فقط بتوجيه الطاقة الصالحة للسلام على واحد ، أو لصفع واحد آخر ، فاليد صالحة للمهمتين . وعندما يوجه الإنسان يده للصفع فهو يأخذ عقاباً ، وعندما يوجهها للسلام يأخذ ثواباً

صحيح أن الإنسان ليس له دخل في العمل ذاته ولكن له دخل في توجيه الطاقة الصانعة للعمل ؛ فالثواب أو العقوبة ليست للعمل ولكن لتوجيه الطاقة . ولسكين ـ كمثال آخر ـ يذبح بها الإنسان الدجاجة ، أو يطعن بها إنساناً ، وهي لا تعصى توجيه الإنسان إن ذبح الدجاجة ؛ ولا تعصاه إن طعن إنساناً .

والحق قد خلق قانوناً لسكين أن تذبح ، والإنسان يقوم بتوجيه الآلة التي خلقها الله صالحة لأن تذبح إلى الذبح ، سواء أكان الذبح فيما حرم الله ، أم فيما أحل ، إذن فالله هو الفاعل لكل شيء . ومادام الفعل في نطاق أوامر المكلَّف صاحب السنن فهو الذي يقوم بكل فعل .

وعندما تدقق النظر تجد أن كل فعل من صنع الله ، وليس للإنسان سوى توجيه الطاقة ؛ فالشاب الذي يذاكر دروسه ، لم يخلق عقله ولا خلق عينيه اللتين يقرأ بهما ، ولكن عقله صالح أن يفكر في الأمر الحسن الصالح ، أو أن يفكر في الأمر الرديء ، وعيناه صالحتان لأن ينظر بهما في مجلة هزلية أو ينظر بهما في كتاب .

إذن فهو ساعة يفعل هذا أو يفعل ذلك هل يفعل ذلك من وراء رَبِّه ؟. لا ، إنه لم يفعل شيئاً على الإطلاق سوى توجيه الطاقة التي خلقها الله صالحة لأن تفعل هذا وتفعل ذاك .

إذن فثوابك وعقابك يكونان على توجيه الطاقة الفاعلة إلى الأمر الصالح أو الأمر السيىء . فعندما يقول ربنا : « كل من عند الله » نقول : هذا حق وصدق ؛ فالذي أهمل في زراعة أرضه ولم يسمدها أو لم يرويها وأصابه جدب فهذا نتيجة عدم توجيهه الطاقة المخلوقة لله في مجالها الصحيح .

لكن عندما يمتنع المطر فلا عمل في ذلك للإنسان . فالنواميس الكونية صنعها الله . ومن يأخذ بأسبابها تعطه وإن أصابت الإنسان سيئة في إطار هذه فهي من عند الإنسان ؛ لأنه لم يأخذ بالأسباب .

وما ينطبق على الفرد ينطبق أيضاً على الجماعة ؛ فالذي يلعب الميسر ويأتي له الخراب والدمار ، هذا من نفسه ؛ لأنه تلقى الأوامر من الحق بألا يمارس تلك الألعاب وأي أمة اشتكت من ضيق الأرض الزراعية وضيق لرزق فهذا بسبب الأمة نفسها ؛ لأن القائمين بالأمر كان عليهم العمل لتنمية الموارد بالنسبة لنمو السكان

والذي يتعبنا ويرهقنا أننا نتحمل غفلة أجيال ، فتجمعت المشكلات فوق رءوس جيل واحد . ولو أن كل جيل سبق قام بمسئوليته لكانت مهمة الأجيال الحالية أقل تعباً فمادامت لدينا أرض صالحة لأن تنبت كان علينا أن نعمدها ونستغل المياه الجوفية في زراعتها . فالمسألة إذن كسل من أجيال سابقة . ومادام هناك مخزون في المياه الجوفية كان يجب أن نعمل العقل لنستنبط أسرار الله في الكون . فليس من الضروري أن ينزل المطر ، لأن الحق يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الزمر)

وجعل الله للمياه مسارب فى الأرض حتى تستطيع البلاد ذات الحرارة الشديدة الوصول إلى المياه الجوفية ولا تتعرض المياه المنتشرة فى مسطحات كبيرة للتبخر . لقد أخفى الله جزءاً من المياه فى الأرض لصالح الإنسان . وفى البلاد الحارة نجد الملح واضحاً على سطح التربة دليل على أن الحق وضع قانون تقطير المياه العذبة لتكون صالحة للشرب والزراعة .

وكلنا يعرف قانون التبخر . فعندما نأتى بكوب من الماء ونشره على سطح حجرة مساحتها خمسة وعشرون متراً مربعاً فالماء تتبخر بسرعة . لكن لو تركنا كمية الماء نفسها فى كوب الزجاج فلن تنقص إلا قدراً ضئيلاً للغاية . إذن فكلما زاد المسطح ، كان البخر أسرع . وأراد الحق أن تكون ثلاثة أرباع اليابسة من المياه ، لأن الماء أصل كل شىء حى . وجعل بعضها من الماء المالح حتى لا تأسن ولا تتغير ، وتوجد هذه المياه فى مساحة متسعة حتى تتبخر وتنزل مطراً ، فما يجرى فى الوديان يجرى ، والمتبقى من المياه يصنع له الحق مسارب فى الأرض لأنه ماء عذب ، حتى يستخدم الإنسان ذكاءه الموهوب له من الله فيستخرج المياه من الأرض ، فالحق خلق لنا كل ما يمكن أن يحقق لنا استخراج قوت الحياة .

وسبحانه القائل :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝١٠ ﴾

(سورة فصلت)

فإياكم أن تقولوا : إن السكان سيزيدون عن القوت الذى فى الأرض ، ولكن اعترفوا بشمول القدرات الإبداعية للاستنباط . فبعد أن يقول الله : « وقدر فيها أقواتها » فلا قول يصدق من بعد قول الله وهب أن موظفاً - ولله المثل الأعلى - جاء فى أول الشهر بتموين الشهر كله ووضعه فى مخزن البيت . وجاء ظهر اليوم ولم يجد زوجته قد أعدت الغداء ، فماذا يحدث ؟ إنه يغضب ولقد وضع ربنا أقواتنا مخزونة

فى الأرض ، ونحن لا نعمل بالقدر الكافى على استنباط الخير منها . وسبحانه يوضح لنا : إن الإنسان إن لم يستعد بالنواميس التى خلقها الله له ، ولم ينفذ التكاليف أمراً ونهياً فلسوف يتعب الإنسان نفسه ؛ فتكون معيشته ضنكاً . سبحانه يقول :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة النحل)

هذه القرية كانت تتمتع بالأمن والاطمئنان لكنها كفرت بأنعم الله . والكفر فى المعنى العام هو ألا تشكر النعمة لله . وعندما نمعن النظر بدقة لنرى قانون ربط السبب بالمسببات ، وربط السنن الكونية بالكون والمكون والمكون له نجد أشياء عجيبة ، فهذه القرية كانت آمنة مطمئنة والرزق يأتيها رغداً من كل مكان إذن فالقرية هى مكان السكن ، وليس مكان السكن فقط هو الذى فيه الرزق بل يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكأن كل مكين فى بقعه ؛ له بقع حالية فى مكين آخر تخدمه . وتلك القريه كفرت بأنعم الله .

والكفر فى معناه الواضح هو الستر ، والقرية التى كفرت بأنعم الله هى التى سترت نعمة الله ، فنعمة الله موجوده ولكن البشر الذين فى تلك القرية هم الذين ستروا هذه النعمة بالكسل وعدم الاستنباط للنعمة وترك استخراجها من الأرض .

أو أن سكان هذه القرية استخرجوا نعمة الله واستنبطوها وستروها عن الخلق ، وفساد الكون إنما يأتى من هذين الأمرين :

أى أن هناك أمماً متخلفة ، تكسل سكانها عن توجيه طاقاتهم لاستنباط النعم من الأرض . أو أن هناك أمماً أخرى تملك الثراء والخير وتوميه فى البحر حتى لا يذهب إلى الأمم المتخلفة . والخراب الذى نلمسه فى علاقات العالم ببعضه البعض يقول لنا : إن العالم هو القرية التى ضرب الله بها المثل :

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾

(سورة النحل)

ولمز دقة الأداء القرآنى ، فى قوله - « فأذاقها الله لباس الجوع » ، ونعلم أن الذى يُذاق هو الطعم والطعم يكون باللسان وحده أما اللباس فيعم كل الجسم ، والحق هنا يعطى الإذاقة ولا يكون الذائق هو الفم فقط بل كل الجسم ، فالفم إنما يتناول لصالح بقية الجسم ، وعندما لا تصل مادة الحياة إلى بقية الجسم فكل الجسم يذوق الجوع أيضاً

والكون المخلوق لله مصنوع على نظام دقيق من أجل أن تسير السنن الكونية فى مجالاتها التى حددها الله ، وعندما تنتظم هذه السنن فى حركتها فهى تعطى النتائج للإنسان ولو بعد حين ، حتى إن بعض المفسرين والمتكلمين بعمق يقولون . إن الأمراض الوراثية التى تنتقل من أجيال سابقة إلى أجيال لاحقة كان السبب فيها تقصير آباء واجتراءهم على أشياء مخالفة منهج السماء ، فإذا شرع الله سنة كونية للفرد ثم خالفها تصيبه نتيجتها السيئة من بعد ذلك ، وكذلك لأمة والجماعة .

لكن المسائل التى يقف فيها العقل فقط هى المصائب التى تصيب الناس بغير عملهم وكان على الفلسفة أن تبحث هذا المجال ، أما الدين فهو يقول لنا أسباب تلك المسائل ؛ فالشىء الذى له مقدمات من أسباب تكاسل الإنسان عنها ، ثم أصابته كارثة فهذا من عمل الإنسان فى نفسه . أما الأشياء التى تأتى قدرية فهذا أمر مختلف . فإذا كان ديننا قد وضع للإنسان أسباباً كونية وحكمة الإنسان الإيمانية قالت له : افعل ذلك حتى يحدث كذا ، ولا تفعل ذلك حتى لا يحدث كذا فعلى الإنسان أن يعرف أن الله لم يعطه كل ما يستطيع به استيعاب كل حكمة المكوّن فى الكون ، ليلفت سبحانه الإنسان دائما على أن طلاقة القدرة مازالت موجودة ، فيحدث شىء من الأشياء يتساءل فيه الإنسان - ما سبب ذلك ؟ ولماذا ؟ ومثال ذلك

الزلزال أو البركان أو السيل الجارف والريح العاصف ، كل هذه الأحداث لا دخل للإنسان فيها ، وهى أحداث تقول للإنسان :

بو أن المسائل فى الكون فيها رتابة أسباب لما ارتبطنا بقوة غيبية خفية نضرع إليها دائم لنَسْلَم .

وجاءت بعض مدارس الفلسفة فى ألمانيا ـ مثلا ـ وقالت . إن وجود الشر فى الكون دليل على أنه لا يوجد إله ، فلو كان هناك إله حكيم لما أفلتت منه هذه المسائل . ولما خرج واحد بعين واحدة ولا خرج أعرج ولا مشوه . وقالت مدرسة أخرى فى العصر نفسه : لا . إن رتابة النظام فى الكون دليل على أنه لا يوجد إله ، فلو كان هناك إله لخرق القانون والناموس ولأخرج بعض الأحداث عن هذا الناموس .

وهكذا نرى أنهم يريدون الكفر من أجل الكفر بدليل أن مدرسة أخذت النظام فى الكون كدليل للكفر ، ومدرسة أخرى أخذت الشواذ فى الكون كدليل على الكفر . وكُلٌّ من أقطاب المدرستين إنما يبحث عن سبب للكفر

ونقول لهم كلاكما غبى ؛ الذى يريد منكم النظام سببا لوجود إله حكيم ، والذى يريد الشذوذ سبباً لوجود إله قادر ، هذان الأمران موجودان فى الكون ، وكلاهما دليل على وجود الإله الحكيم القادر لو كنتم منصفين .

انظر إلى النظام فى الكون الأعلى ؛ فلو فسدت فيه مسألة صغيرة لانهدم الكون كله . انظروا إلى الشمس والمطر والكواكب والنجوم ، إنها خاضعة لنظام محكم . فيا من تريد النظام دليلاً على حكمة مكون ، فالنظام موجود ، ويا من تريد الشذوذ دليلاً على أن هناك إلهاً يسيطر على ميكانيكية الكون فهذه أمور موجودة . والشذوذ إنما يتأتى من الأفراد ، فإن شذ فرد فلن يفسد القضية العامة ، فالذى يولد بعين واحدة مبصرة سنجد مئات الملايين امتلكوا البصر كاملاً .

لكن متى يأتى الشذوذ فى نظام الكون وحركة الأفلاك فالذى يحدث هو دمار للعالم .

فمن أراد أن يرى النظام السائد يدل على الحكمة يقول له . انظر إلى الفلك الأعلى . ومن يريد الشذوذ دليلا على أن هناك قوة تتحكم فى ميكانيكية العالم يقول له . هذا موجود ، ولكن الشذوذ موجود فى الأفراد . فإن شذ فرد فلا يعطب بقية الأفراد .

ونعرف ـ أيضا ـ أن رتابة النعمة قد تلهى الإنسان عن المنعم فالإنسان منا يظل لمدة طويلة وأسنانه سليمة فلا يتذكر مسألة أسنانه ، لكن إن آلمه ضرس واحد فهو يتذكر أن له ضرساً ، وكذلك إن آلمته إحدى عينيه ، أو إذا آلمته كُلْيَته فهو يجرى إلى الطبيب . وهذه أمور لافتة حتى تُخرج الإنسان من رتابة النعمة عليه ليتذكر المنعم بالنعمة . وعندما نرى إنساناً أكرمه الله بفقدان البصر ، فالواحد منا يقول . الحمد لله ويمسك الإنسان منا عينيه مخافة أن تذهبا وكذلك عندما نرى أبرص أو أعرج ، وهذه هى وسائل إيضاح فى الكون حتى لا تغفل الناس عن المنعم بالنعمة .

فإذا ما نظرنا إلى الأشياء التى تصيب الإنسان فرداً ، أو تصيب الأمة كمجموع فنحن نجدها بما قدمت يدها ، لأنها صنعت شيئاً يخالف التوجيه . فإن كان هناك شىء خارج عن قدرة الإنسان فنحن نقول : هذه هى حكمة المكوِّن حتى يلفتنا إلى أنه المنعم . وهذا نرى الشواذ فى الخلقة قلة لا كثرة ، ويعوض الله من أصيب بشذوذ فى شىء بدوام ملكة فى شىء آخر ولذلك يقول الشاعر :

عميت جنيناً والذكاء من العمى فجئت عجيب الظن للعلم موئلا
وعاب ضياء العين للعقل رافداً لعلم إذا ما ضيع الناس حصلا

وضربت المثل مرة ببتهوفن الموسيقار العالمى الذى أطرب العالم بسمفونياته . . إنه كان أصم .

ولذلك نحن نسمع فى لغة العامة : كل ذى عاهة جبار . فإذا كان الله قد جعله وسيلة إيضاح ليلفت الناس إلى نعم الله سبحانه عليها فهو يعوضه بموهبة أخرى ويلفت الناس فيها إلى صاحب العاهة فيرون فضل الله عليه أيضا . إذن فالمصائب التى تحدث وليس للإنسان دخل فيها هى الملحظ الذى يجب أن ننتبه . وهذه هى مكونات الحكمة كى يلتفت الإنسان دائما إلى أن الكون غير متروك بلا قيادة

إن الله خلق الكون وخلق القانون والنواميس ليدلنا على أنه موجود ولا تزال يده في الكون . فإذا حدثت حادثة فلا بد أن نلتمس لها حكمة . والحكمة خرق وخروج عن النواميس يلفت إلى أن فوق ميكانيكية العالم وقوانينها قوة أخرى تقول لها : « تعطلي » .

ولذلك فمعجزات بعض الرسل من هذا اللون ، فطبيعة النار أنها تحرق ، ولكنها لم تحرق سيدنا إبراهيم عليه السلام . أكان مراد الحق سبحانه وتعالى أن ينجّي إبراهيم من النار ؟ لو كان مراده هو نجاة إبراهيم من النار فحسب لما مكّن خصومه من أن يمسكوه . وبعد أن أمسك خصوم سيدنا إبراهيم به ، وأشعلوا النار وأججوها . كان باستطاعة الحق سبحانه أن يأتي بغمامة لا قدرة لخصوم إبراهيم عليها وتمطر مطراً يطفىء النار . لا فقد أراد الله النار ناراً متأججة وأن يقدر خصوم إبراهيم عليه ويمسكوا به ولا تنطفىء النار ، وأن يلقوه في النار ، وبعد ذلك يوضح الحق :

أما أزاول سلطاني في الناموس ، لأني خالق الناموس وأعطله متى شئت ، « يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم » أما لو حدثت المسألة الأولى وانطفأت النار ، لقالوا : آه لو لم تنطفىء النار ، وآه لو لم ينزل الماء على النار

إن الحق أراد أن يدحض كل دعاوى الخصم فعندما تحدث أحداث لا دخل للإنسان فيها تقول : دعها لحكمة الخالق لأنه يريد أن يلفت الخلق إلى أنه صاحب اليد العليا في الكون . فميكانيكية الكون تحير العقول ؛ لأنها مضبوطة بدقة ، ولكنها لم تفلت من يد ربها ولذلك نرى في بعض الأحيان رياحاً عنيفة تثير الغبار فلا يرى الإنسان شيئاً على الإطلاق . ومعنى ذلك أن الذرات تراكمت وتراكمت حتى صارت جداراً ، ويحدث ذلك مهما حاولت الأجهزة العلمية التحكم في ذلك أو منعه .

ومن العجيب أن الحق يترك لنا لذعة تقول : لقد كرمتك بالعقل ولكني لم أدع لك كل المهم ، فقد يوجد صاحب خريرة لا عقل له ويكون أقدر على فهم الأشياء منك أيها الإنسان .

وعندما يحدث زلزال فى منطقة ما ، فأول ما يخرج من المكان هى الحمير ، وهذا لفت للإنسان حتى لا يقع فريسة للغرور :

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾

(سورة العلق)

فهذا ما رأيت حدثا فى الكون ولا دخل للإنسان فيه ولا للأمم دخل فيه ؛ فلتعلم أن لله فيه حكمة حتى يلفتنا إلى المكون الأعلى ؛ وحتى لا يظن أحد أن ميكانيكية الكون رتابة ، إنما هى نظام يجريه الله على وفق قدرته وإرادته وحكمته

ولذلك يقولون : إن العقل الإلكترونى لا يخطئ ، وهم لا يعرفون أن من الخيبة ألا يخطئ ، لأنه كيما تملؤه وتمده بالمعلومات سيحرج لك هذه المعلومات . ليس له خيار فى شىء . أما العقل البشرى فهو قادر على الاستنباط والاستكشاف وعدم ذكر بعض المعلومات التى قد تضر . هذه هى العظمة .

ويقول بعضهم ـ كمثال آخر ـ إن الورد الصناعى لا يذبل ، نقول : إن عيبه أنه لا يذبل لأن الذبول حيوية ، وعدم الذبول دليل على أنه لا حياة فيه ، وأنه جمود فقط .

وساعة يجرى الحق سبحانه وتعالى شيئاً فى كونه ولا دخل لأحد فيه فهو يريد أن يلفت الكون إلى بقاء القيومية العليا والقدرة الإلهية فى الكون ؛ حتى لا يغتر بميكانيكية الكون . ولذلك يعرض القرآن بعضاً من هذه الأشياء ، إذا أخذتها بحكم العقل فهو لا يقبلها ، لكن حين يفسرها من أجراها نجدها فى منتهى العقل . مثال ذلك : سيدنا موسى عندما ذهب إلى العبد الصالح ، ما الذى حدث ؟ .

قال لعبد الصالح .

﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾

(من الآية ٦٧ سورة الكهف)

ويلتمس العبد الصالح لموسى العذر فيقول له :

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فيقول سيدنا موسى وهو من أولى العزم من الرسل :

﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فيخرق العبد الصالح السفينة وخرق السفينة فى السطحية الفهمية شرّ ، وعلى الرغم من أن سيدنا موسى وعد العبد الصالح بعدم عصيان الأمر وأن يكون صابر ، على الرغم من ذلك لم يطق حادثة خرق السفينة ، فقال للعبد الصالح :

﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾

(من الآية ٧١ سورة الكهف)

لقد شك سيدنا موسى فى ظاهر الأمر ، ولكن عندما يدرك الحكمة يجدها عين الخير فلو لم يخرق العبد الصالح السفينة لأخذها الملك الظالم الذى يأخذ كل سفينة صالحة وسليمة غصبا

﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾

(من الآية ٧٩ سورة الكهف)

فلو لم يخرقها العبد الصالح لما استرد أصحاب السفينة سفينتهم ، وبالخرق لسفينة ستظل لأصحابها ، لأن بها عطبا يستطيعون إصلاحه بعد ذلك . إذن ، كل شىء يجرى على غير ما تشتهيه سطحية الفهم البشرى فلنعلم أنها مادامت ليست من أحد ، وهى من المكون الأعلى فورائها حكمة .

وهل يوجد أكثر بشاعة من القتل ؟ لقد قتل العبد الصالح غلاماً . ما الحكمة فى ذلك ؟ . إن الواحد منا يولد له ابن فيكون قرة عين وسنداً ، وقد يكون هذا الابن سببا فى فساد دين أبيه ويحمله على الكذب والرشوة والسرقة فهذا الابن يقود أباه إلى الجحيم ، ومن الخير أن يبعد الله هذا الولد من طريق الوالد فلا يطغى .

ويقول قائل : وما ذنب الولد ؟. نقول : أنت لا تفهم الأمور ، لقد ذهب إلى الحق بدون تجربة في أن يطيع أو يعصي الله ، ذهب إلى رحمة الله مباشرة ، وهذا أفضل له وكان في ذلك القتل للولد رحمة لوالديه ؛ فالشيء إن حدث للنفس إن كان من مخالفة الإنسان للناموس يكون الإنسان هو الذي فعل الضر بنفسه . . وكذلك الأمة حين تخالف ناموساً شرعياً أو كونياً . لكن لو كانت الأمور فوق طاقة البشر فلا بد أن لله فيها حكمة وقصة العبد الصالح وموسى مليئة بالحكم . فقد ذهب الاثنان إلى قرية واستطعما أهلها أي طلبا من أهلها طعاماً :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾

(من الآية ٧٧ سورة الكهف)

ولم يطلب أي منهما نقوداً ، وذلك حتى لا تثار الظنون السيئة ، ولكن طلبا الطعام ليأكلاه . وهو أول الحاجات الضرورية للإنسان .

فقالوا لهما : لا لن نعطيكما لأن أهل تلك القرية كانوا لئاماً . ولذلك اتجه العبد الصالح إلى جدار يريد أن ينقض فأقامه ، فقال سيدنا موسى للعبد الصالح : لماذا لا تأخذ منهم أجراً ؟

وأخيراً يوضح العبد الصالح لسيدنا موسى :

﴿ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ٨٢ ﴾

(سورة الكهف)

فأهل القرية اللئام الذين طُلِبَ منهم الطعام لم يكونوا قادرين على تحمل أمانة حفظ الكنز للغلامين . فأمر الله العبد الصالح بحجب الكنز عن أهل تلك القرية . إذن ، فالمسائل إن جرت على الإنسان بسبب منه فهو الذي فعل الضر بنفسه ، أما إذا كان الأمر لا دخل للإنسان فيه فعليه أن يثق بحكمة مَن يجريه وبذلك يستقبل الإنسان كل شيء يصيبه بالراحة .

إن صاحب الإيمان يلقى الأحداث بقلب قوى . فإن كانت من نفسه فهو يعدل سلوكه ، وإن كانت من ربه فهو يثق بحكمة ربه « قل كل من عند الله » وهذا إيضاح لك حتى تفهم أن أى فعل هو من عند الله . فليس للإنسان فى الطاقة أى فاعلية ولكن للإنسان توجيه المخلوق من طاقات وجوارح إلى الطاعة أو إلى المعصية .

ومادام كل من عندالله فهو سبحانه يريد لنا أن نتلو العجب من هؤلاء ونقرأه فيقول سبحانه : « فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً » كأن منطق العقل والفكر يقودان إلى ضرورة الفهم . وعندما لا يفهمون ذلك فنحن نستعجب من عدم فهمهم . ولا نستعجب من عدم فهمهم إلا إذا كان الأمر المطروح أمامهم أمراً يستوعبه العقل . والحق يقول : « لا يكادون يفقهون حديثاً » وساعة نقول فلان لا يفقه ، فهذا معناه أن عقله ممنوع من الفهم . أما عندما نقول . لا يكاد يفقه . فهو يعنى : لا يقرب حتى من الفهم .

والقول الثانى هو الأكثر بلاغة .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾

فإن جرت عليك سنة كونية خيراً فهو من الله ، أما إن أصابتك سيئة فى ذلك فيه دخل فهى من نفسك . كأن المسألة قسمان : شىء لك فيه دخل ، وشىء لا دخل لك فيه ولا بد أن تعتبره حسنة لأنه يقيم قضية عقدية فى الكون

فالمؤمن بين لوم نفسه على معصية بما له فيه دخل ، وثقة بحكمة مَن يجرى ما لا دخل له فيه وهو الله ـ سبحانه ـ « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من

سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولاً » .

ومن هو الرسول ؟.

الرسول مبلغ عمن أرسله إلى من أرسل إليه ومادام رسولاً مبلغاً عن الله فأى شيء يحدث منه فهو من الله

وعندما يقول الحق - « وكفى بالله شهيداً » أى لا يضرك يا محمد أن يقولوا : إن ما أصابهم من سيئة فمن عندك ؛ لأنه يكفيك أن يكون الله فى صفك ؛ لأنهم لا يملكون على ما يقولون جزاء ، وربك هو الذى يملك الجزاء وهو يشهد لك بأنك صادق فى التبليغ عنه وأنك لم تحدث منك سيئة كما قالوا .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾

والطاعة للرسول هى طاعة لله ، وذلك أمر منطقى ؛ لأنه رسول ، فمن أطاع الرسول فطاعته طاعة لله ؛ لأن الرسول إنما يبلغ عمن أرسله .

ولذلك ففى المسائل الذاتية التى كان يفعلها سيدنا رسول الله كبشر وبعد ذلك يطرحها قضية من عنده كبشر ، وعندما يثبت عدم صحتها يعطينا رسول الله مثالاً عن أمانته .

فعن أنس رضى الله عنه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم مرَّ بقوم يُلَقِّحون ، فقال : لو لم تفعلوا لصلح ، قال : فخرج شيصا ، فمرّ بهم ، فقال . مَالِنَخْلِكم ؟ قالوا قلت : كذا وكذا ، قال : « أنتم أعلم بأمر دنياكم »[1]

(١) رواه أحمد وابن ماجه ومسلم واللفظ له

أى فى المسائل الخاضعة للتجربة فى المعمل والتى لا دخل للسماء فيها. أما الأمور الخاضعة لنواميس الكون فلا يتركها للعباد . ومن العجيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يتصرف فى شىء لم يكن الله فيه حكم مسبق ويعدله له الله بينه وبين نفسه فمحمد هو الذى يبلغنا بهذا التعديل لنشهد ـ واقعا ـ أنه صادق فى البلاغ عن الله ولو كان على نفسه . وجاءت هذه الآية الكريمة بعد قول الحق سبحانه :

﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾

(من الآية ٧٩ سورة النساء)

والرسول ـ كما نعلم ـ هو من بلغ عن الله شرعه الذى يريد أن يحكم به حركة حياة الخليفة فى الأرض وهو الإنسان . وإذا ما نظرنا إلى المادة المأخوذة من الراء والسين واللام وجدنا الحق سبحانه وتعالى يقول فى آية أخرى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الحج)

إذن فالرسول قد يكون رسولاً بالمعنى المفهوم لنا ، وقد يكون نبياً ، كلاهما مرسل من الله . ولكن الفارق أن الرسول يجىء بشرع يؤمر به ؛ ويؤمر هو ـ أيضا ـ بتبليغه للناس ليعملوا به ، ولكن النبى إنما يرسله الله ليؤكد سلوكاً نموذجياً للدين الذى سبقه ؛ فهو مرسل كأسوة سلوكية . ولكن الرسول على إطلاقه الاصطلاحى يأتى بمنهج جديد قد يختلف فى الفروع عن المنهج الذى سبقه . وكلاهما رسول ؛ هذا يجىء بالمنهج والسلوك ويطبقه ، والنبى يأتى بالسلوك فقط يطبقه ليكون نموذجاً لمنهج سبقه به رسول .

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد أرسل الرسل ، وجعل خاتم الرسل سيدنا محمدا فمعنى ذلك أن رسالته صلى الله عليه وسلم ستكون رسالة لا استدراك للسماء عليها ، وإذا كانت رسالته صلى الله عليه وسلم رسالة لا استدراك للسماء عليها ، فكيف يعقل أن تكون رسالته موضوعاً لاستدراك البشر عليها ؟

فإدام الله قد ختم به الرسالة ، وأنزل عليه قوله ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم

وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا » إذن فلم يعد للسماء استدراك على هذه الرسالة ، فكيف يأتي بعد ذلك إنسان معاصر أو غير معاصر ليقول . لا ، إننا نريد أن نستدرك كذا أو نقول : الحكم كذا أو هذا الحكم لا يلائم العصر إذا كان الله لم يجعل للسماء استدراكاً على الرسالة لأن الله أكملها وأتمها فكيف يسوغ للبشر أن يكونوا مستدركين على الرسالة ؟.

إن الرسول حين يضاف ، يضاف مرة إلى الله ، ويضاف مرة إلى المرسل إليهم ؛ لأنه واسطة التعلق بين المُرْسِل والمُرْسَل إليه ، فإن أردت الإضافة بمعنى « من » الابتدائية ، تقول : رسول الله ، أي رسول من الله وإن أردت الغاية من الرسالة تقول : رسول إلى الناس أو رسول للناس إذن فالإضافة تأتي مرة بمعنى « من » وتأتي مرة بمعنى « اللام » ، وتأتي مرة بمعنى « إلى » .

وأمر الرسالة ضروري بالنسبة للبشر ؛ لأن الإنسان إذا ما استقرى وتتبع الوجود كله بفطرته وبعقله السليم من غير أن يجيء له رسول ، فإنه يهتدي بفطرته إلى أن ذلك الكون لا يمكن أن يكون إلا عن مُكَوِّن له قدرة تناسب هذه الصفة المحكمة البديعة . ولا بد أن يكون قيوماً لأنه يمدنا دائماً بالأشياء ، لكن أنعرف بالعقل ما تريد هذه القدرة ؟ نحن ننتهي فقط إلى أن وراء الكون قوة ، هذه القوة لها من القدرة والحكمة والعلم والإرادة وصفات الكمال ما يجعلها تخلق هذا الكون العجيب على تلك الصورة البديعة ذات الهندسة الدقيقة ، وهذا الكون له غاية . أيمكن - إذن - للعقل أن يضع اسماً لهذه القوة ؟. فكونها قوة يستلزم أن يكون لها قدرة وحكمة ، لكنا لا نعرف اسمها ، فكان ولا بد أن يجيء رسول ، هذا الرسول يعطي للناس جواب ما شغلهم وهو : ما القوة التي خلقت هذا الكون وجعلته بهذه الصنعة العجيبة .

ويقف العقل هنا وقفة ، فعندما يأتي الرسول ويقول : أنا أدلكم على هذه القوة اسماً ومطلوباً ، كان يجب على الخلق أن يرعفوا آذانهم له ؛ لأنه سيحل لهم ذلك اللغز الذي رأوه بأنفسهم وأوقفهم في الحيرة - المؤمن منهم والكافر يؤمن بهذا - لأنه يجد نفسه في كون تخدمه فيه أجناس أقوى منه ، ولا تتخلف عن خدمته أبداً ،

والجماد لا تدخل تحت طاقته ولا تحت قدرته وتصنع له أشياء لا يفهم عقله كيف تعمل ، فكان الواجب أن يؤمن

لقد ضربنا مثلاً وقلنا : لو أن إنساناً وقعت به طائرة أو انقطع به طريق في صحراء ، وليس معه زاد ولا ماء ، وبعد ذلك جلس فعليه الوم قام ، ثم استيقظ فوجد مائدة منصوبة فيها أطيب الطعام وفيها الشراب السائغ . بالله قولوا لي : ألا يشتغل عقله بالفكر فيمن جاء بالأطعمة قبل أن يتناول منها شيئاً ؟ لذلك كان من الواجب قبل أن ننتفع بهذه الأشياء أن نلفت دهشتنا : من الذي صنع هذه الصنعة ؟! ومع ذلك تركنا الله فترة حتى نفكر ، حتى إذا جاء رسول يقول : القوة التي تبحث عنها بعقلك هذه اسمها كذا ومطلوبها منك كذا ، وأنت كائن ومخلوق لها أولاً وإليها تعود أخيراً

وخلاصة المسألة أن الله سبحانه وتعالى قبل أن يخلق الخلق أعد لهم مائدة الكون ، وفيها الأجناس التي تخدمه ـ كما قلنا ـ : سلسلة الأجناس وخدمتها تجعلك تتعجب وتتساءل : كيف يخدمني الأقوى مني ؟

الشمس التي لا تدخل تحت قدرتي ، والقمر الذي لا أستطيع أن أتناوله ، والريح التي لا أملك السيطرة عليها ، والأرض التي لا أستطيع أن أتفاهم معها ، كيف تؤدي لي هذه الخدمات ؟ لا بد أن يكون هناك من هو أقوى مني ومنها هو الذي سخرها لخدمتي . وهل رأيت شيئاً من هذه الأشياء امتنع أن يؤدي لك الخدمة أو نقص منها شيئا ؟ . لم يحدث ؛ لأنها مسخرة ، فإذا جاء رسول من الله ليحل لنا لغز هذه الأشياء ويدلنا على موجدها ، كان يجب أن نفتح له آذاننا ونسمعه ، فإذا ما قال لي . الذي خلق لك الكون هو الله ، والذي خلقك هو الله وهو صانعك ، وأرسلني بمنهج لك كي تؤدي مهمتك كما ينبغي فافعل كذا ولا تفعل كذا ، وأنت صائر إليه ليحاسبك على ما فعلت ، وهذا المنهج هو خلاصة الأديان كلها .

ولذلك يكون مجيء الرسول ضرورياً وبعد ذلك يؤيده سبحانه بمعجزة تثبت صدقه ، ومادام قد أرسله بالمنهج الذي هو افعل ولا تفعل ، فهذا يعني أن تطيع هذا الرسول ، ويقول ربنا في آية أخرى :

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾

(من الآية ٦٤ سورة النساء)

أى ليست الطاعة ذاتية له ، إنما الطاعة صادرة من الله ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتميز عن سائر الرسل ؛ لأن معجزته التى تؤيد صدقه فى بلاغه عن الله هى عين كتاب منهجه فى الأصول ، وكل الرسل كانت على غير ذلك . كان الرسول يأتى بمعجزة ويأتى بكتاب منهج ، العصا واليد البيضاء كانت لموسى هذه معجزته ؛ ولكن منهجه فى « التوراة » ، إذن فالمعجزة منفصلة عن المنهج .

سيدنا عيسى معجزته مثلاً : أنه يبرىء الأكمه والأبرص ، لكن كتاب منهجه « الإنجيل » ، إلا سيدنا رسول الله فإن معجزته وهى القرآن هى عين منهجه ؛ لأن الله أراد لدين الخاتم ألا تنفصل فيه المعجزة من المنهج .

إن معجزات الرسل السابقين على رسول الله من رآها يؤمن بها ، والذى لم يرها يسمع خبراً عنها ، وإن كان واثقاً ممن أخبره يصدقه ، وإن لم يكن واثقا ـ لأنها ليست أمامه ـ فلا يصدقه ، ولولا أن الله أخبرنا بهذه المعجزات فى القرآن لكان من الممكن أن نقف فيها .

أما معجزته صلى الله عليه وسلم فباقية ببقاء منهجه ، ويستطيع كل مسلم أن يقول فى آخر عمر الدنيا : محمد رسول الله وتلك معجزته ، أما غيره من الرسل فلا يأتى أحد ويقول . فلان رسول الله وتلك معجزته ، لأنها حدثت وانتهت ، أما القرآن فهو باق ببقاء الرسالة والكون .

والرسول صلى الله عليه وسلم حين يأتى بالبلاغ عن الله فالحق يبيّن لنا : أنا أرسلنا الرسول ليطاع . والمنطق أن يقول القرآن : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ؛ لأن الرسول جاء مبلغاً عن الله ؛ فالمباشر لك هو رسول الله ، وعرفنا من قبل أنه إذا ما توارد أمر الطاعة من الله مع أمر مع رسوله تطيع الاثنين ، وإذا كان الله قد جاء بأمر إجمالى كالزكاة والحج ، وجاء الرسول ففصل ، فتطيع الله فى الأمر الإجمالى وتطيع لرسول فى الأمر التفصيلى ، وإذا كان الله لم يجىء بحكم لا مجمل

ولا مفصل ، فقد جاء التشريع من الرسول بالتفويض الذى فوض الله فيه رسوله بقوله :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

فالرسول الوحيد الذى أعطاه الله تفويضاً فى التشريع هو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل الرسل بلغوا عن الله ولم يبلغ واحد منهم عن نفسه شيئاً إلا سيدنا رسول الله ، فقد فوّضه الله سبحانه وتعالى بقوله : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ـ إذن فللرسول مهمة داخلة فى إطار القرآن أيضاً ، ومثال ذلك فى حياتنا نجد من يقول لموظف : إن الموظف الذى يغيب خمسة عشر يوماً فى قانون الدولة يفصلونه ، فيأتى موظف ومعه دستور البلاد ليرد ويقول : هذا هو الدستور وقد قرأته فلم أجد فيه هذا القانون ، وهذا الكلام الذى تقوله من فصل الموظف غير دستورى .

نقول له : إن الدستور قال فى هذه المسألة : وتؤلف هيئة تنظم أعمال العاملين فى هذا المجال ، إذن فبالتفويض توجد هيئة تضع نظاماً ليطبق على العاملين فتكون هذه من الدستور ، فكل بنود قانون العاملين تدخل فى التفويض الذى نص عليه فى الدستور للهيئات أو اللجان التى تضع التشريعات الفرعية ، فكذلك إذا قيل لك : هات دليلاً من القرآن على أن صلاة المغرب ثلاث ركعات وأن الفجر ركعتان ، وأن الظهر أربع ركعات ، وأن العشاء أربع ركعات ، هات دليلاً من القرآن على هذه ، تقول . دليلى من القرآن « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، والرسول صلى الله عليه وسلم كى يضمن سلامة المنهج من هذه التحريفات التى يفترونها يقول .

« لا ألفِيَنّ أحدكم متكئا على أريكته ، يأتيه أمرٌ مما أمرت به ، أو نَهيٌ عنه ، فيقول : لا أدرى ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه » .

وفى رواية أخرى : عن المقدام بن معديكرب قال : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : ألا هل عسى رجلٌ يبلغه الحديثُ عني وهو متكيء على أريكته ، فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالا استحللناهُ ، وما وجدنا فيه حراما حرمناه ، وإن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرم الله »[1] .

أروى هذا الحديث عن الرسول كي تعرفوا غباء القائلين بهذا ، ولنقل لهم : قولكم هذا دليل على صدق الرسول ، بالله قولوا لي أنت واحد بمثل قولكم بأنه لا يوجد إلا القرآن ، بالله ماذا كنا نقول للمحدثين الذين رووا حديث رسول الله ، ولو لم يقولوا هذا لقلنا : النبي قال : يتكئ رجل على أريكته ويتحدث ، ولم يتكلم أحد بما يخالف هذا الكلام . إذن فوجود هؤلاء دليل صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومادام الله قد أرسله صلى الله عليه وسلم منه إلى خلقه فيكون مع هذه الرسالة الطاعة والطاعة هي : الاستجابة للطلب . وأنواع الطلب كما يقول الذين يشتغلون في البلاغة والنحو كثيرة ، فمرة تتمنى شيئاً مستحيلاً مثل قول القائل : ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها

ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها
عقود مدح فما أرضى لكم كلمي

والكواكب لن تنزل بطبيعة الحال . أو كقول الشاعر .

ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب

هذا لون من الطلب يدل على أن الطلب محبوب ، لكنه لا يقع وقد يقع ، وكذلك الاستفهام طلب شيء لأنك تستفهم عن شيء كقولك لمن تزوره : مَن عندك ؟ . وأما أن تطلب شيئاً ليعمل فهذا هو الأمر ، أو تطلب شيئاً ليجتنب فهذا هو النهي ، فتكون الطاعة هي . أن تجيب طالباً إلى ما طلب .

والطالب إما أن يطالب بأمر لتفعله وإما بنهي لتجتنبه . وإذا أطلقت الطاعة إطلاقاً عاماً فهي لا تنصرف إلا لطاعة العبد لربه ، وبعد ذلك تقول . الولد أطاع أباه ، الطالب أطاع أستاذه ، العامل أطاع معلمه ، فهذه طاعة مضافة إلى مطاع ،

---

(١) رواه الترمذي في العلم واللفظ له ، ورواه أحمد وابن ماجه .

لكن إن أطلقت كلمة الطاعة فهى تنصرف إلى طاعة العبد لله ، وهذه أسلم أنواع الطاعات ، لماذا ؟ .

لان أمر كل آمر ، أو نهى كل ناهٍ ، قد يشكك فيه أنه أمرك بكذا ليعود عليه بالفائدة ، أو نهاك عن كذا ليعود عليه بالفائدة ، لكن إذا كان الذى طلب منك هو فى غنى عن عملك وعن انتهائك ، فهذه مسألة لا يكون فيها شبهة ، فالذى يشكك الإنسان فى الطاعة هو المخافة أن يكون الطالب قد طلب أمراً يعود عليه بالمنفعة ، أو نهى عن أمر يعود على الناهى بالمنفعة أو يدفع عنه مضرة . لكن إذا كان الطالب له كل صفات الكمال المطلق قبل أن توجد أنت ، فوجودك وعملك وعدم عملك لا يعود عليه بشىء ، فتكون هذه هى أسلم أنواع الطاعة

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله . »[1] .

إن المنافقين هم الذين يتعبهم وجود نور لأنهم ألفوا الحياة فى ظلام ، ويرهقهم وجود عدل ؛ لأنهم استمرأوا الحياة فى المظالم ، لذلك فهم يحاولون أن يتصيدوا شيئاً ليقفوا فى أمر هذه الدعوة ، فقالوا : أما سمعتم لصاحبكم . إنه قارب الشرك . . يقول : لا تعبدوا إلا الله ومع ذلك يريد أن يجعل من نفسه رباً له حب وله طاعة

وينزل الحق على رسوله قوله : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

إذن فالطاعة منا ليست ذاتية للرسول ، لأنها إما بلاغ عن الله فى النص الجزئى ، وإما بلاغ عن الله فى التفويض الكلى ، ومادامت بلاغا من الله فى التفويض الكلى فيكون الله قد أمنه أن يشرع : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

ما هو مقابل الطاعة ؟ . إنه التولى والعصيان ، ورأينا الناس تنقسم تجاه الرسول إلى قسمين : قسم يطيعه فى « افعل ولا تفعل » ، وما لم يرد فيه : « افعل

(١) رواه ابن أبى حاتم ، ورواه البخارى ومسلم

ولا تفعل » ؛ فهو دخل فى حكم المباحات ، إن شئت فعلته وإن شئت لم تفعله ؛ فالذين يستجيبون للرسول أى يطيعونه فى « افعل ولا تفعل » هم من أقبلوا على المنهج . والذين لا يطيعونه فقد « تولوا » أى أعرضوا وصدّوا .

انظروا إلى الحق سبحانه وتعالى كيف يحمى نفسية الرسول فيقول سبحانه : « ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً » فالذى يتولى ولا يطيع الرسول ، فالحق لم يرسلك يا محمد لترغمهم على الإيمان .

وهناك فرق بين « أرسلناك لهم » أو « أرسلناك إليهم » ، و« أرسلناك عليهم » . فـ « أرسلناك لهم » تعنى أنك تبلغ فقط ، إنما « عليهم » فهى تعنى لتحملهم على كذا ، أى يجب أن تنتبه يا محمد إنا أرسلناك للناس ـ لا على الناس ـ لتبلغهم ، فمن شاء فليطع ومن شاء فليعص ، فلا تجهد نفسك وتظن أننا أرسلناك عليهم لترغمهم على أن يؤمنوا ، فتكلف نفسك أمرًا ما كلفك الله به :

﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٢٧٢ سورة البقرة)

والحق يقول أيضاً :

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة الغاشية)

وفى آية أخرى يقول :

﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة ق)

« جبار » يعنى تجبرهم على أن يطيعوا . فالإجبار يتنافى مع التكليف ويتنافى مع دخول الإيمان طواعية ويتنافى مع الاختيار . « فما أرسلناك عليهم حفيظا » والحفيظ هو : الحافظ بمبالغة ، تقول مثلاً هذا حافظ مال فلان ، وهذا حفيظ مال الناس جميعاً يعنى عنده مبالغة فى الحفظ ، إذن فالمبالغة جاءت فى تكرير الحدث فهو يحفظ

لذلك الإنسان ولغيره . والحق يؤكد ذلك لمصلحته صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه سبحانه بين لنا شغل رسول الله بأمته ، وأنه يجب أن يكونوا جميعا مؤمنين ملتزمين مطيعين ، ولذلك يقول الحق :

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

إنهم لا يؤمنون ، فيوضح له سبحانه : أرح نفسك ، فعليك البلاغ فقط . وهكذا يخفف الله مهمة الرسول .

ونجد أغلب عتابات الله لرسول الله ، لا لأنه خالف ، ولكن لأنه حَمَّلَ نفسه فوق ما تفرضه عليه الرسالة ، مثل من يثيرون قصة ابن أم مكتوم ، فيقولون . النبي أعطاً ولذلك قرعه الله ووبخه .

نقول لهم : كان الرسول يرغب أن يؤمن به صناديد قريش العتاة الكافرون ، وجاءه ابن أم مكتوم مؤمناً ويريد أن يسمعهم ، وكان من الأسهل أن يتعرض لابن أم مكتوم ولا يتعرض للصناديد الذين يخالفونه ! لكن النبي صلى الله عليه وسلم ترك السهل وذهب للصعب ، فكأنه سبحانه يتساءل : لماذا أتعبت نفسك « وما عليك ألا يزكى » أي ما الذي يجعلك تتعب ، إذن فهو يلومه لصالحه لا لأنه خالف

فكأن الحق سبحانه وتعالى حينما يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : « فما أرسلناك عليهم حفيظاً » ، ثم قاله ليخفف عن الرسول . إذن الحفيظ هو الذي يحافظ على من يبلغه أمر الله وأن يكون سائراً على منهج الله . إن أراد أن ينحرف يعدله ، فيوضح سبحانه : أنا لم أرسلك حفيظاً عليهم ، أنا أرسلتك لتبلغهم ، وهم أحرار يدخلون في التكليف أو لا يدخلون .

إذن فالحفيظ هو المهيمن والمسيطر ، كما قال في الآيات الأخرى . والمسيطر أو الجبار هو الذي يحملهم على الإيمان .. والكلام في الطاعة المقصودة لله . وأن تنفذ جوارحك ما يأمر به سبحانه فيما تسمعه أذنك وما ينطق به لسانك ، وليست الطاعة أن تقول : يا رسول الله نحن طائعون ، وبعد ذلك تحاول أن تخدش هذه الطاعة بأن

تجعلها طاعة لسان وليست طاعة جوارح . فطاعة اللسان دون الجوارح غير محسوبة من الإيمان .

ولهذا يقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ ﴾

هنا يوضح الحق لرسوله : ستتعرض لطائفة من أمة الدعوة وهم الذين أمرك الله أن تدعوهم إلى الدخول فى الإسلام ـ أما أمة الإجابة فهم الذين استجابوا لله وللرسول وآمنوا فعلا ـ إن هؤلاء يقولون لك حين تأمرهم بشىء أو تطلب منهم شيئاً أمراً أو نهياً : « يقولون طاعة » يعنى : أمرك وشأننا طاعة ، أى أمرك مطاع ، « فإذا برزو من عندك بيّت طائفة منهم غير الذى تقول » ، ويقال : برز أى خرج لمبرَز ، والبَرَاز هى : الأرض الفضاء الواسعة ، ولذلك يقول المقاتل من يتحداه ابرز لى ، أى اخرج من الكن أو الحصن ، وكان العرب سابقاً لا يقضون حاجتهم فى بيوتهم ، فإذا ما أرادوا قضاء حاجتهم ذهبوا إلى الغائط البعيد ، وجاء من هذه الكلمة لفظ يؤدى قضاء الحاجة فى الخلاء .

« فإذا برزوا من عندك » أى خرجوا ، فهم يديرون أمر الطاعة التى أمروا بها فى رءوسهم فيجدونها شاقة ، فيبيتون أن يخالفوا ، ونعرف أن كلمة « بيّت » تعنى المأوى الذى يؤوى الإنسان . وأحسن أوقات الإيواء هو الليل ، فسموا البيت الذى نسكنه « بيتاً » لأنه بيت عادة فى البيت المقام فى مكان والمكون من حجرات ، والمستور ، ويقولون . هذا الأمر بُيّت بليل ، أى دبروه فى الليل ، وهل المراد ألا يبيتوا فى

النهار ؟ لا ، لكن اشائع أن يبيتوا فى ليل . يفعلون ذلك وهم بعيدون عن الأعين ، فيدبرون جيداً ؛ وإن كان المقصود هو التبييت فى ظلام فهذا المعنى يصلح أيضاً ، وإن كان سراً فالمعنى يصح أيضا .

إذن فالأصل فى التبييت إنه يكون فى البيت . والأصل أن تكون البيتوته ليلا ، ومدار المادة كلها الاستخفاء ، فإذا بُيت فى ظلام نقول إنه بُيت بليل ، وإذا بُيِّتَ سراً نقول : بُيِّتَ بليل أيضاً .

« ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول » أى إنهم إذا ما خرجوا بيتوا أمراً غير الذى تقول ، فهم يعلنون الطاعة باللسان بينما يكون سلوكهم على العكس من ذلك ، فسلوكهم هو العصيان أو « طاعة » غير الذى تقولها . فإن قلت : افعلوا فلن يفعلوا ، وإن قلت : لا تفعلوا فهم يفعلون عكس ما تأمر به . إنهم يطيعون أهواءهم وشياطينهم .

« ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول » يعنى قالت طائفة : أمرنا وشأننا طاعة لما تقول ، أو أطعناك طاعة ولكنهم يبيتون غير ما تقول فهم إذن على معصية « والله يكتب ما يبيتون » وسبحانه يكتب نتيجة علمه ، وجاء بكلمة « يكتب » حتى يعلموا أن أفعالهم مسجلة عليهم بحيث يستطيعون عند عرض كتابهم عليهم أن يقرأوا ما كتب فيه ، فلو لم يكن مكتوباً فقد يقولون : لا لم يحدث ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحذر من هذه الطائفة ، لأنها ستثبط أمر الدعوة ، لذلك يوضح الحق : إنك لن تُنصَرَ بمن أرسلت إليهم وإنما تنصر بمن أرسلك ، فإياك أن يمال دلك من عزيمتك أو يثبطها نحو الدعوة . فإذا حدث من طائفة منهم هذا فـ « أعرض عنهم » أى لا تخاصمهم فى أمر من هذه الأمور ودعهم ودع الانتقام لى ؛ لأنى سأنصرك على الرغم من مخالفتهم لك ، والتجه إلى أمر الله الذى أرسلك .

ونعلم أن المصلحة فى كل الرسالات إنما تكون عند من أرسل ، ولكن المرسل إليه قد تتعبه الدعوة الجديدة ؛ لأنها ستخرجه عن هوى نفسه ، ومستلزمات طيشه ، فالذى أرسلك يا محمد هوالضامن لك فى أن تنجح دعوتك

« فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » لماذا ؟ لأن الذين يؤمنون بك محدودو القدرة ، ومحدودو الحيلة ، ومحدودو العدة ، ولكن الذى أرسلك يستطيع أن يجعل من عدد خصومك ومن عُدَّة خصومك جنوداً لك ، ويهزمك من حيث لا تحتسب . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى بدأ قضية الإسلام وكان المؤمنون بها قلة ، فلو جعلهم كثرة لقالوا : كثرة لو اجتمعت على ظلم لنجحت ، ولكن عندما تكون قلة وتنجح ، فهذا قال طيب ويشير على أنك لست منصوراً بهؤلاء وإنما أنت منصور بمدد الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

وإذا سمعت كلمة « أفلا » فاعلم أن الأسلوب يفزع من لا يستعمل المادة التى بعده . « أفلا يتدبرون القرآن » أى كان الواجب عليهم أن يتدبروا القرآن ، فهناك شىء اسمه « التدبر » ، وشىء اسمه « التفكر » ، ثالث اسمه « التذكر » ، ورابع اسمه « العلم » ، وخامس اسمه « التعقل » ، ووردت كل هذه الأساليب فى القرآن ، « أفلا يعلمون » ، « أفلا يعقلون » ، « أفلا يتذكرون » ، « أفلا تتفكرون » . هى إذن تدبر ، تفكر ، تذكر ، تعقل ، وعلم .

وحين يأتى مخاطبك يطلب منك أن تستحضر كلمة « تدبر » ؛ فمعنى هذا أنه واثق من أنك لو أعملت عقلك إعمالاً قوياً لوصلت إلى الحقيقة المطلوبة ، لكن الذى يريد أن يغشك لا يبيه فيك وسائل التفتيش ، مثل التاجر الذى تدخل عنده لتشترى قماشاً ، فيعرض قماشه ، ويريد أن يثبت لك أنه قماش طبيعى وقوى وليس صناعياً ، فيميله لك ويحاول أن يمزقه فلا يتمزق ، إنه ينبه فيك الحواس الناقدة ، فإذا نبه فيك الحواس الناقدة فمعنى ذلك : أنه واثق من أن إعمال الحواس الناقدة فى

صالح ما ادعاه ، ولو كان قياسه ليس فى صالح ما ادعاه لحارل خداعك ، لكنه يقول لك : انظر جيداً وجرّب .

والحق يقول : « أفلا يتدبرون القرآن » والتدبر هو كل أمر يحرص على العقل له فيه عمل فتفكر فيه لتنظر فى دليل صدقه ، هذه أول مرحلة ، فإذا ما علمت دليل صدقه فانظر النتيجة التى تعود عليك لو لم تعملها ؛ و« تتدبر » تعنى أن تنظر إلى أدبار الأشياء وأعقابها ، فالرسول يبلغك : الإله واحد ، إبحث فى الأدلة بفكرك ، فإذا ما انتهيت إليها آمنت بأن هناك إلهًا واحدًا وإياك أن تقول إنها مسألة رياضية أو سفسطة ؛ لأنك عندما تنظر العاقبة ماذا ستكون لو لم تؤمن بالإله الواحد . سيكون جزاؤك النار .

إذن فتدبرت تعنى : نظرت فى أدبار الأشياء وحاولت أن ترى العواقب التى تحدث عنها ، وهذه مرحلة بعد التفكر فالتفكر مطلوب أن تتذكر ما عرفته من قبل إن طرأ عليك نسيان . فالتفكر يأتى أولاً وبعد ذلك يأتى التدبر . وأنت تقول - مثلاً - لابنك : لكى يكون مستقبلك عاليا وتكون مهندسا أو طبيبا عليك أن تذاكر وتجتهد ، فيفكر الولد فى أن يكون ذا مكانة مثل المتفوقين فى المهن المختلفة فى المجتمع ، ويبذل الجهد .

إذن فأول مرحلة هى : التفكر ، والثانية هى : التدبر ، فإذا غفلت نقول لك : تذكر ما فكرت فيه وانتهيت إليه وتدبر العاقبة ، هذه كلها عمليات عقلية فالتفكير يبدأ بالعقل ، والعقل ينظر أيضا فى العاقبة ثم تعمل الحافظة لتذكرك بما فات وبما كان فى بؤرة الشعور ثم انتقل إلى حاشية الشعور ، فإذا كنت قد تمثلت الأمر لذاتك يقال . عقلته فإن فهمت ما عقله غيرك فقد علمت ما عقله فلان .

إذن فليس ضروريا أن تكون قد انتهيت إلى العلم بعقلك ، بل أنت أخذت حصيلة تعقل غيرك ، ولذلك عندما ينفى ربنا عن واحد العلم فإنه قد نفى عنه التعقل من باب أولى ؛ ذلك أن العلم يعنى قدرته على تعقل قدرات غيره ، دون الوصول إلى قوانينها وقواعدها وأصولها ، إنه فحسب يعلم كيف يستفيد وينتفع بها ، وفى حياتنا اليومية نجد أن الأمى ينتفع بالتليفزيون وينتفع بالكهرباء ، أى انتفع بعلم غيره لكنه لا يتعقل قدرات ذلك العالم . إذن فدائرة العلم أوسع ؛ لأنك تعرف بعقلك أنت. أما فى دائرة العلم فإنك تعلم وتفهم ما عقله سواك .

ولذلك فعندما يأتى ربنا ليعرض هذه القضية يقول :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وفى المعنى نفسه يأتى فى آية أخرى عندما يقول لهم :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة المائدة)

فى الآية الأولى قال سبحانه : « لا يعقلون » لأنهم قالوا : « بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا » بدون طرد لغيره ، وفى الثانية قالوا : « حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا » بإصرار على رفض غيره والخضوع لسواه ، فقال : « أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون » ، وسبحانه هنا نفى عن آبائهم العلم الذى هو أوسع من نفى التعقل ؛ لأن نفى التعقل يعنى نفى القدرة على الاستنباط . لكنه لا ينفى أن ينتفع الإنسان بما استنبطه غيره

« أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » .. والحق سبحانه وتعالى حينما يحث المستمعين للاستماع إلى كلامه وخاصة المخالفين لمنهجه أن يتدبروا القرآن ، معناه أنه يجب منهم أن يُعملوا عقولهم فيما يسمعون ؛ لأن الحق يعلم أنهم لو أعملوا عقولهم فيما يسمعون لانتهوا إلى قضية الحق بدون جدال ، ولكن الذى يجعلهم فى مواقف يعلنون الطاعة « فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول » ، إن هذا دليل على أنهم لم يتدبروا القرآن ، وقوله الحق : « أفلا يتدبرون » تأتى بعد تلك الآية ، كأنها جاءت ودليلها يسبقها ، فهم لو تدبروا القرآن لعلموا أن الرسول صادق فى البلاغ عن الله وأن هذا كلام حق .

والله حين يبيتون فى نفوسهم أو يبيتون بليل غير الذى قالوه لرسول الله ، فمن الذى قال لرسول الله : إنهم بيتوا هذا؟!

إذن فلو تدبروا مثل هذه لعلموا أن الذى أخبر رسول الله بسرائرهم ونجواهم ومكرهم إنما هو الله ، إذن فرسول الله صادق فى التبليغ عن الله ، ولمادام رسول الله صادقا فى التبليغ عن الله ، فتعود للآية الأولى « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ، وكل الآيات يخدم بعضها بعضا ، فالقرآن حين نزل باللسان العربى شاء الله ألا يجعل كل مستمع له من العرب يؤمن به أولا ، لأنهم لو آمنوا به جميعا أولاً لقالوا : إنهم بالقرآن جعلهم يتغاضون عن تحدى القرآن لهم . لكن يظل قوم من المواجهين بالقرآن على كفرهم ، والكافر فى حاجة إلى أن يُعارض ويُعارَض . فإذا ما وجد القرآن قد تحداه أن يأتى بمثله ، وتحداه مرة أن يأتى بعشر سور من مثله ، وتحداه بأن يأتى بأقصر سورة من مثله ، هذا هو التحدى للكافر . ألا يهيج فيه هذا التحدى غريزة العناد ؟ ولم يقل منهم أحد كلمة ، فما معنى ذلك ؟ معناه . أنهم مقتنعون بأنه

لا يمكن أن يصلوا لذلك واستمروا على كفرهم وكانوا يجترئون ويقولون ما يقولون . ومع ذلك فالقرآن يمر عليهم ولا يجدون فيه استدراكاً .

كان من الممكن أن يقولوا إن محمدا يقول القرآن معجز وبليغ وقد أخطأ فى كذا وكذا . ولو كانوا مؤمنون لأخذوا ذلك ، لكنهم كافرون والكافر يهمه أن يشيع أى خطأ فى القرآن ، وبعد ذلك يأتى قوم ليست لهم ملكة العربية ولا فصاحة العربية ، ليقولوا إن القرآن فيه مخالفات ! فكيف يتأتى لهم ذلك وليس عندهم ملكة العربية ، ولغتهم لغة مصنوعة ، وليس لهم ملكة فصاحة ، فكيف يقولون.إن القرآن فيه مخالفات ؟ لقد كان العرب الكافرون أولى بذلك ، فقد كانت عندهم ملكة وفصاحة وكانوا معاصرين لنزول القرآن ، وهم كافرون بما جاء به محمد ولم يقولوا إن فى القرآن اختلافاً !! هذا دليل على أن المستشرقين الذين ادعوا ذلك يعانون من نقص فى اللغة .

ونقول لهم : لقد تعرض القرآن لأشياء ليُثبت فصاحته وبلاغته عند القوم الذين نزل لهم أولا . فمنهم من سيحملون مشعل الدعوة ، ثم حمل القرآن معجزات أخرى لغير الأمم العربية ، فمعجزة القرآن ليست فصاحة فقط ، وإلا لقال واحد هو أعجز العرب ، فما شأن العجم والرومان ؟ ونقول له : أكل الإعجاز كان فى أسلوبه ؟ لا ، الإعجاز فى أشياء تتفق فيه جميع الألسنة فى الدنيا ؛ لأنه يأتى ليثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشهادة خصومه لم يبارح الحريرة إلا فى رحلة

التجارة للشام ، ولم يثبت أنه جلس إلى معلم ، وكلهم يعرف هذا ، حتى الغلطة التى أخطأوا فيها ، جاء ربنا بها ضدهم فقال :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾

(سورة النحل)

يقصدون بـ « بشر » هذا غلاماً كان لحويطب بن عبدالعزى قد أسلم وحسن إسلامه ، أو غلاما آخر رومياً أو سلمان الفارسى ، فلوضح الحق : تعقلوا جيدا ، فمحمد لم يجلس إلى معلم ، ولم يذهب فى رحلات . وبعد ذلك جاء القرآن تحدياً لا بالمنطق ولا باللغة ولا بالفصاحة ولا بالبيان فحسب ، بل بالأمر الشامل لكل العقول وهو كتاب الكون . ووقائعه وأحداثه التى يشترك فيه كل الناس

والكون ـ كما نعرف ـ له حجب ، فالأمر الماضى حجابه انزمن الماضى والذى كان يعيش أيامه يعرفه ، والذى لم يكن فى أيامه لا يعرفه ، إذن فأحداث الماضى حجبها الزمن الماضى ، وأحداث المستقبل حجزها المستقبل لأنها لم تقع بعد . والحاضر أمامنا ، فيجعل له حاجزاً هو المكان ، فيأتى القرآن فى أساليبه يخرق كل هذه الحجب ، ثم يتحدى على سبيل المثال ويقول :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة القصص)

وسبحانه يقول

﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾

(من الآية ٤٥ سورة القصص)

وسبحانه يقول

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

وكل « ما كنت » فى القرآن تأتى بأخبار عن أشياء حدثت فى الماضى . بالله لو كانوا يعلمون أنه علم أو جلس إلى معلم ، أكانوا يسكتون ؟ طبعا لا ، لأن هناك كفارًا أرادوا أى ثغرة لينفذو منها ، وبعد ذلك يأتى القرآن لحجاب الزمن المستقبل ويخرقه ، يحدث ذلك والمسلمون لا يقدرون أن يحموا أنفسهم فيقول الحق :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة القمر)

حتى أن عمر بن الخطاب يقول أى جمع هذا ؟ وينزل القرآن بآيات تتلى وتسجل وتحفظ .. وتأتى غزوة « بدر » ويهزم الجمع فعلاً . وتنزل آية أخرى فى الوليد ابن المغيرة الجبار المفترى :

﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة القلم)

ويتساءل بعضهم : هل نحن قادرون أن نصل إليه ؟ وبعد ذلك تأتى غزوة « بدر » فينظرون أنفه فيجدون السيف قد خرطه وترك سمة وعلامة عليه ، فمن الذى خرق حجاب الزمن المستقبل ؟ إنه الله وليس محمداً ، فإذا تدبرتم المسائل حق التدبر لعلمتم أن محمداً ما هو إلا مبلغ للقرآن ، وأن الذى قال القرآن هو الإله الذى ليس عنده ماضٍ ولا حاضر ولا مستقبل ، بل كل الزمن له ، ويأتى القرآن فيقول :

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾

(من الآية ٨ سورة المجادلة)

هم قالوا فى أنفسهم ولم يسمع لهم أحد ، ثم ينزل القرآن فيخبر بما قالوه فى أنفسهم .. فماذا يقولون إذن ؟ وهم لو تدبروا القرآن لعلموا أن الحق سبحانه وتعالى هو الذى أخبر رسول الله بما قالوا فى أنفسهم .. فهذه الآية «أفلا يتدبرون القرآن» جاءت بعد « فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول » ، إذن فقد فُضحوا ، فلو كانوا يتدبرون لعلموا أن الله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق هو الذى أخبره بما بيتوا ، والذين لا يفهمون اللغة يطيرون فرحاً باختلاف توهموا أنه موجود بالقرآن ، يقولون : إن الحدث الواحد المنسوب إلى فاعل واحد لا ينفى مرة ويثبت مرة أخرى ، فإن نفيته لا تثبته ، وإن أثبته لا تنفه ، لكن القرآن فيه هذا .

وهيئ لهم ذلك فى قول الحق

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الأنفال)

و« ما رميت » هو نفى « الرمى » ، و« إذ رميت » أثبت « الرمى » وجاء القرآن بالفعل وهو « رميت » ، والفاعل هو « رسول الله صلى الله عليه وسلم » فكيف يثبت الفعل مرة وينفيه مرة فى آية واحدة ؟ ونقول لهم : لأنكم ليس عندكم ملكة العربية فلتم هذا الكلام ، أما من عنده ملكة العربية وهى أصيلة وسليقة وطبيعة وسجية فيه ، فقد سمع الآية ولم يقل مثل هذا الكلام ، مما يدل على أنه فهم مؤداها

ثم لماذا نبتعد ونقول من أيام الجاهلية ، لنأخذ من حياتنا اليومية مثلاً ، أنت إذا ما جئت مثلاً لولدك وقلت له : ذاكر لأن الامتحان قد قرب ، وأنا جالس معك لأرى هل ستذاكر أو لا فيأخذ الولد كتابه ويجلس إلى مكتبه وبعد ذلك يفتح الكتاب ويقلب الأوراق ويهز رأسه . وبعد مدة تقول له : تعال انظر ماذا ذاكرت . فتمسك الكتاب وتسأله سؤالين فيها ذاكر . . فلا يجيب ، فتقول له : ذاكرت وما ذاكرت . أى أنك فعلت شكلية المذاكرة ، ولا حصيلة لك فى موضوع المذاكرة .

قولك:« ذاكرت » هو اثبات للفعل ، وقولك:« وما ذاكرت » هو نفى للفعل . فإذا جاء فعل من فاعل واحد مثبت مرة ومنفى مرة من كلام البليغ . فاعلم أن جهة الإثبات غير جهة النفى .

وقوله الحق . « وما رميت إذ رميت » فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما جاء إلى المعركة أخذ حفنة من الحصى ، وجاء ورمى بها جيش العدو .

إذن فالعملية الشكلية قام بها النبى صلى الله عليه وسلم ، لكن أليس لله قدرة أن يُرسل الحصى إلى كل جيش العدو ؟ إن هذه ليست فى طاقته ، فقول الحق : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » . أنت أخذت شكلية الرمى ، أما موضوعية الرمى فهى لله سبحانه وتعالى .

ويأتى مثلاً فى آية أخرى يقول :

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦ سورة الروم)

وهذا نفى . ثم يقول بعدها مباشرة :

﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾

(من الآية ٧ سورة الروم)

وتتساءلون أيقول : « لا يعلمون » .. ثم يقول : « يعلمون » بعدها مباشرة ؟ نعم فهم لا يعلمون العلم المفيد ، وقوله : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا » أنهم لا يعلمون بواطن الأمور ولا عواقبها . فإذا جاء فعل فثبت مرة ونفى مرة أخرى فلا بد أن الجهة منفكة .

مثال ذلك هو قول الحق :

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

ثم يقول القرآن فى موقع آخر :

﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الصافات)

ومعناها أنهم سيُسألون . ونقول . اجعلوا عندكم ملكة العربية ، ألا يسأل الأستاذ تلميذه . إذن فالسؤال قد يقع من العالم ليُعْلم ما عند المسئول ويُقِرُّ به ، وليس ليَعْلَم العالم ما عند المسئول ، وعندما يقول ربنا : « وقفوهم إنهم مسئولون » .. فإياكم أن يذهب ظنكم إلى أن الله يسأل لأنه لا يعلم ، وإنما يسأل ليقرركم لتكون حجة الإقرار أقوى من حجة الاختبار . إذن فإن رأيت شيئاً نفى ، وأثبت فى مرة أخرى فاعلم أن الجهة منفكة . وحين نتكلم عن إعجاز القرآن نجده يقول :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

وجاء فى الآية الثانية وقال ربنا .

﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الإسراء)

قد يقول من لا يملك ملكة اللغة : فأيهما بليغة ؟ إن كانت الأولى فالثانية ليست بليغة ، وإن كانت الثانية فالأولى ليست بليغة .

نقول له : أنت أخذت عجز كل آية فقط . وعليك أن تأخذ عجز كل آية مع صدرها صحيح أن عجز الآية يختلف ؛ لأنه يقول فى الأولى : « نحن نرزقكم وإياهم » وفى الثانية يقول : « نحن نرزقهم وإياكم » . ولكن هل صدر الآية متحد ؟ لا ، فصدر كل آية يختلف ؛ لأنه قال : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » . فكأن الإملاق موجود . . حاصل ؛ لذلك شغل المخاطب برزقه قبل أن يشغل برزق ولده . . ويخاف أن يأتى له الولد فلا يجد ما يطعمه . لأنه هو نفسه فقير . فيطمئنه الله على رزقه أولا ثم بعد ذلك يطمئنه على رزق من سيأتى : « نحن نرزقكم وإياهم » لكن فى الآية الثانية لم يقل ذلك . بل قال . « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق » كأنه يخاف أن يفقد ماله ويصير فقيراً عندما يأتى الولد ، ومادام قد قال . « خشية إملاق » فهذا يعنى أن الإملاق غير موجود ، ولكنه يخاف الإملاق إن جاء الولد ، يخاف أن يأتيه الولد فيأتيه الفقر معه ، فأوضح الحق له : لا تخف فسيأتى الولد برزقه . « نحن نرزقهم وإياكم » إذن إن نظرت إلى الآية بجزء مع صدرها . . تجد العلاقة مكتملة ، ويحاول بعضهم أن يجد متعلقاً للطعن فى بلاغة القرآن فيتساءل لماذا يقول الحق فى آية فى القرآن :

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة لقمان)

وفى سورة ثانية يقول :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة الشورى)

ونقول لهم . أنتم لم تفهموا الآيات على حقيقتها . ففى الآية الأولى يقول : « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » أى فى المصائب التى لا غريم لك فيها . ومادام ليس لك غريم فيها . . فلماذا تفعل ؟ لكن إذا كان لك غريم وخصم فقد تتحرك نفسك بأن تنتقم منه ولذلك فانتبه لقول الحق : « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » يناسب الموقف الذى لا يوجد فيه غريم ، وفى

الآية الثانية : « إن ذلك لمن عزم الأمور » فالآية تناسب الموقف الذى فيه غريم لأنت ستصبر على المصيبة وعلى من عملها من غريم ؛ لأنك كلما رأيته تهيج نفسك وهذا يحتاج لتأكيد الصبر بقوة . وتلك هى كلمات المستشرقين الذين يريدون الطعن فى القرآن ويقولون لنا : أنتم تنظرون للقرآن بقداسة لكنكم لو نظرتم إليه بتفحص لوجدتم أن فيه اختلافات كثيرة ، نقول لهم . قولوا لنا المختلفات ، ونحن رددنا على هذا فى ثنايا خواطرنا من القرآن ، ومنهم من يقول لك مثلاً القرآن عندما تعرض لقضية خلق السموات والأرض جاءت كل الآيات لتؤكد أن الله سبحانه خلقها فى ستة أيام . . لكنهم يقولون عندما نذهب إلى آيات التفصيل فى قوله .

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة فصلت)

نجدها ثمانية أيام فقالوا : هذا خلاف . نقول لهم : أنتم لم تفهموا فسبحانه حين قال . « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض » ، فهل تكلم هنا تستقيم به الحياة على الأرض ؟ إنه عندما تكلم عن الأرض يقول : « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسى من فوقها » ، فهذه تكون تتمة الأرض لأنه يتكلم عن الأرض . . « وجعل فيها » أى الأرض . . « رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها » . . وكل ذلك فى الأرض . . إذن فالمرحلة الثانية مرحلة تتمة خلق الأرض فسبحانه خلق الأرض كجرم أولاً ، وبعد ذلك جعل فيها الرواسى وجعل فيها الأقوات وبارك فيها . فى كم يوما ؟ فى أربعة أيام فكأن اليومين الأولين دخلا فى الأربعة ، لأن هذه تتمة خلق الأرض .

ولله المثل الأعلى ، مثلما تقول : سرت من هنا إلى الإسماعيلية فى ساعة ، وإلى بورسعيد فى ساعتين ، فقولك . إلى بورسعيد فى ساعتين ، يعنى أن الساعة الأولى تم حسابها ، إذن فهؤلاء المستشرقون لم يفهموا معطيات القرآن ؛ لذلك يقول سبحانه : « أفلا يتدبرون القرآن » فإن وجدت شيئا ظاهريا يثير تساؤلا فى القرآن فأعمل عقلك ، وأعمل فكرك كى تعرف أن التناقض فى فهمك أنت وليس التناقض فى القرآن ؛ لأنه بَرّ عند مَن إذا نص واقعا نصه عن حقيقته ، وعند مَن لا يغيب شىء عنه ، لا حجاب الزمن الماضى ، ولا حجاب الزمن المستقبل ، ولا حجاب المكان ، ولا حجاب الكون « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » . فالقرآن كتاب كبير به أربع عشرة ومائة سورة ، بالله هاتوا أى أديب من الأدباء كى يكتب هذا ، ثم انظروا فى فصاحته ، إنكم ستجدونه قويا فى ناحية وضعيفا فى ناحية أخرى ، وبعد ذلك قد تجدونه أخل بالمعنى ، وقال كلمتين هنا ثم جاء بما يناقضها بعد ذلك ! مثلى فعل أبو العلاء المعرى عندما قال :

تحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

وكان أيام قوله هذا ينكر البعث .

وعندما رجع إلى صوابه بعد ذلك قال :

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تحشر الأجساد قلت إليكما
إن صحّ قولكما فلست بخاسر أو صحّ قولى فالخسار عليكما

إذن فالتناقض يأتى مع صاحب الأغيار الذى كان له رأى أولاً ثم عدته التجربة أو الواقع إلى رأى آخر . لكن ربنا سبحانه وتعالى لا يتغير ومعلومه لا يتغير فهو الحق ، إذن فالتناقض يأتى إما من واحد يكذب ، لأن الواقع لم يحكمه ، وإما من واحد هو فى ذاته متغير ، فرأى رأياً ثم عدل عنه ، فيكون متغير . لكن الحق سبحانه وتعالى لا يتغير . ويقول على الواقع الحق . « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

والواقع أيضاً أننا نجد كل قضية قرآنية تعرض كنص من نصوص القرآن أنزله الله على رسوله . . هذه القضية القرآنية فى كون له تغيرات ، والتغيرات بعضها يكون من

مؤمن بالقرآن ، وبعضها يكون من غير مؤمن بالقرآن ، فهل رأيت قضية قرآنية ثم حادت قضية لكون حق من غير المؤمنين بكذبتها ؟. لا ، هم فى الغرب مثلاً بعد الحرب العالمية الأولى اخترعوا أسطوانة تحطيم الجوهر الفرد والجزء الذى لا يتجزأ . . وكانت تلك أول مرحلة فى تفتيت الذرة ، ونجد القرآن يضرب المثل بالذرة ، وأنها أصغر شىء فى قوله سبحانه

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ ﴾

(سورة الزلزلة)

وضع العلماء أيديهم على قلوبهم لأن الذرة قد تفتت فوجد ما هو أصغر من الذرة !! ووجدنا من قرأ القرآن . . وقال : إن القرآن نزل فى عصر كان أصغر شىء فيه « الذرة » عند العربى القديم ، والله يعلم أزلا أن العلم سيطمح ويرتقى ويفتت الذرة ، فقال :

﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمَاوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝ ﴾

(سورة سبأ)

لقد تدبر صاحب هذا القول القرآن وفهم عن الله الذى تتساوى عنده الأزمنة ، فالمستقبل مثل الماضى ، ليس عنده علم مستقبل وعلم حاضر وعلم ماضٍ ، وأوضح لنا : أن هناك ما هو أصغر من الذرة . فلو فتتوا المفتت منها لوجدنا فى القرآن له وصيداً .

تعالوا للقضايا الاجتماعية مثلاً . تجدوا أى قضية قرآنية يجتمع لها خصوم القرآن ليجدوا مطعناً ، فنجد من لم يفهموا من المسلمين يجرون وراءهم ويقولون . هذه الأمور لم تعد ملائمة للعصر ، ثم نجد أعداء الإسلام يواجَهُون بظروف لا يجدون حلاً لمشكلاتهم إلا ما جاء فى القرآن .

« أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

مثال آخر : بعض الناس يقولون : هناك اختلاف فى القراءات . . مثل قوله تعالى :

﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الفاتحة)

ويقول . هناك من يقرؤها « ملك يوم الدين » . . لكن هناك ما يُسمى « ترتيب الفائدة » لأن كلمة « مالك » وكلمة « مَلِك » معناهما واحد ، والقرآن كيف يكون من عند غير الله ؟ « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان » ـ أى القرآن ـ « من عند غير الله » أغير الله كان يأتى بقرآن ؟! لا . إنما القرآن لا يأتى إلا من الله سبحانه وتعالى ، « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا »

إن قوله سبحانه : « أفلا يتدبرون القرآن » تكريم للإنسان ، فكأن الإنسان قد خلقه الله ليستقبل الأشياء بفكر لو استعمله استعمالاً حقيقياً لانتهى إلى معلومات الحق ، وهذه شهادة للإنسان ، فكأن الإنسان مزود بآلة فكرية . هذه الآلة الفكرية لو استعملها لوصل إلى حقائق الأشياء ، والحق لا يريد منا إلا أن نعمل هذه الآلة : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا » فالقرآن كلام الله ، وكلام الله صفته ، وصفة الكامل كاملة ، والاختلاف ينافض الكمال . فمعنى الاختلاف أنك تجد آية تختلف مع آية أخرى ، فكأن الذى قال هذه نسى أنه قالها !! وبعد ذلك جاء بأمر يناقضها ، ولو كان عنده كمال لعرف ما قال أولاً كى لا يخالفه ثانياً . .

إذن فلا تضارب ولا اختلاف فى القرآن ؛ لأنه من عند الله .

وبعد ذلك يقول الحق .

﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ

لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾

الحق سبحانه وتعالى يربى الأمة الإيمانية على أسلوب يضمن ويؤمّن لهم سرّية حركتهم وخاصة أنهم قوم مقبلون على صراع عنيف ولهم خصوم أشداء ، فيربيهم على أن يعالجوا أمورهم بالحكمة لمواجهة الجواسيس . فيقول « وإذا جاءهم أمر » . أى إذا جاءهم خبر أمر من الأمور يتعلق بالقوم المؤمنين أو بخصومهم ، وعلى سبيل المثال : يسمعون أن النبى عليه الصلاة والسلام سيخرج فى سرية إلى المنطقة الفلانية ، وقبيلة فلان تنتظره كى تنضم إليه ، وعندما يسمع الضعاف المنافقون هذا الخبر يذيعونه . فيحتاط لخصوم بمحاصرة القبيلة التى وعدت الرسول أن تقاتل معه كى لا تخرج ، أو يقولون مثلاً : إن النبى سيخرج ليفص كذا فيذيعوا أيضاً هذا الخبر ! فأوضح لهم الحق : لا تفعلوا ذلك فى أى خبر يتعلق بكم كجماعة ارتبطت بمنهج وتريد هذا المنهج أن يسيطر ؛ لأن هذا المنهج له خصوم .

إياكم أن تسمعوا أمراً من الأمور فتذيعوه قبل أن تعرضوه على القائد وعلى من رأى القائد أنهم أهل المشورة فيه ، فقوله : « وإذا جاءهم أمر من الأمن » يقصد به أن المسألة تكون فى صالحهم « أو الخوف » أى من علوهم « أذاعوا به » .

كلمة « أذاعه » غير كلمة « أذاع به » ، فـ « أذاعه » يعنى « قاله » ، أما « أذاع به » فهى دليل على أنه يقول الخبر لكل من يقابله ، وكأن الخبر بذاته هو الذى يذيع نفسه ، فهناك أمر يحكيه وتنتهى المسألة ، أما « أذاع به » فكأن الإذاعة مصاحبة للخبر وملازمة له تنشره وتخرجه من طىّ محدود إلى طى غير محدود . أو من آذان تحترم خصوصية الخبر إلى آذان تتعقب الخبر ، ثم يقول . « ولو ردوه إلى الرسول » فالرسول أو من يحددهم الرسول صلى الله عليه وسلم هم الذين لهم حق الفصل فيما يقال وما لا يقال : « لعلمه الذين يستنبطونه منهم » والاستنباط مأخوذ من « النَّبْط » وهو ظهور الشىء بعد خفائه . واستنبط أى استخرج الماء مجتهدا فى ذلك والنَّبْط هو أول مياه تخرج عند حفر البئر فنقلت الكلمة من المحسات فى الماء إلى المعنويات فى

الأخبار وصرنا نستخدم الكلمة فى المعانى ، وكذلك فى العلوم . مثلما تعطى الطالب مثلاً تمريناً هندسياً ، وتعطيه معطياته ، ثم يأخذ الطالب المعطيات ويقول بما أن كذا = كذا . . ينشأ منه كذا ، فهو يستنبط من موجودٍ معدوماً .

وهنا يوضح الحق لهم : إذا سمعتم أمراً يتعلق بالأمن أو أمراً يتعلق بالخوف ، فإياكم أن تذيعوه قبل أن تعرضوه على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو تعرضوه على أولياء الأمر الذين رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم بعض السلطة فيه ؛ لأنهم هم الذين يستنبطون هذا يقال أو لا يقال .

ويقول الحق : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً » كأنهم أذاعوا بعض أحداث حدثت ، لكنهم نجوا منها بفضل من الله سبحانه وتعالى وبعض إلهاماته فكان مما أذاعوا به ما حدث عندما عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ العزم على أن يذهب إلى مكة فاتحاً . . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد غزوة وَرَّى بغيرها . أى أنه لا يقول الوجهة الحقيقية كى يأخذ الخصوم على غرة ، وعندما يأخذ الخصوم على غرة يكونون بغير إعداد ، فيكون ذلك داعياً على فقدانهم قدرة المقاومة .

وانظروا إلى الرحمة فيما حدث فى غزوة الفتح ، فقد أمر رسول الله المسلمين بالتجهيز لغزو مكة حتى إذا ما أبصر أهل مكة أن رسول الله جاء لهم بجنود لا قبل لهم بها ؛ يستكينون ويستسلمون فلا يحاربون وذلك رحمة بهم . وكان « حاطب بن أبى بلتعة » قد سمع بهذه الحكاية فكتب كتاباً لقريش بمكة ، وأخذته امرأة وركبت بعيرها وسارت . وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلى ومن معه وقال لهم . إن هناك امرأة فى روضة خاخ معها كتاب من حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش يخبرهم بقدومنا إلى مكة ، فذهبوا إلى الظعينة فأنكرت ، فهددها سيدنا علىٌ وأخرج من عقاصها ـ أى من ضفائر شعرها ـ الكِتَاب ، فإذا هو كتاب من حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش ، فاستحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطباً وقال له : أهذا كتابك ؟. قال . نعم يا رسول الله ، فقال : وما دعاك إلى هذا ؟ قال : والله يا رسول الله لقد علمت أن الله ناصرك ، وأن كتابى لن يقدم ولن يؤخر . وأنا رجل

ملصق فى قريش ولم أكن من أنفسهم ليس لى بها عصبة ولى بين اظهرهم ولد وأهل فاحببت أن أتقدم الى قريش يد تكون لى عندهم يحمون بها قرابتى وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن دينى ولا رضا بالكفر بعد الإسلام فقال له النبى : قد صدقت .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يبين القضايا الإيمانية وخاصة ما يتعلق بأمر المؤمنين مع أعدائهم على الصدق ، ولا يستقيم الأمر أن يفشى ويذيع كل واحد الكلام الذى يسمعه ، بل يجب أن يردوا هذا الكلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أولى الأمر لأنهم هم الذين يستنبطون ما يناسب ظرفهم من الأشياء ، ربما أذنوا لكم فى قولها ، أو أذنوا بغيرها إذ كان أمر الحرب والخداع فيها يستدعى ذلك وهذا يدل على أن الحق سبحانه وتعالى وإن كان قد ضمن النصر والغلبة لهم وأوضح . أن الوكيل وأنا الذى أنصر ولا تهابوهم ، إلا أنه سبحانه يريد أن يأخذ المؤمنون بالأسباب . وبكفايتهم به على أنه هو الناصر . .

« ولولا فضل الله عليكم ورحمته لا تبعتم الشيطان إلا قليلاً » وهذا يدل على أن هذه المسألة قد حدثت منهم ولكن فضل الله هو الذى سندهم وحفظهم فلم يجعل لهذه المسألة مغبة أو عاقبة فيما يسوؤهم . « ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً » ونعرف أنه كلما جاء فعل من الأفعال وجاء بعده استثناء فنحن ننظر:هل هذا الاستثناء من الفاعل أو من الفعل ؟ وهنا نجد قوله الحق : « لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً » فهل كان اتباع الشيطان قليلاً أى اتبع الشيطان قلة وكثيرون لم يتبعوا الشيطان فهل نظرت إلى القلة فى الحدث أو فى المحدث للحدث ؟ . فإن نظرت إلى القلة فى الحدث فيكون : لاتبعتم الشيطان إلا اتباعاً قليلاً تهتدون فيه بأمر الفطرة ، وإن أردت القلة فى المحدث « لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً » أى إلا نفرا قليلا منكم سمت فطرتهم فلا يتبعون الشيطان

فقد ثبت أن قوماً قبل أن يرسل ويبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جلسوا ليفكروا فيما عليه أمر الجاهلية من عبادة الأوثان والأصنام ، علم يرقهم ذلك ، ولم يعجبهم ، فمنهم من صَدَّ عن ذلك نهائياً ، ومنهم من ذهب ليلتمس هذا العلم من مصادره فى البلاد الأخرى ، فهذا « زيد بن عمرو بن نفيل » ، وهذا « ورقة بن

نوفل ، الذى لم يصدق كل ما عرض عليه ، وه أمية بن أبى الصلت » ، وه قُسّ بن ساعدة » ، كل هؤلاء بفطرتهم اهتدوا إلى أن هذه الأشياء التى كانت عليها الجاهلية لا تصح ولا يستقيم أن يكون عليها العرب فهؤلاء كانوا قلة وكانوا يسمون بالحنفاء والكثير منهم كان يعبد الأصنام ثم أكرمهم الله ببعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إذن يقول الحق : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً » أى لأن الحق سبحانه وتعالى بفضله ورحمته لن يدع مجالاً للشيطان فى بعض الأشياء . بل يفضح أمر الشيطان مع المنافقين . فإذا ما فضح أمر الشيطان مع المنافقين أخلدكم إلى جانب الحق بعيداً عن الشيطان ، فتكون هذه العملية من فضل الله ورحمته .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه مخاطباً سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾

وحين ترى جملة فيها الفاء فاعلم أنها مسببة عن شىء قبلها ، وإذا سمعت مثلاً قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة عبس)

ومعنى ذلك أن القبر جاء بعد الموت ، فإذا وجدت « الفاء » فاعرف أن ما قبلها سبب فيما بعدها ، ويسمونها « فاء السببية » .

فيما الذى كان قبل هذه الآية لتترتب عليه السببية فى قول الله سبحانه لسيدنا رسول الله : « فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك » نقول : مادام الأمر جاء « فقاتل » ، فعلينا أن نبحث عن آيات القتال المتقدمة ، ألم يقل قبل هذه الآية :

﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾

(سورة النساء)

والآية الثانية :

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة النساء)

إذن أمر القتال موجود من الله من ؟ لرسول الله ، والرسول يبلغ هذ الأمر للمؤمنين به ، والرسول يسمعه من الله مرة واحدة ؛ لذلك فإنه صلى الله عليه وسلم أول من يصدق أمر الله فى قوله : « فليقاتل فى سبيل الله » . ثم ينقلها إلى المؤمنين ، فمن آمن فهو مصدق لرسول الله فى هذا الأمر فالرسول هو أول منفعل بالقرآن فإذا قال الحق :

﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾

(من الآية ٧٤ سورة النساء)

أو عندما يقول له الحق :

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة النساء)

ومادام الرسول صلى الله عليه وسلم هو أول منفعل بأوامر الله ، فإذا جاءه الأمر فعليه أن يلزم نفسه أولاً به ، وإن لم يستمع إليه أحد وإن لم يؤمن به أحد أو لم يتبعه أحد ، وهذا دليل على أنه واثق من الذى قاله له : « ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله » ومادام صلى الله عليه وسلم هو أول منفعل فعليه أولاً نفسه ؛ لأنه صلى الله

عليه وسلم بإنباله على القتال وحده ، إنما يدل مَن سمع القرآن على أن الرسول الذى نزل عليه هذا القرآن ، أول مصدق ، ومحمد لن يعش نفسه فقبل أن يأمر المؤمنين أن يقاتلوا ، يقاتل هو وحده . ولذلك نجد أن سيدنا أبا بكر الصديق - رضوان الله عليه - حينما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى وحدثت ردة من بعض العرب ، وأصرّ خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يقاتل المرتدين وقال : لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لجالدتهم عليه بالسيف . وحاول بعض الصحابة أن يثني أبا بكر الصديق عن عزمه فقال : والله لو عصت يميني أن تقاتلهم لقاتلتهم بشمالي .

إذن فقول الله لرسوله صلى الله عليه وسلم : « فقاتل في سبيل الله » ينبهنا إلى أن هناك فرقاً بين البلاغ وبين تنفيذ المبلَّغ . وبادام الرسول صلى الله عليه وسلم قد سمع من الله ، فهو ملزم بتطبيق الفعل أولاً ، وبعد ذلك يبلغ الرسولُ المؤمنين ، فمن استمع إليه فعل فعله

وقول الحق : « لا تكلف إلا نفسك » هو تكليف بالفعل لا بالبلاغ فقط ، فالرسول يبلغ ، لكن أن يفعل المؤمنون ما بلغهم به عن الله أو لا يفعلوا فهذا ليس من شأنه ولا هو مكلف به . ولكن على الرسول أن يلزم ويكلف نفسه ليقاتل في سبيل الله . « فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك » .

أمعنى ذلك أن يترك الرسول الذين آمنوا به لنفوسهم ؟ لا فالحق قد أوضح : عليك أيضاً أن تحرضهم على القتال فلا تتركهم لنفوسهم : « وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا » ومعنى « حرض » مأخوذ من « الحُرْض » وهو ما به إزالة العوائق ومما يعطف الأيدي والملابس مما يرين عليها ويعلوها من الوسخ والدنس ، فعليك يا رسول الله أن تنظر في أمر صحابتك وأتباعك وتعرف لماذا لا يريدون أن يقاتلوا ، وعليك أن تنفض عنهم الموانع وتزيل العوائق التي تمنعهم أن يقاتلوا .

« وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا » ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يقول لرسوله : إنك لا تنصر بالكثرة المؤمنة بك ، ولكن المؤمنين هم

ستر لهذا الله فى النصر ، فالنصر منه سبحانه :

﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة آل عمران)

وورود كلمة « بأس » فى الآية التى نحن بصددها ، يراد بها القوة والشدة فى الحرب ، ويراد بها المكيدة ، ويراد بها هزيمة الأعداء . فكلمة « بأس » فيها معانٍ متعددة . والحق يبلغ رسوله . إنك يا محمد لا تكلف إلا نفسك وإياك أن يخطر على بشريتك : كيف أقاتل هؤلاء وحدى فإن القوم المؤمنين معك وإذا ما دخلوا القتال فهم لا ينصرونك ولكنهم يسترون يد الله فى النصر .

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة التوبة)

ولماذا لا ينصر الله المؤمنين والرسول مباشرة دون قتال لعبرهم من الكفار والمشركين ؟ . لأن النصر لو جاء بسبب غيبى من الحق ربما قالوا ظاهرة طبيعية قد تشأت . . ولكن الحق يريد أن يظهر أن القلة المؤمنة هى التى غلبت ، فالمؤمن يقبل على الأسباب ولا ينسى المسبب ، فحينما نظر المسلمون إلى الأسباب فقط فى « حنين » ، وقال بعضهم . لن نهزم عن قلة فنحن كثير ، هنا ذاق المسلمون طعم الهزيمة أولاً ، وبعد أن أعطاهم الحق الدرس التأديبى أولاً . . نصرهم ثانياً . والحق يقول

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا ﴾

(من الآية ٢٥ سورة التوبة)

وهذا لفت للمؤمنين أن يكونوا مع الأسباب ويتذكروا المسبب دائماً ؛ لأن الأسباب إنما تأتى فقط لإثبات أن الله مع المؤمنين فلو أن المؤمنين انتصروا بأى سبب غيبى آخر لقال الأعداء : إن هذا الذى حدث هو نتاج ظاهرة طبيعية . والفرق بين الظاهرة الطبيعية والظاهرة المادية فى الخصوم ما حدث لسيدنا إبراهيم عليه السلام . فلم يرد الحق مجرد إنقاذ سيدنا إبراهيم من النار ، لأن الأمر لو كان كذلك لما مكّن أعداء إبراهيم عليه السلام من القبض عليه . . ولو فعل الحق ذلك لقال أعداء سيدنا

إبراهيم : آه لو كنا قد أمسكنا به ، ولكان ذلك فرصة لكفرهم

ولكن الحق يجعلهم يمسكون بإبراهيم عليه السلام : وَتَرَكَ النارَ تتأجج ، ويقطع سبحانه الأسباب :

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

هذه هي الكناية ، فلو جاء إنقاذ إبراهيم بطريق غير ذلك من الأمور الغيبية غير المادية المحسة ، لوجد خصوم إبراهيم المحارج لتبرير هزيمتهم

ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يوضح لرسوله : يا محمد أنا الذي أرسلتك ، ولم أكلك إلى نصرة من يؤمن بك ، وإني قادر على نصرك وحدك بدون شيء ، ولكن أردت لأمتك التي آمنت بك أن ينالها ثمنُ الإيمان بك فيستشهد بعضها ، فتثاب الأمة ، وتنتصر فتعلو وترتفع هامتها على العرب ، فلو كان الأمر مقصوراً على نصر رسول الله لنصره الله دون حرب أو جهاد

وقول الحق سبحانه : « عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً » أي أنه سبحانه قادر على أن يوقف وقع حرب وكيد الكافرين فيبطله ويهزمهم . وهذا ما حدث ، فبعد موقعة « أحد » التي ماعت نهايتها ولا يستطيع أحد أن يحدد مَن المنتصر فيها ومن المهزوم ؛ لأن رسول الله قد انتصر أولاً ، ثم خالف الرماة أمر رسول الله ، فحدث خلل في صفوف المقاتلين المسلمين ، ولكن لم يبق المحاربون من قريش في مكان المعركة ، وأيضا لم يتجاوزوها إلى داخل المدينة ، ولذلك لم تنته معركة أحد بنصر أحد ويعد ذلك هددوا بأن الميعاد في بدر الصغرى في العام القادم .

ومر العام ، وجاء الميعاد ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرج ، فنادى طالب بالخروج وجد كسلاً من القوم ، ولم يطعه إلا سبعون رجلاً ، وخرجوا إلى المكان المحدد . وأثبتوا أنهم لم يخافوا الموقف ، وقذف الله الرعب في قلب أبي سفيان وقومه فلم يخرجوا . إذن فربنا قادر أن يكف بأس الذين كفروا ، فقد أقام رسول الله

فى المكان ، وجلس مع المقاتلين وكان معهم تجارة وباعوها وغنم المسلمون الكثير من هذه التجارة

« عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً » وكلمة « عسى » فى اللغة تأخذ أوضاعاً متعددة ، فـ « عسى » معناها فى اللغة الرجاء ، كقول واحد : عسى أن يجىء فلان . أى : أرجو أن يجىء فلان أو قول واحد محاطباً صاحباً له : عسى أن يأتيك فلان بخير . وهذا رجاء أن يأتى فلان إلى فلان ببعض الخير ، وقد يأتى فلان بالخير وقد لا يأتى ، لكن الرجاء قد حدث .

وقد يقول واحد لصاحبه : عسى أن آتيك أنا بخير هنا يكون الرجاء أكثر قوة ؛ لأن الرجاء فى الأولى فى يد واحد آخر غير المتحدث ، أما الخير هنا فهو فى يد المتحدث . لكن أيضمن المتحدث أن توجد له القوة والوجود حتى يأتى بالخير لمن يتحدث إليه ؟.

إنه صحيح يسوى ذلك ولكنه لا يضمن أن توجد عنده القدرة .

وإذا قال قائل : عسى الله أن يأتيك بالفرج . هذه هى الأوغل فى الرجاء . لكن هل من يقول ذلك واثق من أن الله يجيب هذا الرجاء ؟. قد يجيب الله وقد لا يجيب وهذا لإرادة الله لا لمايريد من يرجو أو المرجو له . أما عندما يقول الحق عن نفسه . « عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا » فهذا هو القول البالغ لنهايات كل الرجاءات فـ « عسى » بمراحلها المختلفة تبلغ قمتها عندما يقول الحق ذلك .

وهكذا نرى مراحل « عسى » أن يقول قائل : عسى أن يفعل لك فلان خيراً هذه مرحلة أولى فى الرجاء ، وأن يقول قائل : عسى أن آتيك أنا بخير . هذه مرحلة أقوى فى الرجاء ، فقد يحب الإنسان أن يأتى بالخير لكن قد تأتى له ظروف تعوقه عن ذلك . وأن يقول قائل : عسى الله أن يفعل كذا ، هذه مرحلة أكثر قوة ؛ لأن الخير فيها منسوب إلى القوة العليا ، لكن هذا الرجاء قد يجيبه الله وقد لا يجيبه

والأقوى على الإطلاق هو أن يقول الله عن نفسه : « عسى الله أن يكف بأس

الذين كفروا » و« عسى » بالنسبة لله رجاء محقق لأنه إطماع من الله عز وجل والإطماع منه واجب تحققه لأنه ـ سبحانه ـ هو الذى يحثنا ويدفعنا إلى الطمع فى فضله لأنه كريم ، وهو القائل سبحانه . « عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً » لأن أصحاب البأس من الخلق هم أهل أغيار ، فالقوى منهم قد يضعف أو يصاب ببعض من الرعب فتخلخل عظامه أما واهب العمل وواهب القوى لخلقه فهو القادر على أن يفعل فهو الأشد بأساً وهو سبحانه أشد تنكيلاً .

وساعة يسمع الإنسان أى شىء من مادة « نكل » فعليه أن يعرف أنها مأخوذة من « النكل » وهو القيد . وعندما يوقع الحاكم ـ مثلا ـ العذاب على مرتكب الجريمة ، والشخص الذى يرى هذا العذاب يخاف من ارتكاب مثل هذه الجريمة ، فكأن الحاكم قد قيدهم بالعذاب الذى أنزله بأول مجرم أن يفعلوا مثل فعله ولذلك يقال على ألسنة الحكام : سأجعل من فلان نكالاً . أى أن القائل سيعذب فلاناً ، بحيث يكون عبرة لمن يراه فلا يرتكب جريمة مثله أبداً خوفا من أن تنزل به العقوبة التى نزلت ولحقت بمن فعل الجريمة

إذن فالتنكيل والنكال والنكل كلها راجعة إلى القيد الذى يمنع إنساناً أن يتحرك نحو الجريمة ، أو قيد يمنع الإنسان أن يرجع إلى الجريمة التى فعلها أولاً . أو أن هذا القيد وهو العذاب الذى عوقب به مرتكب الجريمة يكون ماثلا أمام الناس يحذرهم من الوقوع فيها كى لا تنالهم عقوبتها ونكالها

إن الحق سبحانه وتعالى حين خلق الخلق ووزع عليهم فضل المواهب فلا يوجد واحد قد جمع كل المواهب ؛ لأن فكر الإنسان وطاقته وجسمه وظروفه شاء الله أن تختلف وشاء سبحانه ألا يجعل الإنسان موهوباً فى كل مجال ، وحين يوزع الله على كل عبد جزءًا من المواهب ويعطى العبد الآخر جزءا آخر حتى يتكامل العباد معاً فلو أن صاحب موهبة تجمعت لديه مواهب الآخرين لاستغنى كل إنسان عن مواهب الآخرين ، والله يريد منا مجتمعاً متسانداً متكافلاً متكاملاً ، فيا أيها أنا أجده عند غيرى . فتجد بارعاً فى الهندسة وعندما يصاب هذا المهندس البارع بألم فهو يطلب طبيبا ، والطبيب الذى يريد بناء عيادة يطلبها من المهندس . وكلاهما يطلب مشورة المحامى فى كتابة العقود ، وكل هؤلاء فى حاجة إلى من يقيم البناء ، والذين يقيمون

البناء من مهن متعددة أخرى يحتاج بعضهم إلى بعض .

إذن لا يوجد فرد واحد قادر على أن يقوم بكل هذه العمليات بمفرده ، ولو أن هناك واحداً يستطيع كل ذلك ما احتاج إلى أحد ، ولو حدث ذلك لكان لتفكك في المجتمع . ولذلك جاء قول الحق :

﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

والناس حين تنظر لتفضيل الله لبعض الناس على بعض درجات ينظرون إلى ذلك في مجال المال فقط . . ونقول لمن يظن ذلك - أنت مخطئ ، فإن فضلك الله في القوة والجسم فهذه رفعة ، وإن فضلك في العلم فذلك رفعة أيضاً ، وإن فضلك في الحلم فهذه رفعة ، إن تفضيل الحق لك في أي مجال هو رفعة لك ، فأنت كعبد تكون مفضلاً ؛ وممفضلاً عليك .

إذن فحين يقول الحق : « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات » قد يسأل إنسان : أي بعض مرفوع وأي بعض مرفوع عليه ؟ ويقول كل واحد مرفوع بموهبته ، وغيره مرفوع عليه بموهبته .

ومن القصور أن ننظر إلى التفضيل في مجال المال فقط ، فلا يصح أن ننظر إلى هذه الزاوية وحدها ولكن لننظر من كل الزوايا وعندما ننظر في الزوايا جميعها نجد الفرد مرفوعاً في شيء ، ومرفوعاً عليه في أشياء ، وكل منا مسخر لغيره إذن فعندما خلق الله العباد جعل كُلاً منهم مسخراً للآخر ، ومادام الأمر كذلك ، فيجب ألا يُترك الفرد في البيئة الإيمانية فذاً ، بل على كل ذي موهبة يفقدها غيره أن يمده بهذه الموهبة . فبعد أن كان فذاً - أي فرداً - يصير شَفْعاً . والشَّفْع - كي نعلم - هو ضم شيء إلى مثله ، في ضم إلى غيره ليصيرا زوجا فهو شَفْع بخلاف الوتر فإنه الواحد

فإذا كان الواحد منا موهوباً فليضم موهبته للثاني ، حتى يصبح الاثنان شَفْعاً ، وبذلك ينطبق عليه قول الحق :

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾

وما هى الشفاعة الحسنة ؟ الذين من الريف يعرفون مسألة « الشُّفْعَة » فى العرف . فيقال : فلان أخذ هذه الأرض بالشفعة . أى أنه بعد أن كان يملك قطعة واحدة من الأرض ، اشترى قطعة الأرض المجاورة لتنضم لأرضه ، فبدلاً من أن تكون له أرض واحدة صارت له أرضان .

وعندما يأتى واحد لشراء أرض ما ، فالجار صاحب الأرض المجاورة يقول : أنا أدخل بالشفعة ، أى أنه الأولى بملكية الأرض إذن فمعنى يشفع ، هو من يقوم بتعدية أثر الموهبة منه إلى غيره من إخوانه المؤمنين ولهذا فإنه يكون له نصيب منها .

فالشفاعة الحسنة هى التوسط بالقول فى وصول إنسان إلى منفعة دنيوية أو أخروية أو إلى الخلاص من مضرة وتكون بلا مقابل . إذن فكل واحد عنده موهبة عليه أن يضم نفسه لغير الموهوب ، فبعد أن كان فرداً فى ذاته صار شفعاً . ولذلك يقال : فلان سيشفع لى عند فلان ، أى أنه سيضم صوته لصوت المستعين به . ولحق سبحانه وتعالى فيما يرويه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله قال لسيدنا داود : إن الرجل ليعمل العمل الواحد أحكّمه به فى الجنة

أى أن رجلا واحداً يؤدى عملا ما ، فيعطيه الله تفضلاً بأن يقوم بتوزيع الأماكن على الأفراد فى الجنة ، وكأنه وكيل فى الجنة ، أى أنه لا يأخذ منزلا له فقط ، ولكنه يتصرف فى إعطاء المنزل أيضاً ، فتساءل داود : يارب ومن ذلك ؟ قال سبحانه : مؤمن يسعى فى حاجة أخيه يحب أن يقضيها قضيت أو لم تقض

قال صلى الله عليه وسلم : « من مشى فى حاجة أخيه وبلغ فيها كان خيرا له من

اعتكافه عشر سنين ، ومن اعتكف يوما ابتغاء وجه الله تعالى جعل الله بينه وبين النار ثلاثة خنادق أبعد مما بين الخافقين »[1] .

ذلك لأن العبد الذى سعى فى قضاء حاجة أخيه يكون قد أدى حق نعمة الله فيما تفضل به عليه ، ويكون من أثر ذلك أنه لا يسخط أو يجحد غير الواجد للموهبة على ذى الموهبة . وبذلك فسبحانه يزيل الحقد من نفس غير الموهوب على ذى الموهبة ؛ فغير الموهوب يقول : إن موهبة فلان تنفعنى أنا كذلك ، فيحبّ بقاءها عنده ونماءها لديه .

ويقول الحق : « من يشفع شفاعة حسنة يكون له نصيب منها » ثم يأتى الحق بالمقابل ، فهو سبحانه لا يشرع للأخيار فقط ، ولكنه يضع الترغيب للأخيار ويضع الترهيب للأشرار ، فيقول : « ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها » .

ولنر المخالفة والفارق بين كلمة « النصيب » وكلمة « الكفل » . كلمة « النصيب » تأتى بمعنى الخير كثيرا . فعندما يقول واحد . أنت لك فى مالى نصيب . هذا القول يصلح لأى نسبة من المال . أما كلمة « كفل » فهى جزء على قدر السيئة فقط . وهذا هو فضل من الله ، فمن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، وهذا نصيب كبير . ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها .

وهذه الآية قد جاءت بعد تحريض الرسول للمؤمنين على القتال ، أى أنك يا رسول الله مُطالب بأن تقسم لك أناساً يقاتلون معك ؛ فتلك شفاعة حسنة سوف ينالون منها نصيباً كبيرا وثوابا جزيلا .

أما قول الحق : « ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها » أى يكون له جزء منها ، أى يصيبه شؤم السيئة ، أما الجزاء الكبير على الحسنة فيدفع إلى إشاعة مواهب الناس لكل الناس . ومادامت مواهب الناس مشاعة لكل الناس فالمجتمع يكون متساندا لا متعاندا ، ويصير الكل متعاونا صافى القلب ، فساعة يرى واحد النعمة عند أخيه يقول : « سبأتى يوم يسعى لى فيه خير هذه النعمة »

---

(١) رواه البيهقى

ولذلك قلنا : إن الذى يحب أن تسرع إليه نعم غيره فليحب النعم عند أصحابها فإنك أيها المؤمن إن أحببت نعمة عند صاحبها جاءك خيرها وأنت جالس . وإذا ما حُرمت من آثار نعمة وهبها الله لغيرك عليك فراجع قلبك فى مسألة حبك للنعمة عنده ، فقد تجد نفسك مصاباً بشىء من الغيرة منها أو كارهاً للنعمة عنده ، فتصير النعمة وكأنها فى غيرة على صاحبها ، وتقول لذكاره لها : « إنك لن تفرق ولن تنال خيرى » .

ويختم الحق الآية : « وكان الله على كل شىء مُقيتاً » جاء هذا القول بعد الشفاعة الحسنة والشفاعة السيئة ، وفى ذلك تنبيه لكل العباد . إياكم أن يظن أحدكم أن هناك شيئاً مهما صغر يفلت من حساب الله ، فلا فى الحسنة سيفلت شىء ، ولا فى السيئة سيضيع شىء . وأخذت كلمة « مُقيتاً » من العلماء أبحاثاً مستفيضة . فعالم قال فى معناها : إن الحق شهيد ، وقال آخر : « إن الحق حسيب » ، وقال ثالث : إن « مقيتاً » معناها « مانح القوت » ورابع قال : « إنه حفيظ » وخامس قال : « إنه رقيب » .

ونقول لهم جميعاً : لا داعى للخلاف فى هذه المسألة ، فهناك فرق بين تفسير اللفظ بلازم من لوازمه وقد تتعدد اللوازم ، فكل معنى من هذه المعانى قد يكون صحيحاً ، ولكن المعنى الجامع هو الذى يكون من مادة الكلمة ذاتها . و« مُقيت » من « قاته » أى أعطاه القوت ، وفإذا يعطيهم القوت ؟ ليحافظ على حياتهم ، فهو مقيت بمعنى أنه يعطيهم ما يحفظ حياتهم ، ومعناها أيضاً : المحافظ عليهم فهو الحفيظ . وبما أنه سبحانه يعطى القوت ليظل الإنسان حياً ، فهو مشاهد له فلا يغيب المخلوق عن خالقه لحظة ، وبما أنه يعطى القوت للإنسان على قدر حاجته فهو حسيب . وبما أنه يرقب سلوك الإنسان فهو يجازيه .

إذن كل هذه المعانى متداخلة ومتلازمة ، لذلك لا نقبل اختلاف العلماء فى هذا المعنى ، ولكن لنقل إن كل عالم لاحظ ملحظاً فى الكلمة ، فالذى لاحظ القوت الأصلى عن صواب ، فلا يعطى القوت الأصل إلا المراقب لعباده دائماً ، فهو شهيد ، ولا يعطى أحداً قوتاً إلا إذا كان قائماً على شأنه فهو حسيب وسبحانه لا يُقيت

الإنسان فقط ولكن يقيت كل خلقه ، فهو يقيت الحيوان ويلهمه أن يأكل صنفاً معيناً من الطعام ولا يأكل الصنف الآخر

إننا إذ رأينا العلماء ينظرون إلى « مقيت » من زوايا مختلفة فهم جميعا على صواب ، سواء من جعلها من القوت أو من الحفظ أو من القدرة أو من المشاهدة أو من الحساب ، وكل واحد إنما نظر إلى لازم من لوازم كلمة « مقيت » وسبحانه يقيت كل شيء ، فهو يقيت الإنسان والحيوان والجماد والنبات .

ونجد علماء النبات يشرحون ذلك ؛ فنحن نزرع النبات ، وتمتص جذور النبات العناصر الغذائية من الأرض ، وقبل أن يصبح للنبات جذورٌ ، فهو يأخذ غذاءه من فلقتي الحبة التي تصنع الغذاء إلى أن ينبت لها جذر ، وبعد أن يكبر جذر النبات فالفلقتان تصيران إلى ورقتين ، وسبحانه على كل شيء مقيت ، ويقول العلماء من بعد ذلك : إن الغذاء قد امتصه النبات بخاصية الأنابيب الشعرية . أي أن النبات يمتص الغذاء من التربة بواسطة الجذور الرفيعة التي تمتص الماء المذاب فيه عناصر الغذاء . وفتحة الأنبوبة في الأنابيب الشعرية لا تسع إلا مقدار الشعرة ، وعندما توضع في الإناء فالسائل يصعد فيها ويرتفع الماء عن مستوى الحوض ، وعندنا تتوازى ضغوط الهواء على مستويات الماء فالماء لا يصعد .

ومثال ذلك : عندما نأتي بماء ملون ونضعه في إناء ، ونضع في الإناء الأنابيب الشعرية ، فالسائل الملون يصعد إلى الأنابيب الشعرية ، ولا تأخذ أنبوبة مادة من السائل ، وتترك مادة بل كل الأنابيب تأخذ المادة نفسها لكن شعيرات النبات تأخذ من الأرض الشيء الصالح لها وتترك الشيء غير الصالح . وهو ما يقول عنه علماء النبات « ذلك هو الانتخاب الطبيعي » . ومعنى الانتخاب هو الاختيار ، والاختيار يقتضي عقلاً يفكر ويرجح ، والنبات لا عقل له ، ولذلك كان يجب أن يقولوا إنه « الانتخاب الإلهي » ، فالطبيعة لا عقل لها ولكن يديرها حكيم له مطلق العلم والحكمة والقيومية .

وسبحانه يقول عن ذلك :

﴿ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

(من الآية ٤ سورة الرعد)

فالفلفل يأخذ المادة المناسبة للحريفية ، والقصب يأخذ المادة التى تصنع حلاوته ، والرمان يأخذ المادة الحمضية . هذا هو الانتخاب الإلهى .

« وكان الله على كل شىء مُقيتاً » وساعة تسمع « كان الله » فإياك أن تتصور أن لـ « كان » هنا ملحظاً فى الزمن ، فعندما نقول بالنسبة للبشر « كان زيد غنياً » فزيد من الأغيار وقد يذهب ثراؤه لكن عندما نقول « كان الله » فإننا نقول « كان الله ومازال » ، لأن الذى كان ويتغير هو من تدركه الأغيار . وسبحانه هو الذى يُغَيِّر ولا يَتَغَيَّر ، وموجود منذ الأزل وإلى الأبد وحين أوضح لنا سبحانه الشفاعة وأمرنا أن يعدى الواحد منا مواهبه إلى غيره فذلك حتى تساند قدرات المجتمع لأنه يربى الفائدة للعبد المؤمن ويربيها لمجتمع

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾

الحق هنا يريد أن يربى معنى الحياة فما معنى : « حُيِّيتم » ؟ الكلام السطحى الأولى فيها : إذا حياك واحد وقال لك : « السلام عليكم » فعليك أن ترد السلام . وكان العرب قديماً يقولون : حياك الله وبعد أن جاء الإسلام جعل التحية فى اللقاء هى السلام .

﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأحزاب)

أو كما قال الحق فى موقع آخر :

﴿ فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٦١ سورة النور)

ولنفهم معنى كلمة « حياك » . مادة الكلمة هى « الحاء » ، و« الياءان » ، ومنها كلمة « حياة » ، التى منها حياتنا . والحياة إذا نظرنا إليها قد تأخذ معنىً سطحياً عند الناس وهو ما نشأ عنه الحس الحركى وهى أول ظاهرة فينا ، وبعد ذلك فى الحيوان ، وإن ارتقيت فى الفهم تجد أن كلمة « الحياة » تنتظم كل أجناس الوجود حتى الجماد ، لكن الإنسان لا يتعرف إلى الحياة إلا فى المظهر الحسى والحركى ، ولكن لكل كائن حياة تناسبه .

وعندما كانوا يعلموننا فى المدارس علم المغناطيسية كنا نرى تجربة المغناطيس ونأتى بقضيب مغناطيسى ، ثم نأتى ببرادة الحديد ، ونسير به فى اتجاه واحد وذلك حتى ترتب الجزئيات ترتيباً يتناسب مع اتجاه المغناطيسية فى القضيب الحديدى هذا القضيب الذى نراه مادة جامدة فى نظرنا ، ولكن توجد فيها ذرات دون إدراك الإنسان تتكيف بحركة خاصة بها ، ويُعاد ترتيب السالب منها والموجب ولا توجد قدرة عند المشاهد لها كى يدرك حركتها .

وحتى يقربها المدرسون إلى ذهن التلاميذ ، جاءوا بأنبوبة زجاجية ووضعوا فيها برادة الحديد وجاءوا بالقضيب المغنط ومرّروه بجانب البرادة ، فرأى التلاميذ البرادة وهى تتقافز إلى أن تستقر ، وهنا يتعلم التلاميذ أن برادة الحديد غير المغنطة عندما يمر عليها القضيب المغنط فى اتجاه واحد فذراتها ترتب على أساس واضح ، حتى تصير مغنطة .

وهذا دليل الحس ؛ فقد انقلبت السوالب فى جهة والموجبات فى جهة . فالقضيب المغناطيسى له حركة ولكننا لا ندرك حسه ولا حركته لأننا لا نملك المقاييس اللازمة لذلك .

ومثال آخر : لنفترض أننا نتحرك وجاءت طائرة من أعلانا والتقطت صورة لنا .

وعندما يأخذون الصورة من قريب ، فهم يرون الحركة ، لكن كلما ابتعدت الطائرة فنحن لا نرى الحركة حتى تصير نقطة بعيدة وكأنها ثابتة . وهي ليست ثابتة ، وإنما هي متحركة بصورة دقيقة جدا لدرجة أنها لا تُدرك . فكل شيء ـ إذن ـ فيه حياة خاصة تناسبه ، وكل شيء له الحس والحركة الخاصة به . وعندما نأتي للقرآن ، نرى كيف عالج هذه القضية فيقول :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

استثنى القول وجه الله . أي ذاته ، فكل شيء ما عداه هالك .

ومعنى « هالك » أي ليس فيه حياة ، ومادام كل شيء يهلك فهذا دليل أن في كل شيء حياة ، حتى يأتي لأحد من الخلق أن تذهب الحياة من كل شيء إلا وجهه سبحانه ، وقد يتساءل إنسان ومن الذي قال : إن كلمة « هالك » تعني ليس فيه حياة ؟. نقول إن القرآن حين يتعرض لقضية لا يقسم العلوم إلى أبواب ولكنه يضع في كل آية جزئية تشرح لنا ما خفي علينا في جزئية أخرى كي نفهم أن القرآن متكامل ، فيقول الحق :

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

فيكون الهلاك ضد الحياة

ونحن إذا ما نظرنا إلى المصانع التي نصنعها ، وليكن البلاستيك مثلاً ، إننا نصنع منه أوان للغسيل أو خلافه ، وأول ما نشتريه للاستعمال يجده زاهي اللون ، وبعد استعماله لفترة يزول عنه البريق ويصبح شاحب اللون ، فما الذي حدث له ؟ . لقد تغير . ما الذي أحدث التغير ؟ . يقال : الاستعمال وأشعة الشمس وغير ذلك . إذن ففيه حس لأنه تأثر وحركة لأنه تغير ، وكذلك الأحجار الكريمة والمرمر والرخام وغيرها يقدرون عمرها بمئات السنين وأحياناً بآلاف السنين ، وكلما طال عمرها تغير لونها من الحياة والتفاعلات .

وعندما نمسك ورقة ونضعها تحت المجهر فإننا نرى عدداً هائلاً من الغرف الصغيرة ، ولا حصر لهذه الغرف ، ويقول المؤمن :

﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المؤمنون)

فكل شيء في الوجود له حياة تناسبه ، إذ استقريتها وتتبعتها بدقة واستطعت أن توجد الآلات التي تستنبط والتي تساعد على الإدراك فإنك ترى الحركة وتشاهدها بالحس .

إلا أن الحياة بالنسبة لأرقى الأجناس ـ وهو الإنسان ـ المتمتع بكل كائن حي في الكون ، هذه حياة تنتهي في ميعاد مجهول بالنسبة للإنسان معلوم بالنسبة لله وأراد الله أن يكلفه تكليفاً إن استمع إليه ونفذه فهو سبحانه يعطيه حياة لا تنتهي وعندما نقيس الحياة التي لا تنتهي بالحياة التي تنتهي ، فأي منهما جديرة بأن تسمى حياة ؟ إنها الحياة الأخرى التي لا تنتهي ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة العنكبوت)

هذه هي الحياة الحقة ، وإلا فما قيمة هذه الحياة الدنيا التي تهدك فيها الآفات والآلام والاضطرابات والأسقام والأمراض ، وبعد ذلك تنتهي ، فيوضح الحق : خذ حياة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، فهذه هي الحياة حقاً ، ولذلك فالحق عندما تعرض هذه المسألة أوضح : إياكم أن تعتقدوا أن هذه الحياة الدنيا هي التي أريدها لكم ، أنا أريد لكم حياة أخلد من هذه ، ولذلك قال :

﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

هو يخاطبهم إذن فهم أحياء بالقانون المتعارف عليه ، وأنهم إن لم يستجيبوا إلى ما دعاهم إليه الحق والرسول لن يأخذوا لوناً أرقى من الحياة ، وهي حياة لا تهددها الآفات ولا الأثقال ولا الأمراض ولا الفناء ، إنها الحياة الحقة ، ولذلك يسميها الحق

« الروح » لأنها تحرك الجسم وتعطيه حياة وإن كانت تنتهى فيقول :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾

(من الآية ٧٢ سورة ص)

هذه أولى مراحل الحياة الممنوحة للمؤمن والكافر .

ويسمى سبحانه الحياة الأكبر منها والتى لا تنتهى بسميها الحق (روحاً) أيضاً :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾

(من الآية٥٢ سورة الشورى)

وهذه هى التى سوف تعطى الحياة الأولى . الأولى اسمها « روح » تعطى حياة دانية . والثانية هى « روح » أيضاً ، إنها ما أوحى الله به ، لأن الناس إذ عملوا به يحيون حياة دائمة خالية من الشقاء والكدر . إذن فقوله : « إذا دعاكم لما يحييكم » هى دعوة إلى الحياة الخالدة ، والحياة الأبدية السعيدة فى الآخرة مرهونة بأن يلتزم الإنسان منهج الله فى حياته ، وإن كانت منتهية .

والحياة الدنيا يرى الإنسان فيها الأخبار والأسقام والمهيجات ، فإذا جاء له من يطمئنه ومن ينفى عنه القلق والخوف فكأنه يحس حياته . وكلمة « حياك الله » أو « السلام عليكم » تعنى : « كن آمناً مطمئناً » وإلا فما قيمة الحياة بدون أمن واطمئنان ؟ .

إذن فكلمة « حياك الله » أو « السلام عليكم » أى الأمان والاطمئنان لك . فأنت لا تعرف هل يجىء القادم إليك بخير أو بشر ، لكن ساعة يقول : السلام عليكم ، فقد يجعل بهذه التحية الأمان فى قلب المتلقى به ويشعر بقيمة حياته .

إذن فقوله الحق : « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » يعنى : إذا ربيتم حياتكم بالتحية التى هى السلام والتى تضمن الأمن والاطمئنان عليكم رد التحية فكلمة « تحية » إعطاء لقيمة الحياة ، وكذلك كلمة « حيوا » أى أعط من أمامك شيئاً من الحياة المستقرة الآمنة المطمئنة . فالحياة بدون أمن وبدون اطمئنان ، كلا حياة .

والشاعر العربي يقول :

ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميّت الأحياء

فقول الحق : « وإذا حييتم » أي أنه إذا ربيتم حياتكم وبوركتم بالأمن وبالسلام « فحيوا بأحسن منها أو ردوها » أي عليكم أن تردوها إما بالتحية مثلها وإما بأفضل منها . والعلماء عندما جاءوا ليتكلموا عن هذا ، قصروا المسألة على تحيات اللقاء . فمن قال لك : السلام عليكم ، فقل له : وعليكم السلام ورحمة الله . أي أنك تزيد عليه .

عن سلمان الفارسي قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : السلام عليك يا رسول الله ، فقال : وعليك السلام ورحمة الله ، ثم جاء آخر فقال . السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ، ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، فقال له : وعليك فقال له الرجل . يارسول الله - بأبي أنت وأمي - أتاك فلان وفلان فسلما عليك فرددت عليهما أكثر مما رددت عن ، فقال : إنك لم تدع لنا شيئا قال الله تعالى . « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها فرددناها عليك »[1] .

وعندما تكلم العلماء في مسألة السلام ، صنفوا لها فقالوا : الماشي يسلم على القاعد . والراكب يسلم على الماشي ، والصغير يسلم على الكبير والمبصر يسلم على الكفيف . والقليل يسلم على الكثير . وكل خطاب موجه للمؤمنين ينتظم ويشمل ذكورهم وإناثهم إلا أن يكون الحكم مما يخص النساء .

وهنا يقول الحق : « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » أللنساء تحية ؟ نعم ، لهن تحية ، المرأة تحيي المرأة ، والمرأة تحيي زوجها ، والمرأة تحيي محارمها ، والمرأة العجوز التي لا إربة فيها تبدأ التحية وتردها ، أما المرأة الشابة فهي لا تبدأ أحداً بالسلام ولا ترد السلام لا تبدأ بالسلام إلا إذا كان معها مثلها ، لأنهم

(١) رواه ابن جرير

يقولون : المرأة عى المرأة عيى أكثر من ألف رجل ، أى أن المرأة تحرص المرأة أكثر من ألف رجل ، فعندما تكون معها مثيلتها تحفظها ، ولذلك يقال : إن المرأة إن بدأت بالسلام أو ردت السلام فذلك حرام ، وإذا بدأها واحد بالسلام أو رد عليها السلام فذلك مكروه . لماذا؟ لأن بَدْءَه له إثارة ، ولكنه إذا بدأ هو بالسلام فليس ضرورياً أن تستجيب . فإن كان معها أحد أو جماعة تؤنس عليها فلا حرج من أن ترد السلام .

وقالوا : وإذا كان الذى يلقى السلام ويبدأه به غير مؤمن ؟ انبى عليه الصلاة والسلام أوضح أنهم يلوون فى الكلام ، فإذا قالوا لكم . « السلام » فقولوا : وعليكم . وذلك يعنى إن قالوها كلمة طيبة لها معنى طيب فاعملا بها وعليهم مثلها ، وإن كانت كلمة خبيثة كقولهم : « السام عليكم » يقولوا:«وعليكم » ؛ لأن السام معناها الموت ، فلكيلا يستهزئوا بكم ، قولوا وعليكم وبعض العلماء قال : المقصود بـ « فحيوا بأحسن منها » أى بالنسبة للمؤمن ، و« ردوها » بالنسبة للكافر .

لكن أتنك هى التحية فقط ؟ إذا كان الذى حياك يقول وأمنك يقول ، فكيف لا تحذر من يؤمن بالقول نفاقاً ، يظهر لك الأمن ثم يقول : السلام عليكم ، ومعه الضر ؟ . كما أن الحق علمنا أن نرد التحية بمثلها لأن نقل القضايا من قولية إلى فعلية هى المحك والأساس ، فإذا حياك إنسان يجب عندئذ فعلى المسلم أن يقدم التحية يجب منها ، وإن لم يستطع فليرد على الأقل بمثلها ، وعندما يرد الإنسان بمثلها يصبح التكارم بين الناس إذ لم يزد فهو لم ينقص ، ويكون الخير متنامياً ، فإذا قدم إنسان خيرا لإنسان آخر ، وردّ عليه بعمل أفضل منه ، ففى ذلك نماء للخير ، وإن لم يستطع فليرد بمثل العمل وبذلك لا ينقص من خيره ، فيكون خير كل إنسان محجوراً على نفسه ؛ لأنه مادام سيعطى التحية ويأخذ على قدر ما يعطى ، فكأنه لم ينقص من خيره شيئاً .

والحق سبحانه وتعالى حين يسخّى النفوس فى أن تعطى أكثر مما حييت به ، فهذا يبين أن المؤمن فى البيئة الإيمانية إنما يتكاثر خيره ، لأنه كلما فعل خصلة خير فهى تعود عليه بالخير . ولذلك فهناك أناس كثيرون إذا أرادت خيراً من أحد ، أعطته خيراً

يناسب قدرها ، ليعطى هو خيراً يناسب قدره ، وهله تحدث كثيراً خصوصاً مع الملوك ، ومثال ذلك : كان المواطن السعودى يقول للملك عبدالعزيز آل سعود : أريد أن تشرب القهوة عندى ، ويذهب الملك عبدالعزيز آل سعود ليشرب القهوة ، ويؤدى لصاحب الدعوة خدمة تعادل القهوة مليون مرة ، فكل من يحيى الملك يرد عليه التحية بأكثر منها .

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » وجاءت كلمة « أو ردوها » من أجل أن يطمئن من قدم تحية أنه سيجد رد تحيته أو أكثر منها .

والحق سبحانه وتعالى عندما يرى خلقه المؤمنين به يتكارمون ، فهو يصنعها فى الحساب ، لذلك يقول سبحانه : « إن الله كان على كل شىء حسيباً » فالحساب لا ينتهى عند أن يرد المؤمن التحية أو يؤدى خيراً منها ، ولكن هناك جزاءً أعلى وأفضل عند مليك مقتدر

وفى تناولنا لمسألة التحية علمْنَا أن كلمة التحية وهى « السلام عليكم » معناها أمان واطمئنان ، والأمان والاطمئنان كلاهما يعطى الحياة بهجة ، فالحياة بدون أمن أو اطمئنان ليس لها قيمة . فكأن إشاعة السلام بقولنا : « السلام عليكم » أو « السلام عليكم ورحمة الله » أو « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » تجعل المجتمع مجتمعا صفائيا ، ومادام المجتمع كله مجتمعا صفائيا ، فخير أى واحد يكون عند الآخر . ويتعدى ذلك إلى أن يطلب المؤمن خير الله لأخيه المؤمن .

إن الإنسان حين يصعد التحية بعد قوله:« السلام عليكم » بإضافة « ورحمة الله وبركاته » فهو يربط النفس البشرية برباط إيمانى بالحق سبحانه وتعالى وبذلك تتذكر ونعى أن الخلق عيال الله ، وسبحانه يحب أن يكون خلقه منسجمين بالعلاقات الطيبة فيما بينهم ، وعندما يكون الخلق على علاقة طيبة بعضهم مع بعض فسبحانه يعطيهم من خيره أكثر وأكثر .

« وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شىء حسيباً » ومن الطبيعى أن نفهم أن رد التحية يعنى أن نقول : تحية مثل التى قالها لنا، فالرد ليس

مقصوداً به أن نرد التحية نفسها ، ولكننا نقول مثلها . فالضمير مبهم ويوضحه مرجعه .

مثال ذلك أن تقول : « لقيت رجلاً فأكرمته » هنا الضمير مبهم ويوضحه مرجعه ، مثال آخر « تصدقت بدرهم ونصفه » فهل معنى ذلك أنني تصدقت بدرهم ثم استردته وقسمته قسمين وتصدقت بنصفه ؟ لا ، إن معنى ذلك هو أنني تصدقت بدرهم ، ونصف مثل الدرهم ، فإذا قال الحق : « فحيوا بأحسن منها أو ردوها » أي ردوا التحية بأفضل منها أو بمثل التي تلقاها ، فإذا ما قيل لك:« السلام عليكم » فقل « وعليكم السلام » .

والحق سبحانه وتعالى يبلغ المؤمنين : لا تظنوا أيها المؤمنون أني بخلقي لكم وإعطائي لكم حرية الاختيار في الإيمان أو في الفعل أو في الترك إياكم أن تظنوا أني لا لمحاسبكم بل سأجازيكم بالثواب على الطاعة وبالعقاب على المعصية ، فحين آمركم بفعل . فمعناه أنني خلقتكم صالحين أن تفعلوا ، وحين أنهاكم عن فعل فمعناه أنني خلقتكم صالحين ألا تفعلوا

إذن فعندما يأتي أمر ؛ فمعنى هذا أن الذي خلقني علم أزلاً بصلاحيتي لتنفيذ هذا الفعل أو عدم تنفيذه . أي صلاحيتي أن أطيع وأن أعصى ، إذن فهناك فعل يقول الحق للعبد فيه : « افعله » ، وفعل يقول له فيه : « لا تفعله » ، والمخالفات والمعاصي إنما تنشأ من نقل « افعل » في مجال « لا تفعل » ، ومن نقل « لا تفعل » في مجال « افعل » ، هذا هو معنى المعصية والحازم لا يأخذ الاختيار الممنوح له ليحقق شهواته بوساطة هذا الاختيار ، بل لا بد أن يضع بجانب الاختيار أنه مردود إلى من أعطاه الاختيار .

وحين تعلم أيها العبد أنك مردود وراجع ومصيرك إلى من أعطاك الاختيار وأنه سوف يجازيك ، فإنك لن تنقل أمراً من مجال « لا تفعل » إلى مجال « افعل » ، أو من مجال افعل إلى مجال لا تفعل . فلو أخذت الاختيار لتريح نفسك لحظة وهي فانية ، فكيف تتعب نفسك في الباقية ؟ فإن أردت أن تكون حازماً وعاقلاً فلا تفعل ذلك ؛ فالمؤمن يمتلك الكياسة والفطنة فلا يُقْدِمُ على مثل هذا .

راجع أصله وخرّج أحاديثه د. أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر

وبعد ذلك يقول سبحانه :

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴾

وهذا يعني : أنّه لا يوجد إله آخر سيأتي ليتدخل وينهي المسائل من خلف ظهر الخالق الأعلى سبحانه . « الله لا إله إلا هو » ليس هناك إله سواى ، لا تشريع يرسم صلاح البشر إلا تشريعي وسترجعون إليّ ، وليس هناك واحد يقول:« افعل » « ولا تفعل » ، والآخر يقول بالعكس ، إنه إله واحد ، والأمر منه بـ « افعل » هو الأمر الوحيد الصالح للإنسان . والنهي منه بـ « لا تفعل » هو النهي الوحيد الذي يجب على العاقل أن يتجنبه ، ولذلك تجده يقول .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الكافرون)

إنه سبحانه يوضح : ليس هناك مضارة بين دينين ، دين للكافرين ، ودين للمؤمنون ، لا ، بل هو دين ومنهج واحد صالح للإنسان هو منهج التوحيد جاءت به الرسل جميعا وختم بالإسلام الذي لا دين بعده ، ولذلك جاء بعدها مباشرة -

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ ﴾

(سورة النصر)

ويأتي بعد ذلك بسورة المسد :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا

ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

(سورة المسد)

أما كان أبو لهب يقدر أن يقول بعدها : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؟ كان يقدر . ولو قالها لشكك في هذه الآية ، ولقالوا : إنه لن يصلى ناراً ذات لهب . إن هذا الأمر كان له فيه اختيار ، ولم يوفقه الله إلى أن يقولها ولو نفاقاً ، لماذا ؟ لأن الحق قال بعد هذه الآية مباشرة :

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾

(سورة الإخلاص)

أي فليس هناك إله آخر يرد أمره سبحانه وتعالى : « الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة » وكلمة « يجمع » تعني أنه يخرجنا مع بعضنا من قبورنا جميعا ، ويحشرنا جميعاً أمامه ، وقد تعني « ليجمعنكم » أي ليحشرنكم من قبوركم لتلقى جزاء يوم القيامة .

لماذا جاء هذا القول ؟ جاء لكي يتحصنه العاقل ، فلا يأخذ انفلات نفسه من منهج الله إلا بملاحظة الجزاء على الانفلات من المنهج ، فلو أخذ نفسه منفلتاً عن منهج الله بدون أن يقدر الجزاء لكان أحق وأحرق .

ولذلك قلنا . إن الذين يسرفون على أنفسهم في المعصية لا يستحضرون أمام عيونهم الجزاء على المعصية ولذلك يقولون : كل الجرائم إنما تتم في غفلة صاحبها عن الجزاء ؛ فالمجرم يرتكب جريمته وهو مقدر السلامة نفسه ، والسارق يذهب إلى السرقة وهو مقدر السلامة ، لكن لو وضع في ذهنه أنه من الممكن أن يتم القبض عليه لما فعلها أبداً

والحق سبحانه وتعالى يوضح إياك يا من تريد - بالاختيار الذي أعطيته لك - الانحراف عن منهجي ألا تقدر الجزاء على هذه المخالفة . بل عليك أن تأخذها قضية واضحة ، واسأل كم ستعطيك المعصية من نفع وكم سيعطيك الله من خير على الطاعة ، وضع الاثنين في كفتي ميزان ؛ فالذي يعطيك الخير الأبقى افعله ، وابتعد عما لا يعطيك الخير بل إنه يوقعك في الشقاء والشر

« الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة » ويوم القيامة هو اليوم الذى قال فيه الحق

﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾

(سورة المطففين)

ولماذا يوم القيامة ؟ لأن آخر مظهر من مظاهر دنيء الناس أنهم حين يموتون ينامون ، وهذا ما يراه ، وبعد ذلك مدخله إلى القبر ولا نعرف كيف يأتى قائماً من نومه إلا بقول الحق : « ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه » .

أى يجب أن يكون الإيمان بيوم القيامة لاشك فيه ؛ لأنك لو قدرت أن العالم الذى خلقه الله مختار ، إن شاء فعل الخير وإن شاء فعل الشر ، وهو ـ سبحانه ـ رود العباد بالمنهج ، وجعل لهم الاختيار ، وأنه ـ سبحانه ـ هو القادر على الجمع يوم القيامة لو قدرت هذا لا ميتما طلبه الله منك .

ونضرب هذا المثل لا للمشبه ، ولكن للتقريب ـ ولله المثل الأعلى ـ الوالد يعطى ابنه جنيهاً ويقول له : اشتر ما تريد ، ولكن لاحظ أنك إن اشتريت شيئا مفيداً فسأكافئك ، وإن اشتريت شيئاً فاسداً كأوراق اللعب أو غيرها فسأعاقبك .

ساعة أعطى الوالد ابنه القوة الشرائية وقال له . انزل اشتر ما تريد ، والابن ساعة اشترى أوراق اللعب هل هذا الشراء قد تم قهراً عن أبيه ؟ لا ، لأن الأب هو من أعطاه الاختيار ، لكن الابن فعل فعلاً غير محبوب لأبيه .

فيا بالنا بالعبد عندما يعطيه الحق الاختيار ؟ ولو أراد الله الناس جميعاً على هداية لجعلهم كالملائكة ، ولما جرؤ ولا قدر أحد أن يفعل معصية . فالعاصي عندما يرتكب المعصية بما يفعلها لأن الله خلق له الاختيار . ولذلك فعندما يقول واحد : كل فعل من الله ، هو صادق ولماذا يتعذب مرتكب المعصية مع أنه يوجه آلة الاختيار إلى ما تصلح له ؟ وهو إنما وجهها مخالفاً لأمر الله ، فالسكين للذبح ، إن ذُبحت بها دجاجة لما استحق الذابح على ذلك عقاباً ، لكن لو ذبحنا بها إنساناً لوقعنا فى محظور يشبه الحق بقتل الناس جميعاً فالذى جاء بالسكين إلى المنزل هل تقول له : « أنت أتيت بأداة الجريمة » ؟ لا ؛ لأنه جاء بأداة صالحة لأن تكون أداة للذبح ما يحل ذبحه أو أداة

بجريمة . إذن فحتى المختار لم يفعل اختياره إلا من باطن أن الله خلقه مختاراً .

لكن هل ألزمه الحق سبحانه وتعالى بأن يفعل المعصية ؟ لا ، فسبحانه أوضح لك : هذا لا أحبه ، وهذا أحبه . واختيارك له مجال . ولك أن تختار الشيء الذى يأتى بالنفع ولا يأتى بالضرر أو أن تختار عكس ذلك .

« الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه » هذا خبر من الله والكلام الخبرى عندنا يحتمل الصدق والكذب لذاته ، لكن لأن الخبر من الله فهو صادق . أما الكلام فى ذاته فيحتمل الصدق ويحتمل الكذب ، ولذلك يذيل الحق الآية بما يلى : « ومن أصدق من الله حديثاً » وهل الصدق فيه تفاضل ؟. ليس فى الصدق تفاضل ، فمعنى الصدق مطابقة الكلام للواقع ، فالإنسان قبل أن يتكلم وهو عاقل ، يدير المسألة التى يريد الكلام فيها ليُعمل العقل فيها ، وبعد هذا ينطق بالكلام .

إذن ففى الكلام نسبة ذهنية ، ونسبة كلامية ، ونسبة واقعية . فعندما يقول واحد : « زيد مجتهد » هو قبل أن يقول ذلك جاء فى ذهنه أنه مجتهد ، وهذه هى « النسبة الذهنية » ، وعندما ينطقها صاحبها تكون « نسبة كلامية » ، ولكى هل صحيح أن هناك واحداً اسمه « زيد » وأنه مجتهد ؟. إن طابقت النسبة الواقعية كلا من النسبة الذهنية والنسبة الكلامية يكون الكلام صدقاً . وإن لم يكن هناك أحد اسمه زيد ولا هو « مجتهد » لا تتطابق النسبة الخارجية الواقعية مع النسبتين « الذهنية والكلامية » فيكون الكلام كذباً فالصدق يقتضى أن تتطابق النسبة الكلامية مع الواقع ، أى مع النسبة الخارجية الحاصلة .

ولماذا يكذب الكذاب إذن ؟ ليحقق لنفسه نفعاً يعوّنه ولا يحققه الصدق فى نظره أو يدفع عنه ضرًّا . مثال ذلك : يكسر الابن شيئاً فى المنزل كمنضدة فالأب يقول لابنه : هل كسرت هذه المضدة ؟ وينكر الابن : لا لم أكسرها . هو يريد أن يحقق لنفسه نفعاً أو يدفع عنها ضرراً وهو الإفلات من العقاب ، لأنه يعلم أن الصدق قد يسبب له عقابا . ولا يحمله على الكذب إلا تفويت مضره قد تصيبه من الصدق فيلجأ إلى الكذب . ويقول كلاماً يخالف الواقع .

إذن هو يريد أن يحقق لنفسه نفعاً أو يدفع عن نفسه ضرراً . والذى ينفع الإنسان لابد ان يكون أقوى منه ، وكذلك الذى يضرّه لكن بالنسبة لله لا يوجد من يسبب له سبحانه نفعاً أو ضراً إلا أن فإذا قال الله فقوله الصدق ، لأن الأسباب التى تدفع إلى الكذب هو ـ سبحانه ـ منزه عنها

وإذا كان الحق يعطينا الكلام الذى يوضح لنا واقع الحياة ويعطينا الكلام الذى لا يدخل فى واقع حياتنا ويصف لنا الغيب الذى لا يدخل فى نطاق ما نراه ، إذن فهو يكلمنا كثيراً

فقوله الحق . « ومن أصدق من الله حديثاً » مؤكد بالنسبة لنا . وأفعل التفضيل هنا لا تأتى للتمييز بين كلام صادق وكلام أصدق ، ولكن لنعرف أن كلام الله لنا كثير . فالتكثير هنا إنما يجىء من ناحية كثرة الكلام ، لا من ناحية أن هناك كلاماً صادقاً وكلاماً أصدق .

والتفاوت قد يوجد فى الصدق أيضاً ، كيف ؟. لنفرض أن إنساناً رأى حادثة يقتل فيها إنسان إنساناً آخر ، فيشهد الشاهد بأنه رأى الدم يترف من القتيل إثر التحام القاتل به ، ولكن هناك شاهد آخر يروى كل التفاصيل التى بدأت من قبل المشاجرة بين القاتل والقتيل إلى أن صار هناك قاتل وقتيل . وهكذا نجد أن الشاهد الثانى أشمل فى الصدق من الشاهد الأول ، صحيح أن الشاهد الأول قال شهادة صادقة ، لكن شهادة الشاهد الثانى أشمل فى القضية نفسها .

إذن فقوله الحق . « ومن أصدق من الله حديثاً » أى أن الحق هو الأصدق بمعنى أنّ إخباره لنا جاء بالشمول الكامل ، وهو صدق لا تفاوت فيه ، فالصدق هو مطابقة النسبة الكلامية للواقع ، ومادام هو كذلك فليس هناك صادق وأصدق ، ولكن أفعل التفضيل تأتى فى « أصدق » باعتبار أن كمية الصدق الصادرة لا حدود لها وأنه سبحانه يعلم الأشياء على وفق ما هى عليه أى بشمول كامل . وخلقه إن حدث منهم صدق فى شىء فقد يحدث منهم الكذب فى شىء آخر.فقد تقول عفيه تعلم أنها صدق ، ولكنها فى الواقع لا تكون صدقاً .

مثلاً ، فقد يقول قائل : زار فلان فلاناً بالأمس . هو اعتقد ذلك لأنه رأى حجرة الاستقبال في بيت فلان مضاءة فسأل عن الزائر فقيل له : « فلان » فهو يروى خبر هذه الزيارة على وفق ما يعتقد ، ولا يقال : إن القائل قد كذب .

إنه يجب أن نفرق بين « الخبر » وبين « المخبر » ، كيف ؟ . إذا قلنا : « زيد مجتهد » ، أيوجد واحد اسمه زيد ويجتهد بالعمل ؟ . هذا اسمه الواقع . وهل أنت تعتقد هذا ؟ . إذن فالإنسان هنا يحتاج إلى أمرين : معرفة وجود الشيء ، واعتقاد الشيء ، وبذلك يكون الخبر صادقاً والمخبر صادقاً أيضاً .

وافرض أنك أخبرت أن زيداً مجتهد بناءً على أن أحداً قد أخبرك بذلك ولكنه لم يكن كذلك ، أنت هنا صادق وفق اعتقادك . لكن الخبر غير صادق في الواقع . إذن فيه فرق بين صدق الخبر وصدق المخبر . فهذا التقى الاعتقاد بالواقع صدق الخبر وصدق المخبر . وإذا كان الخبر موافقاً للواقع ومخالفاً للاعتقاد فالخبر صادق كموقف المنافقين الذين قال الحق فيهم :

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

هذه القضية واقعة صادقة وأعلنوا هم ذلك ، ولكن الحق أضاف

﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

فالقضية صادقة ولكنهم كاذبون ؛ لأنهم قالوها بلا اقتناع فكانوا كاذبين . والدقة هنا توضح الفرق بين صدق الخبر وكذب الاعتقاد . إذن فصدق المخبر أن يطابق الكلام الاعتقاد . والتكذيب واضح في قولهم : « نشهد » ؛ وليس في مقول القول وهو : إنك لرسول الله ، فالشهادة تقتضي أن يواطئ ويوافق اللسان القلب .

ولذلك عندما يقرأ بعض الناس القرآن دون فهم اللغة العربية .. فيفهم بالسطحية هذه الآية فهماً خاطئاً :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾

(سورة المنافقون)

فكيف يشهد الله أنهم كاذبون ، على الرغم من أنه سبحانه يعلم مثلما شهد المنافقون ؟ . ونرد بأن الخبر هنا لم يكن كذباً ، ولم يقل الحق ما يكذب الخبر ، لكنه أوضح صدق الخبر وكذب المنافقين فى شهادتهم لأنهم يظهرون غير ما يبطنون ويعتقدون ، فالتكذيب منصب على شهادتهم لا على خبر أن محمداً رسول الله .

« الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً »

إنّ المؤمن يعتقد أن يوم القيامة لاشك فيه ، فيوم القيامه يجب منطقياً ألا يوجد شك فيه ؛ لأنه لو كان هناك ريب لكان الذين انحرفوا فى الحياة الدنيا وولغوا فى أعراض الناس وأخذوا أموالهم وعاثوا فى الأرض فساداً هم الذين كسبوا وفازوا ، ويكون الطيبون والأخيار قد عاشوا فى سذاجة . فالمنطق يقتضى أنه مادام قد وُجد أناس قد ظلموا واعتدوا ، وأناس اعتدى عليهم ، فلا بد أن يكون هناك حساب . ولا يكون هناك حساب إلا إذا انتهت حكاية المرت ، بالإحياء والحشر والخروج إلى لقاء الله . ودليل هذ من الجاحدين أنفسهم ، كيف ؟ .

نحن نعرف أن المجتمعات غير المتدينة يضع قادتها القوانين التى تكفل حماية حركة المجتمع . هم يضعون مثل هذه القوانين ، ومن يخالفها يتم حسابه وعقابه فإذا كان العقاب يمنع المجاهرة بالخرية ، فماذا يكون الموقف ؟ إن الماهر إذن هو من يفلح فى المداراة عن عيون قادة هذا المجتمع ، ويستر نفسه عنهم حتى لا يناله العقاب .

إن هذه المجتمعات الملحدة تضع التشريعات لحماية نفسها ، فماذا تعمل هذه المجتمعات فى الذين ستروا أنفسهم ؟ . هم يقانون هذه المجتمعات كان يجب أن يعاقبوا ، وكان يجب أن تقولوا أنتم إن هناك مكاناً آخر ودوراً أخرى يتم فيها عقاب من أفلت منا فأنت أيها الملحد قد قننت لمن خالف تقنينك عقوبة وهذا إذ وقعت

عليه عينك ، وقبضت عليه يدك ، فما قولك فيمن لم تقع عليه عينك ولم تقبض عليه يدك ؟.

إذن فنحن أهل الإيمان عندما نقول للملحد : إننا نكمل لك تفكيرك الناقص ونقول لكل الخلق : إنكم إن عَمَّتُم على فضاء الأرض فلن تعمّوا على فضاء السماء الذى لا تخفى عليه خافية . إذن فغير المؤمن بمنهج نأخذ منه الدليل على ضرورة المنهج . وعلى غير المؤمن بالمنهج أن يشكر أهل الإيمان ؛ لأننا نحن أهل الإيمان قد أكملنا له نقصاً فى تفكير البشر ، وهذا لحماية المجتمع من الكيد بالجريمة والستر بالمخالفة .

« ومن أصدق من الله حديثاً » أى لا أحد أصدق من الله فى الحديث . و« أصدق » جاءت كأفعل تفضيل لا لأن هناك صدقاً يعلوه صدق أصدق ، بل لصدق واحد ؛ لأنه مطابقة النسبة الكلامية للواقع ، ولكن « أصدق » هنا لكثرة الحديث الذى حدثنا الله به عما نشهد من عالم الملك ومما لا نشهد من عالم الملكوت ، فإن تحدث الناس فإنما يتحدثون فى عالم الملك الذى يدركونه بحواسهم ، ولكن الله إذا حدثنا سبحانه يحدثنا عن عالم الملكوت أيضا ، فالله أصدق حديثاً ؛ لأنه أكثر من حدّث .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ ﴾

كل جملة سبقتها « فاء » فمن اللازم أن يكون هناك سبب ومسبب ، علة ومعلول ، مقدمة ونتيجة ، وكل الأشياء التى تكلم الحق عنها سبحانه وتعالى فيها

يتعلق بمشروعية القتال للمؤمنين ليحملوا المنهج إلى الناس ، ويكون الناس - بعد سماعهم المنهج - أحراراً فيما يختارون . إذن فالقتال لم يشرع لفرض منهج ، إنما شرع لفرض حرية اختيار المنهج ، بدليل قول الحق :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾

(من الآية ٢٥٦ سورة البقرة)

وعلى ذلك فالإسلام لا يعرض الدين ، ولكنه جاء ليفرض حرية الاختيار في الدين ، فالقُرَى التي تعوق اختيار الفرد لدينه ، يقف الإسلام أمامها لترفع تسلطها عن الذين تبسط سلطانها عليهم ثم يترك الناس أحراراً يعتنقون ما يشاءون ، بدليل أن البلاد التي فتحها الإسلام بالسيف ، ظل فيها بعض القوم على ديناتهم فلو أن القتال شرع لفرض دين لما وجدنا في بلد مفتوح بالسيف واحداً على غير دين الإسلام .

وبعد أن تكلم الحق عن القتال في مواقع متعددة من سورة النساء ، وقال للنبي صلى الله عليه وسلم :

﴿ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾

(سورة النساء)

شرع الحق سبحانه وتعالى قضية استفهامية هنا ، فيها معنى الإنكار وفيها معنى التوبيخ وذلك شائع في كل الأساليب التي تتفق معها في القرآن الكريم . فإذا سمعت كلمة «مالك لا تفعل كذا» ، فكأن قياس العقل يقتضي أن تفعل ، والعجيب ألا تفعل . ولا يمكن أن يأتي هذا الأسلوب إلا إذا كان يستنكر أنك فعلت شيئا كان ينبغي ألا تفعله أو أنك تركت شيئا كان عليك أن تأتي به .

فالأب يقول للابن مثلاً : «مالك لا تذاكر وقد قرب الامتحان ؟» كأن منطق العقل يفرض على الابن إن كان قد أهمل فيما مضى من العام ، فما كان يصح للابن أن يهمل قبل الامتحان ، وهذا أمر يدعى بالقياس العقلي ، فكأن التشريع والقرآن يخاطبان المؤمنين ألا يقبلوا على أي فعل إلا بعد ترجيح الاختيار فيه بالحجة القائمة

عليه ، فلا يصح أن يقدم المؤمن على أى عمل بدون تفكير ، ولا يصح أن يترك المؤمن أى عمل دون أن يعرف لماذا لم يعمله ، فكأن أسلوب « ما لكم » ، و« فما لك » مثل قول أولاد سيدنا يعقوب :

﴿ مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾

(من الآية ١١ سورة يوسف)

ما معنى فوهم هذا ؟ معناه : أى حجة لك يا أبانا فى أن تحرمنا من أن نكون مؤتمنين على يوسف نستصحبه فى خروجنا . فكأن القياس عندهم أنهم إخوة ، وأنهم عصبة ، ولا يصح أن يخاف أبوهم على يوسف لا منهم ولا من شىء آخر يهدد يوسف ؛ لأنهم جماعة كثيرة قوية وكذلك قول الحق :

﴿ لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الانشقاق)

أى أن القياس يقتضى أن يؤمنوا . وقوله الحق .

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة المدثر)

كان القياس ألا يعرضوا عن التذكرة . إذن فأسلوب « فماله » ، و« فمالك » و« فماهم » ، و« فمالكم » كله يدل على أن عمل المؤمن يجب أن يُستقبل أولاً بترجيح ما يصنع أو بترجيح ما لا يصنع . أما أن يعمل الأفعال جزافاً بدون تفكير فى حيثيات فعلها ، أو فى حيثيات عدم فعلها فهذا ليس عمل العاقلين .

إذن فعمل العاقل أنه قبل أن يُقبل على الفعل ينظر البديلات التى يختار منها الفعل ؛ فالتلميذ إن كان أمامه اللعب وأمامه الاستذكار ، ويعرف أنه بعد اللعب إلى رسوب ، وبعد الرسوب إلى مستقبل غير كريم ، فإذا اختار الاجتهاد فهو يعرف أن بعد الاجتهاد نجاح ، وبعد النجاح مستقبل كريم . فواجب التلميذ - إذن - أن يبذل قدراً من الجهد ليتفوق وكل عمل من الأعمال يجب أن يقارنه الإنسان بالنتيجة التى يأتى بها وبترجيح الفعل الذى له فائدة على الأعمال التى لا تحقق الهدف المرجو .

والآية هنا تقول : « فمالكم فى المنافقين فئتين » كان القياس يقتضى ألا نكون فى نظرتنا إلى المنافقين فئتين ، بل يجب أن نكون فئة واحدة وكلمة « فئة » تعنى جماعة ، والجماعة تعنى أفراداً قد انضم بعضهم إلى بعض على رغم اختلاف الأهواء بين هؤلاء الأفراد وعلى رغم اختلاف الآراء ، إلا أنهم فى الإيمان يجمعهم هوى واحد ، هو هوى الدين ، ولذلك قال لرسول :

(لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)(١) .

فالمسبب للاختلاف هو أن كل واحد له هوى مختلف ولا يجمعهم هوى الدين والاعتصام بحبل الله المتين . وما حكاية المنافقين وكيف انقسم المؤمنون فى شأنهم ليكونوا فئتين ؟

والفئة ـ كما عرفنا ـ هى الجماعة ، ولكن ليس مطلق جماعة ، فلا نقول عن جماعة يسيرون فى الطريق لا يجمعهم هدف ولا غاية : إنهم فئة ؛ فالفئة أو الطائفة هم جماعة من البشر تجمع هدف ؛ لأن معنى « فئة » أنه يرجع ويفىء بعضهم إلى بعض فى الأمر الواحد الذى يجمعهم ، وكذلك معنى « الطائفة » فهم يطوفون حول شىء واحد والحق يقول . « فما لكم فى المنافقين فئتين » هذا لفت وتنبيه من الحق بأن ننزه عقولنا أن تكون فى لأمر الواحد منقسمين إلى رأيين ، وخصوصاً إذا ما كنا مجتمعين على إيمان بإله واحد ومنهج واحد . والمنافقون ـ كما نعرف ـ هم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر .

إننا نعرف أن كل المحسوبات يؤخذ لها أسماء من المحسوسات ؛ لأن الإدراك الحسى هو أول وسيلة لإدراك القلب ، ويمد ذلك تأتى المعانى . وعندما نأتى لكلمة « منافقين » نجد أنها مأخوذة من أمر حسى كان يشهده العرب فى بيئتهم ، حيث يعيش حيوان اسمه « اليربوع » مثله مثل الفأر والضب . واليربوع مشهور بالمكر والخداع ، ولكى يأمن الحيوانات التى تهاجمه فإنه يبنى لنفسه جحرين ، أو جحورا متعددة ، ويفر من الحيوان المهاجم إلى جحر ما ، ويحاول الحيوان المهاجم أن ينتظره عند فوهة هذا

(١) رواه البغوى فى شرح السنة ، وابن أبى عاصم فى السنة ، والمتقى الهندى فى كنز العمال ، والخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد

الجحر ، فيتركه اليربوع إلى فتحة أخرى ، كأن اليربوع قد خطط لنفسه منافذ حتى يخدع ، فهو يصنع فوهة يدخل فيها في الجحر ، وفوهة ثانية وثالثة ، وذلك حتى يخرج من أي فتحة منها ، وكذلك المنافق .

ونعرف أن المسائل الإيمانية أو العقدية على ثلاثة أشكال . فهناك المؤمن وهو الذي يقول بلسانه ويعتقد بقلبه وهو بهما بملكات منسجمة تماماً . وهناك الكافر وهو الذي لا يعتقد ولا يدين بالإسلام ولا يقول لسانه غير ما يعتقد ، وملكاته منسجمة أيضاً ، وإن كان ينتظره جزاء كفره في الآخرة ؛ فملكاته منسجمة - لكن - إلى غاية ضارة ، وهي غاية الكفر . أما « المنافق » فهو الذي يعتقد الكفر ويحقد عليه قلبه لكن لسانه يقول عكس ذلك ، وملكاته غير منسجمة ؛ فلسانه قد قال عكس ما في قلبه ؛ لذلك نحيا موزعاً وقلقاً ، يريد أن يأخذ غير الإيمان وغير الكفر ، هذا هو المنافق

وهناك جماعة - في تاريخ الإسلام - حينما رأوا انتصار المسلمين في غزوة بدر ، قالوا لأنفسهم : « الريح في جانب المسلمين ، ولا نأمن أنهم بعد انتصار بدر وقتل صناديد قريش وحصولهم على كل هذه الغنائم أن يأتوا إلينا » ، هذه الجماعة حاولت النفاق وادعت الإسلام وهم بمكة ، حتى إذا دخل المسلمون مكة يكونون قد حصنوا أنفسهم . أو هم جماعة ذهبوا إلى المدينة مهاجرين ، ولم يصبروا على مرارة الهجرة والحياة بعيداً عن الوطن والأهل والمال ، ففكروا في هذه الأمور ، وأرادوا العودة عن الدين والرجوع إلى مكة ، وقالوا للمؤمنين في المدينة : « نحن لنا أموال في مكة وسنذهب لاستردادها ونعود » .

وبلغ المسلمون الخبر وانقسم المسلمون إلى قسمين : قسم يقول : نقاتلهم ، وقسم يقول : لا نقاتلهم . الذين يقولون : « نقاتلهم » دفعهم إلى ذلك حمية الإيمان . والذين يقولون : « لا نقاتلهم » قالوا : هذه الجماعة أظهرت الإيمان ، ولم تنشق عن قلوبهم ، وربما قالو ذلك عطفاً عليهم لصلات أو أواصر .

فجاء القرآن ليحسم مسألة انقسام المسلمين إلى قسمين ، ويحسم أمر الاختلاف

وعندما يأتى القرآن ليحسم فهذا معناه أن رب القرآن صمع جهور الإيمان على حيه ، وساعة يرى أى خلل فيهم فسبحانه يحسم المسألة ، فقال : « فمالكم فى المنافقين فئتين » .

والخطاب موجه للجماعة المسلمة ، فقوله : « فمالكم » يعنى أنهم مترحدون على هدف واحد ، وقوله : « فئتين » تفيد أنهم مختلفون .

إذن فـ « فئتين » تناقض الخطاب الذى بدأه الحق بـ « فمالكم » ، كان المطلوب من المتلقى للقرآن أن يقدر المعنى كالآتى : فمالكم افترقتم فى المنافقين إلى فئتين ؟ إذن فهذا أسلوب توبيخى وتهديدى ولا يصح أن يحدث مثل هذا الأمر ، فهل ينصب هذا الكلام على كل المخاطبين ؟ انظر ، هل القرآن مع من قال : « نقتل المنافقين » أو مع من قال بغير ذلك ؟ فإن كان مع الفئة الأولى فهو لا يؤنب هذه الفئة بل يكرمها ، إن القرآن مع هذه الفئة التى تدعو إلى قتال المنافقين وليس مع الفئة الثانية ، لذلك فهو يؤنبها ، ويوبخها . والأسلوب حين يكون توبيخاً لمن يرى رأياً ، فهو تكريم لمن يرى الرأى المقابل ، ويكون صاحب الرأى المكرم غير داخل فى التوبيخ ، لأن الحق أعطاه الحيثية التى ترفع رأسه .

والحق يقول : « فمالكم فى المنافقين » أى إن الحق يقول . أى حجة لكم فى أن تفترقوا فى أمر المنافقين إلى فئتين ، والقياس يقتضى أن تدرسوا المسألة دراسة عقلية ، دراسة إيمانية لتنتهوا إلى أنه يجب أن تكونوا على رأى واحد ، ومعنى الإنكار هو : لا حجة لكم أيها المؤمنون فى أن تنقسموا إلى فئتين .

ويقول الحق . « والله أركسهم بما كسبوا » وساعة تسمع كلمة « أركسهم » ماذا تستفيد منها حتى ولو لم تعرف معنى الكلمة ؟ تستفيد أن الحق قد وضعهم فى منزلة غير لائقة ونشعر أن لأسلوب دن على نكسهم وجعل مقدمهم مؤخرهم أى أنهم انقلبوا حتى ولو لم نفهم المادة المأخوذة منها الكلمة ، وهذا من إيحاءات الأسلوب القرآنى ، إيحاءات اللفظ ، وانسجامات حروفه .

« والله أركسهم بما كسبوا » و« أركسهم » مأخوذة من « ركسهم » ومعناها

« ردهم » . كأنهم كانوا على شيء ثم تركوه ثم ردهم الله إلى الشيء الأول ، وهم كانوا كفاراً أولاً ، ثم آمنوا ، ثم أركسهم ، لكن هل الله أركسهم نعتاً عليهم أو قهراً ؟ لا ؛ فهذا حدث « بما كسبوا » ، وذلك حتى لا يدخل أحد بنا في متاهة السؤال ولماذا يعاقبهم الله ويوبخهم مادام هو سبحانه الذي فعل فيهم هذا ؛ لذلك قال لنا الحق . إنه « أركسهم بما كسبوا » . و« أركسهم » مادته مأخوذة من شيء اسمه « الركس » - بفتح الراء - وهو رد لشيء مقلوبا ومنه « الرِّكس » بكسر الراء وهو الرجيع الذي يرجع من معدة الإنسان قبل أن يتمثل الطعام مثلي نقول : « إن فلاناً خمت نفسه عليه » أو « فلان يرجع ما في بطنه » .

وعندما ننظر إلى هذه العملية نجد أن الطعام الذي يشتهيه الإنسان ويحبه ويقبل عليه ويأكله بلذة ، وتنظر عيونه إليه باشتهاء ، ويده تقطع الطعام بلذة ويضع الطعام بلذة ، هذا الطعام بمجرد مضغه مع بعضه ينزل في المعدة وتضاف إليه العصارات المهضمة ، فإذا رجع فإنه في هذه الحالة يكون غير مقبول الرائحة ، بل إن الإنسان لو هضم الطعام وأخذ منه المفيد وأخرج الباقي بعد ذلك ، فرائحة الفضلات الطبيعية ليست أسوأ من رائحة الطعام لو رجع بدون تمثيل . فلو رأيت إنساناً يقضي حاجة وآخر يتقيأ الطعام ، فالنفس تتقزز من الذي يتقيأ أكثر مما تتقزز من الذي يقضي حاجته ؛ لأن « الترجيع » يخرج طعاماً خرج من شهوة المضغ والاستمتاع . ولم يصل إلى مسألة التمثيل

ولذلك نسمع المثل « كل ما فات اللسان صار نتان » . و« الرِّكس » هو الرجيع الذي يرجعه الإنسان بعد الطعام قبل أن يتمثله . فالطعام بعد أن يتمثل ويخرج من المكان المخصص له يصبح روثاً ، وعائطا وبراراً. والحق سبحانه وتعالى قد جاء بالكلمة التي تصفهم : « والله أركسهم » أي أنهم ارتدوا من قبل أن ينتفعوا بأي شيء من الإيمان .

هذا هو التعبير القرآني الذي جاء بالعبارة التي تؤدي هذا المعنى ، وتؤدي إلى نفرتنا منهم ، فيكون الإركاس هو لرد ، وهل هو مطلق الرد ، أو رد له كيفية ؟ هو رد بإهانة أيضاً ، كيف ؟ لأن الشيء إن كان قوامه أن يقف رأسياً ، يكون الركس أن نجعل رأسه في مكان قدمه وقدمه في مكان رأسه. وعلى ذلك فالرد ليس رداً عادياً بل إنه

رد جعل المردود هُزُوًا . وإن كانت استقامة الأمر على الامتداد الطولى ، يكون الركس بأن تأتى بما فى الخلف إلى الأمام ، وبما فى الأمام إلى الخلف ، فتقلب له كيانه . وتعكس حاله .

والقرآن يصف الكافرين والمنافقين :

﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنبياء)

لماذا ، لأن الرأس مبنىّ على القامة والهامة والارتفاع . هذا الرأس يُجْعَلُ مكان القدم ، والقدم يكون محل الرأس . إذن فقوله : « والله أركسهم » أى لم يردهم مطلق الرد ، بل ردّهم ردا مهيناً ، ردّاً يقلب أوضاعهم

« والله أركسهم بما كسبوا » إذن فلا يقولن أحد : مادام الله قد أركسهم فما ذنبهم ؟ إن الله قد أركسهم « بما كسبوا » ، فهم كانوا فاعلين لا منفعلين .

وإليكم هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ حين تفتح المدرسة أو الجامعة درجات للنجاح فى كل مادة . تجد مادة يجب أن يحصل الطالب فيها على نسبة ستين فى المائة وأخرى على سبعين فى المائة ، ويدخل التلاميذ الامتحان ، وعندما يرسب أحدهم لا يقال : إن المدرسة قد جعلته يرسب ، صحيح هى أرسبته ولكن وفق القوانين التى وضعتها المدرسة أو الجامعة من قبل أن يدخل التلميذ الامتحان ، ولأنه لم يبذل الجهد الكافى للنجاح ، فقد أرسب نفسه .

إذن ، فالله لم يأت بالرّكس ورماه عليهم . بل هم الذين كسبوا كسباً جعل قضية السنة الكونية هى التى تؤدى بهم إلى الركيس ، مثلهم مثل التلميذ الذى لم يستذكر فلم يُجب فى الامتحان ، فلا يقال عن هذا التلميذ : إن المدرسة أرسبته . ولكنه هو الذى أرسب نفسه .

ولذلك عندما يقال : الله هو الذى أضلهم ، فما ذنبهم ؟ هذه هى القضية التى يقول بها المسرفون على أنفسهم . ولهؤلاء نقول هذه الآية « والله أركسهم بما كسبوا » وكذلك أضل الله الضالين بفعلهم ، كيف ؟.

نحن عرفنا أن الهداية تأتي بمعنيين ، هداية الدلالة وهداية المعونة ، ويأتي المسرفون على أنفسهم الذين يودون أن تكون قضية الدين كاذبة ـ والعياذ بالله ـ لأن قضية الدين عندما تكون صدقاً فإن الذين أسرفوا على أنفسهم يتيقنون أنهم ذاهبون إلى دهية وأمر منكر شاق عليهم ؛ لذلك نجد الواحد منهم يسعك في محاولة عدم التصديق ، والدخول إلى متاهات يصنعها الفهم السطحي للدين . ولذلك نجد المناقشات التي يناقشونها تدل على أنها مناقشات المسرف على نفسه ، فيقول الواحد منهم : مادام الله هو الذي كتب عليّ كل شيء فلماذا يعذبني وهو الذي كتب عليّ المعاصي ؟

نقول له : ولماذا آمنت في هذا الموقف بالذات أن الله هو الذي كتب ؟ ، ولماذا قد آمنت بأن الله هو الذي كتب فلماذا لا تؤمن به وترتضي أحكام منهجه ؟ . ولكن الواحد منهم يحاول أن يقف وقفة ليست عقلية ، فالوقفة العقلية الصحيحة تقتضي أن تأتي بالقضية المقابلة وهي أن الله إذا كان قد كتب على العبد الطاعة فلماذا يثيبه ؟ . لماذا تناسى قضية الطاعة والثواب عليها ؟ ؛ لأنه يعرف أنها القضية التي تجلب الخير ، ووقف في القضية المقابلة التي تأتي بالشرّ ، ولا يقول هذا القول إلا مسرف على نفسه . ولا نرى ملتزماً بمنهج الإيمان يقول مثل هذه القضية ، فالمؤمن يحب أن تسير الأمور على ضوء منهج الله ، ولذلك أنا إلى الآن ـ وليسامحني الله وليغفر لي ـ أتعجب من أن العلماء الذين سموا جعلوا من هذه المسألة محل خلاف . وقالوا : معتزلة وأهل سنة (!!)

المسألة كلها يجب أن نفهم على أساس أن الإسلام دين فطرة ، ولم يأت للعلماء فقط ، إنه جاء للعقل الفطري ، ورَاعى نشأة في الإسلام كالفيلسوف ، ومن يكتس الشارع أو يمسح الأحذية مساوٍ لمن درس الفلسفة أو الحقوق ؛ لأن الإيمان لم يأت لطائفة خاصة ، ولكن المنهج قد جاء للجميع ، ولابد أن تكون أدلته واضحة للجميع ، فعندما يقال لنا : إن الله يعلم كل شيء فيك ، لا يدخل معك في متاهة ، هو ـ سبحانه ـ يقول لك .

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة الملك)

فالذى صنع الكرسى ـ ولله المثل الأعلى ـ ألا يعرف أن الكرسى مصنوع من الخشب ، ونوع الخشب « زان » أو « أرو » أو « جنه » ، وأن المسمار الذى يربط الجزء بالجزء إما مسمار صلب وإما من معدن آخر ، وكذلك يعلم صانع الكرسى أى صنف من الغراء استعمل فى لصق أجزاء الكرسى ، وكذلك مواد الدهان التى تم دهن الكرسى بها

إذن فقول الحق . « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » لا يحتاج إلى جدال ولذلك نجد النجار الذى يرغب أن تكون صنعته مكشوفة واضحة يقول للمشترى :

سوف أصنع لك الكرسى من خشب الران وعليك أن تمر يوميا لترى مراحل فعله

ويبدأ صناعة الكرسى مرحلة مرحلة تحت إشراف الزبون وكذلك يعرف البدوى كيف يتكون الرحل . وهو ما يوضع على ظهر البعير للركوب ، العربى يعرف كيف يتكون الفسطاط وهو بيت يتخذ من الشعر . وقد جاء سبحانه بما يدحض أى جدل ، وبدون الدخول فى أية مهاترات أو مناقشات لها مقدمات ونتائج ومقدم وتال . جاء الحق بهذا القول الفصل :

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة الملك)

هو يعلم وهذا أمر سهل عليه ، ولذلك أتعجب كيف أدخل هؤلاء العلماء هذه المسألة فى متاهة فلسفية ، فالإسلام دين الفطرة .

ولذلك نجد العلماء الذين ناقشوا هذه المسألة ـ جزاهم الله خيراً ـ جاءوا فى آخر مطافهم ، وقالوا :

نهاية إقدام العقول عقال
وأكثر سعى العالمين ضلال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا
سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وأنا أريد أن أعرف ماذا قدمت الفلسفة النظرية للمدنيا من خير؟. لقد انفصلت عنها الفلسفة المادية ودخلت المعمل وأخرجوا لنا الابتكارات التي انتفع بها الخلق، فماذا فعلت الفلسفة النظرية؟. لا شيء. ونقول: جاء الإسلام بالعقيدة الفطرية، ومعنى العقيدة الفطرية أن الناس فيه سواء، فالأدلة العقلية تقتضي الوضوح لمن تعلَّم ولمن لم يتعلم.

والفلاسفة هم الذين قالوا: بأدلة العناية وأدلة القصد. لكن البدوي الذي سار في الصحراء وجد بعر البعير ووجد الرمل وعليه أثر قدم، فقال: إذا كانت البعرة تدل على البعير والقدم تدل على المسير أفلا يدل كل ذلك على اللطيف الخبير؟. هو لم يدخل في فلسفة أو متاهة مثلما دخل الفلاسفة مع بعضهم في متاهات عقلية وحلها البدوي في جملة واحدة. وكذلك نجد واحداً من الناس يسأل واحداً من أهل الإشراق: ألا تشتاق إلى الله؟. فيقول له: إنما يُشتاق إلى غائب، ومتى غاب الله حتى يشتاق إليه؟!.

لذلك نقول من اختلفوا في أمر رد الله لهؤلاء: نريد أن نكرم عقولكم وننظر لماذا اختلفتم في هذه الحكاية «أركسهم بما كسبوا».

نقول مع حسن الظن بهم، إن كل واحد منهم تعصب لصفة من صفات الحق، فواحد منهم يقول: «الله خالق كل شيء». فنقول له: أنت قد تعصبت لصفة القدرة وطلاقتها في الخلق.

وجاء ثانٍ وقال: ولكن الله عادل. ولا يمكن أن يخلق في الكافر كفره ثم يعذبه عليه. إنه متعصب لصفة العدل. وكل منهما ذاهب إلى صفة واحدة من صفات الحق. وتناسى الاثنان أن هذه الصفات إنما هي لذاته ـ تعالى ـ فسبحانه قادر وعادل معاً. فلا هذه تملت منه ولا تلك.

ونقول لمن يقول: إنه الله خالق كل شيء وخالق كل فعل. ما الفعل؟. الفعل هو توجيه جارحة لإحداث حدث، فالذي يمسح وجهه بيديه يوجه يديه لوجهه حتى يمسحه، وهذا الفعل لا يفعله صاحب الفعل، ودليلنا على ذلك الإنسان الآلي

نضغط على أكثر من زر ليتحقق هذا الفعل ، هذا الإنسان الآلى حتى يتحرك حركة واحدة لابد من ضغط وتحريك عدد آخر من القرى . لكن الإنسان حتى يمسح وجهه بيديه اكتفى بأنه بمجرد أن أراد مسح الوجه باليد مسح الوجه . فهل أمسك من يمسح وجهه بشيء وضغط عليه ليمسح وجهه ؟.

إنه بمجرد أن أراد فعل وسائق جرافة التراب يحرك عدداً من الأذرع الحديدية حتى يحرك الجرافة إلى أسفل ، ثم حركة أخرى ليفتح كباشة التراب ، وحركة تغيص أسنان الكباشة وحركة أخرى ترفع التراب ، كل ذلك من أجل أن يرفع التراب من مكان ما إلى مكان آخر ، والواحد منا بمجرد أن يريد أن يمسح وجهه فهو يمسح وجهه ولا يعرف أى عضلات تحركت ، فمن الذى فعل كل ذلك ؟. إنه الله .

فيا من تتعصب لصفة القدرة . فالله هو الذى فعل والعبد هو الذى وجه الطاقة التى تفعل بالله فإذا كانت إلى غير مراد الله يصير العبد عاصياً ، وإن وجهها إلى مراد الله فيكون طائعاً ، ويكون له الكسب فقط ، فالذى يقتل واحداً ، هو لم يقتله ؛ لأنه لم يقل له : « كن قتيلاً » فيكون قتيلاً ، ولكن القاتل يأتى بسكين أو سيف أو مسدس ويرتكب فعل القتل . فأداة القتل هى التى قامت بالفعل ، والقاتل إنما أخذ الآلة الصالحة لفعل ما ولغيره ، فوجهها لذلك الفعل . فيا من تريد العدل ، إن الله يعدب على المعصية ؛ لأن الإنسان استعمل أداة مخلوقة للمعص ولعدمه ، فجعلها تؤدى فعلاً غير مراد لله أى لا يرضى عنه الله ولا يحبه ، ومع ذلك فالله هو الفاعل لكل شيء .

ونعود إلى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : « في لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا » ومادام هو سبحانه الذى أركسهم بما كسبوا ، وأنتم مؤمنون بالله فلا بد أن يكون الرأى فيهم واحداً ؛ لذلك يتساءل الحق . « أتريدون أن تهدوا من أضل الله »؟ وسبحانه لا يريد أن يقدم لهم العذر ، إنما يريد أن يظهر لهم هدايته سبحانه وهى هداية لا تتأتى لهم ؛ لأنه قد أضلهم فأنّى لهم الهداية فلماذا يقف جانب من المؤمنين فى صفهم ؟.

لأن الله حين يهدى فهو يهدى من يشاء ويضل من يشاء بوضع القوانين الموضحة

للهداية أو الضلال ونحن إن سمعنا « أن الله هدى » نفهمها على معنيين ؛ المعنى الأول أنه « دل » ، والمعنى الثانى أنه « أعان ومكّن » . فـ « هدى » تكون بمعنى « دل » ، وهدى تكون بمعنى « أعان » . وسبق أن قلنا : إذا كان هناك إنسان يمشى فى الطريق ويريد الاتجاه إلى الإسكندرية وهو لا يعرف الطريق الموصل . فيسأل شرطى المرور فيشير الشرطى : هذا هو الطريق الموصل إلى الإسكندرية.إن الشرطى هدى هذا الإنسان ودله على الطريق ، لكنه لم يحمل الإنسان على أن يسير فى الطريق ، فإذا ما صدّق المسافر قول الشرطى وقال له . إننى أشكرك وأكثر الله من خيرك والحمد لله أننى وجدتك ، فلولا وجودك لتعبت ، هنا يقول الشرطى : أنت رجل طيب والطريق إلى الإسكندرية به « مطب » وعقبة ، ساركب معك حتى أدلك على مكان هذه العقبة . وبذلك يتجاوز الشرطى مرحلة « الدلالة » إلى مرحلة « المعونة » وسبحانه أوضح : ساهدى الناس جميعاً وأرشدهم وأحثهم ، فالذى يقبل على الإيمان بى سأعاونه على ذلك .

ولذلك يقول :

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾

(من الآية ١٧ سورة فصلت)

و« هديناهم » هنا بمعنى « دللناهم » فقط ، أما أن يسلكوا سبل الهداية أو لا فالأمر متروك لهم . والهداية ـ إذن ـ ترد بمعنى الدلالة ، وترد بمعنى الإعانة . والحق يعين من ؟ يعين من آمن به ولكن من يكفر به لا يعينه :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة التوبة)

وكذلك :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة التوبة)

إذن فلله هدايتان : هداية عم الناس بها جميعاً وهى هداية الدلالة ، وأخرى خص بها من جاءه مؤمناً به ، وهى هداية « المعونة » ولذلك قال الحق للرسول صلى الله عليه وسلم

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة القصص)

وهذا القول فيه نفي الهداية عن الرسول ، وهو سبحانه القائل أيضاً

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

وليس من المعقول أن ينفي الحق الهداية عن الرسول ثم يثبتها له . وقد يفهم من ذلك : إنك يا رسول الله تدل على الحق ، ولكنك لا تعين عليه . فالله هدى الناس جميعاً فدلهم على طريق الخير . فمن آمن به وأقبل عليه يسر له الأمر .

وبذلك نكون قد عرفنا تماماً معنى قوله الحق : « والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً » . فالذي يضله الله هو من اكتسب ما يوجب أن يضله فلا تجد له سبيلاً . وكان من الممكن أن يقول الله : أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلا تستطيعون أن تهدوه ، ولكن الأبلغ هو ما يوضحه سبحانه لك : أنتم لا تستطيعون هداية هذا المكتسب للضلال ؛ ذلك أنه لا يوجد سبيل حتى تهدوه إليه . فالسبيل هو الممتنع وليس الهداية فقط .

والسبيل هو الطريق الذي يعطيك حقاً في الهداية . فإذا ما امتنع السبيل فماذا تفعل ؟ ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً في أن ينقض هذا القرار ، أي لا حجة له على الإطلاق . ولذلك أخذنا المعنيين هنا ، فالذين ينافقون يظهرون الإيمان مرة وينقلبون إلى الكفر مرة ، هم ينكرون الإيمان بقلوبهم والذي يقولون بألسنتهم هو الإسلام ، أما الإيمان فلم يدخل في قلوبهم .

وما هو الأعز على النفس البشرية ؟ مكونات القلب أم مقولة اللسان ؟

الأعز هو مكونات القلب . ومادامو هم لا يؤمنون بقلوبهم ويقولون فقط بألسنتهم ، فالعقيدة داخلهم معقودة على الكفر ، ومادامت العقيدة معقودة على الكفر فهم لا يريدون أن يأتوا إلى صف الإيمان ، ولكنهم يريدون جر المؤمنين إلى معسكر الكفر ؛ لذلك يقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ ﴾

و« ودوا » ضميرها يعود على المنافقين الذين اختلف فيهم المسلمون إلى فئتين ، وحكم الله في صالح الفئة التي أرادت أن تقف منهم موقف القوة والبطش والجبروت ، فقال سبحانه وتعالى تعليلاً لنفاقهم : « ودّو لو تكفرون كما كفروا » ثم إن نفاقهم معناه قلق يصيبهم من مستوى حالهم مع مستقبل الإسلام أو حاضره ، لأنهم كافرون بقلوبهم ، ولكنهم يخافون أن يظهر الإسلام فيعاملهم معاملة الكافرين به ، فيحاولون أن يظهروا أنهم مسلمون ليحتاطوا لنصرة الإسلام وذيوعه ، فهم في كرب وتعب ، وهذا التعب يجعلهم يديرون كثيراً من الأفكار في رءوسهم يقولون نعلن أمام المسلمين أنك مسلمون ، ونعلن أمام الكافرين أنا كافرون .

وما الذي ألجأهم إلى هذا الحال ، وقد كانوا قديماً على وتيرة واحدة ، ألسنتهم مع قلوبهم قبل أن يجيء الإسلام ؟ إذن فالذي يعيدهم إلى حالة الاستقرار النفسي وينزعهم من القلق والاضطراب والخوف على حاضرهم ومستقبلهم هو أن تنتهي قضية الإسلام ، فلا يكون هناك مسلمون وكافرون ومنافقون . بل يصير الكل كافراً .

« ودوا لو تكفرون كما كفروا » والودادة عمل القلب ، وعمل القلب تخضع له جميع الجوارح إن قدرت ، فيادامو يودون أن يكون المسلمون كافرين ، إذن سيقفون في سبيل انتصار المسلمين ، وسيضعون العقبات التي تحقق مطلوبات قلوبهم . لذلك فاحذروهم ، سأفضح لكم أمرهم لتكونوا على بينة من كل تصرفاتهم وخائنات أعينهم وخائنات ألسنتهم

« ودوا لو تكفرون » ونعرف أن كلمة « الكفر » تعنى « الستر » ، فالفعل « كفر » معناه « ستر » . ومن عظمة الإيمان بالإسلام وعظمة الحق فى ذاته هو أنه لا يمكن أبداً أن يطمسه خصومه ، فاللفظ الذى جاء ليحدد المضاد لله هو عينه دليل على الإيمان بالله فعندما نقول . « كفر بالله » أى « ستر وجوده » ، كأنه قبل أن يستر الوجود فالوجود موجود ، ولذلك نجد أن لفظ « الكفر » نفسه دليل على الإيمان ، فلفظ « الكفر » فى ذاته تعنى إيمانا موجوداً يجاهد صاحبه نفسه أن يغطيه ويستره

« ودوا لو تكفرون كما كفروا » وهذا القول جاء بعد أن قال الحق :

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة النساء)

ويدل على أنهم يوصفون مرة بالمنافقين ويوصفون مرة بالكافرين . وسماهم الله فى آية بـ « المنافقين » ويصفهم الحق فى هذه الآية بأنهم كفرو « ودوا لو تكفرون كما كفروا » والكفر الذى يجىء وصفه هنا يدل على مكنون القلب ، فالنفاق لم يعطهم إلا ظاهريات الإسلام ، لكن الباطنيات لم يأخذوها ، ولذلك سيكونون فى الدرك الأسفل من النار فى الآخرة ، وإن كانوا فى الدنيا يعاملون معاملة المسلمين احتراماً لكلمة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . لكن الله يعاملهم فى الآخرة معاملة الكافرين ، ويزيد عليها أنهم فى الدرك الأسفل من النار .

إذن فأصحاب الباطل إن كانت لهم قوة يجعلون لسانهم مع قلوبهم فى الجهر بالباطل ، وإن كان عندهم ضعف يجعلون قلوبهم للباطل ولسانهم للحق . وهذه العملية ليست مريحة فى كلا الموقفين . فالمريح لهم ألا توجد للحق طائفة . لذلك يقول سبحانه وصفاً لحقيقة مشاعرهم « ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء » . فهم يتمنون إزالة طائفة الحق حتى لا يكون هناك أحد أفضل من أحد ، مثلما نقول مفيش حد أحسن من حد .

مثال ذلك : نجد مجموعة من الموظفين فى مصلحة حكومية ، ويكون من بينهم واحد مختلس لو لا يؤدى عمله على الشكل الوافى المطلوب ، لذلك فهو لا يحب أن يؤدى الآخرون أعمالهم بمنتهى الإتقان ، ويريدهم فاسدين ، ويحاول أن يغريهم

بالفساد حتى يكونوا مثله ، كي لا يظهروه أمام نفسه بمظهر النقيصة وحتى لا يكون مكسور العين أمامهم .

ومن العجيب أننا نجد الذي يسرق يحترم الأمين ، وكثيرا ما نسمع عن لص من فور ما يعلم أن هناك كميناً ينتظره ليقبض عليه فهو يبحث عن رجل أمين يضع عنده المسروقات كأمانة .

وقول الحق عن أمنيه المنافقين الكافرين بقلوبهم هو أن يكون المؤمنون مثلهم « فتكونون سواء » . وهذه شهادة في أن صاحب الباطل يحب من صاحب الحق أن يكون معه ؛ لأنه حين يجده في الحق ، فصاحب الباطل يحتقر نفسه ، وقد حدثت العجائب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقد كفروا به وعذبوا صحابته ، ولكنه هو الأمين باعترافهم جميعاً . فها هودا الرسول صلى الله عليه وسلم يهاجر من مكة ويخلف « عليا » كرم الله وجهه ليرد الودائع والأمانات التي عنده .

هم كذبوه في الرسالة ، ولكنه الأمين باعترافهم جميعاً ، لذلك أودعوا عنده الأمانات إذن فصاحب الفضيلة محترم حتى عند صاحب الرذيلة وحتى نتعرف تماماً على هذا المعنى ، فلنفترض أن إنساناً وقع في مشكلة ، سبّ أحداً من الناس وربح المعتدى عليه دعوى قضائية على هذا المعتدى الذي سبّه ، وهذا المعتدى صديق عزيز ، استشهد به المعتدى عليه ، فيقول للمعتدى : أتشهد عليّ ؟ ويذهب الصديق إلى المحكمة ليقول : « لا يقول صديقي مثل هذا السباب » . وهنا شهد الصديق لصديقه شهادة زور . ولنفترض أن هذا المعتدى قد تاب وأناب وصار من الأتقياء ، وجعله الناس حكماً بينهم ، وجاء له الصديق الذي شهد الزور من أجله ليشهد أمامه ، فهل يقبل شهادته ؟ طبعا لا .

إذن صاحب الفضيلة محترم حتى عند صاحب الرذيلة ، فإذا ما حاول أحد من أصحاب الرذيلة أن يشد صاحب الفضيلة إلى خطأ ، فهو يسعى إلى إضلاله ، وينطبق على ذلك قول الحق : « ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء » ومدام هذا هو هدفهم وفكرتهم ألا يتركوا المؤمنين على إيمانهم ، لأجل أن يلحقوهم إلى صف الكفر . وهم بذلك كمنافقين كفار قلوب غير مخلصين لصف الإيمان . وهم

لا يقفون من الإيمان موقف الحياد ، ولكنهم يقفون منه موقف العناد والعداوة « ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء » وفى هذا تحذير واضح للمؤمنين هو : إياكم أن تأمنوهم على شيء يتعلق بمصالحكم وإيمانكم

ويصدر الحق الحكم فى هذه القضية بمنتهى الوضوح : « فلا تتخذوا منهم أولياء » أى إياكم أن تتخذوا من المنافقين نصراء لكم أو أهل مشورة ، لأن الله سبحانه فضح لكم دخائل نفوسهم ، وهذه المسألة ليست ضربة لازب ، فإن آب الواحد منهم وأناب ورجع إلى حظيرة الإيمان فلن يرده الله ، فسبحانه وتعالى لا يضطهد أحدا لمجرد أنه ارتكب الذنب ، لأنه الحق غفور ورحيم ، فمادام قد عاد الإنسان إلى الصواب وبعُد عن الخطأ ، فعلى المؤمنين أن يقبلوا من يعود إليهم بإخلاص ، فالكراهية لا تنعقد ضد أحد لأنه أخطأ ؛ لأن الكراهيه تكون للعمل الخطأ ، وليست موجهه ضد الإنسان المخلوق لله ، فإن أقلعوا عن الخطأ ؛ فهم مقبولون من المؤمنين .

وهاهوذا قاتل زيد بن الخطاب يمر أمام عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وقال له بعض الناس هاهوذا قاتل أخيك زيد فيقول عمر بن الخطاب . ومادا أفعل به وقد هداه الله للإسلام ؟!

وهكذا نرى أن الكراهية لم تتعد إلى ذات القاتل ، ولكن الكره يكون للفعل ، فإن أقلعت الذات عن الفعل فالذات لها مكانتها . وهكذا يصدر الحكم الربانى . « فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله » .

والهجرة فى سبيل الله كانت تكلف الإنسان أن يخرج من ماله ومن وطنه ومن أهله ، ويذهب إلى حياة التقشف والتعب والمشقة ، وفى هذا ما يكفر عنه ، ويتعرف المؤمنون هنا أنه قد تاب إلى الله فتاب الله عليه وآن له الأوان أن يدخل فى حوزة الإيمان . فإن فعل ذلك فقد عاد إلى الإيمان . ولذلك يجب على الناس أن يفصلوا الذوات عن الأفعال . لماذا ؟ لأن الذوات فى ذاتها لا تستحق أن تكره ، وإنما يكره فعل الذات إن كان قبيحا سيئا .

وحين نقرأ القرآن نجده يعرض مثل هذه المسألة ، فسيدنا نوح عليه السلام عندما تلقى وحى الله بأن يصنع السفينة ، وجلس يصنعها ويمر عليه الناس فيسخرون منه فيقول لهم سيدنا نوح : سنسخر منكم غداً كما تسخرون منا . ويأتى له ابن ليس على منهجه ، فيدعوه نوح إلى المنهج فيقول الابن - « لا » . ويركب نوح السفينة ويقول لله : لقد وعدتنى أن تنجينى أنا وأهلى

وهنا يوضح الحق صحيح أنا أنجيك أنت وأهلك ، ولكن ما الذى جعلك تعتبر ابنك من أهلك ، إن الذوات عند الأنبياء لا نسب لها ، إنما نسب الأنبياء الأعمال

﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة هود)

إن العمل هو الذى يتم تقييمه ولذلك يقول الحق : « فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله » والهجرة من « هجر » ، و« هجر » يعنى أن الإنسان قد عدل من مكان إلى مكان ، أو عن ود إلى ود ، أو عن خصلة إلى خصلة ، والذى يهجر عادة يتجنى على من « هُجر » ، لنلاحظ أن الله سبحانه وتعالى فى كتابه عندما يأتى بالحدث يأتى به هاجر » ، ولم يأت بالحادث « هجر » ، فالنبى صلى الله عليه وسلم لم يهجر مكة . ولكنه هاجر منها ، ويقول صلى الله عليه وسلم :

« والله إنك لأحب أرض الله إلىّ وإنك لأحب أرض الله إلى الله ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت »[1] .

فالهجرة جاءت ، لأن أهل مكة هجروه أولاً ، فاضطر أن يهاجر . و« هاجر » على وزن « فاعل » . والمتنبى يقول :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا
ألا تفارقهم فالراحلون هم

ولذلك جاء الحق بالمهجرة على صيغة المفاعلة . لقد كرهوا دعوته واستجاب الرسول للكراهية فهاجر .

---

(١) رواه احمد والترمذى

ويوضح سبحانه أن الذى يخلص هؤلاء المنافقين من حكمنا عليهم ، ألا يتخذ المؤمنون منهم أولياء هو : أن يهاجروا فى سبيل الله ؛ لأن ذلك هو حيثية صدق الإيمان . فالمهاجر يحيا عيشة صعبة . وقد عاش المهاجرون على فيض الله من خير الأنصار ، ولم يؤسسوا حياتهم بشكل لائق . إذن فمن ينضم إلى ذلك الموكب هو مؤمن اشترى الإيمان وقدر على أن يكفر عما بدر منه . فليست الهجرة مجرد هجرة ، ولكنها هجرة فى سبيل الله .

ولذلك نرى القاعدة الايمانية فى الحديث النبوى . « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله . فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[1] .

وهكذا يعامل المؤمنون المنافق إن عاد من كفره ونفاقه إلى الإيمان . لكن ماذا لو تولى المنافقون ؟ . « فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً » والأخذ إذا جاء فى مقام النزاع فمعناه الأسر وقتلهم فى ساحة القتال أمر واجب ، ولا يصح أن يتخذهم المؤمنون أولياء أو نصراء ؛ لأن الواحد من المنافقين يكون عيناً على المؤمنين ، ويحاول أن يعرف أمور وأحوال المسلمين ، ويطلع خصوم الإسلام على ما يمكن أن يتخذ منه العدو إلى المسلمين . ويستميت ليعرف ما يبيت المسلمون للكافرين

واتخاذ الولى أو النصير ممن نعلم أنه لا يحب الإيمان وليس على مبدأ الإسلام وعقيدته أمر يشكك فى صدق بصيرة الإنسان الذى يتولى ويود غير المسلمين المخلصين فحين يرى الواحد منا إنساناً آخر لا يحبه ويكيد المكائد ، وعندما يراك تثق فيه وتحسن إليه ، يقول هذا الكاره : هذا إنسان فاقد البصيرة فلو عرف ما فى قلبى لما فعل ذلك . فإذا اتخذ المؤمنون من المنافقين أولياء أو نصراء والمنافقون على ما هم عليه من نفاق لقال المنافقون : إن المسلمين فاقدو البصيرة وهم لا يعلمون ما فى قلوبنا ؛ لذلك يبقى الحق بصيرة المؤمنين حتى لا نأخذ رأياً من المنافقين ينال منا

وقد يقول المنافقون : إن هؤلاء المسلمين ليس لهم ربٌّ ينصرهم ، فلماذا يدعون

(١) رواه البخارى

أن لهم إلهاً ؟. لو كان لهم إله ليبصرهم بما فى نفوسنا . ونجد هذا الفضح لهم عندما يقول الحق :

﴿ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾

(من الآية ٨ سورة المجادلة)

وعدم تعذيب الحق له وقت كفرهم له فائدة ورحمة سيدركونها فيما بعد فمن هؤلاء مَن سيكون سيفاً للإسلام بعد أن كان سيفاً على الإسلام ؛ فقد ادخرهم الله ليكون بعض منهم سيفاً للإسلام ، فها هو ذا ابن الوليد يهتدى ، وها هو ذا عمرو بن العاص ، وهاهو ذا عكرمة بن أبى جهل ، هؤلاء سيكونون سيوفاً للإسلام ، ولا يظنن منهم أحد أنه ستر مكنونَ نفسه عن الله :

﴿ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾

(من الآية ٨ سورة المجادلة)

هذا القول قد أدى أمرين

الأمر الأول : أوضح أن هناك رباً مطلعاً على خائنة الأعين وخفايا الصدور . والأمر الثانى : أوضح أن الله لم يعذبهم لأن منهم من سيمس الإيمان قلوبهم وسيكونون سيوفاً للإسلام وسيخرج من ذريتهم قادة يحملون الدعوة لله ولذلك نجد النبى صلى الله عليه وسلم وقد جاءه جبريل وقال له : « إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمرهُ بما شئت فيهم فناداني ملك الجبال فسلم علىّ ثم قال يا محمد : إن الله قد سمع قول قومك وأنا ملك الجبال وقد بعثنى ربّك إليك لتأمرنى بأمرك بما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين[1] . فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم مَن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا »[2] .

وقد حدث ذلك . إن أسلوب معاملة المنافقين يحدده الله فى هذه الآية بما يلى : هم قومٌ الكفر يسكن القلب منهم ومظهرهم يدّعى الإسلام ويتمنون أن يكون

(١) الأخشبان : هما جبلان بمكة أبوقبيس ، والذى يقابله وهو قعيقعان

(٢) رواه البخارى ومسلم

المؤمنون على شاكلتهم ، فلذلك لا يتخذ المسلم وليا من المنافقين ولا نصيراً .

ولكن إن هاجر المنافق فرحابة الإيمان تتسع له ، أما إن تولّى المنافق وأعرض عن ذلك . فأسلوب المعاملة يكون كما يحدده الله . « فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيرا » لكن بعد أن يُطلق هذا الأمر توجد عقبة فى تنفيذه ، إنها عقبة الأحلاف والعهود والمواثيق التى كان يعطيها رسول الله لبعض القبائل ، وكانت هذه العهود تتلخص فى أن الرسول يعاهد بعض القبائل بعدم الإغارة على المسلمين وعدم إغارة المسلمين عليهم . ولذلك يحترم الحق هذه المواثيق والأحلاف

إن الحق يوضح لنا . لا تأخذوا هذا الأمر أيها المسلمون على إطلاقه ؛ لأن الإسلام دين الوفاء بالعهود ، وقد أعطيتم بعض القبائل عهوداً بأن من لجأ إليهم يؤمنونه ويدخل فى حمايتهم ، وكذلك الذى يصل ويلجأ إلى المسلمين فعليهم حفظه ومنع التسلط عليه .

لذلك قال الحق فى هذا الاستثناء :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ ﴾

والآية تبدأ باستدراك حتى لا تفتح مجالاً لإغضاب من كان للإسلام تعاهد معهم وتعاقد ، فالذين يصلون ويلجأون إلى قوم بينهم وبين المسلمين تحالف أو ميثاق

لا ينطبق عليهم ما جاء فى الآية السابقة وهو الأخذ والقتل .

مثال ذلك ما حدث من عهد بين المسلمين وهلال بن عويمر الأسلمى على ألاّ يعينوه ولا يعينوا عليه وعلى أن من وصل إلى هلال ولجأ إليه فله الجوار مثل الذى لهلال . والاستثناء يشمل أيضاً من جاءوا إلى المسلمين ، فمن ذهب من المنافقين إلى من عاهدهم المسلمون فهو يحصل على الأمان ، وكذلك يُؤْمَنُ الرسول من جاء من المنافقين وقال من الأسباب ما يجعله يطلب حماية الرسول والإسلام : فعلى الرغم من نفاقه يؤمنه الإسلام .

« أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم » كأن يقول الواحد منهم : أنا لا أقدر أن أقاتلكم ، ولا أقدر أن أقاتل قومى فاعذر فى هذا واقبض معكم . هؤلاء يقبلهم الرسول لأنهم أقروا بما هم فيه من ضيق ، فهم لا يستطيعون التصرف لا أمام المسلمين فيعلنون الإيمان ، ولا أمام الكافرين فيعملون فى معسكر الكفر . ولا يستطيعون أن يتخذوا موقفاً حاسماً حازماً بين المسلمين والكافرين ، فهم يقرّون بضعفهم ، ويعترفون به .

« ولو شاء الله لسلطهم عليكم » فما الذى يجعلهم يلوذون إلى قوم يتحالفون مع المسلمين بميثاق حتى يحتموا فيهم ؟ أو يقرون أن صدورهم ضيقة وأنهم غير قادرين على التصرف ، ويعلنون : لا نستطيع أن نقاتلكم ولا أن نقاتل قومنا . ويوضح الحق : أنا فعلت هذا وألقيت الرعب فى نفوسهم ، ولو شئت لسلطتهم وجرأتهم عليكم ، وقاتلوكم ، إذن فسبحانه ينصرنا بالرعب ويمنع قتالهم لنا .

« فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً » .

إن اعتزلوكم ولم يقاتلوكم وألقوا السلم واعترفوا بأنهم لا يملكون طاقة اختيار بين قتال المسلمين أو قتال قومهم ، فليس لكم أيها المسلمون حجة أن تعتدوا عليهم ؛ فالاعتداء عليهم فى مثل هذه الحالة ينهى الله عنه .

وعين الحق لا تقصر على ما نعرف ، ولكنها تتعدى إلى أدق التفاصيل ؛ فهى عين لا ترى ما عرفناه فقط ولكنها تكشف لنا الحجب التى لا نعرفها ، فيقول سبحانه :

﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ ﴾

تبدأ هذه الآية بفعل يتحدث عن المستقبل : « ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم » . معنى ذلك أن المسلمين لحظة نزول هذه الآية لم يكونوا قد وجدوا مثل هؤلاء القوم الذين يتحدث عنهم الحق ، ولو لم يحدث للمعاصرين لنزول القرآن أن وجدوا مثل هؤلاء ماذا كانوا يقولون عن هذا الخبر ؟ . لو لم يجدوا مثل هؤلاء القوم لتشككوا فى القرآن وسبحانه يوضح أنى عين معكم ، وعين لكم ، أخبرتكم بما حدث واختلفتم فيه ، وأخبركم بما لم يصل إلى أذهانكم وعلمكم فلا تختلفوا فيه ، وهذا دليل على أنكم فى رعايتى وفى عنايتى .

« ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم » وهؤلاء القوم هم قوم من بنى أسد وغطفان ، وكانوا على مشارف المدينة ، وكانوا يقابلون المسلمين فيقولون : « نحن معكم » ، وكانوا أيضاً يقابلون الكفار فيقولون : « نحن معكم » ، والحقيقة أنهم عاجزون عن مواجهة أى معسكر . ولذلك يصفهم القرآن : « ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها » . وهؤلاء كلما جاءهم الاختبار « أركسوا فيها » أى فشلوا فى الاختبار ، فعناصرهم الإيمانية لم تقو بعد ، ومازالوا فى حيرة من أمرهم . وعندما جاءتهم الفتنة لتصهرهم وتكشف ما فى

أعياقهم ازدادت حيرتهم فالفتنة هي الاختبار ، وليست الفتنة شيئاً مذموماً ، وعندما يقال : إن فلانا في فتنة فعلى المؤمن أن يدعو له بالنجاح فيها ، فالفتنة ليست معصية تقع ، ولكن المعصية تقع إذا رسب الإنسان في الفتنة

ونعلم أن الفتنة مأخوذة من الأمر الحسي ، فتنة الذهب وكذلك الحديد : فتنة الذهب هي صهر الذهب في البوتقة حتى ينصهر ، فتطفو كالزبد كلُّ العناصر الشائبة المختلطة بالذهب ، وكذلك الحديد ، يتم صهره حتى تنفصل الذرات المتماسكة بعضها عن بعض . ويطفو الخبث

ونعرف أن الحديد أنواع : فالحديد الزهر شوائبه ظاهرة فيه وسهل الكسر . بينما نجد الحديد الصلب بلا خبث فهو صلب وفتنة الذهب والحديد تكشف عن المعادن الغريبة المختلطة به . ونقلت كلمة « الفتنة » من المحسات إلى المعاني ، وصارت الفتنة هي الاختبار الذي ينجح فيه الإنسان أو يرسب ، فهي ليست ضارة في ذاتها ، ولكنها ضارة لمن يرسب فيها .

وهكذا كان تنبؤ القرآن الذي يخبر المسلمين بأمر قوم على حدودهم ، تجعلهم الفتنة لا يقوون على الإيمان ، أي فكلما دعاهم قومهم إلى الشرك وقتال المسلمين رُدُّوا على أعقابهم وانقلبوا على رءوسهم أقبح قلب وأشنعه وكانوا شرًا من كل عدو عليكم ، ويشرح القرآن كيفية سلوك المؤمنين تجاه هؤلاء المرتكسين والمنقلبين في الفتنة : « فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً » ونلحظ أن الحق أمر بتأمين من لجأوا بضعفهم على الرغم من نفاقهم إما إلى المسلمين وإما إلى حلفاء المسلمين حين قال في الآية السابقة :

﴿ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ٩٠ سورة النساء)

وهذا إنصاف وتنبيه إلهي من الحق ألا يسمع أحد صوت حفيظته ويفترس قوماً ضعفاء أما الذين يحاولون التمرد والاستسلام لصوت الكفر وإيقاع الأذى بالمسلمين ، ولم يلقوا بالسلم للمسلمين ويكفوا أيديهم عنهم ، هؤلاء يأتي فيهم الأمر الإلهي :

خذوهم واقتلوهم . وجعل الله للمسلمين على هؤلاء السلطانَ المبين . والسلطان - كما نعرف - هو القوة ، والقوة تأخذ لونين : هناك قوة تقهر الإنسان على الفعل كأن يأتي واحد ويأمر إنساناً بالوقوف فيقف ، وكأنْ يأمر القويُّ الضعيفَ بالسجود فيسجد . وهذا سلطان القوة الذي يقهر القالب ، لكنه لا يقدر على قهر القلب أبداً . والسلطان الثاني هو سلطان الحجة ، وقوة المنطق وقوة الأداء والأدلة التي تقنع الإنسان أن يفعل .

والفارق بين سلطان القوة وسلطان الحجة أن سلطان القوة قد يقهر الإنسان على السجود ، لكن سلطان الحجة يجعل الإنسان يسجد بالاقتناع . والسلطان المبين الذي جعله الله للمؤمنين على المنافقين الذين يقاتلون المؤمنين ، هذا السلطان يمكن لكم أيها المسلمون قوة تفعلون بها ما تريدون من هؤلاء ما داموا حاولوا القتال وإلحاق الأذى بالمسلمين ، فالحزم والعدل هو أخذهم بالعنف .

وحتى نفهم معنى السلطان جيداً فلنتذكر الجدل الذي سيحدث في الآخرة بين الشيطان والذين اتبعوا الشيطان ، سنجد الشيطان يقول : لقد أغويتكم . هذا صحيح ، وأنتم اتبعتموني ، فأنتم المسئولون عن ذلك ، فلم يكن لي عليكم من سلطان قوة أو سلطان إقناع :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

وبعد أن تكلم الحق عن القتال ومشروعيته ، وقتال المنافقين ، وقتال الآخرين . نجد الكلام يصل إلى موضوع القتل . فلوضح لهم : المسألة أني أنا الذي عملت البنيان الآدمي ، والحياة أنا الذي أهبها ، وليس من السهل لباني البنيان أن يحرض على هدمه ، إنما أنا أحرض على هدم هؤلاء الذين يقاتلونكم ؛ لكي يسلم باقي البنيان لكم ، وإياكم أن تجترئوا على بنيانات الناس ، فملعون من يهدم بنيان الله ؛ فالنفس التي خلقها الله ، إياك أن تقترب من ناحيتها إلا بحقها وذلك بأن اجْتَرَأْتَ على حدود الله ؛ لأنه سبحانه هو الذي خلق الحياة وهو الذي يأخذ الحياة، وحياة الناس ليست ملكاً لهم ؛ فحياة الإنسان نفسه ليست ملكاً لنفسه ، ولذلك فمن يقتل واحداً، عُدْوان دون حق يقتص منه ، وأما إن كان ذلك قد قتل خطأ فنأخذ منه الدية،

وتنتهى المسألة . لكن قاتل نفسه محرم عليه الجنة

إذن فقبل أن يقول لى : لا تقتل غيرك قال لى : إياك وأن تقتل نفسك . إذن فسبحانه ليس بغيور فقط على الناس منك ، بل يغار عليك أيضاً من نفسك ، ولذلك فحين شرع سبحانه القصاص فى القتل شرعه ليحميك لا ليجرئك على أن تقتل ، أما عندما يأمر سبحانه . أن من قَتَلَ يُقتل.فهو يقسط ويعدل ، والقصد من هذا الحفاظ على حياتين ؛ لأنك إن علمت أنك إن قَتَلْتَهُ قُتِلْت لا تقتل . وصدمت لا تقتل فقد حميت حياتين حياة من كنت ستقتله وحياتك من أن يُقتص منك وهذا هو معنى قوله :

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

(من الآية ١٧٩ سورة البقرة)

إذن فالذى يتعلسف ويقول : هذه بشاعة وكذا وكذا نقول له : الذى يشرع القصاص أيريد أن يَقتل ؟ لا ، بل يريد أن يحمى حياتك ؛ لأن القاتل عندما يعلم أنه إن قَتَلَ يُقتل فلا يقتل ، وصدام لا يقتل نكون قد حافظنا على حياته وحياة الآخر . إذن فقوله : « ولكم فى القصاص حياة » قول صدق .

وعندما تكلم الحق عن القتال والقتل ينبهنا . إياكم وأن تجبزوا بسبب هذه المسائل على دماء الناس ولا على حياتهم ؛ لذلك يتكلم سبحانه عن القتل المحظور فى الإيمان والإسلام ويقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً
وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ
وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ
كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ

رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ
وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ
وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ
فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ
وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾

جاء هذا القول بعد أن تكلم سبحانه عن القتال لتثبيت أمر الدعوة ، ولما كان القتال يتطلب قتل نفس مؤمنة نفسًا كافرة ناسب ذلك أن يتكلم الحق سبحانه عن القتل .

والقتل - كما نعلم - محاولة إزهاق روح الحي بنقض بنيته والحي وإن لم تنقض بنيته حين يأتي أجله يموت إذن تنقض البنية من الإنسان الذي يريد أن يقضي على إنسان عمل غايته إنهاء الحياة ، فلا يظنن ظان أن القاتل الذي أراد أن ينقض بنية شخص يملك أن ينهي حياته ، ولكنه يصادف انقضاء الحياة ، فالذي ينهي الحياة هو الحق سبحانه وتعالى . ولذلك قلنا : إن الجزاء إنما وقع على القاتل لا لأنه أمات القتيل ولكن لأن القاتل تعجل في أمر استأثر الله وحده به ، والقتيل مات بأجله ، والحق سبحانه وتعالى هو الذي استخلف الإنسان في الكون ، والاستخلاف شرحه الحق في قوله :

﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾

(من الآية ٦١ سورة هود)

فالله هو الذي جعل الإنسان خليفة في الكون ليعمر هذا الكون ، وعمارة الكون تنشأ بالتفكير في الارتقاء والصالح في الكون ، فالصالح نتركه صالحاً ، وإن استطعنا أن نزيد في صلاحه فلنفعل .

الأرض - على سبيل المثال - تنبت الزرع ، وإن لم يزرعها الإنسان فهو يجد زرعاً

خارجاً منها ، والحق يريد من الإنسان أن ينمي في الأرض هذه الخاصية فيأتي الإنسان بالبذور ويحرث الأرض ويزرعها . فهذا يزيد الأمر الصالح صلاحاً . وهذا كله فرع وجود الحياة .

إذن فالاستخلاف في الأرض لإعمارها يتطلب حياة واستبقاء حياة للخليفة . ومادام استبقاء الحياة أمراً ضرورياً فلا تأتي أيها الخليفة لخليفة آخر مثلك لتنهي حياته فتعطل إحياءه للأرض واستعماره لها . فالقتال إنما شُرع للمؤمنين ضد الكافرين ؛ لأن حركة الكافرين في الحياة حركات مفسدة ، ودرء المفسدة دائما مقدم على جلب المصلحة . فالذي يفسد الحياة يقاتله المؤمنون كي تنمي الحياة فيه ، ونُخلِّص الحياة من معوق فيها

إذن فيريد الحق أن تكون الحياة لمن تصلح الأرض بحياته . والكافرون يعيشون في الأرض فساداً ، ويعيشون على غير منهج ، ويأخذون خير الضعيف ليصيروا هم به أقوياء ، فشرع الله القتال إما ليؤمنوا فيصحوا للمنهج ، وإما ليخلص الحياة من شرهم . فإذا ما وجه الإنسان القتل لمؤمن ـ وهو في ذاته صالح للاستمرار في الحياة ـ يكون قد جنى على الحياة ، وأيضاً لو قتل الإنسان نفسه يكون قد جنى على الحياة كذلك ، لماذا ؟ لأنه أفقد الحياة واحداً كان من الممكن أن يعمر بحركته الأرض .

فإن اجترأ على حياته أو على حياة سواه فلا بد أن نؤدبه . كيف ؟ قال سبحانه

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾

(من الآية ٢٧ سورة يونس)

والتشريع الإسلامي وضع للقاتل من سبق إصرار وترصد عقاباً هو القتل . وبذلك يحمي التشريع الحياة ولا ينمي القتل ، بل يمنع القتل . إذن ، فالحدود والقصاصات إنما وضعت لتعطي الحياة سمة في مقوماتها لا تضييقا في هذه المقومات ، والحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن القتال المشروع أراد أن يوضح لنا : إياكم أن تتعدوا بهذه المسألة ، وتستعملوا القتال في غير الأمر المشروع ، فإذا ما اجترأ إنسان على إنسان لينهي حياته في غير حرب إيمانية شرعية فماذا يكون الموقف ؟

يقول التشريع : إنه يقتل ، وكان يجب أن يكون في بالك ألا تجتريء على إزهاق حياة أحد إلا أن يكون ذلك خطأ منك ، ولكن إن أنت فعلت خطأ تنتج عنه الأثر وهو القتل . فماذا يكون الأمر ؟ هناك منفعل لك وهو القتيل وأنت القاتل ولكن لم تكن تقصده ، هما - إذن - أمران : عدم القصد في ارتكاب القتل الخطأ ، والأمر الثاني هو حدوث القتل .

يقول التشريع في هذه المسألة : إن القاتل بدون قصد قد أزهق حياة إنسان ، وحياة هذا الإنسان لها ارتباطات شتى في بيئته الإيمانية العامة ، وله ارتباطاته ببيئته الأهلية الخاصة كعائلته ، العائلة له أو العائل لها أو الأسرة أو الأقرب من الأسرة وهو الأصل والفرع ، فكم دائرة إذن ؟ دائرة إيمانية عامة ، ودائرة الأهل في عمومها الواسع ، ودائرة الأسرة ، ودائرة خصوصية الأسرة في الأصل والفرع . وحين تنهي حياة إنسان في البيئة الإيمانية العامة فسوف تتأثر هذه البيئة بنقصان واحد مؤمن خاضع لمنهج الله ومفيد في حركته ؛ لأن الدائرة الإيمانية فيها نفع عام .

لكن الدائرة الأهلية يكون فيها نفع خاص قليلاً والدائرة الأسرية نجد أن نفعه فيها كان خاصا بشكل ما ، وفي الأصل والفرع نجده نفعا مُهمًا وخاصاً جداً . إذن فهذا القتل يشمل تفزيعاً لبيئة عامة ولبيئة أسرة ولبيئة أصل وفرع .

ولذلك أريد أن تلاحظوا في أحداث الحياة شيئا يمر علينا جميعا ، ولعل كثيراً منا لا يلتفت إليه ، مع أنه كثير الحدوث ، مثلاً : إذا كنا جالسين في مجتمع وجاء واحد وقال : « فلان مات » ، وفي هذا المجتمع أناس يعرفونه معرفة عامة . وآخرون يعرفونه معرفة خاصة ولهم به صلة ، وأناس من أهله ، وفيه والد الميت أو ابنه ، انظروا إلى أثر النعي أو الخبر في وجوه القوم ، فكل واحد سينفعل بالقدر الذي يصله ويربطه بمن مات فواحد يقول : « يرحمه الله » وثان يتساءل بفزع . « كيف حدث ذلك » ؟ وثالث يبكي بكاء مرًا ، ورابع يبكي جارياً ليرى الميت . الخبر واحد فلماذا تتعدد آثار وصدى الانفعالات ، ولماذا لم يكن الانفعال واحداً ؟

نقول : إن الانفعال إنما نشأ قهراً بعملية لا شعورية على مقدار نفع الفقيد لمن ينفعل لموته ؛ فالذي كان يلتقي به إلماماً ويسيراً في أحايين متباعدة يقول : « رحمه

الله » . ولذى كان يجالسه كل عيد يفكر فى ذكرياته معه ، وحتى نصل إلى أولاده فنجد أن المتخرج الموظف وله أسرة يختلف انفعاله عن الخريج حديثاً أو الذى يدرس ، أو السنة الصغيرة التى مازالت تتلقى التعليم ، هؤلاء الأولاد يختلف تلقيهم للخبر بانفعالات شتى ، فالابن الذى له أسرة وله سكن يتلقى الخبر بانفعال مختلف عن الابن الذى مازال فى الدراسة ، وانفعال الابنة التى تزوجت ولها أسرة يختلف عن انفعال الابنة التى مازالت لم تجهز بعد

إذن فالانفعال يحدث على مقدار النفعية ، ولذلك قد نجدها على صديق أكثر مما نجدها على شقيق وقالوا : من أحب إليك ، أخوك أم صديقك ؟ . قال : النافع إذن تلقى خبر انتهاء الحياة يكون مختلفاً ، فالحزن عليه والأسف لفراقه إنما يكون على قدر إشاعة نفعه فى المجتمع .

فالذى تجد المجتمع كله هائجا وثائرا وحزينا لفراقه كان نافعاً للمجتمع كله ، والذى تبكى عليه أسرته فقط تقول : إنه كان عن قدر نفعه لأسرته وأولاده ، وقد يموت واحد ولا يحس أحد أن الكون قد نقص . وهذا هو السبب فى أنهم أرادوا أن يجعلوا لكل واحد وطناً . وقالوا : إن أوطان الناس على قدر همتهم . فواحد ليس له وطن إلا نفسه فقط ؛ يرى كل شىء لنفسه ولا يرى نفسه لأحد حتى ولو كانوا أولاده .

وهناك واحد يكون وطنه أسرته يعمل عن قدر نفعها ، وواحد يكون وطنه عائلته وقريته ، وواحد وطنه أمته وواحد وطنه العالم كله . إذن فعندما يفجع المجتمع فى واحد فالهزة تأتى على قدر وطنه ، وعندما يفاجأ الناس بواحد يُقتل عن طريق الخطأ فالفاعل معذور . ولكن عذره لم يمنع أن تعدى فعله وأن الآخر قد قتل ؟ . فالأثر قد حصل ، وتحدث الهزة للأقرب له فى الانتفاع ، ولأن القتل خطأ فلن يتم القصاص من القاتل ، ولكن عليه أن يدفع دية ، وهذه الدية توزع على الناس الذين تأثروا بفقدان حياته ؛ لأن هناك قاعدة تقول : « بسط النفع وقبض الضر » .

إنك ساعة ترى شيئاً سينفعك فإن النفس تنبسط ، وعندما ترى شيئاً سيضرك فإن النفس تنقبض . وعندما يأتى للإنسان خبر موت عزيز عليه فإن نفسه تنقبض ، وساعة يأتيه من بعد ذلك خبر وهو حصوله على جزء من دية القتيل فالنفس تنبسط ، وبذلك يتم علاج الأثر الحادث عن القتل الخطأ .

والدية بحكم الشرع تأتى من العاقلة ، وبشرط ألا تؤخذ من الأصول والفروع ، فلا تجتمع عليهم مصيبة فقد إنسان على يد أحد من أصولهم أو فروعهم وهم بذلك يفرّعون فلا يجمع عليهم هذا الأمر مع المشاركة فى الديه . كأن التشريع أراد أن يعالج الهزة التى صنعها انحراف بعلاج هو وقاية من رد الفعل فيحقق التوازن فى المجتمع . فمن يفس خطأ لا يقتص منه المجتمع ولكن هناك الدية ومن أجل إشاعة المسئولية فالقاتل لا يدفعها ، ولكن تدفعها العاقلة ؛ لأن العاقلة إذا ما علمت أن من يجيى من أهلها جناية وأنها ستتحمل معه فإنها بعلم أفرادها فى صيانة حقوق غيرهم ؛ لأن كل واحد منها سيدفع ، وبذلك يحدث التوازن فى المجتمع .

والحق سبحانه وتعالى يعلمنا أن نستبعد أن يقتل مؤمن مؤمناً إلا عن خطأ ، فلا يستقيم أن يحدث ذلك عمدا فيقول : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ » ومعنى هذا أن مثل هذا القتل لا يصح أن يحدث عن قصد ؛ لأن اللحمة - بضم اللام - الإيمانية تمنع هذا . لكن إن حدث هذا فما العلاج ؟ . « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله » .

ولا يذكر سبحانه هنا القصاص ، فالقصاص قد تقدم فى سورة البقرة فى قوله تعالى :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ﴾

(من الآية ١٧٨ سورة البقرة)

والقصاص حق الولى فله أن يعفو أو أن يأخذ الدية ، كأن يقول : عفوت عن القصاص إلى الدّية . ويجب أن نفرق بين الحد وبين القصاص . فالقصاص حق الولى ، والحد حق الله وللولى أن يتنازل فى القصاص ، أما الحدود فلا يقدر أحد أن يتنازل عنها ، لأنها ليست حقاً لأحد ولكنها حق لله

إذن فالقتل الخطأ قال فيه « فتحرير رقبة مؤمنة » وهنا قد نسأل : وماذا يستفيد أهل المجنى عليه بالقتل من تحرير رقبة مؤمنة ؟ . هل يعود ذلك على أهل القتيل ببعض فى النفسية ؟ . قد لا تفيدهم فى شىء ، لكنها تفيد المجتمع ؛ لأن مملوك الرقبة وهو العبد أو الأمة هو مملوك لسيده ، والسيد يملك حركة العبد ، ولكن عندما يكون

العبد حرّاً فهو حر الحركة ؛ فحركة العبد مع السيد محدودة ، وفى حريته حركة مفيدة للمجتمع .

إذن فالقبض الذى حدث من قتل نفس مؤمنة يقابلها بسط فى حرية واحد كان محكوماً فى حركته فنقول له : انطلق فى حركتك لتخدم كل مجتمعك . ويريد الحق بذلك أن يفتح مصرفاً لحرية الأرقاء ضمن المصارف الكثيرة التى جعلها الإسلام لذلك .

وبعد هذا القول « ودية مسلمة إلى أهله » لكى تصنع البسط فى نفوس أهله ليعقب القبض نتيجة خبر القتل . ولذلك نجد أسرة قد فجعت فى أحد أفرادها بحادثة وعاشوا الحزن أياماً ثم يأخذون الأوراق ويصرفون بها الدية أو التعويض ، مما يدل على أن فى ذلك شيئاً من السلوى وشيئاً من التعزية وشيئاً من التعويض ، ولو كانت المسألة مرفوداً فيها لقالوا : « نحن لا نريد ذلك » ، ولكن ذلك لا يحدث .

وبعد ذلك نجد الذى فقد حياة حبيب لا يظل فى حالة حزن ليفقد حياة نفسه ، فهى الواقع يكون الحزن من الحزين على نفسه بمقدار ما فات عليه من نفع عندما قُتل له القتيل ، والحزين إنما حزن لأن القتيل كان يثرى حياته ، فلما مات صارت حياة النفع منه بلا إثراء .

ولو رأينا إنساناً يحزن لفقد واحد وقلنا له احتفظ بجثمانه لمدة أسبوع لترتوى من أشواقك إليه ، وبعد ذلك تأخذه منك لندفنه أيرضى ؟. لن يرضى أبداً بذلك . أو نقول للحزين : « لن نقدم لك طعاماً لمدة أسبوع لأنك فى حالة حزن هنا لن يوافق الحزين ، وزوجة الفقيد تذرف عيناها الدمع وتبكى عليه لكنه تأكل وتشرب .

إذن فالمسألة يجب أن تكون واضحة لاستقبال أقضية الحق وهى أقضية لا تنقض نواميس الله فى الكون. وبعد ذلك يريد الحق أن يشيع التعاطف بين الناس، فإذا قال أهل القتيل لأهل القاتل : نحن لا نريد دية ، لأن مصيبتكم فى القتيل مثل مصيبتنا فيه ، وكلنا إخوة فى الذى يجرى فى المجتمع ؟. الذى يحدث من النفع هو أضعاف أضعاف ما تؤديه الدية ، إذن فهذا تربيب للدية ، فساعة يعرف الطفل فى العائلة أنه

كان مطلوباً منهم دية لأن أباه قد قُتل ، وعما أهل القتيل فلم يأخذوا الدِّية ، هذا الطفل سيعرف عندما يَشِبُّ ويعقل الأمور أن كل خير عند أسرته ناتج من هذا العفو وهذه الهمّة ، فيحدث الود .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يرتب إشاعة المودة والصفاء والتضحية . فإذا ما حزن واحد لفقدان إنسان بالقتل الخطأ قد يأخذ الدية فيتسع ، وإن لم يأخذها فهو ينتفع أكثر ، لذلك يقول الحق : « ودية مسلّمة إلى أهله إلا أن يصدقوا » .

وهذا ما يحدث إذا ما قتل مؤمن مؤمناً خطأ في بيئة إيمانية ، ولكن ما الذي يحدث عندما يتم قتل مؤمن لواحد من قوم أعداء والمقتول مؤمن ويعيش بين الكفار ؟. ها نحن أولاء نرى عدالة التشريع الإلهي ، وحتى نزداد يقيناً بأن الله هو رب الجميع ؛ لذلك قال الحق : « فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن » أي كان المقتول من قوم في حالة عداء مع المسلمين فهو لا يستحق الدية ؛ لأنه يحيا في قوم كافرين .

هكذا نجد التشريع قد شرع لثلاث حالات : شرع لواحد في البيئة الإيمانية ، وشرع لواحد مؤمن في قوم هم أعداء للمؤمنين ، وشرع لواحد قد قُتل وهو من قوم متحالفين مع المسلمين . وكل واحدة لها حكم ، والحكم في حالة أن يكون القتيل من قوم بيهم وبين المسلمين عداء وهو مؤمن ، فتحرير رقبة مؤمنة ، وذلك للتعويض الإيماني فيطلق عبد كان محدود الحركة لأنّ هناك مَن مات وانتهت حركته ، وفي هذا تعويض للمجتمع عندما تشيع حركة العبد . وماذا نفعل في الدية ؟. لا يأخذون الدية ، لأن الدية موروثة ، وهم من الكفار وليس بين الكفار والمسلمين توارث أي فليس هنا دية

وعندما ننظر إلى قول الحق : « فإن كان من قوم عدو لكم » نجد أن كلمة « عدو » مفردة في ذاتها ، ولكنها تشمل كل القوم ، وفي اللغة نقول : « هو عدو » و« هما عدو » و« هم عدو » وإن تنوعت عداوتهم فهم أعداء ، ولكن عندما يتحد مصدر العداء فهم عدو واحد . والحق يقول : « فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة » ولم يورد سبحانه هنا الدية لأن القوم على عداء للإسلام فلا دية لهم ؛ لأنه لا توارث .

ويقول الحق . « وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة » فإذا أعطى المسلمون قوماً عهداً من العهود فلا بد من الوفاء . هذا الوفاء يقتضي تسليم دية لأهله ؛ لأن هذا احترام للعهد ، وإلا فما الفارق بيننا وبينهم . . . والدية ـ كما نعلم ـ تدفعها العاقلة ، ويقول الحق في بيان حق الله في أمر القتل خطأ : « وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله » أي فمن لم يجد الرقبة أو لم يتسع ماله لشرائها فصيام الشهرين بكل أيامهما ، فلا يفصل بينهما إلا فاصل معذر كأن يكون القاتل ـ دون قصد ـ على مرض أو على سفر . وبمجرد أن ينتهي المرض أو السفر فعليه استكمال الصوم .

ولماذا هذا التتابع الحكمي ؟ لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يجعل هذه المسألة شاغلة لذهن القاتل ، ومادامت تشغل ذهنه فالصيام لا بد أن يكون متتابعاً ، فلو لم يكن الصيام متتابعاً لأصابت القاتل غفلة . « فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله »

ولماذا قال الحق : « توبة من الله » ؟ . والتوبة ـ كما نعرف ـ قد تكون من العبد فنقول : « تاب العبد » .

وقد تسند التوبة إلى الحق فيقال : « تاب الله عليه » ومراحل التوبة ثلاث . حين يشرع الله التوبة نقول : تاب الله على العباد فشرع لهم التوبة فلا أحد يتوب إلا من باطن أن الله شرع التوبة ؛ لأنه لو لم يشرع الله التوبة لتراكمت على العباد الذنوب والخطايا .

وتشريع التوبة هو تضييق شديد لنوازع الشر ، فلو لم يشرع الله التوبة لكان كل من ارتكب ذنباً يعيث في الأرض بالفساد . فحين شرع الله التوبة عصم للمجتمع من الأشرار . فلأنه شرّع التوبة ، فهو ـ سبحانه ـ يتوب ، هذه هي المرحلة الأولى . ومادام الله قد شرع التوبة فللمذنب يتوب ، هذه هي المرحلة الثانية ، وساعة شرع الله التوبة ويتوب المذنب فالله يقبل التوبة ، هذه هي المرحلة الثالثة

وهكذا نرى دقة القرآن حين قال :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

(من الآية ١١٨ سورة التوبة)

وبعد أن يتوبوا فإن الله يقبل التوبة عن عباده .

إذن فالتوبة الأولى من الله تشريع والتوبة الثانية من الله قبول ، والوسط بينهما هي توبة الإنسان .

ويذيل الحق الآية : « توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً » فسبحانه يشرع التشريع الذي يجعل النفوس تحيا في مُناخ طبيعي وفي تكوينها الطبيعي ، فلو تصورنا أن إنساناً قد قُتل خطأ وتركنا أهل المقتول بلا ترضية فلن يستفيد المجتمع الإيماني من قتله .

إذن فالعلم من الله بالنفس البشرية جعل من قتل خطأ يُفيد المجتمع الإيماني بتحرير رقبة ، فيزيد المجتمع إنساناً حراً يتحرك حركة إيمانية ، لذلك اشترط الحق أن تكون الرقبة مؤمنة ، حتى نضمن أن تكون الحركة في الخير ، فنحن لا نحرر رقبة كافرة ؛ لأن الرقبة الكافرة عندما تكون مملوكة لسيد فشرها محصور ، لكن لو أطلقناها لكان شرها عاماً . وبعد تحرير الرقبة هناك الدية لننثرها على كل مفزع في منعته فيمن قُتل ، ولا نأخذها من أصول القاتل وفروعه ، فلا تجمع عليهم مصيبتين القتل الذي قام به أصلهم أو فرعهم ؛ لأن ذلك ـ لاشك ـ سيصيبهم بالفزع والخوف والاشفاق على مَن جنى منهم . وأن يشتركوا في تحمل الدية . وذلك العمل ناشيء عن حكمة . فإذا كان الذي يضع الأشياء في موضعها هو خالقها ، فلن يوجد أفضل من ذلك لتستقيم الأمور .

وفي المجال البشري نجد أن أي آلة من الآلات ـ على سبيل المثال ـ مكونة من خمسين قطعة ، وكل قطعة ترتبط بالأخرى بمسامير أو غير ذلك ، وما دامت كل قطعة في مكانها فالآلة تسير سيراً حسناً ، أما إذا توقفت الآلة فإننا نستدعي المهندس ليضع كل قطعة في مكانها ، وكل شيء حين يكون في موضعه فالآلة تمشي باستقامة ، وكل حركة في الوجود مبنية على الحكمة لا ينشأ فيها فساد ، فالفساد إنما ينشأ من حركات

تحدث بدون أن تكون على حكمة . والحكمة مقولة بالتشكيك ، فهناك حكيم وهناك أحكم . وقديماً - على سبيل المثال - كنا نرى الأسلاك الكهربائية دون عوازل فكان يحدث منها « ماس » كهربائى . وعندما اكتشفنا العوازل استخدمناها وعدلنا من تصميمنا للأشياء . وكنا نجد الأسلاك فى السيارة - مثلاً - ذات لون وحجم واحد ، فكان يحدث الارتباك عند الإصلاح ، لكن عندما تمت صناعة كل سلك بلون معين ، فسهل هذا عملية الإصلاح .

فالحكمة هى وضع الشىء فى موضعه ، فما بالنا حين يكون من يضع الشىء فى موضعه هو خالقنا ؟ لن نجد أفضل ولا أحسن من ذلك .

فإذا ما رأينا خللاً فى مجتمع فلنعلم أن هناك شيئاً قد ناقض حكمة الله . وعندما نبحث عن العطب سوف نجده ، تماماً مثلى نبحث عن العطب فى أى آلة ونأتى لها بالمهندس الذى يصلحها . ويجب أن نرده إلى من خلق المجتمع ، ونبحث عن علاج الخلل بحكم من أحكام الله ولذلك أرشدنا الحق إلى أننا إن اختلفنا فى شىء فلنرده إلى الله وإلى الرسول حتى لا نظل فى تعب

وبعد ذلك يتكلم الحق عن القتل العمد ، وقد يقول قائل : أما كان يجب أن يحدثنا الله عن القتل العمد أولاً ؟ ونقول : الحق لو تكلم عن القتل العمد أولاً لكان ذلك موحياً أنه يحدث أولاً ، ولكن الحق يوضح : لا يصح أن تأتى هذه على خيال المؤمن .

ويسأل سائل : لماذا لم يقل الحق : « وما كان لمسلم » ونقول : يجب أن ننتبه إلى أن الحق نادى المؤمن لأن الإيمان عمل قلبى ، ولهذا كان النداء للمؤمنين ولم يكن النداء للمسلمين ؛ لأن الإسلام أمر ظاهرى ، فقد يقتل إنسان يتظاهر بالإسلام إنساناً مؤمناً . لهذا نادى الحق بالنداء الذى يشمل المظهر والجوهر وهو الإيمان .

وحين يشرع الحق فلا بد أن يأتى بالجزاء والعقاب للذى يقتل عمداً وهو يقول :

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾

والقتل هنا لمؤمن بعمد ، فالأمر إذن مختلف عن القتل الخطأ الذى لا يدرى به القاتل إلا بعد أن يقع . وجزاء القاتل عمداً لمؤمن هو جهنم ، وليس له كفارة أبداً . هكذا يشنع الحق لنا جريمة القتل العمد . لأن التعمد يعنى أن القاتل قد عاش فى فكرة أن يقتل ، ولذلك يقال فى القانون « قتل عمد مع سبق الإصرار » . أى أن القاتل قد عاش القتل فى تخيله ثم فعله ، وكان المفروض فى الفترة التى يرتب فيها القتل أن يراجعه وازعه الدينى ، وهذا يعنى أن الله قد غاب عن باله مدة التحضير للجريمة ، ومادام قد عاش ذلك فهو قد غاب عن الله ، فو جاء الله فى باله لتراجع ، ومادام الإنسان قد غاب بالله عن الله فالله يغيبه عن رحمته

« ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها » وقالوا فى سبب هذه الآية : إن واحداً اسمه مقيس بن ضبابة كان له أخ اسمه هشام ، فوجد أخاه مقتولاً فى بنى النجار ، وهم قوم من الأنصار بالمدينة فلما وجد هشاماً قتيلا ذهب بمقيس إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بالخبر ، فأرسل معه رجلاً من بنى فهر وكتب إليهم أن يدفعوا إلى مقيس قاتل أخيه ، فقال بنو النجار والله ما نعلم له قاتلا ، ولكنا نؤدى الدية فأعطوه مائة من الأبل ثم انصرفا راجعين إلى المدينة فعدا مقيس على الفهرى فقتله بأخيه وأخذ الإبل وانصرف إلى مكة مرتدًا وجعل ينشد :

قتلت به فهراً وحملت عقله ... سراة بنى النجار أرباب فارع
حللت به وترى وأدركت ثورتى ... وكنت إلى الأوثان أول راجع

فلما بلغ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أهدر دمه . ومعنى « أهدر دمه » أباح دمه ، أى أن من يقتله لا عقاب عليه ، إلى أن جاء يوم الفتح فوجد

« مقيس » متعلقاً بأستار الكعبة ليحتمي بها ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله ، « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً » .

وهنا نجد أكثر من مرحلة في العذاب : جزاء جهنم ، خُلود في النار ، غضب من الله ، لعنة من الله ، إعداد من الله لعذاب عظيم . فكأن جهنم ليست كل العذاب ؛ ففيه عذاب وفيه خلود في النار وفيه غضب وفيه لعنة ثم إعداد لعذاب عظيم . وهذا ما نستعيذ بالله منه . فبعضنا يتصور أن العذاب هو جهنم فحسب ، وقد يغفل بعض عن أن هناك ألواناً متعددة من العذاب . وفي الحياة نرى إنساناً يتم حبسه فنظن أن الحبس هو كل شيء ، ولكن عندما وصل إلى عندما ما يحدث في الحبس عرفنا أن فيه ما هو أشر من الحبس .

وهنا وقفة وقف العلماء فيها : هل لهذا القاتل توبة ؟ واختلف العلماء في ذلك ، فعالم يقول : لا توبة لمثل هذا القاتل . وعالم آخر قال : لا ، هناك توبة . وجاء سيدنا ابن العباس وجلس في جماعة وجاء واحد وسأله : أللقاتل عمداً توبة ؟ قال بن العباس : لا وبعد ذلك بمدة جاء واحد وسأل ابن العباس . أللقاتل عمداً توبة ؟ فقال ابن العباس : نعم . فقال جلساؤه : كيف تقول ذلك وقد سبق أن قلت لا ، واليوم تقول نعم .

قال ابن العباس : سائل أولاً كان يريد أن يقتل عمداً ، أما سائل ثانياً فقد قتل بالفعل ، فالأول أرهبته والثاني لم أقنطه من رحمة ربه .

وكيف فرق ابن العباس بين الحالتين ؟ إنها الفطنة الإيمانية والبصيرة التي يهبها الله على المتقي . فساعة يوجد النبي صلى الله عليه وسلم في صحابته يسأله واحد قائلا : « أي الإسلام خير » ؟ فيقول صلوات الله وسلامه عليه : « تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف »[1] ويسأله آخر فيجيبه بقوله : « من سلم المسلمون من لسانه ويده » وهكذا كان عليه الصلاة والسلام يجيب كل سائل بما

(١) رواه مسلم

يراه أصلح لحاله أو حال المستمع ، ويجيب كل جماعة بما هو أنفع لهم . . ويسأله عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه : أي الأعمال أفضل ؟ فيقول صلوات الله وسلامه عليه « الصلاة على ميقاتها . قلت . ثم ماذا يا رسول الله ؟ قال : أن يسلم الناس من لسانك »[1] .

ونعرف أن آية القتل العمد تتطلب المزيد من التفكر حول نصها « وجزاؤه جهنم خالداً فيها » . وهل الخلود هو المكث طويلاً أو على طريقة التأبيد . . بمعنى أن زمن الخلود لا ينتهي ؟ ولو أن زمن الخلود لا ينتهي لما وصف الحق المكث في النار مرة بقوله .

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾

(من الآية ٨٨ سورة آل عمران)

ومرة أخرى بقوله :

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾

(من الآية ١٦٩ سورة النساء)

هذا القول يدل على أن لفظ التأبيد في « أبداً » فيه ملحظ يزيد على معنى الخلود دون تأبيد . وإذا اتحد القولان في أن الخلود على إطلاقه يفيد التأبيد ، وأن « خالدين فيها أبداً » تفيد التأبيد أيضاً ، فمعنى ذلك أن اللفظ « أبداً » لم يأت بشيء زائد . والقرآن كلام الله ، وكلام الله منزه عن العبث أو التكرار . إذن لا بد من وقفة تفيدنا أن الخلود هو المكث طويلاً ، وأن الخلود أبداً هو المكث طويلاً طولاً لا ينتهي ، ولعل ذلك يكون لنا فهم . فكل لفظ من القرآن محكم وله معنى . ثم إن كلمة « خالدين » حين وردت في القرآن فإننا نجد الحق سبحانه وتعالى يقول في خلود النار :

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴾

(سورة هود)

(١) رواه الطبراني

فكأن الحق سبحانه وتعالى استثنى من الخلود « إلا ما شاء ربك » والاستثناء لا بد له من زمن ، فلا نأخذ الخلود بمعنى التأبيد ، ولكن الخلود هو زمن طويل ، وكذلك يقول فى خلود الجنة :

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾

(سورة هود)

وقوله الحق . « إلا ما شاء ربك » تفيد أن الخلود عندهم ينتهى . مادام هناك استثناء ؛ فالاستثناء لا بد له من زمن ، والزمن مستثنى من الخلود وعلى ذلك لا يكون الخلود تأبيداً .

وعلينا أن نتناول الآيات بهذه الروح ، وفى هذه المسألة نجد وقفة لعالم من أعلام العقائد فى العصر العباسى هو عمرو بن عبيد ، وكان عمرو من العلماء الذين اشتهروا بالمحافظة على كرامة العلم وعزة العلماء لدرجة أن خليفة ذلك الزمان قال عنه وسط بعض المتسببين إلى العلم : « كلهم طالب صيد إلا عمرو بن عبيد » وقد كانت منزلته العلمية عالية ونفسه ذات عزة إيمانية تعلو على صغائر الحياة . وكان عمرو بن عبيد دقيق الرأى ، ويحكى عنه قيس بن أنس هذه الحكاية ، كنت فى مجلس عمرو بن عبيد فإذا بعمرو بن عبيد يقول : « يؤتى بى يوم القيامة فيقال لى : لم قلت بأن قاتل العمد لا توبة له قال : فقرأت الآية : « فجزاؤه جهنم خالداً فيها » وكان يجب أن يلتفت عمرو بن عبيد إلى أن الإلهام الذى جاءه أو الرؤيا التى أراها له الله بأنه سوف يؤتى به يوم القيامة ليسأل لماذا أفتى بألا توبة لقاتل العمد ، كان يجب أن يلتفت إلى أن ذلك يتضمن أن لقاتل العمد توبة ؛ لأن سؤاله عن ذلك يوم القيامة يشير إلى عتاب فى ذلك .

نقول ذلك لنعرف أنَّ الحق سبحانه وتعالى جعل فوق كل ذى علم عليما . . ولكنَّ عمرا ذكر ما جاء فى قول الحق : « فجزاؤه جهنم خالداً فيها » . وقال قيس بن أنس : وكنت أصغر الجالسين سناً ، فقلت له . لو كنت معنا لقلت كما قلت « فجزاؤه جهنم خالداً فيها » وقلت أيضاً :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة النساء)

قال قيس : فوالله ما رد على عمرو بن عبيد ما قلت . ومعنى ذلك موافقة عمرو بن عبيد .

ماذا تفيد هذه ؟ . تفيد ألا تأخذ كلمة « خالدين فيها » بمعنى التأبيد الذى لا نهاية له ؛ لأن الله قد استثنى من الخلود فى آية أخرى .

والحق سبحانه وتعالى بعد أن شرح حكم القتل العمد والقتل الخطأ ، بحث العلماء ووجدوا أن هناك قتلاً اسمه « شبه العمد » أى أنه لا عمد ولا خطأ ، كأن يأتى إنسان إنساناً آخر ويضربه بآلة لا تقتل عادة فيموت مقتولاً ، وهنا يكون العمد موجوداً ، فالضارب يضرب ، ويمسك بآلة ويضرب بها ، وصادف أن تقتل الآلة التى لا تقتل عالبا ، وقال العلماء : اقتل معه لا به ، فلا قصاص ، ولكن فيه دية

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يوضح : بعد ما حدث وحدثتكم عن القتل بكل صوره وألوانه سواء أكان القتل مباحا كقتل المسلمين الكافرين فى الحرب بينهما ، أم القتل العمد ، أم القتل الخطأ ، أم القتل شبه العمد ، لذلك ينبهنا . يجب أن تحتاطوا فى هذه المسألة احتياطاً لتتبينوا أين تقع سيوفكم من رقاب إخوانكم ، فيقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ

كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

فيأيها المؤمنون حين تضربون فى سبيل الله فتبينوا وتثبتوا فلا تعملوا سيوفكم أو رماحكم أو سهامكم إلا بعد أن تتثبتوا . « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيراً » .

إذن فهذه آية تجمع بين كل المعانى ، ففيها الحكم وحيثيته والمراد منه ، وسبحانه يبدأه بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » ، والخطاب الإيمانى حيثية الالتزام بالحكم ، فلم يقل : « يا أيها الناس إذا ضربتم فتبينوا » ، ولكنه قال : « يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا » فهو يطلب المؤمنين به بحكم لأنهم آمنوا به إلهاً ، ومادامو قد آمنوا فعليهم اتباع ما يطلبه الله . فحيثية كل حكم من الأحكام أن المؤمن قد آمن بمن أصدر الحكم ، فإياك أيها المؤمن أن تقول : « ما العلة » أو « ما الحكمة » وذلك حتى لا تدخل نفسك فى متاهة . ولا نزال نكرر هذه المسألة ، لأن هذه المسألة تطفو فى أذهان الناس كثيراً ، ويسأل بعضهم عن حكمة كل شىء ، ولذلك نقول : الشىء إذا عرفت حكمته صرت إلى الحكمة لا إلى الأمر بالحكم .

ونرى لأن المسرفين على أنفسهم الذين لا يؤمنون بإله ، أو يؤمنون بالله ولكنهم ارتكبوا الكبائر من شهادة زور ، إلى ربا ، إلى شرب خمر ، وعندما يحلل الأطباء للكشف عن كبد شارب الخمر ـ على سبيل المثال ـ نجده قد تليف ، وأن أى جرعة خمر ستسبب الوفاة . هنا يمتنع عن شرب الخمر.لماذا امتنع ؟. لأنه عرف الحكمة . وقد يكون قاتلها له محسوساً ، فهل كان امتناعه عن الحكم تنفيذاً لأمر إلهى ؟. لا ، ولكن المؤمن يمتنع عن الخمر لأنها حرمت بحكم من الله والمؤمن ينفذ كل الأحكام حتى فى الأشياء غير الضارة ، فمن الذى قال : إن الله لا يحرم إلا الشىء الضار ؟ إنه

قد يحرم أمراً تأديبياً للإنسان . ونضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد الزوج يقول لزوجه : إياك أن تعطى ابنا بعضاً من الحلوى التى أحضرتها. هو يحرم على ابنه الحلوى لا لأنها ضارة ، ولكنه يريد تأديب الابن والتزامه .

والحق يقول :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

فالذى يذهب إلى تنفيذ حكم الله إنما يذهب إليه لأن الله قد قاله ، لا لأن حكمة الحكم مفيدة له ، فلو ذهب إنسان إلى الحكم من أجل فائدته أو ضرره فإن الإيمان يكون ناقصاً ، والله يدير فى كثير من الأوقات حكمته فى الأحكام حتى يرى الإنسان وجهاً من الوجوه اللا نهائية لحكمة الله التى خفيت عليه ، فيقول الإنسان : أنا كنت أقف فى حكمة كذا ، ثم بينت لى الأحداث والأيام صدق الله فيما قال . وهذا يشجع الإنسان أن يأخذ أحكام الله وهو مسلّم بها .

والحق يقول : « يا أيها الذين آمنوا » والإيمان هو الحيثية ، يا من آمنت بى إلهاً قادراً حكيماً اسمع منى ما أريده منك . « يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله » والضرب ـ كما نعرف ـ هو انفعال الجارحة على شىء آخر بعنف وقوة وقوله :

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٠١ سورة النساء)

معناها أن الحياة كلها حركة وانفعال ، ولماذا الضرب فى الأرض ؟ . لأن الله أودع فيها كل أقوات الخلق ، فحين يحبون أن يُخرجوا خيراتها ؛ يقومون بحرثها حتى يهيجوها ، ويرموا البذور ، وبعد ذلك الرّى . ومن بعد ذلك تخرج الثمار ، وهذه هى عملية إثارة الأرض . إذن كل حركة تحتاج إلى شدة ومكابدة ، والحق يقول :

﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة المزمل)

ومادامت المسألة ضرباً فى الأرض فهى تحتاج إلى عزم من الإنسان وإلى قوة

ولذلك يقال : الأرض تحب من يعينها بالمزق والحرث . وكلما اشتدت حركة الإنسان في الأرض أخرجت له خيراً . والضرب في سبيل الله هو الجهاد ، أو لإعداد مقومات الجهاد . والحق سبحانه يقول لنا

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

فالإعداد هو أمر يسبق المعارك ، وكيف يتم الإعداد ؟.

أن نقوم بإعداد الأجسام ، والأجسام تحتاج إلى مقومات الحياة . وأن نقوم بإعداد المُدد . والعدد تحتاج إلى بحث في عناصر الأرض ، وبحث في الصناعات المختلفة لنختار الأفضل منها . وكل عمليات الإعداد تطلب من الإنسان البحث والصنعة . ولذلك يقال في الأثر الصالح :

« إن السهم الواحد في سبيل الله يغفر الله به لأربعة » .

لماذا ؟ . لأن هناك إنساناً قام بقطع الخشب الذي يتم منه صناعة السهم وصقله ، وهناك إنسان وضع للسهم الريش حتى يطيره إلى الأمام ، وهناك واضع النَّبْل ، وهناك من يرمي السهم بالقوس .

والحق يريد منا أن نكون أقوياء حتى يكون الضرب منا قوياً ، فيقول : « إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا » ونعرف أن الضرب في سبيل الله لا يكون في ساعة الجهاد فقط ، ولكن في كل أحوال الحياة ، لأن كل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . و« تبينوا » تعني ألا تأخذوا الأمور بظواهرها فلا تمضوا أمراً أو تعملوا عملاً إلا إذا تثبتم وتأكدتم حتى لا يصيب المؤمنون قوماً بظلم .

ولهذا الأمر قصة ، كان هناك رجل اسمه « محلّم بن جَثّامة » ، وكان بينه وبين آخر اسمه « عامر بن الأضبط الأشجعي » إحن - أي شيء من البغضاء - وبعد ذلك كان « محلم » في سرية ، وهي بعض من الجند المحدود العدد وصادف « عامراً الأشجعي » ، وكان « عامر » قد أسلم ، لذلك ألقى السلام إلى « محلّم » فقال « محلم » : إن عامراً قد أسلم ليهرب مني . وقتل محلم عامراً . وذهب إلى رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، وسأله الرسول : ولماذا لم تتبين ؟ ألم يلق إليك السلام ، فكيف تقول إنّه يقول : « السلام عليكم » ليتقذ نفسه من القتل ؟

فقال « محلّم » : استغفر لى يا رسول الله

وإذا ما قال أحد لرسول الله : استغفر لى يا رسول الله .. فرسول الله ببصيرته الإيمانية يعرف على الفور حالَ طالبِ الاستغفار ، فإن قال رسول الله « غفر الله لك » فهو يعلم أنه كان معذوراً ، وإن لم يقل رسول الله ذلك ، فيعرف طالب الاستغفار أنه مذنب . ولأن بين « محلم » و« عامر » إحنا وعداوات قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمحلم : « لا غفر الله لك » ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم علم أن الإحَنَ والبغضاء هى التى جعلته لا يدقق فى أمر « عامر »

وقال الرواة . ومات محلّم بعد سبعة أيام من هذه الحادثة ، ودفنوه فلفظته الأرض . فجاءوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فذكروا ذلك له فقال : (إن الأرض تقبل مَن هو شر من صاحبكم ولكن الله أراد أن يعظكم ، ثم طرحوه بين صدفى جبل وألقوا عليه الحجارة)[1] .

وعندما كانت تأتى آية مخالفة لنواميس الدنيا المفهومة للناس فالنبى يريد ألا يفتن الناس فى هذه الآيات ، ومثال ذلك عندما مات إبراهيم ابن النبى .. انكسفت الشمس . وقال الناس : انكسفت الشمس من أجل ابن رسول الله . ولكن لأن المسألة مسألة عقائد فقد وضحها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما جاء فى الحديث الشريف :

عن المغيرة بن شعبة قال : كسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم مات إبراهيم ، فقال الناس : كسفت الشمس لموت إبراهيم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم فصلوا وادعوا الله »[2] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير .

(٢) رواه البخارى

لقد قالوا ذلك تكريماً لرسول الله وابنه إبراهيم ، ولكن الرسول يريد أن يصحح للناس مفاهيمهم وعقائدهم . وكذلك عندما لفظت الأرض « محلم » حتى لا يفتتن أحد ولا يقولن أحد-إن كل من لا تلفظه الأرض هو حسن العمل ، فهناك كفار كثيرون قد دفنوا ولم يلفظوا . لذلك قال رسول الله : إن الأرض قبلت من هو شر من « محلم » ولكن الله أراد أن يعظ الناس حتى لا يعودوا لمثله ، ولو لم يقل ذلك ، فماذا كان يحدث ؟ . قد تحدث هزة قليلة في جزئية ولظن الناس وقالوا إن كل من لم تلفظه الأرض فهو حسن العمل ، ولكان أبوجهل في حال لا بأس به ، وكذلك الوليد بن المغيرة لكن الرسول صلى الله عليه وسلم يضع مثل هذه الأمور في وضعها الصحيح ، لذلك قال : إن الأرض تقبل من هو شر من « محلم » ، ولكن الله أراد أن يعظ القوم ألا يعودوا[1] .

« يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً » .

وعلى ذكر ذلك قال لي أخ كريم : كنت أسمع إحدى الإذاعات وأخطأوا وقالوا (فتثبتوا) بدل من (فتبينوا) في قوله الحق

﴿ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾

(من الآية ٦ سورة الحجرات)

وأقول هذه قراءة من القراءات ، والمعنى دائماً ملتقية ، فـ « تبين » معناها « طلب البيان ليتثبت » . ونعرف أن القرآن قد نزل على سبعة أحرف ، وكتابة القرآن كانت بغير نقط وبغير شكل ، وهذه حال غير حالنا ، حيث نجد الحروف قد تم تشكيلها بالفتحة والضمة والكسرة .

ونحن نعرف أن هناك حروفاً متشابهة الصورة . فـ « الباء » تتشابه مع كل من : « الياء » ، والـ « نون » والـ « تاء » والـ « ثاء » ، ولم تكن هذه النقط موجودة ، ولم تكن هذه العلامات موجودة قبل الحجاج الثقفي ، وكانوا يقرأون من ملكه العربية ومن

---

(١) رواه أحمد وابن جرير

تلقى واتباع للوحى ، ولذلك « متبيو » ممن تتكون ؟ تتكون من : الـ « فاء » ولم يحدث فيها خلاف ، والـ « تاء » وبقية الحروف هى الـ « باء » والـ « يء » والـ « نون » .

وكل واحدة من هذه الأحرف تصلح أن تجعلها « تثبتوا » بوضع النقاط أو تجعلها « تبينوا » ، إنه خلاف فى النقط . ولو حذفنا النقط لقرأناها على أكثر من صورة ، والذى تتبعه فى ذلك هو ما ورد عن الوحى الذى نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولذلك عندما جاءوا بشخص لم يكن يحفظ القرآن وأحضروا له مصحفاً ليقرأ ما فيه فقال . (صنعة الله ومن أحسن من الله صنعة)

ولم يحدث خلاف فى الـ « صاد » ولكن حدث خلاف فى الـ « باء » فهى صالحة لتكون باءً أو نوناً ، وكذلك « الغين » يمكن أن تكون « عيناً » وقراءة هذه الآية فى قراءة « حفص » :

﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾

(من الآية ١٣٨ سورة البقرة)

وعندما قرأها الإنسان الذى لا يجيد حفظ القرآن قال : (صنعة الله ومن أحسن من الله صنعة) . والمعنى واحد .

ولكن قراءة القرآن توقيفية ، واتباع للوحى الذى نزل به جبريل ـ عليه السلام ـ من عند الله على رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا يصح لأحد أن يقرأ القرآن حسب ما يراه وإن كانت صورة الكلمة تقبل ذلك وتتسع له ولا تمنعه ، ولذا قالوا ، أن لقراءة الصحيحة أركانا هى :

١ ـ أن تكون موافقة لوجه من وجوه اللغة العربية .
٢ ـ أن تكون موافقة لرسم أحد المصاحف العثمانية .
٣ ـ أن يصح إسنادها إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بطريق يفيد متواتر لا يحتمل الشك .

وهذه الضوابط نظمها صاحب طيبة النشر فقال :

وكل ما وافق وجه نحو ... وكان للرسم احتمالا يحوى
وصح إسنادا هو القرآن ... فهذه الثلاثة الأركان

وقوله تعالى .

﴿ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ﴾

(من الآية ١٥٦ سورة الأعراف)

هذه هى قراءة « حفص » وقرأ الحسن : (قال عذابي أصيب به من أساء) .

صحيح أن كلمة « أساء » وهى من الإساءة فيها ملحظ آخر للمعنى ، لكن القراءة الأخرى لم تبعد بالمعنى ، وعلى ذلك فكلمة « فتبينوا » تُقْرأ مرة « فتثبتوا » ومرة تقرأ « فتبينوا » ، سواء فى هذه الآية التى نحن بصددها ، أو فى الآية التى يقول فيها الحق :

﴿ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا ﴾

(من الآية ٦ سورة الحجرات)

و« التبين » القصد منه التثبت ، والتبين يقتضى الذكاء والفطنة فيرى ملامح إيمان من ألقى إليه بالسلام :

﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ ﴾

(من الآية ٩٤ سورة النساء)

فالمسلم يجب أن يفطن كيلا يأخذ إنساناً بالشبهات ، ولذلك نجد النبى يحزم الأمر مع أسامة بن زيد الذى قتل واحداً بعد أن أعلن هذا الواحد إسلامه ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : (فكيف بلا إله إلا الله . هل شققت عن قلبه) ؟

ويقول أسامة للرسول : لقد قال الشهادة ليحمى نفسه من الموت .وتكون الإجابة : هل شققت قلبه فعرفت ، فكيف بلا إله إلا الله ؟! فالقول: « لا إله إلا الله » حرمة .

وقد روى أن الذى نزلت فيه هذه الآية هو محلم بن جثامة ، وقال بعضهم : أسامة بن زيد ، وقيل غير ذلك . عن ابن عباس رضى الله عنهما « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا » وقال : كان رجل فى غنيمة له فلحقه المسلمون فقال : السلام عليكم فقتلوه وأخلو غنيمته ، فأنزل الله فى ذلك : « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا »[1]

وأهل العلم بالله يقولون : نجاة ألف كافر خير من قتل مؤمن واحد بغير حق

وجاء فى بعض الروايات الأخرى أنه المقداد ، وذلك فيما رواه البزار بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فيها المقداد بن الأسود فلما أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا وبقى رجل له مال كثير لم يبرح ، فقال أشهد أن لا إله إلا الله ، وأهوى إليه المقداد فقتله فقال له رجل من أصحابه . أقتلت رجلا شهد أن لا إله إلا الله ؟ والله لأذكرن ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ، فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا يا رسول الله : إن رجلا شهد أن لا إله إلا الله فقتله المقداد فقال ، ادعوا لى المقداد . يا مقداد أقتلت رجلا يقول : لا إله إلا الله ؟ فكيف لك بلا إله إلا الله غدا ؟ قال : فأنزل الله « يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله »[2] .

« يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا» و« ألقى إليكم السلام » يعنى حياكم مستسلما ، أو قال تحية المسلمين ، وليس من حق أحد أن يلقى الاتهام بعدم الإيمان على من جاء مسلماً ، أو يقول بتحية الإسلام .

وكلمة « عرض » إذا ما سمعناها ، فلنعلم أنها فى المعنى اللغوى : كل ما يعرض ويزول وليس له دوام أو استقرار أو ثبات . ونحن البشر أعراض ؛ لأنه ليس لنا دوام أبداً ، ويقال : إن الإنسان عرض إذا ما قاس الواحد منا نفسه بالنسبة للكون ؛ لأن

---

(١) رواه البخارى

(٢) رواه البزار

الكون لا يتم بناؤه على الإنسان ؛ فالكون كله الذى نراه هو عرض وسيأتى يوم ويزول .

والعرض بالنسبة للإنسان أن الواحد منا قد يرى نفسه صحيحاً أو سقيماً ، هنا تكون الصحة عرضا وكذلك المرض ، وكذلك السمنة والنحافة ، ولون البشرة إذا ما لوحته الشمس قد يتغير من أبيض إلى أسمر ، وكذلك الغنى والفقر وكل شىء يمكن أن يذهب فى الإنسان ويجىء هو عرض بالنسبة للإنسان ، ويكون الإنسان جوهراً بالنسبة له . إذن قسنا الإنسان بالنسبة إلى ثابت عنه ، فالإنسان عرض ؛ عهذ أمر نسبى ، وإلاّ فكل شىء عرض ، وكل شىء زائل « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » .

« ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا » وعرض الحياة الدنيا هنا هو أن يطمع القاتل فيما يملكه الذى يلقى السلام ، وقد يكون عرض الحياة الدنيا ـ هنا ـ هو كبرياء نفس الإنسان عندما ينتقم من إنسان بينه وبينه إحن أو بغضاء

وعندما نجد كلمة « عرض » وهذا العرض فى « الحياة الدنيا » نفهم ـ إذن ـ أنه عرض فيما لا قيمة له . ولذلك نجد الشاعر يعبر عن مشاعر الإنسان حينما يحزن لفقدان شىء كان عنده ، وينسى الإنسان أنه هو شخصياً معرض للموت ، أى للذهاب عن الدنيا فيقول :

نفسى التى تملك الأشياء ذاهبة
فكيف آسى على شىء لها ذهبا

وكذلك عرض الحياة الدنيا . ونفهم كلمة « دنيا » على أساس الاشتقاق ، فهى من « الدنو » ومقابله « العلو » ومقابل « الدنيا » هو « العليا » . ومن يُقَوِّم عرض الحياة الدنيا لتقويم الصحيح فهو يملك الذكاء والحكمة والفطنة ، لذلك لا يأخذ هذا العرض من سيقتله عندما يلقى إليه بالسلام ؛ لأنه يستخدم البصيرة الإيمانية ويأخذ الحياة الدنيا من خلقها . والعاقل حتى لو أراد الحياة الدنيا فهو يطلبها من صاحب الحياة كلها ، ولا يأخذها من إنسان مثله ، فالحياة الدنيا لا تنفعه ؛ بدليل أنه معرض للقتل .

« تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة » والحق سبحانه وتعالى ساعة يخاطب النفس البشرية التي خلقها ، ويعلم تعلقها بالأشياء التي تنفعها أو تطيل نفعها ، مثال ذلك : أنّ الإنسان يكون سعيداً إذا ما ملك غذاءه ، وتكون سعادته أكثر إذا امتلك الغذاء والعشاء ، ويكون أكثر سعادة واطمئنانا عندما يملك في مخزن طعامه ما يقيته شهراً أو عاماً ، ويكون أكثر إشراقاً عندما يمتلك أرضاً يأخذ منها الرزق ، ويمتلكها أولاده من بعده .

إذن فالإنسان يحب الحياة لنفسه ، ويحب امتداد حياته في غيره ، ولذلك يحزن الإنسان عندما لا يكون له أولاد ؛ فهو يعرف أنه ميت لا محالة ، لذلك فهو يتمنى أن تكون حياته موصولة في ابنه ، وإن جاء لابنه ابن وصار للإنسان حفيد فهو يسعد أكثر ؛ لأن ذكره يوجد في جيلين . ونقول لمثل هذا الإنسان : لنفرض أنك ستحيا ألف جيل ، لكن ماذا عن حالتك في الآخرة ، ألا تُنشىء ولدك على الصلاح حتى يدعو لك ؟

ولذلك يفاجىء الحق النفس البشرية التي تهفو إلى المغانم ، ويكشفها أمام صاحبها ، فيأتي بالحكم الذي يُظهر الخواطر التي تجول في النفس ساعة سماع الحكم . وعندما أراد سبحانه أن يُحرم دخول المشركين البيت الحرام ، وسبحانه يعلم خفايا النفوس ؛ لأن المشركين حين يدخلون البيت الحرام بتجاراتهم وأموالهم إنما يدخلون مكة من أجل موسم اقتصادي يبيعون فيه البضائع التي يعيشون من ريعها وربحها طوال العام . وساعة يحرم سبحانه دخول المشركين إلى البيت الحرام ، يعلم أن أهل الحرم ساعة يسمعون هذا الحكم سيتذكرون مكاسبهم من التجارة ، فقال :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾

(من الآية ٢٨ سورة التوبة)

وقبل أن يقول أهل الحرم في أنفسهم : وكيف نعيش ونصرف بضائعنا ؟ ، يتابع سبحانه :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة التوبة)

وبذلك يكشف الحق أمام النفوس خواطرها الدفينة ؛ فهو العليم بأن الحكم ساعة ينزل ما الذى سيحدث فى أذهان سامعيه ؛ فهو خالقهم ، ولذلك فلا أحد له من بعد ذلك تعليق !

وقوله الحق : « تبتغون عرض الحياة الدنيا » ينطبق فى كل عصر وفى كل زمان . ويقول الحق بعد ذلك : « فعند الله مغانم كثيرة » . فسبحانه الرزّاق الوهاب . ولذلك أنا أحب أن يزين الناس أماكنهم ومساكنهم بلوحات فنية مكتوب عليها :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة التوبة)

وكذلك قول الحق :

﴿ تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾

(من الآية ٩٤ سورة النساء)

لعل ذلك يمس قلوب من بيدهم الأمر ، فيلتفتوا إلى الله . وبعد ذلك يقول الحق : « كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا » .

وفى هذا دعوة لأن يمر من نزل فيهم القرآن بتاريخهم القريب ويسترجعوا ماضيهم ، فلماذا يتهم المسلم أخاه الذى يلقى السلام بأنه مازال كافراً ولا يفكر أن الذى ألقى إليه السلام هو إنسان يستر إسلامه بين أهله لأنهم كفار ؟ وكان المسلم يمر بهذه الحالة عند بداية الإسلام ؛ كان المسلم يستر إسلامه عن أهله الذين كانوا كافرين . وكان المسلمون الأوائل قلة مستذلة تداري إيمانها ، فهل سلط الله عليهم أحداً يجترىء على التفتيش على النوايا ؟ إذن فمثلما حدث لكم قدروه لإخوانكم

« كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم » والحق يمن عليهم بأنهم صاروا أهل رفعة بكلمة الإسلام ، وصار المسلم منهم يمشى عزيز الجانب ولا يجرؤ واحد أن يوجه إليه أى شىء ويأتى سبحانه هنا بكلمة « فتبينوا » مرة أخرى بعد أن قالها فى صدر الآية وكان مقصوداً بها ألا يقتل مسلم إنساناً ألقى السلام لمجرد أن المسلم يفكر فى

المسألة الاقتصادية ، وها هودا يعيد سبحانه كلمة « تبينوا » ، لقد جاءت أولاً كتمهيد للحيثية ، وهي قوله : « تبتغون عرض الحياة الدنيا » وتأتي هاهنا نتيجة للحيثية « فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا » .

وسبحانه حين يشرع لا يشرع عن خلاء ، لكنه خبير بكل ما يصلح النفس الإنسانية ، ولا يعتقدن أحد أنه خلقنا ثم هدانا إلى الإيمان ليخذلنا في نظام الحياة ، بل خلقنا وأعطانا المنهج لنكون نموذجاً ، وليرى الناس جميعاً أن الذي يحيا في رحاب المنهج تدين له الدنيا .

« إن الله كان بما تعملون خبيرا » . كأن الحق يقول : إياك أن تستر بلباقتك شيئاً وتخلع عليه أمرا غير حقيقي ؛ لأن الذي تطلب جزاءه هو الرقيب عليك والحسيب ، ويعلم المسألة من أولها إلى آخرها . فالذي قتل إنساناً ألقى إليه السلام ، لم يقتله لأنه لم يُسلم ، ولكن لأن بينهما إحناً وبغضاء ، وعليه أن يعرف أن الله عليم بما في النفوس .

ويريد الحق أن يثبت المؤمن من نفسه حين يوجهها إلى قتل أحد يشك في إسلامه أو في إيمانه ، وحسه من التيقن أن يبدأ صاحبه بالسلام ، ويُذَكّر الحق سبحانه المؤمنين بأنهم كانوا قبل ذلك يستخفون من الناس بالإيمان وكانوا مستترين .

فإذا كنتم أيها المؤمنون قد حدث لكم ذلك فاحترموا من غيركم أن يحصل منه ذلك ، ولقوا تمام الثقة أن الله عليم خبير ، لا يجوز عليه - سبحانه - ولا يخفى عليه أن يدس أحدكم الإحن النفسية ليُبرر قتل إنسان مسلم كانت بينه وبين ذلك المسلم عداوة .

وبعد أن تكلم الحق عن قتال المؤمنين للكافرين ، وبعد أن تكلم عن تحريم قتل المؤمن للمؤمن حتى لا يفقد المؤمنون خلية الإيمان ، بل تكون حياة كل مؤمن خيراً للحركة الإيمانية في الأرض ، لذلك علينا أن نحافظ على حياة كل فرد مؤمن لأنه سيساعدنا في اتساع الحركة الإيمانية ، فإن حدث أن قتل مؤمن مؤمناً خطأ ، فقد بين سبحانه وتعالى أحكم في الآية رقم ٩٢ من سورة النساء .

وبعد ذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين الفارق بين من قعد عن الجهاد في سبيل الله ومن جاهد فقال سبحانه :

﴿ لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ ﴾

وهذه الآية قصة . . والتقاص الخواطر من هذه القصة يتطلب يقظة تعلمنا كيف نخاطب الحق خلقه . فقد حدثنا سيدنا زيد بن ثابت وهو المأمون على كتابة وحي رسول الله . وهو المأمون على جمع كتاب الله من اللحاف[1] ومن العظام ومن صدور الصحابة ، حدثنا فقال :

ـ كنت إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فغشيته السكينة ـ وهذه كانت دائماً تسبق نزول الوحي على رسول الله ـ فوقعت فخذه على فخذي حتى خشيت أن ترضها .

أي أن فخذ رسول الله كانت ثقيلة .

والوحي ساعة كان يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما كان يصنع في كيفية رسول الله تأثيرا مادياً بحيث إذا كان على دابة عرف الناس أنه يوحى إليه ؛ لأن الدابة كانت تنط تحته فإذا كانت فخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذ

(١) اللحاف : حجارة بيض رقاق ، واحدها لخفة .

زيد بن ثابت ، فلابد أن يشعر سيدنا زيد بثقل فخذ رسول الله وقد جاءه الوحي . قال زيد : خشيت أن ترضّ فخذه فخذي ـ أي تصيبها بالدَّق الشديد أو الكسر فلما سُرِّي عنه قال اكتب « لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون » ، فقال سيدنا ابن أم مكتوم ، وكان ـ كما نعلم ـ ضريرٌ مكفوف البصر قال : فكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين يا رسول الله ؟

إنها اليقظة الإيمانية من ابن أم مكتوم ، لأنه فهم موقعه من هذا القول ، ومن أنه لا يستطيع الجهاد ، وعلم أنه إن كانت الآية ستظل على هذا فلن يكون مستوياً مع من جاهد ، ولهذا قال قولته اليقظة . فكيف بمن لا يستطيع ذلك يا رسول الله ؟

فأخذت رسول الله السكينة ثانيةً ، ثم سرى عنه ، فقال لزيد بن ثابت : اكتب « لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله » .

فكأنها نزلت جواباً مطمئناً لمن لا يستطيع القتال مثل ابن أم مكتوم ولفاتك أن يقول وهل كانت الآية تنتظر أن يستدرك ابن أم مكتوم ليقول هذا ؟

ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى أراد أن ينبه كل مؤمن أنه حين يتلقى كلمة من الله أن يتدبر ويتبيّن موقعه من هذه الكلمة ؛ فإذا كان ذلك حال سيدنا ابن أم مكتوم فيما سمع رسول الله عن ربه فهو يعلمنا كيف نستحضر دوننا من آيه فعية نسمعها وحينما سمع ابن أم مكتوم الآية رأى موقفه من هذه الآية ، وهذا ما يريده الحق من خلقه .

وقال زيد بن ثابت : فكتبتها .

إنه الدقة في أداء زيد بن ثابت لتدلنا على صدق الرواية ، فحين يكتب أولاً « لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون » ألا تلتصق كلمة « والمجاهدون » بكلمة « المؤمنين » فإذا زاد الحق سبحانه وتعالى « غير أولي الضرر » فأين تكتب ؟

كأن زيد بن ثابت كان عليه أن يقوم بتصغير الكتابة ليكتب « غير أولي الضرر » بين كلمة « من المؤمنين » وكلمة « المجاهدون » . قال سيدنا زيد بن ثابت . لقد

نزلت « غير أولى الضرر » وحده، وكان أنظر إلى ملحقها عند صدع الكتف ـ فقد كانوا يكتبون على أكتاف العظم ـ والكتف التى كتب عليها سيدنا زيد بن ثابت كانت مشروخة وكانت هذه علامة بها .

ويريد الحق بذلك أن يلفت المؤمنين إلى أنهم حين يتلون كتاب الله يجب أن يتلقوه بيقظة إيمانية بحيث لا تسمع آذانهم إلا ما يمر على عقولهم أولاً ليفهم كل مؤمن موقعه منها ، وتمر الآية على قلوبهم ثانية لتستقر فى ذاتهم عقيدة .

كذلك كانت قصة زيد بن ثابت وابن أم مكتوم والوحى فى هذه الآية . « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون » .

وهناك حالات يأتى لفعل فلا يصلح له فاعل واحد بل لابد له من اثنين . . مثال ذلك عندما نقول : تشارك زيد وعمرو وعندما نصف لاعبى الكرة ، نجد من يتلقف الكرة واحداً بعد الآخر ، فنقول : تلقف اللاعبون الكرة رجلاً بعد رجل

وعندما يقول الحق « لا يستوى » فهذا يدل على أن هناك شيئين لا يتساويان ، فأيهما غير المساوى للآخر ؟ . كلاهما لا يتساوى مع الآخر ، ولذلك يكون الاثنان فى الإعراب « فاعلا » ، فلا يساوى المجاهدون القاعدين ولا يساوى القاعدون المجاهدين ؛ لأن كلا منهما فاعل ومفعول .

وعندما نقول : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين » فهو مقابل « القاعدين » فى الآية الكريمة ؟ إنه « المجاهدون » ، لكن لمقابل فى الحياة العادية لكلمة « القاعدين » هو « القائمون » ، ومقابل « المجاهدين » هو « غير المجاهدين » . وبذلك كان من الممكن القول : لا يستوى القاعدون والقائمون ، أو أن يقال : لا يستوى المجاهدون وغير المجاهدين . فما الحكمة فى مجىء القاعدين والمجاهدين ؟

إن الحق يريد أن يبين أنه فى بداية الإسلام كان كل مؤمن حين يدخل الإسلام يعتبر نفسه جندياً فى حالة تأهب ، وكان دائماً على درجة استعداد قصوى ليلبوا النداء فوراً ، فالمسلم لم يكن فى حالة استرخاء ، بل فى تأهب وكأنه واقف دائماً ليلبى

النداء . وكأن القاعد هو الذى ليس من صفوف المؤمنين ، ويبين لنا ذلك قول الرسول عليه الصلاة والسلام : «من خير معاش الناس لهم رجل ممسك عنان فرسه فى سبيل الله يطير على متنه ، كلما سمع هَيْعَةً أو فزعة طار إليها يبتغى القتل والموت مَظَانَّه ، أو رجل فى غنيمة فى رأس شعفة من هذه الشعف ، أو بطن واد من هذه الأودية يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ، ليس من الناس إلا فى خير»(١)

فإن لم يكن المؤمن متأهباً فهو قاعد ، والقاعد ـ كما نعرف ـ هو ضد القائم . والحق يقول :

﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة النساء)

من هذا القول نعرف أن المقابل للقيام هو القعود .

وعلينا أن نعرف أن لكل لفظ معنىً محدداً ، فبعضنا يتصور أن القعود كالجلوس ، ولكن الدقة تقتضى أن نعرف أن القعود يكون عن قيام ، وأن الجلوس يكون عن الاضطجاع ، فيقال : كان مضطجعاً فجلس ، وكان قائما فقعد .

وعندما يقول الحق هنا : «لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر» فالقعود مقابل القيام ، فكأن المجاهد حالته القيام دائما ، وهو لا ينتظر إلى أن يقوم ، لكنه فى انتباه واستعداد . ويوسع الحديث الشريف الدائرة فى مسئوليات المجاهد فيرسم صورة للمقاتل أنه على أتم استعداد وعلى صهوة الفرس وممسك باللجام حتى لا تدهمه أية مفاجأة

وهل كانت هناك مظنة أن يستوى القاعد والمجاهد ؟ . لا ، ولكن يريد الله أن يبين فضيلة إيمانية مستورة ، فيظهرها بشكل واضح لكل الأفهام .

ونحن نقول للطالب : «إن من يستذكر ينجح ومن لا يستذكر يرسب» وهذه

(١) رواه مسلم فى الإمارة وابن ماجه فى الفتن ورواه أحمد (والهيعة) هى الصوت عند حضور العدو (والفزعة) هى النهوض إلى العدو (والشعفة) هى أعلى الجبل

مسألة بديهية ، لكننا نقولها حتى نجعلها واضحة في بؤرة شعور التلميذ فيلتمت لمسئولياته .

وعندما يقول الحق : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله » هل معنى ذلك أن عقلاً واحداً في زمن رسول الله كان يظن المساواة بين القاعد والمجاهد ؟ لا ، ولكن الحق يريدها قضية إيمانية في بلاغ إيماني من الله . وبعد ذلك يلفت الأنظار إلى صفة القاعدين الذين لا يستوون مع المجاهدين فيقول : « غير أولى الضرر » . والضرر هو الذي يفسد الشيء مثل المرض ، وهذا ما يوضحه قوله الحق :

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

(سورة التوبة)

فالضعف ضرر أخرج الإنسان عن مقومات الصحة والعافية ، والمرض ضرر ، والذين لا يجدون مالاً ينفقون منه ، ولا الذين يجيئون لرسول الله فلا يكون بحوزة الرسول دواب تحملهم ، فينصرفون وأعينهم تفيض من الدمع حزناً لأنهم لا يجدون ما ينفقون . وكان المؤمن من هؤلاء يحزن لأن رسول الله لم يجد له فرساً أو دابة تنقله إلى موقع القتال :

﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

(سورة التوبة)

لقد تولوا وأعينهم تفيض من الدمع . وكلمة « تولو » هنا لها معنى كبير ، فلم يقل الحق إن أعينهم تفيض من الدمع من غير التولي ، هم لا يدمعون أمام

النبى ، ولكنهم يدمعون فى حالة توليهم ، وهذا انفعال نصى من فرط التأثر ؛ لأنهم لا يشتركون فى القتال . وكلمة « تفيض » تدل على أن الدمع قد غلب على العين كلها ، فهم لا يصطنعون ذلك ، لكن الانفعال يغمرهم ؛ لأن الذى يتصنع ذلك يقوم بتعصير عينيه ويبذل جهداً للمُراءاة ، ولكن انفعال المؤمنين الذين لا يقاتلون يغلبهم فتفيض أعينهم من الدمع .

وهناك آية أخرى حدد فيها الحق الحالات التى لا يطالب فيها المؤمن بالقتال :

﴿ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الفتح)

هؤلاء ـ إذن ـ هم أولو الضرر .

« لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم » ومادامو لا يستوون فمن الذى فيهم يكون هو الأفضل ؟ .

ذلك ما توضحه بقية الآية التى تحمل المقولة الإيمانية الواضحة : « فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى » . وسبحانه وعد الاثنين بالحسنى الإيمانية ؛ لأن كُلا منهما مؤمن ، ولكن للمجاهد درجة على القاعد . وإن تساءل أحد : ولماذا وعد الله القاعد من أولى الضرر بالحسنى ؟ وهنا أقول : علينا أن ننتبه وأن نحسن الفهم والتدبر عندما نقرأ القرآن ؛ لأن الذى أصابته آفة فنالته منها ضرر ، فصبر لحكم الله فى نفسه . ألا يأخذ ثواباً عن هذه ؟ .

لقد أخذ الثواب ولابد ـ إذن ـ أن يعطى الحق من لم يأخذ ثوابا مثله فرصة ليأخذ ثواباً آخر حتى يكون الجميع فى الاستطراق الإيمانى سواء . لذلك يقول سبحانه : « وكلا وعد الله الحسنى » .

والحسنى فى أولى الضرر أنه أخذ جزاء الصبر على المصيبة التى أصابته ، والذى لم يصب بضرر سيأخذ ثواب الجهاد ، وبذلك يكون الجميع قد نالوا الحسنى من الله .

« وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً » .

وسبحانه يضع أجراً جديداً للقائم مجاهداً على القاعد ، ففى صدر الآية جاء بـ « درجة » أعلى للقائم مجاهداً ، وهنا « أجر عظيم » ما تفسير هذا الأجر العظيم ؟ التفسير يجىء فى قوله :

﴿ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾

فسبحانه قد أعطى لأولى الضرر درجة ، وفضّل المجاهد فى سبيل الله على القاعد من غير أولى الضرر درجات عدة وساعة تسمع كلمة « درجة » فهى المنزلة ، والمنزلة لا تكفى فقط للإيضاح لتشمل المعنى ، ولكن هى المنزلة الارتقائية أما إن كان التغير إلى منازل أخرى أقل وأدنى ، فنحن نقول : « دركات » ولا نقول « درجات » .

ولكن هل الدرجات هى لكل المجاهدين ؟ لا ، لأننا لابد أن نلحظ الفرق بين الخروج من الوطن وترك الأهل للجهاد ، وعملية الجهاد فى ذاتها ؛ فعملية الجهاد فى ذاتها تحتاج إلى همة إيمانية ، وبذلك جاء الحق بنص فى سورة التوبة :

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ

أَنَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١١﴾

(سورة التوبة)

هنا يوضح الحق أنه لا يصح لأهل المدينة والأعراب الذين حولهم أن يتخلفوا عن الجهاد مع رسول الله ، ولا يرضوا لأنفسهم بالسعة والدعة والراحة ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشدة والمشقة ، فكما ذهب إلى القتال يجب أن يذهبوا ؛ لأن الثواب كبير ، فلا يصيبهم نصب إلا ولهم عليه أجر العمل الصالح ، ولا يعانون من جوع إلا ولهم أجر العمل الصالح ، ولا يسيرون فى مكان يغيظ الكفار إلا ولهم أجر العمل الصالح . ولا ينالون من عدو نيلا إلا ويكتبه الله لهم عملاً صالحاً ، فسبحانه يجزى بأحسن ما كانوا يعملون .

وقام العلماء بحصر تلك العطاءات الربانية بسبع درجات ، فواحد ينال الدرجات جميعاً . وآخر أصابه ظمأ فقط فنال درجة الظمأ ، وآخر أصابه نصب فأخذ درجة النصب أى التعب ، وثالث أصابته مخمصة ، ورابع جمع ثلاث درجات ، وخامس جمع كل الدرجات .

وعندما نقوم بحساب هذه الدرجات نجدها : للإصابة بالظمأ ، النَّصَب - أى التعب - الجوع ، ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار أى لا ينزلون فى مكان يتمكن فيه المسلمون منهم ويبسطون سلطانهم عليهم ، والمقصود الحصن الحصين عند الكافر ، النَّيْل : التنكيل بالعدو ، النفقة الصغيرة أو الكبيرة ، وقطع أى واد فى سبيل الله ، وهذه هى الدرجات السبع التى يجزى الله عنها بأحسن مما عمل أصحابها ، كما فسرها العلماء ، فمن نال الدرجات السبع فقد نال منزلة عظيمة ، وكل مجاهد على حسب ما بذل من جهد . فمن المجاهدين من ينال درجة أو اثنتين أو ثلاث أو أربع أو خمس أو ست أو سبع درجات . وعندما نقرأ الآيتين معاً .

﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا

﴿ ٩٥ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ٩٦ ﴾

(سورة النساء)

نجد أن الله يُرغّب المؤمنين فى أن يكونوا مجاهدين ، وأن يبذلوا الجهد لتكون كلمة الله هى العليا . فإذا ما آمن الإنسان فليس له أن يتخلف عن الصف الإيمانى ، لأنه ملدام قد نفع نفسه بالإيمان فلمَ لا ينضم إلى ركب من ينفع سواه بالإيمان ؟ . ويريد الله أن يعبئ كل مَنْ مسّ الإيمان قلبه ، وحتى ولو كان موجوداً فى مكان يسيطر عليه الكفار ، فليدعوه لأن يتخلص من التفاف الكفار حوله وليخرج منضماً إلى إخوته المؤمنين . وليشيع الإيمان لسواه ويعبر عملياً عن حبه للناس مما أحبه لنفسه . ولكن هناك من قالوا : نحن ضعاف غير قادرين على الهجرة أو القتال فى سبيل الله . فيأتى القرآن يقطع العذر لأى إنسان يتخلف عن ركب الجهاد فى سبيل الله وسبيل نصرة دين الله فيقول الحق .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ٩٧ ﴾

هؤلاء هم الذين يظلمون أنفسهم بعدم المشاركة فى الجهاد وهذا ما يحدث لهم عندما تقبض الملائكة أرواحهم . و« التوفى » معناه « القبض » ؛ ويقال :« توفيت دَيْنِى » أى قبضته مستوفياً . ويقال:« توفى الله الإنسان » أى قبضه إليه مستوفياً والقبض له أمر أعلى ، وهو الحق . ومن بعد ذلك هناك موكل عام هو « عزرائيل » ملك الموت ، وهناك معاونون لعزرائيل وهم الملائكة . فإذا نسبت الوفاة فهى تنسب مرة لله ، فالله يتوفى . لأنه الأمر الأعلى . وتنسب الوفاة للملائكة فى قوله .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

وتنسب الوفاة إلى عزرائيل .

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾

(من الآية ١١ سورة السجدة)

وإذا ما أطلق الحق هذه الأساليب الثلاثة فى وصف عملية الوفاة فهل هذا اختلاف وتناقض وتضارب فى أساليب القرآن ؟ لا ، بل هو إيضاح لمراحل الولاية التى صنعها الله ، فهو الأمر الأعلى يصدر الأمر إلى عزرائيل ، وعزرائيل يطلق الأمر لجنوده . وفى حياتنا ما يشرح لنا هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ فالتلميذ قد يذهب إلى المدرسة بعد امتحان آخر العام ويعود إلى بيته قائلاً لقد وجدت نفسى راسباً ، والسبب فى ذلك هم المدرسون الذين قصدوا عدم إنجاحى .

ويرد عليه والده : المدرسون لم يفعلوا ذلك ، ولكن اللوائح التى وضعتها الوزارة لتصحيح لامتحانات هى التى جعلتك راسباً . فيرد التلميذ : لقد جعلنى الناظر راسباً وهذا قول صحيح ؛ لأن الناظر يطبق القوانين التى يحكم بمقتضاها على الطالب أن يكون ناجحا أو راسبا . وقد يقول التلميذ : إن وزير التربية والتعليم هو من جعلنى راسباً . وهذا أيضاً صحيح ؛ لأن الوزير يرسم مع معاونيه الخطوط الأساسية التى يتم حساب درجات كل تلميذ عليها ، وإذا قال التلميذ : لقد جعلنى الدولة راسباً ، فهو قول صحيح ؛ لأنه فهم تسلسل التقنين إلى مراحل العلو المختلفة ، وأى حلقة من هذه الحلقات تصلح أن تكون فاعلاً ومن هنا نفهم أن الحق سبحانه حين يقول :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الزمر)

فهذا قول صحيح ، مثل قوله سبحانه :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾

(من الآية ١١ سورة السجدة)

ومثل قوله سبحانه :

﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

كل هذه الأقوال صحيحة ، لأنها تتعلق بمدارج الأمر

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم » والظلم هو أن تأتى لغير ذى الحق وتعطيه ما تأخذ من ذى الحق ، والعلم يقتضى ظلماً ومظلوماً وأمرا وقع الظلم فيه . فكيف يكون الإنسان ظالماً لنفسه وتتوفاه الملائكة على ذلك ؟ . لابد أنهم فعلوا ما يستحق ذلك .فساعة تأتى للإنسان الشخصية المعنوية الإيمانية بعد أن آمن بالله وآمن بالمنهج ، ثم تحدثه نفسه بالمخالفة ، هنا يواجه صراعاً بين أمرين : مسئولية الشخصية الإيمانيه التى تقبل بها المنهج من الله ، ووازع النفس التى تلح عليه بالانحراف ويدور ما هو أشبه بالحوار بين المسئولية الإيمانية ووازع النفس الملح بالانحراف وعندما تتعلب النفس الإيمانية يعرف الإنسان أن نفسه صارت مطمئنة وسعيدة ، ويقول لنفسه . إنك إن طاوعت وازع الانحراف تكن قد حققت شهوة عاجلة ستكوى بها فى آخر الأمر ، وأنت برفضك للشهوة تكون قد أنصفت نفسك . ولو طاوعت شهوتك العاجلة تكون قد ظلمت نفسك .

ومثل ذلك يحدث فى حياتنا العادية . عندما تدلل الأم ابنها بينما يطلب منه والده الاستذكار ويحاول أن يردعه ليقوم بمسئوليته الدراسية ، إن هذه الأم تظلم ابنها ، وكذلك يعطينا الحق فكرة عن الصراع بين الشخصية الإيمانية والنفس الانحرافية التى تريد الهوى فقط فيقول :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة المائدة)

هنا يقول هابيل لقابيل :

ـ ولماذا تقتلنى ؟ . إنى لست أنا الذى تقبل القربان ولكن الذى تقبله هو الله فما ذنبى ؟ .

وبأتى بعد ذلك الحوار :

﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَٰسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ولنلتفت إلى هذا القول الحكيم :

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة المائدة)

كان هناك صراعاً فى نفس قابيل بين أمرين « اقتل » و« لا تقتل » ، النفس الإيمانية تقول : « لا تقتل » والنفس الشهوانية تقول : « بل عليك أن تقتل » .

وتغلبت النفس الشهوانية عندما طوعت له قتل أخيه ، ومهدت له ذلك وبعد أن قتل أخاه ، وضاعت ثمرة الغضب صار من النادمين ، ثم بدأت الحيثيات تظهر وتتضح . ويبعث الله غراباً يبحث ويحفر فى الأرض ليوارى جثة غراب آخر . هنا قال قابيل :

﴿ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي ﴾

(من الآية ٣١ سورة المائدة)

وهكذا نرى أن ظلم النفس هو أن تخالف ما شرع الله للنفس ليمنحها نعماً أبدياً مستوفياً ، ولكن النفس قد تندفع وراء حبها للشهوات وتميلها للنفع العاجل الذى لا خلود له ، وعندما يحقق الإنسان هذا النفع العاجل لنفسه فهو يظلم نفسه .

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم » إذن فالملائكة تسأل ظالمى أنفسهم . « فيم كنتم » أى فى أى شىء كنتم من أمر دينكم ؟ والاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع أى لماذا ظلمتم أنفسكم ؟ ولماذا لم تفعلوا مثلما فعل إخوانكم وهاجرتم وانضممتم لموكب الإيمان وموكب الجهاد ؟ . ، ولماذا ظللتم فى أماكنكم محجوزين ومحاصرين ولا تستطيعون الحركة ولا تستطيعون الهكاك ؟ وتكون إجابة

الذين ظلموا أنفسهم : « قالوا كنا مستضعفين فى الأرض » وبالله عندما يحكى لنا الله هذه الصورة التى تحدث يوم القيامة فهل سيكون عندنا وقت للاستفادة منها ؟. طبعاً لا ؛ لأنه لن يكون لنا قدرة الاستدراك لتصحيح الخطأ .

واخق حين يقص علينا هذا المشهد فذلك من لطفه بنا ، وتنبيه لكل منا : احذروا أن يأتى موقف ويحدث فيه ما أوضحته لكم ولن يستطيع أحد أن يستدرك الحياة ليصحح العمل الطيب . وعلى كل منكم أن يبحث أمر نفسه الآن .

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض » وكلمة « كنا مستضعفين فى الأرض » تفيد أن قوماً استضعفوهم ، أى أنهم لم يكونوا قادرين على الخروج والهجرة ولا يعرفون السبيل إليها ، وغلبوا على أموالهم وديارهم ، والقوم الذين استضعفوهم قالوا لهم : إن خرجتم لا تأخذوا شيئاً من أموالكم هذه هى بعض مظاهر الاستضعاف . وهنا تقول الملائكة ما يفيد أن هذا الكلام لا يليق ولا ينفع ، تقول الملائكة : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » .

وكأن هذا تنبيه آخر ، وإعلان أن مثل هذا القول ومثل تلك الحجة لا قيمة لها ؛ لأن الذى يمسكه مكانه وماله دون الله إنما هو من وضع وربط يقينه بالأسباب أما الذى يضع منهج الله فوق مكانه وولده وكل شىء فهذا هو الذى وثق بالله لأنه هو المسبب وهو مانح ومعطى الأسباب .

« ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » وهذا القول على لسان الملائكة قادم من القانون الأعلى ، فقد خلق الخلق الخلق جميعاً وأسكنهم فى الأرض ، وهذه الأرض ليست لأحد دون أحد ، فمن يضيق به مكان فليذهب إلى مكان آخر .

وإذا كان الإنسان من ظلمه وجبروته وعتوه قد صنع تحديدا للمكان ، فلا ينتقل إنسان من مكان إلى مكان إلا بعد سلسلة طويلة من التعقيدات التى تحول دون الانتقال من مكان إلى مكان . فذلك مناقضة لقضية الخلافة فى الأرض ؛ لأن الخلافة لم توزع كل جماعة على أرض ما ولكن الإنسان ، كل إنسان خليفة فى الأرض كل الأرض ، مصداقاً لقول الحق :

﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

فقد جعل الله الأرض متصعبة مسخرة مذللة للإنسان ، والأرض هي أي أرض ، والأنام هم كل الأنام . وإن لم ينتبه العالم إلى هذه القضية ويجعلها قضية كونية اجتماعية ، سيظل العالم في فساد وشقاء . فالذي يجعل الحياة في الأرض فاسدة هو خروج بعض الآراء التي تقول : إن الكثافة السكانية تمنع أن نجد الطعام لسكان بلد ما . يقولون ذلك في حين أن أرضاً أخرى تحتاج إلى أيد عاملة ، ولذلك نجد أن البشرية أمام وضع مقلوب ، فأرض في بلاد تحتاج إلى أناس ، وأناس في بلاد يحتاجون إلى الأرض .

ومن الواجب أن تسيح المسألة فتأخذ الأرض التي بلا رجال ما تحتاجه من الرجال من البلاد التي لا أرض فيها . وهذا الضحيح الذي يعلو في الكون سببه أنه يوجد في كون الله أرض بلا رجال ورجال بلا أرض ، فإذا ما ضاق مكان بإنسان فله أن يذهب إلى مكان آخر ، ولو كان الأمر كذلك لسعدت البشرية ، ومن ينقض هذه القضية فعليه أن يعرف أنه يأخذ الخلافة في الأرض بغير شروطها ، فالذي يفسد الأمر في الأرض أن الإنسان الخليفة في الأرض نسي أنه خليفة واعتبر نفسه أصيلاً في الكون . وما دام قد اعتبر نفسه أصيلاً في الكون فهذا هو الفساد .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾

(سورة النساء)

إذن ، فإن أقام الإنسان على ضيم ولم يعمل فكره وعقله ولم يطرح قضية الكون أمامه يرى الأرض التي تسعه فيهاجر فيها فعليه أن يعرف أنه مهدد بسوء المصير ؛ لأن الله قد جعل له الكون كله ليكون فيه خليفة ، أما الذين سوف ينجون من هذا العقاب ومن تعنيف الملائكة لهم ساعة الوفاة فهم مَن يقول عنهم الحق في الآية التالية :

﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ ﴾

وعلينا أن نعرف أن هناك فرقاً بين « مستضعف دعوى ومستضعف حقيقى » ، فهناك مستضعف قد قبل استضعاف غيره له وجعل من نفسه ضعيفاً. هذا هو « مستضعف دعوى »

أما « المستضعف الحقيقى » فهو من هؤلاء الذين يحددهم الحق .

« إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً » . هؤلاء هم المستضعفون فعلاً حسب طبيعة عجزهم من الرجال والنساء والولدان .

هل الولد من الولدان يكون مستضعفاً ؟ نعم ؛ لأن الاستضعاف إما أن يكون طارئاً وإما أن يكون ذاتياً ؛ فبعض من الرجال يكون مملوكاً لغيره ولا يقدر على التصرف أو الذهاب ، وكذلك النساء ؛ فالمرأة لا تستطيع أن تمشى وحدها وتحمى نفسها ، بل لا بد أن يوجد معها من يحميها من زوج أو محرم ما ، وكذلك الولدان ؛ لأنهم بطبيعتهم غير مكلفين وهم بذلك يخرجون عن نطاق التصنيف من الملائكة ؛ لأنهم لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً .

وهذه دقة فى الأداء القرآنى ، فالإنسان مكلف بالخروج عن ظلم غيره له ولو بالاحتيال ، والاحتيال هو إعمال الفكر إعمالاً يعطى للإنسان فرصة أكثر مما هو متاح له بالفعل . فقد تكون القوة ضعيفة ولكن بالاحتيال قد يوسع الإنسان من فرص القوة . ومثال ذلك : الإنسان حين يريد أن يحمل صخرة ، قد لا يستطيع ذلك بيديه ، لكنه أن يأتى بقضيب من الحديد ويصنع منه عتلة ويضع تحت العتلة عجلة ، ليدحرج الصخرة ، هذه هى حيلة من الحيل ، وكذلك السقالات التى نبنى عليها ، إنها حيلة .

والذى قام ببناء الحرم ، كيف وضع الحجر الأخير على القمة ؟ لقد فعل ذلك

بالحيلة ، والذى جلس لينحت مسلة من الجرانيت طولها يزيد على العشرة الأمتار ، ثم نقلها وأقامها إنّه فعل ذلك بالحيلة . فالحيلة هو فكر يعطى الإنسان قدرة فوق قدرته على المقدور عليه ، كذلك معرفة السبيل إلى الهجرة . وكانت معرفة الطرق إلى الهجرة من مكة إلى المدينة فى زمن رسول الله تحتاج إلى خبرة حتى يتجنب الواحد منهم المفارزات والمتاهات ، وحينما قام الرسول بالهجرة أحضر دليلاً للطريق ، وكان دليله كافراً ، فلا يتأتى السير فى مثل هذه الأرض بلا دليل .

ولننظر إلى قول الحق سبحانه :

﴿ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾

« فأولئك » إشارة إلى من جاء ذكرهم فى الآية السابقة لهذه الآية :

﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ ﴾

(سورة النساء)

ومع ذلك فإن الله حين أشار إلى هؤلاء المستضعفين بحق قال :

﴿ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ﴾

(من الآية ٩٩ سورة النساء)

وكان مقتضى الكلام أن يقول الحق : « فأولئك عفا الله عنهم » ، لكن الحق جاء بـ « عسى » ليحثهم على رجاء أن يعفو الله عنهم ، والرجاء من الممكن أن يحدث أو لا يحدث . ونعرف أن « عسى » للرجاء ، وأنها تستخدم حين يأتى بعدها أمر محبوب نحب أن يقع .

فقد ترجو شيئاً من غيرك وتقول : عساك أن تفعل كذا . وقد يقول الإنسان :

عساى أن أفعل كذا ، وهنا يكون القائل هو الذى يملك الفعل وهذا أقوى قليلاً ، ولكن الإنسان قد تخونه قوته ؛ لذلك فعليه أن يقول : عسى الله أن يفعل كذا ، وفى هذا اعتماد على مطلق القوة . وإذا كان الله هو الذى يقول : « عسى الله أن يعفو عنهم » ، فهذا إطماع من كريم قادر .

وبعد أن يذكر لنا القصة التى تحدث لكل من مات وتوفته الملائكة ظالماً نفسه بأن ظل فى أرض ومكث فيها ، وكان من الممكن أن يهاجر إلى أرض إيمانية إسلامية سواها ؛ ومع ذلك فالذى يضع فى نفسه شيئاً يريد أن يحقق به قضية إيمانية فهو معانٌ عليها لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾

فالذى يهاجر فى سبيل الله سيجد السعة إن كان قد وضع فى نفسه العملية الإيمانية . وفى البداية كان المسلمون يهاجرون إلى الحبشة ؛ لأنهم لم يكونوا آمنين فى مكة على دينهم .

ولذلك قيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بسط الله له كونه واستعرض قضية العدالة فى الكون ، فلم يقبل النبى إلا أن يذهب المهاجرون إلى الحبشة . ولا بد أن الحق قد أعلمه أن الحبشة فى ذلك الزمان هى أرض بلا فتنة .

وقد يقول قائل : ولماذا لم يختر النبى أن يهاجر المهاجرون الأوائل إلى قبيلة عربية فى الجنوب أو فى الشمال ؟

لقد كانت لقريش السيادة على كل الجزيرة العربية بقبائلها ، فكل القبائل تحج عند قريش ولم تكن هناك أى بيئة عربية قادرة على أن تقف أمام هوى قريش . ولذلك استعرض سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم البلاد جميعاً إلى أن أمرهم بالهجرة إلى الحبشة ، والعلة فى الذهاب إلى الحبشة أن هناك ملكاً لا يظلم عنده أحد . وكان العدل فى ذاته وساماً لذلك الملك وسماها المؤمنون دار أمن ، وإن لم تكن دار إيمان . وأما الهجرة إلى المدينة فقد كانت إلى دار إيمان . وعلينا أن نعرف نحن الذين نعيش فى هذا الزمان أنه لا هجرة بعد الفتح ، إلا إن كانت هجرة يقصد بها صاحبها المعونة على طاعة الله . وهو ما يوضحه قوله صلى الله عليه وسلم : (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه)[1] .

وهناك هجرة باقية لنا وهى الحج ، أو الهجرة إلى طلب العلم ، أو الهجرة لأن هناك مجالاً للطاعة أكثر ، فلنفترض أن هناك مكاناً يضيق الحكام فيه على الذهاب إلى المسجد ، فيترك أهل الإيمان هذا المكان إلى مكان فيه مجال يأخذ فيه الإنسان حرية أداء الفروض الدينية ، كل هذه هجرات إلى الله . والنية فى هذه الهجرات لا يمكن أن تكون محصورة فقط فى طلب سعة العيش . ولذلك لا يصح أن يكون الشغل الشاغل للناس ما يشغلهم فى هذا الزمان هو سعة العيش .

وها هو ذا الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ يقول : عجبت للقوم يَسْعَوْنَ فيما ضُمِن ـ بالبناء للمفعول ـ لهم ويتركون ما طلب منهم . فكل سعى الناس إنما هو للرزق والعيش وهو أمر مضمون لهم من خالقهم جل وعلا :

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

ولن يجد المهاجر إلا السعة من الله ، والشاعر يقول :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق

---

(١) رواه البخارى وأبو داود والنسائى عن ابن عمرو .

وقد يقول الإنسان : إنني أطلب سعة الرزق بالهجرة ، ونقول : أنت تبحث عن وظيفة لها شكل العمل وباطنها هو الكسل لأنك في مجال حياتك تجد أعمالاً كثيرة .

ونجد بعضاً ممن يطلبون سعة الرزق يريد الواحد منهم أن يجلس على مكتب ويقبض مرتباً ، بينما يبحث المجتمع عن العامل الفني بصعوبة ، كأن الذين يبحثون عن سعة الرزق يريدون هذه السعة مع الكسل ، لا مع بذل الجهد .

« ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً » وساعة تقرأ كلمة « مراغم » تعرف أنها تفتح المجال أمام المستضعفين الذين يستذلهم الجبارون . ومادة « مراغم » هي « الراء والغين والميم » والأصل فيها « الرَّغام » أي « التراب » . ويقال : سوف أفعل كذا وأنف فلان راغم ، أي أنف فلان يذهب إلى التراب وسأفعل ما أنا مصمم عليه . ومادام هناك إنسان سيفعل شيئاً برغم أنف إنسان آخر ، فمعناه أن الثاني كان يريد أن يستذله وأراد أن يرغمه على شيء ، لكنه رفض وفعل ما يريد .

وعندما يرى الإنسان جباراً يشمخ بأنفه ويتكبر ، فهو يحاول أن يعانده ويصنع غير ما يريد ويجعل مكانة هذا الأنف في التراب ، ويقال في المثل الشعبي : أريد أن أكسر أنف فلان .

وعندما يهاجر من كان مستضعفا ويعاني من الذلة في بلده ، سيجد أرضاً يعثر فيها على ما يرغم أنف عدوه . فيقول العدو : برغم أنني ضيقت عليه راح إلى أحسن مما كنت أتوقع . ويرغم الإنسان بهجرته أنف الجبارين .

وكلمة « مراغم » هي اسم مفعول ، وتعني مكاناً إذا ما وصلت إليه ترغم أنف خصمك الذي كان يستضعفك ، فهل هناك أفضل من هذا ؟

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .